

المسألة الأولى في التفسير
الشيخ ناصر بن كرام الدين الباقلي

مختصر

الأمم

في

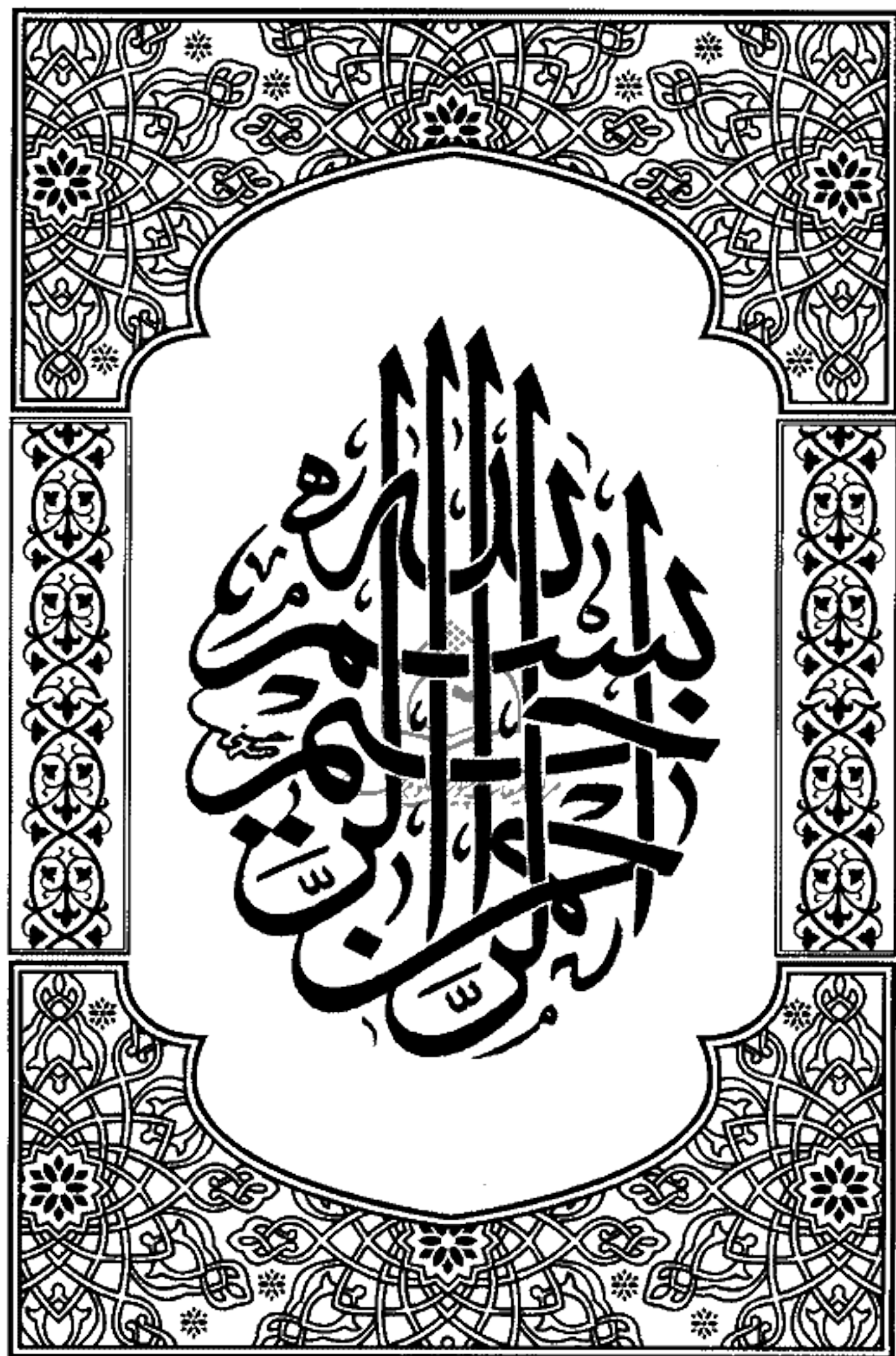
تفسير كتاب الله المنزلي

الجزء الثاني

افتخره: أحمد علي باباتي

الأنعام - العنكب

دار النشر: دار الفکر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان





مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

مختصر

الأمثلة

في

تفسير كتاب الله المنزّل

الجزء الثاني

الأعلام

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصح كاشغري

إعداد: أحمد علي بابلي

فهرست نویسی پیش از انتشار: توسط مدرسة الامام على بن ابى طالب عليه السلام.

مكارم شيرازى، ناصر، ۱۳۰۵ -

مختصر الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل / مكارم الشيرازى؛ اعداد احمد على بابانى. قم: مدرسة الامام على بن ابى طالب عليه السلام، ۱۴۲۸ ق. : ۱۳۸۶ .

ISBN: 964-533-53-X (دوره)

ISBN: 964-533-049-1 (ج. ۲)

کتاب حاضر برگزیده «الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل» که خود نیز ترجمه و تلخیص «تفسير نمونه» مؤلف است، مى باشد کتابنامه به صورت زیر نویس.

۱. تفاسیر شيعه - - قرن ۱۴. الف. على بابانى، احمد، ۱۳۴۴ - ، گردآورنده. ب. مدرسة الامام على بن ابى طالب عليه السلام. ج. عنوان: الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل. برگزیده. ه. عنوان: تفسير نمونه. برگزیده

۲۹۷/۱۷۹

BP۹۸ / م ۷ / ۷۰۴۴۷ ت

الناشر الأفضل لعام ۲۰۰۵ - ۲۰۰۶ م

مختصر الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل

الجزء الثاني

المؤلف: العلامة الفقيه الشيخ ناصر مكارم الشيرازى

اعداد: احمد على بابانى

الكمية: ۲۰۰۰ نسخة

الطبعة: الاولى

تاريخ النشر: ۱۴۲۸ ق

عدد الصفحات: ۵۷۲ صفحة

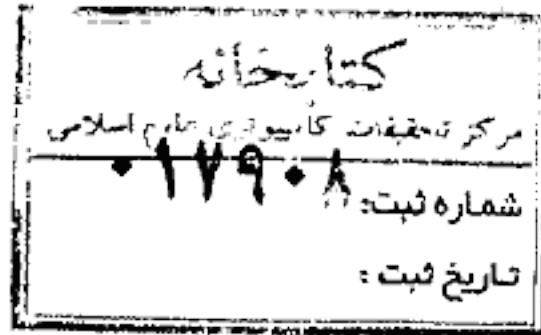
حجم الغلاف: كبير

المطبعة: سليمانزاده

الناشر: مدرسة الإمام على بن أبى طالب عليه السلام

ردمك: ۹۶۴-۵۳۳-۰۴۹-۱

ردمك الدورة: ۹۶۴-۵۳۳-۵۳-X



ايران - قم - شارع شهدا - فرع ۲۲

تلفكس: ۷۷۳۲۴۷۸-۲۵۱-۹۸++

www.amiralmomeninpub.com

سعر الدورة: ۲۰/۰۰۰ تومان



حرب على الشرك والوثنية: قيل أن سورة الأنعام مكية، وهي السورة التاسعة والستون في تسلسل نزول السور القرآنية. هدف هذه السورة الرئيسي - مثل أهداف السور المكية - تأكيد الأصول الثلاثة: «التوحيد» و«النبوة» و«المعاد» ولكنها تؤكد أكثر ما تؤكد قضية عبادة الله الواحد ومحاربة الشرك والوثنية، بحيث إن معظم آيات هذه السورة يخاطب المشركين وعبدة الأصنام، وبهذا يتناول البحث في أكثر المواضع، أعمال المشركين وبدعهم. ولعلّ هذا أيضاً هو السبب لما تقرؤه من روايات عن فضل هذه السورة، وإتها عند نزولها رافقها سبعون ألف ملك، وأن من يقرأها وترتوي روحه من ينبوع التوحيد يستغفر له كل أولئك الملائكة.

إنّ التمعّن في آيات هذه السورة يقضي على روح النفاق والتشتت بين المسلمين، ويجعل الأذان سميعة، والأعين بصيرة، والقلوب عارفة.

ولكن العجيب أن نرى بعضهم يكتفي من هذه السورة بقراءة ألفاظها فقط، ويعتقد الجلسات لتلاوة آياتها من أجل حلّ المشاكل الشخصية، فلو اهتمت هذه الجلسات بمحتوى السورة، فلا تنحلّ المشاكل الخاصّة وحدها، بل تنحلّ جميع مشاكل المسلمين العامة أيضاً، ومن المؤسف جداً أن جمعاً من الناس يعتبرون القرآن مجموعة من (الأوراد)

ثانياً: إنَّ الله هو وحده مصدر كل رحمة، وهو الذي أوجب على نفسه الرحمة، ويفيض بنعمه على الجميع: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾.

هذه الرحمة نفسها توجب أن يرتدي الإنسان - الذي عنده إمكانية الخلود - لباس حياة جديدة بعد موته في عالم أوسع، تدفعه يد الرحمة في سيره التكاملي الأبدي، لذلك يقول بعد هاتين المقدمتين: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْهَيْعَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

في نهاية الآية إشارة إلى مصير المشركين المعاندين وعاقبتهم، فهؤلاء الذين أضاعوا رأس مال وجودهم في سوق تجارة الحياة، لا يؤمنون بهذه الحقائق: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

الآية السابقة تشير إلى أن الله مالك كل شيء يستوعبه ظرف «المكان» أما هذه الآية فتشير إلى ملكية الله لما يستوعبه ظرف «الزمان» الواسع وتقول: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾.

وفي نهاية الآية وبعد ذكر التوحيد، تشير الآية إلى صفتين بارزتين في الله فتقول: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. أي أن إتساع عالم الوجود، والكائنات في آفاق الزمان والمكان لا تحول أبداً دون أن يكون الله عليماً بأسرارها.

قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ وَليًا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾

الهدف من نزول هذه الآيات هو إثبات التوحيد ومحاربة الشرك وعبادة الأصنام فالمشركون، وإن اعتقدوا أن الله هو خالق العالم، كانوا يتخذون من الأصنام ملجأ لأنفسهم، ولربما اتخذوا صنماً لكل حاجة معينة، فلهم إله للمطر، وإله للظلام، وإله للحرب والسلام، وإله للرزق، وهذا هو تعدد الأرباب الذي ساد اليونان القديم.

ولكي يزيل القرآن هذا التفكير الخاطيء، يأمر رسول الله ﷺ أن ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ وَليًا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾.

هذه الآية تقتصر على توكيد إتصاف الله بالطعام مخلوقاته ورزقهم، ولعل ذلك إشارة إلى أن أقوى حاجات الإنسان في حياته المادية هي حاجته إلى «لقمة العيش» كما يقال، وهذه اللقمة هي التي تحمل الناس على الخضوع لأصحاب المال والقوة، وقد يصل خضوعهم لأولئك حد العبودية، ففي هذا يقرر القرآن أن رزق الناس بيد الله لا بيد هؤلاء ولا بيد الأصنام، فأصحاب المال والقوة هم أنفسهم محتاجون إلى الطعام، وأن الله هو وحده الذي يطعم الناس ولا يحتاج إلى طعام.

ثم للرد على أولئك المشركين الذين كانوا يدعون رسول الله إلى الانضمام إليهم، يؤكد القرآن على ضرورة رفض دعوة هؤلاء إنطلاقاً من مبدأ نهى الوحي الإلهي عن ذلك، إضافة إلى نهى العقل: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. الآية التالية فيها توكيد أشد لهذا النهي الإلهي عن إتباع المشركين: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. أي يأمر الله رسوله أن يقول بأنه ليس مستثنى من القوانين الإلهية، وأنه يخاف - إن ركن إلى المشركين - عذاب يوم القيامة.

ولكي يتضح أن النبي ﷺ لا يستطيع شيئاً بغير الاستناد إلى لطف الله ورحمته، فكل شيء بيد الله وبأمره، وحتى رسول الله ﷺ نفسه يترقب بعين الرجاء رحمة الله الواسعة، ومنه يطلب النجاة والفوز: ﴿مَنْ يُضِرْ غَنَةً يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾.

وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾

قدرة الله القاهرة: قلنا إن هدف هذه السورة هو استتصال جذور الشرك وعبادة الأصنام، وهاتان الآيتان تواصلان تحقيق ذلك. فالقرآن يتساءل أولاً: لماذا تتوجهون إلى غير الله، وتلجأون إلى معبودات تصطنعونها لحل مشاكلكم ودفع الضر عن أنفسكم واستجلاب الخير لها؟ بينما لو أصابك أدنى ضرر فلا يرفعه عنك غير الله، وإذا أصابك الخير والبركة والفوز والسعادة فما ذلك إلا بقدرة الله، لأنه هو القادر القوي: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^١.

١. «الضر»: هو كل نقيصة يتعرض لها الإنسان إما في الجسم مثل نقص عضو والمرض، وإما في النفس مثل الجهل والسفاهة والجنون، وإما في أمور أخرى مثل ذهاب المال أو المقام أو الأبناء.

في الواقع إنَّ سبب الإِتجاه إلى غير الله إِمَّا لتصوّرهم أنّ ما يتّجهون إليه مصدر الخيرات، وإِمَّا لإعتقادهم بقدرته وأنّه يدراً عنهم المصائب ويحلّ لهم مشاكلهم.

وفي الآية التي تليها إكمال للبحث، فيقول: ﴿وَهُوَ أَقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾.

ولإزالة كل وهم قد يخطر لأحددهم بأنّ الله قد يسيء استعمال قدرته غير المتناهية كما هو الحال في ذوي القدرة من البشر، يقول القرآن: ﴿وَهُوَ أَلْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾. أي أنّه صاحب حكمة وكل أعماله محسوبة لأنّه خبير وعالم ولا يخطيء في استعمال قدرته أبداً.

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَبَيْتَكُمْ لَنَشْهَدُنَّ أَنْتَ مَعَ اللَّهِ ۚ إِلَهًا آخَرَ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَالَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

أعظم الشاهدين: يذكر جمع من المفسرين أنّ عدداً من مشركي مكة جاءوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا: كيف تكون نبياً ولا نرى أحداً يؤيدك؟ وحتى اليهود والنصارى الذين سألناهم، لم يشهدوا بصحة أقوالك بحسب ما عندهم في التوراة والإنجيل، فهات من يشهد لك على رسالتك، والآيتان المذكورتان تشيران إلى هذه الواقعة. في مواجهة هؤلاء المخالفين المعاندين الذين يغمضون أعينهم عن رؤية كل تلك الدلائل على صدق الرسالة، ويطلبون مزيداً من الشواهد، يؤمر النبي ﷺ أن: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾. أهنالك شهادة أعظم من شهادة ربّ العالمين: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾. وهل هناك دليل أكبر من هذا القرآن: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾.

هذا القرآن الذي لا يمكن أن يكون وليد فكر بشري، خاصة في تلك الظروف الزمانية والمكانية، هذا القرآن الذي يضمّ مختلف الشواهد على إعجازه، فألفاظه معجزة، ومعانيه معجزة، أليس هذا الشاهد الكبير وحده كاف لأن يكون تصديقاً إلهياً للدعوة؟ يستفاد من هذه العبارة أيضاً أنّ القرآن أعظم معجزة وأكبر شاهد على صدق دعوة رسول الله ﷺ.

ثم يشير إلى هدف نزول القرآن ويقول: ﴿لِنُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾. أي إنّ القرآن قد نزل عليّ لكي أنذركم، وأنذر جميع الذين يصل إليهم - عبر تاريخ البشر، وعلى إمتداد الزمان

وفي أرجاء العالم كافة - كلامي، وأحذّره من عواقب عصيانهم.

ثم أمر الله رسوله أن يسألهم: ﴿أَتَيْنَكُم تَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى﴾ ويأمره أن: ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

أما الذين قالوا: إن أهل الكتاب لم يشهدوا لنبي الإسلام ﷺ فإن الآية التي بعدها تردّ عليهم وتقول: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ﴾. أي إن معرفتهم به لا تقتصر على مبدأ ظهوره ودعوته فحسب، بل إنهم يعرفون حتى التفاصيل والخصائص وعلاماته الدقيقة أيضاً.

والآية تعلن في آخر مقاطعها النتيجة النهائية: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. أي إن الذين لا يؤمنون بالنبي - مع كل ما تحيطه من دلائل وعلامات واضحة - هم فقط أولئك الذين خسروا كل شيء في تجارة الحياة.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَاكُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتِنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَيَّ أَنفُسِهِمْ^٤ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

أشدّ الظلم: تواصل هذه الآيات المنهج القرآني في مقارعة الشرك وعبادة الأصنام بشكل شامل. تقول الآية الأولى بصراحة وبصورة استفهام إستنكاري: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾.

الجملة الأولى إشارة إلى إنكار التوحيد والثانية إشارة إلى إنكار النبوة حقاً لا ظلم أكبر من أن يتخذ المرء قطعة جماد لا قيمة لها، أو إنساناً ضعيفاً مثله شريكاً لرب لا تحده حدود وله الحكم على كل عالم الوجود.

فلا شك إذن في أن أيّ ظالم - وعلى الأخص أولئك الذين لظلمهم جوانب متعددة - لا يمكن أن يرى السعادة والفلاح: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

الآية التالية تشير إلى مصير المشركين يوم القيامة مبيّنة أنهم باعتمادهم على مخلوقات ضعيفة كالأصنام، لا هم حققوا لأنفسهم الراحة في هذا العالم، ولا هم ضمنوا ذلك في الحياة

الآخرة، فتقول الآية: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾. أين هم؛ لماذا لا يأتون اليوم لإيقادكم؟ لماذا لا يظهرون أيّ حول ولا يبدون أيّة قوة؟

فيستولي على هؤلاء الرعب والخوف ويبهتون ولا يحIRON جواباً، سوى أن يقسموا بالله إنهم لم يكونوا مشركين، ظناً منهم أنهم هناك أيضاً قادرين على إخفاء الحقائق: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

الآية الثالثة ومن أجل أن يعتبر الناس بمصير هؤلاء الأفراد تقول: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾.

وتنهار المساند التي إختاروا الاستناد عليها وجعلوها شريكة لله، وخابوا في مسعاهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُخَدِّلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْعُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

في هذه الآية إشارة إلى الوضع النفسي لبعض المشركين، فهم لا يبدون أيّة مرونة تجاه سماع الحقائق، بل أكثر من ذلك، يناصرونها العدا، ويقذفونها بالتهم، فيبعدون أنفسهم وغيرهم عنها عن هؤلاء. تقول الآية: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾^١.

إنّ نسبة هذه الأمور إلى الله، إنّما هي إشارة إلى قانون «العلة والمعلول» وخاصية «العمل»، أي إنّ أثر الاستمرار في الانحراف والإصرار على المعاندة والتشاؤم يظهر في إتصاف نفس الإنسان بهذه المؤثرات، لقد أثبتت التجربة أنّ المنحرفين والمذنبين يحسّون أوّل الأمر بعدم الرضا عن حالهم، ولكنهم يعتادون ذلك بالتدرّج، وقد يصل بهم الأمر إلى اعتبار أعماهم القبيحة لازمة وضرورية.

١. «أكِنَّة»: جمع «كنان» وهو كل ستار أو حاجز؛ و«الوقر»: بمعنى ثقل السمع.

وهؤلاء وصلوا حداً تصفه الآية فتقول: ﴿وَإِنْ يَزُوا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ بل الأكثر من ذلك أنهم عندما يأتون إليك، لا يفتحون نوافذ قلوبهم أمام ما تقول، ولا يأتون - على الأقل - بهيئة الباحث عن الحق الذي يسعى للعثور على الحقيقة والتفكير فيها، بل يأتون بروح وفكر سلبين، ولا هدف لهم سوى الجدل والإعتراض: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾. أنهم عند سماعهم كلامك الذي يستق من يناييع الوحي ويجري على لسانك الناطق بالحق، يبادرون إلى إتهامك بأن ما تقوله إنما هو خرافات اصطنعها أناس غابرون: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

الآية التالية تذكر أن هؤلاء لا يكتفون بهذا، فهم مع ضلالتهم يسعون جاهدين للحيلولة دون سلوك الباحثين عن الحقيقة بما يشيعونه ويروجونه من مختلف الأكاذيب، ويمنعونهم أن يقتربوا من رسول الله ﷺ: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ويتعدون عنه بأنفسهم: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾. دون أن يدركوا أن من يصارع الحق يكن صريعه، وأخيراً، وبحسب قانون الخلق الثابت، يظهر وجه الحق من وراء السحب، وينتصر بما له من قوة، ويتلاشى الباطل كما يتلاشى الزبد الطافي على سطح الماء، وعليه فإن مساعيتهم سوف تتحطم على صخرة الإخفاق والخيبة وما يهلكون غير أنفسهم، ولكنهم لا يدركون الحقيقة: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا أَيْلَيْنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾
بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يَخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾

في هاتين الآيتين إشارة إلى بعض مواقف عناد المشركين وفيها يتجسد مشهد من مشاهد نتائج أعمالهم لكي يدركوا المصير المشؤوم الذي ينتظرهم فيستيقظون، أو تكون حالهم - على الأقل - عبرة لغيرهم، فتقول الآية: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ لتبين لك مصيرهم السيء المؤلم.

إنهم في تلك الحال على درجة من الهلع بحيث إنهم يصرخون: ليتنا نرجع إلى الدنيا لنعوّض عن أعمالنا القبيحة، ونعمل للنجاة من هذا المصير المشؤوم، ونصدّق آيات ربنا،

وتقف إلى جاب المؤمنين: ﴿ قَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .
 الآية التالية تؤكد أن ذلك ليس أكثر من تمن كاذب، وإنما تمنوه لأنهم رأوا في ذلك العالم كل ما كانوا يخفونه - من عقائد ونيات وأعمال سيئة - مكشوفاً أمامهم، فاستيقظوا يقظة مؤقتة عابرة: ﴿ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ﴾ .

غير أن هذه اليقظة ليست قائمة ثابتة، بل إنها قد حصلت لظروف طارئة، ولذلك فحتى لو افترضنا المستحيل وعادوا إلى هذه الدنيا مرة أخرى لفعلوا ما كانوا يفعلونه من قبل وما نهوا عنه: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ لذلك فهم ليسوا صادقين في تمنياتهم ومزاعمهم ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ
 قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾
 قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى
 مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَسَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ
 الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ وَلِلدَّارِ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

هذه الآية إستئناف لأقوال المشركين المعاندين المتصلبين الذين يتمنون - عندما يشاهدون أهوال يوم القيامة - أن يعودوا إلى دار الدنيا ليتلافوا ما فاتهم، ولكن القرآن يقول إنهم إذا رجعوا لا يتجهون إلى جبران ما فاتهم، بل يستمرون على ما كانوا عليه، وأكثر من ذلك فإنهم يعودون إلى إنكار يوم القيامة ﴿ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ .

الآية التالية تشير إلى مصيرهم يوم القيامة، يوم يقفون بين يدي الله: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ﴾ . فيكون جوابهم أنهم يقسمون بأنه الحق: ﴿ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا ﴾ .

عندئذ: ﴿ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ . لا شك أن «الوقوف بين يدي الله» لا يعني إن الله مكاناً، بل يعني الوقوف في ميدان الحساب للجزاء، كما يقول بعض المفسرين، أو أنه من باب المجاز، مثل قول الإنسان عند أداء الصلاة أنه يقف بين يدي الله وفي حضرته. الآية التي بعدها، فيها إشارة إلى خسران الذين ينكرون المعاد، فتقول: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ

كَلْبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ﴿٣٢﴾

إنَّ المقصود بلقاء الله هو - كما قلنا من قبل - اللقاء المعنوي والإيمان الشهودي (الشهود الباطني)، أو هو لقاء مشاهد يوم القيامة والحساب والجزاء.

ثم تبين الآية أنَّ هذا الإنكار لن يدوم، بل سيستمر حتى قيام يوم القيامة، حين يرون أنفسهم فجأة أمام مشاهدته الرهيبة، ويشهدون بأعينهم نتائج أعمالهم، عندئذ ترتفع أصواتهم بالندم على ما قصَّروا في حق هذا اليوم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾. «الساعة»: هي يوم القيامة؛ و«بغتة»: تعني فجأة وعلى حين غرّه، إذ تقوم القيامة دون أن يعلم بموعدها أحد سوى الله تعالى.

ثم يقول القرآن الكريم: ﴿وَهُمْ يَخْمَلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾.

«الأوزار»: جمع «وزر» وهو الحمل الثقيل، وتعني الأوزار هنا الذنوب، ويمكن أن تتخذ هذه الآية دليلاً على تجسّد الأعمال، لأنها تقول إنهم يحملون ذنوبهم على ظهورهم. وفي آخر الآية يقول الله تعالى: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

ثم لبيان نسبة الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾. فهؤلاء الذين اكتفوا بهذه الحياة، ولا يطلبون غيرها، هم أشبه بالأطفال الذين يودون أن لو يقضوا العمر كله في اللعب واللهو غافلين عن كل شيء.

إنَّ تشبيه الحياة الدنيا باللهو واللعب يستند إلى كون اللهو واللعب من الممارسات الفارغة السطحية التي لا ترتبط بأصل الحياة الحقيقية، سواء فاز اللاعب أم خسر، إذ كل شيء يعود إلى حالته الطبيعية بعد اللعب.

ثم تقارن الآية حياة العالم الآخر بهذه الدنيا، فتقول: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. فتلك حياة خالدة لا تفتنى في عالم أوسع وعلى مستوى أرفع، عالم يتعامل مع الحقيقة لا المجاز ومع الواقع لا الخيال.

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزَنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأُودُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾

المصلحون يواجهون الصعاب دائماً؛ لا شك أن رسول الله ﷺ في نقاشاته المنطقية ومحاوراته الفكرية مع المشركين المعاندين المتصلبين، كان يواجه منهم المعاندة واللجاجة

والتصلب والتعنّت، بل كانوا يرشقونه بتهمهم، ولذلك كله كان النبي ﷺ يشعر بالغم والحزن، والله تعالى في مواضع كثيرة من القرآن يواسي النبي ﷺ ويصبره على ذلك، لكي يواصل مسيرته بقلب أقوى وجأش أربط، كما جاء في هذه الآية: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾. فاعلم أنهم لا ينكرونك أنت، بل هم ينكرون آيات الله، ولا يكذبونك بل يكذبون الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْتُوبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

ومثل هذا القول شائع بيننا، فقد يرى «رئيس» أن «مبعوثه» إلى بعض الناس عاد غاضباً، فيقول له: «هون عليك، فإن ما قالوه لك إنما كان موجهاً إليّ، وإذا حصلت مشكلة فأنا المقصود بها، لا أنت» وبهذا يسعى إلى مواساة صاحبه والتهوين عليه.

الآية الثانية تستأنف مواساة الرسول ﷺ وتبين له حال من سبقه من الأنبياء، وتؤكد له أن هذا ليس مقتصراً عليه وحده، فالأنبياء قبله نالهم من قومهم مثل ذلك أيضاً: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾.

ولكنهم صبروا وتحملوا حتى انتصروا بعون الله: ﴿فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُودُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ وهذه سنة إلهية لا قدرة لأحد على تغييرها: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾. وعليه، فلا تجزع ولا تبتئس إذا ما كذبتك قومك وأذوك، بل اصبر على معاندة الأعداء وتحمل أذاهم، واعلم أن الإمدادات والألطف الإلهية ستزل بساحتك بموجب هذه السنة، فتنتصر في النهاية عليهم جميعاً، وإن ما وصلك من أخبار الأنبياء السابقين عن مواجهتهم الشدائد والمصاعب وعن ثباتهم وصبرهم وانتصارهم في النهاية، فهو شهادة بيّنة لك: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ﴾.

تشير هذه الآية إلى مبدأ عام هو أن قادة المجتمع الصالحين الذين يسعون لهداية الشعوب عن طريق الدعوة إلى مبادئ وتعاليم بناءة، وبمحاربة الأفكار المنحطّة والخرافات السائدة والقوانين المغلوطة في المجتمع، يواجهون معارضة شديدة من جانب فريق الإنتهازيين الذين يرون في انتشار تلك التعاليم والمبادئ البناءة خطراً يهدد مصالحهم، فلا يتركون وسيلة إلا استخدموها لترويج أهدافهم المشؤومة، وبكل ما يخطر لهم من سلاح لمحاربة أولئك المصلحين.

إلا أن الحقيقة، بما فيها من قوة الجاذبية والعمق، وبموجب السنة الإلهية، تعمل عملها إلا أن شرط هذا الانتصار هو الصبر والمقاومة والثبات.

وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ أُسْتَطْعَتَ أَنْ تَبْنِيَنَّ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِثَايَةٍ^{٣٥} وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾

الأموات المتحركون: هاتان الآيتان استمرار لمواساة النبي ﷺ التي بدأت في الآيات السابقة لقد كان رسول الله ﷺ يشعر بالحزن العميق لضلال المشركين وعنادهم، وكان يود لو أنه استطاع أن يهديهم جميعاً إلى طريق الإيمان بآية وسيلة كانت. فيقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ أُسْتَطْعَتَ أَنْ تَبْنِيَنَّ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِثَايَةٍ﴾. أي إذا كان إعراض هؤلاء المشركين يصعب ويثقل عليك، فشق أعماق الأرض أو ضع سلماً يوصلك إلى السماء للبحث عن آية - إن استطعت - ولكن اعلم أنهم مع ذلك لن يؤمنوا بك.

في هذه الآية يخبر الله نبيه بأن ليس في تعلياتك ودعوتك وسعيك أي نقص، بل النقص فيهم لأنهم هم الذين رفضوا قبول الحق، لذلك فإن أي مسعى من جانبك لن يكون له أثر فلا تقلق.

ولكن لكيلا يظن أحد أن الله غير قادر على حملهم على التسليم يقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾. أي لو أراد حملهم على الإسلام والرضوخ لدعوتك والإيمان بالله لكان على ذلك قديراً.

غير أن الإيمان الإجباري لا طائل تحته، إن خلق البشر للتكامل مبني على أساس حرية الاختيار والإرادة، ففي حالة حرية الاختيار وحدها يمكن تمييز «المؤمن» من «الكافر» و«الصالح» من «غير الصالح» و«الصادق» من «الكاذب».

ثم يقول سبحانه لنبيه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾. أي لقد قلت هذا لثلاث تكون من الجاهلين، أي لا تفقد صبرك ولا تجزع، ولا يأخذك القلق بسبب كفرهم وشركهم. وما من شك أن النبي ﷺ كان يعلم هذه الحقائق ولكن الله ذكرها له من باب التطمين وتهذئة الروع.

في الآية التي تليها استكمال لما سبق ومزيد من المواساة للرسول الكريم ﷺ فتقول الآية: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾.

أما الذين هم في الواقع أشبه بالأموات فإنهم لا يؤمنون حتى يبعثهم الله يوم القيامة: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

يومئذ، وبعد أن يروا مشاهد يوم القيامة يؤمنون، إلا أن إيمانهم ذاك لا ينفعهم شيئاً.

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنْ أَلَّ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

تشير هذه الآية إلى واحد من الأعذار التي يتذرع بها المشركون، فقد جاء في بعض الروايات أنه عندما عجز بعض رؤساء قريش عن معارضة القرآن ومقابلته، قالوا لرسول الله ﷺ: كل هذا الذي تقوله لا فائدة فيه، إذا كنت صادقاً فيما تقول، فأتنا بمعجزات كعصا موسى وناقة صالح، يقول القرآن بهذا الشأن: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾.

من الواضح أن أولئك لم يكونوا جادّين في بحثهم عن الحقيقة، لأن الرسول ﷺ كان قد جاء لهم من المعاجز بما يكفي، لذلك يأمر الله رسوله أن: ﴿قُلْ إِنْ أَلَّ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً﴾. إلا أن في ذلك أمراً أنتم عنه غافلون، وهو أنه إذا حقق الله مطالبكم التي يدفعكم إليها عنادكم، ثم بقيتم على عنادكم ولم تؤمنوا بعد مشاهدتكم للمعاجز، فسوف يقع عقاب الله عليكم جميعاً، وتفنون عن آخركم، لأن ذلك سيكون منتهى الاستهتار بمقام الألوهية المقدس وببعوثه وآياته ومعجزاته، ولهذا تنتهي الآية بالقول: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ وَنُفِّرُ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾

هذه الآية تستأنف ما جاء في الآيات السابقة من الكلام مع المشركين وتحذيرهم من مصيرهم يوم القيامة، فتتحدث عن «الحشر» وبعث عام يشمل جميع الكائنات الحيّة والحيوانات، فتقول أولاً: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾.

يتضح من هذا أن فصائل الحيوان والطيور أمم مثل البشر. أي إن للحيوان والطيور - أيضاً - إدراكه ومشاعره في عالمه الخاص، ويعرف الله ويسبح له ويقدّسه بحسب طاقته، وإن تكن قوة إدراكه أدنى مما في الإنسان.

«الدابة»: من «دبّ» والديبب المشي الخفيف، ويستعمل ذلك في الحيوان والحشرات أكثر. «الطائر» كل ذي جناح يسبح في الهواء وقد يوصف بها بعض الأمور المعنوية التي تتقدّم بسرعة واندفاع، والآية تقصد الطائر الذي يطير بجناحيه.

«أمم»: جمع أمة، وهي كل جماعة يجمعهم أمر ما، كالدين الواحد أو الزمان الواحد أو المكان الواحد. «يحشرون»: من «حشر» بمعنى «الجمع» والمعنى الوارد في القرآن يقصد به يوم القيامة، ولا سيما أنه يقول: ﴿إِنِّي رَبِّهِمْ﴾.

ثم تقول الآية: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾. لعل المقصود «بالكتاب» هو القرآن الذي يضم كل شيء، أو المقصود بالكتاب هو «عالم الوجود» إذ أن عالم الخليفة مثل الكتاب الضخم، يضم كل شيء ولا ينسى شيئاً.

وتختم الآية بالقول: ﴿ثُمَّ إِنِّي رَبِّهِمْ يُحْشِرُونَ﴾. من هنا تنذر الآية المشركين وتقول لهم: إن الله الذي خلق جميع الحيوانات ووقر لها ما تحتاجه، ورعى كل أفعالها، وجعل لها حشراً ونشوراً، قد أوجد لكم دون شك بعثاً وقيامه وليس الأمر كما تقول تلك الفئة من المشركين من أنه ليس ثمة شيء سوى الحياة الدنيا والممات.

هل هناك بعث للحيوانات؟ ما من شك أن الشرط الأول للمحاسبة والجزاء هو «العقل والإدراك» ويستتبعها «التكليف والمسؤولية». يقول أصحاب هذا الرأي: إن حياة كثير من الحيوانات تجري وفق نظام دقيق ومثير للعجب، ويدل على إرتفاع مستوى إدراكها وفهمها، فمن ذا الذي لم يسمع بالنمل والنحل وتمدنها العجيب ونظامها المحير في بناء بيوتها وخلاياها، ولا شك أن هذه أمور ليس من السهل اعتبارها ناشئة بدافع الغريزة، إذ إن الغريزة تنشأ عنها أعمال رتيبة من طراز واحد باستمرار، أما الأعمال التي تقع في ظروف خاصة كردود فعل لحوادث طارئة غير متوقعة، فهذه تكون إلى التعقل والإدراك أقرب منها إلى الغريزة. فالشاة التي لم يسبق لها أن رأت ذئباً في حياتها تفزع منه أول ما تراه وتدرك خطره عليها وتتوسل بكل حيلة لدرء خطره عنها.

فضلاً عن ذلك كله، فإن هناك بعض الآيات التي تدل - بوضوح - على أن للحيوانات فهماً وإدراكاً، من ذلك حكاية هروب النمل من أمام جيش سليمان، وحكاية ذهاب الهدهد إلى منطقة سبأ باليمن ورجوعه بأخبار مثيرة لسليمان.

ثمة أحاديث إسلامية كثيرة حول بعث الحيوانات، من ذلك ما روي في تفسير مجمع البيان عن أبي ذر قال: بينا أنا عند رسول الله ﷺ إذ انتطحت عنزان، فقال النبي ﷺ:

«أتدرون فيما انتطحتم؟» فقالوا: لا ندري. قال: «ولكن الله يدري وسيقضي بينهما».

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُغُرُوا فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلِّهُ وَمَن يَشَاءُ
يَجْعَلُهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

مرة أخرى يعود القرآن ليتطرق إلى المنكرين المعاندين، فيقول: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُغُرُوا فِي الظُّلُمَاتِ﴾. فهم لا يملكون آذاناً صاغية لكي يستمعوا إلى الحقائق، ولا ألسناً ناطقة بالحق توصل إلى الآخرين ما يدركه الإنسان من الحقائق. وبعد ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿مَن يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلِّهُ وَمَن يَشَاءُ يَجْعَلُهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

إن الهداية والضلالة اللتين تنسبان في هذه الحالات إلى مشيئة الله إنما هما ثواب الله وعقابه لعباده على أفعالهم الحسنة أو السيئة. وبعبارة أخرى: قد يرتكب الإنسان أحياناً إنمياً كبيراً يؤدي به إلى أن يحيط بروحه ظلام مخيف، فتفقد عينه القدرة على رؤية الحق، وتفقد أذنه القدرة على سماع صوت الحق، ويفقد لسانه القدرة على قول الحق. وقد يكون الأمر على عكس ذلك، أي قد يعمل الإنسان أفعالاً صالحة كثيرة بحيث إن عالماً من النور والضوء يشع في رواجه، فيتسع بصره وبصيرته، وتزداد أفكاره إشعاعاً، ويكون لسانه ابلغ في إعلان الحق، ذلكم هو مفهوم الهداية والضلالة اللتين تنسبان إلى إرادة الله ومشيئته.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾

التوحيد الفطري: يعود الكلام مرة أخرى إلى المشركين، ويدور الاستدلال حول وحدانية الله وعبادة الواحد الأحد عن طريق تذكيرهم باللحظات المرحجة والمؤلمة التي تمر بهم في الحياة، ويستشهد بضايرهم، فهم في مثل تلك المواقف ينسون كل شيء، ولا يجدون غير الله ملجأ لهم. يأمر الله سبحانه نبيه أن: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

الحالة النفسية التي تصوورها هذه الآية لا تنحصر في المشركين، بل في كل إنسان حين يتعرض إلى الشدة وحوادث الخطر وقد لا يلجأ الإنسان في الحوادث الصغيرة والمألوفة إلى

الله، إلا أنه في الحوادث الرهيبة والخيفة ينسى كل شيء وإن ظلّ في أعماقه يحس بأمل في النجاة ينبع من الإيمان بوجود قوّة غامضة خفية، وهذا هو التوجه إلى الله وحقيقة التوحيد. حتى المشركون وعبدة الأصنام لا يخطر لهم التوسل بأصنامهم، بل ينسونها في مثل هذه الظروف تماماً، فتقول الآية: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٤٢﴾
 فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾

معبر الدين لا يعتبرون: تواصل هذه الآيات توجيه الكلام للضالين والمشركون، ويتخذ القرآن فيها طريقاً آخر لا يلاحظهم وذلك بأن ينقلهم إلى القرون السالفة والأزمان الماضية، يشرح لهم حال الأمم الضالة والظالمة والمشركة، ويبيّن لهم كيف أتيح لها جميع عوامل التربية والتهديب والوعى، غير أن جمعاً منهم لم يلقوا بالآ إلى أيّ من تلك العوامل، ولم يعتبروا بما حاق بهم من (بأساء) و(ضراء) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾.

أما كان من الأجدد بهؤلاء أن يستيقظوا عندما جاءهم البأس وأحاطت بهم الشدائد؟! ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ ولكنهم لم يستيقظوا، ولذلك سببان:
 الأول: إنهم لكثرة آثامهم وعنادهم في الشرك زابت الرحمة قلوبهم والليونة أرواحهم: ﴿وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

والثاني: إن الشيطان قد استغل عبادتهم أهواءهم فزّين في نظرهم أعمالهم، فكل قبيح ارتكبه أظهره لهم جميلاً، ولكل خطأ فعلوه جعله في عيونهم صواباً: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا

١. «البأساء»: الشدة والمكروه، وتطلق على الحرب أيضاً، وكذلك القحط والجفاف والفقير. أما «الضراء»: فأكثر ما تعني العذاب الروحي كالهم والنم والإكثاب والجهل أو الآلام الناشئة عن الأمراض أو عن فقدان مال أو مقام.

كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾

ثم تذكر الآية التالية أنه لما لم تنفع معهم تلك المصائب والمشاكل والضغوط عاملهم الله تعالى بالعطف والرحمة، ففتح عليهم أبواب أنواع النعم، لعلهم يستيقظون ويلتفتون إلى خالقهم الذي وهب لهم كل تلك النعم، ويشخصوا الطريق السوي: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

إلا أن هذه النعم كانت في الواقع ذات طابع مزدوج، فهي مظهر من مظاهر المحبة التي تستهدف إيقاظ النائمين، وهي كذلك مقدمة لنزول العذاب الأليم إذا استمرت الغفلة، ولهذا يقول إتنا أعطيناهم الكثير من النعم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾^١.

وهكذا استوصلت جذور أولئك الظلمة وانقطع نسلهم: ﴿فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

ولما كان الله قد قره هؤلاء كل وسائل التربية ولم يبخل عليهم بأي شيء منها، لذلك فإن الحمد يختص بالله الذي يربي أهل الدنيا كافة: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وإختتام الآية بقول: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ دليل على أن استئصال جذور الظلم والفساد والقضاء على شأفة الذين يمكن أن يواصلوا هذا الأمر من الأهمية بحيث يستوجب الحمد لله.

مرآة تحتية كقولهم رسول

في الكافي عن فضيل بن عياض عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «... من أحب بقاء الظالمين، فقد أحب أن يعصى الله، إن الله تعالى حمد نفسه على هلاك الظالمين فقال: ﴿فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾».

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظَرَ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْزَلْنَا عَذَابَ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مَبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ أَمَّنْ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

١. «الإبلاس»: الحزن المعترض من شدة التألم بسبب كثرة المنغصات المؤلمة، ومنها اشتقت كلمة «إبليس» وهي هنا تدل على شدة الغم والهم اللذين يصيبان المذنبين يومئذ.

اعرفوا واهب النعم: الخطاب ما يزال موجّهاً إلى المشركين. في هذه الآيات حتّ استدلالى على إيقاظهم ببيان آخر يعتمد غريزة دفع الضرر، فيبدأ بالقول: **إِنَّهُ إِذَا سَلَبَ مِنْكُمْ اللَّهُ النِّعَمَ الثَّمِينَةَ الَّتِي وَهَبَهَا لَكُمْ، مِثْلَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ، وَأَغْلَقَ عَلَى قُلُوبِكُمْ أَبْوَابَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَسَنِ وَالسَّيِّئِ، وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَمَنْ يَأْتُرَى يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعِيدَ إِلَيْكُمْ تِلْكَ النِّعَمَ؟ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾.**

في الواقع، كان المشركون أنفسهم يعتقدون أنّ الخالق والرازق هو الله، وكانوا يعبدون الأصنام للإستشفاع بها عند الله.

ثم تقول الآية: **أَنْظُرْ إِلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ نَشْرَحُ لَهُمُ الْآيَاتِ وَالِدَّلَائِلَ بِمُخْتَلَفِ الْوَسَائِلِ، وَلَكِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَعْضُونَ عَنْهَا: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾.**

«نصرف»: من «التصريف» بمعنى «التغيير» والكلمة هنا تشير إلى مختلف الاستدلالات في صور متنوعة. و«يصدفون»: من «صدف» بمعنى «الجانب» و«الناحية» أي إنّ المعرض عن شيء يدير وجهه إلى جانب أو ناحية أخرى.

تشير الآية الثانية - بعد ذكر هذه النعم الثلاث «العين والأذن والإدراك» التي هي منبع جميع نعم الدنيا والآخرة - إلى إمكان سلب هذه النعم كلّها دفعة واحدة، فتقول: **﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ بِذُنُوبِكُمْ عَذَابَ اللَّهِ بِغْتَةٍ أَوْ جَهْرَةٍ هَلْ يَهْتِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.**

«بغتة»: بمعنى «فجأة» و«جهرة» بمعنى «الظاهر» والعلانية.

والقصد هو أنّ القادر على إنزال مختلف العقوبات، وسلب مختلف النعم هو الله وحده، وإنّ الأصنام لا دور لها في هذا أبداً، لذلك ليس ثمة ما يدعو إلى اللجوء إليها، لكن الله لحكمته ورحمته لا يعاقب إلا الظالمين.

الآية الثالثة تشير إلى مركز الأنبياء، فتقول: **ليست الأصنام العديمة الروح هي وحدها العاجزة عن القيام بأيّ أمر، فإنّ الأنبياء العظام والقادة الإلهيين أيضاً لا عمل لهم سوى إيلاغ الرسالة والإنذار والتبشير، فكلّ ما هنالك من نعم إنّما هي من الله وبأمره، وأنهم إن أرادوا شيئاً طلبوه من الله: ﴿وَمَا نُزِيلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.**

ثم تقول: **إنّ طريق النجاة ينحصر في أمرين، فالذين يؤمنون ويصلحون أنفسهم ﴿وَيَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ فلا خوف عليهم من العقاب الإلهي، ولا حزن على أعمالهم السابقة. ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.**

أما أولئك الذين لا يصدّقون بآياتنا، بل يكذبون بها فإن عقابهم على فسقهم وعصيانهم عذاب من الله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾. من الجدير بالإنابة أن الآية ذكرت عقاب الذين يكذبون بآيات الله بعبارة ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾ فكان هذا العقاب يطاردهم في كل مكان حتى يشملهم بأشد ما يكون من العذاب.

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِّي أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾

معرفة الغيب: هذه الآية استمرار للرد على إعتراضات الكفار والمشركين المختلفة،

والرد يشمل ثلاثة أقسام من تلك الإعتراضات في جمل قصيرة:

الأول: هو أنهم كانوا يريدون من رسول الله ﷺ القيام بمعجزات عجيبة وغريبة، وكان كل واحد يتقدّم باقتراح حسب رغبته، بل إنهم لم يكونوا يقنعون بمشاهدة معجزات طلبها آخرون، فرّة كانوا يطلبون بيوتاً من ذهب، ومرة يريدون هبوط الملائكة، ومرة يريدون أن تتحوّل أرض مكة القاحلة المحرقة إلى بستان مليء بالمياه والفواكه. ولعلمهم بطلباتهم الغريبة تلك كانوا يتوقعون أن يكون للنبي مقام الألوهية وإملاك الأرض والسماء، فللرد على هؤلاء يأتي الأمر من الله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾.

يتضح أن «خزائن الله» تشمل مصدر ومنبع جميع الأشياء، وهي تستقي من ذات الله اللامتناهية منبع جميع الكمالات والقدرات.

ثم ترد الآية على الذين كانوا يريدون من رسول الله ﷺ أن يكشف لهم عن جميع أسرار المستقبل، بل ويطلعهم على ما ينتظرهم من حوادث لكي يدفعوا الضرر ويستجلبوا النفع، فتقول: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾.

في الجملة الثالثة رد على الذين كانوا يتصوِّرون النبي ﷺ ملكاً، أو أن يصاحبه ملك، وأن لا يتصف بما يتصف به البشر من تناول الطعام والسير في الطرقات، وغير ذلك، فقال: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِّي أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾.

وفي الختام يؤمر رسول الله ﷺ أن يقول لهم: هل يمكن للذين يغمضون أعينهم ويغلقون عقولهم عن التفكير أن يكونوا على قدم المساواة مع الذين يرون الحقائق جيداً

ويتفهمونها؟ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾

في ختام الآية السابقة ذكر سبحانه عدم استواء الأعمى بالبصير، وفي هذه الآية يأمر نبيه أن ينذر الذين يخشون يوم القيامة: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾. أي إن هؤلاء لهم هذا القدر من البصيرة بحيث يحتملون وجود حساب وجزاء، وفي ضوء هذا الاحتمال والخوف من المسؤولية تتولد فيهم القابلية على التلقي والقبول. ثم يقول: إن أمثال هؤلاء من ذوي القلوب الواعية يخافون ذلك اليوم الذي ليس فيه غير الله ملجأ ولا شفيع: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

نعم، أنذر أمثال هؤلاء الناس وادعهم إلى الله، إذ أن الأمل في هدايتهم موجود: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾

سبب النزول

في تفسير الدر المنثور (وتفسير المنار أيضاً): مرّ الملائ من قريش على النبي ﷺ وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد! أَرْضَيْتَ بِهِؤُلَاءِ مِنْ قَوْمِكَ؟ أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟ نحن نكون تبعاً هؤلاء: اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، فأنزل الله فيهم القرآن: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾.

في تفسير المنار عن عمر بن الخطاب قال: لو فعلت يا رسول الله ﷺ حتى ننظر ما يريدون بقولهم، وما يصبرون إليه من أمرهم فأنزل الله تعالى الآيتان في رفض إقتراحه.

التفسير

مكافحة التفكير الطبقي: في هذه الآية إشارة إلى واحد من إحتجاجات المشركين، وهو أنهم كانوا يريدون من النبي ﷺ أن يقرّ ببعض الإمتيازات لطبقة الأغنياء ويفضّلهم على طبقة الفقراء، إذ كانوا يرون في جلوسهم مع الفقراء من أصحاب رسول الله ﷺ منقصة لهم أي منقصة مع أنّ الإسلام كان قد جاء للقضاء على مثل هذه الإمتيازات الزائفة الجوفاء، كانوا يصرون على هذا الطلب في طرد أولئك عنه، غير أنّ القرآن ردّ هذا الطلب مستنداً إلى أدلة حيّة، فيقول: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَجِهَةٌ﴾^١.

في الحقيقة كان هؤلاء يستندون في طلبهم ذلك إلى سنة قديمة خاطئة تقيّم المرء على أساس ثروته، وكانوا يعتقدون أنّ المعايير الطبقية القائمة على أساس الثروة يجب أن تبقى محفوظة، ويرفضون كل دعوة تستهدف إلغاء هذه القيم والمعايير.

ثم تقول الآية: إنه ليس ثمة ما يدعو إلى إبعاد هؤلاء المؤمنين عنك، لأنّ حسابهم ليس عليك، ولا حسابك عليهم: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾. ولكنك مع ذلك إذا فعلت تكون ظالماً: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

والمقصود من «الحساب» هنا هو حساب الأعمال إنّ المشركين كانوا يتهمون أصحاب رسول الله ﷺ الفقراء بالإبتعاد عن الله بسبب فقرهم، زاعمين أنهم لو كانت أعمالهم مقبولة عند الله لزمه الترفيه والتوسعة عليهم في معيشتهم.

فيرد القرآن على ذلك مبيناً أنّنا حتى لو فرضنا أنهم كذلك، فإنّ حسابهم على الله، مادام هؤلاء قد آمنوا وأصبحوا في صفوف المسلمين، فلا يجوز طردهم بأيّ ثمن، وبهذا يقف في وجه إحتجاج أشراف قريش.

إمتياز كبير للإسلام: إنّنا نعلم أنّ دائرة صلاحيات رجال الدين المسيحيين المعاصرين قد اتسعت إتساعاً مضحكاً بحيث إنهم أعطوا أنفسهم حق غفران الذنوب، فبإمكانهم طرد الأشخاص وتكفيرهم أو قبولهم لأتفه الأمور. إلا أنّ القرآن، في هذه الآية وفي آيات أخرى ينفي صراحة أن يكون لأحد الحق، بل ولا لرسول الله ﷺ نفسه في أن يطرد أحداً أظهر إيمانه ولم يفعل ما يوجب إخراجه من الإسلام، وأنّ غفران الذنوب والحساب بيد الله وحده، ولا يحق لأحد التدخل في هذا أبداً.

١. معنى «الوجه» في اللغة معروف، ولكنّ الكلمة قد تعني «الذات» كما في هذه الآية.

الآية الثانية يحذر فيها القرآن أصحاب المال والثروة من أن هذه الأمور اختبار لهم، فإذا لم يجتازوا الامتحان فعليهم أن يتحملوا العواقب المؤلمة، فالله يمتحن بعضهم ببعض: ﴿وَكَلَيْكَ فَتَنَّا بِبَعْضِهِمْ بَبْغِضٍ﴾. «الفتنة» تعني هنا الامتحان.

ثم تضيف الآية: أن الأمر يصل بهؤلاء إلى أنهم ينظرون إلى المؤمنين الصادقين نظرة احتقار ﴿لِيَقُولُوا أَهْؤُلَاءِ مَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيْنِنَا﴾.

ثم تجيب الآية على المعترضين مؤكدة أن هؤلاء الأشخاص أناس شكروا نعمة التشخيص الصحيح بالعمل، كما أنهم شكروا نعمة دعوة رسول الله ﷺ بقبولها، فأبي نعمة أكبر وأي شكر أرفع، ولذلك رسخ الله الإيمان في قلوبهم: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾.

وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾

هذه الآية تبدأ أولاً بالطلب من رسول الله ﷺ أن لا يطرد المذنبين مها عظمت ذنوبهم، بل عليه أن يستقبلهم ويتقبلهم: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ﴾. يحتمل أن يكون هذا السلام من الله بوساطة رسوله أو أنه من الرسول ﷺ مباشرة، وهو - على كلا الاحتمالين - دليل على القبول والترحيب والتفاهم والمحبة.

ثم تقول الآية: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾.

«كتب»: تأتي في كثير من الأحيان كناية عن الإلزام والتعهد، إذ إن من نتائج الكتابة توكيد الأمر وثبوته.

وفي الجزء الأخير من الآية - وهو توضيح وتفسير لرحمة الله - يتحدث بلهجة عاطفية:

﴿أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

إن «الجهالة» في مثل هذه المواضع تعني طغيان الشهوة وسيطرتها.

الآية التالية ومن أجل توكيد هذا الموضوع تشير إلى أن الله سبحانه يوضح آياته

وأوامره توضيحاً بيئاً لكي يتبين طريق الباحثين عنه والمطيعين له، كما يتبين طريق الآثمين

المعاندِين من أعداء الله: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^١ .
 إنَّ «المجرم» هنا هو أولئك المذنبون المعاندون الذين لا يستسلمون للحق. أي بعد هذه
 الدعوة العامة إلى الله، التي تشمل حتى المجرمين النادمين يتّضح بشكل كامل طريق
 المعاندِين الذين لا يرجعون عن عنادهم.

قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ
 ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ
 مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ
 ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ
 أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾

الإصرار العقيم: ما يزال الخطاب في هذه الآيات موجهاً إلى المشركين وعبدة الأصنام
 المعاندِين - كدأب معظم آيات هذه السورة - يبدو من سياق هذه الآيات أنهم دعوا رسول
 الله ﷺ إلى إعتناق دينهم، الأمر الذي يستدعي نزول الآية: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ
 تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

ثم بجملة ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ يجيب بوضوح على إصرارهم العقيم، نظراً لأنَّ عبادة
 الأصنام لا تتفق مع المنطق ولا مع الأدلة العقلية.
 وفي ختام الآية يؤكد القرآن مرّة أخرى على أنه إذا فعل ذلك ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ
 الْمُهْتَدِينَ﴾.

الآية التالية تتضمن جواباً آخر وهو: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾.
 «البينة»: أصلاً ما يفصل بين شيئين بحيث لا يكون بينهما تمازج أو اتصال، ثم أطلقت
 على الدليل والحجة الواضحة، لأنها تفصل بين الحق والباطل.
 إنَّ رسول الله ﷺ يأمُر في هذه الآية أن يقول: إنَّ دليلي في قضية عبادة الله ومحاربة

١. جملة «ولتستبين» معطوفة على جملة معذوفة تدرك بالقرينة، فيكون المعنى لتستبين سبيل المؤمنين
 المطيعين ولتستبين سبيل المجرمين.

الأصنام واضح وبيّن، وإنّ تكذيبكم وإنكاركم لا يقللان من صدق الدليل. ثم يشير إلى حجة واهية أخرى من حججهم، وهي أنّهم كانوا يقولون: إن كنت على حق فعلاً فعجل بالعقاب الذي تتوعدنا به، فيقول لهم رسول الله ﷺ: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ لأنّ الأعمال والأوامر كلها بيد الله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾. إن معنى ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ واضح، أي إنّ كل أمر في عالم الخلق والتكوين وفي عالم الأحكام والتشريع بيد الله، وكذلك كل منصب - بما في ذلك القيادة الإلهية والتحكيم والقضاء - إذا أوكل إلى أحد، فإنما هو بأمر الله تعالى.

وبعد ذلك يقول مؤكداً: إنّ الله هو الذي ﴿يَقْصُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾. الآية التالية تأمر رسول الله ﷺ أن يقول لهؤلاء الجماعة الملحاحة العنيدة الجاهلة: لو أنّ ما تطلبونه منّي على عجل كان في سعتي وقدرتي، وأجبتكم إليه لانتهى الأمر، ولم يعد بيني وبينكم شيء: ﴿قُلْ لَوْ أَنِّي عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾. ولكيلا يظنّوا أنّ عقابهم قد طواه النسيان، يقول في النهاية: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ وسوف يعاقبهم في الوقت المناسب.

«يقص»: في اللغة ترد بمعنى القطع، وعلى هذا يكون معنى ﴿يَقْصُ الْحَقَّ﴾ إنّ الله يقطع الحق عن الباطل ويفصل بينها.

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ إِلَّا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحُسِيِّينَ ﴿٦٢﴾

أسرار الغيب: في هذه الآيات يدور الكلام حول علم الله وقدرته وسعة حكمه وأمره،

وهي تشرح ما اجملته الآيات السابقة. تشرع الآية في الكلام على علم الله فتقول: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ﴾.

«مفتاح»: جمع «مفتاح» (بكسر الميم وفتح التاء) وهو المفتاح.

ثم لتوكيد ذلك أكثر يقول: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾.

«البر»: كل مكان واسع فسيح، وتطلق على اليابسة؛ و«البحر»: كذلك تعني المحل الواسع الذي يتجمع فيه الماء، وتطلق على البحار والمحيطات وعلى الأنهر العظيمة أحياناً. فالتقول بأن الله يعلم ما في البر والبحر، كناية عن إحاطته بكل شيء.

فهو عالم بحركة آلاف الملايين من الكائنات الحية، الكبيرة والصغيرة، في أعماق البحار. وهو عالم بعدد خلايا جسم الإنسان وكريات دمه.

وهو عالم بكل الحركات الغامضة في الإلكترونات في قلب الذرة.

وهو عالم بكل الأفكار التي تمر بتلايف أدمغتنا حتى أعماق أرواحنا... نعم إنه عالم بكل ذلك على حد سواء.

لذلك فإنه يؤكد ذلك مرة أخرى فيقول: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾. أي إنه يعلم عدد الأوراق ولحظة انفصال كل ورقة عن غصنها وطيرانها في الهواء، حتى لحظة استقرارها على الأرض، كل هذا جلي أمام علم الله.

كذلك لا تختفي حبة بين طينات التراب إلا ويعلمها الله ويعلم كل تفاصيلها: ﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾.

التركيز هنا على نقطتين حسّاستين لا يمكن أن يتوصل إليهما الإنسان حتى لو أمضى ملايين السنين من عمره يرتقي سلم الكمال في صنع أجهزته وأدواته المدهشة.

تري من ذا الذي يستطيع أن يعرف كم تحمل الرياح معها في هبوبها على مختلف أصقاع الأرض في الليل والنهار، من أنواع البذور المنفصلة عن نباتاتها؟

أي دماغ الكروني هذا الذي يستطيع أن يحصي عدد أوراق الشجر التي تسقط كل يوم من أشجار الغابات؟ انظر إلى غابة من الغابات في الخريف، وتطلع إلى مشهد سقوط الأوراق المتواصل البديع، عندئذ تتكشف لك هذه الحقيقة، وهي أن علوماً من هذا القبيل لن تكون يوماً في متناول يد الإنسان.

إن سقوط الورقة - في الحقيقة - هو لحظة موتها، بينما سقوط البذرة في مكمنها من الأرض

هو لحظة بدء حياتها، وما من أحد غير الله يعلم بنظام هذا الموت وهذه الحياة.
لإنّ لهذا الموضوع أثراً «فلسفياً» وآخر «تربوياً»:

أما أثره الفلسفي، فينبغي رأي الذين يحصرون علم الله بالكليات، ويعتقدون أنّه لا يعلم عن الجزئيات شيئاً، وفي الآية هنا تأكيد على أنّ الله يعلم الكليات والجزئيات كلها.
أما أثره التربوي فواضح، لأنّ الإيمان بهذا العلم الواسع لله يقول للإنسان: إنّ جميع أسرار وجودك، وأعمالك، وأقوالك ونيّاتك، وأفكارك كلها بيّنة أمام الله، فإذا آمن الإنسان حقاً بهذا، فكيف يمكن له أن لا يكون رقيباً على نفسه ويسيطر على أعماله وأقواله ونيّاته.
وفي ختام الآية يقول تعالى: ﴿وَلَا رَظْمٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

في الآية الثانية ينتقل الكلام إلى إحاطة علم الله بأعمال الإنسان وهو الهدف الأصلي وإلى بيان قدرة الله القاهرة، لكي يستنتج الناس من هذا البحث الدروس التربوية اللازمة فتبدأ بالقول بأنّ الله هو الذي يقبض أرواحكم في الليل، ويعلم ما تعملون في النهار: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾.

«توفي»: تعني استرجع، فالقول بأنّ النوم هو استرجاع للروح يعود إلى أنّ النوم أخو الموت، كما هو معروف، فالموت تعطيل كامل لجهاز الدماغ، وانقطاع تام في إرتباط الروح بالجسد، بينما النوم تعطيل قسم من جهاز الدماغ وضعف في هذا الإرتباط، وعليه فالنوم مرحلة صغيرة من مراحل الموت.

«جرحتم»: من «جرح» وهي هنا بمعنى الإكتساب، أي أنّكم تعيشون تحت ظل قدرة الله وعلمه ليلاً ونهاراً، وإنّ الذي يعلم بانفلاق الحبّة وفوها في باطن الأرض، ويعلم بسقوط أوراق الأشجار وموتها في أيّ مكان وزمان، يعلم بأعمالكم أيضاً.

ثم يقول: إنّ نظام النوم واليقظة هذا يتكرر، فأنتم تنامون في الليل ﴿ثُمَّ يَبْعَثْكُمْ فِيهِ لِيُقَاسَ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾. أي ثم يوقظكم في النهار. وتستمر هذه العملية حتى نهاية حياتكم.
ويبين القرآن النتيجة النهائية لهذا المبحث بالشكل التالي: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وفي الآية الثالثة توضيح أكثر لإحاطة علم الله بأعمال عباده وحفظها بكل دقة ليوم الحساب، بعد أن يسجلها مراقبون مرسلون لإحصاء أعمالهم: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾.

«حفظة»: جمع «حافظ» وهم هنا الملائكة الموكلون بحفظ أعمال الناس.

ثم يبين القرآن الكريم أن حفظ الأعمال يستمر حتى نهاية الأعمار وحلول الموت: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾.

وتبين الآية في النهاية أن هؤلاء الملائكة الذين يحفظون حساب أعمال البشر، فهم في حفظهم للحساب لا يصدر منهم أدنى تقصير أو قصور، والآية تركّز على هذا القسم بالذات.

في الآية الأخيرة يشير القرآن الكريم إلى آخر مراحل عمل الإنسان، فيقول: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾. أي عادوا إلى الله بعد أن طووا مرحلة حياتهم، واختتم ملفهم الحاوي على كل شيء.

وفي تلك المحكمة يكون النظر في القضايا وإصدار الأحكام بيد الله: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾. وعلى الرغم من كل تلك الأعمال والملفات المتراكمة عن أفراد البشر طوال تاريخهم الصاخب فإن الله سريع في النظر فيها: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾.

روي في تفسير مجمع البيان عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه سُئل كيف يحاسب الله المخلوق ولا يروونه؟ قال: كما يرزقهم ولا يروونه. وروي «أنه سبحانه يحاسب جميع عباده على مقدار حلب شاة». أي إن ذلك لا يتجاوز فترة حلب شاة.

قُلْ مَنْ يُنَجِّكُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيِّنَ أَنْجَحَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾

النور الذي يضيء في الكلام: مرّة أخرى يأخذ القرآن بيد المشركين ويتوغّل بهم إلى أعماق فطرتهم، وهناك في تلك الأغوار المحفوفة بالأسرار الغامضة يريهم نور التوحيد وعبادة الواحد الأحد، فيقول للنبي صلى الله عليه وآله قل لهم: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّكُمْ مِنَ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾.

إنّ الظلام يكون حسيّاً أحياناً ومعنوياً أحياناً أخرى، الظلام الحسي هو الذي يكون عند انقطاع النور إنقطاعاً تاماً، أو يضعف بحيث لا يرى شيء، أو يرى بالجهد الجهد، والظلام المعنوي هو المشاكل والصعوبات ذات النهايات المظلمة الغامضة.

وإذا حدثت في هذا الظلام حوادث واقعية مرعبة، كأن يكون الإنسان مسافراً في البحر،

وتحاصره في ليلة ظلماء الأمواج الهائلة والدوامات المائية، فإنَّ خوفه من ذلك يكون أضعاف ما لو حدث ذلك بالنهار، في مثل هذه اللحظات ينسى الإنسان كل شيء ولا يعود يتذكّر شيئاً سوى نفسه، والنور الذي يسطع في أعماقه ويجذبه نحو المبدأ قادر على إزالة ما يعتوره من بلاء وضيق، هذه الحالات تفتح نوافذ على عالم التوحيد ومعرفة الله، لذلك يقول في أمثال هذه الحالات: ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

وتعتقدون - وأنتم في تلك الحالة - عهداً وميثاقاً على أنفسكم، وتقولون: ﴿لَئِن أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

ثم تأمر الآية النبي ﷺ أن يخبرهم أن الله سوف ينجيهم من هذه ومن غيرها من الأخطار، وقد فعل ذلك من قبل مراراً، ولكنهم بعد زوال الخطر عنهم يعودون إلى طريق الشرك والكفر: ﴿قُلِ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾.

«الكرب»: في الأصل بمعنى حفر الأرض وقلبها، وكذلك تعني العقدة المحكمة الشد في حبل الدلو، ثم أطلقت بعد ذلك على الغم والهلم والحزن التي تقلب قلب الإنسان وتثقل عليه كالعقدة.

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ۝٦٥ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ

ألوان العذاب: في هذه الآية تركيز على التهديد بعذاب الله وعقابه، من أجل إكمال طرق التربية والتهذيب، أي أن الله وهو أرحم الراحمين وملجأ اللاجئين، قهار منتقم مقابل الطغاة العصاة، ففي هذه الآية يؤمر الرسول ﷺ بتهديد المجرمين بثلاثة أنواع من العقاب: عذاب من فوق، وعذاب من تحت، وعقاب يتمثل في اختلاف الكلمة والحرب وإراقة الدماء: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾.

إنَّ مسألة اختلاف الكلمة والتفرّق في المجتمع لا تقل خطورتها عن العذاب السماوي والصواعق والزلازل، وهو كذلك، بل قد يكون الخراب الناشئ من اختلاف الكلمة والتفرّق أحياناً أشدّ وطأة ودماراً من الزلازل والصواعق، كثيراً ما نلاحظ أن دولاً عامرة يصيبها الفناء بسبب النفاق والتفرقة، وهذه الكلمة تحذير لجميع مسلمي العالم.

وفي الختام تقول الآية: ﴿ أَنْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ آيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾. أي انظر كيف نوضح لهم المعالم والدلائل على أمل أن يفهموا الحقائق ويعودوا إلى الله.

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَنْسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

تكمل هاتان الآيتان البحث الذي جرى في الآيات السابقة عن الدعوة إلى الله والمعاد وحقائق الإسلام والخشية من عقاب الله. الآية الأولى: تخبر رسول الله ﷺ أن قومه - أي قريش وأهل مكة - لم يصدقوا ما يقول مع أنه صدق وحق وتؤكد الأدلة العقلية المختلفة والفطرية: ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾. ثم يصدر الأمر إلى رسول الله ﷺ: ﴿ قُلْ لَنْسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾. أي إنما أنا رسول ولست أضمن قبولكم.

إن المقصود من «وكيل» هو المسؤول عن الهداية العملية للأفراد والضامن لهم.

وفي الآية التالية القصيرة ذات المعنى العميق تحذير لهم، ودعوة إلى إختيار الطريق الصحيح، ﴿ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾. أي أن كل خبر أخبركم به الرسول ﷺ في هذه الدنيا أو في الآخرة موضع ومقر وسوف يتحقق في موعده المقرر وعندئذ ستعرفون ذلك.

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْتَقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَئِنْ ذُكِّرُوا لَعَلَّهُمْ يَنْتَقُونَ ﴿٦٩﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «لما نزلت ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾، قال المسلمون: كيف نضع إن كان كلما استهزأ المشركون بالقرآن قمنا وتركناهم فلا ندخل إذا المسجد الحرام ولا نظوف بالبيت الحرام؟ فأنزل الله سبحانه ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْتَقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾: أمرهم بتذكيرهم وتبصيرهم ما استطاعوا».

التفسير

اجتناب مجالس أهل الباطل: بما أن المواضيع التي تتطرق إليها هذه السورة تتناول حال المشركين وعبدة الأصنام، فهاتان الآيتان تبحثان عن موضوع آخر من المواضيع التي

تتعلق بهم، في البداية تقول للرسول ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾^١.

ثم تخاطب الآية رسول الله مؤكدة أهمية الموضوع: ﴿وَإِنَّمَا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. أي إذا أنساك الشيطان هذا الأمر وجلست مع هؤلاء القوم سهواً، فعليك - حالما تنتبه - أن تنهض فوراً وتترك مجالسة الظالمين.

سؤال: هل يمكن للشيطان أن يتسلط على النبي ﷺ ويسبب له النسيان؟

في الإجابة على هذا السؤال يمكن القول بأن الخطاب في الآية وإن يكن موجهاً إلى النبي ﷺ فهو يتحدث في الواقع مع أتباعه الذين يمكن أن ينسوا فيسأهموا في اجتماعات المشركين الآثمة، فهؤلاء عليهم حال إنتباههم إلى ذلك أن يتركوا المكان، أن مثل هذا الأسلوب كثير الحدوث في حياتنا اليومية وموجود في مختلف آداب العالم، فانت قد توجه الخطاب إلى أحدهم ولكن هدفك هو أن يسمع الآخرون ذلك كما يقول المثل: إيتاك أعني واسمعي يا جارة.

الآية التالية فيها إستثناء واحد، فإذا اشترك بعض المتقين في جلسات هؤلاء المشركين لكي ينههم عن المنكر على أمل أن يؤدي ذلك إلى انصراف أولئك عن الإثم، فلا مانع من ذلك، وأن آثام أولئك لا تسجل على هؤلاء، لأن قصدهم هو الخدمة والقيام بالواجب: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

وينبغي أن نعلم - في الوقت نفسه - إن الذين لهم أن يستفيدوا من هذا الاستثناء هم الذين تنطبق عليهم شروط الآية، فيكونون متميزين بالتقوى، وبعدم التأثر بهم، وبالقدرة على التأثير فيهم.

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَهَائِهِمْ وَأَوْعَادِهِمْ الدُّنْيَا وَذَكَرِ بِهِمْ
 أَن تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ
 كُلُّ عَدْلٍ لَا يَأْخُذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ
 حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

١. «الخوض»: كما يقول الراغب الأصفهاني في «مفرداته» هو الدخول في الماء والمرور فيه، ثم استعير للورود في أمور أخرى، وأكثر ما ترد في القرآن بشأن الدخول في موضوع باطل لا أساس له.

هذه الآية تواصل ما بحثته الآية السابقة، وتأمّر رسول الله ﷺ أن يدع أولئك الذين يستهينون بأمر دينهم، ويتخذون مما يلهون ويلعبون به مذهباً لهم ويغترون بالدنيا وبمتاعها المادي: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَلَّوْا دِينَهُمْ لَهِيًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الدُّنْيَا﴾.

وتشير هذه الآية إلى أنّ سلوكهم الحياتي من حيث المحتوى أجوف وواه.

إنّ «دينهم» يعني «دين الشرك وعبادة الأصنام» الذي كانوا يدينون به. فالآية لا تخصّ الكفار وحدهم، بل هي تشمل جميع الذين يتخذون من الأحكام الإلهية ومن المقدسات وسائل للتلهي وملء الفراغ وبلوغ الأهداف المادية الشخصية، أولئك الذين يجعلون الدين آلة الدنيا، والأحكام الإلهية ألعوبة أغراضهم الخاصة.

ثم يؤمر رسول الله ﷺ أن ينبههم إلى أعمالهم هذه وإلى أن هناك يوماً لا بدّ لهم أن يستسلموا فيه لنتائج أعمالهم ولن يجدوا من ذلك مفراً: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبَسَّلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾^١.

يوم لا شفيع ينفع ولا ولي سوى الله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾. إنهم يومئذ في حال صعبة مؤلمة يرزحون في قيود أعمالهم بحيث إنهم يرتضون أن يدفعوا أية غرامة (إن كان عندهم ما يدفعونها) ولكنها لن تقبل منهم: ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾^٢.

ذلك لأنهم يكونون بين مغالب أعمالهم، ولا فدية تنجيهم، ولا توبة تنفعهم بعد أن فات الأوان: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾.

ثم يشار إلى جانب مما سيصيبهم من العذاب الأليم بسبب إغراضهم عن الحق والحقيقة: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾. إنهم يتعذبون بالماء الحريق من الداخل، ويكتون بنار الجحيم.

إنّ جملة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ هي بمثابة السبب الذي يمنع من قبول الغرامة ومن قبول أيّ شفيع وولي، أي إنّ عقابهم ليس لعلّة خارجية بحيث يمكن دفعها بشكل من

١. «البسل»: هو حفظ الشيء ومنعه بالقوة والقهر، والإبسال حمل المرء على التسليم، كما تطلق الكلمة على الحرمان من الثواب، أو أخذ الرهائن، والجيش الباسل بمعنى القاهر الذي يحمل العدو على التسليم، والمعنى في الآية هو تسليم المرء وخضوعه لأعماله السيئة.

٢. «العدل»: بمعنى «المعادل» وهو ما يدفع جزاءً أو غرامة لقاء التحرر، وهو أشبه في الواقع بما يفترى به.

الأشكال، بل ينبع من داخل الذات وسلوكها وأعمالها، إنهم أسرى أعمالهم القبيحة، لذلك لا مفر لهم، لأن فرار المرء من أعماله وآثارها إنما هو فرار من ذاته، وهو غير ممكن.

قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَتَيْنَا قُلُوبًا هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمَّا الْيَهُودُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾

كان المشركون يصرون على دعوة المسلمين إلى العودة إلى الكفر وعبادة الأصنام، فنزلت هذه الآية تأمر النبي ﷺ بالرد عليهم رداً يدحض رأيهم ويفند دعوتهم في جواب بصيغة الاستفهام الاستنكاري: أتريدون منا أن نشرك مع الله ما لا يملك لنا نفعاً فنعبده لذلك، ولا يملك لنا ضرراً فنخافه: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾.

هذه الآية تشير إلى أن أفعال الإنسان تنشأ عادة عن دافعين، فهي إما أن تهدف إلى استجلاب منفعة وإما إلى دفع ضرر (مادياً كان أم معنوياً).

ثم يأتي باستدلال آخر على بطلان سلوك المشركين، فيقول: إذا عدنا إلى عبادة الأصنام، بعد الهداية الإلهية نكون قد رجعنا القهقري، وهذا يناقض قانون التكامل الذي هو قانون حياتي عام: ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ﴾^١.

ثم يضرب مثلاً لتوضيح الأمر، فيقول: إن الرجوع عن التوحيد إلى الشرك أشبه بالذي أغوته الشياطين (أو غيلان البوادي التي كان عرب الجاهلية يعتقدون أنها تسكن في منعطفات الطرق وتغوي السابلة وتضلهم عن الطريق) فتاه عن مقصده وظل حيراناً في البادية: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا﴾^٢. بينما له رفاق يرشدونه إلى

١. «أعقاب»: جمع «عقب» وهو مؤخر الرجل، ورجع على عقبه بمعنى اتنى راجعاً، وهو هنا كناية عن الانحراف عن الهدف، وهو ما يطلق عليه اليوم اسم «الرجعية».

٢. «إستهوته»: من «الهوى» وهو ميل النفس إلى الشهوة، واستهوته بمعنى حملته على إتباع الهوى، و«الحيرة»: هي التردد في الأمر، وفي الأصل: الجيئة والذهاب، فالآية تشير إلى الذين يذهبون من الإيمان إلى الشرك مستلهمين تحركاتهم من الشيطان.

الصراط السوي المستقيم وينادونه: هلم إلينا، ولكنه من الحيرة والتهيه بحيث لا يسمع النداء، أو إنه غير قادر على اتخاذ القرار: ﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ آتِنَا﴾.

وفي الختام يؤمر النبي ﷺ أن يقول: إن الهداية من الله وليس لنا إلا أن نسلم لأمر الله رب العالمين: ﴿قُلْ إِنْ هُنَّ إِلَّا آلِهَةٌ مُّشْرِكُونَ وَإِنِّي لَمِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وهذا دليل آخر على رفض دين المشركين، إذ التسليم لا يكون إلا لخالق الكون ومالكة وربّ عالم الوجود، لا الأصنام التي لا دور لها في إيجاد هذا العالم وإدارته.

الآية التالية، تواصل شرح الدعوة الإلهية قائلة: إننا فضلاً عن التوحيد، فقد أمرنا بإقامة الصلاة وبتقوى الله: ﴿وَأَن أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾.

وفي الختام يشار إلى المعاد وإلى أن الناس إلى الله يرجعون: ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُوْنُ
قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّوْرِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ
الْحَكِيْمُ الْخَبِيْرُ ﴿٧٣﴾

هذه الآية دليل على ما جاء في الآية السابقة، وعلى ضرورة التسليم لله وإتباع رسوله،

لذلك تقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ بِالْحَقِّ﴾.

إنّ مبدأ عالم الوجود هو وحده الجدير بالعبادة، وهو وحده الذي يجب الخضوع والتسليم له، لأنّه خلق الأشياء لمقاصد حقّة.

ثم يقول: إنّه فضلاً عن كونه مبدع عالم الوجود، فإنّ يوم القيامة أيضاً يقوم بأمره، وإذا ما أصدر أمره بقيام ذلك اليوم فإنّه يتحقق فوراً: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُوْنُ﴾.

ثم يضيف: أنّ ما يقوله الله هو الحق، أي إنّها مثلها كان مبدأ الخلق ذا أهداف ونتائج ومصالح، كذلك سيكون يوم القيامة: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾.

وفي ذلك اليوم الذي ينفخ فيه في الصور ويبعث الناس يوم القيامة، يكون الحكم والملك لله: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّوْرِ﴾.

حكومة الله على عالم الوجود ومالكه له قائمتان منذ بداية الخلق حتى نهايته وفي يوم

القيامة، ولا يختص ذلك بيوم القيامة وحده، لكن هناك عوامل وأسباباً تؤثر في مسار هذه الدنيا وتقدمها نحو أهدافها، لذلك قد يغفل الإنسان أحياناً عن وجود الله وراء هذه الأسباب والعوامل، أما في ذلك اليوم الذي تتعطل فيه جميع الأسباب والعوامل، فإن حكومة الله ومالكيته تكونان أجلى وأوضح من أي وقت سابق.

وفي ختام الآية إشارة إلى ثلاث من صفات الله تعالى، فهو: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾. أي إنه بمقتضى صفة العلم المطلق عالم بأعمال عباده، وبمقتضى قدرته وحكمته يجازي كلّ بما يستحقه.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرَأْتَتَّخِذُ أَصْنَامًا إِلَهَةً إِنِّي أَرَأَيْتَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ ﴿٧٤﴾

لما كانت هذه السورة تحارب الشرك وعبادة الأصنام تستخدم هنا حكاية إبراهيم. يقول: إن إبراهيم وبخ أباه (عمّه) قائلاً: أختار هذه الأصنام المحقيرة التي لا حياة فيها آلهة للعبادة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرَأْتَتَّخِذُ أَصْنَامًا إِلَهَةً إِنِّي أَرَأَيْتَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. وأي ضلال أشدّ وأوضح من أن يجعل الإنسان ما يخلقه بيده إلهاً يعبده، ويتخذ من كائن جامد لا روح فيه ولا إحساس ملجأً يفرع إليه ويبحث عن حلّ مشاكله عنده.

هل كان آزر أبا إبراهيم؟ تطلق كلمة «الأب» في العربية على الوالد غالباً، ولكنها قد تطلق أيضاً على الجد من جهة الأم وعلى العم، وكذلك على المربي والمعلم والذين يساهمون بشكل ما في تربية الإنسان.

وقد وردت في القرآن كلمة «أب» بمعنى العم، كما في الآية (١٣٣) من سورة البقرة:

﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾

والضمير في «قالوا» يعود على أبناء يعقوب وكان إسماعيل عم يعقوب لا أباه.

الطبري ينقل في تفسيره جامع البيان عن مجاهد قال: ليس آزر أبا إبراهيم.

وفي تفسير روح المعاني: أن آزر اسم عم إبراهيم، والعم والجد يسميان أبا مجازاً.

وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾
 فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكَوْكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ إِلَّا فِيلِينَ
 ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ
 مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا
 أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُومِ رَبِّي لِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَاشِعًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

أدلة التوحيد في السماوات: على أثر الكره الذي كان يحمله إبراهيم للأوثان وطلبه من
 آزر أن يترك عبادة الأصنام، تشير هذه الآيات إلى نضال إبراهيم المنطقي مع مختلف عبدة
 الأصنام، وتبين كيفية توصله إلى أصل التوحيد عن طريق الاستدلال العقلي الواضح. تبين
 أولاً أن الله كما عرّف إبراهيم على أضرار عبادة الأصنام عرفه على مالكية الله وسلطته
 المطلقة على السماوات والأرض: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
 «الملكوت»: من «ملك» بمعنى المالكية والحكم، فالمقصود من الكلمة هنا حكومة الله المطلقة
 على عالم الوجود برمته.

وكما أنه في الختام يقول: إنّ الهدف من ذلك هو أن يصبح إبراهيم من أهل اليقين
 ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾.

لا شك أن إبراهيم كان موقناً يقيناً استدلالياً وفطرياً بواحدانية الله، ولكنه بدراسة
 أسرار الخلق بلغ يقينه حد الكمال.

الآيات التالية تشرح هذا المعنى، وتبين استدلال إبراهيم من أقول الكواكب والشمس
 على عدم الوهيتها، فعندما غطى ستار الليل المظلم العالم كله، ظهر أمام بصره كوكب لامع،
 فنادى إبراهيم: هذا ربي! ولكنه إذ رآه يغرب، قال: لا أحب الذين يغربون: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ
 اللَّيْلُ رَأَى الْكَوْكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ إِلَّا فِيلِينَ﴾.

ومرة أخرى رفع عينيه إلى السماء فلاح له قرص القمر الفضي ذو الإشعاع واللمعان
 الجذاب على أديم السماء، فصاح ثانية: هذا ربي: ولكن مصير القمر لم يكن بأفضل من مصير
 الكوكب قبله، فقد أخفى وجهه خلف طيات الأفق.

هنا قال إبراهيم: إذا لم يرشدني ربي إلى الطريق الموصل إليه فسأكون في عداد التائهين ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾.

عند ذاك كان الليل قد انقضى، وراح يجمع أطراف أستاره المظلمة هارباً من كبد السماء، بينما راحت الشمس تطل من المشرق وتلقي بأشعتها الجميلة كنسيج ذهبي تنشره على الجبل والوادي والصحراء، وما أن وقعت عين إبراهيم الباحث عن الحقيقة على قرص الشمس الساطع صاح: هذا ربي فإنه أكبر وأقوى ضوءاً، ولكنه إذ رآها كذلك تغرب وتختفي في جوف الليل البهيم أعلن إبراهيم قراره النهائي قائلاً: يا قوم! لقد سئمت كل هذه المعبودات المصطنعة التي تجعلونها شريكة لله: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

الآن بعد أن عرفت أن وراء هذه المخلوقات المتغيرة المحدودة الخاضعة لقوانين الطبيعة إلهاً قادراً وحاكماً على نظام الكائنات، فاني أتجه إلى الذي خلق السماوات والأرض، وفي إيماني هذا لن أشرك به أحداً، فاني موحد ولست مشركاً: ﴿إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

إن تفسير هذه الآية والآيات التالية بشأن ما دفع بإبراهيم الموحد العابد لله الواحد، أن يشير إلى كوكب في السماء ويقول: هذا ربي؟

فإنه عندما يقول: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ لا يقولها قاطعاً جازماً، بل يقولها من باب الفرض والاحتمال حتى يفكر في الأمر. أو أنه قال ﴿هَذَا رَبِّي﴾ تعني: هذا ما تعتقدون أنه ربي.

وَحَاجَّةُ قَوْمِهِ، قَالَ أَنَحْجُبُوتِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

تشير هذه الآيات إلى ما دار بين إبراهيم والأقوام المشركة من عبدة الأصنام، الذين بدأوه بالمحاجة ﴿وَحَاجَّةُ قَوْمِهِ﴾.

فردّ عليهم إبراهيم ﷺ قائلاً: لماذا تجادلونني في الله الواحد الأحد وتخالقونني فيه، وهو الذي وهبني من الدلائل المنطقية الساطعة ما هداني به إلى طريق التوحيد ﴿قَالَ أَتَحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْتَنِي﴾.

يتضح في هذه الآية بجلاء أنّ قوم إبراهيم المشركين من عبدة الأصنام كانوا يحاولون جهدهم وبأيّ ثمن أن يبعدوا إبراهيم عن عقيدته، قد حذّروه وهددوه بغضب آلهتهم وعقابها في محاولة لإرعابه وإخافته، لأننا على أثر ذلك نسمع إبراهيم يستهين بتهديدهم ويؤكد لهم أنّه لا يخشى أصنامهم التي لا حول لها ولا قوة في إيصال أيّ أذى إليه ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾. فما من أحد ولا من شيء بقادر على أن يلحق بي ضرراً إلا إذا شاء الله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾.

يظهر من هذه الآية أنّ إبراهيم ﷺ سعى لإيجاد إجراء وقائي تجاه حوادث محتملة، فيؤكد أنّه إذا أصابه في هذا الصراع شيء - فرضاً - فلن يكون لذلك أيّ علاقة بالأصنام، بل يعود إلى إرادة الله.

ويضيف إلى ذلك مبيّناً أنّ ربّه على درجة من سعة العلم بحيث يسع علمه كل شيء: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

ثم يحرك فيهم روح البحث والتفكير فيخاطبهم قائلاً: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾. في الآية التالية ينهج إبراهيم منطقاً استدلالياً آخر، فيقول لعبدة الأصنام: كيف يمكنني أن أخشى الأصنام ويستولي عليّ الخوف من تهديدكم، مع أنّي لا أرى في أصنامكم أثراً للعقل والإدراك والشعور والقوة والعلم، أمّا أنتم فعلى الرغم من إيمانكم بوجود الله وإقراركم له بالعلم والقدرة، ومعرفتكم بأنّه لم يأمركم بعبادة هذه الأصنام، فإنكم لا تخافون غضبه: ﴿وَكَيفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾. ١
كونوا منصفين إذن وقولوا: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

١. «السلطان»: بمعنى التفوق والانتصار، ولما كان الدليل والبرهان من أسباب الفوز والانتصار، فقد يوصفان بالسلطان أيضاً، كما هو الحال هنا، أي لا وجود لأيّ دليل على السماح.

يستند منطق إبراهيم عليه السلام هنا إلى منطق العقل القائم على الواقع، إنكم تهددونني بغضب الأصنام، مع أن تأثيرها وهم من الأوهام، ولكنكم بعدم خشيتكم من الله العظيم الذي تؤمن به جميعاً، ونعتقد بوجوب اتباع أمره تكونون قد تركتم أمراً ثابتاً، وتمسكتم بأمر وهمي، ولم يصدر الله تعالى إلينا أمراً بعبادة الأصنام.

في الآية التالية جواب يدلي به إبراهيم على سؤال كان هو قد ألقاه في الآية السابقة (وهذا أسلوب من أساليب الاستدلال العلمي، فقد يسأل المتكلم سؤالاً عن لسان المخاطب ثم يبادر إلى الإجابة عليه مباشرة كدليل على أن الجواب من الواضح بحيث ينبغي أن يعرفه كل شخص). يقول: إن المؤمنين الذين لم يمزجوا إيمانهم بظلم، هم الآمنون وهم المهتدون ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾.

الآية التالية فيها إشارة إجمالية لما مضى من بحث بشأن التوحيد ومجابهة الشرك كما جاء على لسان إبراهيم، فتقول: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾.

ثم تقول الآية: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ﴾. ولكيلا يخامر بعضهم الشك في أن الله يحابي في إعطاء الدرجات لمن يشاء، تقول: إن الله متصف بالحكمة وبالعلم، فلا يمكن أن يرفع درجة من لا يستحق ذلك: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَىٰ كُلٌّ مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا أَفَضَّلْنَا عَلَىٰ ٱلْعٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِن ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾

في هذه الآيات إشارة إلى النعم التي اسبغها الله على إبراهيم، وهي تتمثل في أبناء صالحين وذرية لائقة، وهي من النعم الإلهية العظيمة. يقول سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾. ثم يبين أن مكانة هذين لم تكن مجرد كونها ولدي نبي، بل لإشعاع نور الهداية في قلبها نتيجة التفكير السليم والعمل الصالح: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾.

ثم لكيلا يتصور أحد أنه لم يكن هناك من يحمل لواء التوحيد قبل إبراهيم، وأن التوحيد بدأ بإبراهيم، يقول: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾.

فالإشارة إلى مكانة نوح، وهو من أجداد إبراهيم، والإشارة إلى فريق من الأنبياء من أبنائه وقبيلته، إنما هي توكيد لمكانة إبراهيم المتميزة من حيث «الوراثة والأصل» و«الذرية».

وعلى أثر ذلك ترد أسماء عدد من الأنبياء من أسرة إبراهيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾. ثم يبين أن منزلة هؤلاء ناشئة من أعمالهم الصالحة وهم لذلك ينالون جزاءهم: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

في الآية الثانية يرد ذكر زكريا ويحيى وعيسى والياس على أنهم جميعاً كانوا من الصالحين. أي إن مكانتهم المرموقة ليست من باب المجاملة الإيجابية، بل هي بسبب أعمالهم الصالحة في سبيل الله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

الآية الثالثة تذكر أربعة آخرين من الأنبياء والقادة الإلهيين، وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط الذين رفعهم ربهم درجات على أهل زمانهم: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

وفي الآية الأخيرة إشارة عامة إلى آباء الأنبياء المذكورين وأبنائهم وإخوانهم ممن لم ترد أسماؤهم بالتفصيل وهم جميعاً من الصالحين الذين هداهم الله: ﴿وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ ۗ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَتْهُمْ أَقْدَرُ قُلُوبًا لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

ثلاثة إمتيازات مهمة: بعد ذكر مجموعات الأنبياء في الآيات السابقة، تتناول هذه الآيات الخطوط العامة لحياتهم، وتبدأ القول: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ﴾. ولكيلا يحسب البعض أن هؤلاء قد أجبروا على السير في هذا الطريق، أو يظن أن الله

ينظر إلى هؤلاء نظرة خاصة وإستثنائية دونما سبب، يقول القرآن عنهم: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

فهم إذن مشمولون بهذا القانون الإلهي الذي يسري على غيرهم بغير محاباة. الآية التالية تشير إلى ثلاثة إمتيازات مهمة هي أساس جميع إمتيازات الأنبياء، وهي قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ﴾. إن الحكم أصلاً هو المنع، ومن ذلك العقل الذي يمنع من وقوع الأخطاء والمخالفات، وكذلك القضاء الصحيح يمنع من وقوع الظلم، والحكومة العادلة تقف بوجه الحكومات غير العادلة، فهي قد استعملت في المعاني الثلاثة.

ثم يقول: لأن رفضت هذه الجماعة (أي المشركون وأهل مكة) تلك الحقائق، فإن دعوتك لن تبقى بغير إستجابة، إذ إننا قد أمرنا جمعاً آخر، لا يقبونها فحسب، بل وبالحفاظ عليها فهم لا يسلكون طريق الكفر أبداً، بل يتبعون الحق: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيُشْرُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾.

جاء في تفسير المنار وتفسير روح المعاني عن بعض المفسرين أن المقصود بالقوم هم الفرس، وقد أسرعوا في قبول الإسلام وجاهدوا في سبيل نشره، وظهر فيهم العلماء في شتى العلوم والفنون الإسلامية وآلفوا الكثير من الكتب.

الآية الأخيرة تجعل من منهاج هؤلاء الأنبياء العظام قدوة رفيعة للهداية تعرض على رسول الخاتم ﷺ فتقول له: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْيِهِمْ آفْتَدُ﴾.

تؤكد هذه الآية مرة أخرى على أن أصول الدعوة التي قام بها الأنبياء واحدة. إن للهداية معنى واسعاً يشمل التوحيد وسائر الأصول العقائدية، كما يشمل الصبر والثبات وسائر الأصول الأخلاقية والتربوية.

ثم يؤمر النبي ﷺ أن يقول للناس إنه مثل سائر الأنبياء لا يتقاضى أجراً لقاء عملية تبليغ الرسالة: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

ثم إن هذا القرآن وهذه الرسالة والهداية إن هي إلا إيقاظ وتوعية للناس جميعاً: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.

إن النعم العامة الشاملة مثل نور الشمس والهواء والأمطار هي أمور عامة وعالمية، لا تباع ولا تشتري، ولا أجر يعطى لقاءها.

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشِيرًا مِّنْ شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ
الَّذِي جَاءَ بِهِ مَوْسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبَدُّ وَنَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا
وَعُلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: إن اليهود قالت يا محمد! أنزل الله عليك كتاباً؟
قال: «نعم». قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتاباً.

التفسير

يبدو من سبب النزول وسياق الآية أنها بشأن اليهود لا المشركين، لذلك يرى بعضهم أن
هذه الآية قد نزلت في المدينة، إلا أنها وضعت في هذه السورة المكية بأمر من رسول الله ﷺ
ولهذا في القرآن ما يشابهه. في البداية تقول الآية: إنهم لم يعرفوا الله معرفة صحيحة وأنكروا
نزول كتاب سماوي على أحد: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشِيرًا مِّنْ
شَيْءٍ﴾. فيأمر الله رسوله أن ﴿قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مَوْسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾.
ذلك الكتاب الذي جعلتموه صحائف متناثرة، تظهرون منه ما ينفعكم وتخفون ما
تظنونه يضركم: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبَدُّ وَنَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾.

إنكم تتعلمون من هذا الكتاب السماوي أموراً كثيرة لم تكونوا أنتم ولا آباؤكم تعلمون
عنها شيئاً: ﴿وَعُلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ﴾.
وفي ختام الآية يؤمر النبي ﷺ أن يذكر الله وأن يترك أولئك في أباطيلهم وعنادهم
ولعبهم: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾.

وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا
وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِمْ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

تعقيباً على البحث الذي دار في الآيات السابقة حول كتاب اليهود السماوي، تشير هذه
الآية إلى القرآن باعتباره كتاباً سماوياً آخر، والواقع أن ذكر التوراة مقدمة لذكر القرآن
لإزالة كل عجب وتخوف من نزول كتاب سماوي على فرد من البشر، فتبدأ بالقول: ﴿وَهَذَا
كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ﴾. وهو كتاب «مبارك» لأنه مصدر كل خير وبركة وصلاح وتقدم، ثم إنه يؤكد

الكتب التي نزلت قبله: ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

والمقصود من أن القرآن يصدق الكتب التي بين يديه، هو أن جميع الإشارات والإمارات التي وردت فيها تنطبق عليه. وبناءً على ذلك فصدق القرآن يتجلى في محتواه من جهة، وفي المستندات التاريخية من جهة أخرى.

ثم يبين القرآن هدف نزوله وهو توجيه الإنذار والتحذير لأم القرى (مكة) والساكين حولها وتنبئهم إلى مسؤولياتهم وواجباتهم: ﴿وَلْتُنذِرْ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

وفي الختام تقرر الآية أن الذين يعتقدون بيوم القيامة، يوم الحساب والجزاء، سيصدقون بهذا الكتاب، ويؤدّون فريضة الصلاة ولا يفرطون فيها: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾.

إن اليابسة قد انتشرت من تحت الكعبة وهو ما أطلق عليه اسم «دحو الأرض».

«ومن حولها» أي جميع الناس الذين يسكنون الأرض برمتها.

نلاحظ في هذه الآية أنها تشير إلى الصلاة من بين جميع الفرائض الدينية، ونعلم أن الصلاة هي مظهر الارتباط بالله، ولذلك كانت أرفع من جميع العبادات منزلة، ويرى بعضهم أنه عند نزول هذه الآية كانت العبادة الوحيدة المفروضة حتى ذلك الوقت هي الصلاة.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية، فقيل: نزلت في مسيلمة، حيث ادعى النبوة إلى قوله ﴿وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ وقوله ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ في عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فإنه كان يكتب الوحي للنبي ﷺ فكان إذا قال له اكتب عليماً حكيماً، كتب غفوراً رحيماً، وإذا قال له اكتب غفوراً رحيماً كتب عليماً حكيماً، وارتدّ ولحق بمكة، وقال إنني مثل ما أنزل الله.

هذه الآية، مثل سائر آيات القرآن، نزلت في ظروف خاصة، وهي ذات محتوى عام يشمل كل من ادعى النبوة وأمثالهم.

التفسير

في الآيات السابقة مرّت الإشارة إلى مزاعم اليهود الذين أنكروا نزول أي كتاب سماوي على أحد، وفي هذه الآية يدور الكلام على اشخاص آخرين يقفون على الطرف المعاكس تماماً لأولئك، فيزعمون كذباً أن الوحي ينزل عليهم.

وتتناول الآية ثلاث جماعات من هؤلاء بالبحث، ففي البداية تقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

والجماعة الثانية هم الذين يدعون النبوة ونزول الوحي عليهم، فلا هم أنبياء، ولا نزل عليهم وحي: ﴿أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾.

والجماعة الثالثة هم الذين أنكروا نبوة نبي الخاتم ﷺ أو زعموا ساخرين أنهم يستطيعون أن يأتوا بمثل آيات القرآن، وهم في ذلك كاذبون ولا قدرة لهم على ذلك: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾.

نعم، هؤلاء كلهم ظالمون، بل أظلم الظالمين، فهم ضالون مضلون، فمن أظلم ممن يدعي لنفسه القيادة الإلهية وليست لديه صلاحية مثل هذا المقام.

ثم تبين العقاب الأليم الذي ينتظر أمثال هؤلاء فتقول: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾^١. أي لو أنك - أيها النبي - رأيت هؤلاء الظالمين وهم يمرون بشدائد الموت والنزع الأخير، وملائكة قبض الأرواح مادّين أيديهم نحوهم ويقولون لهم: هيّا أخرجوا أرواحكم، لأدركت العذاب الذي ينزل بهم.

عندئذٍ تخبرهم ملائكة العذاب بأنهم سينالون اليوم عذاباً مذللاً لأمرين: الأول: إنهم كذبوا على الله، والآخر، إنهم لم ينصاعوا لآياته: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ تعني في الواقع ضرباً من التحقير تبديه الملائكة نحو هؤلاء الظالمين، وإلا فإن إخراج الروح ليس من عمل هؤلاء، بل هو من واجب الملائكة.

١. «الغمرات»: جمع غمرة (على وزن ضربة)، وأصل الغمر إزالة أثر الشيء، ثم استعملت للماء الكثير الذي يستر وجه الشيء تماماً، كما تطلق على الشدائد والصعاب التي تغمر المرء.

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ
وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ
ضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت في النضر بن الحرث بن كلدة، حين قال: سوف يشفع لي اللات والعزى.

التفسير

الضالون: أشارت الآية السابقة إلى أحوال الظالمين وهم على شفا الموت، وتطلق هذه الآية لتتحدث عن خطاب الله لهم عند الموت أو عند الورد إلى ساحة يوم القيامة، فتبدأ الآية بالقول بأنهم يأتون يوم القيامة منفردين كما خلقوا منفردين: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

والأموال التي وهبناها لكم وكنتم تستندون إليها في حياتكم، قد خلفتموها وراءكم، وجئتم صفر الأيدي: ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾^١. ولا نرى معكم تلك الأصنام التي قلتم إنها سوف تشفع لكم وظننتم أنها شريكة في تعيين مصائركم ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ﴾. ولكن الواقع أن جمعكم قد تبدد، وتقطعت جميع الروابط بينكم: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾. وكل ما ظننتموه وما كنتم تستندون إليه قد تلاشى وضاع: ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

كان المشركون العرب يستندون في حياتهم إلى أشياء ثلاثة: القبيلة أو العشيرة التي كانوا ينتمون إليها، والأموال التي جمعوها لأنفسهم، والأصنام التي اعتبروها شريكة لله في تقرير مصير الإنسان وشفيعه لهم عند الله، والآية في كل جملة من جملها الثلاث تشير إلى واحدة من هذه الأمور، وإلى أنها عند الموت تودعه وتتركه وحيداً فريداً.

١. «خوّلناكم»: من «الخول» وهو إعطاء ما يحتاج إلى التهدد والتدبير والإدارة، وهو النعم التي يسبغها الله تعالى على عباده.

ففي ذلك اليوم تنفصم العرى وتنفصل عن البشر كل الإنشدادات المادية والمعبودات الخيالية المصطنعة وجميع ما اصطنعوه لأنفسهم في الحياة الدنيا ليكون سندا لهم يستعينون به في يوم يؤسهم حيث لا يبقى سوى الشخص وعمله، ويزول كل ما عدا ذلك، أو يضل عنهم بحسب تعبير القرآن، وهو تعبير جميل يوحي بأن الشركاء سيكونون إلى درجة من الصغر والحقارة والضياع بحيث إنهم لا يروا بالعين.

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى^ط يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَى ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَاتَىٰ تَوْفَكُونَ ﴿٩٤﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾

مرّة أخرى يوجّه القرآن الخطاب إلى المشركين، ويشرح لهم دلالات التوحيد في عبارات جذابة وفي نماذج حيّة من أسرار الكون ونظام الخلق وعجائبه. في الآية الأولى يشير إلى ثلاثة أنواع من عجائب الأرض، وفي الآية الثانية يشير إلى ثلاثة من الظواهر السماوية. يقول القرآن الكريم أولاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾. «الفلق»: شقّ الشيء وإيالة بعضه عن بعض. و«الحب» و«الحبة»: تقال لأنواع الحبوب الغذائية كالحنطة والشعير ونحوهما من المطعومات التي تحصد، كما يقال ذلك لبروز الرياحين أيضاً. و«النوى»: من التّواة.

ومما يلفت الانتباه أنّ الحبة والنّواة غالباً ما تكونان صلبتين، فنظرة إلى نوى التمر والنوخ وأمثالها، وإلى بعض الحبوب الصلبة، تكشف لنا أنّ تلك النطفة الحياتية التي هي في الواقع صغيرة، محصنة بقلعة مستحكمة تحيط بها من كل جانب، وأنّ يد الخالق قد أعطت لهذه القلعة العصية على الإختراق خاصية التسليم والليونة أمام إختراق نطفة النبات، كما منحت النطفة قوة إندفاع تمكّنها من فلق جدران قلعتها فتطلع النبتة بقامتها المديدة، هذه حقاً حادثة عجيبة في عالم النبات لذلك يشير إليها القرآن على أنّها من دلالات التوحيد.

ثم يقول: ﴿يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَى﴾.

إنّ موضوع الحياة والموت بالنسبة للكائنات الحيّة من أعقد المسائل التي لم تستطيع العلوم البشرية الوصول إلى كنه حقيقتها ورفع الستار عن أسرارها لتخطو إلى أعماق

بجهولاتها، ولتعرف كيف يمكن لعناصر الطبيعة وموادها الجامدة أن تطفر طفرة عظيمة فتحوّل إلى كائنات حيّة.

لذلك نجد القرآن - وفي معرض إثبات وجود الله - كثيراً ما يكرر هذا الموضوع، كما يستدل أنبياء عظام كإبراهيم وموسى، على وجود مبدأ قادر حكيم بمسألة الحياة والموت لإقناع جبابرة طغاة مثل فرعون و فرعون.

وفي ختام الآية توكيد للموضوع: ﴿ذِكْرُكُمْ اللَّهُ فَمَا نَنْتُ تُوَفِّكُونَ﴾. أي هذا هو ربكم وهذه هي قدرته وعلمه اللامتناهي، فكيف بعد هذا تنحرفون عن الحق وتميلون إلى الباطل.

في الآية الثانية يشير القرآن إلى ثلاث نعم سماوية: فيقول أولاً: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾. كثيراً ما يشير القرآن إلى نعمتي النور والظلام والليل والنهار، ولكنّه هنا يتناول «طلوع الصبح» كنعمة من نعم الله الكبرى، فنحن نعرف أنّ هذه الظاهرة تحدث لوجود جوّ الأرض، ذلك الغلاف الضخم من الهواء الذي يحيط بالأرض، فلو كانت الأرض - مثل القمر - عديمة الجو، لما كان هناك «طلوعان» ولا «فلق» ولا «إصباح» ولا «غسق» ولا «شفق» غير أنّ الجو الموجود حول الأرض والمؤدّي إلى حصول فترة فاصلة بين ظلام الليل وضياء النهار عند طلوع الشمس وغروبها يهيئ للإنسان تدريجياً لتقبّل هذين الاختلاقيين المتضادين والانتقال من الظلمة إلى النور، ومن النور إلى الظلمة، شيئاً فشيئاً، بحيث إنّه يستطيع أن يتحمّل كل منهما.

ولكيلا يظن أحد أنّ فلق الصبح دليل على أنّ ظلال الليل أمر غير مطلوب وأنّه عقاب أو سلب نعمة، يبادر القرآن إلى القول: ﴿وَجَعَلَ آيَاتٍ سَكَنًا﴾.

من الأمور المسلم بها أنّ الإنسان يميل خلال انتشار النور والضياء إلى العمل وبذل الجهد، ويتّجه الدم نحو سطح الجسم وتتهيأ العضلات للفعالية والنشاط، ولذلك لا يكون النوم في الضوء مريحاً، بل يكون أعمق وأكثر راحة كلّما كان الظلام أشد، حيث يتّجه الدم فيه نحو الداخل، وتدخل الخلايا عموماً في نوع من السكون والراحة، لذلك نجد في الطبيعة أنّ النوم في الليل لا يقتصر على الحيوانات فقط، بل إنّ النباتات تنام في الليل أيضاً، وعند بزوغ خيوط الصباح الأولى تشرع بفعاليتها ونشاطها، بعكس الإنسان في هذا العصر الآلي، فهو يبقى مستيقظاً إلى ما بعد منتصف الليل، ثم يظل نائماً حتى بعد ساعات من طلوع الشمس، فيفقد بذلك نشاطه وسلامته.

ثم يشير الله تعالى إلى الثالثة من نعمه ودلائل عظمته بجعل الشمس والقمر وسيلة للحساب: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا﴾.

إنه لموضوع مهم جداً أن تكون الأرض منذ ملايين السنين تدور حول الشمس، والقمر يدور حول الأرض، أن حساب هذا الدوران من الدقة والضبط بحيث إنه لا يتقدم ولا يتأخر لحظة واحدة.

وهذا ما لا يمكن أن يكون إلا في ظل علم وقدرة لا نهائيتين يضعان تخطيطه وينفذانه بدقة، لذلك تنتهي الآية بقولها: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

بعد شرح نظام دوران الشمس والقمر في الآية السابقة، تشير هذه الآية إلى نعمة أخرى من نعم الله على البشر، فجعل النجوم لهتدي بها الانسان في ليالي البر والبحر: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾. وتختتم الآية بالقول بأن الله قد بين آياته لأهل الفكر والفهم والإدراك: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

منذ آلاف السنين والانسان يعرف النجوم في السماء ونظامها، بحيث كانت له هذه النجوم خير وسيلة لمعرفة الإتجاه في الأسفار البرية والبحرية، وعلى الأخص في المحيطات الواسعة التي كانت تخلو من كل إمارة تشير إلى الإتجاه قبل إختراع الإسطرلاب. إن النجوم هي التي هدت ملايين البشر وأنقذتهم من الغرق وأوصلتهم إلى بر السلامة.

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرَجُ مِنْهُ حَبًّا مَاتِرًا كَبَابًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ آلِئِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

هاتان الآيتان تتابعان دلائل التوحيد ومعرفة الله، وللوصول إلى هذا الهدف يأخذ القرآن بيد الإنسان ويسيح به في آفاق العالم البعيدة وقد يسير به في داخل ذاته ويبيّن له آثار الله في جسمه وروحه، فيتبيح له أن يرى الله في كل مكان. فيبدأ بالقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾. أي إنكم، على اختلاف ملامحكم وأذواقكم وأفكاركم والتباين الكبير في مختلف جوانب حياتكم، قد خلقتم من فرد واحد، وهذا دليل على منتهى عظمة الخالق وقدرته التي أوجدت من المثال الأوّل كل هذه الوجوه المتباينة.

ثم يقول: إنّ فريقاً من البشر «مستقر» وفريقاً آخر «مستودع» ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾. «المستقر»: أصله من «القر» (بضم القاف) بمعنى البرد، ويقتضي السكون والتوقف عن الحركة، فمعنى «مستقر» هو الثابت المكين.

و«مستودع»: من «ودع» بمعنى ترك، كما تستعمل بمعنى غير المستقر، والوديعة هي التي يجب أن تترك عند من أودعت عنده لتعود إلى صاحبها.

يتّضح من هذا الكلام أنّ الآية تعني أنّ الناس بعض «مستقر» أي ثابت، وبعض «مستودع» أي غير ثابت.

يحتمل أن يكون هذان التعبيران إشارة إلى الجزئين الأولين في تركيب نطفة الإنسان، إنّ النطفة تتركب من جزئين: الأوّل هو «البويضة» من الأنثى، والثاني هو «الحيمين» أو «المني» من الذكر، فالبويضة في رحم الأنثى تكاد تكون مستقر ولكن حيمين الذكر حيوان حي يتحرك بسرعة نحوها، وما أن يصل أوّل حيمين إلى البويضة حتى يمتزج بها و«يخصبها» ويصد (الحيامن) الأخرى، ومن هذين الجزئين تتكون بذرة الإنسان الأولى.

وفي ختام الآية يعود فيقول: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتِ لِقَوْمٍ يُفْقَهُونَ﴾.

الآية الثانية هي آخر آية في هذه المجموعة التي تكشف لنا عن عجائب عالم الخلق وتهدينا إلى معرفة الله بمعرفة مخلوقاته. في البداية تشير الآية إلى واحدة من أهم نعم الله التي يمكن أن تعتبر النعمة الأم وأصل النعم الأخرى، وهي ظهور النباتات ونموها بفضل النعمة التي نزلت من السماء: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾.

وإنما قال (من السماء) لأنّ سماء كل شيء أعلاه، فكل ما في الأرض من مياه العيون والآبار والأنهار والقنوات وغيرها منشؤها الأمطار من السماء، وقلّة الأمطار تؤثر في كمية المياه في تلك المصادر كلها، وإذا استمر الجفاف جفّت تلك المنابع، أيضاً.

ثم تشير إلى أثر نزول الأمطار البارز: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾. المقصود من ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ هو كل أنواع النباتات وأصنافها التي تسقى من ماء واحد، وتنبت في أرض واحدة وتتغذى من تربة واحدة، وأنه لمن العجيب أن الله تعالى يخرج من أرض واحدة وماء واحد الغذاء الذي يحتاجه كل هؤلاء. والأعجب من كل هذا أن نباتات الصحراء واليابسة ليست وحدها التي تنمو ببركة ماء المطر، بل إن النباتات المائية الصغيرة التي تطفو على سطح البحر وتكون غذاء للأسماك تنمو بأشعة الشمس وقطرات المطر.

ثم تشرح الآية ذلك وتضرب مثلاً ببعض النباتات التي تنمو بفضل الماء، فتذكر أن الله يخرج بالماء سيقان النباتات الخضراء من الأرض، ومن تلك الحبة الصلبة يخلق الساق الأخضر الطري اللطيف الجميل بشكل يعجب الناظرين: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا^١﴾.

ومن ذلك الساق الأخضر أخرجنا الحبّ مترصفاً منظماً: ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا^٢﴾. وكذلك بالماء نخرج من النخل طلعاً مغلقاً، ثم يتشقق فتخرج الاعداق بخيوطها الرفيعة الجميلة تحمل حبات التمر، فتتدلى من ثقلها: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ ثَلْجٍ قَنَوَانٍ دَانِيَةٍ^٣﴾.

«الطلع»: هو عذق التمر قبل أن ينفث غلافه الأخضر، وإذا ينفث الطلع تخرج منه أغصان العذق الرفيعة، وهي القنوان ومفردها قنوب. و«دانية»: أي قريبة، وقد يكون ذلك إشارة إلى قرب أغصان العذق من بعضها، أو إلى أنها تميل نحو الأرض لثقلها.

وكذلك بساتين فيها أنواع الأثمار والفواكه: ﴿وَجَنَاتٍ مِّنْ أَغْنَابٍ وَالزَّيْتُونِ وَالرُّمَّانِ^٤﴾. ثم تشير الآية إلى واحدة أخرى من روائع الخلق في هذه الأشجار والثمار، فتقول: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ^٥﴾.

إن شجرتي الرمان والزيتون متشابهتان من حيث الشكل الخارجي وتكوين الأغصان وهيئة الأوراق تشابهاً كبيراً، مع أنهما من حيث الثمر وطعمه وفوائده مختلفتان، ففي الزيتون مادة زيتية قوية الأثر، وفي الرمان مادة حامضية أو سكرية، فهما متباينان تماماً، ومع ذلك فقد تزرع الشجرتان في أرض واحدة، وتشربان من ماء واحد، فهما متشابهتان وغير متشابهتين في آن واحد.

١. كلمة «أخضر» تشمل كل أخضر في النبات، حتى براعم الأشجار، ولكن بما إنها متبوعة مباشرة بالحب المتراكب فالمقصود في الآية هو زراعة الحبوب.

٢. «المتراكب»: من الركوب وما ركب بعضه بعضاً، وأكثر الحبوب بهذا الشكل.

ثم تركّز الآية من بين مجموع اجزاء الشجرة، على ثمرة الشجرة وعلى تركيب الثمرة إذا أثمرت، وكذلك على نضج الثمرة إذا نضجت، ففيها دلائل واضحة على قدرة الله وحكمته للمؤمنين من الناس: ﴿ أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

ما نقرؤه اليوم في علم النبات عن كيفية طلوع الثمرة ونضجها يكشف لنا عن الأهمية الخاصة التي يوليها القرآن للأثمار، إذ إن ظهور الثمرة في عالم النبات أشبه بولادة الأبناء في عالم الحيوان، فنطفة الذكر في النبات تخرج من أكياس خاصة بطرق مختلفة (كالرياح أو الحيوانات) وتحط على القسم الأنثوي في النبات، وبعد التلقيح والتركيب تتشكل البيضة الملقحة الأولى، وتحيط بها مواد غذائية مشابهة لتركيبها، وهذه المواد الغذائية تختلف من حيث التركيب وكذلك من حيث الطعم والخواص الغذائية والطبية. فقد تكون ثمرة (مثل العنب والرمان) فيها مئات من الحبّ، كل حبة منها تعتبر جنيناً وبذرة لشجرة أخرى، ولها تركيب معقّد عجيب.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن المراحل المتعددة التي تمرّ بها الثمرة منذ تولدها حتى نضجها تثير الإنباه، لأنّ «المختبرات» الداخلية في الثمرة لا تنفك عن العمل في تغيير تركيبها الكيميائي إلى أن تصل إلى المرحلة النهائية ويثبت تركيبها الكيميائي النهائي، فكل مرحلة من هذه المراحل دليل على عظمة الخالق وقدرته.

ولكن لا بدّ من القول - بحسب تعبير القرآن - إنّ المؤمنين الذين يعنون النظر في هذه الأمور هم الذين يرون هذه الحقائق، وإلاّ فعين العناد والمكابرة والإهمال والتساهل لا يمكن أن ترى أدنى حقيقة.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ

الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

خالق كل شيء؛ هذه الآيات تشير إلى جانب من العقائد السقيمة والخرافات التي يؤمن بها المشركون وأصحاب المذاهب الباطلة، وترد عليهم بالمنطق. فأولاً: قالوا: إنَّ الله شركاء من الجن ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ﴾.

فينكر الإسلام عليهم ذلك، إذ كيف يمكن ذلك وهو الذي خلق الجن: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾. أي كيف يمكن أن يكون المخلوق شريكاً للخالق، لأنَّ الشركة دليل التماثل والتساوي، مع أنَّ المخلوق لا يمكن أن يكون في مصاف خالقه أبداً.

الخرافة الأخرى هي قولهم - جهلاً - إنَّ لله بنين وبنات: ﴿وَحَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

أفضل دليل على أنَّ هذه العقائد ليست سوى خرافة، هو أنَّها تصدر عنهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. أي إنهم لا يملكون أيَّ دليل على هذه الأوهام.

من الملاحظ أنَّ القرآن استعمل لفظة «حرقوا»: من الحرق، وهو تمزيق الشيء بغير روية ولا حساب، وهي في النقطة المقابلة تماماً «للخلق» القائم على الحساب، هاتان اللفظتان: «الخلق والحرق» قد تستعملان في حالات الكذب والاختلاق، مع اختلاف بينهما، هو أنَّ (الخلق والاختلاق) تستعمل في الأكاذيب المدروسة (والحرق والاختراق) فيما لا حساب فيه من الكذب. أي إنهم اختلقوا تلك الأكاذيب دون أن يدرسوا جوانب الموضوع وبدون أن يعدوا له ما يلزم من الأمور.

أما الطوائف التي كانت تنسب لله البنين، فإنَّ القرآن يذكر في آيات أخرى اسم طائفتين من هؤلاء:

الأولى: هم المسيحيون الذين قالوا: إنَّ عيسى ابن الله.

والأخرى: هم اليهود الذين قالوا: عزيز ابن الله.

يستفاد من الآية (٣٠) من سورة التوبة أنَّ المسيحيين واليهود ليسوا وحدهم الذين نسبوا إيناً لله، بل كان هذا موجوداً في المعتقدات الخرافية القديمة.

أما بشأن نسبة بنات لله، فالقرآن نفسه يوضح ذلك في آيات أخرى: ﴿وَجَعَلُوا آلَ مَلِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِناثاً﴾^١.

والقرآن يرفض تماماً في نهاية الآية كل هذه الخرافات التي لا أساس لها، وبعبارة حاسمة قاطعة: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾.

والآية التالية تردّ على تلك العقائد الخرافية فتؤكد أنّ الله هو ذلك الذي أبدع خلق السموات والأرض: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

«البديع»: تعني موجد الشيء بغير سابق وجود، أي إنّ الله أوجد السماوات والأرض بغير أن يسبق ذلك وجود مادة أو خطة سابقة.

ثم كيف يمكن أن يكون له أبناء دون أن تكون له زوجة؟! ﴿أَنْتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾. وما حاجته إلى زوجة؟ ثم من التي تكون زوجته وهم جميعاً مخلوقاته؟ ومرة أخرى تؤكد الآية مقامه باعتباره خالقاً لكل شيء، ومحيطاً بكل شيء: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

الآية الثالثة تؤكد على سبيل الاستنتاج من كل ما سبق، من ذكر خالقية الله لكل شيء، وإبداعه السماوات والأرض وإيجادها، وكونه منزهاً عن الصفات والعيوارض الجسمية وعن الحاجة إلى الزوجة والأبناء وإحاطته العلمية بكل شيء: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ فلا يستحق العبودية غيره. ولكي ينقطع كل أمل بغير الله، وتنقلع كل جذور الشرك والإعتماد على غير الله، تختتم الآية بالقول: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث، ومن أجل إثبات حاكمية الله وإحاطته بكل شيء وحفاظه على كل شيء، وكذلك لإثبات أنّه يختلف عن كل شيء، تقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. أي: إنّه الخبير بمصالح عبيده وبحاجاتهم، ويتعامل معهم بمقتضى لطفه.

في الحقيقة أنّ من يريد أن يكون حافظ كل شيء ومربيه وملجأه لا بد أن يتّصف بهذه الصفات.

لا تدركه الأبصار: تثبت الأدلة العقلية أنّ الله لا يمكن أن يرى بالعين، لأنّ العين لا تستطيع أن ترى إلّا الأجسام، أو على الأصح بعضاً من كفيات الأجسام، فإذا لم يكن الشيء جسماً ولا كيفية من كفيات الجسم، لا يمكن أن تراه العين، وبتعبير آخر، إذا أمكنت رؤية شيء بالعين، فلأنّ لهذا الشيء حيّزاً واتجاهاً وكتلة، في حين أنّ الله أرفع من أن يتّصف بهذه الصفات، فهو وجود غير محدود وهو أسمى من عالم المادة المحدود في كل شيء.

قَدْ جَاءَكُمْ بِصَآئِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ^ط فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَلِكَ نُنْصِرُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا أَدْرَسَتْ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾

ليس من واجبك الإكراه: تعتبر هذه الآيات نتيجة للآيات السابقة، ففي البداية تقول: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بِصَآئِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

«بصائر»: جمع «بصيرة» من «البصر» بمعنى الرؤية، ولكنها في الغالب رؤية ذهنية وعقلانية، وهذه الكلمة في هذه الآيات تعني الدليل والشاهد، وتشمل جميع الدلائل التي وردت في الآيات السابقة، بل إنها تشمل حتى القرآن نفسه.

ثم لكي تبين أن هذه الأدلة والبراهين كافية لإظهار الحقيقة لأنها منطقية، تقول: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾. أي إن إصغارهم يعود بالنفع عليهم وعماهم يسبب الإضرار بهم.

وفي نهاية الآية تقول، على لسان النبي ﷺ: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾. الآية التالية تؤكد أن إتخاذ القرار النهائي في إختيار طريق الحق أو الباطل إنما يرجع للناس أنفسهم، وتقول: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْصِرُ الْآيَاتِ﴾^١. أي كذلك نبين الأدلة والبراهين بصور وأشكال متنوعة.

لكن جمعاً عارضوا، وقالوا - دونما دليل وبرهان - إنك تلقيت هذا من الآخرين (أي اليهود والنصارى): ﴿وَلِيَقُولُوا أَدْرَسَتْ﴾. إلا أن جمعاً آخر ممن لهم الإستعداد لتقبل الحق لما لهم من بصيرة وفهم وعلم، يرون وجه الحقيقة ويقبلونها: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

إن إتهام رسول الله ﷺ بأنه إقتبس تعاليمه من اليهود والنصارى قد تكرر من جانب المشركين، وما يزال المعارضون المعاندون يتابعونهم في ذلك، مع أن حياة الجزيرة العربية لم تكن فيها مدرسة ولا درس ليتعلم منها رسول الله ﷺ شيئاً كما أن رحلاته إلى خارج

١. «نصرف»: من «التصرف» وهو بمعنى رد الشيء، من حالة أو إيداله بغيره، أي إن الآيات تنزل في صور وأشكال متنوعة ولمختلف المستويات العقلية والعقائدية والاجتماعية.

الجزيرة كانت قصيرة لا تدع مجالاً لمثل هذا الاحتمال، ثم إن معلومات اليهود والمسيحيين الذين كانوا يسكنون الحجاز كانت على درجة من التفاهة وتسطير المخرافات بحيث لا يمكن - أصلاً - مقارنتها بما في القرآن ولا بتعاليم الرسول ﷺ وسنشرح هذا الموضوع - إن شاء الله - عند تفسير الآية (١٠٣) من سورة النحل.

ثم تبين الآية واجب رسول الله ﷺ في قبال معاندة المعارضين وحقدهم وإتهاماتهم، فتقول: ﴿ أَتَبِعَ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾. ومن واجبك أيضاً الإعراض عما يوجهه إليك المشركون من إفتراءات: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾. هذا ضرب من التسلية والتقوية المعنوية للنبي ﷺ لكيلا ينتاب عزمه الراسخ الصلب أي ضعف في مواجهة أمثال هؤلاء المعارضين.

في الآية الأخيرة يكرر القرآن فيها - مرة أخرى - القول بأن الله لا يريد أن يكره المشركين ويجبرهم على الإسلام، إذ لو أراد ذلك لما كان هناك أيّ مشرك: ﴿ وَتَوْشَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾. كما يؤكد القول لرسول الله ﷺ: إنك لست مسؤولاً عن أعمال هؤلاء، لأنك لم تبعث لإكراههم على الإيمان: ﴿ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾. ولا من واجبك حملهم على عمل الخير: ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾.

«الحفيظ»: هو من يراقب أمراً أو شخصاً ليحفظه من أن يصاب بضرر؛ أمّا «الوكيل»: فهو من يسمى لإحراز النفع لموكله. *مراجعة كويتية علوم إسلامية*
إنّ الفكرة التي تسود هذه الآيات تستلقت النظر، فهي تقول: إنّ الإيمان بالله وبتعاليم الإسلام لا يكون عن طريق الإكراه والإجبار، بل يكون عن طريق المنطق والاستدلال والنفوذ إلى أفكار الناس وأرواحهم، فالإيمان بالإكراه لا قيمة له، لأنّ المهم هو أن يدرك الناس الحقيقة فينتقلوها بإرادتهم واختيارهم.

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

تناولت الآيات السابقة موضوع قيام تعاليم الإسلام على أساس المنطق، وقيام دعوته على أساس الاستدلال والإقناع لا الإكراه، وهذه الآية تواصل نفس التوجيهات فتنهى عن سبّ ما يعبد الآخرون - أي المشركون - لأنّ هذا سوف يدعوهم إلى أن يعمدوا هم أيضاً - ظلماً وعدواناً وجهلاً - إلى توجيه السب إلى ذات الله المقدسة: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾.

يروى أن بعض المؤمنين كانوا يتألمون عند رؤيتهم عبادة الأصنام، فيشتمون أحياناً الأصنام أمام المشركين، وقد نهى القرآن نهياً قاطعاً عن ذلك، وأكد التزام قواعد الأدب واللياقة حتى في التعامل مع أكثر المذاهب بطلاناً وخرافة.

إن السبب واضح، فالسبب والشتم لا ينعان أحداً من المضي في طريق الخطأ، لأن كل أمة تتعصب عادة لعقائدها وأعمالها كما تقول العبارة التالية من الآية: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾.

وفي الختام تقول الآية: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَقْسَادَهُمْ وَابْصُرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قالت قريش يا محمد! تخبرنا أن موسى كانت معه عصا يضرب بها الحجر، فينفجر منه اثنتا عشرة عيناً، وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة، فائتتنا بآية من الآيات كي تصدقك! فقال رسول الله ﷺ: «أي شيء تحبون أن آتيكم به؟» قالوا: اجعل لنا الصفا ذهباً، وابعث لنا بعض موتانا، حتى نسألهم عنك أحق ما تقول أم باطل، وأرنا الملائكة يشهدون لك، أو ائتنا بالله والملائكة قبيلاً! فقال رسول الله ﷺ: «فإن فعلت بعض ما تقولون، أتصدقونني؟» قالوا: نعم، والله لئن فعلت لنستعينك أجمعين. وسأل المسلمون رسول الله ﷺ أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا، فقام رسول الله ﷺ يدعو أن يجعل الصفا ذهباً، فجاءه جبرئيل ﷺ فقال له: «إن شئت أصبح الصفا ذهباً ولكن إن لم يصدقوا عذبتهم وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم». فقال رسول الله ﷺ: «بل يتوب تائبهم». فأنزل الله تعالى هذه الآية.

التفسير

وردت في الآيات السابقة أدلة كثيرة كافية على التوحيد، ورد الشرك وعبادة الأصنام، ومع ذلك فإن فريقاً من المشركين المعاندين المتعصبين لم يرضخوا للحق، وراحوا يعترضون وينتقدون. في الآية الأولى يقول القرآن: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ

لِيُؤْمِنُوا بِهَا^١

وفي الرد عليهم يشير القرآن إلى حقيقتين: يأمر النبي ﷺ أولاً أن يقول لهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾. أي إن تحقيق المعجزة لا يكون وفق مشتبهاتهم، بل إنها بيد الله وبأمره. ثم يخاطب المسلمين البسطاء الذين تأثروا بإيمان المشركين فيقول لهم: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. مؤكداً بذلك أن هؤلاء المشركين كاذبون في قسمهم. كما أن مختلف المشاهد التي جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ تؤكد حقيقة أنهم لم يكونوا يبحثون عن الحق، بل كان هدفهم من كل ذلك أن يشغلوا الناس ويبدروا في نفوسهم الشك والتردد.

الآية التالية تبين سبب عنادهم وتعصبهم، فتقول: ﴿وَنَقَلِبُ أَفْنِتَهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. أي إنهم بإصرارهم على الانحراف والسير في طريق ملتو وتعصبهم الناشيء عن الجهل ورفض التسليم للحق، أضعافوا قدرتهم على الرؤية الصحيحة والإدراك السليم، فراحوا يعيشون في متاهات الضلال والحيرة. ثم تشير الآية في الخاتمة إلى أن الله يترك أمثال هؤلاء في حالتهم تلك لكي يشتد ضلالهم وتزداد حيرتهم: ﴿وَنَلَّزَمَهُمْ فِي طَبْعِهِمْ يُعْمَهُونَ﴾. نسأل الله أن يجنبنا الابتلاء بمثل هذا الضلال والحيرة الناتجة عن أعمالنا السيئة، وأن يمنحنا النظرة السليمة الكاملة لكي نرى الحقيقة ناصعة لا غبش عليها.

وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾

هذه الآية تتبع سابقاتها في تعقيب الحقيقة نفسها، وهدف هذه الآيات هو بيان كذب أولئك الذين طلبوا تحقيق معجزات عجيبة وغريبة يستحيل تحقق بعضها كما مر. فيصريح القرآن في الآية المذكورة قائلاً: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾.

ثم يؤكد ذلك أنهم لا يمكن أن يؤمنوا إلا في حالة واحدة وهي أن يجبرهم الله بإرادته

١. «الجهد»: بمعنى السعي وبذل الطاقة، والمقصود هنا الجهد في توكيد القسم.

على الايمان: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إِلَّا أَنْ إيماناً كهذا لا ينفع في تربيتهم ولا يؤثر في تكاملهم وفي النهاية يقول: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾.

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ عُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْعَادُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

تشير هذه الآية إلى أن أمثال هؤلاء المعاندين اللجوجين المتعصبين الذين أشارت إليهم الآيات السابقة، لم يقتصر وجودهم على عهد نبي الخاتم ﷺ بل إن الأنبياء السابقين وقف في وجوههم أعداؤهم من شياطين الإنس والجن: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾. لا عمل لهم سوى الكلام المنمق الخادع يستغفل به بعضهم بعضاً، يلقونه في غموض أو يهمس به بعض لبعض: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ عُرُورًا﴾.

ولكن: لو أراد الله لمنع هؤلاء بالإكراه عن ذلك ولحال دون وقوف هؤلاء الشياطين وأمثالهم بوجه الأنبياء: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾. بيد أن الله لم يشأ ذلك، لأنه أراد أن يكون الناس أحراراً، وليكون هناك مجال لاختبارهم وتكاملهم وتربيتهم.

مركز تحقيقات كويتية للعلوم الإسلامية

لذلك يأمر الله نبيه في آخر السورة أن لا يلقى بالاً إلى أمثال هذه الأعمال الشيطانية: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

الآية التالية تشير إلى نتيجة كلام الشياطين المزخرف الخادع فتقول: أخيراً سيستمع الذين لا إيمان لهم - أي الذين لا يؤمنون بيوم القيامة - إلى تلك الأقوال وتميل قلوبهم إليها: ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْعَادُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾.

ثم يقول: إن نهاية هذا الميل هو الرضا التام بالمناهج الشيطانية ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾. وختام كل ذلك كان إرتكاب أنواع الذنوب والأعمال القبيحة: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾.

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

هذه الآية هي نتيجة الآيات السابقة، إذ تقول: بعد كل تلك الأدلة والآيات الواضحة التي تؤكد التوحيد: ﴿أَفَغَيَّرَ اللَّهُ أُمَّتِي حَكْمًا﴾. وهو الذي أنزل هذا الكتاب السماوي العظيم الذي فيه كل احتياجات الإنسان التربوية، وما يميز بين الحق والباطل والنور والظلمة، والكفر والإيمان: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾.

وليس الرسول والمسلمون وحدهم يعلمون أن هذا الكتاب قد نزل من الله، بل إن أهل الكتاب (اليهود والنصارى) يعلمون ذلك أيضاً، لأنّ علام هذا الكتاب السماوي قرؤها في كتبهم ويعلمون أنه نزل من الله بالحق: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَّا هُمْ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾.

وعلى ذلك لم يبق مجال للشك فيه، وكذلك أنت أيها النبي لا تشك فيه أبداً، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ﴾.

الآية التالية تقول: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. «الكلمة»: بمعنى القول وتطلق على كل جملة وكل كلام مطوّلاً كان أم موجزاً، أمّا بالنسبة لاستعمالها في هذه الآية إنها تعني القرآن لأن الآيات السابقة كانت تشير إلى القرآن. فيكون معنى الآية إذن: إن القرآن ليس موضع شك بأي شكل من الأشكال، فهو كامل من جميع الجهات ولا عيب فيه، وكل أخباره وما فيه من تواريخ صدق، وكل أحكامه وقوانينه عدل. ويستند بعض المفسرين إلى هذه الآية لاثبات عدم تحريف القرآن، لأنّ تعبير ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ تعني أن أحداً لا يستطيع أن يحدث في القرآن تبديلاً أو تغييراً، لا في لفظه، ولا في أخباره، ولا في أحكامه، وأن هذا الكتاب السماوي الذي يجب أن يبقى حتى نهاية العالم هادياً للناس سيبقى محفوظاً ومصوناً من أغراض الخائنين والمحرّفين.

وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ
وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

نعلم أن آيات هذه السورة نزلت في مكة، يوم كان المسلمون قلّة في العدد، ولعل قلّتهم هذه وكثرة المشركين وعبدة الأصنام كانت مدعاة لتوهم بعضهم أنه إذا كان دين أولئك

باطلاً فلم كثر أتباعه؟! وإذا كان دين الإسلام حقاً، فما سبب قلة معتنقيه؟
ولدفع هذا التوهم يخاطب الله نبيه بعد ذكر أحقية القرآن في الآيات السابقة قائلاً: ﴿وَإِنْ
تُطِغْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

وفي الجملة التالية يبين ذلك وهو أنهم يتبعون الظنون التي تخالطها الأهواء والأكاذيب
ويعتزج بها الخداع والتخمين: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

فيكون مفهوم الآية الشريفة أن الأكثرية لا يمكن أن تكون وحدها الدليل على طريق
الحق، ومن هذا نستنتج أنه يجب التوجه إلى الله وحده لمعرفة طريق الحق، حتى لو كان
السائرون في هذا الطريق قلة في العدد.

والدليل على ذلك يرد في الآية التالية التي تؤكد على أن الله عليم بكل شيء ولا مكان
للخطأ في علمه، فهو أعرف بطريق الهداية، كما هو أعرف بالضالين وبالسائرين على طريق
الهداية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا
مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَ
إِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا
ظَهْرَ الْأَثَمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْأَثَمَ سَيَجْرُونَ بِمَا كَانُوا يَفْقَرُونَ ﴿١٢٠﴾

الآيات السابقة تناولت بأساليب متنوعة حقيقة التوحيد وإثبات بطلان الشرك وعبادة
الأصنام. ومن نتائج ذلك أن على المسلمين أن يمتنعوا عن أكل لحوم القرابين التي تذبح باسم
الأصنام، بل عليهم أن يأكلوا من لحم ما ذكر اسم الله عليه، لذلك يبدأ القرآن بالقول:
﴿فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾. أي إن الإيمان ليس بمجرد قول
وادعاء وعقيدة ونظرية، بل لابد أن يظهر على صعيد العمل أيضاً، فالذي يؤمن بالله يأكل
من هذه اللحوم فقط.

بديهي أن حرمة الذبائح التي لم يذكر اسم الله عليها، هي خلفية أخلاقية ومعنوية
وتستهدف تثبيت قواعد التوحيد وعبودية الله الواحد الأحد.

الآية التالية تورد هذا الموضوع نفسه بعبارة مغايرة مع مزيد من الاستدلال، فتقول: لم لا

تأكلون من اللحوم التي ذكر اسم الله عليها، في الوقت الذي بين الله لكم ما حرم عليكم؟ ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

مرة أخرى نشير إلى أن التوبيخ والتوكيد ليسا من أجل ترك أكل اللحم الحلال، بل الهدف هو أن هذه هي ما ينبغي أن تأكلوا منها، لا من غيرها، وبعبارة أخرى: التوكيد هنا على النقطة المقابلة لمفهوم العبارة، من هنا استدل على ذلك بالقول: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

ثم يستثني من ذلك حالة واحدة: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ سواء كان هذا الاضطرار ناشئاً من وجود الإنسان في البيداء وتحت ضغط الجوع الشديد، أو الوقوع تحت سيطرة المشركين الذين قد يجبرونه على أكل لحومهم.

ثم تشير الآية إلى أن كثيراً من الناس يحاولون أن يضلوا الآخرين عن جهل أو عن اتباع الهوى: ﴿وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

يلزم القول أن الجملة المذكورة ربما تكون إشارة إلى ما كان سائداً بين المشركين العرب الذين كانوا يسوّغون لأنفسهم أكل لحوم الحيوانات الميتة بالقول: أيجوز أن تعتبر لحوم الحيوانات التي نقتلها بأنفسنا حلالاً، ولحوم الحيوانات التي يقتلها الله حراماً؟

بديهي أن هذا لم يكن سوى سفسطة فارغة، لأن الحيوان الميت ليس حيواناً ذبحه الله ليمكن مقارنته بالحيوانات المذبوحة، إذ إن الحيوان الميت بؤرة الأمراض ولحمه فاسد، ولهذا حرم الله أكله، وأخيراً يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ الذين يحاولون بهذه الأدلة الواهية تنكب طريق الحق، بل يسعون إلى إضلال الآخرين.

الآية الثالثة تذكر قانوناً عاماً، فيحتمل أن يرتكب بعضهم هذا الإثم في الخفاء، وتقول:

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾.

يقال إنهم في الجاهلية كانوا يعتقدون أن الزنا إذا ارتكب في الخفاء فلا بأس به، أما إذا ارتكب علناً فهو الإثم! واليوم - أيضاً - نجد أناساً يسيرون وفق هذا المنطق الجاهلي فيخشون ارتكاب الإثم علانية، ولكنهم يرتكبون في الخفاء ما يشاؤون من الآثام دون رادع من ضمير.

إن هذه الآية لا تدين هذا المنطق فحسب، بل من باب تهديد المذنبين بما ينتظرهم من مصير مشؤوم وتذكيرهم بذلك، تقول الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾.

وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ
أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّدُوا لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

دار الكلام في الآيات السابقة حول الجانب الإيجابي من مسألة اللحوم، أي أكل اللحوم الحلال، وفي هذه الآية تأكيد للجانب السلبي من المسألة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾. ثم في جملة واحدة يدين هذا العمل: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ وإثم وخروج عن طريق العبودية وإطاعة الله.

ولكيلا يقع بعض البسطاء من المسلمين تحت تأثير وسوسة الشيطان، تخاطبهم الآية: إن الشياطين يوسوسون في الخفاء لأتباعهم لكي يدخلوا معكم في جدل ونقاش: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ ولكن كونوا على حذر، ولا تطيعوهم: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

لعل هذا الجدل والوسوسة إشارة إلى ما كان سائداً بين المشركين بشأن أكل الميتة (وذهب البعض إلى أن العرب المشركين أخذوه من الجوس) وقولهم: إننا نأكل الميتة لأن الله أماتها، وهي لذلك أفضل مما نقتله بأيدينا، معتقدين أن عدم أكل الميتة نوع من الجفاء لعمل الله غافلين أن الحيوان الميت موتاً طبيعياً، إضافة إلى مرضه غالباً، يضم بين لحمه دماً قدراً فاسداً يفسد معه اللحم، بسبب عدم إنقطاع أوداجه.

ويستفاد من هذه الآية - ضمناً - حرمة الذبيحة غير الإسلامية، لأنها - إضافة إلى الجهات الأخرى - لم يتقيد ذابحها بذكر اسم الله عليها.

أَوْ مَنْ كَانَ مِيثَاقَ حَيْثِنَهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلَهُ فِي
الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾
وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ
إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان قيل: إنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب، وأبي جهل بن هاشم،

وذلك أن أبا جهل آذى رسول الله ﷺ فأخبر بذلك حمزة، وهو على دين قومه، فغضب وجاء معه قوس، فضرب بها رأس أبي جهل، وآمن.
وقيل: نزلت في عمار بن ياسر حين آمن، وأبي جهل.

التفسير

ترتبط هذه الآية بالآيات السابقة من حيث كون الآيات السابقة أشارت إلى طائفتين من الناس: المؤمنين المخلصين، والكافرين المعاندين الذين لا يكتبون بصلاحهم، بل يسعون حثيثاً إلى تضليل الآخرين، هنا أيضاً يتجسد وضع هاتين الطائفتين من خلال ضرب مثل واضح.

يشير المثال إلى طائفة من الناس كانوا من الضالين، ثم غيروا مسيرتهم باعتراف الإسلام فهؤلاء أشبه بالميت الذي يحييه الله بإرادته: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾.
الإيمان يغير الأفراد ويشمل هذا التغيير كل جوانب الحياة، وتبدو آثاره في كل الحركات والسكنات.

ثم تقول الآية عن أمثال هؤلاء: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾.
على الرغم من وجود الاختلاف في تفسير هذا «النور» فالظاهر أن المقصود ليس القرآن وتعاليم الشرع فحسب، بل أكثر من ذلك، حيث يمنح الإيمان بالله الإنسان رؤية وإدراكاً جديدين... يمنحه رؤية واضحة ويوسع من آفاق نظره لتتجاوز إطار حياته المادية وجدران عالم المادة الضيق إلى عالم أرحب وأوسع.

إنه في ضوء هذا النور يستطيع أن يميز مسيرة حياته بين الناس، وأن يصون نفسه ويحافظ عليها ويحصنها ضد ما يقع فيه الآخرون من أخطار الطمع والجشع والأفكار المادية المحدودة، والوقوف بوجه أهوائه وكبح جماحها.

إن ما نقرأه في الأحاديث الإسلامية من أن «المؤمن ينظر بنور الله» إشارة إلى هذه الحقيقة.

ثم تقارن الآية بين هذا الإنسان الحي، الفعال، النير، والمؤثر، بالإنسان العديم الإيمان والمعاند، فتقول: ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾.

إنه لم يبق من وجود هؤلاء الأفراد سوى شبح، أو قالب، أو مثال أو تمثال، لهم هياكل خالية من الروح وأدمغة معطلة عن العمل.

وفي الختام تشير الآية إلى سبب مصير هؤلاء المشؤوم فتقول: ﴿كَذَلِكَ نُزِّنُ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ولمّا كان بطل هذه المشاهد في جانبها السلبي هو «أبو جهل» الذي كان من كبار مشركي قريش ومكة، فالآية الثانية تشير إلى حال هؤلاء الزعماء الضالين وقادة الكفر والفساد، فتقول: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾. أي إنّ عاقبة عصيانهم وكثرة ذنوبهم أدّت بهم إلى أن يصبحوا سدّاً على طريق الحق، وعاملاً على جرّ الناس نحو الانحراف والابتعاد عن طريق الحق.

وفي الختام تقول الآية: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

كما يستفاد من هذه الآية أنّ النكبات والتعاسة التي تصيب المجتمع إنّما تنشأ من رموزه وقادته، إذ يتوسلون بالمكر والحيلة لتغيير معالم الطريق إلى الله، ويخفون وجه الحق عن الناس.

وَإِذَا جَاءَ تَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِحَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ لِّمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت في الوليد بن المغيرة قال: والله لو كانت النبوة حقاً، لكنت أولى بها منك، لأنّي أكبر منك سنّاً وأكثر عنك مالاً.

التفسير

تشير هذه الآية بإيجاز إلى طريقة تفكير هؤلاء الأكابر ﴿أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا﴾ وإلى مزاعمهم المضحكة الباطلة، فتقول: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِحَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾.

إنّ القرآن يردّ على هؤلاء بوضوح قائلاً: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

بديهي أنّ الرسالة لا علاقة لها بالسن ولا بالمال ولا بمراكز القبائل، لأنّ شرطها الأوّل هو الاستعداد الروحي، وطهارة الضمير، والسجايا الإنسانية الأصيلة، والفكر السامي،

والرأي السديد ثم التقوى إلى درجة العصمة... إن هذه الصفات، وخصوصاً الاستعداد لمقام العصمة لا يعلم بها غير الله، فما أبعد الفرق بين هذه الشروط وما كان يدور بخلد أولئك.

كما إن من يخلف رسول الله ﷺ لا بد أن تكون له جميع تلك الصفات عدا الوحي والتشريع، أي أنه حامي الشرع والشريعة، والمحارس على قوانين الإسلام، والقائد المادي والمعنوي للناس، لذلك لا بد له أن يكون معصوماً عن الخطأ والإثم، لكي يكون قادراً على أن يوصل الرسالة إلى أهدافها، وأن يكون قائداً مطاعاً وقدوة يُعتمد عليه.

وبناءً على ذلك، يكون اختياره من الله أيضاً، فهو وحده الذي يعلم أين يضع هذا المقام، فلا يمكن أن يترك ذلك للناس ولا للانتخابات والشورى.

وفي النهاية تشير الآية إلى المصير الذي ينتظر أمثال هؤلاء المجرمين والزعماء الذين يدعون الباطل، فتقول: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾^١.

كان هؤلاء الأنانيون بمواقفهم العدائية يريدون أن يحافظوا على مراكزهم، ولكن الله سينزلهم إلى أدنى درجات الصغار والحقارة بحيث إنهم سيتعذبون بذلك عذاباً روحياً شديداً، مضافاً إلى أنهم سيلاقون العذاب الشديد في الآخرة لأن سعيهم على طريق الباطل كان شديداً أيضاً.

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ هُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

تعقيباً على الآيات السابقة التي دارت حول المؤمنين الصادقين والكافرين المعاندين تشرح هذه الآية النعم الإلهية الكبيرة التي تنتظر الفريق الأول، والشقاء الذي سيصيب

١. «الإجرام»: من «جرم» وأصله القطع، والمجرم هو الذي يقطع العهود وإرتباطه بالله بعدم إطاعته، ولذلك أطلقت كلمة «الجرم» على الإثم والذنب، في هذا إشارة لطيفة إلى أن هناك في ذات الإنسان إتفاق مع الحق والظهارة والعدالة، والإجرام هو قطع هذا الإتفاق الفطري الإلهي.

الفريق الثاني، فتقرر أن الله ينعم بالهداية على من يشاء، وذلك بأن يفتح صدره لتقبل الإسلام، أما الذي لا يريد الله أن يوفقه لذلك - لسوء أعماله - يضيق صدره بحيث يجعله وكأنه يريد أن يصعد إلى السماء. ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾.

ولتوكيد هذا الأمر تضيف الآية: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. فيسلبهم التوفيق ويركسهم في التعاسة والشقاء.

سبق لنا أن قلنا مرّات عديدة أن المقصود من لفظي «الهداية» و«الضلالة» الإلهيين هو توفير الظروف والمقدمات المؤدية إلى الهداية بالنسبة للذين لهم الاستعداد لذلك، وسلبها عن الذين لا استعداد لهم لذلك، بالنظر إلى أعمالهم.

الآية التالية تؤكد البحث السابق فتقول: إن المدد الإلهي الذي يشمل السالكين في خط الايمان والعبودية لله ويُسلب عن الذين يتنكبون عن سبيل الله، إنما هو سنة إلهية مستقيمة ثابتة لا تتبدل ﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾.

وفي ختام الآية توكيد آخر: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَكِّرُونَ﴾. أي لمن يملكون قلوباً واعية وأذناً سامعة.

الآية الثالثة تشير إلى نعمتين من أكبر النعم التي يهبها الله للذين يطلبون الحق، إحداها: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾. والثانية: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾. أي ناصرهم وحافظهم، وكل ذلك لما قاموا به من الأعمال الصالحة: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. فأبى فخر أجل وأرفع من أن يتولى الله أمور الإنسان ويتكفل بها فيكون حافظه ووليّه، وأية نعمة أعظم من أن تكون له دار السلام، دار الأمن والأمان، حيث لا حرب ولا سفك دماء، ولا نزاع ولا خصام، ولا عنف ولا تنافس قاتل ومميت، ولا تضارب مصالح، ولا كذب ولا إفتراء، ولا إتهام ولا حسد ولا حقد، ولا هم ولا غم، بل الهدوء والطمأنينة والهناء؟

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا بِمَعْشَرِ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُوَوِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٢٢٩﴾

تعود هاتان الآيتان إلى بيان مصير المجرمين الضالين والمضلين فتكلمان ما بحث في السابق، فتذكران بيوم يقفون فيه وجهاً لوجه أمام الشياطين الذين كانوا يستلهمون منهم،

ورد وصف مصير الظالمين من أتباع الشياطين يوم القيامة في الآيات السابقة ولكيلا يظن أحد أنهم في حالة من الغفلة ارتكبوا ما ارتكبوه من إثم، تبين هذه الآيات أن تحذيرهم قد تم بما فيه الكفاية وتمت عليهم الحجة، لذلك يقال لهم يوم القيامة: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾.

«معشر»: من العدد «عشرة»، وبما أن العشرة تعتبر عدداً كاملاً، فالمعشر هي الجماعة الكاملة التي تضم مختلف الطوائف والأصناف.

ثم تقول الآية: ﴿قَالُوا سَهِنًا عَلَيَّ أَنْفُسِنَا﴾ لأن يوم القيامة ليس يوم الكتمان، بل إن دلائل كل شيء تكون بادية للعيان، وما من أحد يستطيع أن يخفي شيئاً، فالجميع يعترفون أمام هذا السؤال الإلهي قائلين: إننا نشهد ضد أنفسنا ونعترف أن الرسل قد جاؤونا وأبلغونا رسالاتك ولكننا خالفناها.

نعم... لقد كانت أمامهم آيات ودلائل كثيرة من الله، وكان يميزون الخطأ من الصواب، إلا أن الحياة الدنيا ببريقها ومظاهرها قد خدعتهم وأضلتهم: ﴿وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾.

مرة أخرى يؤكد القرآن أنهم شهدوا على أنفسهم بالسنتهم بأنهم قد ساروا في طريق الكفر ووقفوا إلى جانب منكري الله: ﴿وَشَهِدُوا عَلَيَّ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

الآية التالية تعيد المضمون السابق بصورة قانون عام وسنة ثابتة، وهي: أن الله لا يأخذ الناس في المدن والمناطق المسكونة بظلمهم إذا كانوا غافلين، إلا بعد أن يرسل إليهم الرسل لينبهوهم إلى قبيح أعمالهم، ويحذروهم من مغبة أفعالهم: ﴿ذَٰلِكَ أَن تَمَّ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾.

قد تعني «بظلم» أن الله لا يظلم أحداً بأن يعاقبه عما فعل وهو غافل، لأن معاقبتهم بهذه الصورة تعتبر ظلماً، والله أرفع من أن يظلم أحداً.

وتذكر الآية الثالثة خلاصة ما ينتظر هؤلاء من مصير، وتقرر أن لكل من هؤلاء - الأخيار والأشرار، المطيعين والعصاة، طالبي العدالة والظالمين - درجات ومراتب يوم القيامة تبعاً لأعمالهم، وإن ربك لا يغفل عن أعمالهم، بل يعلمها جميعاً، ويجزي كل ما بقدر ما يستحق: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

هذه الآية تؤكد مرة أخرى الحقيقة القائلة بأن جميع «الدرجات» و«الدركات» التي يستحقها الإنسان إنما هي وليدة أعماله، لا غير.

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ
مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنْ مَا تُوْعَدُونَ
لَأْتِيَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَنْقُورِ أَعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾

الآية الأولى تستدل على ما سبق في الآيات التي مرّت بشأن عدم ظلم الله تعالى، وتؤكد أن الله لا حاجة له بشيء وهو عطف ورحيم، وعليه لا دافع له على أن يظلم أحداً أبداً، لأن من يظلم لا بد أن يكون محتاجاً، أو أن يكون قاسي القلب فظاً: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ كما أنه لا حاجة له بطاعة البشر، ولا يخشى من ذنوبهم، بل إنّه قادر على إزالة كل جماعة بشرية ووضع آخرين مكانها كما فعل بمن سبق تلك الجماعة: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾.

بناءً على ذلك فهو غني لا حاجة به إلى شيء، ورحيم، وقادر على كل شيء، فلا يمكن إذن أن نتصوره ظالماً.

وإذا أدركنا قدرته التي لا حدود لها يتضح لنا أن ما وعده بشأن يوم القيامة والجزاء سوف يتحقق في موعده بدون أي تخلف: ﴿إِنْ مَا تُوْعَدُونَ لَأْتِيَنَّكُمْ﴾.

كما أنكم لا تستطيعون أن تخرجوا عن نطاق حكمه ولا أن تهربوا من قبضته العادلة: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾^١.

ثم يؤمر رسول الله ﷺ بأن يهددهم: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

١. «معجزين»: من «أعجز» أي جعله عاجزاً، فالآية تقول: إنكم لا تستطيعون أن تجعلوا الله عاجزاً عن بعث الناس وتحقيق العدالة، وبعبارة أخرى: أنتم لا تستطيعون مقاومة قدرة الله.

لاقتلاع جذور الشرك وعبادة الأصنام من الازدهان يعود القرآن إلى ذكر العادات والتقاليد والعبادات الخرافية السائدة بين المشركين، ويثبت في بيان واضح أنها خرافية ولا أساس لها، فقد كان كفار مكة وسائر المشركين يخصصون لله سهماً من مزارعهم وأنعامهم، كما كانوا يخصصون سهماً منها لأصنامهم أيضاً، قائلين: هذا القسم يخص الله، وهذا القسم يخص شركاءنا أي الأصنام: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾.

ثم تشير الآية إلى واحد من أحكامهم العجيبة وهو الحكم بأن ما خصصوه لشركائهم لا يصل إلى الله، ولكن ما خصصوه لله يصل إلى شركائهم ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾.

إنهم إذا أصاب نصيب الله ضرر على أثر حادثة قالوا: هذا لأهميته له لأن الله لا حاجة به إليه، ولكن إذا أصاب الضرر نصيب أصنامهم عوضوا عنه من نصيب الله، قائلين: إن الأصنام أشد حاجة إليه.

وفي الختام تدين الآية هذه الخرافات فتقول: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

فأي حكم أقبح وأدعى إلى العار من أن يعتبر إنسان قطعة من الحجر أو الخشب الذي لا قيمة له أرفع من خالق عالم الوجود، هل هناك هبوط فكري أخط من هذا؟

وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ
شُرَكَاءَهُمْ لِيَرُدُّوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ
فَذَرَّهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

يشير القرآن في هذه الآية إلى عمل قبيح آخر من أعمال عبدة الأصنام القبيحة وجرائمهم الشائنة، ويذكر أنه كما ظهر لهم أن تقسيمهم الحصص بين الله والأصنام عمل حسن بحيث أنهم اعتبروا هذا العمل القبيح والخرافي، بل والمضحك، عملاً محموداً، كذلك زين الشركاء قتل الأبناء في أعين الكثيرين من المشركين بحيث إنهم راحوا يعدون قتل الأولاد نوعاً من «الفخر» و«العبادة»: ﴿وَكُلُّكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءَهُمْ﴾.

«الشركاء» هنا هم الأصنام، فقد كانوا أحياناً يقدمون أبناءهم قرابين لها، أو كانوا يندرون أنهم إذا وهبوا ابناً يذبحونه قرباناً لأصنامهم، كما جاء في تاريخ عبدة الأصنام القدامى وعليه فإن نسبة «التزيين» للأصنام تعود إلى أن شدة تعلقهم بأصنامهم وحبهم لها كان يحدو بهم إلى ارتكاب هذه الجريمة النكراء.

ثم يوضح القرآن أن نتيجة تلك الأفعال الفبيحة هي أن الأصنام وخدامها ألقوا بالمشركين في مهاوي الهلاك، وشككوهم في دين الله، وحرموهم من الوصول إلى الدين الحق: ﴿لِيُرْذَوْهُمْ وَيَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾.

ومع ذلك كله، فإن الله قادر على أن يوقفهم عند حدّهم بالإكراه، ولكن الإكراه خلاف سنة الله، إن الله يريد أن يكون عباده أحراراً لكي يمهد أمامهم طريق التربية والتكامل، وليس في الإكراه تربية ولا تكامل: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾.

ومادام هؤلاء منغمسين في أباطيلهم وخرافاتهم دون أن يدركوا شناعتها، بل الأدهى من ذلك أنهم ينسبونها أحياناً إلى الله، إذن فأتركهم وإتهاماتهم والتفت إلى تربية القلوب المستعدة: ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾.

وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلذُّكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِيتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

تشير هذه الآيات إلى بعض الأحكام الخرافية لعبدة الاوثان، والتي تدل على قصر نظرهم وضيق تفكيرهم، وتكمل ما مرّ في الآيات السابقة. تذكر في البداية أقوال المشركين بشأن من لهم الحق في نصيب الأصنام من زرع وأنعام، وتبين أنهم كانوا يرون أنها محرمة إلا على طائفة معينة: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾.

ومرادهم المتولّون أمور الأصنام والمعابد، والمشركون كانوا يذهبون إلى أن هؤلاء وحدهم الحق في نصيب الأصنام.

«الحجر» هو المنع.

ثم تشير الآية إلى واحدة أخرى من خرافاتهم تقضي بمنع ركوب بعض الدواب: ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾.

ثم تشير إلى القسم الثالث من الأحكام الباطلة فتقول: ﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾.

ولعلها إشارة إلى الحيوانات التي كانوا يذكرون أسماء أصنامهم عليها فقط عند ذبحها، أو هي المطايا التي كانوا يحرمون ركوبها للذهاب إلى الحج.

والأعجب من ذلك أنهم لم يقنعوا بتلك الأحكام الفارغة، بل راحوا ينسبون إلى الله كل ما يخطر لهم من كذب: ﴿أَفْتَرَاءَ عَلَيْهِ﴾.

وفي ختام الآية، وبعد ذكر تلك الأحكام المصطنعة، تقول إن الله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

الآية التالية تشير إلى حكم خرافي آخر بشأن لحوم الحيوانات، يقضي بأن حمل هذه الأنعام يختص بالذكور، وهو حرام على الزوجات، أما إذا خرج ما في بطونها ميتاً، فكأنهم شركاء فيه: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَيْنَا أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾.

و يشجب القرآن هذا الحكم الجاهلي، ويقر بأن الله سوف يعاقبهم على هذه الأوصاف، ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾.

وختاماً تقول: ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾. فهو عليم بأعمالهم وأقوالهم وإتهاماتهم الكاذبة، كما أنه يعاقبهم وفق حساب وحكمة.

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ
أَفْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

تعقيباً على الآيات السابقة التي تحدّثت عن بعض الأحكام التافهة والتقاليد القبيحة في عصر الجاهلية الشائن، كقتل الأبناء قرباناً للأصنام، وواد البنات خشية العار، وتحريم بعض نعم الله الحلال، تدين هذه الآية كل تلك الأعمال بشدة، في سبعة تعبيرات وفي جمل قصيرة نافذة توضح حالهم. في البداية تقول: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. وكل صفة من هذه الصفات الثلاث كافية لإظهار قبح أعمالهم، فأبي علم يميز

للإنسان أن يعتبر هذه الأعمال قانوناً اجتماعياً؟

من هنا نفهم ما قاله ابن عباس بشأن ضرورة قراءة سورة الأنعام لمن شاء أن يدرك مدى تخلف الأقسام الجاهليين.

ثم يذكر القرآن أن هؤلاء قد حرموا على أنفسهم ما رزقهم الله وأحلّه لهم وكذبوا على الله ونسبوا هذه الحرمه له سبحانه: ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾.

في هذه العبارة إدانة أخرى لأعمالهم، فهم - أولاً - حرموا على أنفسهم النعمة التي «رزقهم» إياها وأباحها لهم وكانت ضرورية لحياتهم، فنقضوا بذلك قانون الله. وهم - ثانياً - «افتروا» على الله قائلين إنه هو الذي أمر بذلك.

في ختام الآية وفي جملتين قصيرتين إدانة أخرى لهم، فهم: ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ ثم إنهم لم يسلكوا يوماً الطريق المستقيم: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾

لقد جاءت الإشارة في هذه الآية إلى عدة مواضع، كل واحد منها متفرع عن الآخر، ونتيجة عنه. فهو تعالى يقول أولاً: إن الله تعالى هو الذي خلق أنواع البساتين والمزارع الحاوية على أنواع الأشجار والنباتات، فمنها ما يعتمد في موقفه على الأعمدة والعروش حيث تحمل ما لذ وطاب من الفواكه والثمار، وتجلب بمنظرها الساحر العيون والالباب، ومنها ما لا يحتاج إلى عريش، بل هو قائم على سوقه يلقي بظلاله الوارفة على رؤوس الآدميين، ويسدّ بثماره المتنوعة حاجة الإنسان إلى الغذاء: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾.

ثم إن الآية تشير إلى نوعين من البساتين والمزارع إذ تقول: ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ﴾.

ثم إنه تعالى يضيف قائلاً: إن هذه الأشجار مختلفة ومتنوعة من حيث الثمر والطعم. فع أن جميعها ينبت من أرض واحدة ويسقى بماء واحد فإن لكل واحدة منها رائحة خاصة، ونكهة معينة، وخاصية تختص بها، ولا توجد في غيرها: ﴿مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ﴾.

ثم يشير سبحانه إلى قسمين آخرين من الثمار عظيمي الفائدة، جيلي النفع في مجال التغذية البشرية إذ يقول: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَانَ﴾.

إن اختيار هاتين بالذكر من بين أشجار كثيرة إنما هو لأجل أن هاتين الشجرتين: (شجرة الزيتون وشجرة الرمان) رغم تشابههما من حيث الظاهر والمظهر تختلفان اختلافاً شاسعاً من حيث الثمرة، ومن حيث الخاصية الغذائية، ولهذا عقب على قوله ذلك بهاتين الكلمتين: ﴿مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾.

وبعد ذكر كل هذه النعم المتنوعة يقول سبحانه: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَعَآثُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾.

ثم ينهى في نهاية المطاف عن الإسراف إذ يقول تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾. «الإسراف»: تجاوز حد الاعتدال في كل فعل يفعله الإنسان. وهذه الجملة يمكن أن تكون إشارة إلى عدم الإسراف في الأكل، أو عدم الإسراف في الإنفاق والبذل.

وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاءٌ كَلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ نَسِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّآئِنِ أُنثَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِزِ أُنثَيْنِ قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ أُنثَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ أُنثَيْنِ قُلْ ءَالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيَكُمُ اللَّهُ بِهِذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾

إن هذه الآيات - كما أشرنا إلى ذلك - بصدده إبطال أحكام خرافية جاهلية كان المشركون يدينون بها في مجال الزراعة والأنعام. ففي الآية المتقدمة جرى الحديث حول أنواع المزروعات والثمار التي أنشأها الله، وفي هذه الآيات يدور الحديث حول الحيوانات المحللة اللحم، وما تؤدّيه من خدمات، وما يأتي منها من منافع. يقول أولاً: إن الله هو الذي خلق لكم حيوانات كبيرة للحمل والنقل، وأخرى صغيرة: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاءٌ﴾.

«حمولة»: جمع وليس لها مفرد وتعني الحيوانات الكبيرة التي تستخدم للحمل والنقل كالإبل والفرس ونظائرها. و«فرش»: هو بنفس المعنى المتعارف، ولكن فُسر هنا بالغنم وما يشابهه من الحيوانات الصغيرة.

ثم إن الآية الشريفة تخلص إلى القول بأنه لما كانت جميع هذه الأنعام قد خلقها الله تعالى وحكمها بيده، فإنه يأمركم قائلاً: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

ولتأكيد هذا الكلام وإبطال أحكام المشركين الخرافية يقول: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾. فهو الذي أعلن الحرب على آدم منذ بداية الخلق.

الآية الثانية تبين قسماً من الحيوانات المحللة اللحم، وبعض الأنعام التي يستفاد منها في النقل، كما يستفاد منها في تغذية البشر وطعامهم أيضاً فيقول: إن الله خلق لكم ثمانية أزواج من الأنعام: زوجين من الغنم (ذكر وأنثى)، وزوجين من المعز: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾.

وبعد ذكر هذه الأزواج الأربعة يأمر تعالى نبيه فوراً بأن يسألهم بصراحة: هل أن الله حرّم الذكور منها أم الإناث: ﴿قُلِ الْمَذَكَّرِينَ حَرَّمَ أَمْ الْأُنثِيَّاتِ﴾. أم أنه حرّم عليهم ما في بطون الإناث من الأغنام، أم ما في بطون الإناث من المعز؟ ﴿أَمْ مَا فِي بَطُونِ الْأُنثِيَّاتِ مِنَ الْمَعْزِ؟ أَمْ مَا فِي بَطُونِ الْأُنثِيَّاتِ مِنَ الْأَغْنَامِ﴾.

ثم يضيف قائلاً: إذا كنتم صادقين في أن الله حرّم شيئاً مما تدعون، وكان لديكم ما يدل على تحريم أي واحد من هذه الأنعام فها تواد دليلكم على ذلك: ﴿تَبَيَّنُوا بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

ثم في الآية اللاحقة يبين الأزواج الأربعة الأخرى من الأنعام التي خلقها الله للبشر، إذ يقول: وخلق من الإبل ذكراً وأنثى، ومن البقر ذكراً وأنثى، فأبي واحد من هذه الأزواج حرّم الله عليكم: الذكور منها أم الإناث؟ أم ما في بطون الإناث من الإبل والبقر: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلِ الْمَذَكَّرِينَ حَرَّمَ أَمْ الْأُنثِيَّاتِ أَمْ مَا فِي بَطُونِ الْأُنثِيَّاتِ مِنَ الْبَقَرِ وَالْإِبِلِ﴾. إن الحكم بتحليل هذه الأنعام وتحريمها إنما هو بيد الله، خالقها وخالق البشر وخالق العالم كله.

ولقد صرّح في الآية السابقة بأنه لم يكن لدى المشركين أي دليل علمي أو عقلي على تحريم هذه الأنعام، وحيث إنهم لم يدعوا أيضاً نزول الوحي عليهم، أو النبوة، فعلى هذا يبقى الاحتمال الثالث فقط، وهو أن يدعوا أنهم حضروا عند أنبياء الله ورسله يوم أصدروا هذه

الأحكام، ولهذا يقول الله لهم في مقام الإحتجاج عليهم: هل حضرتم عند الأنبياء وشهدتم أمر الله لهم بتحليل أو تحريم شيء من هذه الأنعام: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا﴾. وحيث إن الجواب على هذا السؤال هو الآخر بالنفي والسلب، يثبت أنهم ما كانوا يمتلكون في هذا المجال إلا الإفتراء، ولا يستندون إلا إلى الكذب. ولهذا يضيف في نهاية الآية قائلاً: ﴿فَعَنْ أَظْلَمٍ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

فيستفاد من هذه الآية أن الإفتراء على الله من أكبر الذنوب والآثام، إنه ظلم الله تعالى ولمقامه الربوبي العظيم، وظلم لعباد الله، وظلم للنفس.

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لغيرِ اللَّهِ بِهِ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾

ثم إنه تعالى - بهدف تمييز المحرمات الإلهية عن البدع التي أحدثها المشركون وأدخلوها في الدين الحق - أمر نبيه ﷺ في هذه الآية بأن يقول لهم بكل صراحة، ومن دون إجمال أو إبهام: ﴿لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ من الشريعة أي شيء من الأطعمة يكون ﴿مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ من ذكر أو أنثى، وصغير أو كبير.

اللَّهُمَّ ﴿إِلَّا﴾ عدّة أشياء، الأول: ﴿أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾.

﴿أَوْ﴾ يكون ﴿دَمًا مَسْفُوحًا﴾ وهو ما خرج من الذبيحة عند التذكية بالقدر المتعارف (لا الدماء التي تبقى في جسم الذبيحة في عروقها الشعرية الدقيقة، بعد خروج قدر كبير منها بعد الذبح).

﴿أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾.

لأن جميع هذه الأشياء رجس ومنشأ مختلف الأضرار ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾.

ثم أشار تعالى إلى نوع رابع فقال: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لغيرِ اللَّهِ بِهِ﴾. أي التي لم يذكر اسم الله

١. «أهل»: أصله «الإهلال» وهو مأخوذ في الأصل من الهلال والإهلال يعني رفع الصوت عند رؤية الهلال، ثم استعمل لكل صوت رفيع، كما أنه يطلق على بكاء الصبي عند الولادة الإسهلال، وحيث إنهم كانوا يذكرون أسماء أصنامهم بصوت عالٍ عند ذبح الأنعام عبر عن فعلهم هذا بالإهلال.

عليها عند ذبحها، لأنها - من الناحية الأخلاقية والمعنوية - تدل على الإبتعاد عن الله وعن جادة التوحيد ولهذا حرّمت أيضاً.

وعلى هذا الأساس أن الشروط الإسلامية المقررة في الذبح على نوعين: بعضها - مثل قطع الأوداج الأربعة، وخروج القدر المتعارف من دم الذبيحة - لها جانب صحّي. وبعضها الآخر - مثل توجيه مقادير الذبيحة نحو القبلة عند الذبح، وذكر اسم الله عنده، وكون الذابح مسلماً - لها جانب معنوي.

ثم إنه سبحانه استثنى - في آخر الآية - من اضطر إلى تناول شيء مما ذكر من اللحوم المحرّمة، كما لو لم يجد أيّ طعام آخر وتوقفت حياته على تناول شيء من تلك اللحوم، إذ قال: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^١. يعني أن من اضطرّ إلى أكل شيء مما ذكر من المنهيات فلا إثم عليه، بشرط أن يكون للحفاظ على حياته، لا للذة، ولا مستحلاً لما حرّمه الله، أو متجاوزاً حدّ الضرورة، ففي هذه الصورة ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وإنما اشترط هذان الشرطان لكي لا يتذرع المضطرون بهذه الإباحة فيتعدوا حدود ما قرّره الله بحجة الاضطرار.

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِغَيْبِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَسِعَتْ وَلَا يُرْدُّ بِأَسْمِعِينَ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

إنّ هاتين الآيتين تشيران إلى بعض ما حرّم على اليهود ليستبين أن أحكام الوثنيين الخرافية والمجهولة لا تنطبق لا على أحكام الإسلام، ولا على دين اليهود (بل ولا على دين المسيح الذي يتبع في أكثر أحكامه الدين اليهودي). ولهذا يقول سبحانه في البداية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾.

يستفاد من الآية المبحوثة أن جميع الحيوانات التي لا تكون ذات أظلاف - دواباً كانت أو طيوراً - كانت محرّمة على اليهود.

١. «الباغي»: من «الْبَغْي» وهو يعني الطلب؛ و«العادي»: من «الْعَدْو» وهو يعني التجاوز.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمَنا عَلَيْهِم شُحُومَهُمَا﴾.

ثم يستثني بعد هذا ثلاثة موارد:

أولها: الشحوم الموجودة في موضع الظهر من هذين الحيوانين إذ يقول: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾.

وثانياً: الشحوم الموجودة على جنبها، أو بين أمعائها: ﴿أَوْ الْخَوَاطِئِ﴾^١.

وثالثاً: الشحوم التي امتزجت بالعظم والتصقت به ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾.

ولكنه صرح في آخر الآية بأن هذه الأمور لم تكن محرمة على اليهود ولكنهم بسبب ظلمهم وبغيتهم حرموا - بحكم الله وأمره - من هذه اللحوم والشحوم التي كانوا يحبونها ﴿فَلِكِ جَزَئِنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾.

ويضيف - لتأكيد هذه الحقيقة - قوله: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ وإن ما تقوله هو عين الحقيقة. ولما كان عناد اليهود المشركين أمراً بيّناً، وكان من المحتمل أن يتصلبوا ويستمدوا في تكذيب رسول الله ﷺ أمر الله تعالى نبيّه في الآية الأخرى أن يقول لهم إن كذبوه: إن ربكم ذو رحمة واسعة فهو لا يسارع إلى عقوبتكم ومجازاتكم، بل يمهلكم لعلمكم تؤوبون إليه، وترجعون عن معصيتكم، وتندمون من أفعالكم وتعودون إلى الله، ﴿فَإِن كَلَبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾.

ولكن إذا أسأوا فهم أو استخدموا هذا الإمهال الإلهي، واستمروا في كيل التهم فيجب أن يعلموا أن عقاب الله إياهم حتمي لا مناص منه، وسوف يصيبهم غضبه في المال: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

إن هذه الآية تكشف عن عظمة التعاليم القرآنية، فإنه بعد شرح وبيان كل هذه المخالفات التي ارتكبتها اليهود والمشركون لا يعمد إلى التهديد بالعذاب فوراً، بل يترك طريق الرجعة مفتوحاً، وذلك بذكر عبارات تفيض بالحب مثل قوله: «ربكم»، «ذو رحمة»، «واسعة». حتى إذا كان هناك أدنى استعداد للرجوع والإنابة في نفوسهم شوّقتهم هذه العبارات العاطفية على العودة إلى الطريق المستقيم.

١. «الخوایا»: جمع «حاوية» وهي مجموعة ما يوجد في بطن الحيوان والتي تكون على هيئة كرة تتضمن الأمعاء.

ولكن حتى لا تبعث سعة الرحمة الإلهية هذه على التماذي في غيهم، وتتسبب في تزايد جراتهم وطغيانهم، وحتى يكفوا عن العناد واللجاج هددهم في آخر جملة من الآية بالعقوبة المحتمة.

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ
كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ
مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ
فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلَمْ شُهِدَاءَ كُمْ الَّذِينَ
يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا إِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

عقيب الكلام المتقدم عن المشركين في الآيات السابقة، أشار في هذه الآيات إلى طائفة من استدلالاتهم الواهية، مع ذكر الأجوبة عنها. فيقول أولاً: إن المشركين سيقولون في معرض الإجابة عن اعتراضاتك عليهم في مجال الإشراف بالله، وتحريم الأطعمة الحلال: إن الله لو أراد أن لا نكون مشركين، وأن لا يكون أبائنا وثنيين، وأن لا نحرم ما حرمنا، لفعل:

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾.

إن المشركين - مثل كثير من العصاة - يريدون التملص من مسؤولية العصيان تحت ستار الجبر.

إنهم كانوا يدعون أن سكوت الله على عبادتهم للأصنام وتحريمهم لطائفة من الحيوانات دليل على رضاه، لأنه إذا لم يكن راضياً بها وجب أن يمنعهم عنها بنحو من الأنحاء. ولكن القرآن تصدى لجوابهم وناقشهم بشكل قاطع، فهو يقول أولاً: ليس هؤلاء وحدهم يفترون على الله مثل هذه الأكاذيب: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾^١. ولكنهم ذاقوا جزاء افتراءاتهم: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾.

فهؤلاء كانوا يكذبون في كلامهم هذا، كما أنهم يكذبون الأنبياء، ولو كان سبحانه راضياً

١. «كذب»: في اللغة تأتي بمعنيين تكذيب الغير، وكذلك فعل الكذب.

بهذه الأمور فكيف بعث أنبياءه للدعوة إلى التوحيد؟!

إن دعوة الأنبياء أقوى دليل على حرية الإرادة الإنسانية، واختيار البشر.

ثم يقول سبحانه: قل لهم يا محمد: هل لكم برهان قاطع ومسلم على ما تدعون؟ هاتوه

إن كان: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾.

ثم يضيف في النهاية: إن ما تتبعونه ليس سوى أوهام وخيالات فجئة: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا

الظَنُّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾.

وفي الآية اللاحقة يذكر دليلاً آخر لإبطال ادعاء المشركين، ويقول: قل إن الله أقام براهين

جلية ودلائل واضحة وصحيحة على وحدانيته، وهكذا أقام أحكام الحلال والحرام سواء

بواسطة أنبيائه أو بواسطة العقل، بحيث لم يبق أي عذر لمعتذر: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْخَبْرَةُ الْبَالِغَةُ﴾.

وعلى هذا الأساس لا يمكن أن يدعي أحد أبداً أن الله أمضى - بسكوته - عقائدهم

وأعمالهم الباطلة، وكذلك لا يسعهم قط أن يدعوا أنهم كانوا مجبورين، لأنهم لو كانوا

مجبورين لكان إقامة الدليل والبرهان، وإرسال الأنبياء وتبليغهم ودعوتهم لغواً، إن إقامة

الدليل دليل على حرية الإرادة.

ثم يقول في ختام الآية: ولو شاء الله أن يهديكم جميعاً بالجبر لفعل: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ

أَجْمَعِينَ﴾.

ولكن في مثل هذه الصورة لم يكن لمثل هذا الإيمان ولا للأعمال التي تصدر في ضوء هذا

الإيمان الجبري القسري أية قيمة، إنما فضيلة الإنسان وتكامله في أن يسلك طريق الهداية

والتقوى بقدميه وبارادته وإختياره.

وفي الآية التالية - ولكي يتضح بطلان أقوالهم، ومراعاة لأسس القضاء والحكم الصحيح

- دعا المشركين ليأتوا بشهادتهم المعتبرين لو كان لهم، لكي يشهدوا لهم بأن الله هو الذي

حرّم الحيوانات والزرور التي ادعوا تحريمها، لهذا يقول: ﴿قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ

أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾.

ثم يضيف قائلاً: إذا كانوا لا يملكون مثل هؤلاء الشهاداء المعتبرين (ولا يملكون حتماً)

بل يكتفون بشهادتهم وادعائهم أنفسهم فقط، فلا تشهد معهم ولا تؤيدهم في دعاويهم:

﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾.

هذا مضافاً إلى أن جميع القرائن تشهد بأن هذه الأحكام ما هي إلا أحكام مصطنعة

مختلفة نابعة عن محض الهوى والتقليد الأعمى، ولا اعتبار لها مطلقاً.

ولذلك قال في العبارة اللاحقة: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْلَمُونَ﴾^١.

يعني أن وثنيتههم، وإنكارهم للقيامة والبعث، والخرافات، وإتباعهم للهوى، شواهد حية على أن أحكامهم هذه مختلفة أيضاً، وأن إدعاءهم في مسألة تحريم هذه الموضوعات من جانب الله لا قيمة له، ولا أساس له من الصحة.

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَن تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكِلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

بعد نفي أحكام المشركين المختلفة التي مرّت في الآيات المتقدمة، أشارت هذه الآيات الثلاثة إلى أصول الحرمات في الإسلام، وذكرت الذنوب الرئيسية الكبيرة في عشرة أقسام ببيان مقتضب، عميق وفريد، ودعت المشركين إلى أن يحضروا عند النبي ويستمعوا إلى ما يتلى عليهم من الحرمات الإلهية الواقعية، ويتركوا الحرمات المختلفة جانباً. يقول: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ﴾.

١- ﴿أَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.

١. «يعدلون»: مشتق من مادة «عدل» بمعنى الشريك والشبيه، وعلى هذا الأساس فإن مفهوم جملة «وهم برئهم يعدلون» هو أنهم كانوا يعتقدون بشريك وشبيه لله سبحانه.

٢- ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

٣- ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِسْلَقُوا﴾. أي بسبب الفقر والحرمان لا تنذوا ﴿فَنَحْنُ نَزَرُكُمْ

وَأَبَائِهِمْ﴾.

٤- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾. أي لا تقربوها فضلاً عن أن لا

ترتكبوها.

٥- ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾. فلا تسفكوا الدماء البريئة، ولا تقتلوا

النفوس التي حرم الله قتلها إلا ضمن قوانين العقوبات الإلهية، فيجوز أن تقتلوا من أذن الله لكم بقتله.

ثم إنه تعالى بعد ذكر هذه الأقسام الخمسة يقول لمزيد من التأكيد: ﴿فَلَكُمْ وَمِصْرُكُمْ بِهِ

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فلا ترتكبوها.

٦- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾. فلا تقربوا مال اليتيم

إلا بقصد الإصلاح حتى يبلغ أشده ويستوي.

٧- ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾. فلا تطففوا ولا تبخسوا.

وحيث إن الإنسان - مهما دقق في الكيل والوزن - قد يزيد أو ينقص بما لا يمكن أن

تضبطه الموازين والمكاييل المتعارفة لقلته وخفائه، لهذا عقب على ما قال بقوله: ﴿لَا تُكَلِّفُ

نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

٨- ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْبُدُوا وَتُؤَكَّدَانِ ذَا قُرْبَىٰ﴾. فلا تنحرفوا عن جادة الحق عند الشهادة أو

القضاء أو أمر آخر حتى ولو كان على القريب، فاشهدوا بالحق، واقضوا بالعدل.

٩- ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ ولا تنقضوه.

والمراد من العهد الإلهي المذكور في هذه الآية يشمل جميع العهود الإلهية التكوينية

والتشريعية والتكاليف الإلهية وكل عهد ونذر وعين.

ثم إنه سبحانه يقول في ختام هذه الأقسام الأربعة - للتأكيد - ﴿فَلَكُمْ وَمِصْرُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ

تَذَكَّرُونَ﴾.

١٠- ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾. إن

طريقي هذا هو طريق التوحيد، طريق الحق والعدل، طريق الطهر والتقوى فامشوا فيه،

واتبعوه، واسلكوه ولا تسلكوا الطرق المنحرفة والمتفرقة، فتؤدّي بكم إلى الانحراف عن الله

وإلى الاختلاف، والتشردم، والتفرق، وتزرع فيكم بذور الفرقة والنفاق.
ثم يختم جميع هذه الأقسام وللمرة الثالثة - لغرض التأكيد - بقوله: ﴿فَلَكُمْ وَمَاكُمْ بِهِ لَعْنُكُمْ تَقُون﴾.

بحثان

١- **أهمية الإحسان إلى الوالدين**؛ إن ذكر مسألة الإحسان للوالدين - بعد مكافحة الشرك مباشرة، وقبل ذكر تعاليم مهمة مثل حرمة قتل النفس والأمر بالعدل - يدل على الأهمية القصوى التي يحظى بها حق الوالدين في التعاليم الإسلامية.
ويتضح هذا الأمر أكثر عندما نرى أن القرآن الكريم ذكر بدل تحريم أذى الوالدين الذي يلائم سياق هذه الآية في استعراضها للمحرمات، مسألة الإحسان إليهما، يعني أنه ليس إزعاج الوالدين وإيذاؤهما محرماً فقط، بل يجب الإحسان إليهما.

والأجمل من هذا كله أن كلمة «الإحسان» عُدّيت بحرف «الباء» فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْإِحْسَانِ﴾. وعلى هذا الأساس فإن هذه الآية تؤكد أن موضوع الإحسان إلى الوالدين من الأهمية البالغة بحيث يجب على الإنسان أن يباشر الإحسان بنفسه إلى الوالدين.

٢- **قتل الأولاد من الإملاق والجوع**؛ يستفاد من هذه الآيات أن العرب في العهد الجاهلي لم يقتصروا على قتل البنات ووأدهن بسبب بعض العصبية الحاخطة فحسب، بل كانوا يقتلون أولادهم الذين كانوا يُعدّون ثروة كبرى في المجتمع يومذاك، وذلك بسبب الفقر وخشيتهم من الفاقة.

ولكن هذا العمل الجاهلي - وللأسف البالغ - يتكرّر الآن في عصرنا في صورة أخرى، إذ نلاحظ كيف يعمد الناس إلى قتل الأطفال الأبرياء وهم أجنة عن طريق الكورتاج والإجهاض بحجة نقصان الاحتمالي في المواد الغذائية.

إن إسقاط الجنين وإن كان يُبرّر الآن بأدلة وحجج أخرى أيضاً، إلا أن مسألة الفقر ومسألة نقصان المواد الغذائية، هي من أدلتها الأصلية.

هذه المسألة والمسائل المشابهة الأخرى تشير إلى أن العهد الجاهلي يتكرر في شكل آخر، وأن «جاهلية القرن العشرين» أكثر وحشية من جاهلية ما قبل الإسلام.

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْرِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنَّا أَيُّنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

في الآيات السابقة دار الحديث عن عشرة من أحكام الإسلام الأساسية التي لم تكن مختصة بالإسلام، بل هي موجودة ومقررة في جميع الأديان، ثم قال عقيب ذلك في هذه الآيات: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾. فقد أتممتنا نعمتنا على المحسنين والذين سلّموا لأمره واتبعوه.

إنّ عبارة: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ﴾ إشارة إلى جميع المحسنين، والذين يستجيبون للحق، ويقبلون بالأوامر الإلهية.

﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ فإنّ فيه كل شيء مما يحتاج إليه المجتمع، ومما له أثر في تكامل الإنسان وترشيده.

﴿وَهَدًى وَرَحْمَةً﴾. أي أنّ في هذا الكتاب الذي نزل على موسى مضافاً إلى ما سبق: هدى ورحمة.

إنّ جميع هذه البرامج ما هي إلّا لكي يؤمنوا بيوم القيامة، ويلقوا الله، ولكي يطهروا عن طريق الإيمان بالمعاد أفكارهم، وأقوالهم، وأعمالهم ويزكّوها: ﴿لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

الآية اللاحقة تشير إلى نزول القرآن وتعليماته القيّمة، وبذلك أكملت البحث المطروح في الآية السابقة، يقول تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ فهذا الكتاب الذي أنزلناه كتاب عظيم الفائدة، عظيم البركة، وهو المنيع لكل أنواع الخير والبركة.

ولمّا كان الأمر كذلك وَجَبَ اتِّبَاعُهُ بِصُورَةٍ كَامِلَةٍ، ووجِبَ التزوّد بالتقوى، والتجنّب

عن مخالفته، لتشملكم رحمة الله ولطفه ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وفي الآية الثالثة أبطل سبحانه جميع المعاذير والتحججات وسدّ جميع طرق التملّص والفرار في وجه المشركين، فقال لهم أولاً: لقد أنزلنا هذا الكتاب مع هذه المميزات لكي لا تقولوا: لقد نزلت الكتب السماوية على الطائفتين السابقتين (اليهود والنصارى) وكنا عن دراستها غافلين، وليس تمردنا على أوامر الله إلا لكونها موجودة عند غيرنا من الأمم، ولم يبلغنا منها شيء: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ وِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾.

ثم إنه سبحانه ينقل عنهم - في الآية اللاحقة - نفس ذلك التحجج ولكن بصورة أوسع، ومقروناً هذه المرة بنوع أشد من الغرور والصلف وهو: أن القرآن الكريم لو لم ينزل عليهم لكان من الممكن أن يدعوا أنهم كانوا أكثر استعداداً من أية أمة أخرى لقبول الأمر الإلهي: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْتَى مِنْهُمْ﴾.

والآية المتقدمة كانت تعكس هذا التحجج وهو: أن عدم اهتدائنا إنما هو بسبب غفلتنا وجهلنا بالكتب السماوية، وهذه الغفلة وهذا الجهل ناشيء عن أن هذه الكتب نزلت على الآخرين، ولم تنزل علينا. أما هذه الآية فتعكس صفة الإحساس بالتفوق والإدعاء الفارغ الذي كانوا يدعونه عن تفوق العنصر العربي على غيرهم.

فإن القرآن يقول في معرض الرد على هذه الإدعاءات أن الله سبحانه سدّ عليكم كل سبيل التملّص والفرار، وأبطل جميع الذرائع والمعاذير، لأن الله آتاكم كل الآيات، وأقام كل الحجج المقرونة بالهداية الإلهية وبالرحمة الربانية لكم: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾. ومع ذلك ﴿فَعَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَلَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾.

«صدف»: من «الصدف» ويعني الإعراض الشديد - من دون تفكير - عن شيء، وهو إشارة إلى أنهم لم يكونوا ليعرضوا عن آيات الله فحسب، بل كانوا يبتعدون عنها.

وفي خاتمة هذه الآية بين الله تعالى العقاب الأليم الذي أعدّه لهؤلاء المخاصمين المعاندين الذين يرفضون الحقائق وينكرونها من دون أن يفكروا فيها ويدرسوها ولو قليلاً، بل ولا يكتفون برفضها إنما يعمدون إلى صدّ الآخرين عنها، ويحولون بينهم وبين سماعها واستيعابها، بين كل ذلك في قوله الموجز والبليغ: ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ أَنْظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

في الآيات السابقة تبينت هذه الحقيقة وهي: أننا أتمنا الحجة على المشركين، وآتيناهم الكتاب السماوي (أي القرآن) لهدايتهم جميعاً، لكي لا يبقى لديهم أي عذر يبررون به مخالفتهم للرسالة ومعارضتهم للدعوة. وهذه الآية تقول: ولكن هؤلاء الأشخاص الخاصمين المعاندين بلغوا في لجاجهم وعنادهم حداً لا يؤثر فيهم حتى هذا البرنامج الواضح البين، وكأنهم يتوقعون وينتظرون هلاكهم، أو ذهاب آخر فرصة، أو ينتظرون أموراً مستحيلة. فيقول أولاً: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لتقبض أرواحهم.

﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ إليهم فيرونها، حتى يؤمنوا به.

ويراد من هذا الكلام أنهم ينتظرون أموراً مستحيلة.

ثم يقول: أو أنكم تنتظرون أن تتحقق بعض الآيات الإلهية والعلامات الخاصة بيوم القيامة ونهاية العالم يوم تنسد كل أبواب التوبة: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾. ثم يضيف عقيب ذلك قائلاً: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ فأبواب التوبة حينذاك مغلقة في وجوه الذين لم يؤمنوا إلى تلك الساعة، لأن التوبة ساعتئذ تكون ذات صبغة اضطرارية إجبارية، وفاقدة لمعطيات الإيمان الاختياري وقيمة التوبة النصوح.

ثم إنه في المقطع الأخير من الآية يوجه تهديداً شديداً إلى هؤلاء الأشخاص المعاندين، إذ يقول بنبرة شديدة: ﴿قُلْ أَنْظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾.

إن من النقاط الهامة التي نستفيد منها من الآية الحاضرة هو أن الآية تعتبر طريق النجاة منحصرة في الإيمان، ذلك الإيمان الذي يكتسب المرء فيه خيراً ويعمل في ظلّه عملاً صالحاً.

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا أَمْثَلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

تعقيباً على التعاليم والأوامر العشر التي مرّت في الآيات السابقة، والتي أمر في آخرها بإتباع الصراط الإلهي المستقيم، وبكفافة أي نوع من أنواع النفاق والتفرقة، جاءت هذه الآية تتضمّن تأكيداً على هذه الحقيقة، وتفسيراً وشرحاً لها. فيقول تعالى أولاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾^١. أي أن الذين اختلفوا في الدين وتفرّقوا فرقاً وطوائف لا يمتّون إليك بصلة أبداً، كما لا يرتبطون بالدين أبداً، لأنّ دينك هو دين التوحيد، ودين الصراط المستقيم، والصراط المستقيم ما هو إلّا واحد لا أكثر.

ثم قال تعالى - مُهَدِّدًا مُوَبِّحًا أَوْلِيكَ الْمَفْرَقِينَ - ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. أي أن الله هو الذي سيؤاخذهم بأعمالهم وهو عليم بها، لا يغيب شيء منها. محتوى هذه الآية يمثل حكماً عاماً يشمل كل من يفرّق الصفوف، وكل من يبذر بذور النفاق والاختلاف بين عباد الله بابتداع البدع، من دون فرق بين من كان يفعل هذا في الأمم السابقة أو في هذه الأمة.

هذه الآية تكرر مرّة أخرى - وبمزيد من التأكيد - هذه الحقيقة وهي أن الإسلام دين الوحدة والاتحاد وأنّه يرفض كل لون من ألوان التفرقة وإلقاء الاختلاف في صفوف الأمة. في الآية اللاحقة إشارة إلى الرحمة الإلهية الواسعة، وإلى الثواب الإلهي الواسع الذي ينتظر الأفراد الصالحين المحسنين وقد عبّبت التهديدات المذكورة في الآية بهذه التشجيعات: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.

ثم قال: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾.

وللتأكيد يضيف هذه الجملة أيضاً فيقول: ﴿وَهُمْ لَا يَنْظَلُمُونَ﴾ وإنما يعاقبون بمقدار أعمالهم.

و«الحسنة» و«السيئة» في الآية الحاضرة يشمل كل عمل صالح وفكر صالح وعقيدة صالحة أو سيئة.

١. «الشيعة»: من حيث اللغة تعني الفرق والطوائف المختلفة وأتباع الأشخاص المختلفين، وعلى هذا فإن مفرد هذه الكلمة يعني من يتبع مدرسة أو شخصاً معيناً، هذا هو المعنى اللغوي لكلمة الشيعة. ولكن للفظ الشيعة معنى آخر في الإصطلاح، فهو يُطلق على من يتبع أمير المؤمنين علياً عليه السلام ويشايه، ولا يصح أن نخلط بين المعنيين اللغوي والإصطلاحي.

قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَ دِينِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

هذه الآية والآيات الأخر التي سنقرأها فيما بعد والتي ختمت بها سورة الأنعام، تعتبر خلاصة الأبحاث المطروحة في هذه السورة التي بدأت وانتهت بمكافحة الشرك والوثنية، وتركزت أحاديثها على توضيح هذا الأمر. ففي البداية أمرت رسول الله ﷺ بأن يقول في مواجهة معتقدات المشركين والوثنيين ومزاعمهم الجوفاء والعارية عن المنطق السليم: ﴿قُلْ إِنَّمَا هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. أي طريق التوحيد، ورفض كل أشكال الشرك والوثنية.

ذكر كلمة «قل» في هذه الآيات وأمثالها في نص القرآن، إنما هو لحفظ أصالة القرآن، وللدلالة على أن ما يأتي بعدها هو عين الكلمات التي أوحيت إلى رسول الله. ثم إنه تعالى يوضح «الصراط المستقيم» في هذه الآية والآيتين اللاحقتين. فهو يقول أولاً: إنه الدين المستقيم الذي هو في نهاية الصحة والاستقامة، وهو الأبدى الخالد القائم المتكفل لأمر الدين والدنيا والجسد والروح: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾.

وحيث إن العرب كانوا يكتنون لإبراهيم ﷺ محبة خاصة، بل كانوا يصفون عقيدتهم ودينهم بأنه دين إبراهيم، فهذا هو الذي أدعو أنا إليه لا ماتزعمونه: ﴿مِثْلَ دِينِ إِبْرَاهِيمَ﴾. إبراهيم ﷺ الذي أعرض عن العقائد الخرافية التي كانت سائدة في عصره وبينته، وأقبل على التوحيد ﴿حَنِيفًا﴾. و«الحنيف»؛ يعني الشخص أو الشيء الذي يميل إلى جهة ما، وأما في المصطلح القرآني فيطلق هذا الوصف على من يعرض عن عقيدة عصره الباطلة ويولي وجهه نحو الدين الحق والعقيدة الحققة.

وكان هذا التعبير جواب وردّ على مقالة المشركين الذين كانوا يعيبون على رسول الله ﷺ مخالفته للعقيدة الوثنية التي كانت دين أسلافهم من العرب، فقال النبي في معرض الردّ على مقالته هذه، بأن نقض السنن الجاهلية والإعراض عن العقائد الخرافية السائدة في البيئة ليس هو من فعلي فقط، بل كان إبراهيم - الذي نحترمه جميعاً - كذلك أيضاً.

ثم يضيف للتأكيد قائلًا: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بل هو بطل الكفاح ضد الوثنية، وحامل الحرب ضد الشرك، الذي لم يفتأ لحظة واحدة عن محاربتة وكفاحه.

الآية اللاحقة تشير إلى أنه على النبي أن يقول: إني لست موحدًا من حيث العقيدة فحسب، بل إني أعمل كل عمل صالح: ﴿قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَنُكَيْتُ وَمَخَيْتُ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فأنا أحییى لله، وله أموت، وأفدي بكل شيء لأجله، وكل هدفي وكل حبي بل كل وجودي له.

و«النُّسُكُ»: يعني في الأصل العبادة، ولذا يقال للعباد: ناسك، ولكن هذه الكلمة تطلق في الأغلب على أعمال الحج فيقال: مناسك الحج.

ثم في الآية الثالثة يضيف للتأكيد وإبطالاً لأي نوع من أنواع الشرك والوثنية قائلًا: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾.

ثم يقول في ختام الآية: ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

فإن كون رسول الإسلام أول المسلمين، إما من جهة كيفية إسلامه وأهميته، لأن درجة إسلامه وتسليمه أعلى وأفضل من الجميع، وإما لأنه كان أول فرد من هذه الأمة التي قبلت بالإسلام والقرآن.

قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِيَّ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾

هذه الآية شجبت منطق المشركين من طريق آخر، حيث قال سبحانه لنبيه: قل لهم واسألهم: هل من الصحيح أن أطلب رباً غير الله الواحد في حين أنه هو المالك والمربي، وهو رب كل شيء وبيده أزمة جميع الكائنات، وحكمه جار في جميع ذرات الوجود بلا استثناء: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِيَّ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

ثم إنه يرد على جماعة من المشركين المتحجرين ممن قالوا لرسول الله ﷺ: اتبعنا وعلينا وزرك إن كان خطأ. قائلًا: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فلا يعمل أحد إلا لنفسه، ولا يحمل أحد وزر أحد.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فألکم إليه وهو يخبركم عن جميع ما اختلفتم فيه.

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَاءِ آتَانِكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

في هذه الآية التي هي آخر الآيات من سورة الأنعام إشارة إلى أهمية مقام الإنسان ومكانته في عالم الوجود لتكميل الأبحاث الماضية في مجال تقوية دعائم التوحيد، ومكافحة الشرك. لهذا قال تعالى في مطلع كلامه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾.

إنَّ الإنسان الذي هو خليفة الله في أرضه، والذي سُخِّرَتْ له كل منابع هذا العالم وصدر الأمر بحكومته على جميع الموجودات من جانب الله تعالى، لا يجوز أن يسمح لنفسه بالسقوط إلى درجة السجود للجهادات.

ثم أشار سبحانه إلى اختلاف المواهب والاستعدادات في المواهب البدنية والروحية لدى البشر، والهدف من هذا الاختلاف والتفاوت، فيقول: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ من المواهب المتنوعة والمتفاوتة ويختبركم بها.

ثم تشير في خاتمة الآية المحاضرة إلى حرية الإنسان في اختيار طريق السعادة وطريق الشقاء نتيجة هذه الاختبارات والابتلاءات، إذ يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. فإنَّ ربك سريع العقاب مع الذين يفشلون في هذا الاختبار، وغفور رحيم للذين ينجحون فيه ويسعون لإصلاح أخطائهم.

بحثان

١- **التفاوت بين أفراد البشر ومبدأ العدالة:** لا شك أنَّ بين أفراد البشر طائفة من الاختلافات والفوارق المصطنعة، التي هي نتيجة المظالم التي يمارسها بعض أفراد البشر ضد الآخرين، فهناك مثلاً جماعة يمتلكون ثروات هائلة، وجماعات أخرى تعاني من الفقر المدقع.

جماعة يعانون من المرض والعلة بسبب سوء التغذية وندرة الوسائل الصحية، في حين يحظى أفراد معدودون بقدر كبير من السلامة والعافية، بسبب توفر جميع الإمكانيات.

إنَّ مثل هذه الفوارق والاختلافات: الثروة والفقر، والعلم والجهل، والسلامة والمرض، هي في الأغلب وليدة الاستعمار والاستثمار، وهي مظاهر مختلفة للعبودية والمظالم الظاهرة والخفية.

إنَّ من المسلم أنَّه لا يمكن أن تعتبر هذه الأمور من فعل المشيئة الإلهية وليس من الصحيح مطلقاً الدفاع عن مثل هذه الاختلافات غير المبررة أساساً.

إنَّ أفراد البشر يشكلون من حيث المجموع شجرة كبيرة واحدة يقوم كل فرد برسالة خاصة في هذا الصرح العظيم، وله بنيان مخصوص يتلاءم مع وظائفه.

ولهذا يقول القرآن الكريم: إنَّ هذه الفوارق وهذا التفاوت وسيلة لاختباركم وامتحانكم، لأنَّ الاختبار والامتحان الإلهي - كما قلنا سابقاً - يعني «التربية».

٢- خلافة الإنسان في الأرض: إنَّ النقطة الأخرى الجديرة بالاهتمام، هي أنَّ القرآن الكريم وصف الإنسان مراراً بأنَّه خليفة الله في أرضه، إنَّ هذا الوصف، وهذا التعبير ضمن بيانه لمكانة الإنسان بين هذه الحقيقة أيضاً، وهي: أنَّ الله تبارك وتعالى هو المالك الأصلي والحقيقي للأموال والثروات والقابليات، وجميع المواهب الإلهية الممنوحة للإنسان، وما الإنسان - في الحقيقة - إلا خليفة الله ووكيل من جانبه، ومأذون من قبله.

ومن البديهي أنَّ الوكيل - مهما كان - فهو غير مستقل في تصرفاته، بل يجب أن تخضع تصرفاته لإذن صاحبها الأصلي، وتقع ضمن إجازته.

ومن هنا يتضح أنَّ الإسلام - مثلاً - يختلف عن النظام الشيوعي، وكذا عن النظام الرأسمالي في مسألة الملكية، لأنَّ الفريق الأول يخصص الملكية بالجماعة، والفريق الثاني يخصصها بالفرد، بينما يقول الإسلام: الملكية لا هي للفرد ولا هي للمجتمع، بل هي في الحقيقة لله تعالى، والناس وكلاء الله، وخلفاؤه.

وبهذا الدليل نفسه يراقب الإسلام طريقة تصرف الأفراد في الأموال كسباً وصرفاً، ويضع لكل ذلك قيوداً وشروطاً تجعل الاقتصاد الإسلامي نظاماً متميزاً في مقابل الأنظمة الأخرى.

«نهاية تفسير سورة الأنعام»



هذه السورة من السور المكية إلا قوله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ إلى ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ الذي نزل في المدينة. *مركزية كويتية للعلوم الإسلامية*

محتوى السورة: يشير في البدء إلى مسألة المبدأ والمعاد.

ثم يهدف إحياء شخصية الإنسان شرحت - باهتمام وعناية كبيرة - قصة خلق آدم. ثم عدّدت - بعد ذلك - الموائيق التي أخذها الله تعالى من أبناء آدم في مسير الهداية والصلاح، واحداً واحداً.

ثم للتدليل على هزيمة وخسران الجماعات التي تحيد عن سبيل التوحيد والعدالة والتقوى، وكذا للتدليل على نجاح المؤمنين الصادقين وإنتصارهم، ذكرت قصص كثير من الاقوام الغابرة والأنبياء السابقين مثل «نوح» و«لوط» و«شعيب» وختمت ذلك ببيان قصة بني إسرائيل، وجهاد «موسى» ضدّ فرعون، بصورة مفصلة.

وفي آخر السورة عادت مرّة أخرى إلى مسألة المبدأ والمعاد، بهذا تتناغم البداية والخاتمة.

فضيلة تلاوة هذه السورة: في تفسير العياشي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من قرأ

سورة الأعراف في كل شهر كان يوم القيامة من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فإن قرأها

في كل جمعة كان ممن لا يحاسب يوم القيامة». ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: «أما إن فيها آياً محكمة فلا تدعوا قراءتها وتلاوتها والقيام بها فإنها تشهد يوم القيامة لمن قرأها عند ربّه».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصَّ ① كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِئُنذِرَ بِهِ، وَذِكْرَى
لِلْمُؤْمِنِينَ ② اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا
مَّا تَذَكَّرُونَ ③

في مطلع هذه السورة نواجه مرّة أخرى «الحروف المقطعة»، ويمكن أن يكون أحد الأهداف لهذه الحروف هو جلب إنتباه المستمعين، ودعوتهم إلى السكوت والإصغاء، لأنّ وجود هذه الحروف في مطلع الكلام موضوع عجيب لم يسبق له مثيل في نظر العرب، ومن شأنها أن تثير في العربي حبّ الاستطلاع، وتدعوه إلى متابعة الكلام إلى نهايته.

ثمّ يقول تعالى في الآية اللاحقة: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾. «المرج»: في اللغة يعني الشعور بالضيق وأي نوع من أنواع المعاناة.

إنّ العبارة الحاضرة تسليّ النبي صلى الله عليه وآله وتطمئنّ خاطره بأنّ هذه الآيات نازلة من جانب الله تعالى فيجب أن لا يشعر صلى الله عليه وآله بأيّ ضيق وحرَج، لا من ناحية ثقل الرسالة الملقاة على عاتقه، ولا من ناحية ردود فعل المعارضين والأعداء الألداء تجاه دعوته، ولا من ناحية النتيجة المتوقعة من تبليغه ودعوته.

ثمّ يضيف تعالى في الجملة اللاحقة أنّ الهدف من نزول هذا الكتاب العزيز هو إنذار الناس وتحذيرهم من عواقب نواياهم وأعمالهم الشريرة، وتذكير المؤمنين الصادقين، إذ يقول: ﴿لِئُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثمّ إنّ سبحانه يوجّه خطابه إلى عامة الناس ويقول: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾. وبهذا الطريق يكون قد بدأ الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله ومهمته ورسالته، وانتهى بوظيفة الناس وواجبهم تجاه الرسالة.

وللتأكيد يضيف سبحانه قائلاً: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ فلا تتبعوا غير أوامر الله، ولا تختاروا ولياً غير الله.

وحيث إن الخاضعين للحق والمتذكرين قليلون، لذا قال في ختام الآية: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

ومن هذه الآية يستفاد أن الإنسان يواجه طريقين (أو خيارين) إما القبول بولاية الله وقيادته، وإما الدخول تحت ولاية الآخرين، فإذا سلك الطريق الأول كان الله وليه، وأما إذا دخل تحت ولاية الآخرين فإنّ عليه - حينئذ - أن يخضع في كل يوم لواحد من الأرباب، وأن يختار رباً جديداً.

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَ هَا بِأَسْنَابَيْتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿١﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَاءِ إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢﴾

هاتان الآيتان تشيران إلى العواقب المؤلمة التي تترتب على مخالفة الأوامر التي تمّ بيانها في الآيات السابقة، كما أنها تعدّان فهرستاً إجمالياً عن قصص الأقسام المتعددة أمثال نوح، وقوم فرعون، وقوم عاد وثمود، وقوم لوط التي ستأتي فيما بعد.

إنّ القرآن الكريم يحذّر وينذر بشدة في هذه الآية كل أولئك الذين يتمردون على تعاليم الأنبياء ويقومون بزرع الفجور والفساد بدل إصلاح أنفسهم وإصلاح الآخرين، بأن يتدبروا قليلاً في حياة الأقسام السالفة وينظروا كم من قرية عامرة أبادها الله، وأهلك سكانها الفاسقين: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾.

ثم يبيّن كيفية هلاكهم بأنّ العذاب الأليم جاءهم في منتصف الليل وهم يقضون ساعات الراحة والسكون، أو في وسط النهار وهم يمضون لحظات الاستراحة والإسترخاء بعد رحلة من العمل والنشاط اليومي الدائب: ﴿فَجَاءَهَا بِأَسْنَاءِ بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾.

ثم يواصل الحديث في الآية اللاحقة هكذا: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَاءِ إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾. فعندما يتورّطون في البلاء، وتتحطم حياتهم بعواصف الجزاء يتركون كبرياءهم ونخوتهم وينادون معترفين بظلمهم: إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ.

ولكن لا يجديها مثل هذا الاعتراف، لأنّه نوع من الاعتراف الجبري والاضطراري الذي يضطرّ إليه حتى أشد الناس غروراً.

إنّ هذه الآيات تحذيرات صاعقة لهذا العصر وما يليه من العصور، لنا وللأمم والأقسام القادمة، لأنّه لا معنى للتبعيض في السنّة الإلهية.

والإنسان المسلح بالتكنولوجيا المتقدمة مع كل ما أوتي من قوة هو الآخر عاجز أمام الزلازل والعواصف، وأمام السيول والأمطار الغزيرة، تماماً مثل عجز الأمم ما قبل التاريخ وضعفها.

وعلى هذا فليست مثل تلك العواقب السيئة والأليمة التي أصابت ظلّمة الأمم الغابرة وجباريها، وحلّت بالمغرورين والفسقة والمتمردين ليلاً وحطّمتهم، يبعيدة عن الإنسان الحاضر.

فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ
وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا
بِعَابِنَاتِنَا يَظِلُّمُونَ ﴿٩﴾

التحقيق الشامل: إن الآية المتقدمة تحدثت عن الجزاء الدنيوي للظالمين، وهذه الآيات تبحث في الجزاء والعقاب الأخروي لهم، وبهذا يتضح الارتباط بينها. يقول تعالى أولاً وهو يقرر سنة عامة: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾. أي إننا سنسأل في يوم القيامة كل من أرسلنا لهدايته رسولاً، حتماً ودون ريب.

بل ونسأل الأنبياء أيضاً، ماذا فعلوا في مجال تبليغ رسالتهم: ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾. وعلى هذا الأساس فالجميع مسؤولون، قادة وأتباعاً، رسلاً ومرسللاً إليهم، غاية ما في الأمر أنه يختلف السؤال والمسؤوليات من طائفة إلى أخرى.

في الآية اللاحقة - ولكي لا يتصور أحد بأن سؤال الله للأنبياء يعني أن الأمر قد خفي على الله وغاب عن علمه - قال تعالى بصراحة مزيجة بالقسم، بأننا سوف نشرح لهم كل أعمالهم بعلمنا، لأنه ما غاب عنا شيء من أفعالهم، وما غابوا هم عنا، فقد كنا معهم في كل حين ومكان: ﴿فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾.

المساءلة لماذا؟ نحن نعلم أن الله سبحانه يعلم بكل شيء، فهو الحاضر في كل زمان ومكان، الناظر لكل شيء من نية أو عمل، فما الحاجة إلى مساءلة الرسل والأمم عامة

وبدون إستثناء؟!

الجواب على هذا السؤال واضح، لأنّ السؤال لو كان للاستعلام والاستفهام، وبهدف الوقوف على الحقيقة لم يصح أن يقع من العالم العارف. وأمّا إذا كان المقصود منه هو إلفات الشخص إلى ما عمله، أو إتمام الحجة عليه، أو ما أشبه ذلك، لم يكن في ذلك بأس ولا ضير، إذ يشبه ذلك تماماً ما لو أسدينا إلى أحد خدمات كثيرة وقابلنا بالإساءة والخيانة، وكان كل ذلك معلوماً معروفاً عندنا، ومع ذلك فإننا نسأله ونقول: ألسنا قد أسدينا إليك كذا وكذا من الخدمة؟ فهل كان هذا جزاء الإحسان إليك؟

إنّ مثل هذه المسألة ليست لاكتساب العلم، واكتشاف الحقيقة المجهولة، بل هي لتفهم الطرف الآخر وإيقافه على الحقيقة.

في الآية اللاحقة - تكميلاً لمبحث المعاد - يشير تعالى إلى قضية «وزن الأعمال» الذي جاء ذكره في السور القرآنية الأخرى مثل ما جاء في سورة «المؤمنون» في الآية (١٠٢ و ١٠٣) وسورة «القارعة» الآية (٦ و ٨).

فيقول أولاً: **إِنَّ وَزْنَ الْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْرٌ** واقع لا ريب فيه: **﴿وَالْوِزْنُ يُوَمِّدُ الْحَقَّ﴾**. إذن، فالمسلم هو أن أعمال الإنسان توزن في يوم القيامة بأداة خاصة لا بواسطة موازين مثل موازين الدنيا، ويمكن أن تكون تلك الأداة نفس وجود الأنبياء والأئمة والصالحين، وهذا ما يستفاد - أيضاً - من الأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السلام.

بل إنّ أولياء الله في هذا العالم هم أيضاً مقاييس للوزن والتقييم، ولكن حيث إنّ أكثر الحقائق في هذا العالم تبقى خلف حجب الإيهام والغموض، تبرز في يوم القيامة بمقتضى قوله تعالى: **﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ الْوَاجِدِ الْقَهَّارِ﴾** ١. وتنكشف هذه الحقائق وتنجلي للعيان.

ثمّ إنّ تعالى يقول في المقطع الآخر من الآية: **﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** * **﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾**.

إنّ من البديهي أن المراد من الخفة والثقل في الموازين ليس هو خفة وثقل نفس الميزان، بل قيمة ووزن الأشياء التي توزن بواسطة تلك الموازين، وتُقاس بتلك المقاييس.

إنّ جملة «كانوا بآياتنا يظلمون» إشارة إلى أنّ مثل هؤلاء لم يظلموا أنفسهم فحسب، بل

ظلموا - كذلك - البراج الإلهية الهادية، لأن هذه البراج كان ينبغي أن تكون سبلاً للهداية ووسائل للنجاة، ولو أن أحداً تجاهلها، ولم يكثر ثبها، فلم يحصل منها هذا الأثر، كان ظالماً لها.

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

مكنا الإنسان وعلمته في عالم الوجود: عقيب الآيات التي أشارت إلى المبدأ والمعاد، يدور البحث في هذه الآية والآيات اللاحقة حول عظمة الانسان وأهمية مقامه، وكيفية خلق هذا الكائن والمفاخر التي وهبها الله له. فهو يقول في البداية: نحن الذين منحناكم الملكية والحاكمية وسلطانكم على الأرض: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾. وأعطيناكم وسائل العيش بجميع أنواعها: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا﴾. ولكن مع ذلك لم تشكروا هذه النعم إلا قليلاً ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾.

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَاتِنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرَجْنَا مِنْهَا مَذَّةً وَمَا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

لقد أشير إلى مسألة خلق الإنسان وكيفية إيجاده في سبع سور من سور القرآن الكريم، وفي الآية المبسوثة الآن يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ جدكم الأول، ومن المأمورين بالسجود إبليس الذي كان موجوداً في صفوفهم وإن لم يكن منهم، فامثلوا لهذا الأمر جميعاً وسجدوا لآدم إلا إبليس: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾.

وكما قلنا في ذيل الآية (٣٤) من سورة البقرة: إن سجود الملائكة لآدم لم يكن سجود عبادة، لأن العبادة مخصوصة لله سبحانه، بل السجدة هنا بمعنى التواضع.

في الآية اللاحقة يقول تعالى: أنه أخذ إبليس على عصيانه وطغيانه و﴿قَالَ مَا مَنَّكَ عَلَىٰ أَن تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾. فتذرع - في مقام الجواب - بعذر غير وجيه إذ: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾.

وكان إبليس كان يتصور أن النار أفضل من التراب، وهذه هي أكبر غلطاته وأخطائه، ولعله لم يقل ذلك عن خطأ والتباس، بل كذب عن وعي وفهم، لأننا نعلم أن التراب مصدر أنواع البركات، ومنبع جميع المواد الحياتية، وأهم وسيلة لمواصلات الموجودات الحية حياتها، على حين أن الأمر بالنسبة إلى النار ليس على هذا الشكل.

على أن ميزة الإنسان لم تكن في كونه من التراب، بل إن ميزته الأصلية تكن في «الروح الإنسانية» وفي خلافته لله تعالى.

والظاهر أن الشيطان كان يعرف بكل هذه الأمور، ولكن التكبر، والأناية هما اللذان منعه عن امتثال أمر الله، وكان ما أتى به من العذر حجة داحضة، ومحض تمجج وتعلل.

بقي هنا سؤال وهو: كيف كان يتحدث الشيطان مع الله، فهل كان ينزل عليه الوحي؟ الجواب هو: أن كلام الله لا يكون بالوحي دائماً، فالوحي عبارة عن رسالة النبوة، فلا مانع من أن يكلم الله أحداً لا بعنوان الوحي والرسالة، بل عن طريق الباطني أو بواسطة بعض الملائكة، سواء كان من يحادثه الله من الصالحين الأبرار مثل مريم وأم موسى، أو من غير الصالحين مثل الشيطان.

ولنعد الآن إلى تفسير بقية الآيات:

حيث إن امتناع الشيطان من السجود لآدم ﷺ لم يكن امتناعاً بسيطاً وعادياً ولم يكن معصية عادية، بل كان تمرداً مقروناً بالاعتراض والإنكار للمقام الربوبي، لهذا فإن مخالفته كانت تعني الكفر وإنكار العلم والحكمة الإلهيين، فوجب أن يخسر جميع مراتبه ودرجاته، وبالتالي كل ما له من مكانة عند الله، ولهذا أخرج الله من ذلك المقام الكريم، وجرده من تلك المنزلة السامقة التي كان يتمتع بها في صفوف الملائكة، فقال له: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾.

ثم إنه تعالى شرح له منشأ هذا السقوط والتزل بالعبارة التالية: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾.

وأضاف للتأكيد قائلاً: ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾. يعني إنك بعملك وموقفك هذا لم

تصبح كبيراً، بل على العكس من ذلك أصبت بالصغار والذلة.

إن هذه الجملة توضح بجلاء أن شقاء الشيطان كله كان وليد تكبره.

في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «أصول الكفر ثلاثة: الحرص والاستكبار والحسد، فأما الحرص فإن آدم عليه السلام حين نهي عن الشجرة حمله الحرص على أن أكل منها، وأما الاستكبار فإبليس حيث أمر بالسجود لآدم فأبى، وأما الحسد فإبنا آدم حيث قتل أحدهما صاحبه».

ولكن قصة الشيطان لم تنته إلى هذا الحد، فهو عندما عرف بأنه صار مطروداً من حضرة ذي الجلال زاد من طغيانه ولجاجته، وبدل أن يتوب ويثوب إلى الله ويعترف بخطئه فإن الشيء الوحيد الذي طلبه من الله تعالى هو أن يمهل ويؤجل موته إلى يوم القيامة: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

ولقد استجاب الله لهذا الطلب، فـ ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾.

غير أن الشيطان لم يبيح من مطلبه هذا (أي الإمهال الطويل) الحصول على فرصة لجبران مافات منه أو ليعمر طويلاً، إنما كان هدفه من ذلك هو إغواء بني البشر ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. أي لأغويتهم كما غويت، ولأضلّتهم كما ضللت. ثم إن الشيطان أضاف - تأكيداً لقوله - بأنه لن يكتفي بالعودة بالمرصاد لهم، بل سيأتيهم من كل حدب وصوب، ويسدّ عليهم الطريق من كل جانب ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾.

ولقد نقل - في الجمع - عن الإمام الباقر عليه السلام تفسير أعمق لهذه الجهات الأربع حيث قال: «ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ، معناه: أهون عليهم أمر الآخرة؛ ومن خلفهم، أمرهم بجمع الأموال والبخل بها عن الحقوق لتبقى لورثتهم؛ وعن أيمانهم، أفسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة وتحسين الشبهة؛ وعن شمائلهم، بتحبيب اللذات إليهم وتغليب الشهوات على قلوبهم».

وفي آخر آية من الآيات المبحوثة هنا يصدر مرّة أخرى الأمر بخروج الشيطان من حریم القرب الإلهي والمقام الرفيع، بفارق واحد، هو أن الأمر بطرده هنا اتخذ صورة أكثر ازدياداً وتحقيراً، وأشدّ عنفاً ووقعاً، ولعل هذا كان لأجل العناد واللجاج الذي أبداه الشيطان بالإلحاح على الوسوسة للإنسان وإغوائه وإغرائه، يعني أن موقفه الأثيم في البداية كان منحصرأ في التمرد على أمر الله وعدم إمتثاله، ولهذا صدر الأمر بخروجه فقط، ولكن عندما أضاف معصية أكبر إلى معصيته بالعزم على إضلال الآخرين جاء الأمر المشدد: ﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْخُورًا﴾.

ثم حلف على أن يملأ جهنم منه ومن أتباعه: ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

سؤال: بعد أن ارتكب الشيطان مثل تلك المعصية الكبيرة، لماذا قبل الله طلبه في الإمهال، وتأخير الأجل؟

إن مواصلة الشيطان لحياته كقضية سلبية يكون وجودها ضرورياً لتقوية نقاط إيجابية، لا يكون غير مضرّ فحسب، بل هو مؤثر ومفيد أيضاً، فإنه مع غض النظر عن الشيطان، هناك مجموعة من الغرائز المختلفة في داخلنا، وهي بوقوفها في الطرف الآخر من قوانا العقلية والروحية تشكّلان ساحة صراع وتناقض قويين، وفي مثل هذه الساحة يتحقق تقدم الإنسان وتكامله، وتربيته ورشده.

إن النقطة المهمة التي يجب الإلتباه إليها هي أن الله تعالى وإن كان ترك الشيطان حرّاً في القيام بوساوسه، ولكنه من جانب آخر لم يدع الإنسان مجرداً من الدفاع عن نفسه.

لأنه أولاً: وهبه قوة العقل التي يمكن أن توجد سداً قوياً منيعاً في وجه الوسوس الشيطانية خاصة إذا لقيت تربية صالحة.

وثانياً: جعل الفطرة النقية وحب التكامل في باطن الإنسان كعامل فعّال من عوامل السعادة.

وثالثاً: يبعث الملائكة التي تلهم الخيرات إلى الذين يريدون أن يعيشوا بمنأى عن الوسوس الشيطانية، كما يصرّح القرآن الكريم بذلك - في الآية (٣٠) من سورة فصلت - إذ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾. إنها تنزل عليهم لتقوية معنوياتهم بإلهامهم ألوان البشارات والتطمينات لهم.

وَيَعَادِمُ اسْتَكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا

مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا

وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾

وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَصِيحٍ ﴿٢١﴾ فَدَلَّهُمَا بَعْرُورٌ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ

لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا

عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾

وسلوس شهوانية في خلل خلابة: تُبين هذه الآيات وتستعرض فصلاً آخر من قصة آدم، فتقول أولاً: **إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ** أمر آدم وزوجته حواء بأن يسكننا الجنة: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾.

ويستفاد من هذه العبارة أن آدم وحواء لم يكونا في بدء الخلقة في الجنة. وفي هذه الأثناء صدر أول تكليف وأمر ونهي إلى آدم وحواء من جانب الله تعالى، بهذه الصورة: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. أي إن الأكل من جميع أشجار هذه الجنة مباح لكما، إلا شجرة خاصة لا تقرباها، وإلا كنتما من الظالمين.

ثم إن الشيطان الذي طرد من رحمة الله تعالى بسبب إحجامه عن السجود لآدم، وكان قد صمم على أن ينتقم لنفسه من آدم وبنيه ما أمكن.

بدأ بنزع لباس الطاعة والعبودية لله، عنهما، فأبدى عورتها التي كانت مخبأة مستورة: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْلِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا﴾.

وللوصول إلى هذا الهدف رأى أن أفضل طريق هو أن يستغل حب الإنسان ورغبته الذاتية في التكامل والرقى والحياة الخالدة، وليوقر لها عذراً يعتذران ويتوسلان به لتبرير مخالفتها لأمر الله ونهيه، ولهذا قال لآدم وزوجته: ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾.

وبهذه الطريقة صور الأمر الإلهي في نظرهما بشكل آخر.

ولما سمع آدم هذا الكلام غرق في التفكير ولكن الشيطان - من أجل أن يحكم قبضته ويعتق وسوسته في روح آدم وحواء - توسل بالآيمان المغلظة للتدليل على أنه يريد لها الخير! ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

لم يكن آدم يمتلك تجربة كافية عن الحياة، ولم يكن قد وقع في حبال الشيطان وخدعه بعد ولم يعرف بكذبه وتضليله قبل هذا، كما أنه لم يكن في مقدوره أن يصدق بأن يأتي بمثل هذه الآيمان المغلظة كذباً، ولهذا وقع في حبال الشيطان، وسقط في ورطة المخالفة والعصيان للأوامر الإلهية، كما يعبر القرآن عن ذلك ويلخصه في عبارة موجزة إذ يقول: ﴿فَلَلَّهُمَا يَغْرُورٌ﴾^١.

١. «دلى»: من مادة التدلية وتعني إرسال الدلو في البئر بحبلٍ تدريجاً وهذه كناية لطيفة عن أن الشيطان أنزل

وبمجرد أن ذاق آدم وزوجته من تلك الشجرة الممنوعة تساقط عنها ما كان عليهما من لباس وانكشفت سوءاتها ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾.

وجردا من لباس الجنة الذي هو لباس الكرامة الإلهية.

ثم يقول: إن آدم وحواء لما وجدا نفسيهما عاريين عمدا فوراً إلى ستر نفسيهما بأوراق الجنة: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْنِهُمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾^١.

وفي هذا الوقت بالذات جاءهما نداء من الله يقول: ألم أحذركما من الاقتراب والاكل من هذه الشجرة؟ ألم أقل لكما: إن الشيطان عدو لكما؟ فلماذا تناسيتم أمري ووقعتم في مثل هذه الأزمة: ﴿وَنَادَيْتُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

من المقايسة بين تعبير هذه الآية والآية الأولى التي أجاز الله فيها لآدم وحواء أن يسكنا الجنة، يستفاد بوضوح أنها بعد هذه المعصية ابتعدا عن مقام القرب الإلهي.

بحثنان

١- ماذا كانت الشجرة الممنوعة؟ جاءت في المصادر الإسلامية تفسيران لها، أحدهما «مادي» وهو أنها كانت «الحنطة» كما هو المعروف في الروايات.

والتفسير الآخر «معنوي» وهو أن المقصود من تلك الشجرة - كما في الروايات - هو ما عبر عنها بـ «شجرة الحسد» لأن آدم طبقاً لهذه الروايات - بعد ملاحظة مكانته ومقامه - تصور أنه لا يوجد فوق مقامه مقام، ولا فوق مكانته مكانة، ولكن الله تعالى أطلعه على مقام ثلثة من الأولياء من ذريته وأبنائه (رسول الأكرم وأهل بيته)، فحصل عنده ما يشبه الحسد، وكانت هذه هي الشجرة الممنوعة التي أمر آدم بأن لا يقربها.

وفي الحقيقة تناول آدم - طبقاً لهذه الروايات - من شجرتين، كانت إحداها أقل منه مرتبة وأدنى منه منزلة، وقد قادتة إلى العالم المادي، وكانت هي «الحنطة». والأخرى هي الشجرة المعنوية التي كانت تمثل مقام ثلثة من أولياء الله، والذي كان أعلى وأسمى من مقامه ومرتبته، وحيث إنه تعدى حدّه في كلا الصعيدين ابتلي بذلك المصير المؤلم.

ولكن يجب أن نعلم أن هذا الحسد لم يكن من النوع الحرام، بل كان مجرد إحساس

بحيل مكره وخداعه آدم وزوجته من مقامهما الرفيع، وأرسلهما إلى قعر بئر المشكلات والابتعاد عن الرحمة الإلهية.

١. «يخسفان»: من مادة «الخصف» وتعني في الأصل ضمّ شيء إلى شيء آخر، والجمع، ثم أطلق على ترفيع النعل أو الثوب المتمزق وخياطته فليل: خصف النعل أو الثوب، أي جمع الأجزاء المتفرقة وضمّ بعضها إلى الآخر.

نفساني من دون أن تتبعه أية خطوة عملية على طبقه.

٢- هل ارتكب آدم معصية؟ إن المصادر الإسلامية تقول لنا: إن الأنبياء لا يرتكبون إثماً وإن منصب إمامة الناس وهدايتهم لا يُعطى لمن يرتكب ذنباً ويقترف معصية. ونحن نعلم أن آدم كان من الأنبياء الإلهيين، وعلى هذا الأساس فإن التعابير التي جاءت في القرآن حول سائر الأنبياء الذين نسب إليهم العصيان، جميعها تعني «العصيان النسبي» و«ترك الأولى» لا العصيان المطلق.

وتوضيح ذلك: أن المعصية على نوعين: «المعصية المطلقة» و«المعصية النسبية»، والمعصية المطلقة هي مخالفة النهي التحريمي، وتجاهل الأمر الإلهي القطعي، وهي تشمل كل نوع من أنواع ترك الواجب وإتيان الحرام. ولكن المعصية النسبية هي أن يصدر من شخصية كبيرة عمل غير حرام لا يناسب شأنه ولا يليق بمقامه.

فالصلاة التي يقوم بها فرد عادي قد تعتبر صلاة ممتازة، ولكنها تعدّ معصية إذا صدر مثلها من أولياء الله.

وهكذا الحال في سائر أعمالهم، فإنها على غرار عباداتهم، يجب أن تقاس بمنازلهم وشؤونهم، ولهذا إذا صدر منهم «ترك الأولى» عوتبوا من جانب الله، والمراد من ترك الأولى هو أن يترك الإنسان فعل ما هو الأفضل ويعمد إلى عمل جيّد أو مستحب أدنى منه في الفضل.

إن نهي آدم عن الشجرة الممنوعة لم يكن نهياً تحريمياً، بل كان ترك أولى، ولكن نظراً إلى مكانة آدم ومقامه ومرتبته عدّ صدوره أمراً مهماً وخطيراً، واستوجب مخالفة هذا النهي (وإن كان نهياً كراهياً وتنزيهياً) تلك العقوبة والمواخظة من جانب الله تعالى.

قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

رجوع آدم إلى الله وتوبته: وفي المال عندما عرف آدم وحواء بكيد إبليس، وخطته ومكره الشيطاني، ورأيا نتيجة مخالفتهم فكراً في تلافي ما فات، وجبران ما صدر منها،

فكانت أول خطوة خطيأها هي: الاعتراف بظلمها لنفسيها أمام الله: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

إن توبة آدم وحواء الخالصة وإن قبِلت من جانب الله تعالى - كما نقرأ ذلك في الآية (٣٧) من سورة البقرة: ﴿فَتَابَ اللَّهُ﴾ - ولكنها لم يستطيعا على كل حال التخلص من الأثر الوضعي والنتيجة الطبيعية لعملها، فقد أمرا بمغادرة الجنة، وشمل هذا الأمر الشيطان أيضاً: ﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

كما ذكّر الجميع بأنهم سيتعرضون في الأرض للموت بعد الحياة، ثم يخرجون من الأرض مرّة أخرى للحساب ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾.

يَبْنِيءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَ تِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَبْنِيءَ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهِمَا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنِّي أَلْفَحِشَاءٌ أَلْفَحِشَاءٌ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

إنذار إلى كل أبناء آدم: إن الله تعالى بيّن في الآيات الحاضرة وما بعدها سلسلة من التعاليم والبرامج البناءة لجميع أبناء آدم، وهي تعتبر في الحقيقة استمراراً لبرامج آدم في الجنة. ففي البداية يشير إلى مسألة اللباس وستر سؤءات البدن التي كان لها دور مهم في قصة آدم، إذ يقول: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَ تِكُمْ﴾.

ولكن فائدة اللباس الذي أرسلناه لكم لا تقتصر على ستر البدن وإخفاء العيوب والسؤءآت، بل للتجمل والزينة أيضاً حيث يجعل أجسامكم أجمل مما هي عليه. ﴿وَرِيشًا﴾.

«ريش»: في الأصل هو ما يبستر أجسام الطيور، وحيث إن ريش الطيور هو اللباس الطبيعي في أجسامها، لهذا أطلق على نوع من أنواع الألبسة، ولكن حيث إن ريش الطير في

الأغلب مختلف الألوان جميلها، لذلك تتضمن هذه الكلمة مفهوم الزينة والجمال. ثم تحدث القرآن عقيب هذه الجملة التي كانت حول اللباس الظاهري، عن حد اللباس المعنوي تبعاً لسيرته في الكثير من الموارد التي تمزج بين الجانبين المادي والمعنوي، الظاهري والباطني إذ قال: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.

وتشبيه التقوى باللباس تشبيه قوي الدلالة، معبر جداً، لأنه كما أن اللباس يحفظ البدن من الحرّ والقرّ، يقي الجسم عن الكثير من الأخطار، ويستر العيوب الجسدية، وهو بالإضافة إلى هذا وذاك زينة للإنسان، ومصدر جمال، كذلك روح التقوى، فإنها مضافاً إلى ستر عيوب الانسان، ووقايته من الكثير من الأخطار الفردية والاجتماعية، تعدّ زينة كبرى له... زينة ملفتة للنظر تضيف إلى شخصيته رفعة وسمواً، وتزيدها جلالاً وبهاء.

والمراد من لباس التقوى هو «روح التقوى» التي تحفظ الإنسان، وتنطوي تحتها معاني «الحياء» و«العمل الصالح» وأمثالهما.

ثم إن الله تعالى يقول في ختام الآية: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾. أي إن هذه الألبسة التي جعلها الله لكم، سواء الألبسة المادية أو المعنوية، اللباس الجسماني أو لباس التقوى، كلها من آيات الله ليتذكر الناس نعم الرب تعالى.

اللباس في الماضي والحاضر: لم يزل الإنسان فيما مضى - كما يشهد به التاريخ - يلبس الثياب ولكن الألبسة قد تغيرت وتنوعت تنوعاً بالغاً عبر الزمن. لقد تطورت وسائل إنتاج الألبسة والثياب في عصرنا الراهن تطوراً هائلاً، واتسع نطاقها اتساعاً كبيراً، بحيث أصبح لا يقاس بما مضى.

ولكن - للأسف - قد اتسعت الجوانب الفرعية، بل وغير المحمودة والفاضحة للثياب والألبسة وتعددت كثيراً إلى درجة أنها غطت على الفلسفة الأصلية للباس.

لقد أصبح اللباس - اليوم - وسيلة لأنواع التظاهر، وإشاعة الفساد، وتحريك الشهوات، والتكبر والإسراف والتبذير، وما شابه ذلك. حتى أننا ربما نشاهد ألبسة يرتديها جماعات من الناس - وبخاصة الشباب المتغرب - يفوق طابعها الجنوني على الطابع العقلاني، وتكون أشبه بكل شيء إلا باللباس والثوب.

الآية اللاحقة يحذر فيها الله سبحانه جميع أبناء البشر من ذرية آدم من كيد الشيطان ومكره، ويدعو إلى مراقبته، والحذر منه، لأن الشيطان أبدى عداؤه لأبيهم آدم، فكما أنه

نزع عنه لباس الجنة بوساوسه يمكن أن ينزع عنهم لباس التقوى، ولهذا يقول تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾.

ثم إن الله تعالى يؤكد على أن الشيطان وأعدائه يختلفون عن غيرهم من الأعداء: ﴿إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾. فلا بد من شدة الحذر من مثل هذا العدو.

وفي خاتمة الآية يأتي سبحانه بجملة هي إجابة على سؤال مهم، فقد يتساءل أحد: كيف سلط الله العادل الرحيم عدواً بهذه القوة على الإنسان... عدواً لا يمكن مقايسة قواه بقوى الإنسان... عدواً يذهب حيث يشاء دون أن يحس أحد بتحركاته، بل إنه - حسبما جاء في بعض الأحاديث - يجري من الإنسان مجرى الدم في عروقه، فهل تنسجم هذه الحقيقة مع عدالة الله سبحانه؟!

الآية الشريفة - في خاتمتها - ترد على هذا السؤال الاحتمالي إذ تقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. أي إن الخطوات الأولى نحو الشيطان إنما يخطوها الإنسان نفسه، وهو الذي يسمح للشيطان بأن يتسلل إلى مملكة جسمه. فالشيطان لا يستطيع اجتياز حدود الروح ويعبرها إلا بعد موافقة من الإنسان نفسه.

وفي الآية (٤٢) من سورة الحجر نقراً: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾.

في الآية التالية يشير تعالى إلى واحدة من وساوس الشيطان المهمة والتي تجري على السنة بعض الشياطين من الإنس أيضاً، وهي أنه عندما يُسأل الشخص لدى إرتكابه عملاً قبيحاً، عن دليله يجيب قائلاً: هذا ما وجدنا آباءنا يفعلونه: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾.

ثم يضيفون إلى هذه الحجة حجة كاذبة أخرى قائلين: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾. والملفت للنظر أن القرآن الكريم لم يعبأ بالدليل الأول (يعني التقليد الأعمى للآباء والأسلاف) ولم يعتن به، وإنما اكتفى بالردّ على الحجة الثانية، أو بالأحرى (التبرير الثاني) حيث قال: ﴿قُلْ إِنْ أَلَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾.

ثم يختم الآية بهذه العبارة: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. «الفحشاء»: هنا هو كل عمل قبيح منكر، ومسألة «الطواف بالبيت عراة» و«اتباع

القادة والزعماء الظلمة» تعدّ من المصاديق الواضحة لذلك.

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢١﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٠﴾

بما أنّ الحديث في الآية السابقة دار حول الفحشاء التي يشمل مفهومها كل أنواع الفعل القبيح، وتأكّد أنّ الله لا يأمر بالفحشاء اطلاقاً لهذا أُشير في هذه الآية إلى أصول ومبادئ التعاليم الإلهية في مجال الوظائف والواجبات العملية في جملة قصيرة، ثم تبعد بيان أصول العقائد الدينية، أي المبدأ والمعاد، بصورة مختصرة موجزة.

يقول أولاً: أيها النبي ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ والعدل.

ونحن نعلم أنّ للعدل مفهوماً واسعاً يشمل جميع الأعمال الصالحة، لأنّ حقيقة العدل هي

استخدام كل شيء في مجاله، ووضع كل شيء في محله.

ثمّ إنّ سبحانه أمر بالتوحيد في العبادة ومحاربة كل ألوان الشرك وأنواعه، إذ قال:

﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي وجهوا قلوبكم نحو الله الواحد دون سواه ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

وبعد تحكيم وإرساء قاعدة التوحيد، وجه الأنظار نحو مسألة المعاد والبعث يوم القيامة،

إذ قال: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.

إنّ الآية الحاضرة تعكس إحدى أقصر وأجمل التعابير في مسألة المعاد الجسماني، إذ

تقول: انظروا إلى بداية الخلق، انظروا إلى جسمكم الذي يتكون من مقدار كبير من الماء،

ومقدار أقل من المواد المعدنية وشبه المعدنية المختلفة المتنوعة أين كان في السابق؟ فالمياه

المستخدمة في جسمكم يحتمل أن كل قطرة منها كانت سادرة في محيط من محيطات الأرض

ثم تبخّرت وتبدلت إلى السحب، ثم نزلت في شكل قطرات المطر على الأراضي، والذرات

التي استخدمت في نسيج جسمكم من مواد الأرض الجامدة كانت ذات يوم في هيئة حبة

قح أو ثمرة شجرة، أو خضروات مختلفة جمعت من مختلف نقاط الأرض.

وعلى هذا فلا مكان للتعجب والدهشة إذا سمعنا أنّه بعد تلاشي بدن الإنسان ورجوعه

إلى حالته الأولى تجتمع تلك الذرات ثانية، وتتواصل وتترابط ويتشكل الجسم الأول، فلو كان هذا الأمر محالاً فلماذا وقع في مبدأ الحلقة؟! إذا «كما بدأكم» الله «تعودون» أي يعيدكم في الآخرة، وهذا هو الموضوع الذي تضمنته العبارة القصيرة.

في الآية اللاحقة يصف سبحانه ردود الفعل التي أظهرها الناس قبال هذه الدعوة (الدعوة إلى التوحيد والخير والمعاد) فيقول: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾. ولأجل أن لا يتصور أحد أن الله يهدي فريقاً أو يضل فريقاً من دون سبب، أضاف في الجملة ما يلي: ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾. أي إن الضالين هم الذين إختاروا الشياطين أولياء لهم بدل أن يدخلوا تحت ولاية الله، فضلوا. والعجب أنه رغم كل ما أصابهم من ضلال وانحراف يحسبون أنهم المهتدون الحقيقيون ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

إن هذه الحالة تختص بالذين غرقوا في الطغيان والمعصية، وفي هذه الحالة أغلقت في وجوههم كل أبواب الهداية، وهذا هو ما أوجدوه وجلبوه لأنفسهم.

يَبْنِيءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

الحديث في هاتين الآيتين يتناسب مع قصة آدم في الجنة، وكذلك يتناول مسألة اللباس وسائر مواهب الحياة، وكيفية الاستفادة الصحيحة منها. في البداية يأمر جميع أبناء آدم ضمن دستور عام أبدي، يشمل جميع الأعصار والقرون، أن يتخذوا زينتهم عندما يذهبون إلى المساجد: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُلُّوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

هذه الجملة يمكن أن تكون إشارة إلى كل «زينة جسمانية» مما يشمل لبس الثياب المرتبة الطاهرة الجميلة، وتمشيط الشعر، واستعمال الطيب والعطر وما شابه ذلك كما يمكن أيضاً أن تكون إشارة إلى كل «زينة معنوية» يعني الصفات الإنسانية والملكات الأخلاقية، وصدق

النية وطهارتها وإخلاصها.

ثم في العبارة اللاحقة يشير سبحانه إلى مواهب أخرى، يعني الأطعمة والأشربة الطاهرة الطيبة، ويقول: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾.

ولكن حيث إن الإنسان حريص بحكم طبيعته البشرية، يمكن أن يسيء استخدام هذين التعليمين، وبدل أن يستفيد من نعمة اللباس والغذاء الصحيح بالشكل المعقول والمعتدل، يسلك سبيل الإسراف والتبذير والبذخ، لهذا أضاف مباشرة قائلاً: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.

«الإسراف»: كلمة جامعة جداً بحيث تشمل كل إفراط في الكم والكيف، وكذا الأعمال العابثة والإتلاف وما شابه ذلك.

وفي الآية اللاحقة يعمد إلى الرد - بلهجة أكثر حدة - على من يظن أن تحريم أنواع الزينة والتزين والإجتنا من الأطعمة الطيبة الحلال علامة الزهد، وسبباً للتقرب إلى الله فيقول: أيها النبي: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.

ثم أضاف للتأكيد: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. أي إن هذه النعم والمواهب قد خلقت للمؤمنين في هذه الحياة، وإن كان الآخرون - أيضاً - يستفيدون منها رغم عدم صلاحيتهم لذلك، ولكن في يوم القيامة حيث الحياة الأعلى والأفضل، وحيث يتميز الخبيث عن الطيب، فإن هذه المواهب والنعم ستوضع تحت تصرف المؤمنين الصالحين فقط، ويحرم منها الآخرون حرماناً كلياً.

وفي ختام الآية يقول من باب التأكيد: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

لقد اختار الإسلام - كسائر الموارد - حدّ التوسط والإعتدال في مجال الإنتفاع والاستفادة من أنواع الزينة.

ولم يكتف الإسلام بتجويز التمتع بحمال الطبيعة والاستفادة من الألبسة الجميلة والمناسبة واستعمال كل أنواع العطور فحسب بل أوصي بذلك وحثّ عليه أيضاً.

توصية صحية هامة: إن عبارة ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ التي جاءت في الآية الحاضرة، وإن كانت تبدو للنظر أمراً بسيطاً جداً، إلا أنه ثبت اليوم أنه واحد من أهم الأوامر والتعاليم الصحية، وذلك لأنّ تحقيقات العلماء توصلت إلى أنّ منبع الكثير من الأمراض والآلام هو الأطعمة الإضافية الزائدة التي تبقى في بدن الإنسان إنّ هذه المواد الإضافية تشكل من جانب عبئاً ثقيلاً على القلب وغيره من أجهزة الجسم، وهي من

جانب آخر منبع مهياً لمختلف أنواع العفونات والأمراض.
إن العامل الأصل في وجود هذه المواد الزائدة هو الإسراف، والإفراط في الأكل والبطنة،
والطريق إلى تجنب هذه الحالة ليس إلا رعاية الاعتدال في الأكل.

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَإِلْتِمَ وَالْبَغْيَ بغيرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا
بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴿٣٣﴾

لقد شاهدنا مراراً أن القرآن الكريم كلما تحدث عن أمر مباح أو لازم، تحدث فوراً عن ما
يقابله، من الأمور القبيحة والمحرمات، ليكمل كل واحد منهما الآخر.
وهنا أيضاً تحدث - عقيب السماح بالتمتع والاستفادة من المواهب الإلهية وإباحة كل ما
هو زينة وجمال - عن المحرمات على نحو العموم، ثم أشار بصورة خاصة إلى عدة نقاط مهمة.
ففي البداية تحدث عن تحريم الفواحش وقال: يا أيها النبي ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا
ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾.

«الفواحش»: جمع «فاحشة» وتعني الأعمال القبيحة البالغة في القبح والسوء لا جميع
الذنوب، ولعل التأكيد على هذا المطلب (ما ظهر منها وما بطن) هو لأجل أن العرب
الجاهليين كانوا لا يستقبحون عمل الزنا إذا أتى به سرّاً، ويحرمونه إذا كان ظاهراً مكشوفاً.
ثم إنه عمّم الموضوع وأشار إلى جميع الذنوب وقال: ﴿وَالْإِثْمَ﴾. أي كل إثم.
والإثم في الأصل يعني كل عمل مضر، وكل ما يوجب انحطاط مقام الإنسان وتردي
منزلته، ويمنعه ويحرمه من نيل الثواب والأجر الحسن. وعلى هذا يدخل كل نوع من أنواع
الذنوب في المفهوم الواسع للإثم.

ومرة أخرى يشير بصورة خاصة إلى عدد من كبريات المعاصي والآثام، فيقول:
﴿وَالْبَغْيَ بِغيرِ الْحَقِّ﴾. أي كل نوع من أنواع الظلم، والتجاوز على حقوق الآخرين.
«البغي»: يعني السعي والمحاولة لتحصيل شيء ولكن يراد منه غالباً الجهود المبذولة
لفسب حقوق الآخرين، ولهذا يكون مفهومه - في الغالب - مساوياً لمفهوم الظلم.
ثم أشار تعالى إلى مسألة الشرك وقال: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾. فهو
أيضاً محرّم عليكم.
وآخر ما يؤكد عليه من المحرمات هو نسبة شيء لله لا يستند إلى علم: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى

اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾

لعل أمة أجل: في هذه الآية يشير الله تعالى إلى واحدة من سنن الكون والحياة، أي فناء الأمم وزوالها، ويلقي ضوءاً أكثر على الأبحاث التي تتعلق بحياة أبناء البشر على وجه الأرض ومصير العصاة، التي سبق الحديث عنها في الآيات السابقة. فيقول أولاً: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾.

ثم يشير إلى أن هذا الأجل لا يتقدم ولا يتأخر إن جاء ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾. أي إن الأمم والشعوب مثل الأفراد، لها موت وحياة، وأن الأمم تندثر وينمحي أثرها من على وجه الأرض، وتحل مكانها أمة أخرى، وإن سنة الموت وقانون الفناء لا يختصان بأفراد الإنسان، بل تشمل الجماعات والأقوام والأمم أيضاً، مع فارق وهو أن موت الشعوب والأمم يكون - في الغالب - على أثر انحرافها عن جادة الحق والعدل، والإقبال على الظلم والجور، والإنفاس في بحار الشهوات، والغرق في أمواج الإفراط في التجميل والرفاهية. *مرآة تحتية كالموتير علوم ربي*

فعندما تسلك الأمم في العالم هذه المسالك وتنحرف عن سنن الكون وقوانين الخلقة، تفقد مصادرها الحيوية الواحد تلو الآخر، وتسقط في النهاية.

ويجب الالتفات إلى أن «الساعة» في اللغة تعني أصغر وحدة زمنية، فربما تكون بمعنى لحظة، وربما تكون بمعنى أقل قدر من الزمن.

يٰٓبَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾

تعليم آخر لأبناء آدم: مرة أخرى يخاطب الله سبحانه أبناء آدم وذريته، إذ يقول: ﴿يٰٓبَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. أي إذا أتتكم رسلي يتلون عليكم آياتي فاتبعوهم، لأن من اتقى منكم

واتبعهم وأصلح نفسه والآخرين كان في أمن من عذاب الله الأليم، فلا يخاف ولا يحزن.
وفي الآية اللاحقة يضيف سبحانه وتعالى قائلاً: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا
أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

فتلك عاقبة المؤمنين، وهذه عاقبة المكذبين لهم.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِشَايئِهِ^٤ أُولَئِكَ يَنَالُهُمُ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ
حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا آيُنَا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا
ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

من هذه الآية فما بعد تتضمن الآيات بيان أقسام مختلفة من المصير السيء الذي ينتظر
المفترين والمكذبين لآيات الله تعالى، وفي البداية تشير إلى كيفية حالهم عند الموت، إذ
تقول: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِشَايئِهِ﴾.

ثم إنه تعالى يصف وضعهم عند الموت فيقول: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمُ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ
إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾. أي إن هؤلاء سيأخذون ما هو نصيبهم وما هو مقدر مكتوب
لهم من النعم المختلفة، حتى إذا استوفوا حظهم من العمر، وانتهوا إلى آجالهم النهائية، حينئذ
تأتيهم ملائكتنا الموكلون بقبض أرواحهم.

وعلى كل حال، فإن عقوباتهم تبدأ منذ لحظة حلول الموت، ففي البداية يواجهون التوبيخ
وعتاب الملائكة المكلفين بقبض أرواحهم، فيسألونهم: أين معبوداتكم التي اتخذتموها من
دون الله والتي طالما تحدثتم عنها، وكنتم تسوقون إليها ثرواتكم سفهاً. ﴿قَالُوا آيُنَا مَا كُنْتُمْ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

فيجيبهم هؤلاء بعد أن يرون أنفسهم منقطعين عن كل شيء، ويرون كيف تبددت جميع
أوهامهم وتصوراتهم الخاطئة حول آلهتهم وذهبت أدراج الرياح، قائلين: لانرى منها أثراً وإنها
لا تملك أن تدافع عنا، وإن جميع ما فعلناه من العبادة لها كان عبثاً وباطلاً. ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾.
وهكذا يشهدون على أنفسهم بالكفر والضلال: ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا
كَافِرِينَ﴾. أي في حين أغلق في وجههم طريق العودة، وهذا هو أول سوط جهنمي من سياط
العقوبة الإلهية التي تتعرض لها أرواحهم.

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتَتْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾
 وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأُخْرَيْنَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

تنازع القادة والاتباع في جهنم: في هذه الآية يواصل القرآن الكريم بيان المصير المشؤوم للمكذابين بآيات الله، وقد صوّرت لنا الآيات السابقة وضعهم عند حلول الموت، وسؤال الملائكة القابضة للأرواح لهم، وهنا يرسم لنا ما يجري بين الجماعات المظلمة والغاوية، وبين من تعرضوا للإغواء في يوم القيامة. ففي يوم القيامة يقول الله لهم: التحقوا بمن يشابهكم من الجن والإنس ممن سبقوكم، وذوقوا نفس مصيرهم النار ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾.

وعندما يدخل الجميع في النار تبدأ مصادماتهم مع زملائهم وأشباهم في المسلك، وهي مصادمات عجيبة، فكلما دخلت جماعة منهم في النار لعنت الأخرى واعتبرتها سبباً لشقائها ومسؤولة عن بلائها ومحنها ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾^١.

ففي البداية يبدأ المخدوعون المغرّرين بهم بعرض شكايتهم، وحيث إنهم لا يجدون مناصاً مما هم فيه يقولون: ربنا إن هؤلاء المغوين هم الذين أضلونا وخدعونا، فضاغف يا رب عذابهم، عذاباً لضلالهم وعذاباً لإضلالهم إياناً، وهذا هو ما يتضمنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَهُمْ لِأُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَفَاتَتْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾. ولكن العجيب هو أن يقال لهم في معرض الإجابة على طلبهم: سيكون لكلتا الطائفتين ضعفان من العذاب وليس للمضلين فقط ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وفي الآية اللاحقة ينقل القرآن الكريم جواب قادة الضلال والانحراف بأنه ليس بيننا وبينكم أي تفاوت، فإذا قلنا فقد أيدتم، وإذا خطونا فقد ساعدتم، وإذا ظلمنا فقد عاونتم،

١. التعبير بالأخت كناية عن الإرتباط الفكري والصلة الروحية بين هذه الفرق المنحرفة، وحيث إن الأمة مؤنث لفظي، لهذا عبر عنها بالأخت، لا الأخ.

وَإِذْ فَذَوْقُوا بِإِزَاءِ أَعْمَالِكُمْ عَذَابَ اللَّهِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَأُخْرِجَنَّكُمْ فَأَخَذْنَا مِنْكُمْ آلِهَةً مُنْذُ نُوْحٍ فَلَوْ قُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۗ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾

مرّة أخرى يتناول القرآن بالحديث مصير المتكبرين والمعاندين، يعني أولئك الذين لا يخضعون لآيات الله ولا يستسلمون للحق، فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾.

في تفسير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «أما المؤمنون فترفع أعمالهم وأرواحهم إلى السماء فتفتح لهم أبوابها. وأما الكافر فيصعد بعمله وروحه حتى إذا بلغ إلى السماء نادى مناد: اهبطوا به إلى سجين وهو واد بحضرموت يقال له برهوت».

ثم أضاف قائلاً: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾. إن هذا التعبير كناية لطيفة عن استحالة هذا الأمر، حتى لا يشك أحد في عدم وجود طريق لدخول المستكبرين إلى الجنة مطلقاً.

وفي خاتمة الآية يضيف تعالى للمزيد من التأكيد والتوضيح قائلاً: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾.

وفي الآية اللاحقة يشير إلى قسم آخر من عقوبتهم المؤلمة إذ يقول: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۗ﴾^١.

ثم يضيف للتأكيد: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنُدْخِلَنَّهُمْ الْجَنَّاتِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولَنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

١. «المهاد»: جمع مهد وزان عهد أي الفرش؛ و«الغواش»: في الاصل غواشي جمع غاشية بمعنى كل نوع من أنواع الغطاء.

ولقد كان البحث في الآيات السابقة حول المكذبين لآيات الله، والمستكبرين والظالمين، وهنا يشرح ويبين المستقبل المشرق للمؤمنين إذ يقول: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ... أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وقد أتى بين المبتدأ والخبر بجملة معترضة توضح الكثير من الإبهامات إذ يقول: ﴿لَا نَكْفِيكَ نَفْسًا إِلَّا وَشَعَهَا﴾. وهذه الجملة تؤكد بأنه لا ينبغي لأحد أن يتصور بأن الإيمان بالله، والإتيان بالعمل الصالح وسلوك سبيل المؤمنين، أمر متعسر غير مقدور إلا لأفراد معدودين، لأن التكاليف الإلهية في حدود الطاقة البشرية وليست أكثر منها. إن هذه الآية - مثل سائر الآيات القرآنية - تحصر وسيلة النجاة والسعادة الأبدية في الإيمان والعمل الصالح، وهكذا تفنّد العقيدة النصرانية المحرفة الذين يعتبرون صلب المسيح في مقابل ذنوب البشر وسيلة للنجاة، ويقولون: إنه قربان لخطايا الإنسانية. إن إصرار القرآن الكريم على مسألة الإيمان والعمل الصالح، في الآيات المختلفة لتفنيده هذه المقولة وأمثالها.

وفي الآية اللاحقة أشار تعالى إلى واحدة من أهم النعم التي أعطاها الله سبحانه لأهل الجنة، والتي تكون سبباً لطمأنينتهم النفسية وسكنتهم الروحية، إذ قال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُؤْرِهِمْ مِنْ غَلٍ﴾.

«الغل»: في الأصل بمعنى نفوذ الشيء خفية وسراً، ولهذا يقال للحسد والحقد والعداوة، الذي يتسلل إلى النفس الإنسانية بصورة خفية (الغل).

وإن من أكبر عوامل الشقاء التي يعاني منها الناس في هذه الحياة، ومصدر الكثير من الصراعات الاجتماعية الواسعة التي تؤدي - مضافاً إلى الخسائر الفادحة في المال والنفس - إلى زعزعة الاستقرار الروحي، هو الحسد والحقد.

إن أهل الجنة معافون من هذه الشقاوات والمحن بالكلية، لأنهم لا يتصفون بهذه الصفات القبيحة، إنهم يعيشون معاً في منتهى التواد والتحابب والصفاء والسكينة، ولهذا راضون عن وضعهم الذي هم فيه.

وبعد ذكر هذه النعمة الروحانية، يشير القرآن الكريم إلى نعمهم المادية الجسدية، فيقول: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾.

ثم يعكس رضى أهل الجنة الكامل الشامل الذي يعبرون عنه بالحمد والشكر لله وحده

على ما هداهم إليه من النعم ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتِكُمْ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جِئْتُمْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ .

وهنا يأتيهم النداء بأن ما ورثتموه من النعم إنما هو بسبب أعمالكم: ﴿ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أَوْ رِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾

بعد البحث في الآيات السابقة حول مصير أهل الجنة وأهل النار، أشار هنا إلى حوار هذين الفريقين في ذلك العالم، ويستفاد من ذلك أن أهل الجنة وأهل النار يتحدثون بينهم وهم في مواقعهم في الجنة أو النار، فيقول أولاً: ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ﴾ .

فيجيبهم أهل النار قائلين: نعم وجدنا كل ذلك، عين الحقيقة ﴿ قَالُوا نَعَمْ ﴾ . ثم يضيف تعالى بأنه في هذا الوقت بالذات ينادي مناد بنداء يسمعه الجميع: أن لعنة الله على الظالمين ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ . ثم يعرف الظالمين ويصفهم بقوله: ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾^١ .

جاء في الأحاديث الإسلامية المفسرة والموضحة لهذه الآية، تفسير المؤذن بأمر المؤمنين علي عليه السلام.

في تفسير مجمع البيان: روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده عن محمد بن الحنفية عن علي عليه السلام أنه قال: «أنا ذلك المؤذن» .

وإسناده عن ابن عباس: إن لعلي عليه السلام في كتاب الله أسماء لا يعرفها الناس، قوله ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ ﴾ فهو المؤذن بينهم، يقول: «ألا لعنة الله على الذين كذبوا بولايتي واستغفوا بحقي» .

١. «يبغونها عوجاً»: بمعنى يطلبونها عوجاً، أي أنهم يرغبون ويجهدون في أن يضلوا الناس بإلقاء الشبهات والدعايات المسموعة عن الطريق المستقيم.

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمَّا دَخَلُوا هُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تُسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهْلُوا لَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا يَخُوفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

الأعراف معبر مهم إلى الجنة: عقيب الآيات السابقة التي بيّنت جانباً من قصة أهل الجنة وأهل النار، تحدث في هذه الآيات حول «الأعراف» التي هي منطقة في الحد الفاصل بين الجنة والنار مع خصوصياتها، وفي البداية يشير إلى الحجاب الذي أقيم بين أهل الجنة وأهل النار، إذ يقول: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾.

ويستفاد من الآيات اللاحقة أنّ الحجاب المذكور هو «الأعراف» وهو مكان مرتفع بين الفريقين يمنع من رؤية كل فريق الفريق الآخر، ولكن وجود مثل هذا الحجاب لا يمنع من أن يسمع كل منهما صوت الآخر ونداءه، كما مرّ في الآيات السابقة، على أنّ الذين يقفون على الأعراف، أي على الأقسام المرتفعة من هذا المكان المرتفع، يرون كلا الفريقين.

ثمّ إنّ القرآن الكريم يقول: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ﴾. يرون كلًّا من أهل الجنة وأهل النار ويعرفونهم بملامح وجوههم.

ثمّ يقول: إنّ هؤلاء الرجال ينادون أهل الجنة ويسلمون عليهم، ولكنهم لا يدخلون الجنة وإن كانوا يرغبون في ذلك ﴿وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمَّا دَخَلُوا هُمْ يَطْمَعُونَ﴾.

ولكن عندما ينظرون إلى الطرف الآخر ويشاهدون أهل النار يسطلون فيها، يتضرعون إلى الله طالبين أن لا يجعلهم مع الظالمين: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وفي الآية اللاحقة يضيف: إنّ أصحاب الأعراف ينادون فريقاً من الجهنميين الذين يعرفونهم بملامح وجوههم ويلومونهم قائلين: أمّا ترون أنّ جمعكم للأموال والأفراد والتجبر والتكبر عن قبول الحق لم ينفعكم شيئاً، فأين تلك الأموال وأولئك الأعوان؟ وماذا حصدتم

من تلك المواقف والصفات السيئة؟! ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِمَاتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَنَفُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ومرة أخرى يقولون موبخين ومعاتبين، وهم يشيرون إلى جمع من ضعفاء المؤمنين المستقرين فوق الأعراف: ﴿أَهْوَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنْتَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾.

وفي المآل تشمل الرحمة الإلهية هذه الطائفة من ضعفاء المؤمنين، ويقال لهم: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

يستفاد من مجموع الآيات والروايات أنّ الأعراف معبر صعب العبور على طريق الجنة والسعادة الأبدية.

ومن الطبيعي أنّ الأقوياء الصالحين والطاهرين هم الذين يعبرون هذا المعبر الصعب بسرعة، أمّا الضعفاء الذي خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فيعجزون عن العبور.

كما أنّه من الطبيعي أيضاً أن تقف قيادات الجموع وسادة القوم عند هذه المعابر الصعبة مثل القادة العسكريين الذين يمشون في مثل هذه المجالات في مؤخرة جيوشهم ليعبر الجميع، يقفون هناك ليساعدوا ضعفاء الإيمان، فينجو من يصلح للنجاة ببركة مساعدتهم ومعونتهم ونجدتهم.

وعلى هذا الأساس، فأصحاب الأعراف فريقان: ضعفاء الإيمان والمتورطون في الذنوب الذين هم بحاجة إلى الرحمة، والأئمة السادة (يعني الأنبياء والأئمة والصلحاء) الذين يساعدون الضعفاء في جميع الأحوال.

وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَهْيًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

يَعْمُ الْجَنَّةَ حَرَامٌ عَلَى أَهْلِ النَّارِ: بعد أن استقر كل من أهل الجنة وأهل النار في أماكنهم ومنازلهم، تدور بينهم حوارات نتيجة العقوبة الروحية والمعنوية لأهل النار، وفي البداية يبدأ الكلام من جانب أهل النار: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنْ

أَلْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴿١﴾. فهم يطلبون أن يجودوا عليهم بشيء من الماء أو من نعم الجنة. ولكن أهل الجنة يبادرون إلى رفض هذا المطلب ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

بحثان

١- إن عبارة ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ التي هي عبارة مجملة، وتتسم بالإيهام، تفيد أنه حتى أهل النار لا يمكنهم أن يعرفوا بشيء من حقيقة النعم الموجودة في الجنة وأنواعها. وهذا الموضوع يتفق وينسجم مع بعض الأحاديث التي تقول: (إن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر).

ثم إن عطف الجملة بـ «أو» يشير إلى أن النعم الاخروية الأخرى وخاصة الفواكه يمكنها أن تحل محل الماء وتطفيء عطش الإنسان.

٢- إن عبارة ﴿حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ إشارة إلى أن أهل الجنة بأنفسهم، ليسوا هم الذين يمتنعون عن إعطاء شيء من هذه النعم لأهل النار، لأنه لا يقلل منها شيء بسبب الإعطاء، ولا أنهم يحملون حقداً أو ضغينة على أحد في صدورهم، حتى بالنسبة إلى أعدائهم، ولكن وضع أهل النار بشكل لا يسمح لهم أن يستفيدوا من نعم الجنة. إن هذا الحرمان نوع من «الحرمان التكويني» مثل حرمان كثير من المرضى من الأطعمة اللذيذة المتنوعة.

في الآية اللاحقة يبين سبب حرمانهم، بذكر صفات أهل النار وأن أهل هذا المصير الأسود هم الذين أوقعوا أنفسهم فيه فيقول أولاً: إن هؤلاء هم الذين اتخذوا دينهم لعباً ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾.

وهذا إلى جانب أنهم خدعتهم الدنيا واغتروا بها ﴿وَعَرَّثَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

إن هذه الأمور سببت في أن يغرقوا في وحل الشهوات، وينسوا كل شيء حتى الآخرة، وينكروا أقوال الأنبياء، ويكذبوا بالآيات الإلهية، ولهذا أضاف قائلاً: ﴿قَالِيَوْمَ نَسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

كما أنه يستفاد من هذه الآية أن أول مرحلة من مراحل الانحراف والضلال، هو أن لا يأخذ الإنسان قضاياها المصيرية بماخذ الجد، بل يتعامل معها معاملة المتسلي والهازل، فتؤدي به هذه الحالة إلى الكفر المطلق، وإنكار جميع الحقائق.

وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ
إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ
فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

هذه الآية إشارة إلى أن حرمان الكفار ومصيرهم المشؤوم إنما هو نتيجة تقصيراتهم
أنفسهم وإلا فليس هناك من جانب الله أي تقصير في هدايتهم وقيادتهم وإبلاغ الآيات
إليهم وبيان الدروس التربوية لهم لهذا يقول تعالى: **إِنَّا لَمْ نَأَلْ جُهْدًا وَلَمْ نُدْخِرْ شَيْئًا فِي مَجَالِ
الْهُدَايَةِ وَالْإِرْشَادِ، بَلْ أَرْسَلْنَا لَهُمْ كِتَابًا شَرْحًا فِيهِ كُلِّ شَيْءٍ بِحِكْمَةٍ وَدِرَايَةٍ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ
بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.**

وهو كتاب فيه رحمة وهداية، لا للمعاندين الأتانيين، بل للمؤمنين: **﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ﴾.**

الآية اللاحقة تشير إلى الطريقة الخاطئة في تفكير العصاة والمنحرفين في صعيد الهداية
الإلهية فيقول: **﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾**. أي كأن هؤلاء يتوقعون أن يروا نتيجة الوعد
والوعد الإلهي بعيونهم (أي يروا أهل الجنة وهم فيها، وأهل النار وهم فيها) حتى يؤمنوا.
ولكنه توقع سخي، لأنه عندما تُترجم الوعود الإلهية على صعيد الواقع ينتهي الأمر،
ولم يعد هناك مجال للرجوع ولا طريق للعودة، وهناك سيترفون بأنهم قد تناسوا كتاب الله
وتجاهلوا التعاليم الإلهية التي أنزلها على رسله بالحق، وكان قولهم حقاً أيضاً: **﴿يَوْمَ يَأْتِي
تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ﴾.**

سيغرقون في هذا الوقت في قلق واضطراب، ويفكرون في مخلص ينقذهم من هذه
المشكلة ويقولون: **﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾.**

وإذا لم يكن هناك شفعاء لنا، أو إننا لا نصلح أساساً للشفاعة، أفلا يمكن أن نرجع إلى
الدنيا ونقوم بأعمال غير ما عملناه سابقاً، ونسلم للحق والحقيقة **﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي
كُنَّا نَعْمَلُ﴾.**

ولكن هذا التنبيه جاء متأخراً جداً، فلا طريق للعودة ولا صلاحية لهم للشفاعة لأنهم

قد خسروا كل رؤوس أموالهم وتورطوا في خسران جميع وجودهم ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾. وسوف يثبت لهم أن أصنامهم ومعبوداتهم ليس لها أي دور هناك، وفي الحقيقة ضاعت - في نظرهم - جميعاً ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

من هذه الآية يستفاد أولاً: أن الإنسان حرّ مختار في أعماله، وإلا لما طلب العودة والرجوع إلى الدنيا لجبران ما فات، وثانياً: إن العالم الآخر ليس مكان العمل واكتساب الفضائل والنجاة.

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾

هذه الآية تصف المعبود الحقيقي مع ذكر صفاته الخاصة حتى يستطيع الذين يطلبون الحقيقة وينشدونها أن يعرفوه بوضوح في هذا العالم وقبل حلول يوم القيامة، ويبدأ حديثه هذا بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾. أي أن المعبود لا يمكن أن يكون إلا من كان خالقاً.

هل خلق العالم في ستة أيام؟ نظراً إلى المفهوم الواسع للفظ «يوم» وما يعادها في مختلف اللغات، يكون جواب هذا السؤال واضحاً، لأنه كثيراً ما يستعمل اليوم بمعنى الدورة. على هذا الأساس أن الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض في ست دورات متوالية، وإن استغرقت كل دورة من هذه الدورات ملايين أو مليارات السنين، والعلم الحديث لم يبيّن أي أمر يخالف هذا الموضوع.

ثم يقول القرآن الكريم: إن الله تعالى بعد خلق السماوات والأرض أخذ زمام إدارتها بيده (أي ليس الخلق منه فقط، بل منه الإدارة والتدبير أيضاً) فقال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ﴾.

وهذا جواب لمن يعتقد أن الكون محتاج إلى الله تعالى في الخلق والإيجاد دون البقاء. «العرش»: في اللغة هو ما له سقف، وقد يطلق العرش على نفس السقف، وربما يأتي بمعنى الأسرة الكبيرة المرتفعة، ولكن عندما ينسب إلى الله سبحانه وتعالى ويقال: عرش الله، يراد منه مجموعة عالم الوجود، الذي يعدّ في الحقيقة سرير حكومة الله تعالى.

وعلى هذا تكون عبارة ﴿أَسْتَوِي عَلَى الْعَرْشِ﴾ كناية عن الإحاطة الكاملة لله تعالى وسيطرته على تدبير أمور الكون - سماء وأرضاً - بعد خلقها.

ثم يقول بأنه تعالى هو الذي يلقي بالليل - كغشاء - على النهار، ويستر ضوء النهار بالأستار المظلمة ﴿يُغْشِي أَيْلَ النَّهَارِ﴾.

ثم يضيف بعد ذلك قائلاً: إن الليل يطلب النهار طلباً حثيثاً ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾. ثم يضيف تعالى أنه هو الذي خلق الشمس والقمر والنجوم، خاضعة لأمره بعد خلقها: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾.

ثم بعد ذكر خلق العالم ونظام الليل والنهار، وخلق الشمس والقمر والنجوم، قال مؤكداً: اعلّموا أن خلق الكون وتدبير أموره كله بيده سبحانه دون سواه ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾. إن المراد من «الخلق» هو الإيجاد الأوّل. والمراد من «الأمر» هو السنن والقوانين الحاكمة على عالم الوجود بأسره بأمر الله تعالى، والتي تقود الكون في مسيره المرسوم له. أي إن العالم كما يحتاج في حدوثه إلى الله، كذلك يحتاج في تدبيره واستمرار حياته وإدارة شؤونه إلى الله، ولو أن الله صرف عنايته ولطفه عن الكون لحظة واحدة لتبدد النظام وانهار وانهدم بصورة كاملة.

ثم في ختام الآية يقول: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

إن هذه الجملة - بعد ذكر خلق وتدبير عالم الوجود - نوع من الثناء على الذات الربوبية المقدسة.

فهو وجود مبارك أزلي أبدي، وهو بالتالي منشأ جميع البركات والخيرات، ومنبع الخير المستمر ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تَفْسِدُوا فِي
الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

شروط استجابة الدعاء: لقد أثبتت الآية السابقة - في ضوء ما أقيم من برهان واضح - هذه الحقيقة، وهي أن الذي يستحق العبادة فقط هو الله، وفي عقيب ذلك ورد الأمر هنا بالدعاء،

الذي هو مع العبادة وروحها، يقول أولاً: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

«التضرع»: في الأصل من مادة «ضَرَع» بمعنى الثدي، وعلى هذا يكون فعل التضرع بمعنى حلب اللبن من الضرع، وحيث إنه عند حلب اللبن تتحرك الأصابع على حلمة الثدي من جهاتها المختلفة استداراً للحليب، لهذا استعملت هذه الكلمة في من يظهر حركات خاصة إظهاراً للخضوع والتواضع.

وعلى هذا فإن الآية المبحوثة، وعبارة ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا﴾ تحثنا على أن نقبل على الله بمنتهى الخضوع والخشوع والتواضع، بل يجب أن تنعكس روح الدعاء في أعماق روح الإنسان، وعلى جميع أبعاد وجوده.

وأمره تعالى بأن يدعى الله «خفية» وفي السر، لأنه أبعد عن الرياء، وأقرب إلى الإخلاص، ولأجل أن يكون الدعاء مقروناً بتمركز الفكر وحضور القلب.

ثم قال تعالى في ختام الآية: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾. أي إن الله لا يحب المعتدين.

ولهذه العبارة معنى واسع يشمل كل نوع من أنواع العدوان والتجاوز، سواء الصراخ ورفع الصوت عالياً جداً حين الدعاء، أو الظاهر وممارسة الرياء، أو التوجه إلى غير الله حين الدعاء.

مركز تحقيقات الكمبيوتر علوم إسلامي

وفي الآية اللاحقة يشير تعالى إلى حكم هو في الحقيقة شرط من شروط تأثير الدعاء، إذ قال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

ولهذا فلا تستجاب أدعية المفسدين والعصاة، ولا تنتهي إلى أية نتيجة مرجوة. والمراد من «الفساد بعد الإصلاح» يمكن أن يكون الإصلاح من الكفر أو الظلم أو كليهما. في تفسير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إن الأرض كانت فاسدة فأصلحها الله بنبيه صلى الله عليه وآله».

ومرة أخرى يعود إلى مسألة الدعاء ويذكر شرطاً آخر من شرائطه فيقول: ﴿وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾. أي لا تكونوا راضين معجبين بأفعالكم بحيث تظنون أنه لا توجد في حياتكم أية نقطة سوداء، إذ إن هذا الظن هو أحد عوامل التقهقر والسقوط، كما لا تكونوا يائسين إلى درجة أنكم لا ترون أنفسكم لاتقين للعفو الإلهي ولإجابة الدعاء، إذ إن هذا

اليأس والقنوط هو الآخر سبب لانطفاء شعلة السعي والاجتهاد، بل لا بد أن تعرجوا نحوه تعالى بجناحي (الخوف) و(الأمل) الخوف من المسؤوليات والعثرات، والأمل برحمته ولطفه. وفي خاتمة الآية يقول تعالى للمزيد من التأكيد على أسباب الأمل بالرحمة الإلهية: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

هذه الآيات قد تضمنت الإشارة إلى خمسة من شرائط قبول الدعاء وإجابته، وهي باختصار كالتالي:

- ١- أن يكون الدعاء عن تضرع وخفية.
- ٢- أن لا يتجاوز حد الاعتدال.
- ٣- أن لا يكون مقروناً بالإفساد والمعصية.
- ٤- أن يكون مقروناً بالخوف والامل المعتدلين.
- ٥- أن يكون مقروناً بالبر والإحسان، وفعل الخيرات.

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَهُ لِبَلَدٍ مَّيْمَنٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۗ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

لابد من العربي والقابلية: في الآيات الماضية مرّت إشارات عديدة إلى مسألة «المبدأ» أي التوحيد ومعرفة الله، من خلال الوقوف على أسرار الكون، وفي هذه الآيات ضمن بيان طائفة من النعم الإلهية وردت الإشارة إلى مسألة «المعاد» والبعث، ليكمل هذان البحثان أحدهما الآخر.

وهذه هي سيرة القرآن الكريم ودأبه في كثير من الموارد، حيث يقرن بين «المبدأ» و«المعاد»، والملفت للنظر أنه يستعين لمعرفة الله، وكذا لتوجيه الأنظار إلى أمر المعاد معاً بالاستدلال بالأسرار الكامنة في خلق موجودات هذا العالم، فيقول تعالى أولاً: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾.

ثم يقول: إن هذه الرياح التي تهب من المحيطات تحمل معها سحباً ثقيلة مشبعة بالماء ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾.

ثم يسوق تلك السحب إلى الأراضي الظامئة اليابسة، ويكلفها بأن تروي تلك الأراضي العطاشي ﴿سُقْنَهُ لِيَتَلَوَّ مَيِّتٌ﴾.

وبذلك ينهمر ماء الحياة في كل مكان ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾.

وبمعونة هذا الماء نخرج للبشر أنواعاً متنوعة من الثمار والفواكة ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.

ثم عقيب ذلك يضيف: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْقَوْتَنَ﴾ ونبسهم حلة الوجود والحياة مرّة أخرى.

ولقد أتينا بهذا المثال لأجل أن نريكم أنموذجاً من المعاد في هذه الدنيا، الذي يتكرر أمام عيونكم كل يوم ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وفي الآية اللاحقة - وحتى لا يظن أحداً أن نزول المطر على غلط واحد يدل على أن جميع الأراضي تصير حيّة على غلط واحد أيضاً، وحتى يتضح أن القابليات والإستعدادات المتفاوتة تسببت في أن تتفاوت حالات الإستفادة والإستفاد بالموهب الإلهية يقول: ﴿وَأَبْلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾. أي إن الأرض الصالحة هي التي تستفيد من المطر، وتثمر خير إثمار بإذن ربها.

أما الأراضي السبخة والخبيثة فلا تثمر إلا بعض الأعشاب غير النافعة ﴿وَأَلَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِثًا﴾^١.

ثم في ختام الآية يقول تعالى: إن هذه الآيات نبينها لمن يشكرونها، ويستفيدون من عبرها ومدايلها، ويسلكون في ضوئها سبيل الهداية ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.

إن الآية الحاضرة إشارة إلى مسألة مهمّة وهي أن فاعلية الفاعل وحدها لا تكفي للإثمار والإنتاج الصحيح المطلوب، بل لابد من «قابلية القابل» فهي شرط للتأثير والإثمار.

١. «التكد»: هو البخيل الممسك الذي يتعذر أخذ شيء منه بسهولة، ولو أنه أعطى لأعطى الشيء اليسير الحقيق. ولقد شبهت الأراضي المالحة السبخة غير المساعدة للزرع بمثل هذا الشخص.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ لَيْسَ بِي ضَالَّةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أَبْلَغِكُمْ رَسُولًا لِّمَن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

رسالة نوح أول الرسل من أولي العزم: قد وردت قصة نوح في سور قرآنية متعددة، مثل سورة هود، الأنبياء، المؤمنون، الشعراء، لكن هنا اكتفي بإعطاء فهرست عن ذلك ضمن ست آيات هي: يقول أولاً: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾. إن أول شيء ذكرهم به هو إلفات نظرهم إلى حقيقة التوحيد، ونبي أي نوع من أنواع الوثنية ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾. وبعد أن أيقظ نوح ضمائرهم وفطرتهم الغافية، حذّرهم من مغبة الوثنية وعاقبتها المؤلمة إذ قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. والمراد من ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يمكن أن يكون الطوفان المعروف بطوفان نوح، كما ويمكن أن يكون إشارة إلى العقوبة الإلهية في يوم القيامة. ولكن قوم نوح بدل أن يستقبلوا دعوة هذا النبي العظيم الإصلاحية، المقرونة بقصد الخير والنفع لهم، فينضون تحت راية التوحيد ويكفون عن الظلم والفساد، قال جماعة من الأعيان والأثرياء الذين كانوا يحسون بالخطر على مصالحهم بسبب يقظة الناس وانتباههم، ويرون الدين مانعاً من عبثهم ومجونهم وشهواتهم، قالوا لنوح بكل صراحة وقحة: نحن نراك في ضلال واضح ﴿قَالَ أَلَعَلَّ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. ولقد جابه نوح ﷺ تعنتهم وخشونتهم بلحن هاديء ولهجة متينة تطفح بالمحبة والرحمة،

فقال في معرض الردّ عليهم: أنا لست بضال، بل لست في أية علامة للضلال، ولكني مرسل من الله ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وهذه إشارة إلى أنّ الأرباب التي تعبدوها كلها لا أساس لها من الصحة، ورب العالمين ما هو إلا الله الواحد الذي خلقها جميعاً وأوجدها من العدم.

ثم إنّ هدي في إنفا هو إيلاغ ما حملت من رسالة ﴿أَبْلَغُكُمْ رَسُولًا مِّن رَّبِّي﴾.

ولن آلو جهداً في تقديم النصح لكم، وقصد نفعكم، وإيصال الخير إليكم ﴿وَأَنْصَحُكُمْ﴾.

ثم أضاف تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِمَّنْ آَلَهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

إنّ هذه العبارة يمكن أن يكون لها جانب تهديد في مقابل معارضاتهم ومخالفتهم، وكأنه يريد أن يقول: أنا أعلم بعقوبات إلهية أليمة تنتظر العصاة لا تعلمون شيئاً عنها، أو تكون إشارة إلى لطف الله ورحمته، وتعني أنكم إذا أطعتم الله، وكففتكم عن تعنتكم، فإني أعلم مثوبات عظيمة لكم لا تعلمونها ولم تتفوا لحد الآن على سعتها.

وفي الآية اللاحقة نقرأ لنوح كلاماً آخر قاله في مقابل استغراب قومه من أنه كيف يمكن لبشر أن يكون حاملاً لمسؤولية إيلاغ الرسالة الإلهية، إذ قال: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

يعني: أي شيء في هذه القضية يدعو إلى الإستغراب والتعجب، لأنّ الانسان الصالح هو الذي يمكنه أن يقوم بهذه الرسالة أحسن من أي كائن آخر.

ولكن بدل أن يقبلوا دعوة مثل هذا القائد الخالص الواعي فقد كذّبه الجميع، فأرسل الله عليهم طوفاناً فغرق المكذبون ونجا في السفينة نوح ومن آمن ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

وفي خاتمة الآية ذكر دليل هذه العقوبة الصعبة، وأنّه عمى القلب الذي منعهم عن رؤية الحق، وأتباعه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾^١.

١. «عمين»: جمع عمي، وهو يطلق عادة على من تعطلت بصيرته الباطنية، ولكن الأعمى يطلق على من فقد بصره الظاهري، وكذلك يطلق على من فقد بصيرته الباطنية أيضاً.

وَالِإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْقُونَ ﴿٦٥﴾
 قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ
 الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَنْقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ
 ﴿٦٧﴾ أَيْلُفُكُمْ رَسُولَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ
 مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذَكُرُوكُمْ وَإِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ
 قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأذَكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
 ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأُنَا
 بِمَا تَعْبُدُونَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ
 رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَدُّ لُونِي فِي أَسْمَاءٍ مَّسَمِيَّتُوهَا أَنشَدَ ءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ
 اللَّهُ بِهَِا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ
 وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

لعنة عن قصة قوم هود: عقيب ذكر رسالة نوح والدروس الغنية بالعبء الكامنة فيها،

عمد القرآن الكريم إلى إعطاء لمحة سريعة عن قصة نبي آخر من الأنبياء العظام، وهو النبي
 هود عليه السلام وذكر ما جرى بينه وبين قومه. يقول تعالى أولاً: ولقد أرسلنا إلى قوم عاد أخاهم

هوداً ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾.

وقوم «عاد» كانوا أمة تعيش في أرض «اليمن» وكانت أمة قوية من حيث المقدرة البدنية
 والثروة الوافرة التي كانت تصل إليهم عن طريق الزراعة والرعي، ولكنها كانت متخمة
 بالانحرافات الإعتقادية وبخاصة الوثنية والمفاسد الأخلاقية المتفشية بينهم.

وقد كُلف «هود» الذي كان منهم - وكان يرتبط بهم بوشيجة القرى - من جانب الله بأن
 يدعوهم إلى الحق ومكافحة الفساد، ولعل التعبير بـ «أخاهم» إشارة إلى هذه الوشيجة
 النسبية بين هود وقوم عاد.

ثم إنه يحتمل أيضاً أن يكون التعبير بـ «الأخ» في شأن النبي هود، وكذا في شأن عدة

أشخاص آخرين من الأنبياء الإلهيين مثل نوح ﷺ (سورة الشعراء، الآية ١٠٦) وصالح (سورة الشعراء، الآية ١٤٢) ولوط (سورة الشعراء، الآية ١٦١) وشعيب (سورة الأعراف، الآية ٨٥) إنما هو لأجل أنهم كانوا يتعاملون مع قومهم في منتهى الرحمة، والمحبة مثل أخ حميم، ولا يألون جهداً في إرشادهم وهدايتهم ودعوتهم إلى الخير والصلاح.

ثم يذكر تعالى أن هود شرع في دعوته في مسألة التوحيد ومكافحة الشرك والوثنية:

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

ولكن هذه الجماعة الأنانية المستكبرة، وبخاصة أغنياؤها المغرورون المعجبون بأنفسهم، والذين يعبر عنهم القرآن بلفظة «الملا» باعتبار أن ظاهرهم يملأ العيون، قالوا لهود نفس ما قاله قوم نوح لنوح ﷺ: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَنظُنُّكَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾.

ولكن هوداً - وهو يتحلى بالوقار والمتانة التي يتحلى بها الأنبياء والهداة الصادقون الطاهرون - من دون أن ينتابه غضب، أو تعثر به حالة يأس ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

ثم إن هوداً أضاف: إن مهمته هي إيلاغ رسالات الله إليهم، وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم وخيرهم، وانقاذهم من ورطة الشرك والفساد، كل ذلك مع كامل الإخلاص والنصح والأمانة والصدق ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾.

ثم إن هوداً أشار - في معرض الرد على من تعجب من أن يبعث الله بشراً رسولاً - إلى نفس مقولة نوح النبي لقومه: ﴿ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾. أي هل تعجبون من أن يرسل الله رجلاً من البشر نبياً، ليحذركم من مغبة أعمالكم، وما ينتظركم من العقوبات في مستقبلكم؟

ثم إنه إستشارة لعواطفهم الغافية، وإثارة لروح الشكر في نفوسهم، ذكر قسماً من النعم التي أنعم الله تعالى بها عليهم، فقال: ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلُقَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾، فقد ورثتم الأرض بكل ما فيها من خيرات عظيمة بعد أن هلك قوم نوح بالطوفان بسبب طغيانهم وبادوا.

ولم تكن هذه هي النعمة الوحيدة، بل وهب لكم قوة جسدية عظيمة ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ

بِنُطْقَةٍ ﴾.

وفي خاتمة الآية يذكر تلك الجماعة الأثائية بأن يتذكروا نعم الله لتستيقظ فيهم روح الشكر فيخضعوا لأوامره، عليهم يفلحون ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ولكن في مقابل جميع المواعظ والإرشادات المنطقية، والتذكير بنعم الله ومواهبه، انبرت تلك الثلة من الناس الذين كانوا يرون مكاسبهم المادية في خطر، وقبول دعوة النبي تصدّهم عن التماهي في أهوائهم وشهواتهم، انبرت إلى المعارضة، وقالوا بصراحة: إنك جئت تدعونا إلى عبادة الله وحده وترك ما كان أسلافنا يعبدون دهرًا طويلاً، كلاً، لا يمكن هذا بحال ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.

وفي النهاية، ولأجل أن يقطعوا أمل هود فيهم تماماً، ويقولوا كلمتهم الأخيرة قالوا: إذا كان حقاً وواقعاً ما تنذرنا به من العذاب، فلتبادر به، أي إننا لا نخشى تهديداتك أبداً ﴿فَأْتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

وعندما بلغ الحوار إلى هذه النقطة، وأطلق أولئك المتعنتون كلمتهم الأخيرة الكاشفة عن رفضهم الكامل لدعوة هود، وأيس هود - هو الآخر - من هدايتهم تماماً، قال: إذن ما دام الأمر هكذا فسيحلّ عليكم عذاب ربكم ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾.

يعني أنكم قد غرقتم في دوامة الانحراف والفساد إلى درجة أن روحكم قد دفنت تحت اوزار كثيفة من النجاسات، وبذلك استوجبتم غضب الله، وشملكم سخطه.

ثم لأجل أن لا يبقى منطق عبادة الاوثان من دون ردّ أضاف قائلاً: ﴿أَتَجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾. فهذه الاصنام التي صنعتوها انتم وآباؤكم ليس لها من الالوهية الأسم فارغ وضعها أسلافكم كذباً وزوراً، ثم وجنتم تجادلوني في عبادتها في حين لم ينزل بذلك أي دليل من جانب الله.

ثم قال: فإذا كان الأمر هكذا فلننتظر جميعاً، انتظروا أنتم أن تنفعم أصنامكم ومعبوداتكم وتصركم، وانتظر أنا أن يحلّ بكم غضب الله وعذابه الأليم جزاء تعنتكم، وسيكشف المستقبل أي واحد من هذين الإنتظارين هو الأقرب إلى الحقيقة والواقع ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

وفي نهاية الآية بين القرآن مصير هؤلاء القوم المستعنتين في عبارة قصيرة موجزة: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَلَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

أجل، لقد أنجى الله هوداً ومن اتبعه من القوم بلطفه ورحمته، وأما الذين كذبوا بآيات الله، ورفضوا الإنصواء تحت لواء دعوته، والإنصياح للحق، فقد أيدوا نهائياً.

«دابر»: في اللغة بمعنى آخر الشيء ومؤخرته، وبناء على هذا المفهوم يكون معنى الآية: أننا أيدنا هؤلاء القوم بإعادة كاملة واستأصلنا شأفتهم.

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
 قَدْ جَاءَ تَكْذِبُكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا
 تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءَ مَا يَأْخُذُكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ وَأذْكُرُوا
 إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ تَنْعِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا
 قُصُورًا وَلَنْتَحِنُونَ الْأَجْبَالَ يُؤْتَا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ
 مُفْسِدِينَ ﴿٧٦﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا
 لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا
 أُرْسِلَ بِهِءُ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ
 بِهِءُ كَافِرُونَ ﴿٧٨﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحُ
 آتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٩﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا
 فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٨٠﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي
 وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ ﴿٨١﴾

قصة قوم صالح وما فيها من عبرة: في هذه الآيات جاءت الإشارة إلى قيام «صالح» النبي الإلهي العظيم في قومه «ثمود» الذين كانوا يسكنون في منطقة جبلية بين الحجاز والشام، وبهذا يواصل القرآن أبحاثه السابقة الغنية بالعبء حول قوم نوح وهود، فيقول تعالى في البداية: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾.

ولقد كانت أول خطوة خطاها نبيهم صالح في سبيل هدايتهم، هي الدعوة إلى التوحيد،

وعبادة الله الواحد ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ .
ثم أضاف: إنه لا يقول شيئاً من دون حجة أو دليل، بل قد جاء إليهم بيينة من ربهم ﴿قَدْ
جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَلَيْهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ .
ثم إنه يقول لهم: اتركوا الناقة تاكل في أرض الله ولا تمنعوها ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ
وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ .
ثم يقول في الآية اللاحقة: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ .
أي: من جانب لا تتسوا نعم الله الكثيرة، ومن جانب آخر انتبهوا إلى أنه قد سبقكم أقوام
(مثل قوم عاد) طغوا فحاق بهم عذاب الله بذنوبهم وهلكوا.
ثم ركز على بعض النعم الإلهية كالأرض فقال: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ
الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ . فالأرض قد خلقت بنحو تكون سهولها المستوية والمزودة بالتربة الصالحة
لإقامة القصور الفخمة، كما تكون جبالها صالحة لأن تنحت فيها البيوت القوية المحصنة
لفصل الشتاء والظروف الجوية القاسية.
ويبدو للنظر من هذا التعبير هو أنهم كانوا يغيرون مكان سكناهم في الصيف والشتاء.
وفي ختام الآية يقول تعالى على لسان نبيه صالح: ﴿فَاذْكُرُوا ءَالَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي
الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ .
ثم إننا نلاحظ أيضاً أن جماعة الأغنياء والمترفين ذوي الظاهر الحسن، والباطن القبيح
الخبث، الذين عبر عنهم بالملاأخذوا بزمام المعارضة لهذا النبي الإلهي العظيم.
فقال الفريق المستكبر من قوم صالح للمستضعفين الذين آمنوا بصالح: هل تعلمون يقيناً
أن صالحاً مرسل من قبل الله ﴿قَالَ أَلَعَلَّ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ
مِنْهُمْ أَنْتَعَلَمُونَ أَنْ صَلِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ .
ولكن سرعان ما واجهوا رد تلك الجموع المؤمنة القاطع، الكاشف عن إرادتها القوية
وعزمها على مواصلة طريقها، حيث قالوا: إننا مضافاً إلى اعتقادنا بأن صالحاً رسول من
قبل الله، فنحن مؤمنون أيضاً بما جاء به ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ .
ولكن هؤلاء المغرورين المتكبرين لم يكفوا عن عملهم، بل عادوا مرة أخرى إلى
إضعاف معنوية المؤمنين ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ .
عندما يشس من زعزعة الايمان في نفوس الجاهير المؤمنة بصالح ﷺ ومن جانب آخر

رأوا أن وساوسهم وشائعاتهم لا تجدي نفعاً مع وجود «الناقة» التي كانت تُعَدُّ معجزة صالح ﷺ لهذا قرروا قتل الناقة، مخالفين بذلك أمر ربهم ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾^١.

ولم يكتفوا بهذا أيضاً، بل أتوا إلى صالح نفسه وبصراحة ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ أَتِنَا بِمَا تَعْبُدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

إن هذا الكلام نوع من الحرب النفسية ضد صالح ﷺ بهدف إضعاف روحيته وروحية المؤمنين به.

وعندما وصل المعارضون بطغيانهم وتمردهم إلى آخر درجة، وأطفأوا في نفوسهم آخر بارقة أمل في الإيمان، حلّت بهم العقوبة الإلهية طبقاً لقانون انتخاب الأصلح، وإهلاك ومحو الكائنات الفاسدة والمفسدة ﴿فَأَخْلَقْنَاهُمْ الرِّجْفَةَ فَأَضْبَعُوهَا فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ﴾.

بأبي شيء أهلك قوم ثمود وهنا يطرح سؤال وهو: يستفاد من الآية الحاضرة أن الشيء الذي أهلك هؤلاء المتمردين كان هو الزلزال، ولكن يظهر من الآية (١٣) من سورة فصلت أنه كان الصاعقة، بينما نقرأ في الآية (٥) من سورة الحاقة: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾. يعني أن قوم ثمود أهلكوا بشيء مدمر، فهل هناك تناقض بين هذه التعابير؟

إن الجواب على هذا السؤال يمكن أن يلخص في جملة واحدة، وهي جميع هذه العبارات ترجع إلى معنى واحد، أو أنه يلزم بعضها بعضاً، فكثيراً ما تحدث الرجة الأرضية في منطقة ما بفعل صاعقة عظيمة، أي أنه تحدث صاعقة أولاً، ثم تحدث على أثرها رجة أرضية. «الطاغية»: فهي بمعنى كائن تجاوز عن حدّه، وهذا ينسجم مع الزلزلة وكذا مع الصاعقة، ولهذا فلا يوجد أي تناقض بين الآيات.

وفي آخر آية من الآيات المبحوثة يقول: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِي رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾. أي بعد هذه القضية تولى صالح وهو يقول: لقد أدت رسالتي إليكم، ونصحت لكم ولكنكم لا تحبون من ينصحكم.

١. «العقر»: هو قطع عصب خاص خلف رجل الناقة أو الفرس هو سبب حركتها، فإذا قطع سقط الحيوان، وفقد القدرة على الحركة والتنقل.

وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾
 إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾
 وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ
 إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَنْطَهَرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٨٣﴾
 وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

معبر قوم لوط المؤلم: في هذه الآيات يستعرض القرآن الكريم فصلاً آخر غنياً بالعبر من قصص الأنبياء، وبذلك يواصل هدف الآيات السابقة ويكمله، والقصة هذه المرة هي قصة النبي الإلهي العظيم «لوط». الآية الأولى تقول في البدء: اذكروا إذ قال لوط لقومه: أترتكبون فعلاً قبيحاً لم يفعله قبلكم أحد من الناس ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

وفي الآية اللاحقة يشرح المعصية التي ذكرت في الآية السابقة ويقول: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾. وأي انحراف أسوأ وأقبح من أن يترك الإنسان وسيلة توليد النسل وإنجاب الأولاد، وهو مقارنة الرجل للمرأة، والذي أودعه الله في كيان كل إنسان بصورة غريزية طبيعية، ويعمد إلى «الجنس الموافق» ويفعل بالتالي ما يخالف - أساساً - الفطرة والتركيب الطبيعي للجسم والروح الإنسانيين والغريزة السوية الصحيحة، ويكون نتيجته عقم الهدف المتوخى من المقاربة الجنسية.

ثم يقول تعالى في نهاية الآية: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾. أي تجاوزتم حدود الله، ووقعتم في متاهة الانحراف والتجاوز عن حدود الفطرة.

وفي الآية اللاحقة أشار القرآن الكريم إلى الجواب المتعنت وغير المنطقي لقوم لوط، وقال: إنهم لم يكن لديهم أي جواب في مقابل دعوة هذا النبي الناصح المصلح، إلا أن قالوا: أخرجوا لوطاً وأتباعه من مدينتكم. ولكن ما كان ذنبهم؟ إن ذنبهم هو أنهم كانوا جماعة طاهرين لم يلوثوا أنفسهم بأدران المعصية ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَنْطَهَرُونَ﴾.

ويحتمل أيضاً في تفسير جملة ﴿إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَنْطَهَرُونَ﴾ أن قوم لوط كانوا يريدون بهذه العبارة أن يتهموا ذلك النبي العظيم وأتباعه الأتقياء بالرياء والتظاهر بالتطهر، مع ملاحظة

كل ما قيل في الآيات الثلاثة أعلاه، يستطيع كل قاض منصف أن يصدر حكمه بحق مثل هذه الجماعات والأقوام، ولهذا قال الله تعالى في الآية اللاحقة: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾^١. أي لما بلغ الأمر إلى هذا الحد أنجينا لوطاً وأتباعه الواقعيين وأهله الطيبين، إلا زوجته التي كانت على عقيدة قومه المنحرفين فتركناها.

يستفاد من الآية (١٠) من سورة التحريم إجمالاً أن زوجة لوط كانت في البداية امرأة سالحة، ولكنها سلكت سبيل الخيانة فيما بعد، وجرأت أعداء لوط عليه.

وفي آخر آية من الآيات إشارة إلى العقوبة الشديدة والرهيبية التي حلت بهؤلاء القوم، إذ قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾. أي مطر... إنه كان مطراً عجيبياً حيث إنهالت عليهم الشهب والنيازك كالمطر وأبادتهم عن آخرهم!

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾. إن هذا الخطاب وإن كان موجهاً إلى النبي ﷺ ولكنه من الواضح أن الهدف هو اعتبار جميع المؤمنين به.

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمُ عِبَادُوا اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾

رسالة شعيب في مدين: في هذه الآيات يستعرض القرآن الكريم فصلاً خامساً من قصص الأقوام الماضين، ومواجهة الأنبياء العظام معهم، وهذا الفصل يتناول قوم شعيب.

١. يقال «الغابر» لمن ذهب أهله وفنوا وبقي هو وحده، كما ذهبت عائلة لوط معه، وبقيت زوجته وحدها، وأصيبت بما أصيب به العصاة.

بعث شعيب عليه السلام الذي ينتهي نسبه - حسب كتب التاريخ - إلى إبراهيم عبر خمس طبقات، إلى أهل مدين، وهي مدينة من مدن الشام، كان أهلها أهل تجارة وترف قد سادت فيهم الوثنية، وكذا الحيلة، والتطفيف في المكيال والميزان، والبخس في المعاملة. في البداية يقول سبحانه: ولقد أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيباً ﴿وَإِن مَدِينَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.

إن «مدين» في الأصل اسم لأحد أبناء إبراهيم الخليل، وحيث إن أبناءه وأحفاده سكنوا في أرض على طريق الشام سميت تلك الأرض «مدين». ثم إنه تعالى أضاف: إن شعيباً مثل سائر الأنبياء بدأ دعوته بمسألة التوحيد ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

وقال: إن هذا الحكم مضافاً إلى كونه من وحي العقل، ثابت بواسطة الأدلة الواضحة التي جاءت من جانب الله أيضاً: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

ثم إنه عليه السلام بعد الدعوة إلى التوحيد أخذ في محاربة المفساد الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية السائدة فيهم، وفي البدء منعهم من ممارسة التطفيف، والغش في المعاملة، يقول: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾^١.

ثم يشير إلى عمل آخر من الأعمال الأثيمة، وهو الإفساد في الأرض بعد أن أصلحت أوضاعها بجهود الأنبياء، وفي ضوء الإيمان فقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾. ومن المسلم أنه لا يستفيد أحد من إيجاد الفساد ومن الإفساد، سواء كان فساداً أخلاقياً، أو من قبيل فقدان الإيمان، أو عدم وجود الأمن، لهذا أضاف في آخر الآية قائلاً: ﴿فَلَكُمْ حَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وفي الآية اللاحقة يشير إلى رابع نصيحة لشعيب، وهي منعهم عن الجلوس على الطرقات وتهديد الناس، وصدّهم عن سبيل الله، وتضليل الناس بإلقاء الشبهات وتزييف طريق الحق المستقيم في نظرهم، فقال: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

وفي ختام الآية جاءت النصيحة الخامسة لشعيب، التي ذكر فيها قومه بالنعم الإلهية

١. «البخس»: يعني نقص حقوق الأشخاص، والتزول عن الحد بصورة توجب الظلم والحيث.

لتفعيل حسّ الشكر فيهم، فيقول: تذكروا عندما كنتم أفراداً قلائل فزادكم الله في الأفراد وضاعف من قوتكم: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ﴾.

ثم يلفت نظرهم إلى عاقبة المفسدين ونهاية أمرهم ومصيرهم المشؤوم حتى لا يتبعوهم في السلوك فيصابوا بما أصيبوا به، فيقول: ﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.
إن آخر آية من الآيات المبحوثة هنا بمثابة إجابة على بعض استفهامات المؤمنين والكفار من قومه.

فيقول لهم شعيب: إن كانت طائفة منكم آمنت بما بُعثت به، وأعرضت أخرى فلا ينبغي أن يكون ذلك سبباً لغرور الكفار، ويأس المؤمنين، اصبروا حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فالمستقبل سوف يكشف عن من يكون على حق، ومن يكون على باطل ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِن كُنَّا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾

هذه الآيات تستعرض ردّ فعل قوم شعيب مقابل كلمات هذا النبي العظيم المنطقية، وحيث إنّ الملا والأثرياء المتكبرين في عصره كانوا أقوياء في الظاهر، كان ردّ فعلهم أقوى من ردّ فعل الآخرين.

إنّهم كانوا - مثل كل المتكبرين المغرورين - يهددون شعيباً معتمدين على قوتهم وقدرتهم، كما يقول القرآن الكريم: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾.

على أنّ تهديد المعارضين لم يقتصر على هذا، بل كانت هناك تهديدات أخرى سنبحنها في سائر الآيات المرتبطة بشعيب.

وقد أجابهم شعيب في مقابل كل تهديداتهم وخشونتهم تلك بكلمات في غاية البساطة والرفق والموضوعية، إذ قال لهم: وهل في إمكانكم أن تعيدونا إلى دينكم إذا لم نكن راغبين في ذلك: ﴿قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾.

وفي الآية اللاحقة يواصل شعيب قوله: ﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنهَا﴾.

ثم يضيف شعيب قائلاً: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾.

ثم من دون إعطاء يضيف: إن الله لا يأمر بمثل هذا، لأن الله يعلم بكل شيء ويحيط علماً بجميع الأمور ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

وعلى هذا الأساس ليس من الممكن أن يعود عن أمر أعطاه، لأنه لا يعود ولا يرجع عن أمر أعطاه إلا من كان علمه محدوداً، واشتبه ثم ندم على أمره، أمّا الذي يعلم بكل شيء ويحيط بجميع الأمور علماً فيستحيل أن يعيد النظر.

ثم لأجل أن يفهمهم بأنه لا يخاف تهديداتهم، وأنه ثابت في موقفه، قال: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

وأخيراً لأجل أن يثبت حسن نيّته، ويظهر رغبته في طلب الحقيقة والسلام، حتى لا يتهمه أعداؤه بالشغب والفوضىّة والإخلال بالأمن يقول: ﴿رَبُّنَا أَفْتَحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾. أي: يا رب أنت أحكم بيننا وبين هؤلاء بالحق، وارفع المشاكل التي بيننا وبين هؤلاء، وافتح علينا أبواب رحمتك، فأنت خير الفاتحين.

وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا الْخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَنَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأُ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾

تتحدث الآية الأولى عند الدعايات التي كان يبثها معارضو شعيب ضدّ من يحتمل فيهم الميل إلى الإيمان به فتقول: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾.

والمقصود من الخسارة - هنا - الخسارات المادية التي تصيب المؤمنين بدعوة شعيب، إذ من المسلم عدم عودتهم إلى عقيدة الوثنية، وعلى هذا الأساس كان يجب أن يخرجوا من بلدهم وديارهم بالقهر، ويتركوا بيوتهم وأملاكهم.

وعندما وصل أمرهم إلى الإصرار على ضلاتهم، وعلى إضلال غيرهم أيضاً، ولم يبق أي أمل في إيمانهم وهدايتهم، حلت بهم العقوبة الإلهية بحكم قانون حسم مادة الفساد، فأصابهم زلزال رهيب شديد بحيث تهاوى الجميع أجساداً ميتة، في داخل بيوتهم ومنازلهم ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الزَّجْفَةَ فَأَضْبَعُوا فِي دَارِهِمْ جَائِعِينَ﴾.

في الآية اللاحقة شرح القرآن الكريم أبعاد هذا الزلزال العجيب الخيف الرهيب بالعبارة التالية: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾. أي إن الذين كذبوا شعيباً أبعدوا إرادة عجيبة، وكأنهم لم يكونوا يسكنون تلك الديار.

وفي ختام الآية يقول: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾.

وكان هاتين الجملتين جواباً لأقوال معارضي شعيب، لأنهم كانوا قد هددوا بأن يخرجوه هو وأتباعه في حالة عدم انصرافهم من دين التوحيد إلى الدين السابق، فقال القرآن: إنهم أبعدوا كاملة، وكأنهم لم يسكنوا في تلك المنازل، فضلاً عن أن يستطيعوا إخراج غيرهم من البلد.

مرآة حقايق كرميت عليهم رسول

وفي مقابل قولهم: إن أتباع شعيب يستلزم الخسران، قال القرآن الكريم: إن نتيجة الأمر أثبتت أن مخالفة شعيب هي العامل الأصلي في الخسران.

وفي آخر آية - من الآيات المبحوثة - تقرأ آخر كلام لشعيب مع قومه بعد اعراضه عنهم حيث قال: لقد بلغت رسالات ربِّي، ونصحتكم بالمقدار الكافي، ولم آلُ جهداً في إرشادكم: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾.

ثم قال: ﴿فَكَيْفَ ءَأْتَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾. أي لست متأسفاً على مصير الكافرين، لأنني قد بذلت كل ما في وسعي لهدايتهم وإرشادهم، ولكنهم لم يخضعوا للحق ولم يسلموا، فكان يجب أن ينتظروا هذا المصير المشؤوم.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَعُونَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ

وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

إذ لم تنفع المواجعة: إن هذه الآيات - التي ذكرت بعد استعراض قصص مجموعة من الأنبياء العظام، مثل نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وقبل أن يعمد القرآن الكريم إلى استعراض قصة موسى بن عمران - أشار إلى عدّة أصول وقواعد عامة تحكم في جميع القصص والحوادث، وهي قواعد وأصول إذا فكرنا فيها كشفت القناع عن حقائق قيمة ترتبط بحياتنا - جميعاً - ارتباطاً وثيقاً. في البداية يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾. فالصعاب والمشاق والبلايا التي تصيب الأفراد إنما يفعلها الله بهم عسى أن ينتبهوا، ويتركوا طغيانهم، ويرجعوا إلى الله ويتوبوا إليه. وذلك لأنّ الناس ما داموا في الرخاء والرفاه فهم في غفلة وقلما يكون لديهم استعداد وقابلية لقبول الحق. أمّا عندما يتورّطون في المحنة والبلاء، يشرق نور فطرتهم وتوحيدهم ويتذكرون الله قهراً بلا اختيار، وتستعد قلوبهم لقبول الحق.

ولكن هذه اليقظة والنهضة ليست عند الجميع على حدّ سواء، فهي في كثير من الناس سريعة وعابرة وغير ثابتة، وبمجرّد أن تزول المشكلات يعودون إلى غفلتهم وغفوتهم، ولكن هذه المشكلات تعتبر بالنسبة إلى جماعة آخرين نقطة تحول في الحياة، ويعودون إلى الحق إلى الأبد.

ولهذا قال تعالى في الآية اللاحقة: عندما لم تغرّ تلك الجماعات سلوكها ومسيرها تحت ضغط المشكلات والحوادث، بل بقوا في الضلال، رفعنا عنهم المشكلات وجعلنا مكانها النعم والرخاء فازدهرت حياتهم وكثر عددهم وزادت أموالهم ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَّوْا﴾.

ثمّ أضاف: أنّهم عند زوال المشكلات بدل أن يلتفتوا إلى هذه الحقيقة وهي «النعمة» و«الثقمة» بيد الله، وأنّهم راجعون إلى الله، يتذرعون - لخداع أنفسهم - بهذا المنطق، وهو إذا تعرضنا للمصائب والبلايا، فإنّ ذلك ليس بجديد، فقد مس آباءنا الضراء والسراء، وكانت لهم حالات رخاء وحالات بلاء، فالحياة لها صعود ونزول، والصعاب أمواج غير ثابتة وسريعة الزوال ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾. فهي إذن قضية طبيعية، ومسألة إعتيادية.

فيقول القرآن الكريم في الختام: إنّ الأمر عندما بلغ إلى هذا الحد، ولم يستفيدوا من عوامل التربية - أبداً - بل ازدادوا غروراً وعنجهيةً وتكبراً أهلكناهم فجأةً ومن غير سابق انذار، لأنّ ذلك أشد إيلاماً ونكالاً لهم، وعبرة لغيرهم: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
 وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن
 يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا
 ضُحًىٰ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
 الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْنَشَاءِ
 أَصَابْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾

التقدم والعمران في قل الإيمان والتقوى: في الآيات الماضية وقع البحث فيما جرى

لأقوام مثل قوم هود وصالح وشعيب ونوح ولوط على نحو الإجمال، وإن كانت تلك الآيات
 كافية لبيان النتائج المشحونة بالعبر في هذه القصص، ولكن الآيات الحاضرة تبين النتائج
 بصورة أكثر وضوحاً فتقول: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ
 السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾. أي لو أنهم سلكوا سبيل الإيمان والتقوى، بدل الطغيان والتمرد وتكذيب
 آيات الله والظلم والفساد، لم يتخلصوا من غضب الله وعقوبته فحسب، بل لفتحت عليهم
 أبواب السماء والأرض.

والمراد من «بركات» الأرض والسماء إنها المطر والنباتات التي تنبت من الأرض.

ولكن - للأسف - تركوا الصراط المستقيم الذي هو طريق السعادة والرفاه والأمن
 وكذبوا الأنبياء، وتجاهلوا برآهم الإصلاحية، فعاقبناهم بسبب أفعالهم ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا
 فَأَخَذْنَاَهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

في الآيات اللاحقة ولمزيد من التأكيد على عمومية هذا الحكم وأن القانون أعلاه ليس
 خاصاً بالأقوام الغابرة بل يشمل الحاضر والمستقبل أيضاً - يقول: هل أن المجرمين الذين
 يعيشون في نقاط مختلفة من الأرض يرون أنفسهم في أمن من أن تحمل بهم العقوبات الإلهية،
 فتنزل بهم صاعقة أو يصيبهم زلزال في الليل وهم نائمون ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا
 بَيِّنَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾.

وهل هم في أمن من ذلك العذاب في النهار وهم غارقون في أنواع اللهو واللعب ﴿أَوْ آمِنَ

أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٦﴾. يعني أنهم في قبضة القدرة الإلهية في جميع الأحوال والأوقات، ليلاً ونهاراً، في اليقظة والنوم، في ساعات الفرح والترح، وبإشارة واحدة وأمر واحد يقضى عليهم جميعاً، ويطوي صفحة حياتهم نهائياً.

وفي الآية اللاحقة يعود القرآن الكريم إلى ذكر وتأكيد هذه الحقيقة بشكل آخر فيقول: أفأمن المجرمون من المكر الإلهي في حين لا يأمن مكره إلا الخاسرون ﴿٩٧﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يُأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٨﴾.

«المكر»: يعني في اللغة العربية كل حيلة ووسيلة لصرف الشخص عن الهدف الذي يمضي إليه، سواء كان حقاً أو باطلاً. والمراد من المكر الإلهي هو أن الله تعالى يصرفهم بخطئه القوية التي لا تقهر عن حياة الرفاه واللذة دون اختيارهم ويقطعها عليهم. وهذه إشارة إلى العقوبات الإلهية الفجائية والمهلكة.

وفي الآية اللاحقة يقول القرآن الكريم بهدف إيقاظ عقول الشعوب الغافية وإفبات نظرهم إلى العبر التي كانت في حياة الماضيين: ألا يتنبه الذين ورثوا السيادة على الأرض - من الأقسام الماضية - إلى ما في حياة الماضيين وقصصهم من عبر، فلو أننا أردنا أن نهلكهم بذنوبهم لفعلنا: ﴿٩٩﴾ أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَأْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴿١٠٠﴾.

ويمكننا أيضاً أن نتركهم أحياء ونسلب منهم الشعور وحس التشخيص والتمييز بالمرّة بسبب توغّلهم في الذنوب، بحيث لا يسمعون معها حقيقة، ولا يقبلون نصيحة، ويعيشون بقية حياتهم حيرى ﴿١٠١﴾ وَنَطَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٢﴾.

تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٤﴾

في هاتين الآيتين ركّز القرآن الكريم على العبر المستفادة من بيان قصص الماضيين، والمحطاب متوجه هنا إلى الرسول الأكرم ﷺ إلا أن الهدف هو الجميع، يقول القرآن الكريم أولاً: هذه هي القرى والأقسام التي نقص عليك قصصهم: ﴿١٠٣﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ

أَنْبِيَاءًا». ثم يقول: لم يكن إهلاكهم قبل إتمام الحجّة عليهم، بل لقد جاءهم الأنبياء أولاً بالبراهين الجليلة وبدلوا قصارى جهدهم في إيقاظهم وإرشادهم ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

ولكنهم قاوموا الأنبياء وخالفوا دعوتهم، وأصروا ولجّوا في عنادهم، ولم يكونوا على إستعداد لأن يؤمنوا بما كذبوا به من قبل، بل استمروا على تكذيبهم حتى مع مشاهدتهم البينات: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾.

وفي العبارة اللاحقة يبين تعالى علة هذا التعنت واللجاج: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾. يعني أن الذين يسرون في درب خاطيء، ويستمرون في السير في ذلك الطريق، ينتقش الانحراف والكفر على قلوبهم نتيجة تكرار العمل السيء، ويتجذر الفساد في نفوسهم، كما يثبت النقش على السكة (والطبع في اللغة نقش صورة على شيء كالسكة) وهذا هو أثر العمل وخاصيته.

وقد نسب إلى الله هو تعالى مسبب الأسباب، وهو منشأ تأثير كل مؤثر، فهو يهب الفعل هذه الخاصية عند تكراره، حيث يجعله «ملكة» في نفس الشخص.

ولكن من الواضح والبيّن أن مثل الضلال ليس له أي صفة جبرية وقهرية، بل إنّ يوجد الأسباب هو الإنسان وإن كان التأثير بأمر الله تعالى (فتأمل).

وفي الآية اللاحقة يبيّن تعالى قسمين آخرين من نقاط الضعف الأخلاقي لدى هذه الجماعات، والتي تسببت في ضلالها وهلاكها. في البداية يقول: إنهم كانوا لا يحترمون العهود والمواثيق بل ينقضونها ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾.

وهذا العهد يمكن أن يكون إشارة إلى «العهد الفطري» الذي أخذه الله على جميع عباده بحكم الجبلة والفطرة.

كما أنه يمكن أن يكون إشارة إلى العهد الذي كان الأنبياء الإلهيون يأخذونه من الناس، وكان أكثر الناس يقبلونه، ولكنهم ينقضونه.

أو يكون إشارة إلى جميع المواثيق «الفطرية» و«التشريعية».

وعلى كل حال فإنّ روح نقض الميثاق كان من أسباب معارضة الأنبياء والإصرار على سلوك طريق الكفر والنفاق، والابتلاء بعواقبها المشؤومة.

ثم يشير القرآن الكريم إلى عامل آخر إذ يقول: ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾.

يعني أن روح التمرد والتجاوز على القانون، والخروج عن نظام الخلقة والقوانين الإلهية، كان عاملاً آخر من عوامل استمرارهم على الكفر، وإصرارهم على مخالفة الدعوة الإلهية.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۖ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٠٨﴾

المواجهة بين موسى وفرعون: بين تعالى في هذه الآيات والآيات الكثيرة اللاحقة قصة موسى بن عمران، وما جرى بينه وبين فرعون وملئه وعاقبة أمره. وعلى العموم يمكن حصر وتلخيص حياة هذا النبي الإلهي العظيم في خمس دورات ومراحل:

- ١- مرحلة الولادة، وما جرى عليه من الحوادث حتى ترعرعه في بلاط فرعون.
- ٢- مرحلة فراره من مصر، وحياته في أرض «مدين» في كنف النبي شعيب عليه السلام.
- ٣- مرحلة بعثته، ثم المواجهات الكثيرة بينه وبين فرعون وجهازه.
- ٤- مرحلة نجاته ونجاة بني إسرائيل من مخالب فرعون.
- ٥- مرحلة مشاكله مع بني إسرائيل.

في الآية الأولى من الآيات الحاضرة يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾. أي من بعد قوم نوح وهود وصالح. «فرعون»: اسم عام، وهو يطلق على كل ملوك مصر. ثم يقول تعالى: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾.

ثم يقول تعالى في ختام الآية: ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾. وهذه العبارة إشارة إجمالية إلى هلاك فرعون وقومه الطغاة المتمردين، الذي سيأتي شرحه فيما بعد.

وهذه الآية تشير إشارة مقتضبة إلى مجموع برنامج رسالة موسى، وما وقع بينه وبين فرعون من المواجهة وعاقبة أمرهم.

أما الآيات اللاحقة فتسلط الأضواء بصورة أكثر على هذا الموضوع، فيقول أولاً:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

وهذه هي أول مواجهة بين موسى وبين فرعون، وهي صورة حية وعملية من الصراع بين «الحق» و«الباطل».

وفي الآية اللاحقة نقرأ أن موسى عقيب دعوى الرسالة من جانب الله قال: فالآن إذ أنا رسول رب العالمين ينبغي ألا أقول عن الله إلا الحق، لأن المرسل من قبل الله المنزه عن جميع العيوب لا يمكن أن يكون كاذباً ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾.

ثم لأجل توثيق دعواه للنبوة، أضاف: أنا لا أدعي ما أدعيه من دون دليل، بل إن معي أدلة واضحة من جانب الله ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾.

فإذا كان الأمر هكذا ﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾.

وكان هذا قسماً من رسالة موسى بن عمران الذي حرّر بني إسرائيل من قبضة الاستعمار الفرعوني.

فقال فرعون بمجرد سماع هذه العبارة - (أي قوله: قد جئتكم ببينة) - هات الآية التي معك من جانب الله إن كنت صادقاً ﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَآتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾.

ومن دون تأخير أخرج موسى معجزتيه العظيمة التي كانت إحداها مظهر «الخوف» والأخرى مظهر «الأمل» وكانتا تكملان مقام إنذاره ومقام تبشيره، وألقى في البداية عصاه: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾.

ثم إن الآية اللاحقة تشير إلى المعجزة الثانية للنبي موسى ﷺ التي لها طابع الرجاء والبشارة. يقول تعالى: ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾.

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا السَّحَرُ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ
فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَا تُوَكُّ
يَكُلِ سَحَرِ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾

بدء المواجهة: في هذه الآيات جاء الحديث عن أول رد فعل لفرعون وجهازه في مقابل

دعوة موسى ﷺ ومعجزاته. الآية الأولى تذكر عن ملاً فرعون أنهم بمجرد مشاهدتهم لأعمال موسى الخارقة للعادة اتهموه بالسحر، وقالوا: هذا ساحر عليم ماهر في سحره: ﴿قَالَ أَلَمْأَلَمِنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنِ إِنَّ هَذَا سَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾.

ثم أضافوا: إنَّ هدف هذا الرجل أن يخرجكم من وطنكم ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾. يعني أنه لا يهدف إلا استعماركم واستثماركم والحكومة على الناس، وغصب أراضي الآخرين، وهذه الأعمال الخارقة للعادة وادعاء النبوة كلها لأجل الوصول إلى هذا الهدف.

ثم قالوا بعد ذلك: مع ملاحظة هذه الأوضاع فما هو رأيكم: ﴿فَعَاذًا تَأْمُرُونَ﴾. يعني أنهم جلسوا يتشاورون في أمر موسى، ويتبادلون الرأي فيما يجب عليهم اتخاذه تجاهه، لأنَّ مادة «أمر» بمعنى التشاور.

وعلى كل حال فقد قال الجميع لفرعون: لا تعجل في أمر موسى وهارون، وأجلّ قرارك بشأنها إلى ما بعد، ولكن ابعث من يجمع لك السحرة من جميع أنحاء البلاد ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾.

نعم ابعث من يجمع لك كل ساحر ماهر في حرفته عليم في سحره ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

إنَّ هذا الإقتراح من جانب حاشية فرعون كان لأجل أنهم كانوا يريدون افتعال ذريعة سياسية لأي موقف سيتخذونه ضد موسى كما كانوا يفعلون ذلك في بقية مواقفهم ونشاطاتهم الشخصية، ولهذا اقترحوا أرجاء أمر قتل موسى وأخيه نظراً لمعجزتيه اللتين أورتتا رغبة في مجموعة كبيرة من الناس نحو دعوته وانحيازهم إليه، ومزجت صورة «نبوته» بصورة «المظلومية والشهادة» وأضفت بضم الثانية إلى الأولى - مسحة من القداسة والجاذبية عليه وعلى دعوته.

ولهذا فكروا في بداية الأمر في إجهاض عمله بأعمال خارقة للعادة بمائلة، ويسقطوا اعتباره بهذه الطريقة، ثم يأمرن بقتله لتنسى قصة موسى وهارون وتمحى عن الأذهان إلى الأبد.

وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لِمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْتَرَهُمْ بِوَهُمْ وَجَاءَ وَسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَا لَكَ وَانْقَلَبُوا صَبْرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَدِينٍ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا أَمَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾

كيف انتصر الحق في النهاية: في هذه الآيات جرى الحديث حول المواجهة بين النبي

موسى ﷺ وبين السحرة وما آل إليه أمرهم في هذه المواجهة، وفي البداية تقول الآية: **إِنَّ السَّحَرَةَ بَادَرُوا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِدَعْوَتِهِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَا دَارَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ فِرْعَوْنَ هُوَ: هَلْ لَنَا مِنْ أَجْرٍ إِذَا غَلِبْنَا الْعَدُوَّ ﴿١١٣﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾.**

فوعدهم فرعون وعداً جيداً وقال: **إِنَّكُمْ لَنْ تَحْصُلُوا عَلَى الْأَجْرِ السَّخِيِّ فَقَطْ، بَلْ سَتَكُونُونَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ عِنْدِي ﴿١١٤﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لِمِنَ الْمُقْرَبِينَ﴾.**

يستفاد من هذه الآية أن التقرب إلى فرعون في ذلك المحيط، وتلك البيئة كان أعلى وأسمى وأهم من المال والثروة، لأنه كان يعني منزلة معنوية كان من الممكن أن تصبح منشأ لأموال كثيرة وثروات كبيرة.

وفي المال حُدِّدَ موعدٌ معين لمواجهة السحرة لموسى، وكما جاء في سورة «طه» و«الشعراء» **دُعِيَ جَمِيعُ النَّاسِ لِمَشَاهِدَةِ هَذَا النَّزَالِ.**

وحلَّ اليوم الموعود، وهياً السحرة كل مقدمات العمل... حفنة من العصي والحبال التي يبدو أنها كانت معبئة بمواد كيميائية خاصة، تبعث على حركتها إذا سطعت عليها الشمس، لأنها تتحول إلى غازات خفيفة تحرك تلك العصي والحبال المخوفة.

وكانت واقعة عجيبة، فوسى وحده (ليس معه إلا أخوه) يواجه تلك المجموعة الهائلة من السحرة، وذلك الحشد الهائل من الناس المتفرجين الذين كانوا على الأغلب من أنصار السحرة ومؤيديهم.

فالتفت السحرة في غرور خاص وكبير إلى موسى ﷺ وقالوا: إما أن تشرع فتلقى عصاك، وإما أن نشرع نحن فنلقى عصيتنا؟ ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾.

فقال موسى ﷺ بمنتهى الثقة والإطمئنان: بل اشرعوا أنتم ﴿قَالَ أَتَقْوُونَ﴾. وعندما ألقى السحرة بحبالهم وعصيهم في وسط الميدان سحروا أعين الناس، وأوجدوا بأعمالهم وأقاويلهم المهرجة ومبالغاتهم خوفاً في قلوب المتفرجين وأظهروا سحراً كبيراً رهيباً: ﴿فَلَمَّا أَتَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾. «السحر»: تعني في الأساس الخداع والشعوذة، وقد يطلق أيضاً على كل عامل غامض، ودافع غير مرئي.

في هذه اللحظة التي اعترت الناس فيها حالة من النشاط والفرح، وتعالى صيحات الإبتهاج من كل صوب، وعلت وجوه فرعون وملائه ابتسامة الرضى، ولمع في عيونهم بريق الفرح، أدرك الوحي الإلهي موسى ﷺ وأمره بإلقاء العصي، وفجأة انقلب المشهد وتغير، وبدت الدهشة على الوجوه، وتزعزت مفاصل فرعون وأصحابه كما يقول القرآن الكريم: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

«تلقف»: مشتقة من مادة «لَقَفَ» (على وزن سَقَف) بمعنى أخذ شيء بقوة وسرعة، سواء بواسطة الفم، والأسنان، أو بواسطة الأيدي، ولكن تلقف في بعض الموارد بمعنى البلع والإبتلاع أيضاً، والظاهر أنها جاءت في الآية المحاضرة بهذا المعنى.

«يأفكون»: مشتقة من مادة «إفك» على وزن «مسك» وهي تعني في الأصل الإنصراف عن الشيء، وحيث إن الكذب يصرف الإنسان من الحق أطلق على الكذب لفظ «الإفك». وفي هذا الوقت ظهر الحق، وبطلت أعمالهم المزيفة: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَيَنْظُرُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. لأن عمل موسى كان عملاً واقعياً، وكانت أعمالهم حفنة من الحيل ومن أعمال الشعبذة، ولا شك أنه لا يستطيع أي باطل أن يقاوم الحق دائماً.

وهذه هي أول ضربة توجهت إلى أساس السلطان الفرعوني الجبار. ثم يقول تعالى في الآية اللاحقة: وبهذه الطريقة ظهرت آثار الهزيمة فيهم، وصاروا جميعاً أذلاء: ﴿فَقُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾.

والضربة الأقوى كانت عندما تغير مشهد مواجهة السحرة لموسى ﷺ تغييراً كلياً، وذلك عندما وقع السحرة فجأة على الأرض ساجدين لعظمة الله ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾.

ثم نادوا بأعلى صوتهم ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾.
ولم يكن فرعون والملا يتوقعون هذا الأمر مطلقاً.

قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمْؤُهُ فِي الْعَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنهَا ءَأَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْمُونَ ﴿١٢٧﴾ لَأَقْطَعَنَّ ءَأَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٩﴾ وَمَا نَنقِمُ مِنَّا إِلَّآ أَن ءَأَمَنَّا بِثَآئِلَتِ رَبِّنَا لَمَآ جَآءَ تَنَارُ رَبِّنَا فَبِئْسَ ءَأَفْرَغٌ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٣٠﴾

التهديدات الفرعونية الجوفاء عندما توجهت ضربة جديدة - بانتصار موسى على السحرة وإيمانهم به - إلى أركان السلطة الفرعونية، استوحش فرعون واضطرب بشدة، لهذا عمد فوراً إلى عملين مبتكرين: في البداية وجه اتهاماً (لعله مرغوب عند السواد من الناس) إلى السحرة، ثم هددهم بأشدّ التهديدات، ولكن على العكس من توقعات فرعون أظهر السحرة مقاومة عجيبة تجاه هذين الموقنين، وبهذه الطريقة وجهوا ضربة ثالثة إلى أركان السلطان الفرعوني، وقد رسمت الآيات اللاحقة هذا المشهد بصورة رائعة.

في البداية يقول: **﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ قَالَ لِلْمُحْرِقِينَ: هَلْ آمَنْتُمْ بِمُوسَى قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾** **﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾**.

وهذه هي أعلى درجات الاستعباد والاستحمار، أن يكون شعب من الشعوب أسيراً وعبداً بحيث لا يحق له حتى التفكير والإيمان القلبي بأحد أو بعقيدة.
وهذا هو البرنامج الذي يواصله «الاستعمار الجديد»، يعني أن المستعمرين لا يكتفون بالاستعمار الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، بل يسعون إلى تقوية جذورهم عن طريق الاستعمار الفكري.

ثم يضيف فرعون قائلاً: **﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمْؤُهُ فِي الْعَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنهَا ءَأَهْلَهَا﴾**.
إن مراد فرعون هو أن هناك مؤامرة مدروسة وتواطؤاً مبيتاً قد دبّرتموه قبل مدة للسيطرة على أوضاع مصر واستلام زمام السلطة.

وهذه التهمة كانت خاوية ومفضوحة، إلى درجة أنه لم يكن يقتنع بها إلا العوام والجهلة من الناس.

ثم إن فرعون هددهم بتهديد غامض ولكنه شديد ومحكم، إذ قال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. وفي الآية اللاحقة بين تفاصيل ذلك التهديد الذي هدد به السحرة فاقسم بأن يقطع أيديهم وأرجلهم ويصلبهم، إذ قال: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

لقد قاوم السحرة كلتا حربتي فرعون، وأجابوه جواب رجل واحد: إننا نرجع إلى ربنا إذن ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾. يعني إذا تحقق تهديدك الثاني (وهو القتل) فعننا أننا سننال الشهادة في سبيل الدفاع عن الحق، وهذا لا يوجب ضرراً علينا، ولا ينقصنا شيئاً، بل يُعدّ سعادة وفخراً عظيماً لنا.

ثم إنهم للرد على تهمة فرعون، ولايضاح الحقيقة لجباهير المتفرجين على هذا المشهد، واثبات براءتهم من أي ذنب، قالوا: إن الإشكال الوحيد الذي تورده علينا هو أننا آمنة بآيات الله وقد جاءتنا ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا﴾.

ثم إنهم أشاحوا بوجوههم عن فرعون وتوجهوا إلى الله سبحانه، وطلبوا منه الصبر والإستقامة، لأنهم كانوا يعلمون أنهم لا يستطيعون أن يقاوموا تلك العقوبات الثقيلة من دون نصره وتأييده وعونه، لهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ﴾.

وأخيراً - وكما جاء في الروايات وكتب التاريخ - استقام أولئك الجماعة من السحرة الذين آمنوا بموسى حتى نفذ فرعون تهديداته، ومثل بأجسامهم ثقيلاً مروعاً، وصلبهم على جذوع النخل على مقربة من نهر النيل.

أجل، إذا كان الإيمان مقروناً بالوعي الكامل فإنه ينتهي إلى مثل هذا العشق الملتهب الذي لا يكون هذا التفاني في سبيله مثار للعجب.

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُنَا مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَبَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ
 قَالَ سَنْقِيلُهُمْ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ
 لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّا الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
 وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أَوْزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا
 قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ
 كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

في هذه الآيات يبين لنا القرآن الكريم مشهداً آخر من الحوار الذي دار بين فرعون وبين ملئه حول وضع موسى ﷺ. تقول الآية في البداية: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ فِي الْأَرْضِ ﴾.

يستفاد من هذا التعبير أن فرعون بعد هزيمته أمام موسى ﷺ ترك موسى وبني إسرائيل أحراراً مدة من الزمن، ولم يترك بنو إسرائيل بدورهم هذه الفرصة من دون أن يشتغلوا بالدعوة والتبليغ لصالح دين موسى ﷺ وأن فرعون كانت له معبودات وأصنام.

إن فرعون - بسبب تحذيرات أعوانه وحاشيته - صمم على اتخاذ موقف متشدد من بني إسرائيل، فقال لحاشيته في معرض الجواب على تحريضهم وتحذيرهم: سأقتل أبناءهم وأستخدم نساءهم ونحن متفوقون عليهم على كل حال: ﴿ قَالَ سَنَقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾.

والآية اللاحقة بيّنت خطة موسى التي اقترحها على بني إسرائيل لمواجهة تهديدات فرعون، وشرح فيها شروط الغلبة على العدو، وذكرهم بأنهم إذا عملوا بثلاث مبادئ انتصروا على العدو حتماً:

أولها: الإتكال على الله فقط ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ آسْتَعِينُوا بِاللَّهِ ﴾.

والآخر: أن يثبتوا ولا يخافوا من تهديدات العدو: ﴿ وَأَصْبِرُوا ﴾.

وللتأكيد على هذا المطلب، ومن باب ذكر الدليل، ذكرهم بأن الأرض كلها ملك الله وهو الحاكم عليها والمالك المطلق لها، فهو يعطيها لمن يشاء ﴿ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾.

وآخر هذه المبادئ هو أن يعتمدوا التقوى لأن العاقبة لمن اتقى ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

هذه المبادئ والشروط الثلاثة ليست شرائط إنتصار قوم بني إسرائيل وحدهم على العدو، بل كل شعب أراد الغلبة على أعدائه لا بد له من تحقيق هذه البراج الثلاثة.

وفي آخر آية من الآيات المحاضرة يعكس القرآن الكريم شكايات بني إسرائيل وعتابهم من المشكلات التي ابتلوا بها بعد قيام موسى ﷺ فيقول: ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾. فإذا متى يحصل الفرج؟!

وكان بني إسرائيل مثل كثير منا كانوا يتوقعون أن تصلح جميع الأمور بقيام موسى ﷺ

في ليلة واحدة....

ولكن موسى ﷺ أفهمهم بأنهم سينتصرون في المال، ولكن أمامهم طريقاً طويلاً، وإن هذا الانتصار - طبقاً للسنة الإلهية - يتحقق في ظل الإستقامة والثبات والسعي والاجتهاد، كما جاء ذلك في الآية المحاضرة: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

ثم يقول في ختام الآية: إن الله أعطاكم هذه النعمة، وأعاد إليكم حرييتكم المسلوقة كي ينظر كيف تتصرفون أنتم ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. يعني ستبدأ - بعد الانتصار - مرحلة امتحانكم واختباركم.

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٠﴾
فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرُوهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

العقوبات التنبؤية: لقد كان القانون الإلهي العام في دعوة الأنبياء - كما قلنا في تفسير الآية (٩٤) من نفس هذه السورة - هو أنهم كلما واجهوا معارضة كان الله تعالى يبتلي الاقوام المعاندين بأنواع المشاكل واليلايا، حتى يحسوا بالحاجة في ضمائرهم وأعماق نفوسهم.

وفي أول آية من الآيتين المحاضرتين إشارة إلى نفس هذا المطلب في قصة فرعون، إذ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾.

ولكن بدل أن يستوعب «آل فرعون» هذه الدروس الإلهية، ويستيقظوا من غفلتهم وغفوتهم العميقة، أساءوا استخدام هذا الظرف والحالة، وفسروها حسب مزاجهم، فإذا كانت الأحوال مؤاتية ومطابقة لرغبتهم، وكانوا يعيشون في راحة واستقرار قالوا: إن الوضع الحسن هو بسبب جدارتنا وصلاحنا ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾.

ولكن عندما تنزل بهم النوائب فإنهم ينسبون ذلك إلى موسى ﷺ وجماعته فوراً ويقولون هذا من شؤمهم: ﴿وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾.

ولكن القرآن الكريم قال في معرض الرد عليهم: اعلّموا أن منشأ كل شؤم وبلاء أصابكم إنما هو من قبل الله، وأن الله تعالى أراد أن تصيبكم نتيجة أعمالكم المشؤومة، ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرُوهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

مسألة التطير والتفاؤل والتشاؤم قد تكون منتشرة في مختلف المجتمعات البشرية. إن هذين الأمرين وإن لم يكن لهما أي أثر طبيعي إلا أنه يمكن أن يكون لهما أثر نفسي لا ينكر، وإن التفاؤل غالباً يوجب الأمل والتحرك، والتشاؤم يوجب اليأس والوهن والتراجع.

ولعله لأجل هذا لم يثب في الروايات والأحاديث الإسلامية عن التفاؤل، بينما نهي عن التشاؤم بشدة، ففي حديث مروى عن النبي ﷺ قال: «تفاءلوا بالخير تجدوه».

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَاءَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾

النوائب المتفوعة: في هاتين الآيتين أشير إلى مرحلة أخرى من الدروس المنبهة التي لقنها الله لقوم فرعون، وفي الآية الأولى من الآيات المبحوثة يقول القرآن الكريم من باب المقدمة لنزول النوائب: إنهم بقوا يلجؤون في إنكار دعوة موسى، وقالوا: مهما تأتينا من آية وتريد أن تسحرنا بها فإننا لن نؤمن بك: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

ولكن حيث إن الله سبحانه لا يعاقب أمة أو قوماً من دون أن يتم عليهم الحجّة قال في الآية اللاحقة: نحن أنزلنا عليهم بلايا كثيرة ومتعددة لعلهم يتنبهون... فقال أولاً: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾.

«الطوفان»: مشتقة من مادة «الطوف» وتعني الشيء الذي يطوف ويدور، ثم أطلقت هذه اللفظة على الحادثة التي تحيط بالإنسان.

ثم سلط الجراد على زروعهم وأشجارهم ﴿وَالْجَرَادَ﴾.

وكلما كان يُصيبهم بلاء كانوا يلجأون إلى موسى ﷺ ويسألونه أن يطلب من الله أن يرفع عنهم ذلك البلاء، فقد فعلوا هذا بعد الطوفان والجراد أيضاً، وقيل موسى ﷺ، وارتفع عنهم البلاء ولكنهم مع ذلك لم يكفوا عن لجأهم وتعنتهم.

وفي المرة الثالثة سلط عليهم القمل ﴿وَالْقُمَّلَ﴾.

والمراد من «القمل» نوع من الآفات الزراعية التي تصيب الغلات وتفسدها وتتلغها.

وعندما خفت أمواج هذا البلاء، واستمرّوا في عنادهم سلط الله عليهم في المرحلة الرابعة، الضفادع، فقد تزايد نسل الضفادع تزايداً شديداً حتى أنه تحول إلى بلاء عظيم عكّر عليهم صفو حياتهم: ﴿وَالضَّفَادِعُ﴾.

ولكنهم مع ذلك لم يخضعوا للحق ولم يسلموا.

وفي هذا الوقت بالذات سلط الله عليهم ﴿الذَّمَّ﴾.

وقال تعالى في ختام ذلك: إن هذه الآيات والمعجز الباهرة - رغم أنها أظهرت لهم حقانية موسى - ولكنهم استكبروا عن قبول الحق وكانوا مجرمين. ﴿آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾.

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٢﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِلِغْوِهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾

نقض العهد المتكرر: في هذه الآيات نلاحظ رد فعل الفرعونيين في مقابل النوائب والبلايا المنبئة الإلهية، وفي الآية الأولى نقرأ: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾.

إنهم عند نزول البلاء يلجأون إلى موسى ويطلبون منه أن يدعو لرفع العذاب عنهم، وأن يبي الله بما وعده له من استجابة دعائه: ﴿عَهْدَ عِنْدَكَ﴾.

ثم يقولون: إذا دعوت فرفع عنا البلاء فإننا نحلف لك بأن نؤمن بك، ونرفع طوق العبودية عن بني إسرائيل: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

«الرجز»: استعملت في معاني كثيرة: البلايا الصعبة، الطاعون، الوثن والوثنية، وسوسة الشيطان، والثلج أو البرد الصلب.

والمراد من عبارة ﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ ومن ذلك العهد الإلهي الذي أعطاه سبحانه لموسى هو أن يستجيب دعاءه إذا دعاه.

وفي الآية اللاحقة يشير إلى نقضهم للعهد ويقول: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ

بِالْعَوَةِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ^١ .

إن جملة ﴿إِنِّي أَجَلِي هُمْ بِالْعَوَةِ﴾ إشارة إلى أن موسى حدّد لهم وقتاً وعيّن أمداً، فكان يقول لهم: في الوقت الفلاني سيرفع هذا البلاء عنكم، حتى يتضح لهم أن إرتفاع ذلك البلاء عنهم ليس أمراً اتفاقياً وصدفة، بل هو بفضل دعائه وطلبه من الله تعالى. وآخر هذه الآيات تبين - من خلال جملتين قصيرتين - عاقبة كل هذا التعنت، ونقض العهد، فتقول بصورة جملة: ﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

ثم تشرح هذا الإنتقام وتذكر تفصيله: ﴿فَأَعْرَفْنَاهُمْ فِي آلِيمٍ بَانَهُمْ كَلَبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾. الإنتقام يعني العقوبة والمجازاة. والمقصود من الإنتقام الإلهي هو أن الجماعة الفاسدة وغير القابلة للإصلاح لا يحق لها الحياة في نظام الخلق، ولا بد أن تمحى من صفحة الوجود.

وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا
الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا
مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

قوم فرعون والمعبر المؤلم: بعد هلاك قوم فرعون، وتحطم قدرتهم، وزوال شوكتهم، ورث بنو إسرائيل الذين طال رزوحهم في أغلال الأسر والعبودية أراضي الفراعنة الشاسعة والآية الحاضرة تشير إلى هذا الأمر: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾.

والمقصود من العبارة هو حكومة بني إسرائيل على كل اراضي الفراعنة وبلادهم. والتعبير بـ ﴿كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ﴾ إشارة إلى الفرعونيين كانوا يستبقون بني إسرائيل في حالة ضعف دائمية: ضعف فكري وضعف أخلاقي وضعف اقتصادي، ومن جميع الجهات وفي جميع النواحي.

والتعبير بـ ﴿مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا﴾ إشارة إلى الأراضي الواسعة العريضة التي كانت تحت تصرف الفرعونيين.

١. «النكت»: على وزن مكث، يعني فل الحبل المفتول، ثم أطلق على نقض الميثاق والعهد.

وجملة ﴿بَارَكْنَا فِيهَا﴾ إشارة إلى الخصب العظيم الذي كانت تتمتع به هذه المنطقة - يعني مصر والشام.

ثم يقول: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْخُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾. أي تحقق الوعد الإلهي لبني إسرائيل بانتصارهم على الفرعونيين، بسبب صبرهم وثباتهم.
ثم يضيف في آخر الآية: نحن الذين دمرنا قصور فرعون وقومه العظيمة، وأبنيتهم الجميلة الشامخة، وكذا بساتينهم ومزارعهم العظيمة ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾.

«صنع»: يعني الأعمال الجميلة، وقد وردت هذه اللفظة في الآية المحاضرة بمعنى الهندسة الجميلة الرائعة التي كان يستخدمها الفرعونيين في أبنيتهم.
«يعرشون»: في الأصل تعني الأشجار والبساتين التي تنصب بواسطة العروش والسقف، ولها جمال عظيم وروعة باهرة.

«دمرنا»: من مادة «التدمير» بمعنى الإهلاك والإبادة.

وَجَلَّوْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا
يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ
مُتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا
وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُونَكُم بِسُوءِ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي
ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

الاقتراح على موسى بصنع الوثن: في هذه الآيات إشارة إلى جانب حساس آخر من قصة بني إسرائيل التي بدأت في أعقاب الانتصار على الفرعونيين، وذلك هو مسألة توجه بني إسرائيل إلى الوثنية التي بحث بداياتها في هذه الآيات، وجاءت نتيجتها النهائية بصورة مفصلة في سورة طه من الآية (٨٦-٩٧)، وبصورة مختصرة في الآية (١٤٨) فما بعد من هذه السورة.

في الآية الأولى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾. أي النيل العظيم.
ولكن في مسيرهم مروا على قوم يعبدون الأصنام: ﴿فَاتَّوَا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ
لَّهُمْ﴾.

«عاكف»: مشتقة من مادة «العكوف» بمعنى التوجه إلى شيء وملازمته المقارنة
لإحترامه وتبجيله.

فتأثر الجهلة الغافلون بهذا المشهد بشدة إلى درجة قالوا لموسى من دون إيطاء: يا موسى
اتخذ لنا معبوداً على غرار معبودات هؤلاء: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾.
فانزعج موسى ﷺ من هذا الاقتراح الأحمق بشدة، وقال لهم: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ
تَجْهَلُونَ﴾. لأن منشأ الوثنية هو جهل البشر.

وفي الآية اللاحقة نقرأ أن موسى ﷺ - لتكميل حديثه لبني إسرائيل - قال: إن هذه الجماعة
الوثنية التي ترونها سينتهي أمرها إلى الهلاك، وإن عملهم هذا باطل لا أساس له ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ
مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَيَتَّبِعُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.
فعمل هذه الجماعة باطل، وجهودهم غير منتجة، كما أن مصير مثل هؤلاء القوم وكل

قوم وثنيين ومشركين هو الهلاك والدمار ﴿يَتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَيَتَّبِعُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.
ثم تضيف الآية التوكيد: إن موسى ﷺ ﴿قَالَ أَغْيِرَ اللَّهُ أْبْعِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَىٰ
أَعَالَمِينَ﴾.

وفي الآية اللاحقة يذكر القرآن الكريم إحدى النعم الإلهية الكبرى التي وهبها الله سبحانه
لبني إسرائيل، ليبعث بالالتفات إلى هذه النعمة الكبرى حسّ الشكر فيهم، وليعلموا أن
اللائق بالخضوع والعبادة هو الذات الإلهية المقدسة فحسب، يقول في البداية: تذكروا يوم
أنجيناكم من مخالبي آل فرعون الذين كانوا يعذبونكم دائماً ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾.

ثم تمشياً مع أسلوب القرآن في بيان الأمور بتفصيل بعد إجمال شرح هذا العذاب
المستمر، وهو: قتل الأبناء، واستبقاء النساء للخدمة والإسترقاق ﴿يُقْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ
وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾.

وقد كان في هذا اختبار عظيم من الله لكم ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ
لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ
الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

الميعاد الكبير: في هذه الآية إشارة إلى مشهد من مشاهد حياة بني إسرائيل، ومشكلة موسى ﷺ معهم، وذلك هو قصة ذهاب موسى إلى ميقات ربّه، وتلقي أحكام التوراة عن طريق الوحي وكلامه مع الله، والتي ذكرت بعد قصة عبادة بني إسرائيل للعجل وانحرافهم عن مسير التوحيد، وضجة السامري العجيبة. يقول تعالى أولاً: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

هذه الأيام الأربعون بدأت من أول شهر ذي القعدة وختمت باليوم العاشر من شهر ذي الحجة (عيد الأضحى).

«الميقات»: مشتقة من مادة «الوقت» بمعنى الموعد المضروب للقيام بعمل ما، ويطلق عادة على الزمان، ولكنه قد يطلق على المكان الذي يجب أن يتم العمل فيه، مثل «ميقات الحج» يعني المكان الذي لا يجوز أن يجتازه أحد إلا محرماً.

ثم ذكرت الآية أن موسى استخلف هارون وأمره بالإصلاح في قومه، وأن لا يتبع سبيل المفسدين: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

حديث المنزلة: أشار كثير من المفسرين الشيعة والسنة - في ذيل الآية مورد البحث - إلى حديث «المنزلة» المعروف، بفارق واحد هو: أن الشيعة اعتبروا هذا الحديث من الأدلة الحية والصريحة على خلافة علي ﷺ لرسول الله ﷺ مباشرة وبلا فصل.

ولكي يتضح هذا البحث ندرج هنا أولاً أسانيد ونص هذا الحديث باختصار، ثم نبحت في دلالاته.

أسانيد حديث المنزلة: روى جمع كبير من صحابة النبي ﷺ حول غزوة تبوك: أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك واستخلف علياً فقال: أتخلفني في الصبيان والنساء؟ قال: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبي بعدي».

وهذا النص ورد في أوثق الكتب الحديثية لدى أهل السنة، يعني صحيح البخاري وعن سعد بن أبي وقاص^١.

وقد روى هذا الحديث - أيضاً - في صحيح مسلم الذي يعدّ من المصادر الرئيسية عن أهل السنة: خلف رسول الله ﷺ على بن أبي طالب في غزوة تبوك فقال: يا رسول الله تخلفني في النساء والصبيان؟ فقال: «أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى غير أنّه لا نبي بعدي»^١.

وقد ورد عين هذا الموضوع في سنن ابن ماجه أيضاً^٢.

وقد أضيف في سنن الترمذي مطلب آخر، وهو عن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال: ما منعك أن تسبّ أبا تراب؟ قال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهنّ رسول الله ﷺ فلن أسبّه، لئن تكون لي واحدة منهنّ أحبّ إليّ من حمر النعم. سمعت رسول الله ﷺ يقول لعليّ وخلفه في بعض مغازيه؟ فقال له يا رسول الله تخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله ﷺ: «أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه لا نبوة بعدي». وسمعتة يقول يوم خيبر: «لاعطين الراية رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبه الله ورسوله». قال: فتطاولنا لها. فقال: «ادعوا لي علياً». قال فأتاه وبه رمد فبصق في عينه فدفعت الراية إليه ففتح الله عليه. وأنزلت هذه الآية «ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم» الآية دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: «اللهم هؤلاء أهلي»^٣.

وقد أشير إلى هذا الحديث في (١٣) موارد من مستند أحمد بن حنبل، تارة ذكرت فيه غزوة تبوك، وتارة من دون ذكر غزوة تبوك بل بصورة كلية^٤.

والجدير بالذكر أنّ هذا الحديث لم يروه سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ وحده، بل رواه - أيضاً - مجموعة كبيرة من الصحابة الذين يتجاوز عددهم عشرين شخصاً منهم: جابر بن عبد الله، وأبو سعيد الخدري، وأسما بنت عميس، وابن عباس، وأم سليم، وعبد الله بن مسعود، وأنس بن مالك، وزيد بن أرقم، وأبو أيوب، والأجدر بالذكر أنّ هذا الحديث رواه عن النبي ﷺ معاوية بن أبي سفيان، وعمر بن الخطاب أيضاً.

١. صحيح مسلم ١٢٠/٧.

٢. سنن ابن ماجه ٤٥/١.

٣. سنن الترمذي ٣٠١/٥.

٤. مستند أحمد بن حنبل ١٧٠/١ و ١٧٣ و ١٧٥ و ١٧٧ و ١٧٩ و ١٨٢ و ١٨٤ و ١٨٥ و ٣٣١ و ٣٢٢/٣ و ٣٦٩/٦ و ٤٣٨.

حديث المنزلة في سبعة مواضع: النقطة الأخرى، إن النبي ﷺ - وخلافاً لما يتصوره البعض - لم يقل هذا البحث في علي عليه السلام في غزوة تبوك فقط، بل قال هذه العبارة في عدة مواضع منها:

١- في المؤاخاة الأولى: يعني في المرة الأولى التي آخى فيها رسول الله ﷺ بين المهاجرين واختار علياً عليه السلام في هذه المؤاخاة لنفسه وقال: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»^١.

٢- في يوم المؤاخاة الثانية: لما آخى النبي ﷺ بين أصحابه، قال علي: لقد ذهب روحي وانقطع ظهري حين رأيتك فعلت بأصحابك ما فعلت غيري فإن كان هذا من سخط علي فلك العتبي والكرامة فقال رسول الله ﷺ: «والذي بعثني بالحق ما أخرجت إلا لنفسي وأنت مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي وأنت أخي ووارثي» قال: وما أرث منك يا رسول الله؟ قال: «ما ورثت الأنبياء من قبلي». قال: وما ورثت الأنبياء من قبلك؟ قال: «كتاب ربهم وسنة نبيهم وأنت معي في قصري في الجنة مع فاطمة بنتي وأنت أخي ورفيقي»^٢.

٣- أم سليم - التي كانت على جانب من الفضل والعقل، وكانت تعدّ من أهل السوابق، وهي من الدعاة إلى الإسلام، واستشهد أبوها وأخوها بين يدي النبي ﷺ وفارقت زوجها لأنه أبي أن يعتنق الإسلام، وكان رسول الله ﷺ يزورها في بيتها ويسلّيها - تروي أم سليم هذه أن رسول الله ﷺ قال لها ذات يوم: «إن علياً لحمه من لحمي ودمه من دمي، وهو مني بمنزلة هارون من موسى»^٣.

٤- عن ابن عباس قال: قال عمر بن الخطاب: كفوا عن ذكر علي بن أبي طالب فإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: في علي ثلاث خصال لئن يكون لي واحدة منهن أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، كنت أنا وأبوبكر وأبو عبيدة ابن الجراح ونفر من أصحاب رسول الله ﷺ والنبي ﷺ متكئ على علي بن أبي طالب حتى ضرب بيده على منكبه ثم قال: «أنت يا علي أول المؤمنين إيماناً، وأولهم إسلاماً». ثم قال: «وأنت مني بمنزلة هارون من موسى وكذب علي من زعم أنه يحبني ويبغضك»^٤.

١. كنز العمال ٥/٢٢٤.

٢. كنز العمال ٩/١٦٧/٢٥٥٥٤.

٣. كنز العمال ١١/٦٠٧.

٤. كنز العمال ١٣/١٢٢.

٥- عن هاني بن هاني عن علي عليه السلام قال: لما صدرنا من مكة إذا ابنة حمزة تنادي: يا عم يا عم، فتناولها علي عليه السلام عنه وأخذها فقال لصاحبه: دونك ابنة عمك فحملتها، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر، فقال علي: أنا أخذها وهي بنت عمي. وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي. وقال زيد: ابنة أخي. ففضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لخالتها وقال: «الخاللة بمنزلة الأم»، ثم قال لعلي: «أنت مني بمنزلة هارون وأنا منك»^١.

٦- عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا علي إنه يحل لك في المسجد ما يحل لي وإنك مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»^٢.

هذه الموارد الستة هي غير غزوة تبوك، أخذناها برمتها من المصادر المعروفة لأهل السنة، وإلا فإن هناك في الروايات المروية عن طريق الشيعة موارد أخرى قال فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه العبارة في شأن علي عليه السلام أيضاً. من مجموع ذلك يستفاد أن حديث المنزلة لم يكن مختصاً بغزوة تبوك، بل هو أمر عام ودائم في شأن علي عليه السلام.

ومن هنا يتضح أيضاً أن ما تصوره بعض علماء السنة مثل «الأمدي» من أن هذا الحديث يتكفل حكماً خاصاً في مجال خلافة علي عليه السلام وأنه يرتبط بظرف غزوة تبوك خاصة، ولا يرتبط بغيره من الظروف والأوقات، تصور باطل أساساً، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كرر هذه العبارة في مناسبات متنوعة مما يفيد أنه كان حكماً عاماً.

محتوى حديث المنزلة: لو درسنا - بموضوعية وتجرد - هذا الحديث، وتجنبنا الأحكام المسبقة والتحججات الناشئة من العصبية، لاستفدنا من هذا الحديث أن علياً عليه السلام كان له - بموجب هذا الحديث - جميع المنازل التي كانت لهارون في بني إسرائيل - إلا النبوة.

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ، قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ، قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا بَلَغَ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

١. خصائص النسائي / ٨٨.

٢. ينابيع العودة / ١ / ٢٦٠.

المطالبة برؤية الله: في هذه الآيات والآيات اللاحقة يشير سبحانه إلى مشهد مثير آخر من مشاهد حياة بني إسرائيل، وذلك عندما طلب جماعة من بني إسرائيل من موسى عليه السلام - بالحاح وإصرار - أن يروا الله سبحانه، وأنهم لن يؤمنوا به إذا لم يشاهدوه، فاختر موسى سبعين رجلاً من قومه واصطحبهم معه إلى ميقات ربّه، وهناك رفع طلبهم إلى الله سبحانه، فسمع جواباً أوضح لبني إسرائيل كل شيء في هذا الصعيد. ففي الآيات الحاضرة يقول أولاً:

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾.

ولكن سرعان ما سمع الجواب من جانب المقام الربوبي: كلا، لن تراني أبداً ﴿قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنَّ الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾^١.

فلما رأى موسى هذا المشهد الرهيب تملكه الرعب إلى درجة أنه سقط على الأرض مغمى عليه ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾.

وعندما أفاق قال: ربّاه سبحانه، أنبت إليك، وأنا أول من آمن بك ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

هل يمكن رؤية الله أساساً؟ نقرأ في الآية الحاضرة أن الله سبحانه قال لموسى: ﴿أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي﴾. فهل مفهوم هذا الكلام هو أن الله قابل للرؤية أساساً؟

الجواب هو أن هذا التعبير هو كناية عن استحالة مثل هذا الموضوع، مثل جملة ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ وحيث كان من المعلوم أن الجبل يستحيل أن يستقر في مكانه عند تجلّي الله له، لهذا ذكر هذا التعبير، كما أن مفهوم جملة ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ إنك لا تراني لا في هذا العالم ولا في العالم الآخر.

وعلى هذا الأساس، إذا جاء في الأحاديث والأخبار الإسلامية أو الآيات القرآنية عبارة «لقاء الله» فإن المقصود هو المشاهدة بعين القلب والعقل.

١. «دك»: في الأصل بمعنى سوى الأرض، وعلى هذا فالمقصود من عبارة «جعلته دكاً» هو أنه حطم الجبال وسواها كالأرض وجاء في بعض الروايات أن الجبل تناثر أقساماً، سقط كل قسم منه في جانب أو غار في الأرض وتلاشى نهائياً.

قَالَ يَمْوَسَىٰ إِنِّي أَخِطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَأَلَمِي فَخُذْ مَاءً آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا خُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

ألواح التوراة: وفي النهاية أنزل الله شرائع وقوانين دينه على موسى عليه السلام. في البداية:

﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَخِطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَأَلَمِي ﴾.

فإذا كان الأمر كذلك ﴿ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾.

إن هدف الآية هو بيان امتيازين كبيرين لموسى على الناس: أحدهما تلقي رسالات الله وتحملها والآخر التكلم مع الله وكلا هذين الأمرين من شأنها تقوية مقام قيادته بين أمته.

ثم أضاف تعالى واصفاً محتويات الألواح التي أنزلها على موسى عليه السلام بقوله: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾.

ثم أمره بأن يأخذ هذه التعاليم والأوامر مأخذ الجد، ويحرص عليها بقوة ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾.

مركز تحقيقات كميته علوم اسلامی

وأن يأمر قومه أيضاً بأن يختاروا من هذه التعاليم أحسنها ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا خُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾.

كما يحذرهم بأن مخالفة هذه الأوامر والتعاليم والفرار من المسؤوليات والوظائف تستتبع نتائج مؤلمة، وأن عاقبتها هي جهنم وسوف يرى الفاسقون مكانهم ﴿ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾.

بحوث

١- يستفاد من الآيات القرآنية المتنوعة أن الله تعالى كلم موسى عليه السلام وكان تكليم الله لموسى عن طريق خلق أمواج صوتية في الفضاء أو في الأجسام، وربما انبعثت هذه الأمواج الصوتية من خلال «شجرة الوادي الأيمن» وربما من «جبل طور» وتبلغ مسمع موسى.

٢- يستفاد من عبارة ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً ﴾ أنه لم تكن جميع المواعظ والمسائل موجودة في ألواح موسى عليه السلام لأن الله يقول: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً ﴾.

وهذا لأجل أن دين موسى ﷺ لم يكن آخر دين، ولم يكن موسى ﷺ خاتم الأنبياء ومن المسلم أن الأحكام الإلهية التي نزلت كانت في حدود ما يحتاجه الناس في ذلك الزمان، ولكن عندما وصلت البشرية إلى آخر مرحلة حضارية للشرايع السماوية نزل آخر دستور إلهي يشمل جميع حاجات الناس المادية والمعنوية.

وتتضح من هذا أيضاً علة تفضيل مقام علي ﷺ على مقام موسى ﷺ في بعض الروايات، وهي أن علياً ﷺ كان عارفاً بجميع القرآن، الذي فيه تبيان كل شيء ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ في حين أن التوراة لم يرد فيها إلا بعض المسائل.

٣- في مجال قوله: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ الظاهر أن المقصود منها هو جهنم، وهي مستقر كل أولئك الذين يخرجون من طاعة الله، ولا يقومون بوظائفهم الإلهية.

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا
ءَايَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا
سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ
﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ
إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

معبر المتكبرين: البحث في هاتين الآيتين هو نوع من عملية استنتاج من الآيات الماضية عن مصير فرعون وملئه والعصاة من بني إسرائيل، فقد بين الله في هذه الآيات الحقيقة التالية وهي: إذا كان الفراعنة أو متبرّدو بني إسرائيل لم يخضعوا للحق مع مشاهدة كل تلك المعاجز والبيّنات، وسمع كل تلك الحجج والآيات الإلهية، فذلك بسبب أننا نصرف المتكبرين والمعاندين للحق - بسبب أعمالهم - عن قبول الحق. ولهذا يقول أولاً: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

ثم أشار تعالى إلى ثلاثة أقسام من صفات هذا الفريق «المتكبر المتعنت» وكيفية سلب توفيق قبول الحق عنهم.

الأولى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ إنهم لا يؤمنون حتى ولو رأوا جميع المعاجز والآيات، والثانية: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ والثالثة إنهم

على العكس: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَنِيِّ يَتَخَلَّوْهُ سَبِيلًا﴾.

بعد ذكر هذه الصفات الثلاث الحاكية برمتها عن تصلب هذا الفريق تجاه الحق، أشار إلى عللها وأسبابها، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾. ثم تبين الآية اللاحقة عقوبة مثل هؤلاء الأشخاص وتقول: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾.

«الحبط»: يعني بطلان العمل وفقدانه للأثر والخاصية، يعني أن مثل هؤلاء الأفراد حتى إذا عملوا خيراً فإن عملهم لن يعود عليهم بنتيجة. وفي ختام الآية أضاف بأن هذا المصير ليس من باب الانتقام منهم، إنما هو نتيجة أعمالهم، بل هو عين أعمالهم ذاتها وقد تجسمت أمامهم ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. إن هذه الآية نموذج آخر من الآيات القرآنية الدالة على تجسم الأعمال، وحضور أعمال الإنسان خيرها وشرها يوم القيامة.

وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُورٌ الرَّبْرُ وَأَنَّهُ لَا يَكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرَحْمَنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

اليهود وعبادتهم للعجل: في هذه الآيات يقصّ القرآن الكريم إحدى الحوادث المؤسفة، وفي نفس الوقت العجيبة التي وقعت في بني إسرائيل بعد ذهاب موسى ﷺ إلى ميقات ربه، وهي قصة عبادتهم للعجل التي تمت على يد شخص يدعى «السامري» مستعيناً بجلي بني إسرائيل وما كان عندهم من آلات الزينة. وفي الآية الحاضرة يقول القرآن الكريم أولاً: إن قوم موسى ﷺ بعد ذهابه إلى ميقات ربه صنعوا من حليهم عجلاً، وكان مجرد تمثال لا روح فيه، ولكنه كان له صوت كصوت البقر، واختاروه معبوداً لهم: ﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ﴾.

كيف كان للعجل الذهبي خوراً؟ و«الخوار» هو الصوت الخاص الذي يصدر من البقر أو العجل، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن السامري بسبب ما كان عنده من معلومات وضع

أنايب خاصه في باطن صدر العجل الذهبي، كان يخرج منها هواء مضغوط فيصدر صوت من فم ذلك العجل الذهبي شبيه بصوت البقر.

ثم يقول القرآن الكريم معاتباً وموبخاً: ألم ير بنو إسرائيل أن هذا العجل لا يتكلم معهم ولا يهديهم لشيء، فكيف يعبدونه؟ ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾. يعني أن المعبود الحقيقي هو من يعرف - على الأقل - الحسن والقبيح، وتكون له القدرة على هداية أتباعه، ويتحدث إلى عبده ويهديهم سواء السبيل، ويعرفهم على طريقة العبادة.

إنهم ظلموا بهذا العمل أنفسهم، لهذا يقول في ختام الآية: ﴿أَتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾. بيد أنه برجوع موسى ﷺ إليهم، واتضح الأمر عرف بنو إسرائيل خطأهم، وندموا على فعلهم، وطلبوا من الله أن يغفر لهم، وقالوا: إذا لم يرحمنا الله ولم يغفر لنا فإننا لا شك خاسرون ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأُلُوحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾
قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾

ردة فعل شديدة تجاه عبادة العجل: في هاتين الآيتين بين تعالى بالتفصيل ما جرى بين موسى ﷺ وبين عبدة العجل عند عودته من ميقاته المشار إليه في الآية السابقة. فهاتان الآيتان تعكسان ردة فعل موسى ﷺ الشديدة التي أدت إلى يقظة هذه الجماعة. يقول في البدء: ولما عاد موسى ﷺ إلى قومه غضبان مما صنع قومه من عبادة العجل، قال لهم: ضيعتم ديني وأسأتم الخلافة ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي﴾.

والمراد هو أنكم تعجلتم في الحكم بالنسبة إلى أمر الله تعالى في قضية تمديد مدة الميقات من ثلاثين إلى أربعين، فاعتبرتم عدم مجيئي في المدة المقررة - أولاً - دليلاً على موتي، في حين كان يتعين عليكم أن تترثوا وتنتظروا قليلاً ريثما تمر أيام ثم تتضح الحقيقة.

فهنا لا بد أن يظهر موسى ﷺ غضبه الشديد إذ العودة إلى الحق والصواب عسيرة في غير هذه الصورة.

إن القرآن يستعرض ردة فعل موسى الشديدة في قبال ذلك المشهد وفي تلك الأزمة، إذ يقول: إن موسى أتى ألواح التوراة التي كانت بيده، وعمد إلى أخيه هارون وأخذ برأسه ولحيته وجرهما إلى ناحيته ساخطاً غاضباً.

وفي الحقيقة كان هذا الموقف يعكس - من جانب - حالة موسى ﷺ النفسية، وانزعاجه الشديد تجاه وثنية بني إسرائيل وانحرافهم، ومن جانب آخر كان ذلك وسيلة مؤثرة لهزّ عقول بني إسرائيل الغافية، والقاتهم إلى بشاعة عملهم.

ثم إن القرآن الكريم ذكر أن هارون قال - وهو يحاول استعطاف موسى وإثبات برائته في هذه المسألة - : يا بن أم هذه الجماعة الجاهلة جعلوني ضعيفاً إلى درجة أنهم كادوا يقتلونني، فإذن أنا بريء، فلا تفعل بي ما سيكون موجباً لشماتة الأعداء بي ولا تجعلني في صف هؤلاء الظالمين ﴿ قَالَ ابْنُ أُمِّ إِبْرَاهِيمَ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾.

لقد هدأ غضب موسى ﷺ بعض الشيء، وتوجه إلى الله ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

إن طلب موسى ﷺ العفو والمغفرة من الله تعالى لنفسه ولأخيه، لم يكن لذنوب اقترفاه، بل كان نوعاً من الخضوع لله، والعودة إليه، وإظهار النفرة من أعمال الوثنيين القبيحة، وكذا لإعطاء درس عملي للجميع حتى يفكروا ويروا إذا كان موسى وأخوه - وهما لم يقتربا إنحرافاً - يطلبان من الله العفو والمغفرة هكذا، فالأجدربالآخرين أن ينتهبوا ويحاسبوا أنفسهم، ويتوجهوا إلى الله ويسألوه العفو والمغفرة لذنوبهم. وقد فعل بنو إسرائيل هذا فعلاً - كما تفيد الآيتان السابقتان.

إِنَّ الَّذِينَ أَخْذُوا الْعِجْلَ سَيَنَاهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابِحَ وَفِي سُخْرِيهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْتَابُونَ ﴿١٥٤﴾

لقد فعلت ردّة فعل موسى ﷺ الشديدة فعلتها في المال فقد ندم عبدة العجل الإسرائيليون - وهم أكثرية القوم - على فعلهم، وقد طرح هذا الندم في عدّة آيات قبل هذه الآية أيضاً (الآية ١٤٩) ومن أجل أن لا يتصور أن مجرد الندم من مثل هذه المعصية العظيمة يكفي للتوبة، يضيف القرآن الكريم قائلاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَّهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَفِتْنَةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

وهكذا لأجل أن لا يتصور أن هذا القانون يختص بهم أضاف قائلاً: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾.

إنّ التعبير بـ«اتخذوا» إشارة إلى أن الوثن ليس له أية واقعية، ولكن انتخاب عبدة الأوثان هو الذي أعطاه تلك الشخصية والقيمة الوهمية، ولهذا أتى بكلمة «العجل» وراء هذه الجملة فوراً، يعني أن ذلك العجل هو نفس ذلك العجل حتى بعد انتخابه للعبادة.

وفي الآية اللاحقة يكمل القرآن الكريم هذا الموضوع ويقول في صورة قانون عام: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَعَمَّنُوا بِإِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فالذين يتوبون من بعد السيئة وتتوفر كل شروط التوبة لديهم يغفر الله لهم ويعفو عنهم.

الآية الأخيرة من الآيات المبحوثة تقول: ولما سكن غضب موسى ﷺ وحصل على النتيجة التي كان يتوخاها، أخذ الألواح من الأرض، تلك الألواح التي كانت تحتوي - من أولها إلى آخرها - على الرحمة والهداية، رحمة وهداية للذين يشعرون بالمسؤولية، والذين يخافون الله، ويخضعون لأوامره وتعاليمه: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ فِيهَا نُسَخَتِهَا لَهُمْ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾
وَأَكْتَبْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

مندوبو بني إسرائيل في الميقات: في الآيتين الحاضرتين يعود القرآن الكريم مرّة أخرى إلى قصة ذهاب موسى إلى الميقات «الطور» في صحبة جماعة، ويقص قصماً آخر من تلك الحادثة. فقد قال القرآن الكريم في الآيتين الحاضرتين أولاً: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا أَلِيمَاتِنَا﴾.

ولكن بني إسرائيل حيث إنهم سمعوا كلام الله طلبوا من موسى ﷺ أن يطلب من الله تعالى أن يريهم نفسه - لبني إسرائيل - جهرة، وفي هذا الوقت بالذات أخذهم زلزال عظيم وهلك الجماعة، ووقع موسى ﷺ على الأرض مغشياً عليه، وعندما أفاق قال: رَبِّاهُ لَوْ شِئْتَ لَأَهْلَكْتَنَا جَمِيعًا، يَعْنِي بِمَاذَا أُجِيبُ قَوْمِي لَوْ هَلَكَ هَؤُلَاءِ: ﴿فَلَمَّا أَحَلَّتْهُمْ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي﴾.

ثم قال: رَبِّاهُ إِنَّ هَذَا الْمَطْلَبَ التَّافَهُ إِثْمًا هُوَ فَعَلَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّفَهَاءِ، فَلَا تَوَاخُذْنَا بِفَعْلِهِمْ: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا﴾.

ثم إن موسى ﷺ قال في عقيب هذا التضرع والطلب من الله: رَبِّاهُ إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا كَانَ اخْتِبَارَكَ وَامْتِحَانَكَ، فَأَنْتَ تَضَلُّ مِنْ تَشَاءِ (وَكَانَ مُسْتَحِقًّا لِذَلِكَ) وَتَهْدِي مِنْ تَشَاءِ (وَكَانَ لَاتِقًا لِذَلِكَ) ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ وإختبارك.

وفي ختام الآية يقول موسى ﷺ: رَبِّاهُ: ﴿أَنْتَ وَلِيِّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾.

من مجموع الآيات والروايات يستفاد أن الهالكين قد استعادوا حياتهم في المآل وعادوا برفقة موسى ﷺ إلى بني إسرائيل، وقصّوا عليهم كل ما سمعوه وشاهدوه، وأخذوا في إرشاد الغافلين الجاهلين وهدايتهم.

وفي الآية اللاحقة يشير إلى طلب موسى ﷺ من ربه وتكميل مسألة التوبة التي ذكرت في الآيات السابقة، يقول موسى: ﴿وَإَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الْذُنُوبِ حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

«الحسنة»: تعني كل خير وجمال، وعلى هذا الأساس تشمل جميع النعم، وكذا التوفيق للعمل الصالح، والمغفرة، والجنة، وكل نوع من أنواع السعادة.

ولقد أجاب الله - في النهاية - دعاء موسى ﷺ وقيل توبته، ولكن لا بصورة مطلقة، بل جاء ذلك في ختام الآية مشروطاً بشروط، إذ يقول: ﴿قَالَ عَدَائِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ وكان مستحقاً.

ثم يضيف تعالى قائلًا: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

إن هذه الرحمة الواسعة يمكن أن تكون إشارة إلى أنواع الرحمة المادية والمعنوية، لأن النعم المعنوية لا تختص بقوم دون قوم، وإن كان لها شرائط تتوفر لدى الجميع.

ولكن حتى لا يظن أحد أن قبول التوبة، أو سعة الرحمة الإلهية وشموليتها، غير مقيدة وغير مشروطة، ومن دون حساب أو كتاب، يضيف في ختام الآية: سرعان ما أكتب رحمتي للذين تتوفر فيهم ثلاثة أمور: اتقوا، وآتوا الزكاة، وآمنوا بآياتي ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾.

«التقوى»: إشارة إلى إجتنب كل معصية وإثم.

«الزكاة»: مرادة هنا بمعناها الواسع، وحسب الحديث المعروف «لكل شيء زكاة» يشمل

جميع الأعمال الصالحة والطيبة.

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

اتبعوا هذا النبي، هذه الآية تكمل الآية السابقة التي تحدثت عن صفات الذين تشملهم الرحمة الإلهية الواسعة، أي من تتوفر فيهم الصفات الثلاث: التقوى، وأداء الزكاة، والإيمان بآيات الله. وفي هذه الآية يذكر صفات أخرى لهم من باب التوضيح، وهي اتباع الرسول الأعظم ﷺ لأن الإيمان بالله غير قابل للفصل عن الإيمان بالنبي ﷺ، وإتباع دينه، ولهذا يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾.

ثم يبين ست صفات لهذا الرسول مضافاً إلى مقام الرسالة:

١- أنه نبي الله ﴿النَّبِيِّ﴾.

والنبي يطلق على كل من يبين رسالة الله إلى الناس، ويوحى إليه وإن لم يكن مكلفاً بالدعوة والتبليغ، ولكن الرسول مضافاً إلى كونه نبياً - مكلف بالدعوة إلى دين الله، وتبليغه والإستقامة في هذا السبيل.

٢- أنه نبي أمي لم يتعلم القراءة والكتابة، وقد نهض من بين جماهير الناس من أرض مكة أم القرى قاعدة التوحيد الأصلية: ﴿الْأَمِّيُّ﴾.

٣- ثم إن هذا النبي هو ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾. ومن سمات هذا النبي أن دعوته تتطابق لنداء العقل مطابقة كاملة، فهو يدعو إلى كل الخيرات وينهى عن كل الشرور والممنوعات العقلية: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

٥- كما أن محتوى دعوته منسجم مع الفطرة الإنسانية السليمة، فهو يحل ما ترغب فيه الطباع السليمة ويحرم ما تنفر منه ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾. ٦- أنه ليس كأدعياء النبوة والرسالة الذين يهدفون إلى توثيق الناس بأغلال الاستعمار والاستثمار والاستغلال، بل هو على العكس من ذلك، إنه يرفع عنهم إصرهم والأغلال التي تكبل عقولهم وأفكارهم وتثقل كاهلهم ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾^١. وبما إن هذه الصفات الست بالاضافة إلى الصفة السابعة وهي مقام الرسالة تشكل من حيث المجموع علامة واضحة ودليل قاطع على صدق دعواه، فيضيف القرآن الكريم: ﴿قَالِذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

بحثان

١- خمسة أدلة على النبوة في آية واحدة: الأول: أنه «أمي» لم يدرس، ولكنه مع ذلك أتى بكتاب لم يغير مصير أهل الحجاز فقط، بل كان نقطة تحول هام في التاريخ البشري. الثاني: أن دلائل نبوته قد وردت بتعابير مختلفة في الكتب السماوية السابقة على نحو توجد علماً لدى المرء بحقانيته...

الثالث: أن محتويات دعوته تنسجم انسجاماً كاملاً مع العقل.

الرابع: أن محتويات دعوته منسجمة مع الطبع السليم والفطرة السوية.

الخامس: لو لم يكن من جانب الله لكان عليه أن يقوم بما يضمن مصالحه الخاصة، وفي هذه الصورة كان يتعين عليه أن لا يرفع الأغلال والسلاسل عن الناس، بل عليه أن يقيهم في حالة الجهل والغفلة لاستغلالهم بنحو أفضل، في حين أننا نجده يحمرر الناس من الأغلال الثقيلة.

أغلال الجهل والغفلة عن طريق الدعوة المستمرة إلى العلم والمعرفة.

١. «الإصر»: يعني في الأصل عقد الشيء وحبسه، ويطلق على كل عمل يمنع الإنسان من الفعالية والحركة.

أغلال الوثنية والخرافة عن طريق الدعوة إلى التوحيد.
أغلال التمييز بكل أنواعه، والحياة الطبقية بجميع أصنافها، عن طريق الدعوة إلى الأخوة
الدينية والإسلامية، والمساواة أمام القانون.
وهكذا سائر الأغلال الأخرى.
إن كل واحد من هذه الدلائل لوحده دليل على حقايق دعوته، كما أن مجموعها دليل
أوضح وأقوى.

٢- **البشارات بظهور النبي في العهدين:** إن الشواهد التاريخية القطعية، وكذا محتويات
كتب اليهود والنصارى المقدسة (التوراة والإنجيل) تفيد أن هذه الكتب ليست هي الكتب
السموية التي نزلت على موسى وعيسى عليهما السلام وأن يد التحريف قد طالتها، بل إن بعضها
اندرس واندثر، وأن ما هو موجود الآن باسم الكتب المقدسة بينهم ما هي إلا خليط من
نسائج الأفكار والأدمغة البشرية وشيء من التعاليم التي نزلت على موسى وعيسى عليهما السلام مما
بقي في أيدي تلامذتهم.

ولكن مع هذا فإنه يلحظ في ثنايا هذه الكتب المحرفة عبارات تتضمن اشارات معتد بها
حول ظهور هذا النبي العظيم.

مُرْتَجَمَةٌ كَمَا فِي تَرْجُمَتِهِ
قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

دعوة النبي العالمية: في تفسير الصافي عن الإمام الحسن المجتبي عليه السلام قال: جاء نفر من
اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: يا محمد! أنت الذي تزعم أنك رسول الله، وأنت الذي يوحى
إليك كما يوحى إلى موسى بن عمران؟ فسكت النبي ساعة ثم قال: «نعم أنا سيد ولد آدم ولا
فخر، وأنا خاتم النبيين، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين». قالوا: إلى من، إلى العرب أم إلى
العجم، أم إلينا؟ فأنزل الله هذه الآية التي صرحت بأن رسالة النبي صلى الله عليه وآله رسالة عالمية.

وفي البداية يأمر الله تعالى رسول الله قائلاً: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ

جَمِيعًا﴾.

إن هذه الآية مثل آيات كثيرة أخرى من القرآن الكريم دليل واضح على عالمية دعوة رسول الله ﷺ.

ثم إنّه وصف الإله الذي يدعو إليه النبي ﷺ بثلاث صفات:

١- ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فله الحاكمية المطلقة.

٢- ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا معبود يليق للعبادة سواه.

٣- ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ بيده نظام الحياة والموت.

وفي الختام تدعو جميع أهل العالم إلى الإيمان بالله ورسوله الذي لم يتعلم القراءة والكتابة والقائم من بين الناس ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَمِينِ﴾.

النبي الذي لا يكتفي بدعوة الآخرين إلى هذه الحقائق فحسب، بل يؤمن هو في الدرجة الأولى - بما يقول، يعني الإيمان بالله وكلماته ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾.

إنّه لا يؤمن فقط بالآيات التي نزلت عليه، بل يؤمن بجميع الكتب الحقيقية للأنبياء السابقين.

إن تاريخ النبي ﷺ برمته يشهد بهذه الحقيقة وهي أنه ﷺ كان أكثر من غيره التزاماً بالتعاليم التي جاء بها.

أجل، لا بد لكم من اتباع مثل هذا النبي حتى تسطع أنوار الهداية على قلوبكم، لتتهدوا إلى طريق السعادة ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

وهذا إشارة إلى أنه لا يكفي مجرد الإيمان، وإنما يفيد الإيمان إذا اقترن بالاتباع العملي.

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْعَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّانَ وَالسَّلْوَى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾

جانب من نعم الله على بني إسرائيل؛ في الآيات الحاضرة إشارة إلى حقيقة رأينا نظيرها في القرآن الكريم، وهذه الحقيقة هي تحري القرآن للحق، واحترامه لمكانة الأقليات

الدينية الصالحة، يعني أنه لم يكن ليصف جميع بني إسرائيل بأسرهم بالفساد والإفساد، وبأن هذا العرق القومي برمته ضالّ متمرد من دون إستثناء، بل اعترف بأنّ منهم أقلية صالحة غير موافقة على أعمال الأكثرية، وقد أولى القرآن الكريم اهتماماً خاصاً بهؤلاء فيقول: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْتَلُونَ﴾.

إنّ هذه الآية تشير إلى الأقلية اليهودية الذين كانوا يعيشون في عصر رسول الله ﷺ والذين اعتنقوا الإسلام تدريجاً وبعد مطالعة دعوة النبي ومحتوى رسالته، وانضموا إلى صفوف المسلمين الصادقين.

وفي الآية اللاحقة يشير القرآن الكريم إلى عدّة أقسام من نعم الله على بني إسرائيل. فيقول أولاً: ﴿وَقَطَعْنَا لَهُم مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ سَبْطًا مِّمَّا كَانُوا يَتَّخِذُونَ سَبْطًا وَأَنزَلْنَا لَهُمُ الْغُرَابَ لِيَشِيرُوا فِيهَا إِلَى الْبُلدانِ وَأَنزَلْنَا لَهُمُ الْفَلَاقَةَ لِيَأْكُلُوا مِنْهَا حِينَ يَنزِلُونَ وَأَنزَلْنَا لَهُمُ الْكَلْبَ الَّذِي يَأْكُلُ مِنْ يَدَيْهِمْ وَأَنزَلْنَا لَهُمُ الْيُسْرَىٰ وَأَنزَلْنَا لَهُمُ الْغُرَابَ لِيَشِيرُوا فِيهَا إِلَى الْبُلدانِ وَأَنزَلْنَا لَهُمُ الْفَلَاقَةَ لِيَأْكُلُوا مِنْهَا حِينَ يَنزِلُونَ وَأَنزَلْنَا لَهُمُ الْكَلْبَ الَّذِي يَأْكُلُ مِنْ يَدَيْهِمْ وَأَنزَلْنَا لَهُمُ الْيُسْرَىٰ﴾.

«أسباط»: جمع «سبط» (بفتح السين وبكسرها) تعني في الأصل الإنبساط في سهولة، ثم يطلق السبط والأسباط على الأولاد وبخاصة الأحفاد لأنهم امتداد العائلة.

والمراد من الأسباط - هنا - هو قبائل بني إسرائيل وفروعها، الذين كان كل واحد منها منشعباً ومنحدرًا من أحد أولاد يعقوب عليه السلام.

والنعمة الأخرى هي: أنه عندما كان بنو إسرائيل متوجهين إلى بيت المقدس وأصابهم العطش الشديد الخطير في الصحراء، وطلبوا من موسى عليه السلام الماء، أوحى إليه أن اضرب بعصاك الحجر... ففعل فنبع الماء فشربوا ونجوا من الهلاك ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَنُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أثنى عشر عَيْنًا﴾.

وقد كانت الينابيع هذه مقسمة بين أسباط بني إسرائيل بحيث عرف كل سبط منهم نبعه الذي يشرب منه ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ﴾.

والنعمة الثالثة هي: أن الله تعالى أرسل لهم - في تلك الصحارى الملتهبة حيث لا سقف ولا ظلال - سحبا ظللتهم ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾.

والنعمة الرابعة إنزال المنّ والسلوى عليهم كغذائين لذيين ومقويين: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَالسَّلْوَىٰ﴾.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾. ولكنهم أكلوا وكفروا بالنعمة ولم يشكروها وبذلك ظلموا أنفسهم ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وَإِذ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

في تعقيب الآيات السابقة تشير هاتان الآيتان إلى قسم آخر من المواهب الإلهية لبني إسرائيل وطغيانهم تجاه تلك النعم، وكفرانهم بها. يقول تعالى: ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿﴾ إِذ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴿﴾.

وقلنا لهم اطلبوا من الله حطّ الذنوب عنكم وعبه عن خطاياكم، وادخلوا من باب بيت المقدس بخضوع ﴿﴾ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴿﴾.

فاذا قتم بهذه الأمور غفرنا لكم خطاياكم، وأعطينا للمحسنين ثواباً أكبر ﴿﴾ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿﴾.

وبالرغم من أن الله فتح أمامهم أبواب الرحمة، ولو أردوا إغتنام الفرصة لاستطاعوا حتماً إصلاح ماضيهم وحاضرهم، ولكن لم يغتنم الظالمون من بني إسرائيل هذه الفرصة فحسب، بل بدلوا أمر الله، وقالوا بخلاف ما أمروا أن يقولوه: ﴿﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴿﴾.

وفي المآل نزل عليهم بسبب هذا الطغيان والظلم للنفس وللآخرين عذاب من السماء ﴿﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿﴾.

وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا

اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ

ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ

كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾

قصة فيجا عبرة: في هذه الآيات يستعرض مشهداً آخر من تاريخ بني إسرائيل الزاخر بالحوادث، وهو مشهد يرتبط بجماعة منهم كانوا يعيشون عند ساحل بحر. غاية ما في الأمر أن الخطاب موجه فيها إلى الرسول الأكرم ﷺ فيقول له: ﴿وَسئَلُهُم عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً أَلْبَحْرِ﴾. أي أسأل يهود عصرك عن قضية القرية التي كانت تعيش على ساحل البحر.

ثم تقول: وذكرهم كيف أنهم تجاوزوا - في يوم السبت - القانون الإلهي ﴿إِذْ يَعْتَدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ لأن يوم السبت كان يوم عطلتهم، وكان عليهم أن يكفوا فيه عن الكسب، وعن صيد السمك ويشتغلوا بالعبادة، ولكنهم تجاهلوا هذا الأمر.

ثم يشرح القرآن العدوان المذكور بالعبارة التالية: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيَتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا﴾. فالأسماك كانت تظهر على سطح الماء في يوم السبت، بينما كانت تختفي في غيره من الأيام.

«السبت»: في اللغة تعني تعطيل العمل للإستراحة، وسمى «يوم السبت» بهذا الإسم لأن الأعمال العادية والمشاكل كانت تتعطل في هذا اليوم، ثم بقي هذا الإسم لهذا اليوم علماً له. إن هذا الموضوع سواء كان له جانب طبيعي عادي أم كان له جانب استثنائي وإلهي، كان وسيلة لامتحان واختبار هذه الجماعة، لهذا يقول القرآن الكريم: وهكذا اختبرناهم بشيء يخالفونه ويعصون الأمر فيه ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

وجملة ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ إشارة إلى أن اختبارهم كان من خلال أدوات موافقة لأهوائهم وما من شأنه أن يدعوهم إلى المعصية والمخالفة، وجميع الاختبارات كذلك، لأن الاختبار يجب أن يبين مدى مقاومة الأشخاص أمام جاذبية المعاصي والذنوب. عندما واجهت هذه الجماعة من بني إسرائيل هذا الامتحان الكبير الذي كان متداخلاً مع حياتهم تداخلاً كاملاً، انقسموا إلى ثلاث فرق:

«الفريق الأول» وكانوا يشكلون الأكثرية، وهم الذين خالفوا هذا الأمر الإلهي.

«الفريق الثاني» وكانوا على القاعدة يشكلون الأقلية، وهم الذين قاموا - تجاة الفريق

الأول بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

«الفريق الثالث» وهم الساكتون المحايدون الذين لم يوافقوا العصاة، ولا قاموا بوظيفة

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفي الآية الثانية من الآيات المبحوثة هنا يشرح الحوار الذي دار بين الساكنين، وبين الذين تحركوا للنهي عن ارتكاب هذه المخالفة فيقول: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا لَّهِ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَلِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

فأجابهم الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر: بأننا ننهي عن المنكر لأننا نؤدّي واجبنا تجاه الله تعالى، وحتى لا نكون مسؤولين تجاهه، هذا مضافاً إلى أننا نأمل أن يؤثر كلامنا في قلوبهم، ويكفوا عن طغيانهم وتعنتهم ﴿قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّايَ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَسْتَفْتُونَ﴾.

ويستفاد من الجملة الحاضرة أنه ربّما يجب بيان الحقائق والوظائف الإلهية حتى مع عدم احتمال التأثير، وذلك عندما يكون عدم بيان الأحكام الإلهية، وعدم إنكار المنكر سبباً لتناسي وتنامي البدع، وحينما يعدّ السكوت دليلاً على الرضا والموافقة. ففي هذه الموارد يجب إظهار الحكم الإلهي في مكان حتى مع عدم تأثيره في العصاة والمذنبين.

ثم إن الآية اللاحقة تقول: وفي المآل غلبت عبادة الدنيا عليهم، وتناسوا الأمر الإلهي، وفي هذا الوقت نجينا الذين كانوا ينهاون عن المنكر، وعاقبنا الظالمين بعقاب أليم بسبب فسقهم وعصيانهم ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْأَسْوَءِ وَأَخْلَفْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ بَيْتِيسَ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^١

ثم يشرح العقوبات هكذا: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهَا عَنَّا قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾^٢ وواضح أن أمر «كونوا» هنا أمر تكويني مثل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^٣.

يجب الالتفات إلى أن المسوخين - حسب الروايات - بقوا على هذه الحالة عدة أيام ثم هلكوا ولم يتولد منهم نسل أبداً.

كيف ارتكبوا هذه المعصية؟ إنهم في البداية استخدموا ما يسمى بالحيلة الشرعية، وذلك بواسطة حفر أحواض إلى جانب البحر، أو إلقاء الكلاب والصنارات، ثم لما صُغرت هذه المعصية في نظرهم، جراًهم ذلك على كسر احترام يوم السبت وحرمته، فأخذوا يصيدون السمك في يوم السبت تدريجاً وعلناً، واكتسبوا من هذا الطريق ثروة كبيرة جداً.

١. «بئس»: مشتقة من مادة «بأس» يعني الشديد.

٢. «عتوا»: من مادة «عتو» على وزن «غلو»، بمعنى الإمتناع عن طاعة أمر.

٣. سورة يس / ٢٨.

وَإِذ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِمَّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾

تفرق اليهود وتشتتهم: هاتان الآيتان تشيران إلى بعض العقوبات الدنيوية التي أصابت جماعة من اليهود خالفت أمر الله تعالى، وسحقت الحق والعدل والصدق. فيقول في البداية: واذكروا يوم أخبر الله بأنه سيسلط على هذه الجماعة العاصية المتردة فريقاً يجعلها حليفة العذاب والأذى إلى يوم القيامة ﴿وَإِذ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾.

ويستفاد من هذه الآية أن هذه الجماعة المتردة الطاغية لن ترى وجه الإستقرار والطمأنينة أبداً، وإن أسست لنفسها حكومة وشيئت دولة. وفي ختام الآية يضيف تعالى قائلاً: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. فبالنسبة إلى الكفار سريع العقاب، وبالنسبة للمذنبين التائبين غفور رحيم. وهذه الجملة تكشف عن أن الله قد ترك الباب مفتوحاً أمامهم حتى لا يظن أحد أنه قد كتب عليهم المصير المحتوم والشقاء الأبدي الذي لا خلاص منه.

وفي الآية اللاحقة يشير تعالى إلى تفرق اليهود في العالم فيقول: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِمَّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ فهم متفرقون منقسمون على أنفسهم بعضهم صالحون، ولهذا عندما سمعوا ببدء الإسلام وعرفوا دعوة النبي محمد ﷺ آمنوا به، وبعضهم لم يكونوا كذلك بل تركوا الحق وراءهم ظهرياً، ولم يرتدعوا عن معصية في سبيل ضمان مصالحهم وحياتهم المادية.

ومرة أخرى تتجلى هذه الحقيقة في هذه الآية وهي أن الإسلام لا يعادي العنصر اليهودي، ولا يشجبهم لكونهم أتباع دين معين، أو منتمين إلى عنصر وعرق معين، بل يجعل أعماهم هي مقياس تقييمهم.

ثم يضيف تعالى قائلاً: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. أي ربما

نكرمهم ونجعلهم في رفاه ونعمة حتى نثير فيهم روح الشكر، ويعودوا إلى طريق الحق. وربما نغرقهم في الشدائد والمصاعب والمصائب حتى ينزلوا عن مركب الغرور والأنانية والتكبر، ويقفوا على عجزهم، لعلهم يستيقظون ويعودون إلى الله، والهدف في كلتا الحالتين هو التربية والهداية والعودة إلى الحق.

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارَ الْأُخْرَىٰ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٩﴾
وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

في الآيات الماضية دار الحديث حول أسلاف اليهود، ولكن في الآية الحاضرة دار الكلام حول أبنائهم وأخلافهم. وفي البداية يقول تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ﴾. إنهم ورثوا التوراة عن أسلافهم، وكان عليهم أن ينتفعوا بها ويهتدوا، ولكنهم رغم ذلك فُتِنُوا بمتاع هذه الدنيا وحطامها الرخيص التافه، واستبدلوا الحق والهدى بمنافع المادية. *مركزية تكوير علوم رسول*

ثم يضيف قائلاً: وعندما وقعوا بين مفترق طريقين: بين ضغط الوجدان من جهة، والرغبات والمنافع المادية من جهة أخرى عمدوا إلى الأمانى والآمال الكاذبة وقالوا: لناخذ المنافع الدنيوية فعلاً سواءً من حلال أو حرام، والله سيرحمنا ويغفر لنا ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

إن هذه الجملة تكشف عن أنهم كانوا بعد القيام بمثل هذا العمل يعيشون حالة من الندم العابر والتوبة الظاهرية، ولكن هذه الندامة - كما يقول القرآن الكريم - لم تكن لها أية جذور في أعماق نفوسهم، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ﴾.

«عَرَضٌ»: على وزن «غرض» يعني الشيء الذي لا ثبات له ولا دوام، ومن هذا المنطق يطلق على متاع العالم المادي اسم العرض، لكونه زائلاً غير ثابت في الغالب.

إن هذه الجملة إشارة إلى عمليات الإرتشاء التي كان يقوم بها بعض اليهود لتحريف الآيات السماوية، ونسيان أحكام الله لمضادتها لمصالحهم ومنافعهم المادية.

ولهذا قال تعالى في عقيب ذلك: ﴿أَلَمْ يُوْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾. أي أنهم أخذ عليهم الميثاق - بواسطة كتابهم السماوي التوراة - أن لا يفتروا على الله كذباً، ولا يحرفوا كلماته، ولا يقولوا إلا الحق.

ثم يقول: لو كان هؤلاء الذين يرتكبون هذه المخالفات جاهلون بالآيات الإلهية، لكان من الممكن أن ينحتوا لأنفسهم أعداراً، ولكن المشكلة هي أنهم رأوا التوراة مراراً وفهموا محتواها ومع ذلك ضيّعوا أحكامها، ونبذوا أمرها وراء ظهورهم ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهَا﴾.

وفي ختام الآية يقول: إن هؤلاء يخطئون في تقديرهم للأمر، وإن هذه الأعمال لن تجديهم نفعاً ﴿وَاللَّارُ الْآخِرَةُ حَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْتَقُونَ﴾. ألا تفهمون هذه الحقائق الواضحة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وفي مقابل الفريق المشار إليه سابقاً يشير تعالى إلى فريق آخر لم يكتفوا بعدم اقرار جرمية تحريف الآيات الإلهية وكتابتها فحسب، بل تمسكوا بمخاديفها وطبقوها في حياتهم حرفاً بحرف، والقرآن يصف هذه الجماعة بأنهم مصلحو العالم، ويعترف لهم بأجر جزيل وثواب عظيم، ويقول عنهم: ﴿وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

إن الآيات المحاضرة تكشف لنا بوضوح عن أن الإصلاح الواقعي في الأرض لا يمكن من دون التمسك بالكتب السماوية، ومن دون تطبيق الأوامر والتعاليم الإلهية، وهذا التعبير يؤكد - مرة أخرى - هذه الحقيقة، وهي أن الدين ليس مجرد برنامج يرتبط بعالم ما وراء الطبيعة، وبدار الآخرة، بل هو برنامج للحياة البشرية، ويهدف إلى حفظ مصالح جميع أفراد البشر، وإجراء مبادئ العدل والسلام والرفاه والاستقرار، وبالتالي كل مفهوم تشمله كلمة «الإصلاح» الواسعة المعنى.

وَإِذْ نَنْقُنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَاءَ تَيْنِكُمْ بِقُوَّةٍ
وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

آخر كلام حول اليهود: هذه الآية آخر آية في هذه السورة تتحدث حول حياة بني إسرائيل وهي تتضمن تذكير قصة أخرى لليهود عصر النبي ﷺ قصة فيها عبرة، كما أنها دليل على إعطاء ميثاق وعهد، إذ يقول: واذكروا إذ قلنا للجبل من مكانه وجعلناه فوق

رؤوسهم كأنه مظلة ﴿وَإِذْ تَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ﴾ ١.

وقد ظنوا أنه سيسقط على رؤوسهم، فإنتابهم اضطراب شديد وفزع ﴿وَفَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾.

وفي تلك الحالة قلنا لهم: خذوا ما أعطيناكم من الأحكام بقوة وجدية ﴿خَلُّوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾.

واذكروا ما جاء فيه حتى تتقوا، وخافوا من العقاب الإلهي واعملوا بما أخذناه فيه منكم من المواثيق ﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

يعني أن رسالة موسى ﷺ وسائر الأنبياء وأعمالهم ومواجهاتهم المستمرة والصعبة وما لقوا من صعاب ومتاعب وشدائد مضنية كانت لأجل تطبيق أوامر الله، وتنفيذ مبادئ الحق والعدالة والطهر والتقوى في المجتمعات البشرية بشكل كامل.

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾
أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَنُهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

العهد الأول وعالم الذرة: الآيات المذكورة أعلاه، تشير إلى «التوحيد الفطري» ووجود الإيمان في أعماق روح الإنسان، ولذلك فإن هذه الآيات تُكمل الأبحاث الواردة في الآيات المتقدمة من هذه السورة في شأن «التوحيد الإستدلالي». يقول الله سبحانه مخاطباً نبيه في هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾.

«الذرية»: معناها في الأصل الأبناء الصغار اليافعون، إلا أنها تطلق في الغالب على عموم الأبناء.

ثم يشير الله سبحانه إلى الهدف النهائي من هذا السؤال والجواب، وأخذ العهد من ذرية آدم في مسألة التوحيد، فيقول: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾.

١. «نتقنا»: من مادة «نتق» تعني في الأصل قلع وانتزاع شيء من مكانه، وإلقاءه في جانب آخر.

الآية التالية تشير إلى هدف آخر من أخذ هذا العهد، وهو أن الله تعالى إنما أخذ هذا العهد من ذرية بني آدم لثلاثا يعتذروا ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

أجل... ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

إن المراد من هذا العالم وهذا العهد هو عالم الاستعداد «والكفاءات» و«عهد الفطرة» والتكوين والخلق. فعند خروج أبناء آدم من أصلاب آبائهم إلى أرحام الأمهات، وهم نطف لا تعدو الذرات الصغار، وهبهم الله الاستعداد لتقبل الحقيقة التوحيدية، وأودع ذلك السرّ الإلهي في ذاتهم وفطرتهم بصورة إحساس داخلي... كما أودعه في عقولهم وأفكارهم بشكل حقيقة واعية بنفسها. فبناءً على هذا، فإن جميع أبناء البشر يحملون روح التوحيد، وما أخذه الله من عهد منهم أو سؤاله إياهم: ألسنت بربكم؟ كان بلسان التكوين والخلق، وما أجابوه كان باللسان ذاته.

وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْفَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ مِّنَ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

في هذه الآيات إشارة لقصة أخرى من قصص بني إسرائيل، والآية الأولى من هذه الآيات يخاطب بها النبي ﷺ حيث يقول تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْفَاوِينَ﴾.

والآية التالية تكمل هذا الموضوع على النحو التالي ﴿لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾.

ولكن من المسلم أن إكراه الناس وإجبارهم على أن يسلكوا سبيل الحق لا ينسجم والسنن الإلهية وحرية الإرادة ولا يكون ذلك دليلاً على عظمة الشخص، لهذا فإن الآية

تضيف مباشرة إننا تركناه وهواه وبدلاً من أن ينتفع من معارفه فإنه هوى وانحط ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾.

«أخلد»: من «الإخلاق» وهي تعني السكن الدائم في مكان واحد مع حرية الإرادة، فجملة (أخلد إلى الأرض) تعني اللصوق الدائم بالأرض، وهي كناية عن عالم المادة وبها رجها، واللذائذ غير المشروعة للحياة المادية.

ثم تشبه الآية هذا الفرد بالكلب الذي يُخرج لسانه لاهناً دائماً كالحیوانات العطاشی فتقول: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْوَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ﴾.

فهو لفرط اتباعه الهوى وتعلقه بعالم المادة انتابته حالة من العطش الشديد غير المحدود وراء لذائذ الدنيا، وكل ذلك لم يكن لحاجة، بل لحالة مرضية، فهو كالكلب المسعور الذي يظهر بحالة عطش كاذب لا يمكن إرواؤها وهي حالة العبيد الذين لا يهمهم غير جمع المال واكتناز الثروة فلا يحسون معه بشبع أبداً.

ثم تضيف الآية: إن هذا المثال الخاص لا يتعلق بفرد معين، بل: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْضِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

العالم المنحرف بلعم بن باعوراء: يستفاد من أغلب الروايات وأحاديث المفسرين أن هذا الشخص يسمى (بلعم بن باعوراء) الذي عاصر النبي موسى ﷺ وكان من مشاهير علماء بني إسرائيل، حتى أن موسى ﷺ كان يعول عليه كداعية مقتدر، وبلغ أمره أن دعاءه كان مستجاباً لدى الباري جلّ وعلا، لكنه مال نحو فرعون وإغراءاته فانحرف عن الصواب، وقد مناصبه المعنوية تلك حتى صار بعدئذٍ في جبهة أعداء موسى ﷺ.

ويجب على المؤمنين معرفة مثل هؤلاء الأشخاص والحذر منهم واجتنابهم.

والآيتان التاليتان - كنتيجة عامة وشاملة لقضية (بلعم) وعلماء الدين الذين أحبوا الدنيا - فتقول أولاهما: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

فما أفحش ظلم الإنسان لنفسه وهو يسخر ملكاته المعنوية وعلومه النافعة التي بإمكانها أن تعود عليه وعلى مجتمعه بالخير، ويضعها تحت اختيار المستكبرين وأصحاب القدرة الدنيوية ويبيعهها بثمن بخس فيؤدّي ذلك إلى سقوطه وسقوط المجتمع والآية الأخيرة تحذّر الإنسان وتؤكد له أن الخلاص من مثل هذا الانحراف وما يكيد الشياطين لا يمكن إلا بتوفيق وتسديد من الله عزّ وجلّ: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ
 أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ
 هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي
 أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ
 يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

علائم أهل النار: هذه الآيات تقسم الناس إلى مجموعتين... وتحكي عن صفاتها وهما
 أهل النار، وأهل الجنة. فتحدث عن المجموعة الأولى - أهل النار - أولاً، فتأتي بالقسم
 والتوكيد فتقول: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾.
 «ذراً»: مشتقة من «ذراً»، وتعني هنا الإيجاد والخلق، غير أنها في أصل اللغة تعني نشر
 الشيء وتفريقه.

فإن الله سبحانه خلق الناس جميعهم على نسق واحد طاهرين إلا أن قسماً منهم
 إختاروا بأعمالهم جهنم فكانوا من أهلها فكان عاقبة أمرهم خسراً... وأن قسماً منهم
 إختاروا بأعمالهم الجنة وكان عاقبة أمرهم السعادة...
 ثم يلخص القرآن صفات أهل النار في ثلاث جمل، إذ تقول الآية: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ
 بِهَا﴾.

والصفة الثانية التي ذكرتها الآية لأهل النار ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾.
 والصفة الثالثة الواردة في حقهم ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ
 أَضَلُّ﴾.

لأن البهائم والأنعام لا تملك هذه الاستعدادات والإمكانات، إلا أنهم بما لديهم من عقل
 سالم وعين باصرة وأذن سامعة، بإمكانهم أن يبلغوا كل مراتب الرقي والتكامل، إلا أنهم
 نتيجة لإتباعهم هواهم ورغبتهم - بكل هذه التوافه من الأمور تركوا هذه الاستعدادات
 جانباً... وكان شقاؤهم كبيراً لهذا السبب: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

فالمعين الذي يحييهم ويروي ظمأهم موجود إلى جانبهم وهم على مقربة منه، إلا أنهم
 يتصارخون من الظمأ وأبواب السعادة مفتحة أمامهم لكنهم لا يلتفتون إليها.

وفي الآية التالية إشارة إلى حال أهل الجنة وبيان لصفاتهم، فتبدأ الآية بدعوة الناس إلى التدبر والتوجه إلى أسماء الله الحسنى كمقدمة للخروج من صف أهل النار، فتقول: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾. والمراد من «أسماء الله الحسنى» هي صفات الله المختلفة التي هي حُسنى جميعاً فالمراد من دعاء الله بأسمائه الحسنى، ليس هو ذكر هذه الألفاظ وجريانها على اللسان فحسب، كأن نقول مثلاً: يا عالم يا قادر يا أرحم الراحمين، بل ينبغي أن تتمثل هذه الصفات في وجودنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

وبتعبير أخرى: ينبغي أن نتَّصف بصفاته ونتخلَّق بأخلاقه.

من ذلك الرواية الواردة في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام في قول الله عزَّ وجلَّ ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ قال: «نحن والله الأسماء الحسنى». فهي إشارة إلى أن إشعاعاً من صفاته قد انعكس فينا، فمن عرفنا فقد عرف ذاته المقدسة...

ثم تحذر الآية من هذا الأمر، وهو أن تُحرف أسماءه فتقول: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. والمقصود من الإلحاد في أسماء الله هو أن نحرف ألفاظها أو مفاهيمها، بحيث نصفه بصفات لا تليق بساحته المقدسة، كما يصفه المسيحيون بالتثليث «الأب والابن وروح القدس».

وفي آخر آية من الآيات محل البحث إشارة إلى صفتين من أبرز صفات أهل الجنة، إذ تقول الآية: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْمَلُونَ﴾.

إن هؤلاء منهجين ممتازين وأفكارهم وأهدافهم ودعواتهم وثقافتهم حقّة وهي في اتجاه الحق أيضاً كما أن أفعالهم وخططهم وحكوماتهم قائمة على أساس الحق والحقيقة.

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمَلِي لَهُمْ آيَاتٍ كِيدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾

الإستدراج: تعقياً على البحث السابق الذي عالجت الآيات المتقدمة - والذي يبين حال أهل النار - تبين هاتان الآيتان واحدة من سنن الله في شأن كثير من عباده المجرمين المعاندين، وهي ما عبّر عنها القرآن «بعذاب الإستدراج».

والإستدراج جاء في موطنين من القرآن: أحدهما في الآيتين محل البحث، والآخر في

الآية (٤٤) من سورة القلم، وكلا الموطنين يتعلقان بمكذبي آيات الله ومنكريها.

يقول سبحانه في الآية الأولى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾. أي سنعدّهم بالإستدراج شيئاً فشيئاً، ونطوي حياتهم.

والآية الثانية تؤكد الموضوع ذاته، وتشير بأن الله لا يتعجل بالعذاب عليهم، بل يمهّلهم لعلهم يحذرون ويتعظون، فإذا لم ينتبهوا من نومتهم ابتلوا بعذاب الله؛ فتقول الآية ﴿وَأَمَلَى لَهُمْ﴾.

لأن الإستعجال يتذرع به من يخاف الفوت، والله قوي ولا يفلت من قبضته أحد ﴿إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

فهذه الآية تنذر جميع المجرمين والمذنبين بأن تأخير الجزاء من قبل الله لا يعني صحة أعمالهم أو طهارتهم، ولا عجزاً وضعفاً من الله، وأن لا يحسبوا أن النعم التي غرقوا فيها هي دليل على قربهم من الله، فما أقرب من أن تكون هذه النعم والانتصارات مقدمة لعقاب الإستدراج. فالله سبحانه يغشّيهم بالنعم ويمهّلهم ويرفعهم عالياً، ثم يكبسهم على الأرض فجأة حتى لا يبقى منهم أثر، ويطوي بذلك وجودهم وتاريخ حياتهم كله.

في الكافي: سئل الإمام الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال: «هو العبد يذنب الذنب فتجد له النعمة معه، تلهيه تلك النعمة عن الاستغفار عن ذلك الذنب».

مرآة تحتية كالمعروف علوم

أَوْلَمْ يَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٦﴾ أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٧﴾ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادٍ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٨﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: إن رسول الله صلى الله عليه وآله صعد الصفا وكان يدعو قريشاً، فخذأ فخذأ، إلى توحيد الله، ويخوفهم عذاب الله، فقال المشركون: إن أصحابهم قد جنّ، بات ليلاً يصوت إلى الصباح، فأنزل الله هذه الآية.

التفسير

الثم والأبطليل: في الآية الأولى من الآيات - محل البحث - يردّ الله سبحانه على كلام

المشركين الفارغ، بزعمهم أن النبي ﷺ قد جنّ، فيقول سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾^١.

وهذا التعبير يشير إلى أن النبي ﷺ لم يكن شخصاً مجهولاً بينهم، وتعبيرهم بـ«الصاحب» يعني المحب والمسامر والصديق وما إلى ذلك، وكان النبي معهم أكثر من أربعين عاماً يرون ذهابه وإيابه وتفكيره وتدبيره دائماً وأثار النبوغ كانت باديةً عليه، فمثل هذا الإنسان الذي كان يُعدّ من أبرز الفضلاء والعقلاء قبل الدعوة إلى الله، كيف تلتصق به مثل هذه التهمة بهذه السرعة؟! أما كان من الأفضل أن يتفكروا - بدلاً من إصاق التهم به - في احتمال أن يكون صادقاً في دعواه ومرسل من قبل الله سبحانه؟! كما عقب القرآن الكريم وبين ذلك بعد قوله أو لم يتفكروا؟ فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

وفي الآية التالية - استكمالاً للموضوع آنف الذكر - دعاهم القرآن إلى النظر في عالم الملكوت عالم السماوات والأرض، إذ تقول الآية: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾. ليعلموا أن هذا العالم الواسع، عالم الخلق، عالم السماوات والأرض، بنظامه الدقيق المحير المذهل لم يخلق عبثاً، وإنما هناك هدف وراء خلقه. ودعوة النبي ﷺ هي من أجل ذلك الهدف، وهو تكامل الإنسان وتربيته وارتقاؤه.

ثم تقول الآية معقبة لتنبههم من نومة الغافلين: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾.

وأخيراً فإن الآية التالية، تختتم الكلام بالقول: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَنْذِرْهُمْ فِي ظَنِينِهِمْ يَعْهَوْنَ﴾.

فإن هذه التعابير تختص بأولئك الذين يقفون بوجه الحقائق معاندين الداء، حتى كأنما على أبصارهم غشاوة وفي سمعهم صمم وعلى قلوبهم طبع، فلا يجدون إلا أسدالاً من الظلمات تحجب طريقهم. وكل ذلك هو نتيجة أعمالهم، وهو المقصود بالإضلال الإلهي ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾.

١. «الجنة»: معناها الجنون، ومعناها في الأصل: الحائل والمانع فكأنما يُلقى على العقل حائل عند الجنون.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا
عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: جاء قوم من اليهود، فقالوا: يا محمد أخبرنا عن
الساعة متى هي إن كنت نبياً؟ فنزلت الآية.
وقيل: قالت قريش يا محمد! متى الساعة؟ فنزلت الآية.

التفسير

مع أن هذه الآية ذات سبب خاص في النزول - كما ذكروا - إلا أنها في الوقت ذاته لها
علاقة وثيقة بالآيات المتقدمة أيضاً، لأنه قد وردت الإشارة إلى يوم القيامة ولزوم
الإستعداد لمثل ذلك اليوم في الآيات السابقة. وبالطبع فإن موضوعاً كهذا يستدعي السؤال
عن مواعده وقيامه، ويستثير كثيراً من الناس أن يسألوه: أيان يوم القيامة؟ لهذا فإن القرآن
يقول: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾.

«الساعة»: تعني زمان نهاية الدنيا، إلا أنها في الغالب تأتي بمعنى القيامة في القرآن
الكريم؛ و«أيان»: تساوي «متى» وهما للسؤال عن الزمان؛ و«المرسى»: ثبات الشيء أو
وقوعه، فبناءً على ذلك فإن «أيان مرساها» تعني: في أي وقت تقع القيامة وتكون ثابتة؟
ثم تضيف الآية مخاطبة النبي أن يرد عليهم بصراحة قائلة: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا
يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾.

إلا أن الآية تذكر علامتين مجملتين، فتقول أولاً: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
آية حادثة يمكن أن تكون أثقل من هذه، إذ تضرب لهما جميع الأجرام السماوية
«قبيل القيامة» فتخمد الشمس ويظلم القمر وتندثر النجوم، ويتكون من بقاياها عالم
جديد بثوب آخر.

ثم إن قيام الساعة يكون على حين غرة، وبدون مقدمات تدريجية، بل على شكل مفاجيء وانقلاب سريع. ﴿لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾.

ثم تقول الآية مرة أخرى: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا﴾.

وتضيف الآية مخاطبة النبي الكريم: ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْرَثْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قيل: إن أهل مكة قالوا: يا محمد! ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو، فتشتريه فتربح فيه، وبالأرض التي تريد أن تجذب، فترحل منها إلى أرض قد أخصبت؟ فأنزل هذه الآية.

التفسير

لا يعلم الغيب إلا الله، إن الكلام كان في الآية السابقة على عدم علم أحد بقيام الساعة إلا الله، والكلام في هذه الآية على نفي علم الغيب عن العباد بصورة كلية. ففي الجملة الأولى من هذه الآية خطاب للنبي ﷺ يقول: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾. إن مالك جميع القوى والقدرات وذو الاختيار المستقل - وبالذات - في عالم الوجود هو الله عز وجل فحسب، والآخرون حتى الأنبياء والملائكة يكتسبون منه القدرة ويستمدون منه القوة.

وبعد بيان هذا الموضوع تشير الآية إلى مسألة مهمة أخرى رداً على سؤال جماعة منهم فتقول: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْرَثْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾.

ثم تحكي الآية عن مقام النبي الواقعي ورسالته، في جملة موجزة صريحة، فتقول على لسانه: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيْفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِيْنَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَتْهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾

جعد نعمة عظمى: في هذه الآيات إشارة إلى جانب آخر من حالات المشركين وأسلوب تفكيرهم والرد على تصوراتهم الخاطئة. لما كانت الآية السابقة إشارة إلى توحيد أفعال الله، فالآيات محل البحث تعد مكملة لها لأن هذه الآيات تشير إلى توحيد أفعال الله أيضاً. تقول الآية الأولى من هذه الآيات: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ فجعل الحياة والسكن جنباً إلى جنب ﴿فَلَمَّا تَغَشَّهَا حَمَلٌ خَفِيْفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾.

وبمرور الأيام والليالي ثقل الحمل ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ كان كل من الزوجين ينتظر الطفل، ويتمنى أن يهبه الله ولداً صالحاً، فلذلك ﴿دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِيْنَ﴾. وعندما استجاب الله دعاءهما، ورزقهما الولد الصالح أشركا بالله ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وتعقيباً على هذا الأمر يرد القرآن - بأسلوب بين متين - عقيدة المشركين وأفكارهم مرة أخرى، فيقول: ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾.

وليس هذا فحسب، فهم ضعاف ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾. والأوثان والأصنام في حالة لو ناديتموها لما استجابت لكم ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾. فمن كان بهذه المنزلة وبهذا المستوى أتى له بهداية الآخرين!

ويحتمل بعض المفسرين احتمالاً آخر في تفسير الآية، أن المراد هو أنكم لو طلبتم منهم الهداية فلن يتحقق دعاؤكم وطلبكم على كل حال ﴿سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾.

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلَيْسَتْ جِيبُوا
 لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَمْ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ
 بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ
 ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ ﴿١٩٥﴾

هاتان الآيتان - محل البحث - توصلان الكلام على التوحيد ومكافحة الشرك،
 وتبطلان منطق المشركين بأربعة أدلة، فتقول الآية الأولى من هاتين الآيتين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ
 تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾.

فبناءً على ذلك لا معنى لأن يسجد الإنسان لشيء مثله تحكمها قوانين الطبيعية، وأن يد
 يد الضراعة والحاجة إليه، وأن يجعل مقدراته ومصيره تحت يده.

ثم تضيف الآية: أنكم لو تزعمون بأن لهم عقلاً وشعوراً ﴿فَادْعُوهُمْ فَلَيْسَتْ جِيبُوا لَكُمْ إِنْ
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وهذا هو الدليل الثاني على إبطال منطق المشركين.

وفي البيان الثالث تبرهن الآية على أن الأصنام أضعف حتى من عبادها المشركين،
 فتساءل مستنكرة: ﴿أَلَمْ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا
 أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾^١.

وهكذا فإن الأصنام من الضعة بمكان حتى أنها بحاجة إلى من يدافع عنها ويحامي عنها،
 وأخيراً فإن الآية تبين ضمن تعبير هو في حكم الدليل الرابع مخاطبة النبي ﷺ قائلة: ﴿قُلِ
 ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ﴾. أي إذا كنت كاذباً، وأن الأصنام مقرّبات عند الله،
 وقد تجرأت عليها فلم لا تغضب علي؟ وليس لها ولا لكم ولمكاندكم أي تأثير عليّ.

إِنَّ وَعِىَ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابُ وَهُوَ تَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ
 دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ
 إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَبُّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

١. «يبطشون»: فعل مشتق من «البطش» على زنة «العرش» ومعناه الإستيلاء بالشدة والصولة والقدرة.

المعبودات التي لا قيمة لها: تعقياً على الآية المتقدمة التي كانت تخاطب المشركين بالقول (على لسان النبي): ﴿أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونَ﴾ منبهة إياهم أنهم لا يستطيعون أن يصيبوا النبي بأذى ضرر، فإن الآية الأولى - من الآيات - محل البحث - تذكر الدليل على ذلك فتقول: ﴿إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِينَ نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾.

وليس وليي وحدي فحسب، بل هو ولي جميع الصالحين ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾. ثم يؤكد القرآن بالآية التالية على بطلان عبادة الأوثان مرة أخرى فيقول: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَلِيمُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَتَصَرَّوْنَ﴾.

بل أبعد من ذلك ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا﴾. وبالرغم من امتلاكهم العيون التي يخيل إلى الراي أنها تنظر: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

ومضمون الآيتين الأخيرتين ورد في الآيات السابقة أيضاً، وهذا التكرار إنما هو لمزيد التأكيد على مكافحة الشرك وقلع جذوره التي نفذت في أفكار المشركين وأرواحهم عن طريق التلقين والتقرير المتكرر.

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا أُجْتَبِئَتْهَا قُلٌ إِنَّمَا اتَّبِعُ مَا يُوْحَىٰ إِلَىٰ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾

وساوس الشيطان: في هذه الآيات بين القرآن شروط التبليغ وقيادة الناس وإمامتهم بأسلوب أخاذ رائق وجيز، وهي في الوقت ذاته تتناسب والآيات المتقدمة التي كانت تشير إلى مسألة تبليغ المشركين أيضاً. ففي الآية الأولى - من الآيات محل البحث - إشارة إلى ثلاث من وظائف القادة والمبلغين، فتوجه الخطاب للنبي ﷺ فتقول في البداية: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾.

ثم تعقب الآية بذكر الوظيفة الثانية للنبي ﷺ وتأمره بأن يرشد الناس إلى حميد الأفعال التي يرتضيها العقل ويدعو إليها الله عز وجل قائلة: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾.

أما الوظيفة الثالثة للنبي ﷺ فهي أن يتحمل الجاهلين، فتقول: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

فالقادة والمبلغون يواجهون في مسيرهم أفراداً متعصبين جهلة يعانون من انحطاط فكري وثقافي وغير متخلقين بالأخلاق الكريمة، فيرشقونهم بالتهم، ويُسيؤون الظن بهم ويحاربونهم.

فطريق معالجة هذه المعضلة لا يكون بمواجهة المشركين بالمثل، بل الطريق السليم هو التحمل والجلد وعدم الإكثارات بمثل هذه الأمور، والتجربة خير دليل على أن هذا الأسلوب هو الأسلوب الأمثل لمعالجة الجهلة، وإطفاء النائرة، والقضاء على الحسد والتعصب، وما إلى ذلك.

وفي الآية التالية دستور آخر، وهو يمثل الوظيفة الرابعة التي ينبغي على القادة والمبلغين أن يتحملوها، وهي أن لا يدعوا سبيلاً للشيطان إليهم، سواء كان متمثلاً بالمال أم الجاه أم المقام وما إلى ذلك، وأن يردعوا الشياطين أو المتشيطين ووساوسهم، لئلا ينحرفوا عن أهدافهم. فالقرآن يقول: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وفي الآية التالية بيان للانتصار على وساوس الشيطان بهذا النحو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾. أي يتذكرون ما أنعم الله عليهم، ويفكرون في سوء عاقبة الذنب وعذاب الآخرة فيتضح لهم بذلك طريق الحق.

والطائف: هو الذي يطوف ويدور حول الشيء، فكأن وساوس الشيطان تدور حول فكر الإنسان وروحه كالطائف حول الشيء ليجد منفذاً إليه.

وأساساً فإن كل إنسان في أية مرحلة من الإيمان، أو أي عمر كان، يُبتلى بوساوس الشياطين. وربما أحس أحياناً أن في داخله قوة مهيمنة تدفعه نحو الذنب وتدعوه إليه، ولا شك أن مثل هذه الحالة من الوسواس في مرحلة الشباب أكثر منها في أية مرحلة أخرى، ولا سيما إذا كانت البيئة أو المحيط كما هو في العصر الحاضر من التحلل والحرية، لا الحرية بمعناها الحقيقي، بل بما يذهب إليه الحمقى «من الإنسلاخ من كل قيد والتزام أخلاقي أو اجتماعي أو ديني» فتزداد الوسواس الشيطانية عند الشباب.

وطريق النجاة الوحيد من هذا التلوّث والتحلل في مثل هذه الظروف، هو تقوية رصيد التقوى أولاً، كما أشارت إليه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ ثم المراقبة والتوجه نحو النفس، والإلتجاء إلى الله وتذكر أظافه ونعمه وعقابه الصارم للمذنب.

وملخص القول: أننا لاحظنا في الآية السابقة كيف ينجو المتقون من نزع الشيطان ووسوسته بذكر الله، إلا أن الآثمين إخوة الشياطين يبتلون بمزيد الوسوس فلا ينسلخون عنها، كما تعبر الآية التالية عن ذلك قائلة: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمْلُؤُونَهُمْ فِي أَلْتَمَىٰ نَمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾. «الإخوان»: كناية عن الشياطين، والضمير «هم» يعود على المشركين والآثمين. وجملة ﴿نَمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ تعني أن الشياطين لا يألون جهداً في إضلال المشركين والآثمين.

ثم تذكر الآية التالية حال جماعة من المشركين والمذنبين البعيدين عن المنطق، فتقول: إنهم يكذبونك - يا رسول الله - عندما تتلو عليهم آيات القرآن، ولكن عندما لا تأتسهم بآية، أو يتأخر الوحي يتساءلون عن سبب ذلك: ﴿وَإِذَا نَمَّ تَأْتِيهِمْ بِشَايَةٍ قَالُوا لَوْلَا آجْتَبَيْتَهَا﴾^١. ولكن قل لهم إنني لا أعمل ولا أقول إلا بما يوحي الله إلي: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَلْىٰ وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَأَذْكُرَنَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لقد بدأت هذه السورة (سورة الأعراف) ببيان عظمة القرآن، وتنتهي بالآيات - محل البحث - التي تتكلم عن القرآن أيضاً. في البداية تقول الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ويستفاد من ظاهر الآية أن هذا الحكم عام غير مختص بجال ما ولا وقت معين، أي ينبغي إن قرىء القرآن - حيثما كان وكيف كان - أن يستمع الآخرون وينصتوا احتراماً للقرآن، لأن القرآن ليس كتاب قراءة فحسب، بل هو كتاب فهم وإدراك، ثم هو كتاب عمل أيضاً.

١. «الإجتباء»: مأخوذ من الجباية، وأصلها جمع الماء في الحوض ونحوه، ثم توسعوا في الاستعمال فأطلقوا على جمع الأشياء وانتخابها واختيار ما يراد منها اجتباءً. فجملة «لولا اجتبيتها» تعني لولا اخترتها.

وهذا الحكم المستحب ورد عليه التأكيد إلى درجة أن بعض الروايات عبّرت عنه بالوجوب.

والمورد الوحيد الذي يجب فيه السكوت أو يكون حكم السكوت فيه واجباً، هو في صلاة الجماعة، إذ على المأموم أن يسكت ويستمع لقراءة الإمام، حتى أن جمعاً من الفقهاء قالوا: إن هذه الآية تدل على سقوط الحمد والسورة من قبل المأموم «عند صلاة الجماعة». وفي الآية التالية إكمالاً للأمر السابق يخاطب القرآن النبي الكريم - وهذا الحكم كلي وعمام أيضاً وإن كان الخطاب موجهاً للنبي ﷺ كما هو الحال في سائر آيات القرآن الأخرى وأحكامها - إذ يقول سبحانه في كتابه: ﴿وَأَذْكُرُ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾.

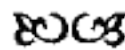
ثم يضيف قائلاً: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُلُوِّ وَالْأَصَالِ﴾^١.

﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

فذكر الله في كل حال وفي كل وقت، صباحاً ومساءً، مدعاة لايقاظ القلوب وجلائها من الدرن، وإبعاد الغفلة عن الإنسان. ومثله مثل مزنة الربيع، إذا نزلت أحييت القلوب بأزهار التوجه والإحساس بالمسؤولية والبصيرة، وكل عمل إيجابي بناء....

ثم تحتتم سورة الأعراف بهذه العبارة، وهي أنكم لستم المكلفون فقط بذكر الله بل من يذكر الله من موقع الخشية والاستكانة هم الملائكة المقربون: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾.

«نهاية تفسير سورة الأعراف»



١. «الأصل»: جمع الأصيل، ومعناه قبيل المغرب أو عند الغروب.



محتوى السورة: في بداية سورة الأنفال إشارة إلى قسم مهم من المسائل المالية من جملتها الأنفال والغنائم التي يُعدّ كل منها دعامة لبني المال كما تضمنت هذه السورة مباحث أخرى منها:

صفات المؤمنين الصادقين وما يمتازون به، قصة معركة بدر، وهي أول مواجهة مسلحة بين المسلمين وأعدائهم، وما تضمنت من أحداث عجيبة تلهم العبر. بعض أحكام الجهاد ووظائف المسلمين إزاء هجوم العدو المتواصل. ماجرى للنبي ﷺ في ليلته التاريخية «ليلة المبيت». حال المشركين قبل الإسلام وخراباتهم. ضعف المسلمين وعجزهم باديء الأمر ثم زيادة قوتهم ببركة الإسلام. حكم الخمس وكيفية تقسيمه.

مواجهة المنافقين وطريقة التعرّف عليهم. وأخيراً نجد في هذه السورة سلسلة مسائل أخرى أخلاقية واجتماعية بناءً.

فلا غرابة أن نقرأ بعض الروايات الواردة في شأن هذه السورة وفضيلتها، كالرواية الواردة - في تفسير مجمع البيان - عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ الأنفال وبراءة في كل

شهر لم يدخله نفاق أبداً، وكان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام حقاً، ويأكل يوم القيامة من موائد الجنة معهم حتى يفرغ الناس من الحساب.»

إن فضائل سور القرآن والثواب العظيم لا يتأتى بمجرد قراءة الألفاظ، بل القراءة مقدمة للتفكر، والتفكر وسيلة للفهم، والفهم مقدمة للعمل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: إن النبي صلى الله عليه وآله قال يوم بدر: من جاء بكذا، فله كذا، ومن جاء بأسير، فله كذا، فتسارع الشبان وبقي الشيوخ تحت الرايات، فلما انقضى الحرب، طلب الشبان ما كان قد نفلهم النبي صلى الله عليه وآله به، فقال الشيوخ: كنا رداء لكم، ولو وقعت عليكم الهزيمة لرجعتم إلينا، وجرى بين أبي اليسر بن عمرو الأنصاري أخي بني سلمة، وبين سعد بن معاذ، كلام فزرع الله تعالى الغنائم منهم، وجعلها لرسوله، يفعل بها ما يشاء، فقسّمها بينهم بالسوية.

التفسير

إن الآية - محل البحث - كما قرأنا في سبب النزول، نزلت بعد معركة بدر وتتكلم عن غنائم الحرب وتبين حكماً إسلامياً واسعاً بشكل عام، فتخاطب النبي صلى الله عليه وآله بالقول: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

فبناءً على ذلك: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. أي: إن الإيمان ليس بالكلام فحسب، بل هو الطاعة لله والرسول دون قيد أو شرط وفي جميع مسائل الحياة لا في غنائم الحرب وحدها.

ما هي الأنفال؟ إن مفهوم الأنفال لا يقتصر على غنائم الحرب فحسب، بل يشمل جميع الأموال التي ليس لها مالك خاص (كالآجام ويطون الأودية والموات) وهذه الأموال جميعها لله وللرسول ولمن يلي أمره ويخلفه، وبتعبير آخر: إن هذه الأموال للحكومة الإسلامية، وتصرف في منافع المسلمين العامة.

كما قرأنا في شأن التزول آنفاً، أن مشاجرة وقعت بين بعض الأنصار في شأن غنائم الحرب، وقطعاً لهذه المشاجرة فقد نفت الآية أن تكون الغنائم لغير الله والرسول ثم أمرت المسلمين بإصلاح ذات البين.

وأساساً فإن إصلاح ذات البين وإيجاد التفاهم وقلع عناصر الكدر والبغضاء من صدور المسلمين، وتبديل كل ذلك بالمحبة، يعدّ من أهم الأغراض الإسلامية.

وقد أولت التعاليم الإسلامية عناية فائقة لهذا الموضوع حتى عدّته من أفضل العبادات.

في نهج البلاغة: يقول علي عليه السلام في آخر وصاياها - لما ضربه ابن ملجم بالسيف - لولديه:

«أبني سمعت جدكما عليهما السلام يقول: صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام».

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

خمس صفات خاصة بالمؤمنين: كان الكلام في الآية السابقة عن تقوى الله وطاعته وطاعة رسوله بعد المشاجرة اللفظية بين بعض المسلمين في شأن الغنائم. وإكساباً لهذا الموضوع يشير في هذه الآيات إلى خمس صفات بارزة في المؤمنين: ثلاث منها ذات جانب معنوي وروحاني وباطني، واثنين منها لها جانب عملي وخارجي....

فالثلاث الأولى عبارة عن «الإحساس بالمسؤولية» و«الإيمان» و«التوكل»، والإثنتان الأخريان هما الإرتباط بالله، والإرتباط بخلق الله سبحانه.

فتقول الآيات أولاً: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

«الوجل»: حالة الخوف التي تنتاب الإنسان، وهو ناشئ عن أحد أمرين: فقد ينشأ عند

إدراك المسؤولية.

وقد ينشأ عند إدراك عظمة مقام الله، والتوجه إلى وجوده المطلق الذي لا نهاية له.

ثم تبين الآية الصفة الثانية للمؤمنين فتقول: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾.

والمؤمنون ليسوا كالموتى من الجمود وعدم التحرك، ففي كل يوم جديد يكون لهم فكر

جديد وتكون صفاتهم مشرقة جديدة.

والصفة الثالثة لهؤلاء المؤمنين هي أنهم يتكلمون على الله فقط ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾. فهم يعيشون سعة الاق و سلامة التفكير بحيث يرون ضعف جميع المخلوقات مهما كانت في الظاهر قوية ومقتدرة ولذلك يرفضون الخضوع والاعتماد على أي موجود غير الله تعالى، فنه يقتبسون قوتهم ومنه يطلبون حاجاتهم.

ولا ينبغي الوقوع في المفهوم الخاطي للتوكل حيث تصور البعض أن التوكل يعني عدم الأخذ بقانون العلية والابتعاد عن السعي والعمل، والصحيح أن مفهومه الحقيقي هو عدم التعلق والاعتماد بالقوى الظاهرية والآ فان الاستفادة من عالم الاسباب المسببات في الطبيعة هو عين التوكل لأن كل تثير لهذه الاسباب في الواقع الخارجي إنما يحصل باذن الله ومشيئته.

وبعد أن ذكرت الآيات الصفات الروحانية للمؤمنين الحقيقيين تقول: ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾

التعبير بـ ﴿يَتَّقُونَ﴾ ليس إشارة الى ممارستهم الدائمة للصلاة فحسب، بل إتهم يتحركون في هذا الاتجاه اتقوية دعائهم الصلاة في المجتمع وفي كل مكان. وعبارة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ تتضمن معنى واسعاً يستوعب المواهب المادية والمعنوية كافة، فهم ينفقون من جميع مازقهم الله تعالى من المال والعلم والجاه والمكانة الاجتماعية وأمثال ذلك.

وتتحرك آخر آية من الآيات مورد البحث لبيان مقام هؤلاء ومكانتهم عند الله تعالى وما ينتظرهم من الثواب العظيم، فتقول في البداية: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾. ثم تذكر الآية ثلاثة أنواع من الثواب لهؤلاء: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾. وللمؤمنين إضافة لدرجاتهم رحمة من الله ﴿وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنَ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكُرِهُوا ۗ
يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۖ

قرأنا في الآية الأولى من هذه السورة أن بعض المسلمين من جديدي العهد بالإسلام، كانوا غير راضين عن كيفية تقسيم غنائم معركة بدر (إلى حد ما). ففي الآيتين محل البحث يقول الله سبحانه لأولئك: هذه ليست أول مرة تكرهون شيئاً مع أنه فيه صلاحكم كما كان

الأمر في أساس غزوة بدر وكانوا غير راضين باديء الأمر، إلا أنهم رأوا كيف تمت هذه المعركة لصالح الإسلام والمسلمين. تقول الآية الأولى من الآيتين محل البحث: إنَّ عدم رضا بعض المسلمين في شأن تقسيم الغنائم يشبه عملية إخراجك من مكة وعدم رضى بعض المؤمنين بذلك: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾. والتعبير «بالحق» إشارة إلى أن أمر الخروج كان طبقاً لوحي إلهي ودستور سماوي، وكانت نتيجته الوصول إلى الحق واستقرار المجتمع الإسلامي، إلا أن هؤلاء الأفراد لا يرون إلا ظواهر الأمور، ولهذا: ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾.

إلا أن الحوادث التالية كشفت لهم عن خطئهم في حساباتهم، وأن خوفهم وقلقهم دوغنا أساس، وأن هذه المعركة (معركة بدر) حققت للمسلمين انتصارات مشرقة، فمع رؤية مثل هذه النتائج علام يجادلون في الحق وتمتد ألسنتهم بالإعتراض؟

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ
تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ، وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾
لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

أول مواجهة مسلحة بين الإسلام والكفر... لما كانت الآيات السابقة قد أشارت إلى معركة بدر، فإن الآيتين أعلاه وما بعدهما من الآيات قد أماطت اللثام عن جوانب مهمة وحساسة في تلك المعركة، ولايضاح الآيتين محل البحث والآيات التالية، من المناسب أن نلقي الضوء على ما جرى في هذه المعركة الحاسمة، لتتجلى لنا دقائق الأمور ولطائف ما أشارت إليه الآيات الكريمة في شأن معركة بدر الكبرى.

بدأت معركة بدر - طبقاً لما يقوله المؤرخون والمحدثون والمفسرون - حين كان أبو سفيان - كبير مكة - عائداً بقافلة تجارية مهمة مؤلفة من أربعين ركباً من قريش، وتحوي على ثروة تجارية تقدّر بنحو مئتين ألف دينار من الشام نحو المدينة.

فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يتعبأوا ويتهبأوا لمواجهة هذه القافلة الكبيرة التي تحمل جلّ رأس مال العدو معها، وبمصادرة أموال القافلة يتم توجيه ضربة اقتصادية نحو العدو وتعقبها ضربة عسكرية قاصمة.

إنَّ أبا سفيان عرف عن طريق أتباعه وأصدقائه تصميم النبي على مواجهة قافلته، هذا من جهة، كما أنَّ القافلة حينما كانت متجهة نحو الشام للإتيان بمال التجارة تعرضت لتحركات من هذا القبيل. لهذا فإنَّ أبا سفيان أرسل من يمضي إلى مكة بسرعة ليخبر أهلها بما سيؤول إليه أمر القافلة.

فمضى رسول أبي سفيان بحالة مثيرة كما أوصاه أبو سفيان، إذ خرم أنف بعيره وبتر أذنيه والدماء تسيل على وجه البعير لهيجانه، وقد شقَّ ثوبه - أو طمريه - وركب بعيره على خلاف ما يركب الناس «إذ ظهره كان إلى رقبة البعير ووجهه إلى عجزه» ليلفت الناس إليه من كل مكان. فلما دخل مكة أخذ يصرخ قائلاً: أيها الناس الأعزة، أدركوا قافلتكم، أدركوا قافلتكم وأسرعوا وتعجلوا إليها.

ولما كان أكثر أهل مكة شركاء في هذه القافلة فقد تعبثوا بسرعة وتحركوا نحو القافلة بحوالي ٩٥٠ مقاتلاً و ٧٠٠ بعير ومئة فرس، وكان أبو جهل يقود هذا الجيش.

وكان النبي ﷺ قد قارب بدرًا في نحو من ثلاثمائة وثلاث عشر رجلًا كانوا يمثلون رجال الإسلام آنئذ «وبدر منطقة ما بين مكة والمدينة» وقد بلغه خبر تهيب أبي جهل ومن معه لمواجهته.

فتشاور النبي ﷺ مع أصحابه: هل يلحقون القافلة ويصادرون أموالها، أو أن عليهم أن يتهبأوا لمواجهة جيش العدو؟ فقالت طائفة من أصحابه: نقاتل عدونا، وكرهت طائفة أخرى ذلك، إلا أن النبي بالرغم من كل ذلك قبل بالقول الأول «أي قتال العدو».

ومن جهة أخرى فإنَّ طائفة من المسلمين كانت في قلق وإضطراب وكانت تصرّ على عدم مواجهة هذا الجيش اللجب، إذ لا موازنة بين أصحاب النبي وأصحاب أبي جهل! لكن النبي ﷺ طمأنهم بوعده الله وقال: «إنَّ الله عزَّ وجل وعدي إحدى الطائفتين ولن يخلف الله وعده، والله لكأني أنظر مصرع أبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وفلان وفلان». وأمر رسول الله بالرحيل، وخرج إلى بدر وهو بئر.

وفي هذه الأثناء استطاع أبو سفيان أن يفرَّ بقافلته من الخطر المحدق به، واتَّجه نحو مكة عن طريق ساحل البحر الأحمر غير المطروق، وأرسل رسولاً إلى قريش: إنَّ الله نجَّي قافلتكم، ولا أظن أن مواجهة محمد في هذا الظرف مناسبة، لأنَّ له أعداء يكفونكم أمره، إلا أنَّ أبا جهل لم يرض باقتراح أبي سفيان وأقسم باللات والعزى أنه سيواجه محمدًا، بل سيدخل المدينة لتعقيب أصحابه.

وأقبلت قريش، وبعثوا عبيدها ليستقوا من الماء، فأخذهم أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن عبيد قريش. قالوا: فأين العير؟ قالوا: لا علم لنا بالعير. فأقبلوا يضربونهم وكان رسول الله ﷺ يصلي فأنفلت من صلاته وقال: «إن صدقوكم ضربتموهم وإن كذبوكم تركتموهم!» فأتوه بهم، فقال لهم: «من أنتم؟» قالوا: يا محمد نحن عبيد قريش. قال: «كم القوم؟!» قالوا: لا علم لنا بعددهم. قال: «كم ينحرون في كل يوم من جزور؟» قالوا: تسعة إلى عشرة. فقال رسول الله ﷺ: «القوم تسعمائة إلى ألف رجل». وأمر ﷺ بهم فحبسوا.

كان الجؤم مكفهرًا بالرعب والوحشة، إذ كان جيش قريش معبأً مدججاً بالسلاح، ولديه المؤونة والعُدَد، حتى النساء اللاتي ينشدن الأشعار والمغنيات اللاتي يثرن الحماسة، وكان جيش أبي جهل يرى نفسه أمام طائفة صغيرة أو قليلة من الناس، ولا يصدق أنهم سينزلون الميدان.

المشكلة الأخرى التي كان أصحاب النبي يواجهونها، هي أن أرض بدر كانت غير صالحة للنزال لما فيها من الرمال، فنزل المطر تلك الليلة، فأفاد منه أصحاب النبي فاغتسلوا منه وتوضأوا وأصبحت الأرض صلبة صالحة للنزال، العجيب في ذلك أن المطر كان في جهة العدو شديداً بحيث أربكهم وأزعجهم.

والخبر الجديد الذي حصل عليه أصحاب النبي من جواسيسهم الذين تحسسوا ليلاً حالة العدو أن جيش قريش مع كل تلك الإمكانيات العسكرية في حالة من الرعب بمكانة لا توصف، فكان الله أنزل عليها جيشاً من الرعب والوحشة.

وعند الصباح اصطفَّ جيش المسلمين الصغير بمعنويات عالية ليواجهوا عدوهم، ولكن النبي ﷺ - إتماماً للحجة ولئلا يبقى مجال للتذرع بالذرائع الواهية - أرسل إلى قريش ممثلاً عنه ليقول لهم: إن النبي لا يرغب في قتالكم ولا يحب أن تكونوا أول جماعة تحاربه، فوافق بعض قادة قريش على هذا الاقتراح ورغبوا في الصلح، إلا أن أبا جهل امتنع وأبى بشدة.

وأخيراً اشتعلت نار الحرب، فالتقى أبطال الإسلام بجيش الشرك والكفر، ووقف حمزة عم النبي وعلي ابن عم النبي الذي كان أصغر المقاتلين سنًا وجهها لوجه مع صناديد قريش وقتلوا من بارزهم فإنهار ما تبقى من معنويات العدو، فأصدر أبو جهل أمراً عاماً بالحملة، وكان قد أمر بقتل أصحاب النبي من أهل المدينة «الأنصار» وأن يؤسر المهاجرون من أهل

مكة. فقال النبي ﷺ لأصحابه: «غضّوا أبصاركم وغضّوا على النواجذ ولا تستلوا سيفاً حتى أذن لكم».

ثم رفع يده إلى السماء وقال: «يا ربّ إن تهلك هذه العصابة لم تعبد وإن شئت أن لا تعبد لا تعبد». ثم أصابه الغشي فسرى عنه وهو يسكب العرق عن وجهه ويقول: «هذا جبرئيل قد أتاكم في ألف من الملائكة مردفين».

فهبّت ريح عاصف على العدو، وكان المسلمون يحملون على عدوّهم والرياح تهب من خلفهم بوجه العدو، وأثبت المسلمون جدارة فائقة وصمدوا للقتال حتى قتلوا من المشركين سبعين، وأبو جهل من القتلى، وأسروا سبعين، وانهزم الجمع وولّوا الدُّبر، ولم يُقتل من المسلمين إلا نفر قليل، وكانت هذه المعركة أوّل مواجهة مسلحة بين المسلمين وعدوّهم من قريش، وإنّتهت بالنصر الساحق للمسلمين على عدوّهم.

التفسير

في الآية الأولى - من الآيتين محل البحث - إشارة إلى وعد الله بالنصر في معركة بدر إجمالاً، إذ تقول الآية: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْتِلَى الْأَطَائِفِ فِيهَا أَنَّكُمْ لَكُنْتُمْ لَخَوْفِكُمْ مِنَ الْخَسَائِرِ وَآخِطَارٍ وَبَلَايَا الْحَرْبِ لَمْ تَكُونُوا رَاغِبِينَ فِيهَا ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾.

«شوكة»: ترمز إلى القدرة وتعني الشدّة، وأصلها مأخوذ من الشوك، ثم استعملت هذه الكلمة «الشوكة» في نصول الرماح، ثم أطلق هذا الاستعمال توسعاً على كل نوع من الأسلحة. فبناء على هذا فإنّ ذات الشوكة تعني الجماعة المسلحة، وغير ذات الشوكة تعني الجماعة غير المسلحة. أي إنّ فيكم من يرغب في مواجهة العدو ومواجهة غير المسلحة، وذلك بمصادرة أموال تجارته، وذلك ابتغاء الراحة أو حبّاً منه للمنافع المادية، في حين أنّ الحرب أثبتت بعد تمامها أنّ الصلاح يكمن في تحطيم قوى العدو العسكرية، لتكون الطريق لاجبةً لا إنتصارات كبيرة في المستقبل، ولهذا فإنّ الآية تعقّب بالقول: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾^١.

١. «الدابر»: بمعنى ذيل الشيء وعقبه، فبناءً على هذا يكون معنى «ويقطع دابر الكافرين» هو استئصال جذورهم.

ولم يكن هذا درساً لمسلمي ذلك اليوم فحسب، بل ينبغي لمسلمي اليوم أن يستلهموا من ذلك التعليم السماوي، فعليهم ألا يعضوا أبصارهم عن المبادئ الأساسية بسبب المشاكل والأتعاب ويستبدلوها بمناهج غير أساسية قليلة الأتعاب.

وفي آخر آية يماط اللثام عن الأمر بصورة أجلى، إذ تقول الآية الكريمة: ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقُّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُبَدِّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَ كُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ فَذُوقُوا وَآتِ الْكُفْرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾

دروس مفيدة من ساحة المعركة: إن هذه الآيات تتحدث عن اللحظات الحساسة من واقعة بدر، والألطف الإلهية الكثيرة التي شملت المسلمين لتثير في نفوسهم الإحساس بالطاعة والشكر. وتشير ابتداء لإمداد الملائكة فتقول: ﴿وَإِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾.

في تفسير مجمع البيان: قيل: إن النبي ﷺ لما نظر إلى كثرة عدد المشركين، وقلة عدد المسلمين، استقبل القبلة وقال: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض». فما زال يهتف ربه ماداً يديه حتى سقط رداؤه من منكببيه، فأنزل الله تعالى ﴿وَإِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ الآية.

وعند ذلك ﴿فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُبَدِّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾.

«مردفين»: من «الإرداف» بمعنى اتخاذ محل خلف الشيء، فيكون مفهومها أن الملائكة كانت تتابع بعضها بعضاً في النزول لنصرة المسلمين.

ولئلا يعتقد بعض بأن النصر كان بسبب نصرة الملائكة فحسب، فإن الآية تقول: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. لأن الله عزيز ومقتدر لا يستطيع أحد الوقوف مقابل إرادته، وحكيم لا ينزل نصرته إلا للأفراد الصالحين والمستحقين لذلك.

ثم تذكر الآية النعمة الثانية التي اكتنفت المؤمنين فتقول: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾.

«يغشى»: من مادة «الغشيان» بمعنى تغطية الشيء وإحاطته. فكأن النوم كالغطاء الذي وُضع عليهم فغطّاهم.

«النعاس»: يطلق على بداية النوم، أو النوم القليل أو الخفيف الناعم.

والرحمة الثالثة التي وصلتكم هي: ﴿وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْسَ الشَّيْطَانِ﴾.

وهذا الرّجز قد يكون وساوس الشيطان، أو رجزاً بدنياً كجنابة بعضهم، أو الأمرين معاً.

ثم إن الله تعالى أراد بذلك تقوية معنويات المسلمين وكذلك تثبيت الرمال المتحركة تحت أقدامهم بواسطة المطر: ﴿وَلِيُزَيِّطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيَثِّبَ بِهِنَّ الْأَقْدَامَ﴾.

ويمكن أن يكون المراد من تثبيت الأقدام هو رفع المعنويات وزيادة الثبات والاستقامة ببركة تلك النعمة، أو إشارة إلى هذين الأمرين.

والنعمة الأخرى التي أنعمها الله على الجاهدين في بدر، هي الرعب الذي أصاب به الله قلوب أعدائهم، فزلزل معنوياتهم بشدة، فيقول تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَىٰ الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

﴿سَأَلْتَهُ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾. وإنه لمن العجب والغرابة أن ينهار جيش قريش القوي أمام جيش المسلمين القليل، وأن تذهب معنوياتهم - كما ينقل التاريخ - بصورة يخاف معها الكثير منهم من منازلة المسلمين، وحتى أنهم كانوا يفكرون بأن المسلمين ليسوا أشخاصاً مألوفين.

ثم إن القرآن يذكر المسلمين بالأمر الذي أصدره النبي ﷺ للمسلمين بأن عليهم اجتناب الضرب غير المؤثر في المشركين حال القتال لئلا تضعف قوتهم فيه، بل عليهم توجيه

ضربات مؤثرة وقاطعة ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَغْنَاقِ وَاصْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾.

«البنان»: جمع «البنانة» بمعنى رؤوس أصابع الأيدي أو الأرجل، أو الأصابع نفسها، وفي هذه الآية يمكن أن تكون كناية عن الأيدي والأرجل أو بالمعنى الأصلي نفسه.

وبعد كل تلك الأحاديث، ولكيلا يقول شخص بأن هذه الأوامر الصادقة تخالف الرحمة والشفقة وأخلاق الرجولة، فإن الآية تقول: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

«شاقوا»: من مادة «الشقاق» وهي في الأصل بمعنى الانفطار والانفصال، وبما أن المخالف أو العدو ويبتعد عن الآخرين فقد سمي عمله شقاقاً: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

ثم يؤكد هذا الموضوع ويقول: ذوقوا العذاب الدنيوي من القتل في ميدان الحرب والأسر والهزيمة السافرة، وعلاوة على ذلك انتظروا عذاب الآخرة أيضاً: ﴿ذَلِكَم فَنُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ النَّارِ﴾.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْآدْبَارَ ﴿١٥﴾
وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا أَمْتَحَرَفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ
بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ

اللَّهُ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ
بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾

هذه الآيات توجه خطابها للمؤمنين وتأميرهم أمراً عاماً بالقتال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْآدْبَارَ﴾.

فالفرار من الحرب يعدّ في الإسلام من كبائر الذنوب، ولذلك تذكر الآية بعدها جزاء من يفر من ميدان الحرب مع الإشارة لمن يستثنون منهم فتقول: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾.

وكما نرى فقد استثنت الآية صورتين من مسألة الفرار، ظاهرهما أنّها من صور الفرار، غير أنّها في الحقيقة والواقع صورتان للقتال والجهاد.

الصورة الأولى: عبّر عنها بـ ﴿مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾ و«متحرف» من مادة (التحرّف) أي

الإبتعاد جانباً من الوسط نحو الأطراف والجوانب، والمقصود بهذه الجملة هو أن المقاتلين يقومون بتكتيك قتالي إزاء الأعداء، فيفرون من أمامهم نحو الأطراف ليلحقهم الأعداء؛ ثم يغفلونهم في توجيه ضربة قوية إليهم واستخدام فن الهجوم والإنسحاب المتتابع وكما يقول العرب: (الحرب كرز وفر).

الصورة الثانية: أن يرى المقاتل نفسه وحيداً في ساحة القتال، فينسحب للإلتحاق بإخوانه المقاتلين وليهجم معهم من جديد على الأعداء.

وتختتم الآية محل البحث بالقول: إنَّ جزءاً من يفرّ مضافاً إلى استحقاقه لغضب الله فإنَّ مصيره إلى النار: ﴿وَمَا أُوْنِي جَهَنَّمَ وَيَشْسَ الْمَصِيرُ﴾.

ومن ضمن الإمتيازات الكثيرة التي كانت عند الإمام علي عليه السلام وربما يشير إلى نفسه أحياناً ليكون نبزاً للآخرين قوله: «إني لم أفر من الزحف قط، ولم يبارزني أحد إلا أسقيت الأرض من دمه»^١.

ولئلا يصاب المسلمون بالغرور في انتصارهم، ولئلا يعتمدوا على قواهم الجسمية فحسب، وليذكروا الله في قلوبهم دائماً، وليشلقوا به طلباً لألطافه، فإنَّ الآية التالية تقول: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

وتشير الآية في ختامها إلى لطيفة مهمة أخرى، وهي أن ساحة بدر كانت ساحة امتحان واختبار، إذ تقول: ﴿وَلِيُبَيِّنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾.

لهذا فإنَّ الآية تختتم بهذه الجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. أي إنَّ الله سمع صوت استغاثة النبي والمؤمنين، واطلع على صدق نياتهم، فأنزل الطافه عليهم جميعاً ونصرهم على عدوهم، وأنَّ الله يعامل عباده بهذه المعاملة حتى في المستقبل، فيطلع على ميزان صدق نياتهم وإخلاصهم واستقامتهم.

وفي الآية التالية يقول سبحانه تعميماً لهذا الموضوع وأنَّ مصير المؤمنين والكفار هو ما سمعتم، فيقول: ﴿فَلِكُمْ﴾. ثم يعقب القرآن مبيناً العلة: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُهِينٌ كَاذِبِينَ﴾.

إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

لقد جرى بحث كثير بين المفسرين حول الذين توجهت إليهم الآية بالحديث، فبعضهم يعتقد بأنهم المؤمنون، وأحسن صورة لتفسير الآية على هذا الوجه هي:

لقد حصل بين بعض المؤمنين جدال حول تقسيم الغنائم بعد واقعة بدر ونزلت آيات توخّجهم وتضع الغنائم تحت تصرف الرسول بشكل كامل فقام بتقسيمها بينهم بالتساوي، بغية تربيّتهم وتعليمهم، ثم ذكرهم بحوادث بدر وكيف نصرهم الله على عدوّهم القوي.

وهذه الآية تتابع الحديث عن الموضوع نفسه فتخاطب المسلمين وتقول لهم: إنكم إذا سألتم الله الفتح والنصر فسوف يستجيب لكم وينصركم، وإذا تركتم الاعتراض والجدال عند النبي ﷺ فبذلك مصلحتكم، وإذا عدتم لنفس الأسلوب من الاعتراض فسنعود نحن أيضاً، ونترككم وحيدين في قبضة الأعداء وحتى إذا كان عددكم كثيراً فبدون نصره الله لن تقدروا أن تعملوا أي شيء، وإن الله مع المؤمنين المخلصين والطائعين لأوامره وأوامر نبيّه.

يٰۤأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَأنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾
 وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ
 عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ
 وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون: تتابع هذه الآيات البحوث السابقة، فتدعو المسلمين إلى الطاعة التامة لأوامر الرسول الأكرم ﷺ وأسلوب الآيات فيه دلالة على تقصير بعض المؤمنين في التنفيذ والطاعة، فتبدأ بالقول: ﴿يٰۤأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

وتضيف لتؤكد الأمر من جديد: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَأنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾.

ولما كان القول بلا عمل، والإستماع بلا تأثير، أحد الأمراض التي تصاب بها المجتمعات، وأساس الكثير من التخلفات، فقد جاءت الآية الأخرى لتؤكد على هذه المسألة بأسلوب آخر، فقالت: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

ولما كان القرآن كتاب عمل فإنه ينظر إلى النتائج دائماً.

وتقول الآية بعدها إن الله لا يمتنع من دعوة هؤلاء إن كانوا صادقين في طلبهم وعلى

استعداد لتقبل الحق: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾.

وفي تفسير مجمع البيان قيل معناه: لأسمعهم قول قصي بن كلاب فإنهم قالوا: أحي لنا قصي، إن كلاب ليشهد بنوتك.

ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾.

فالذين سمعوا دعوة الحق كثيراً، وبلغت آذانهم آيات القرآن، وفهموا مضامينها العالية، لكنهم أنكروها بسبب عتوهم وعصبيتهم.

كما أن هذه الآية تعد جواباً قاطعاً للقائلين بمدرسة الجبر، لأنها تقرر بأن الخير يكن في الإنسان نفسه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلَّمُوا

أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَأَتَّقُوا

فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

﴿٢٥﴾ وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَخَطَّفَكُمُ

النَّاسُ فَتَاوَنَكُمُ وَيَدَّكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

دعوة للحياة: تتابع هذه الآيات دعوة المسلمين المتقدمة للعلم والعمل والطاعة

والتسليم لكنها تتابع الهدف ذاته عن طريق آخر، فتقول ابتداءً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

فهذه الآية تقول بصراحة: إن دعوة الإسلام هي دعوة للعيش والحياة على جميع

الأصعدة والناس في الجاهلية كانوا يعيشون الحياة الحيوانية والمادية، فجاء القرآن ليدعوهم إلى الحياة.

ثم يقول تعالى: ﴿وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

إن الله عز وجل حاضر وناظر ومهيمن على كل المخلوقات. فإن الموت والحياة والعلم

والقدرة والأمن والسكينة والتوفيق والسعادة، كلها بيديه وتحت قدرته، فلا يمكن للإنسان

كتمان أمر ما عنه، أو أن يعمل أمراً بدون توفيقه، وليس من اللائق التوجه لغيره وسؤال من

سواه. لأنه مالك كل شيء والمحيط بجميع وجود الإنسان.

ثم تشير الآية إلى عاقبة السوء لمن يرفض دعوة الله ورسوله إلى الحياة فتقول: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾.

وكلمة «فتنة»: بمعنى البلاء والمصائب الاجتماعية التي يصاب بها الجميع. ومفهوم الآية هنا هو أن أفراد المجتمع مسؤولون عن أداء وظائفهم، وكذلك فهم مسؤولون عن حث الآخرين لأداء وظائفهم أيضاً، لأن الاختلاف والتشتت في قضايا المجتمع يؤدي إلى إنهياره، ويتضرر بذلك الجميع.

وتختتم الآية بلغة التهديد فتقول: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. ويأخذ القرآن الكريم مرة أخرى بأيدي المسلمين ليعيدهم نحو تاريخهم، فكم كانوا في بداية الأمر ضعفاء وكيف صاروا، لعلمهم يدركون الدرس البليغ الذي علمهم إياه في الآيات السابقة فيقول: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾.

وهذه عبارة تشير إلى الضعف وقلة عدد المسلمين في مكة قبل الهجرة قبال المشركين الأقوياء. أو في المدينة بعد الهجرة في مقابل القوى الكبرى كالفرس والروم: ﴿فَأَوْيَكُمْ وَأَيْدِيكُمْ يُنَازِرُهُ وَيَرْزُقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ فَتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

سبب النزول

روى في تفسير مجمع البيان عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام: نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر الأنصاري، وذلك أن رسول الله ﷺ حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوا رسول الله ﷺ الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات، وأريحاء من أرض الشام، فأبى أن يعطيهم ذلك رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله وولده كانت عندهم، فبعثه رسول الله ﷺ، فأتاهم، قالوا: ما ترى يا أبا لبابة أتزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة إلى حلقه: إنه الذبيح فلا تفعلوا. فأتاه جبرائيل ﷺ فأخبره بذلك. قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانها حتى عرفت إنني قد خنت الله

ورسوله، فنزلت الآية فيه، فلما نزلت شدّ نفسه على سارية من سواري المسجد. وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ! فمكث سبعة أيام، لا يذوق طعاماً ولا شرباً حتى خرّ مغشياً عليه، ثم تاب الله عليه، فقيل له: يا أبا لبابة قد تيب عليك. فقال: لا والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني. فجاءه فحلّه بيده، ثم قال أبو لبابة: إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي. فقال ﷺ: «يجزئك الثلث أن تصدق به».

التفسير

الخيانة وأساسها: يوجه الله سبحانه في الآية الأولى من الآيتين محل البحث الخطاب إلى المؤمنين فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرُّسُولَ﴾. إن الخيانة لله ورسوله، هي وضع الأسرار العسكرية للمسلمين في تصرف أعدائهم، أو تقوية الأعداء أثناء محاربتهم.

ثم تقول الآية: ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾.

«الخيانة»: في الأصل معناها: الإمتناع عن دفع حق أحد مع التعهد به، وهي ضد «الأمانة» والأمانة وإن كانت تطلق على الأمانة المالية غالباً، لكنها في منطوق القرآن ذات مفهوم أوسع يشمل شؤون الحياة الاجتماعية والسياسية والأخلاقية كافة. ويقول القرآن في آخر الآية: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي إنه قد يصدر منكم على نحو الخطأ ما هو خيانتة، ولكن الإقدام على الخيانة مع العلم.

والآية بعدها تحذر المسلمين ليجتنبوا الماديات والمنافع العابرة، لتلا يلقي على عيونهم وآذاتهم غشاء فيرتكبون خيانة تعرض المجتمع إلى الخطر فتقول: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.

فإذا زلت لنا قدم يوماً، فيجب علينا الإسراع في تصحيح المسير كـ «أبي لبابة» وإذا كان المال هو السبب في الإنحراف، فعلينا بذله وإنفاقه في سبيل الله.

وفي نهاية الآية بشارة كبرى لمن يخرج من هذين الامتحانين منتصراً، فتقول: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

فهما كان حبّ الأبناء كبيراً، ومهما كانت الأموال محبوبة وكثيرة، فإنّ جزاء الله وثوابه أعلى وأعظم من كل ذلك.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١٩﴾

الإيمان ووضوح الرؤية: تناولت الآيات السابقة أوامر حياتية تتضمن السعادة المادية والمعنوية للإنسان، لكن العمل بها غير ممكن إلا في ظلال التقوى، لذلك بيّنت الآية أربعة ثمار ونتائج للتقوى. فقالت ابتداءً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾. إننا نرى على مدى التاريخ بعض النساء والرجال المتقين يملكون وضوحاً من الرؤية لا يمكن بلوغه بوسائل العلم والمعرفة أبدأً، فهم يرون الأسباب الخفية للكثير من الحوادث التي تعصف بالمجتمع، ويرون عناصر الشر وأعداء الحق وإن حجبتهم آلاف الستائر الخادعة. ومن جانب آخر أن إهدار القوى والطاقات في الذنوب يتسبب في بقاء الناس على مستوى داني من البصيرة والمعرفة ويعيشون التخلف الثقافي والانحطاط في التفكير حتى وإن كانوا متقدمين في الصناعة والحياة المادية.

ثم يقول: إنه إضافة إلى معرفة الحق من الباطل فإن من آثار التقوى أن يغطي على ذنوبكم ويمحو آثارها من وجودكم ﴿وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾.

مضافاً إلى ذلك، فإنه تعالى سيشملككم بمغفرته ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾. وثمار كثيرة أخرى تنتظركم لا يعلمها إلا الله: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. فهذه الآثار الأربعة هي ثمرات في شجرة التقوى، ووجود روابط طبيعية بين التقوى وقسم من هذه الآثار لا يمنع من نسبة كل ذلك إلى الله تبارك وتعالى.

والفرق بين (تكفير السيئات) و(الغفران) هو أن (تكفير السيئات) تشير للآثار النفسية والاجتماعية للذنوب والتي تزول بفعل التقوى، ولكن (الغفران) إشارة إلى مسألة العفو الإلهي والخلاص من الجزاء....

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْسِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ
اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾

سبب النزول

ذكر المفسرون والمحدثون أن الآية - محل البحث - تشير إلى الحوادث التي أدت إلى هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة.

في تفسير مجمع البيان: قال المفسرون: إنها نزلت في قصة دار الندوة وذلك أن نقرأ من قريش اجتمعوا فيها، وهي دار قصي بن كلاب، وتأمروا في أمر النبي ﷺ، فقال عروة بن هشام: نتربص به ريب المنون، وقال أبو البخترى: أخرجوه عنكم تستريحوا من أذاه، وقال أبو جهل: ما هذا برأي، ولكن أقتلوه بأن يجتمع عليه من كل بطن رجل فيضربوه بأسيا ففهم ضربة رجل واحد فيرضى حينئذ بنو هاشم بالدية، فصوب إبليس هذا الرأي، وكان قد جاءهم في صورة شيخ كبير من أهل نجد، وخطأ الأولين.

فاتفقوا على هذا الرأي وأعدوا الرجال والسلاح وجاء جبرائيل ﷺ فأخبر رسول الله ﷺ فخرج إلى الغار وأمر علياً فبات على فراشه، فلما أصبحوا وفتشوا عن الفراش، وجدوا علياً. وقد رد الله مكرهم فقالوا: أين محمد؟ فقال: لا أدري. فاقتصوا أثره وأرسلوا في طلبه، فلما بلغوا الجبل ومرّوا بالغار، رأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو كان هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه. فكث فيه ثلاثاً ثم قدم المدينة.

التفسير

هذه الآية وخمس آيات تليها، نزلت في مكة لأنها تشير إلى هجرة النبي ﷺ فتقول في بدايتها: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾.

ثم تضيف الآية قائلة: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾.

إنّ المشركين قد بذلوا كل ما في وسعهم وجهدهم من طاقات فكرية وجسدية للقضاء على نبي الخاتم ﷺ حتى أنهم أعدوا جائزة لهذا الغرض وهي مئة ناقة، ولكن الله سبحانه أذهب بأتعابهم أدرج الرياح بواسطة نسج العنكبوت!

ونظراً إلى أن هجرة النبي ﷺ تمثل مرحلة جديدة في التاريخ الإسلامي، بل التاريخ الإنساني، فإننا نستنتج أن الله قد غير مسيرة التاريخ البشري بما نسجته العنكبوت من خيوط....

وهذا الأمر لا ينحصر بهجرة النبي ﷺ بل في جميع تاريخ الأنبياء، فإن الله سبحانه أذل أعداءهم ودمرهم وأباد قوى الضلال بأسباب هيّئة كالريح - مثلاً - أو كثرة البعوض، أو الطير الصغيرة التي تُسمى بالأبابل، ليبين حالة الضعف البشري والعجز إزاء قدرته اللامتناهية وليردع الإنسان عن التفكير بالطغيان والعناد.

وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذِهِ آيَاتٍ هَذَا
 إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ آيَاتُكَ مِنْ عِنْدِكَ
 فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ
 اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ
 أَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ
 إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ
 عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَّاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

ذكر في الآية السابقة مثل من منطلق المشركين على مستوى العمل والممارسة، وفي هذه
 الآيات مثل آخر من منطلقهم الفكري، ليتضح أن هؤلاء لم يمتلكوا سلامة في الفكر ولا صحة
 في العمل، فجميع أساليبهم خاوية بغير أساس. تقول الآية الأولى من الآيات محل البحث:
 ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.
 كانوا يقولون مثل هذا الكلام عند ما يعجزون عن مواجهة القرآن ومعارضته، وكانوا
 يعرفون جيداً أنهم غير قادرين على معارضة القرآن.

والآية التالية تتحدث عن منطق عجيب آخر فتقول: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ
 الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.
 لقد كانوا يقولون ذلك لشدة تعصبهم وعنادهم، وكانوا يتصورون أن الدين الإسلامي لا
 أساس له أبداً، وإلا فإن أحداً يحتمل حقانية الإسلام كيف يمكنه أن يدعو على نفسه بمثل
 هذا الدعاء؟

وفي ما تقدم من الآيات نلاحظ أن المشركين وجهوا إلى النبي ﷺ إشكاليين:

الأول منها: واضح البطلان وهو قولهم: لو نشاء لقلنا مثل هذا.

والإشكال الثاني: لو كانت هذه الآيات نازلة من قبل الله فأنزل علينا العقاب والبلاء،

فيرد عليهم القرآن في الآية الثالثة، من الآيات محل البحث، بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
 وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾.

ثم تعقب الآية بالقول: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

إن مفهوم الآية لا يختص بمعاصري النبي ﷺ بل هو قانون عام يشمل جميع الناس. لهذا فقد روي في نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «كان في الأرض أمانان من عذاب الله، وقد رفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسكوا به». وقرأ هذه الآية.

والآية التالية تقول: إن هؤلاء جديرون بعذاب الله ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعْلَمُهُمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

وهذا التعبير في الآية يشير إلى يوم كان المسلمون في مكة، ولم يكن لهم الحق أن يقيموا صلاة الجماعة بتام الحرية والإطمئنان عند المسجد الحرام، إذ كانوا يتعرضون للإيذاء والتعذيب. أو أن هذا التعبير يشير إلى منع المشركين المسلمين وصدّهم إياهم بعد أدائهم مناسك الحج والعمرة، فلم يأذنوا لهم بالتردد إلى المسجد الحرام.

والعجيب أن هؤلاء المشركين كانوا يتصورون أن لهم حق التصرف كيفما شاءوا في المسجد الحرام، وأنهم أولياؤه. إلا أن القرآن يضيف في هذه الآية قائلاً: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾. وبالرغم من زعمهم أنهم أولياؤه ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ومع أن هذا الحكم ورد في شأن المسجد الحرام، إلا أنه يشمل جميع المراكز الدينية والمساجد فإن سدنتها ينبغي أن يكونوا من أظهر الناس وأتقاهم وأورعهم وأكثرهم إهتماماً بالمحافظة على مراكز العبادة، ليجعلوها منطلقاً للتعليم وبيت الوعى والإيقاظ.

والأعجب في هذا الشأن أن المشركين كانوا يدعون أنهم يصلون ويعبدون الله بما كانوا يقومون به من أعمال قبيحة كالصفير والتصدية عند البيت، ولهذا فقد قالت الآية التالية عنهم: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾.

ونقرأ في التاريخ أن طائفة من الأعراب في زمان الجاهلية عندما كانوا يطوفون بالبيت العتيق، كانوا يخلعون ثيابهم ويصفرون ويصفقون ويسمّون أعمالهم هذه عبادة.

تعقب الآية على ما تقدم لتقول: إن أعمالكم - بل حتى صلاتكم - مدعاة للخجل والسفاهة ولذلك ﴿فَلَوْ قُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾

سبب النزول

في تفسير علي بن إبراهيم القمي: نزلت في قريش لما وافاهم ضمضم وأخبرهم بخروج رسول الله ﷺ في طلب العير فأخرجوا أموالهم وحملوا وأنفقوا وخرجوا إلى محاربة رسول الله ﷺ بيدد فقتلوا وصاروا إلى النار وكان ما أنفقوا حسرة عليهم.

التفسير

مفهوم الآية مفهوم جامع يحمل في معناه كل ما بذله أعداء الحق والعدل من أموال لنيل مقاصدهم المشؤومة، إذ تقول في مستهلها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾. إلا أن هذا الإنفاق والبدل لن يحقق لهم نصراً ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾.

ولا يبتلون بالحسرة والهزيمة في الدنيا فحسب، بل هم كذلك في الآخرة أيضاً ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ﴾.

وبعد أن تكلمت الآية السابقة على ثلاث نتائج مشؤومة لإنفاق أعداء الإسلام، فإن الآية التي تليها تقول: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾.

هذه سنة إلهية دائمة أن يُعرف الخالص من غير الخالص، والطاهر من غير الطاهر، والمجاهد الصادق من الكاذب، والأعمال الطيبة من الأعمال الخبيثة، فلا يبقى أي من ذلك مجهولاً أبداً، بل لا بد في النهاية من أن تمتاز الصفوف بعضها عن بعض ويسفر الحق عن وجهه.

ثم تضيف الآية: ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾. فالخبيث من آية طائفة وفي أي شكل كان سيؤول في النهاية إلى الخسران، كما تقول الآية في نهاية المطاف: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ
سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ
كُلَّهُ لِلَّهِ فَإِنْ أُنتَهُوا فَإِذَا اللَّهُ بِمَا عَمَلْتُمْ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا
فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

من المعلوم في أسلوب القرآن هو الجمع بين البشارة والإنذار، أي أنه كما ينذر أعداء
الحق بالعقاب والعذاب، فإنه يفتح لهم في الوقت نفسه طريق العودة أمامهم. والآية الأولى:
من الآيات محل البحث تتبع هذا الأسلوب ذاته، فتأمر النبي ﷺ قائلة: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ
يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

ويستفاد من الآية المباركة أن قبول الإسلام يوجب محو كل سابقة.

وتضيف الآية قائلة: إنهم إن لم يصححوا أسلوبهم ﴿وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ
الْأَوَّلِينَ﴾. والمقصود من هذه السنة هو ما آل إليه أعداء الحق بعد ما واجهوا الأنبياء، وما
أصاب المشركين عندما واجهوا النبي الأكرم ﷺ في معركة بدر.

ولما كانت الآية السابقة قد دعت الأعداء للعودة إلى الحق، وإن هذه الدعوة قد تولد
هذه الفكرة لدى المسلمين وهي أنه قد انتهت فترة الجهاد ولا بد بعد الآن من اللين
والتساهل، ترفع هذه الشبهة الآية التالية وتقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ
الدِّينُ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾.

في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لم يجيء تأويل هذه الآية، ولو قام
قائماً بعد، سيرى من يدركه ما يكون من تأويل هذه الآية، وليبلغن دين محمد ﷺ ما بلغ
الليل، حتى لا يكون مشرك على ظهر الأرض، كما قال الله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي
شَيْئاً﴾».

وأخيراً فإن الآية في نهايتها، وتزامناً مع الشدة في العمل، تمد يد المحبة والرافة إلى
الأعداء مرة أخرى فتقول: ﴿فَإِنْ أُنتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا عَمَلْتُمْ بَصِيرٌ﴾. ولكن إذا تمادوا في
عنادهم وطغيانهم ولم يستسلموا للحق، فاعلموا أن النصر حليفكم والهزيمة من نصيب
أعدائكم، لأن الله مولاكم وهو خير ناصر ومعين: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ
الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ
الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

وجدنا في بداية هذه السورة كيف أن بعض المسلمين تشاجروا في شأن تقسيم الغنائم بعد غزوة بدر، وفي هذه الآية عود إلى مسألة الغنائم. يقول الحق سبحانه: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ [الأئمة من أهل البيت ﷺ] وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ - من ذرية الرسول ﷺ أيضاً. ويضيف مؤكداً: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ - أي يوم بدر - يَوْمَ التَّلَقَى الْجَمْعَانِ﴾.

وتشير الآية في نهايتها إلى قدرة الله غير المحدودة، فنقول: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. أي: بالرغم من قلتكم يوم بدر وكثرة عدوكم في الظاهر، لكن الله القادر خذلهم وأيدكم فانتصرتهم عليهم.

إن الآية محل البحث جاءت في سياق آيات الجهاد، إلا أنها تقول: «إِنَّ آيَةَ فَائِذَةٍ أَوْ رِبْحٍ تَحْصِلُونَ عَلَيْهِ - ومنه غنائم الحرب - فعليكم أن تعطوا خمسه».

ما هو المراد من سهم الله؟ إن ذكر سهم على أنه سهم الله، للتأكيد على أهمية مسألة الخمس وإثباتها، ولتأكيد ولاية الرسول والقيادة الإسلامية وحاكمية النبي ﷺ أيضاً. أي كما أن الله جعل سهماً باسمه وهو أحق بالتصرف فيه، فقد أعطى النبي والإمام حق الولاية والتصرف فيه كذلك، وإلا أن سهم الله يجعل تحت تصرف النبي أو الإمام يصرفه في المكان المناسب، وليس لله حاجة في سهم معين.

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ
 وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ
 مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ
 لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا
 لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ
 ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَيُّتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ
 لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

يعود القرآن في هذه الآيات الكريمة - ولمناسبة الكلام في الآيات السابقة عن يوم
 الفرقان يوم معركة بدر - ليعرب عن أجزاء من فصول تلك المعركة، ليطلع المسلمون على
 أهمية ذلك النصر العظيم. فتقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ
 الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾.

«العدوة»: مأخوذة من «العدو» على زنة «السرو» ومعناها في الأصل التجاوز، ولكنها
 تطلق على أطراف كل شيء، وحواشيه، لأنها تتجاوز الحد الوسط إلى إحدى الجوانب،
 وجاءت هذه الكلمة في هذه الآية بهذا المعنى أي «الطرف، والجانب».

«الدنيا»: مأخوذة من «الدنو» على وزن العلو وتعني الأقرب، ويقابل هذا اللفظ
 الأقصى والقصى.

وكان المسلمون في الجانب الشمالي من ميدان الحرب الذي هو أقرب إلى جهة المدينة،
 وكان الأعداء في الجانب الجنوبي وهو الأبعد.

ثم تعقب الآية قائلة: ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾.

وبغض النظر عن كل ذلك فإن عدد قوات المسلمين وإمكاناتهم كان أقل من قوات
 الأعداء من جميع الوجوه، لهذا فإن الآية الكريمة تقول: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خْتَلَفْتُمْ فِي
 الْمِيعَادِ﴾.

لأن الكثير منكم سيدركون ضعفهم الظاهري قبال الأعداء فيتقاعسون عن قتالهم،

ولكن الله جعلكم إزاء أمر مقدر، وكما تقول الآية: ﴿وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾. وليعرف الحق من الباطل في ظلال ذلك النصر غير المتوقع والمعجزة الباهرة و﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتَةِ وَيْحَيْنِ مَنْ حَىَّ عَن بَيْتَةِ﴾.

وتعقب الآية قائلة: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. فقد سمع نداء استغاثاتكم، وكان مطلعاً على نياتكم، ولذلك أيدكم بنصره على أعدائكم.

وكان النبي ﷺ قد رأى في منامه من قبل أن قلة من المشركين تقاتل المسلمين، وكانت هذه الرؤيا إشارة إلى النصر وبشارة به، فقد رواه ﷺ للمسلمين فازدادت العزائم في الزحف نحو معركة بدر.

والآية الثانية من الآيات محل البحث تشير إلى الحكمة من هذا الأمر، والنعمة التي أولها سبحانه وتعالى للمسلمين عن هذا الطريق، فتقول: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشَلْتُمْ﴾. وهبطت معنوياتكم، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل لأدى ذلك إلى التنازع واختلاف الكلمة ﴿وَلَتَنَارَغُتُمْ فِي الْأُمُورِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ وانقذ الأمر بواسطة الرؤيا التي أظهرت الوجه الباطني لجيش الأعداء، ولأن الله يعرف باطنكم ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

مرآة تحققتكم بغير علمهم

وتُذكر الآية الأخرى بمرحلة من مراحل معركة بدر تختلف عن سابقتها، ففي هذه المرحلة وفي ظل خطاب النبي المؤثر فيهم والبشائر الربانية، ورؤية حوادث حال التهيؤ للقتال - كنزول المطر لرفع العطش ولتكون الرمال الرخوة صالحة لساحة المعركة - تجددت بذلك المعنويات وكبر الأمل بالنصر وقويت عزائم القلوب، حتى صاروا يرون الجيش المعادي وكأنه صغير ضعيف لا حول ولا قوة له، فتقول الآية المباركة: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّفَقْتُمْ فِي أَغْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾.

أما العدو فإنه لما كان يجهل معنويات المسلمين وظروفهم، فكان ينظر إلى ظاهرهم فيراهم قليلاً جداً، بل رآهم أقل مما هم عليه، إذ تقول الآية في الصدد ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَغْيُنِهِمْ﴾.

لهذا فإن الآية تعقب على ما سبق قائلة: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾. فلم تنته هذه المعركة وحدها وفق سنة الله فحسب، بل إن إرادته نافذة في كل شيء ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا الْقَيْتَمُ فَتَنَةٌ فَأَثْبِتُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنزَعُوا أَنْفُسَكُمْ فَوَالْبَاطِلِ
أَضْبَرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ
بَطْرًا وَرِشَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾

في الآيات محل البحث ستة أوامر للمسلمين هي:

١- أنها تقول أولاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً فَأَثْبِتُوا﴾. أي إن إحدى علامات

الإيمان هي ثبات القدم في جميع الأحوال، وخاصة في مواجهة الأعداء.

٢- ﴿وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. ولا ريب أن المراد من ذكر الله هنا ليس هو

الذكر اللفظي فحسب، بل حضور القلب، فهذا التوجه إلى الله يقوي من عزيمته الجسود
المجاهدين، ويشعر الجندي بأن سندا قويا لا تستطيع أية قدرة في الوجود أن تتغلب عليه
يدعمه في ساحة القتال. وإذا قتل فسينال السعادة الكبرى ويبلغ الشهادة العظمى.

٣- كما أن من أهم أسس المبارزة والمواجهة هو الإلتفات للقيادة وإطاعة أوامر القائد
والأمر، الأمر الذي لولاه لما تحقق النصر في معركة بدر، لذلك فإن الآية بعدها تقول:
﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

٤- ﴿وَلَا تَنَارَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ لأن النزاع والفرقة امام الأعداء يؤدي إلى الضعف وخور

العزيمة، ونتيجة هذا الضعف والفتور هي ذهاب هيبة المسلمين وقوتهم وعظمتهم ﴿وَتَلْهَبَ
رِيحَكُمْ﴾.

٥- ثم تأمر الآية بالإستقامة بوجه العدو، وفي قبال الحوادث الصعبة، فتقول: ﴿وَأَصْبِرُوا

إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

والفرق بين ثبات القدم في الأمر الأول، والإستقامة والصبر في الأمر الخامس، هو من

جهة أن ثبات القدم يمثل الناحية الظاهرية «الجسمية» أما الإستقامة والصبر فليسا
ظاهريين، بل هما أمران نفسيان ومعنويان.

٦- وتدعو الآية الأخيرة من الآيات محل البحث المسلمين إلى اجتناب الأعمال الساذجة

البلهاء، ورفع الأصوات الفارغة، وتشير إلى قضية أبي سفيان وأسلوب تفكيره هو

وأصحابه، فتقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

فأهدافهم غير مقدسة، وكذلك أساليبهم في الوصول إليها، وتختتم الآية بالقول: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ مُخِيطٌ﴾.

وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفَيْتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّهُوا إِذْ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

إِنَّ أَوَّلَ آيَةٍ مِنَ الْآيَاتِ مَحَلُّ الْبَحْثِ تَكَلُّمٌ عَنِ دِفَاعِ الشَّيَاطِينِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، فَتَبْدَأُ بِالْقَوْلِ: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾.

إِنَّ تَزْيِينَ الشَّيْطَانِ لِلْعَمَلِ يَكُونُ عَنْ طَرِيقِ تَحْرِيكِ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ وَالرَّذَائِلِ، فَيَتَزَيَّنُ لِلْإِنْسَانِ عَمَلُهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَيْهِ بِأَعْيَابٍ.

ثُمَّ تَقُولُ الْآيَةَ: ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾.

وَلَنْ أَلَوْ جَهْدًا فِي الدِّفَاعِ عَنْكُمْ، كَمَا يَدْفَعُ الْجَارُ عَنِ جَارِهِ وَيُظْهِرُ لَهُ وِفَاءَهُ وَإِخْلَاصَهُ، وَالْأَزْمَكُ مَلَازِمَةُ الظِّلِّ لِلشَّائِخِصِ.

ثُمَّ تَقُولُ الْآيَةَ: ﴿فَلَمَّا تَرَآتِ الْفَيْتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾.

وَاسْتَدَلَّ عَلَى نَكْوَصِهِ وَتَرَاجَعِهِ الْقَهْتَهْرِي بِدَلِيلَيْنِ هُمَا:

أَوَّلًا قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾.

فَإِنَّهُ يَرَىٰ آثَارَ النَّصْرِ جَيِّدًا فِي وُجُوهِ الْمُسْلِمِينَ الْغَاضِبَةِ وَيَشَاهِدُ عَلَيْهَا سِمَاتَ اللَّطْفِ

الإلهي والإمداد الغيبي وتأييد الملائكة لهم.

والثاني قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾.

فإنّ الجزء الإلهي ليس أمراً يسيراً يمكنه أن يقف بوجهه، بل إنه هو العذاب الأليم ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

هل جاء الشيطان عن طريق الوسوسة أو ظهر متجسداً لهم؟ يعتقد بعض المفسرين أنّ

الشيطان تجسد لهم في صورة الإنسان، ففي رواية إنّ قريشاً عندما قررت التحرك والمسير نحو بدر، جاءهم إبليس في صورة «سراقة بن مالك» الذي كان من رؤوس بني كنانة وطمانهم بأنهم يوافقونهم على هذا الأمر، وأنهم سينتصرون، أنه نقل ما يشبه هذه القصة في هجرة النبي ﷺ وجميء رجل كبير على هيئة شيخ نجدي إلى دار الندوة.

وتشير الآية بعدها إلى روحية جماعة ممن يميلون إلى الشرك في ساحة بدر، فنقول: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ﴾. حين تصوروا أنهم سينتصرون مع قلة العدد والعدة، أو أنهم سينالون الشهادة والحياة الابدية في هذا المسار.

لكن هؤلاء لعدم إيمانهم وعدم معرفتهم بالإمداد الإلهي أنكروا تلك الحقائق البينة، لأنه كما تقول الآية المباركة: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

المراد من ﴿الْمُنَافِقُونَ﴾ و﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ هما المنافقين في المدينة إما أنهم من المنافقين الذين التحقوا بصفوف المسلمين من المدينة، أو أنهم من الذين تظاهروا بالإيمان في مكة لكنهم لم يهاجروا إلى المدينة وانضموا في معركة بدر إلى صفوف المشركين، فلما رأوا قلة المسلمين في معركة بدر قبال جيوش الكافرين قالوا: إنّ هؤلاء أصابهم الغرور في دينهم الجديد وجاءوا إلى هذه الساحة.

وتجسد الآية بعدها كيفية موت الكفار ونهاية حياتهم، فتتوجه بالخطاب إلى النبي ﷺ

فتقول: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

ثم يقال لأولئك: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَلَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ﴾.

وتضيف الآية الأخيرة معقبة بالقول: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

كَدَّابِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ
 إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى
 قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَّابِ ءَالِ فِرْعَوْنَ
 وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ
 وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾

في هذه الآيات إشارة إلى «سنة إلهية دائمة» تتعلق بالشعوب والأمم والمجتمعات، فتقول
 الآية الأولى من الآيات محل البحث: ﴿كَدَّابِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ
 فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

فبناءً على هذا فإن قريشاً والمشركين وعبدة الأصنام في مكة، الذين أنكروا آيات الله
 ووقفوا بوجه الحق وحاربوا قادة الإنسانية، ليسوا وحدهم الذين نالوا جزاء ما إقترفوه، بل
 أن ذلك قانون دائم، وسنة إلهية تشمل من هم أقوى منهم - كآل فرعون - كما تشمل
 الشعوب الضعيفة كذلك.

ثم توضح الآية التالية أصل هذا الموضوع فتقول: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً
 أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وبعبارة أخرى: إن الرحمة الربانية عامة تسع جميع الخلق، لكنها تبلغ الناس وتصل إليهم
 بما يناسب كفاءتهم وشأنهم، فإذا استفادوا من تلك النعم في السير نحو الكمال والإستمداد
 منها في سبيل الحق تعالى والشكر على نعمائه، بالإفادة منها إفادةً صحيحة، فإن الله سبحانه
 سيثبت نعماءه ويزيدها، أما إذا استغلت تلك المواهب في سبيل الطغيان والانحراف
 والعنصرية، وكفران النعمة والغرور والفساد، فإن الله سيسلبهم تلك النعم أو يبدلها إلى بلاء
 ومصيبة، بناءً على ذلك فإن التغيير يكون من قبلنا دائماً، وإلا فإن النعماء الإلهية لا تزول...
 وتعقيباً على هذا الهدف يعود القرآن ليشير إلى حال الطغاة - كفرعون وأقوام آخرين -
 فيقول: ﴿كَدَّابِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا
 ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ ظلموا أنفسهم وظلموا سواهم أيضاً.

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ
ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِذَا تَثَقَّفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ
فَشَرِدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا تَخَافتَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَتَهُ
فَأَيَّدِ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا
إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾

في هذه الآيات المباركة إشارة إلى طائفة أخرى من أعداء الإسلام الذين وجهوا ضربات مؤلمة للمسلمين في حياة النبي ﷺ المليئة بالأحداث، إلا أنهم ذاقوا جزاء ما اقترفوه مرراً وكانت عاقبة أمرهم خُسرًا، وهؤلاء هم يهود المدينة الذين عاهدوا النبي ﷺ عدة مرات. وتبدأ الآيات فتعرّف هذه الطائفة بأنها شر الأحياء الموجودة في هذه الدنيا فتقول: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وتقول الآية الأخرى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾. والمفروض أن يراعوا الحياد على الأقل فلا يكونوا بصدد الاضرار بالمسلمين وإعانة الأعداء عليهم.

مركزية كويتية

فلاهم يخافون الله تعالى، ولا يحذرون من مخالفة أوامره، ولا يراعون القواعد والأصول الإنسانية: ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾.

والآية بعدها توضح كيفية أسلوب مواجهة هؤلاء فتقول: ﴿فَإِذَا تَثَقَّفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ﴾. أي قاتلهم بشكل مدمر بحيث أن الطوائف القابضة خلفهم لإمدادهم يعتبروا بذلك ويتفرقوا عنهم.

«تثقفنهم»: مأخوذة من مادة «الثقف» على زنة «السقف» بمعنى بلوغ الشيء بدقة وسرعة، وهي إشارة إلى وجوب التنبيه والإطلاع السريع والدقيق على قراراتهم، والاستعداد لإنزال ضربة قاصمة لها وقع الصاعقة عليهم قبل أن يفاجئوك بالهجوم.

«شرد»: مأخوذة من مادة «التشريد» وهي بمعنى التفريق المقرون بالاضطراب فينبغي أن يكون الهجوم عليهم بشكل تتفرق معه المجموعات الأخرى من الأعداء وناقضي اليهود، ولا يفكروا بالهجوم عليكم.

وهذا الأمر إنما صدر ليعتبر به الأعداء الآخرون، بل حتى الأعداء في المستقبل أيضاً ويتجنبوا الحرب مع المسلمين، وليتجنب نقض العهد - كذلك - الذين لهم عهود مع المسلمين، أو الذين سيعاهدونهم مستقبلاً ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾.

﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ ولا تبدأهم بالهجوم قبل إبلاغهم بإلغاء العهد ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾.

وفي آخر آية من الآيات محل البحث يوجه تعالى الخطاب إلى ناقضي العهد، فيحذرهم من عاقبة ذلك فيقول: ﴿وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾.

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾

تشير أول آية هنا - وتواصل مع الحديث في الآيات المتقدمة عن الجهاد - إلى أصل مهم يجب على المسلمين التمسك به في كل عصر ومصر، وهو لزوم الإستعداد العسكري لمواجهة الأعداء، فتقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾. أي لا تنتظروا حتى يهجم العدو فتستعدوا عندئذ لمواجهة، بل يجب أن تكون لديكم القدرة والإستعداد اللازم لمواجهة هجمات الأعداء المحتملة.

وتضيف الآية قائلة: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾. «الرباط»: بمعنى شد الشيء، ويرد هذا الاستعمال كثيراً بمعنى ربط الحيوان في مكان ما لرعايته والحفاظة عليه.

والتعبير في الآية واسع إلى درجة أنه ينطبق على كل عصر ومصر تماماً.

وكلمة «قوة» تشمل كل أنواع القوى والقدرات التي يكون لها أثراً ما في الإنتصار على الأعداء، سواء من الناحية المادية أو الناحية المعنوية.

إنّ هذا الشعار الإسلامي الكبير: ﴿وَأَعِثُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ إذا أضحي شعاراً شاملاً في كل مكان، ينادي به الصغير والكبير، والعالم وغير العالم، والمؤلف والخطيب، والجندي والضابط، والفلاح والتاجر، والتزموا به في حياتهم وطبقوه، كان كافياً لجبران التخلف والتأخر.

إنّ سيرة النبي ﷺ العملية وأئمة الإسلام تدل على أنهم لم يدخروا وسعاً، واستغلوا كل فرصة لمواجهة العدو، كإعداد الجنود وتهيئة السلاح، وشد الأزر ورفع المعنويات، وبناء معسكرات التدريب، واختيار الزمان المناسب للهجوم، والعمل على استعمال مختلف الأساليب الحربية، ولم يتركوا أية صغيرة ولا كبيرة في ذلك.

والمعروف أنّ النبي بلغه أن سلاحاً جديداً مؤثراً صنع في اليمن أيام معركة حنين، فأرسل النبي جماعة إلى اليمن لشراؤه فوراً.

الهدف من تهيئة السلاح وزيادة التهيئة العسكرية: ثم ينتقل القرآن بعد ذلك التعليم المهم إلى الهدف المنطقي والإنساني من وراء هذا الموضوع، فيقول: إنّ الهدف منه ليس تزويد الناس في العالم أو في مجتمعكم بأنواع الأسلحة المدمرة التي تهدم المدن وتحرق الأخضر واليابس وليس الهدف منه استغلال أراضي الآخرين وممتلكاتهم، وليس الهدف هو توسعة الاستعباد والاستعمار في العالم، بل الهدف من ذلك هو ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾. لأنّ أكثر الأعداء لا يستمعون لكلمة الحق ولا يستجيبون لنداء المنطق والمبادئ الإنسانية، ولا يفهمون غير منطق القوة.

ثم تضيف الآية بأنّ المزيد من استعداداتكم العسكرية يخيف أعداء آخرين لا تعرفونهم فتقول: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

تتضمن الآية تعليماً لمسلمي اليوم أيضاً، وهو أنه لا ينبغي الإكتفاء بالإستعداد لأعداء الإسلام الذين تعرفونهم، بل عليكم أن تنتهبوا للأعداء الاحتماليين أو «بالقوة» وأن تتهيأوا حتى تكونوا في أعلى حدّ من القوّة والقدرة.

وفي نهاية الآية إشارة إلى موضوع مهم آخر، وهو أنّ الإستعداد العسكري وجمع الأسلحة والأجهزة الحربية ووسائل الدفاع المختلفة، كل ذلك يحتاج إلى الدعم المالي اللازم له، لذلك تأمر المسلمين بالتعاون الجماعي لتهيئة ذلك المال، وأن ما يبذلونه في هذا الأمر فهو عطاء في سبيل الله، ولن ينقص منه شيء أبداً ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ

﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْمُنِظِرِينَ﴾ فيرجع إليكم جميعه، بل أكثر مما أنفقتم ﴿وَأَنْتُمْ لَا تظَلَمُونَ﴾، وستنالون ثواب ذلك في هذه الدنيا في إنتصار الإسلام وقوته وعظمته.

كما أن ثواباً أعظم ينتظركم في العالم الآخر في جوار رحمة الله. إن جملة «وأنتم لا تظلمون» معطوفة على جملة «ترهبون» أي أنكم إذا ما أعددتهم القوة اللازمة لمواجهة الأعداء فسيخافون أن يهجموا عليكم، ولن يقدرُوا على ظلمكم وإيذائكم، وبناءً على ذلك فلن يصيبكم ظلم أبداً.

مع أن الآية السابقة أوضحت هدف الجهاد في الإسلام بقدر كافٍ، فإن الآية التالية التي تتحدث عن الصلح بين المسلمين توضح هذا الأمر بصورة أجلى فتقول: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْتَنِحْ لَهُا﴾.

ولما كان الناس يترددون أغلب الأحيان عندما يراد التوقيع على معاهدة الصلح، فإن الآية تأمر النبي بعدم التردد في الأمر إذا كانت الشروط عادلة ومنسجمة مع المنطق السليم والعقل، فتقول: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

ومع ذلك فهي تحذر النبي ﷺ والمسلمين من احتمال الإحتيال والخداع في دعوة الأعداء إلى الصلح، فقد تكون دعوة للتمويه والرغبة في توجيه ضربة مفاجئة، أو يكون هدفهم هو تأخير الحرب ليتمكنوا من إعداد قوات أكثر، إلا أن الآية تطمئن النبي ﷺ أن لا يخشى هذا الأمر أيضاً، لأن الله عز وجل سيكفيه أمرهم وسينصره في جميع الأحوال، إذ تقول: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾.

وسيرتك أيها النبي - السابقة - شاهدة على هذه الحقيقة، لأن الله ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

أضف إلى ذلك أن المؤمنين المخلصين قد أحاطوا بك من كل جانب ولم يدخروا وسعاً في الدفاع عنك، فقد كانوا قبل ذلك متشنتين متعادين، ولكن الله شرح صدورهم بأنوار الهداية ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

وقد كانت الحرب لسنوات طويلة قائمة على قدم وساق بين طائفتي الأوس والخزرج بشكل لم يكن أي أحد يتصور أنهم سيعيشون بعضهم مع بعض بالحب والصفاء في يوم ما، ولكن الله القادر المتعال فعل ذلك ببركة الإسلام وفي ظلال القرآن. ثم تضيف الآية أن اتحاد تلك القلوب، أو إيجاد تلك الألفة، لم يكن بوسائل مألوفة أو

مادية ﴿تَوَافَقَتْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْتَمَسَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾.

وتضيف الآية معقبة في الختام: ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

فجزته تقتضي عجز الآخرين من الوقوف في مواجهته، وحكمته تقتضي أن تكون كل أموره جارية وفق حساب دقيق ونظام صحيح، ولهذا فإن الخطة الدقيقة وحدت القلوب المتنافرة المتفرقة وجعلتها تنصاع للنبي ﷺ لينشروا أنوار الهداية في كل أرجاء العالم.

وتخاطب الآية الأخيرة من الآيات محل البحث النبي بالقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ

وَمَنْ آتَبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ

يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ

قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا إِنْ يَكُنْ

مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ

اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾

في هاتين الآيتين تتوالى التعاليم العسكرية وأحكام الجهاد أيضاً. فالآية الأولى منها

تخاطب الرسول فتقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾.

هذه الآية توضح أهمية الإعلام والتبليغ وشحذ همم المقاتلين والجنود ومعنوياتهم باعتبار ذلك تعليماً إسلامياً مهماً.

وتعقب الآية بالتعليم الثاني فتقول: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ

يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. فينبغي للمسلمين أن لا ينتظروا حتى يبلغ

عددهم مقداراً يكافيء قوة العدو وأفراده، ليتحركوا إلى ساحة القتال والجهاد، بل يجب

عليهم القيام بواجباتهم حتى إذا كان عدوهم عشرة أضعافهم.

ثم تشير الآية إلى علة هذا الحكم فتقول: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ وهذا التعليل يبدو

عجيباً لأول وهلة، إذ ما هي العلاقة بين المعرفة والفقاهة وبين النصر أو بين عدم المعرفة

والهزيمة؟! لكن الواقع هو أن العلاقة بينها قريبة ومتينة، لأن المؤمنين يعرفون نهجهم الذي

سلكوه ويدركون الهدف من خلقهم وإيجادهم.

فهذا السير الواضح المشفوع بالمعرفة يمنحهم الثبات والصبر والإستقامة.
أما الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، كعبدة الأصنام، فلا يعرفون لأيّ أمر يقاتلون؟
الأعمى ولعاداتهم الجاهلية ساروا وراء هذه الأفكار، وهكذا تبعت ظلمات الطريق وعدم
معرفتهم الهدف ونتائج أعمالهم على إنهيار أعصابهم وتفتت في عضدهم وثباتهم، وتجعل
منهم كائنات ضعيفة.

وبعد ذلك الحكم الثقيل بجهاد الأعداء وان كانوا عشرة اضعاف يخفف الله عن المؤمنين
ويتنزل في الحكم الذي يرهقهم فيقول: ﴿أَلَسَنَ حَقَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾.
ثم يقول: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ
بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

ولكن على كل حال ينبغي أن لا تنسوا تسديد الله ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَشِخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا
وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ
فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾ بِنَآئِهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ
فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾
وَإِنْ يُرِيدُوا إِخْيَانَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَّ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

بيّنت الآيات السابقة بعض أحكام الجهاد المهمة ومواجهة الأعداء، وفي هذه الآيات
استكمال لما سبق في عرض قسم من أحكام أسرى الحرب، وأول موضوع مهم يثار في هذا
الشان، هو ما قالته الآية الكريمة من أن كل نبي ليس له الحق في أسر افراد العدو الآ بعد أن
يثبت اقدمه في الارض ويكيل الضربات القاضية للأعداء: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ
أُسْرَى حَتَّى يَشِخَنَ فِي الْأَرْضِ﴾.

«يشخن»: مأخوذ من «الشخن» على زنة «المحن» ومعناه في الأصل الضخامة والغلظة
والثقل، ثم استعمل هذا اللفظ بمعنى الفوز والقوة والنصر والقدرة.
إن معنى الآية هو التفوق على العدو تماماً وإظهار القوة والقدرة وإحكام السيطرة على
المنطقة.

ثم أُلقت باللوم على أولئك الذين خالفوا هذا الأمر فتقول: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾. فلا ينبغي أن نترك المنافع الطويلة الأمد والمستقبلية رهن الخطر من أجل أن نحصل على منافع مادية عابرة.

وتُختتم الآية بالقول أن التعليم آنف الذكر - في الواقع - مزيج من العزة والنصر والحكمة والتدبير، لأنه صادر من قبل الله تعالى ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

الآية التالية توجه اللوم والتقريع ثانية لأولئك الذين يعرضون المنفعة العامة والمصلحة الاجتماعية للخطر من أجل الحصول على المنافع المادية العابرة، فتقول الآية: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

إلا أنه - كما صرحت الآيات الكريمة في القرآن - فإن سنة الله اقتضت أن تُبين أحكامه ثم يجازي الذي يخالفون عن أمره.

وفي الآية التالية إشارة إلى حكم آخر من أحكام أسرى الحرب، وهو حكم أخذ الفداء. في تفسير القمي: لما قتل رسول الله ﷺ النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، خافت الأنصار أن يقتل الأسارى، فقالوا: يا رسول الله! قتلنا سبعين وأسرونا سبعين وهم قومك وأسارك هبهم لنا يا رسول الله وخذ منهم الفداء واطلقهم، فأنزل الله عليهم ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى﴾ الآيات، فأطلق لهم أن يأخذوا الفداء ويطلقوهم.

إن الآية محل البحث أجازت للمسلمين التصرف في غنائم المعركة، والمبلغ الذي يأخذونه فداءً من الأسير، فقالت: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَّالًا طَيِّبًا﴾.

ويمكن أن تكون هذه الجملة ذات معنى واسع يشمل حتى الغنائم الأخرى غير الفداء. ثم تأمرهم الآية بالتنقوى فتقول: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾. وهذا إشارة إلى أن جواز أخذ مثل هذه الغنائم لا ينبغي أن يجعل هدف المجاهدين في المعركة هو جمع الغنائم وأن يأسروا العدو حتى يأخذوا فداءه، وإذا كان في القلوب مثل هذه النيات السيئة فعليهم أن يطهروا قلوبهم منها، ويعددهم الله بالعفو عما مضى فتقول الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

والمسألة المهمة في شأن أسرى الحرب هي موضوع إصلاحهم وتربيتهم وهدايتهم، ولهذا فإن الآية الرابعة من الآيات محل البحث تخاطب النبي أن يدعو الأسرى إلى الإيمان بالله وإصلاح أنفسهم، ويرغبهم في كل ذلك، فتقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾.

والمراد من كلمة «خيراً» في الجملة آفة الذكر ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ هو الإيمان وقبول الإسلام أما المراد من كلمة «خير» في الجملة الأخرى «يؤتكم خيراً» فهو الثواب أو الأجر المادي والمعنوي.

ثم إضافة إلى ذلك فسيشملكم لطف الله ويعفو عن سيئاتكم ﴿وَيَعْفُو لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وحيث إنَّ من الممكن أن يستغل بعض الأسرى إظهار الإسلام ليسيء إلى الإسلام ويخون النبي وينتقم من المسلمين، فإن الآية التالية تحذّر النبي والمسلمين من خيانتهم فتقول: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾.

وأى خيانة أعظم من عدم الاستجابة لنداء الفطرة والعزوف عن نداء الحق والعقل، والشرك بالله وعليهم أن لا ينسوا نصره الله لك ﴿فَأَمَّا كُنْتُمْ﴾.

وإذا أرادوا الخيانة في المستقبل فلن يفلحوا، لأن الله مطلع على نياتهم، وجميع تعاليم الإسلام في شأن الأسرى وفق حكمته ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ وَلِيَّتِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفَعَّلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقَّ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

تبحث هذه الآيات التي تُختتم بها سورة الأنفال - وتُعدّ آخر فصل من فصولها - عن طوائف المهاجرين والأنصار والطوائف الأخرى من المسلمين وبيان قيمة هؤلاء جميعاً،

فتعطي كل طائفة قيمة، وتستكمل ما تناولته الآيات السابقة في شأن الجهاد والمجاهدين. وقد تناولت هذه الآيات خمس طوائف، أربع منها من المسلمين، وواحدة من غير المسلمين، والطوائف الأربع هي:

١- المهاجرون السابقون.

٢- الأنصار في المدينة.

٣- المؤمنون الذين لم يهاجروا.

٤- الذين آمنوا من بعدُ وهاجروا.

فتقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَاوَّوْا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

إنَّ الآية وصفت الطائفة الأولى بأربع صفات هي: الإيمان، والهجرة والجهاد المالي والاقتصادي والصفة الرابعة جهادهم بأنفسهم ودمائهم وأرواحهم.

أما الأنصار فقد وصفتهم الآية بصفتين هما: الإيواء، والنصرة.

ثم تشير الآية إلى الطائفة الثالثة فتقول: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَٰلِيَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾.

ثم استثنت في الجملة التي بعدها مسؤولية واحدة فحسب، وأثبتتها في شأن هذه الطائفة، فقالت: ﴿وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ... إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾.

وحضت الآية على رعاية العهود والمواثيق والدقة في أداء هذه المسؤولية، ومنبهة إلى علم الله بكل الأمور، فقالت: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

فهو يرى جميع أعمالكم ويطلع على ما تفعلون من جهاد، أو أداء للوظيفة الملقاة على عاتقكم، أو إحساس بالمسؤولية، كما يعلم بمن لم يعتن بالأمر، وكذلك بالوهن والضعف وعدم الإحساس بالمسؤولية إزاء هذه الوظائف الكبيرة.

أما الآية الثانية فتشير إلى النقطة المقابلة للمجتمع الإسلامي، أي مجتمع الكفر وأعداء الإسلام، فتقول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾. أي إنَّ علاقاتهم منحصرة فيما بينهم، ولا يحق لكم أن تتعاهدوا معهم، أو تحاموا عنهم، أو تطلبوا منهم النصرة لأنفسكم، أو تلجؤوهم وتؤوهم إليكم، أو تأووا وتلتجئوا إليهم.

ثم تنبهت الآية المسلمين وتحذرتهم من مخالفة هذا التعليم، فتقول: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾.

إنّ المراد من «الفتنة» هو الإختلاف والتفرق وتزلزل مباني العقيدة الإسلامية على أثر وسوسة الأعداء، و«الفساد» يشمل كل إخلال وتخريب للنظم الاجتماعية المختلفة وخاصة سفك الدماء البريئة والارهاب وأمثال ذلك.

أمّا في الآية التالية فنجد تأكيداً على مقام المهاجرين والأنصار مرّة أخرى، وما لها من موقع وأثر في تحقق أهداف المجتمع الإسلامي، فتشني عليهم الآية بقولها: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آتَوْا وَقَصَرُوا أَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾. لأنهم هبوا لنصرة الإسلام في الأيام الصعبة الشديدة وفي الغربة والمحنة وقد اشترك كل فرد منهم بنوع من النصرة لله ولرسوله ﷺ ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾. فهم فائزون بنواب الله والنعمة الأخروية، كما أنّهم يتمتعون في هذه الدنيا بالعزة ورفع الرأس والكرامة.

أمّا الآية الأخيرة فتشير إلى الطائفة الرابعة من المسلمين، أي أولئك الذين آمنوا وهاجروا من بعد، فتقول: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾. أي إنّ المجتمع الإسلامي ليس مجتمعاً مغلقاً ومحصوراً على نفسه، بل أبوابه مفتوحة لجميع المؤمنين والمهاجرين والمجاهدين.

وتشير الآية في ختامها إلى ولاية الأرحام بعضهم لبعض، وأوليتها فيما جعله الله في عباده من أحكام، فتقول: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾.

إنّ الآيات السابقة تتكلم عن ولاية المؤمنين والمسلمين العامة «بعضهم إلى بعض» أمّا هذه الآية محل البحث فتؤكد هذا الموضوع في شأن الأرحام والأقارب، فهم إضافة إلى ولاية الإيمان والهجرة يتمتعون بولاية الأرحام أيضاً، ومن هنا فهم يرثون ويورثون بعضهم بعضاً، إلّا أنّه لا يرث بين غيرهم من المؤمنين الذين لا علاقة قرى بينهم.

وفي آخر جملة من هذه الآية يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

فما نزل في هذه السورة من أحكام تتعلق بالأنفال وغنائم الحرب، وتعاليم الجهاد والصلح، وأحكام الأسرى والحرب، وما يتعلق بالهجرة وغيرها، كل ذلك كان وفق حساب دقيق يتلاءم وروح المجتمع الإنساني، والعواطف البشرية، والمصالح العامة في جميع جوانبها المختلفة.

«نهاية تفسير سورة الأنفال»



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



ينبغي الالتفات إلى الأمور التالية قبل الشروع في تفسير السورة:

١- أسماء هذه السورة: ذكر المفسرون لهذه السورة أسماء عديدة تبلغ العشرة، غير أن المشهور منها هو ما يلي: سورة البراءة، وسورة التوبة، والسورة الفاضحة.

٢- متى نزلت هذه السورة؟ هذه السورة هي آخر سورة نزلت على النبي الأكرم ﷺ أو من أواخر السور النازلة عليه في المدينة.

والمعروف أن بداية نزول هذه السورة كانت في السنة التاسعة للهجرة، وقسماً منها نزل قبل معركة تبوك، وقسماً منها نزل عند الاستعداد للمعركة أو «الغزوة»، وقسماً منها نزل بعد الرجوع من المعركة والفراغ منها.

والآيات الأولى - هذه - والتي تتعلق بمن بقي من المشركين بلغها أمير المؤمنين عليه السلام في موسم الحج.

٣- محتوى السورة: يتعلق قسم من آيات هذه السورة بالبقية الباقية من عبدة الأوثان والمشركين، وقطع العلاقات معهم، وإلغاء المعاهدات التي كانت بينهم وبين المسلمين.

وقسماً مهماً منها تتحدث عن المنافقين وعاقبتهم، وتحذر المسلمين منهم. وبعض آيات هذه السورة تتحدث عن الجهاد في سبيل الله وأهميته، كما أن قسماً منه

يكمل البحوث السابقة التي تناولت انحراف أهل الكتاب «اليهود والنصارى» عن حقيقة التوحيد، وتتكلم عن انصراف علماءهم عن واجبه في التبليغ وقيادة المجتمع.

وحيث سبب انتشار الإسلام واتساع رقعة مجتمعه آنثذ ظهور حاجات مختلفة ينبغي توفيرها، فقد عرضت بقية الآيات من هذه السورة موضوع الزكاة وتحريم تراكم الثروات واكتنازها، ووجوب طلب العلم أو التعلّم وتعليم الجهلة، وتناولت بحوثاً متنوعة أخرى كقصة هجرة النبي ﷺ، والأشهر الحرم التي يحرم فيها القتال، وأخذ الجزية من الأقليات الدينية غير الإسلامية كاليهود والنصارى، وما إلى ذلك.

في تفسير مجمع البيان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما نزل عليّ القرآن إلا آية آية، وحرفاً حرفاً، خلا سورة البراءة وقل هو الله أحد، فإنهما نزلتا عليّ ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة، كل يقول يا محمد استوص بنسبة الله خيراً».

٤- لم تم تبدأ هذه السورة بالبسملة؟ يجيب استهلال السورة على السؤال آنف الذكر فقد بُدئت بالبراءة - من قبل الله - من المشركين، وإعلان الحرب عليهم، واتباع أسلوب شديد لمواجهتهم، وبيان غضب الله عليهم، وكل ذلك لا يتناسب والبسملة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الدالة على الصفاء والصدق والسلام والحب، والكاشفة عن صفة الرحمة واللفظ الإلهي.

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ
أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾

إلغاء عهود المشركين: كانت في المجتمع الإسلامي ومحيطه طوائف شتى، فطائفة منها مثلاً لم يكن لها أيّ عهد مع النبي ﷺ والنبي كذلك لم يكن له أيّ عهد معها.

وطوائف أخرى عاهدت النبي ﷺ في الحديبية - وأمثالها - على ترك الخاصمة والمنازعة، وقد نقضت بعض تلك الطوائف عهودها من جانب واحد، وبدون أي سبب يجوز النقض وذلك بمظاهرتها أعداء الإسلام، أو حاولت اغتيال رسول الله ﷺ.

الآية الأولى من الآيتين محل البحث تعلن للمشركين كافة: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

يستفاد من الروايات أن علياً عليه السلام قد أمر بإبلاغ أربع مواد إلى الناس في ذلك اليوم وهي:

١- إلغاء عهد المشركين.

٢- لا يحق للمشركين أن يحجّوا في المواسم المقبلة.

٣- منع العرابة والحفاة من الطواف الذي كان شائعاً ومألوفاً حتى ذلك الوقت.

٤- منع المشركين من دخول البيت الحرام.

ثم أمهلتهم مدّة أربعة أشهر ليفكروا فيها ويحدّدوا موقفهم من الإسلام، فإنّما أن يتركوا عبادتهم للأصنام، أو يتهبّأوا للمواجهة والقتال، فقالت: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾.

وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ، فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

نلاحظ في هاتين الآيتين البيئتين مزيد تأكيد على موضوع إلغاء المعاهدات التي كانت بين النبي ﷺ والمشركين، حتى أن تاريخ الإلغاء قد أعلن في هذه الآية إذ نقول: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾.

إنّ الله سبحانه يريد في هذا الإعلان العام في مكّة المكرمة، وفي ذلك اليوم العظيم، أن يوصل كل ذريعة يتذرّع بها المشركون والأعداء، ويقطع السنة المفسدين.

ثم يتوجه الخطاب في الآية إلى المشركين أنفسهم ترغيباً وترهيباً، لعلمهم بهتدون، إذ تقول الآية: ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾. أي إنّ الإستجابة لرسالة التوحيد فيها صلاحكم وفيها خير لكم ولجتمعكم وديناكم وآخرتكم، فلو تدبّرتهم بجد وصدق لرأيتهم أن قبول الدعوة هو البلسم الشافي لكل جراحاتكم وليس في الأمر منفعة لله أو لرسوله.

ثم إنّ الآية تُحذّر المخالفين المعاندين المتعصبين فتقول: ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾. فلا يمكنكم الخروج من دائرة قدرته المطلقة بحال.

وأخيراً فإنّ الآية أنذرت المعاندين المتعصبين قائلة: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾.

وكما أشرنا من قبل فإن إلغاء هذه العهود من جانب واحد - ورفض عهد المشركين - يختص بأولئك الذين دلت القرائن على استعدادهم لنقض عهدهم وبدت بوادره، لذلك فإن الآية استتنت قسماً منهم لوفائهم بالعهد، فقالت ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُتَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

الشدة المقررة بالرفق: تقرأ في الآيتين أعلاه بيان وظيفة المسلمين بعد انتهاء مدة إمهال المشركين «الأشهر الأربعة» وقد أصدر القرآن أوامره الصارمة في هذا الصدد فقال: ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.

ثم يقول: ﴿وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾.

وهذه الشدة متناغمة ومتوائمة مع منهج الإسلام وخطته في إزالة الوثنية وقلعها من جذورها، لأن الوثنية ليست عقيدة صحيحة، ولا ديناً كي تُلحظ بعين الإحترام.

وهذه الشدة والقوة والصرامة لا تعني سد الطريق - طريق الرجوع نحو التوبة - بوجههم، بل لهم أن يتوبوا إلى رشدهم ويعودوا إلى سبيل الحق، ولذلك فإن الآية عقبته بالقول: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾.

ف﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. يتوب على عباده المنيين إليه.

وتستكمل الآية التالية هذا الموضوع بأمر آخر، كما يتضح بجلاء أن هدف الإسلام من هذا الأمر إنما هو نشر التوحيد والحق والعدالة، وليس هو الاستثمار أو الاستعمار وإمتصاص المال، أو الإستيلاء على أراضي الآخرين، إذ تقول الآية: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ﴾. أي عليك أن تعامل من يلجأ إليك من المشركين برفق ولطف، وامنحه المجال للتفكير حتى يتبين له محتوى دعوتك في كمال الإرادة والحرية،

فإذا أشرقت أنوار الهداية في قلوبهم فسيؤمنون بدعوتك.
ثم تضيف الآية قائلة: ﴿ثُمَّ أَبْلغُهُ مَا مَنَعَهُ﴾ وأوصله إلى مكان آمن حتى لا يعترضه أحد في طريقه.

وأخيراً فإن الآية تبين علة هذا الحكم، فتقول: ﴿فَلِكِ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾.
فبناءً على ذلك لو فتحت أبواب المعرفة بوجوههم، فإنه يؤمل خروجهم من الوثنية التي هي وليدة الجهل - وإلحاقهم بركب التوحيد الذي هو وليد العلم والمعرفة.

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ
عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً
يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ أَشْرَوْا بِعَايَتِ
اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ
فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾

المعتدون الناقضون العهد: كما لاحظنا في الآيات السابقة أن الإسلام ألغى جميع
العهود التي كانت بينه وبين المشركين وعبيدة الأوثان - إلا جماعة خاصة - وأمهلهم مدة
أربعة أشهر ليقرروا موقفهم منه، والآيات محل البحث بيان لعدة إلغاء العهود من قبل
الإسلام، فتقول الآية الأولى من هذه الآيات مستفهماً استنفهاً إنكارياً: ﴿كَيْفَ يَكُونُ
لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾. أي: إنهم لا ينبغي لهم أن يتوقعوا أو ينتظروا الوفاء
بالعهد من قبل النبي ﷺ ومن جانب واحد، في وقت تصدر منهم المخالفات وعدم الوفاء
بالعهد.

ثم استثنت الآية مباشرة أولئك الذين لم ينقضوا عهدهم، بل بقوا أوفياء له، فقالت: ﴿إِلَّا
الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.
وفي الآية التالية يثار هذا الموضوع بمزيد الصراحة والتأكيد، ويستفهم منه استنفهاً
إنكارياً أيضاً، إذ تقول الآية: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

وتضيف الآية معقبة بأن هؤلاء يريدون أن يخدعوكم بألفاظهم المزوقة فقالت:
﴿يُزْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾.

وفي نهاية الآية إشارة إلى جذر هذا الموضوع وأساسه وهو فسقهم، فتقول: ﴿وَكَثُرُهُمْ
فَاسِقُونَ﴾.

وفي الآية التالية بيان لبعض علائم فسقهم وعصيانهم، إذ أعربت الآية عن ذلك على
النحو التالي ﴿أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَفَسَدُوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾.

ثم تعقب الآية بالقول: ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. فقد خسروا طريق السعادة
وضيعوها، وحرموا الهداية، وهم في الوقت ذاته أوصدوا الطريق بوجه الآخرين، وأي
عمل أسوأ من أن يحمل الإنسان وزره ووزر سواه!

أما في آخر آية من الآيات محل البحث فهي تأكيد آخر على ما ورد في الآيات المتقدمة،
إذ تقول الآية: ﴿لَا يَزُقُّونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

وهذه الخصلة فيهم لم يبتل بها المؤمنون فحسب بل يعتدون على كل من تناله أيديهم
﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾.

فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفِصِلُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي
دِينِكُمْ فَقَتَلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ
﴿١٢﴾ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ
وَهُمْ بِكُذُوبِكُمْ أُولَٰئِكَ أَنْتُمْ نَخَشُونَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ
وَيَسْفِ سُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

إن أحد أساليب الفصاحة والبلاغة أن يكرر المتحدث المطلب المهم بتعابير مختلفة
للتأكيد على أهمية، وليكون له أثر في النفوس. ولما كانت مسألة تطهير المحيط الإسلامي من

الوثنية وعبادة الأصنام وإزالة آثارها، من المسائل ذات الأهمية القصوى، فإن القرآن يكرر هذه المطالب بعبارات جديدة في الآيات محل البحث، فتقول الآية الأولى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾.

وتضيف معقبة: ﴿وَنُقَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

ولكن لو استمر المشركون في نقض العهود، فتقول الآية التالية: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾.

صحيح أنهم عاهدوكم على عدم المخاصمة والمقاتلة، إلا أن هذه المعاهدة - بنقضها مراراً، وكونها قابلة للنقض في المستقبل - لا اعتبار لها أصلاً ولا قيمة لها.

وتعقب الآية مضيئة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾.

وفي الآية الأخرى خطاب للمسلمين لإثارة همهم، وإبعاد روح الضعف والخوف والتردد عنهم في هذا الأمر الخطير، إذ تقول الآية: ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾.

فعلام تقلقون وأنتم لم تبدأوهم بالقتال وإلغاء العهد من قبلكم ﴿وَهُمْ بَدَأُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

وإذا كان بعضكم يتردد في مقاتلتهم خشية منهم، فإن هذه الخشية لا محل لها ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وفي الآية التالية وعد بالنصر الحاسم للمسلمين، إذ تقول: ﴿فَقَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾.

وليس ذلك فحسب، بل، ﴿وَيُخْزِيهِمْ﴾ ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

وبهذا يشعر المؤمنون بالراحة والطمأنينة بعد أن كانوا يقاسون الألم والعذاب تحت وطأة هؤلاء المجرمين، ويزيل الله تعالى عن قلوبهم آلام المحنة بهذا النصر ﴿وَيَشْفِ صُلُوبَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾.

أما الآية التالية فتضيف: إن في إنتصار المؤمنين وهزيمة الكافرين سروراً للمؤمنين، وإن الله يسددهم ﴿وَيُلْهِبُ عَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾.

وتحتتم الآية بالقول: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

العبارة الأخيرة تحمل البشرى بأن مثل هؤلاء سيميلون نحو الإسلام ويشملهم توفيق

الله، لما لديهم من التهيؤ الروحي والقابلية.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

في هذه الآية ترغيب للمسلمين في الجهاد عن طريق آخر، حيث تُحمّل الآية المسلمين مسؤولية ذات عبء كبير، وهي أنه لا ينبغي أن تتصوروا أن كل شيء سيكون تاماً بادعائكم الإيمان فحسب، بل يتجلى صدق النية وصدق القول والإيمان الواقعي في قتالكم الأعداء قتالاً خالصاً من أي نوع من أنواع النفاق، فتقول الآية أولاً: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً﴾.

«الوليجة»: مشتقة من «الولوج» ومعناه الدخول، وتطلق الوليجة على من يُعتمد عليه

في الأسرار ومعناها يُشبهه معنى البطانة تقريباً.

إن الجملة المتقدمة تُنبه المسلمين إلى أن الأعمال لا تكمل بإظهار الإيمان فحسب، ولا

تتجلى شخصية الأشخاص بذلك، بل يعرف الناس باختبارهم عن طريقين:

الأول: الجهاد في سبيل الله لغرض محو آثار الشرك والوثنية.

الثاني: ترك أية علاقة أو أيّ تعاون مع المنافقين والأعداء.

فالأول لدفع العدو الخارجي، والثاني يحصن المجتمع من خطر العدو الداخلي.

وتُختتم الآية بما يدلّ على الإخطار والتأكيد: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

فلا ينبغي أن يتصور أحد أن الله لا يعرف العلائق السرية بين بعض الأفراد وبين

المنافقين، بل يعرف كل شيء جيداً وهو خبير بالأعمال كلها.

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ

أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ

اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ

إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

من جملة المسائل التي يمكن أن تراود أذهان البعض بعد إلغاء عهد المشركين والحكم بجهادهم، هو: لم تُبعد هذه الجماعة العظيمة من المشركين عن المسجد الحرام لأداء مناسك الحج، مع أن مساهمتهم في هذه المراسم عمارة للمسجد من جميع الوجوه «المادية والمعنوية» إذ يستفاد من إعاناتهم المهمة لبناء المسجد الحرام، كما يكون لوجودهم أثر معنوي في زيادة الحاج والطائفين حول الكعبة المشرفة وبيت الله. فالآيتان محل البحث تردان على مثل هذه الأفكار الواهية التي لا أساس لها، وتصرح الآية الأولى منها بالقول: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ﴾.

ثم تشير الآية إلى فلسفة هذا الحكم فتقول: ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾. ولذلك فهي لا تجديهم نفعاً: ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾. فالله طاهر منزّه، وينبغي أن يكون بيته طاهراً منزهاً كذلك، فلا يصح أن تمسه الأيدي الملوثة بالشرك.

أما الآية التالية فتذكر شروط عمارة المسجد الحرام - إكمالاً للحديث آنف الذكر - فتبين خمسة شروط مهمة في هذا الصدد، فتقول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. وهذا النص إشارة إلى الشرطين الأول والثاني اللذين يمثلان الأساس العقائدي. ثم تشير الآية إلى الشرطين الثالث والرابع فتقول: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ﴾. أي: إن الإيمان بالله واليوم الآخر لا يكفي أن يكون مجرد ادعاء فحسب، بل تؤيده الأعمال الكريمة، فعلاقة الإنسان بالله ينبغي أن تكون قوية محكمة، وأن يؤدي صلاته باخلاص، كما ينبغي أن تكون علاقته بعباد الله وخلقه قوية، فيؤدي الزكاة إليهم. وتشير الآية إلى الشرط الخامس والأخير فتقول: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾. فقلبه مليء بعشق الله، ولا يحس إلا بالمسؤولية في امتثال أمره ولا يرى لأحد من عباده أثراً في مصيره ومصير مجتمعه وتقدمه، هم أقل من أن يكون لهم أثر في عمارة محل للعبادة. ثم تضيف الآية معقبة بالقول: ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾. فيبلغون أهدافهم ويسعون لعمارة المسجد.

أهمية بناء المساجد: وردت أحاديث كثيرة في أهمية بناء المساجد. ففي تفسير المنار عن رسول الله ﷺ قال: «من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة لبيضها بنى الله له بيتاً في الجنة».

إلا أن ما هو أكثر أهمية هذا اليوم هو عمارة المسجد المعنوية، فالمسجد ينبغي أن يكون مركزاً للشباب المؤمن، لا محلاً للعجزة والكسالى والمقعدين، فالمسجد مجال للنشاط الاجتماعي الفعال، لا مجال للعاطلين والبطالين والمرضى.

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني عن ابن بريدة، قال: بينا شيبه والعباس يتفاخران، إذا مرَّ بهما علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: «بماذا تتفاخران؟» فقال العباس: لقد أوتيت من الفضل ما لم يوت أحد: سقاية الحاج. وقال شيبه: أوتيت عمارة المسجد الحرام. فقال علي عليه السلام: «استحييت لكما، فقد أوتيت على صفري ما لم تؤتيا!» فقالا: وما أوتيت يا علي؟

قال: «ضربت خراطيمكما بالسيف حتى آمنتما بالله ورسوله!»

فقام العباس مغضباً يجرّ ذيله حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال: أما ترى إلى ما يستقبلني به علي؟

فقال: «أدعو لي علياً». فدعى له فقال: «ما حملك على ما استقبلت به عنك؟» فقال: «يا رسول الله! صدمته بالحق، فمن شاء فليغضب ومن شاء فليرض!»

فنزّل جبرائيل عليه السلام فقال: يا محمد، إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول: أتل عليهم: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ الآيات. فقال العباس: إنّا قد رضينا؛ ثلاث مرات.

التفسير

مقياس الفخر والفضل: مع أن الآيات - محل البحث - شأناً في نزولها، إلا أنها في الوقت

ذاته تستكمل البحث الذي تناولته الآيات المتقدمة، ونظير ذلك كثير في القرآن. فالآية الأولى من هذه الآيات تقول: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَشْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. ويحدثنا التاريخ أن منصب «سقاية الحاج» قبل الإسلام كان من أهم المناصب وكان يضاهاه منصب سدانة الكعبة.

أما الآية التالية فتوضح ما أجملته الآية السابقة وتؤكد به بالقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. وأما الآية الثالثة - من الآيات محل البحث - فتقول: إن الله أنعم على المؤمنين والمهاجرين والمجاهدين في سبيله ثلاث مواهب هي:

١- ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ﴾.

٢- ﴿وَرِضْوَانٍ﴾.

٣- ﴿وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾.

وتعقب الآية الأخيرة لمزيد التوكيد بالقول: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءِآبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا
الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾
قُلْ إِن كَانَ ءِآبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ
اقتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنََهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ فَيُؤَلِّمَهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾

كل شيء، فداء للمدفع؛ إن آخر وسوسة أو ذريعة يمكن أن يتذرع بها جماعة من المسلمين للامتناع عن جهاد المشركين (وفعلاً فقد تذرع بعضهم وفقاً لما ورد في قسم من التفاسير) بأن من بين المشركين وعبدة الأوثان أقارب لهم، فإذا كان القرار أن يجاهد الجميع المشركين فلا بد أن يغمضوا أعينهم عن أرحامهم وأقاربهم وعشيرتهم الخ. هذا كله من

جهة.

ثم ومن جهة أخرى كانت رؤوس الأموال والقدرة التجارية بيد المشركين تقريباً، ولهذا يسبب تردد المشركين إلى مكة إزدهار التجارة.

ومن جهة ثالثة كان للمسلمين في مكة بيوت عامرة نسبياً، فإذا قاتلوا المشركين فمن المحتمل أن يهدمها المشركون، أو تفقد قيمتها إذا عطل المشركون مراسم الحاج ومناسكه بمكة.

فالآيتان - محل البحث - ناظرتان إلى مثل هؤلاء الأشخاص، وتردآن عليهم ببيان صريح، فتقول الآية الأولى منها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾.

ثم تعقب - على وجه التأكيد - مضيئة: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. وأي ظلم أسوأ من أن يظلم الإنسان نفسه بتعلقه بأعداء الحق والمشركين، ويظلم مجتمعه، ويظلم نبيه أيضاً؟!

أما الآية التالية فهي تتناول هذا الموضوع بسحجٍ من التفصيل والتأكيد والتهديد والتفريع، فتخاطب النبي ﷺ ليعنف أولئك الذين لا يرغبون في جهاد المشركين لما ذكرناه آنفاً، فتقول: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرْتَفُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾.

ولما كان ترجيح مثل هذه الأمور على رضا الله والجهاد في سبيله، يعدّ نوعاً من العصيان والفسق البين، وإن من تشبث قلبه بالدنيا وزخرفها وزبرجها غير جدير بهداية الله، فإن الآية تعقب في الختام قائلة: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

ما قرأناه في الآيتين - محل البحث - ليس مفهومه قطع علائق المحبة بين الأرحام، وإهمال رؤوس الأموال الاقتصادية، والإنسياق إلى تجاوز العواطف الإنسانية وإغائها، بل المراد من ذلك أنه ينبغي أن لا تنحرف عند مفترق الطرق إلى الأموال والأزواج والأولاد والدور والمقام الدنيوي، بحيث لا نطبق في تلك الحالة حكم الله، أو لا نرغب في الجهاد، ويحول عشقنا المادي دون تحقيق الهدف المقدس.

لهذا يلزم على الإنسان إذا لم يكن على مفترق الطرق أن يرعى الجانبين «العلاقة بالله والعلاقة بالرحم».

فعلينا أن نغرس مدلول هاتين الآيتين في قلوب اطفال المسلمين وشبابهم ونجعله شعاراً لنا، ونحیی في نفوس المسلمين روح التضحية والجهاد، ليحافظوا على ثقافتهم وموروثهم المعرفي.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾

الكثرة وحدها لا تجدي نفعاً في الآيات المتقدمة رأينا أن الله سبحانه يدعو المسلمين إلى التضحية والجهاد على جميع الصعد في سبيل الله وقلع جذور الشرك وعبادة الأوثان، ويهدد بشدة من يتقاعس منهم عن الجهاد والتضحية بسبب التعلق بالأزواج والأولاد والأرحام والعشيرة والمال والثروة. أما الآيات محل البحث فتشير إلى مسألة مهمة، وهي أن على كل قائد أن يتنبه أتباعه في اللحظات الحساسة بأنه إذا كان فيهم بعض الأشخاص من ضعاف الإيمان والذين يحجبهم التعلق بالمال والولد والأزواج وما إلى ذلك عن الجهاد في سبيل الله، فلا ينبغي أن يقلق المؤمنون المخلصون من هذا الأمر، وعليهم أن يواصلوا طريقهم، لأن الله لم يتخل عنهم يوم كانوا قلة، كما هو الحال في معركة بدر، ولا يوم كانوا كثرة ملء العين (كما في معركة حنين) وقد أعجبتهم الكثرة فلم تغن عنهم شيئاً، لكن الله سبحانه أنزل جنوداً لم تروها، وعذب الذين كفروا، فالله في الحالين ينصر المؤمنين ويرسل إليهم مدده... لهذا فإن الآية الأولى من الآيات محل البحث تقول: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾.

ثم تضيف الآية معقبة: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾. وكان جيش المسلمين يوم حنين زهاء اثني عشر ألفاً، وهذا الرقم لم يسبق له مثيل في الحروب الإسلامية قبل ذلك الحين، حتى إغتر بعض المسلمين وقالوا: «لن تغلب اليوم».

إلا أنه قد فر كثير من المسلمين ذلك اليوم، لكونهم جديدي عهد بالإسلام ولم يتوغل الإيمان في قلوبهم فانكسر جيش المسلمين في البداية وكاد العدو أن يغلبهم لولا أن الله أنزل بلطفه مدده وجنوده فنجاهم.

ويصور القرآن هذه الهزيمة بقوله: ﴿وَصَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُنْزِرِينَ﴾.

وفي هذه اللحظات الحساسة حيث تفرق جيش الإسلام هنا وهناك، ولم يبق مع النبي إلا القلة، وكان النبي مضطرباً ومتألماً جداً لهذه الحالة نزل التأييد الإلهي: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾.

ويذكر القرآن النتيجة النهائية لمعركة حنين الحاسمة فيقول: ﴿وَعَلَبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَفَلَكِ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

وكان هذا العذاب والجزاء أن قُتل بعض الكافرين، وأسر بعضهم، وفرّ بعضهم إلى مناطق بعيدة عن متناول الجيش الإسلامي.

ومع هذا الحال فإن الله يفتح أبواب توبته للأسرى والفارين من الكفار الذين يرغبون في قبول مبدأ الحق «الإسلام» لهذا فإن الآية الأخيرة من الآيات محل البحث تقول: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وجملة «يتوب» التي وردت بصيغة الفعل المضارع، والتي تدل على الإستمرار، مفهومها أن أبواب التوبة والرجوع نحو الله مفتوحة دائماً بوجه التائبين.

لغزوة حنين ذات العبرة: «حنين» منطقة قريبة من الطائف، وبما أن الغزوة وقعت هناك فقد سميت باسم المنطقة ذاتها، وقد عبّر عنها في القرآن بـ«يوم حنين» ولها من الأسماء: غزوة أوطاس، وغزوة هوازن أيضاً.

أما تسميتها بأوطاس، فلأن «أوطاس» أرض قريبة من مكان الغزوة، وأما تسميتها بهوازن، فلأن إحدى القبائل التي شاركت في غزوة حنين تدعى هوازن.

إن رؤساء طائفة هوازن جاءوا إلى مالك بن عوف واجتمعوا عنده في أخريات شهر رمضان أو شوال في السنة الثامنة للهجرة، وكانوا قد جاءوا بأموالهم وأبنائهم وأزواجهم لئلا يفكر أحدهم بالفرار حال المعركة، وهكذا فقد وردوا منطقة أوطاس.

فعقد النبي ﷺ لواءه، وسلمه علياً عليه السلام.

وكان ألفا شخص قد أسلم في فتح مكة، فأضيف عددهم إلى العشرة آلاف الذين ساهموا في فتح مكة، وصاروا حوالي اثني عشر ألفاً، وتحركوا نحو حنين.

فلما صلى النبي صلاة الغداة «الصبح» بأصحابه أمر أن ينزلوا إلى حنين، ففوجئوا بهجوم هوازن عليهم من كل جانب وصوب، وأصبح المسلمون مرمى لسهامهم، ففرّت طائفة من

المقاتلين جديدي الإسلام (بمكة) من مقدمة الجيش، فكان أن ذهل المسلمون واضطربوا وفرّ الكثير منهم.

فخلى الله بين جيش المسلمين وجيش العدو، وترك الجيشين على حالهما، ولم يحم المسلمون لغرورهم - مؤقتاً - حتى ظهرت آثار الهزيمة فيهم.

إلا أن علياً حامل لواء النبي بقي يقاتل في عدة قليلة معه، فأمر النبي ﷺ عمه العباس -

وكان جهير الصوت - أن يصعد على تل قريب وينادي: يا معشر المهاجرين والأنصار، يا أصحاب سورة البقرة، يا أهل بيعة الشجرة، إلى أين تفرون؟ هذا رسول الله ﷺ.

فلما سمع المسلمون صوت العباس رجعوا وقالوا: لبيك لبيك، ولا سيما الأنصار إذ عادوا مسرعين وحملوا على العدو من كل جانب حملة شديدة، فقتل حوالي مئة شخص من هوازن، وغنم المسلمون أموالهم كما أسروا عدّة منهم.

ونقرأ في نهاية هذه الحادثة التاريخية أن ممثلي هوازن جاءوا النبي وأعلنوا إسلامهم، وأبدى لهم النبي ﷺ صفحه وحبّه.

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ
بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن
شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

لا يحق للمشركين أن يدخلوا المسجد الحرام: قلنا: إن واحداً من الأمور الأربعة التي بلّغها الإمام علي عليه السلام في موسم الحج في السنة التاسعة للهجرة، هو أنه لا يحق لأحد من المشركين دخول المسجد الحرام، أو الطواف حول البيت، فالآية محل البحث تشير إلى هذا الموضوع وحكمته، فتقول أولاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾.

ثم تعقب الآية على ذوي النظرة السطحية الذين كانوا يزعمون بأن المشركين إذا انقطعوا عن المسجد الحرام ذهبت تجارتهم وغدوا فقراء مغوزين فتقول: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾.

كما فعل ذلك سبحانه على خير وجه، فباتساع رقعة الإسلام في عصر النبي ﷺ أخذ سيل الزائر ينحدر نحو بيت الله في مكة، وما زال هذا الأمر مستمراً حتى عصرنا الحاضر حيث أصبحت مكة في أحسن الظروف فهي بين سلسلة جبال صخرية لا ماء فيها ولا

زرع، لكنها مدينة عامرة، وقد صارت بإذن الله مركزاً مهماً للبيع والشراء والتجارة. ويضيف القرآن في نهاية الآية قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. فكل ما يأمركم به الله فهو وفق حكمته، وهو عليم بما سيؤول إليه أمره من نتائج مستقبلية، وهو خير بذلك.

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا
الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾

مسؤوليتنا إزاء أهل الكتاب: كان الكلام في الآيات السابقة عن وظيفة المسلمين إزاء المشركين، أما الآية محل البحث (وما يليها من الآي) فتبين تكليف المسلمين ووظيفتهم إزاء أهل الكتاب. وفي هذه الآيات جعل الإسلام لأهل الكتاب سلسلة من الأحكام تعدّ حداً وسطاً بين المسلمين والكفار، لأنّ أهل الكتاب من حيث إتباعهم لدينهم السماوي لهم شبهة بالمسلمين، إلا أنّهم من جهة أخرى لهم شبهة بالمشركين أيضاً. ولهذا فإنّ الإسلام لا يجيز قتلهم، مع أنّه يجيز قتل المشركين الذين يقفون بوجه المسلمين، لأنّ الخطة تقضي بقلع جذور الشرك والوثنية من الكرة الأرضية، غير أنّ الإسلام يسمح بالعيش مع أهل الكتاب في صورة ما لو احترم أهل الكتاب الإسلام، ولم يتآمروا ضده، أو يكون لهم إعلام مضاد.

والعلامة الأخرى لموافقتهم على الحياة المشتركة السلمية مع المسلمين هي أن يوافقوا على دفع الجزية للمسلمين، بأن يعطوا كل عام إلى الحكومة الإسلامية مبلغاً قليلاً من المال بحدود وشروط معينة سنتناولها في البحوث المقبلة إن شاء الله.

وفي غير هذه الحال فإنّ الإسلام يصدر أمره بمقاتلتهم، ويوضح القرآن دليل شدة هذا الحكم في جمل ثلاث في الآية محل البحث، إذ تقول الآية أولاً: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

لكن كيف لا يؤمن أهل الكتاب - كاليهود والنصارى - بالله وباليوم الآخر، مع أننا نراهم في الظاهر يؤمنون بالله ويقرون بالمعاد أيضاً؟
والجواب: لأنّ إيمانهم مزيج بالخرافات والأوهام.

ثم تشير الآية إلى الصفة الثانية لأهل الكتاب، فتقول: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ﴾.

وتذكر الآية الصفة الثالثة التي كانوا يتصفون بها فتقول: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾. أي إن أديانهم منحرفة عن مسيرها الأصيل، فنسوا كثيراً من الحقائق والتزموا بكثير من الخرافات مكانها.

وبعد ذكر هذه الأوصاف الثلاثة، التي هي المسوغ لجهاد المسلمين لأهل الكتاب، تقول الآية: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾.

ثم تبين الآية الفرق بين أهل الكتاب والمشركون في مقاتلتهم، بالجملة التالية: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

«الصاغر»: مأخوذ من «الصغر» ومعناه الراضي بالذلة. والمراد من الآية أن الجزية ينبغي أن تُدفع في حال من الخضوع للإسلام والقرآن.

ما هي الجزية؟ تُعدّ الجزية ضريبة مالية «إسلامية» وهي تتعلق بالأفراد لا بالأموال ولا بالأراضي. أو بتعبير آخر: هي ضريبة مالية سنوية على الرؤوس. أن فلسفة هذه الضرائب أو حكمتها هي الدفاع عن الوطن واستقلاله وأمنه، وهي وظيفة عامة على جميع الناس، فبناء على ذلك متى ما قام جماعة فعلاً بالمحافظة على الوطن ولم يستطع الآخرون أن يجندوا أنفسهم للدفاع عن الوطن، لأنهم يكتسبون ويتجرون - مثلاً - فإن على الجماعة الثانية أن تقوم بمصارف المقاتلين فتدفع ضرائب سنوية للدولة.

فبناء على ذلك أن الجزية إعانة مالية فحسب، يقدمها أهل الكتاب إزاء ما يتحمله المسلمون من مسؤولية في الحفاظ عليهم وعلى أموالهم.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ

ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ

قَالَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ أَخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَهُمْ

أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا

إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ

الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ

عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

شرك أهل الكتاب: كان الكلام في الآيات المتقدمة بعد الحديث عن المشركين وإلغاء عهودهم وضرورة إزالة دينهم ومعتقداتهم الوثنية يشير بعد ذلك إلى أهل الكتاب. وفي الآيات محل البحث بيان لوجه الشبه بين أهل الكتاب والمشركين، ولا سيما اليهود والنصارى منهم، ليتضح أنه لو كان بعض التشدد في معاملتهم، فإنما هو لانحرافهم عن التوحيد، وميلهم إلى نوع من الشرك في العقيدة، ونوع من الشرك في العبادة. فتقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

من هو عزير؟ «عزير» في لغة العرب هو «عزرا» في لغة اليهود، فإن عزيراً - أو عزرا - له مكانة خاصة في تاريخ اليهود، حتى أن بعضهم زعم أنه واضع حجر الأساس لأمة اليهود وباني مجدهم، وفي الواقع فإنه خدمة كبرى لدينهم، لأن بخت نصر ملك بابل دمر اليهود تدميراً في واقعة المشهورة، وجعل مدنتهم، تحت سيطرة جنوده فأبادوها، وهدموا معابدهم، وأحرقوا توراتهم، وقتلوا رجالهم، وسبوا نساءهم، وأسروا أطفالهم، وجيء بهم إلى بابل فكثوا هناك حوالي قرن.

ولما فتح كورش ملك فارس بابل جاءه عزرا، وكان من أكابر اليهود، فاستشفعه في اليهود فشفعه فيهم، فرجعوا إلى ديارهم وكتب لهم التوراة - مما بقي في ذهنه من أسلافه اليهود وما كانوا قد حدثوا به - من جديد. ولذلك فهم يحترمونه أيما احترام، ويعدونه منقذهم ومحيي شريعتهم. وكان هذا الأمر سبباً أن تلقبه جماعة منهم بـ «ابن الله».

وفي الآية التالية إشارة إلى شركهم العملي في قبال الشرك الإعتقادي، أو بعبارة أخرى إشارة إلى شركهم في العبادة، إذ تقول الآية: ﴿أَتَعْبُدُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾. «الأحبار» جمع حبر، ومعناه العالم، و«الرهبان» جمع راهب وتطلق على من ترك دنياه وسكن الدير وأكب على العبادة.

ومما لا شك فيه أن اليهود والنصارى لم يسجدوا لأحبارهم ورهبانهم، لكن لما كانوا منقادين لهم بالطاعة دون قيد أو شرط، بحيث كانوا يعتقدون بوجوب تنفيذ حتى الأحكام المخالفة لحكم الله من قبلهم، فالقرآن عبر عن هذا التقليد الأعمى باتخاذ رب.

وفي ختام الآية تأكيد على هذه المسألة، وهي أن جميع هذه العبادات للبشر بدعة، وهي من العبادات الموضوعة: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

إن القرآن المجيد يعلم أتباعه في الآية محل البحث درساً قيماً جداً، ويبين واحداً من أبرز مفاهيم التوحيد فيها، إذ يقول: لا يحق لأي مسلم طاعة إنسان آخر دون قيد أو شرط، لأن هذا الأمر مساو لعبادته، وجميع الطاعات يجب أن تكون في إطار طاعة الله، وإنما يصح إتباع الإنسان نظيره متى كانت قوانينه غير مخالفة لقوانين الله، أيًا كان ذلك الإنسان وفي أية مكانة أو منزلة.

وفي الآية الثالثة من الآيات محل البحث تشبيه طريف لسعي اليهود والنصارى، أو سعي جميع مخالفين الإسلام حتى المشركين، وجدّهم واجتهادهم المستمر «العقيم» الذي لا يعود عليهم بالنفع أبداً، إذ تقول الآية: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْمُرُ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَمُنُّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

ولا تعبير أبلغ من تعبير القرآن لتجسيد هذه المحاولات اليائسة، وفي الواقع فإن محاولات مخلوق ضعيف إزاء قدرة الله التي لا نهاية لها، لا تكون أحسن حالاً مما ذكرته الآية.

الآية الأخيرة من الآيات محل البحث في نهاية المطاف تزف البشري للمسلمين باستيعاب الإسلام العالم بأسره، وتكمل ما أشارت إليه - آنفاً - أن أعداء الإسلام لن يفلحوا في محاولاتهم ومناوآتهم بوجه الإسلام أبداً، وتقول بصراحة: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

والمقصود من «الهدى» هو الدلائل الواضحة، والبراهين اللاتحة الجليلة التي وُجدت في الدين الإسلامي.

وأما المراد من «دين الحق» فهو هذا الدين الذي أصوله حقة وفروعه حقة أيضاً، وكل ما فيه من تاريخ وبراهين ونتائج حق، ولا شك أن الدين الذي محتواه حق، ودلائله وبراهينه حقة، وتاريخه حق جلي، لا بد أن يظهر على جميع الأديان.

وبمرور الزمان وتقدم العلم وسهولة الارتباطات، فإن الواقع سيكشف وجهه ويطلعه من وراء سُدُل الإعلام المضللة، وستزول كل العقبات والموانع والسدود التي وضعت في طريق انتشار الإسلام.

وهكذا فإن دين الحق سيستوعب كل مكان، ولا يحول بينه وبين تقدمه شيء أبداً، لأن الحركات المضادة للإسلام حركات مخالفة لسير التاريخ وسنن الخلق.

القرآن وعلوم المهدي: إن الآية محل البحث عينها وبالالفاظ ذاتها، وردت في سورة الصف، الآية (٩) كما وردت في الآية (٢٨) من سورة الفتح باختلاف يسير؛ والآية تخبر عن حدث مهم كبير استدعت أهميته هذه أن تتكرر الآية في القرآن، وهذا الحدث الذي أخبرت عنه الآية هو استيعاب الإسلام للعالم بأسره.

فمفهوم الآية إنتصار الإسلام كلياً - ومن جميع الجهات - على جميع الأديان، ومعنى هذا الكلام أن الإسلام سيهيمن على الكرة الأرضية عامة، وسينتصر على جميع العالم. ينقل الشيخ الصدوق عليه السلام في كتابه إكمال الدين عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية أنه قال: «والله ما نزل تأويلها بعد، ولا ينزل تأويلها حتى يخرج القائم، فإذا خرج القائم لم يبق كافر بالله العظيم».

كما في تفسير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «إن ذلك يكون عند خروج المهدي من آل محمد، فلا يبقى أحد إلا أقر بمحمد».

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

كنز الأموال: كان الكلام في الآيات المتقدمة عن أعمال اليهود والنصارى المشوبة بالشرك، إذ كانوا يعبدون الأحرار والرهبان من دون الله. الآية الأولى محل البحث تقول: إن أولئك مضافاً إلى كونهم غير جديرين بالألوهية فهم غير جديرين بقيادة الناس أيضاً، وخير دليل على ذلك أعمالهم المتناقضة المضطربة. فالآية هنا تلتفت نحو المسلمين فتخاطبهم بالقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

لكن كيف يأكلون أموال الناس دون مسوغ أو مجوز، فقد أشرنا سابقاً إلى ذلك في آيات أخرى كما ورد في التاريخ شيء منه أيضاً، وذلك:

أولاً: إنهم كتموا حقائق التعاليم التي جاء بها موسى ﷺ في توراته وعيسى ﷺ في إنجيله، لئلا يبيل الناس إلى الدين الجديد، «الدين الإسلامي» فتتقطع هداياهم وتغدو منافعهم في خطر، كما أشارت إلى ذلك الآيات (٤١) و(٧٩) و(١٧٤) من سورة البقرة.

والثاني: إنهم بأخذهم «الرشوة» كانوا يقبلون الحق باطلاً والباطل حقاً، وكانوا يحكمون لصالح الأقوياء، كما أشارت إلى ذلك الآية (٤١) من سورة المائدة.

ومن أساليبهم غير المشروعة في أخذ المال هو ما يسمى بـ «صكوك الغفران وبيع الجنة» فكانوا يتسلمون أموالاً باهظة من الناس.

وأما صدّهم عن سبيل الله فهو واضح، لأنهم كانوا يحرفون آيات الله، أو أنهم كانوا يكتمونها رعاية لمنافعهم الخاصة.

وتعقيباً على موضوع حب اليهود والنصارى لدينهم وأكل المال بالباطل، فإن القرآن يتحدث عن قانون كلي في شأن أصحاب المال وذوي الثراء، الذين يكنزون أموالهم، فيقول: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ أَلْهَبَ وَأَنْفُسَهُمْ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

فالآية محل البحث تحرم الكنز وجمع المال، والثروة، وتأمّر المسلمين أن ينفقوا أموالهم في سبيل الله وما فيه نفع عباد الله، وأن يتجنبوا كثرتها ودفنها وإيعادها عن تحرك السوق، وإلا فلينتظروا «العذاب الأليم».

وهذا العذاب الأليم ليس جزاءهم في يوم القيامة فحسب، بل يشملهم في الدنيا - لإرباكهم الحالة الاقتصادية ولإيجاد الطبقة بين الناس «الفقير والغني» أيضاً.

متى يعدّ جمع الثروة كنزاً؟ وفق كثير من الروايات أنه يجب على الإنسان دفع زكاته سنوياً لا غير، فإذا دفع الإنسان زكاة سنته فلا يكون مشمولاً بحكم الكنز وإن جمع المال؟

في تفسير المنار عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ أَلْهَبَ وَأَنْفُسَهُمْ﴾ كبر ذلك على المسلمين وقالوا: ما يستطيع أحد منا لولده ما لا يبقى بعده، ثم سألوا النبي ﷺ فقال: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فرض الموارث من أموال تبقى بعدكم».

إلا أننا نقرأ روايات أخرى في المصادر الإسلامية لا تنسجم ظاهراً - ولأوّل وهلة - والتفسير الآنف الذكر، ومنها ما ورد - في تفسير مجمع البيان - عن الإمام علي ﷺ أنه قال: «ما زاد على أربعة آلاف^١ فهو كنز أدّى زكاته أو لم يؤدّه، وما دونها فهو نفقة».

١. المقصود بها أربعة آلاف درهم لأنها مخارج السنة.

ويمكن الإستنتاج من مجموع الأحاديث - آفة الذكر - منضمة إليها الآية محل البحث، أنه في الظروف الاعتيادية المألوفة، حيث يرى الناس آمنين، أو غير محقق بهم الخطر، والمجتمع في حال مستقر، فيكفي عندئذ دفع الزكاة وما تبقى لا يعد كنزاً.

وأما في الحالات غير الطبيعية وغير الاعتيادية، وعندما يقتضي حفظ مصالح المجتمع الإسلامي ذلك، فإن الحكومة الإسلامية، تحدّد لجمع المال مقداراً، كما مرّ في حديث الإمام علي عليه السلام أو تطالب الناس بالكنوز وما جمعه من المال كلياً.

جزء من يكتفوا في الآية التالية إشارة إلى واحد مما يحيق بمنثل هؤلاء ممن يكتز المال، في العالم الآخر، إذ تقول الآية: ﴿يَوْمَ يُخَمَّنُ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكَوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾.

ويخاطبهم ملائكة العذاب وهم في هذه الحال: ﴿هَلَّا مَا كُنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾.

وهذه الآية تؤكد مرّة أخرى هذه الحقيقة، وهي أن أعمال الإنسان لا تمضي سدى، بل تبقى وتتجسّد له يوم القيامة، وتكون مدعاة سروره أو مدعاة شقائه.

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا

أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْطِقُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سَوْءٌ أَعْمَلِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

وقف القتال الإجباري، لما كانت هذه السورة تتناول أبحاثاً مفصلة حول قتال المشركين، فالآيتان محل البحث تشيران إلى أحد مقررات الحرب والجهاد في الإسلام، وهو إحترام الأشهر الحرم. فتقول الآية الأولى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

والتعبير بـ «كتاب الله» إشارة إلى كتاب الخلق وعالم الوجود.
فند ذلك اليوم الذي استقرت عليه المجموعة الشمسية بنظامها الخاص حدثت السنين والأشهر، فالسنة عبارة عن دوران الأرض حول الشمس دورة كاملة والشهر دوران القمر حول الأرض دورة كاملة.

ثم تضيف الآية - آفة الذكر - معقبة: ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ﴾.

ثم تضيف الآية مؤكدة: ﴿ ذَلِكَ الَّذِينَ أَقْبِمُ ﴾.

ويستفاد من بعض الروايات أن تحريم القتال في هذه الأشهر الحرم، كان مشرعاً في الديانة اليهودية والمسيحية وسائر الشرائع السماوية، إضافة إلى شريعة إبراهيم الخليل عليه السلام.

ثم تقول الآية: ﴿ فَلَا تَقْلِبُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾.

إلا أنه لما كان تحريم هذه الأشهر قد يتخذ ذريعة من قبل العدو لمهاجمة المسلمين فيها، فقد عقبته الآية بالقول: ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾. فبالرغم من أن هؤلاء مشركين، والشرك أساس التشنت والنفرة، إلا أنهم يقاتلونكم في صف واحد «كافة» فينبغي عليكم أن تقاتلوهم كافة، فذلك منكم أجدر لأنكم موحدون فلا بد من توحيد كلمتكم أمام عدوكم ولتكونوا كالبنين المرصوص.

وتختتم الآية بالقول: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾.

وفي الآية الثانية - من الآيتين محل البحث - إشارة إلى إحدى السنن الخاطئة في الجاهلية، وهي سنة النسيء «تغيير الأشهر الحرم» إذ تقول الآية: ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهَا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾. ففي أحد الاعوام يقررون حلية الشهر الحرام ويحرمون أحد الأشهر الحلال للمحافظة على العدد أربعة ﴿ يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عَهْدَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾. فهؤلاء يضيعون بتصرفهم هذا فلسفة تحريم الأشهر، ويتلاعبون بحكم الله بحسب ما تولى عليهم أهوائهم، والعجيب أنهم يرضون عن عملهم، وفعلمهم هذا كما تقول الآية: ﴿ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ﴾. فهم يغيرون الأشهر الحرم ويبدلونها، ويعدون ذلك تدبيراً لحياتهم ومعاشهم، أو يتصورون أن طول فترة إيقاف القتال يقلل من حماس المقاتلين فلا بد من إثارة الحرب.

فالله سبحانه إذا علم أن في عباده من ليس أهلاً للهداية والتوفيق، خلاه ونفسه: ﴿ وَاللَّهُ

لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقَلْتُمْ
إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٢٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَ
يَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قالوا لما رجع رسول الله ﷺ من (الطائف)، أمر بالجهاد لغزوة الروم، وذلك في زمان إدراك الثمار، فأحبوا المقام في المسكن والمال، وشق عليهم الخروج إلى القتال، وكان ﷺ قلما خرج في غزوة إلا كنى عنها وورى بغيرها إلا (غزوة تبوك)، لبعدها شقتها، وكثرة العدو، ليتأهب الناس، فأخبرهم بالذي يريد، فلما علم الله سبحانه تشاقل الناس، أنزل الآية.



كما أشرنا آنفاً في شأن نزول الآيتين، فإنهما نزلتا في غزوة «تبوك»
وتبوك منطقة بين المدينة والشام، وتعد الآن من حدود الحجاز، وكانت آنذ على مقربة
من أرض الروم الشرقية المتسلطة على الشامات^١.

وقد حدثت هذه الواقعة في السنة التاسعة للهجرة، أي بعد سنة من فتح مكة تقريباً.
ففي الآية الأولى - من الآيتين محل البحث - يدعو القرآن المسلمين إلى الجهاد بلسان
الترغيب تارة وبالعتاب تارة أخرى وبالتهديد تارة فهو يدعوهم ويهيوهم إلى الجهاد،
ويدخل إليهم من كل باب. إذ تقول الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾.

ثم تقول الآية مخاطبة إياهم بلهجة الملامة: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

فكيف يتسنى للإنسان العاقل أن يساوم مساومة الخسران، وكيف يعوّض متاعاً غالياً

١. الفاصلة بين تبوك والمدينة ٦١٠ كم والفاصلة بينها وبين الشام ٦٩٢ كم.

لا يزول بمتاع زائل لا يعد شيئاً؟!

ثم تتجاوز الآية مرحلة الملامة والعتاب إلى لهجة أشدّ وأسلوب تهديدي جديد، فتقول:

﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

فإذا كنتم تتصورون أنكم إذا توليتم وأعرضتم عن الذهاب إلى سوح الجهاد، فإنّ عجلة الإسلام ستتوقف وينطفئ نور الإسلام، فأنتم في غاية الخطأ والله غني عنكم ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ قوماً أفضل منكم من كل جهة، لا من حيث الشخصية فحسب، بل من حيث الايمان والإرادة والشهامة والاستجابة والطاعة ﴿وَلَا تَصْرُوهُ شَيْئًا﴾.

وهذه حقيقة وليست ضرباً من الخيال أو أمنية بعيدة المدى، فالله عزيز حكيم: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

إِلَّا لَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُكْرِيْنَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كُلَّ كَلِمَةٍ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

العدد الإلهي للرسول في أشد اللحقات: كان الكلام في الآيات المتقدمة عن موضوع الجهاد ومواجهة العدو، وكما أشرنا فقد جاء الكلام عن الجهاد مؤكداً بعدة طرق، من ضمنها أنه لا ينبغي أن تتصوروا أنكم إذا تقاعستم من الجهاد ونصرة النبي ﷺ فستذهب دعوته والإسلام أدراج الرياح. فالآية محل البحث تعقب على ما سبق لتقول: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾.

وكان ذلك عندما تأمر مشركو مكة على اغتيال النبي ﷺ وقتله، وقد مرّ بيان ذلك في ذيل الآية (٣٠) من سورة الأنفال بالتفصيل.

ولكن النبي ﷺ اطلع - بأمر الله - على هذه المكيدة، فتهيأ للخروج من (مكة) والهجرة إلى (المدينة).

وقد سعى الأعداء سعياً حثيثاً للعثور على النبي، إلا أنهم عادوا آيسين، وبعد بضعة أيام وصل ﷺ المدينة سالماً، وبدأت مرحلة جديدة من تأريخ الإسلام هناك.

فالأية آفة الذكر تشير إلى أشد اللحظات حرجاً في هذا السفر التاريخي، فتقول: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وبالطبع فإنهم لم يريدوا إخراجه بل أرادوا قتله، لكن لما كانت نتيجة المؤامرة خروج النبي ﷺ من مكة فراراً منهم، فقد نسبت الآية إخراجه إليهم. ثم تقول: كان ذلك في حال هو ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ﴾.

وهذا التعبير إشارة إلى أنه لم يكن معه في هذا السفر الشاق إلا رجل واحد، وهو أبو بكر ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾. أي غار ثور، فاضطرب أبو بكر وحزن فأخذ النبي ﷺ يسري عنه، وكما تقول الآية: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾.

ولعل هذه الجنود الغيبية هي الملائكة التي حفظت النبي ﷺ في سفره الشاق الخيف، أو الملائكة التي نصرته في معركتي بدر وحنين وأضربها.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾.

وهي إشارة إلى أن مؤامراتهم قد باءت بالفشل والفشل وحبطت أعمالهم وآراؤهم، وشع نور الله في كل مكان، وكان الانتصار في كل موطن حليف محمد ﷺ، ولم لا يكون الأمر كذلك ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. فبجزته وقدرته نصر نبيه، وبحكته أرشده سبل الخير والتوفيق والنجاح.

أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّفَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا الْخُرُوجَ مَعَكُمْ يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾

الكسالى الطامعون: قلنا: إن معركة تبوك كانت لها حالة استثنائية، وكانت مقترنة

بمقدمات معقدة وغامضة تماماً، ومن هنا فإن عدداً من ضعاف الإيمان أو المنافقين أخذ «يتعلل» في الاعتذار عن المساهمة في هذه المعركة. وقد وردت في الآيات المتقدمة ملامة للمؤمنين من قبل الله سبحانه، وتعقيباً على هذا الكلام يدعو المؤمنين جميعاً مرة أخرى - دعوة عامة - نحو الجهاد ويعنف المتساعحين فيقول سبحانه: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾.

«الخفاف»: جمع الخفيف؛ «الثقال»: جمع الثقيل، وهاتين الكلمتين مفهوم شامل يستوعب جميع حالات الإنسان. أي انفروا في أية حالة كنتم شباباً أم شيوخاً، تعولون أحداً أم لا تعولون، أغنياء أم فقراء، أصحاب تجارة أو زراعة أم لستم من أولئك.

ثم تضيف الآية قائلة: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. أي جهاداً مطلقاً عاماً من جميع الجهات، لأنهم كانوا يواجهون عدواً قوياً مستكبراً.

ولئلا يتوهم أحد أن هذه التوضيحية يريد الله لنفسه ولا تنفع أصحابها، فإن الآية تضيف قائلة: ﴿فَلَكُمْ حَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. أي إن كنتم تعلمون بأن الجهاد مفتاح عزتكم ورفعتمكم ومنعتكم.

وإن كنتم تعلمون بأن سبيل الوصول إلى مرضاة الله والسعادة الأبدية وأنواع النعم والمواهب الإلهية، كل ذلك إنما هو في هذه النهضة المقدسة العامة والتضحية المطلقة.

ثم يتناول القرآن ضعاف الإيمان الكسالى الذين يتشبثون بالحجج الواهية للفرار من ساحة القتال، فيخاطب النبي مبيّناً واقعهم فيقول: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾^١.

والعجيب أنهم لا يكتفون بالأعذار الواهية، بل ﴿وَسَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾. فعدم ذهابنا إلى ساحات القتال إنما هو لضعفنا وعدم اقتدارنا وابتلائنا! ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

فهم قادرين على الذهاب إلى ساحات القتال، لكن حيث إن السفر ذو مشقة، ويواجهون صعوبةً وحرماً، فإنهم يتشبثون بالكذب والباطل. ولم يكن هذا الأمر منحصراً بغزوة تبوك وعصر النبي ﷺ فحسب، ففي كل مجتمع فئة من الكسالى والمنافقين والطامعين والانتهازيين الذين ينتظرون لحظات الانتصار ليقيموا أنفسهم في الصفوف الأولى، ويصرخوا بعالي الصوت أنهم المجاهدون الأوائل والمخلصون البواسل، ليصادروا ثمرات جهود الآخرين في إنتصارهم دون أن يبذلوا أيّ جهداً!

غير أن هؤلاء «المجاهدين» المخلصين! كما يزعمون، حين يواجهون الشدائد والأزمات يلوذون بالفرار ويتشبثون بالأعذار الباطلة والحجج الواهية، كأن يقول أحدهم: إنّي

١. «العرض»: ما يعرض ويزول عاجلاً ولا دوام له، ويطلق عادةً على مواهب الدنيا المادية؛ و«القاصد»: معناه السهل، لأنه في الأصل من قصد، والناس يسعون في قصدهم إلى المسائل السهلة.

«الشقّة»: تعني الأرض الصخرية أو الطريق الطويل البعيد الذي يجلب على عابره المشقة والنصب.

مريض، ويقول الآخر: إني مبتلىً بطفلي، ويقول الثالث: زوجي مُقرب وعلى وشك الولادة، ويقول الرابع: يا ليتني كنت معكم لولا ضعف في عيني لا أبصر بهما، ويقول الخامس: أنا أتدارك مقدمات الأمر وأنا على أتركم، وهكذا....

إلا أن على القادة والصفوة من الناس أن يعرفوا هذه الفئة من بداية الأمر، وإذا لم يكونوا أهلاً للإصلاح فينبغي إخراجهم وطردهم من صفوف المجاهدين.

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَعِذُّنَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّنَكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَزَّاتَبَتْ قُلُوبُهُمْ فَبُهِمُوا فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

التعريف على المنافقين: يستفاد من الآيات - محل البحث - أن جماعة من المنافقين جاؤوا إلى النبي ﷺ وبعد أن تذرعوا بحجج واهية مختلفة - حتى أنهم أقسموا على صدق مدعاهم - استأذنوا النبي في الانصراف عن المساهمة في معركة تبوك، فأذن لهم النبي بالانصراف. فالله سبحانه يعتب على النبي في الآية الأولى من الآيات محل البحث فيقول: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكٰذِبِينَ﴾.

وهناك كلام طويل بين المفسرين في المراد من عتاب الله نبيه المشفوع بالعمو عنه، أهو دليل على أن إذن النبي ﷺ كان مخالفة، أم هو من باب ترك الأولى؟! يُحتمل في تفسير الآية هو أن العتاب أو الخطاب المذكور آنفاً إنما هو على سبيل الكناية، ولم يكن في الأمر حتى «ترك الأولى» بل المراد بيان روح النفاق في المنافقين ببيان لطيف وكناية في المقام.

ويمكن أن يتضح هذا الموضوع بذكر مثال، فلنفرض أن ظالماً يريد أن يلطم وجه ابنك، إلا أن أحد أصدقائك يحول بينه وبين مراده فيمسك يده، فقد تكون راضياً عن سلوكه هذا، بل وتشعر بالسرور الباطني، إلا أنك وللإثبات القبح الباطني للطرف المقابل تقول لصديقك: لم لا تركته يضربه على وجهه ويلطمه؟ وهدفك من هذا البيان إنما هو إثبات قساوة قلب هذا الظالم ونفاقه، الذي ورد في ثوب عتاب الصديق وملامته من قبلك.

ثم يتناول القرآن أحد علامات المؤمنين والمنافقين، فيقول: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾.

بل ينهضون مسرعين دون سأم أو ملل عند صدور الأمر بالجهاد ويدعوهم الإيمان بالله واليوم الآخر ومسئولياتهم وإيمانهم بمحكمة القيامة، كل ذلك يدعوهم إلى هذا الطريق ويوصد بوجوههم الأعذار والحجج الواهية: ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِم بِالْمُتَّقِينَ﴾.

ثم يضيف القرآن: ﴿إِنَّمَا يَسْتَكْبِرُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. ويعقب مؤكداً عدم إيمانهم بالقول: ﴿وَأَزْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

وهاتان العلامتان لا تختصان بالمؤمنين والمنافقين في صدر الإسلام ومعركة تبوك فحسب، بل يمكن في عصرنا الحاضر أن نميز المؤمنين الصادقين من المدعين الكاذبين بهاتين الصفتين. فالؤمن شجاع ذو إرادة وتصميم وخطى واثقة، والمنافق جبان وخائف ومتردد وحائر ويبحث عن المعاذير دائماً.

وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَهُ ﴿٤٨﴾

عدم وجودهم الفعل: في الآية الأولى - من الآيات أعلاه - بيان لعلامة أخرى من علامتهم كذبهم، وهي في الحقيقة تكمل البحث الوارد في الآيات المتقدمة آنفاً، إذ جاء فيها ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. فالآية محل البحث تقول: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ ولم ينتظروا الإذن لهم: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾^١.

هذا أمر تكويني نهض من باطنهم المظلم، وإنه مقتضى عقيدتهم الفاسدة وأعمالهم القبيحة، ويستفاد من الآية محل البحث أن لكل عمل ونية اقتضاء يُبتلى به الإنسان شاء أم

١. «ثبَّطهم»: مشتق من الثبيط ويعني الوقوف بوجه العمل المزمع إجراؤه بوجه من الوجوه.

أبى، وليس لكل أحد قابلية السير في سبيل الله وتحمل الأعباء الكبرى، بل هو توفيق من قبل الله يوليه من يجد فيه طهارة النية والاستعداد والإخلاص.

وفي الآية التالية إشارة إلى هذه الحقيقة، وهي أن عدم مساهمة مثل هؤلاء الأفراد في ساحة الجهاد ليس مدعاة للتأثر والأسف فحسب، بل لعله مدعاة للسرور، والآية تعطي درساً للمسلمين أن لا يكثرثوا بكثرة المقاتلين أو قلتهم وكميتهم وعددهم، بل عليهم أن يفكروا في اختيار المخلصين المؤمنين وإن كانوا قلة، فهذا درس لمسلمي الماضي والحاضر والمستقبل. وتقول الآية: ﴿تَوْحَّجُوا فِيكُمْ﴾. أي إلى تبوك للقتال ﴿مَا زَادَكُمْ إِلَّا خَبَالاً﴾. فبناءً على ذلك فإن حضورهم بتلك الروحية الفاسدة المقرونة بالتردد والنفاق لا أثر له سوى إيجاد الشك والتردد وتثبيط العزائم بين جنود الإسلام.

وتضيف الآية قائلة: ﴿وَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ أَلْفِنتَةً﴾^١.

ثم تنذر المسلمين من المتأثرين بهم في صفوف المسلمين: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾.

فبناءً على ذلك فإن وظيفة المسلمين الراسخين في الإيمان مراقبت مثل هؤلاء الضعفاء لنلا يقعون فريسة المنافقين الذئاب. والمراد من السماع في الآية هو الجاسوس الذي يتجسس بين المسلمين ويجمع الأخبار للمنافقين.

وتختتم الآية بالقول: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

وفي آخر آية من الآيات محل البحث إنذار للنبي ﷺ بأن هؤلاء المنافقين لم يبادروا لأول مرة إلى التخريب والتفرقة وبذر السموم، بل ينبغي أن تتذكر - يا رسول الله - أن هؤلاء ارتكبوا من قبل مثل هذه الأمور وهم يتربصون الفرص الآن لينالوا منهاهم ﴿لَقَدْ اِهْتَمَّتْنَا مِنْ قَبْلُ﴾.

وهذه الآية تشير إلى ما جرى في معركة أحد حيث رجع عبدالله بن أبي وأصحابه وانسحبوا وهم في منتصف الطريق، أو أنها تشير إلى مؤامرات المنافقين عامة التي كانوا يكيدونها للنبي ﷺ أو للمسلمين، ولم يغفل التاريخ أن يسجلها على صفحاته.

﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ وخططوا للإيقاع بالمسلمين، أو لمنعهم من الجهاد بين يديك، إلا أن كل تلك المؤامرات لم تفلح، وإنما رَمَقُوا على الماء ورشقوا سهامهم على الحجر ﴿حَتَّىٰ جَاءَ

١. «أوضعا»: من مادة الإيضاع ومعناه، الإسراع في الحركة، ومعناه هنا الإسراع في النفوذ بين صفوف المقاتلين، و«الفتنة»: هنا بمعنى التفرقة واختلاف الكلمة.

الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ». غير أن مشيئة العباد وإرادتهم لا أثر لها إزاء مشيئة الله وإرادته، فقد شاء الله أن ينصرك وأن يُبلغ رسالتك إلى أصقاع المعمورة، ويزيل العراقيل والموانع عن منهاجك، وقد فعل.

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أُنذُنِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قيل: إن رسول الله ﷺ لما استنفر الناس إلى تبوك، قال: «إنفروا لعلكم تغنمون بنات الأصفر». فقام جد بن قيس، أخو بني سلمة من بني الخزرج، فقال يا رسول الله! ائذن لي، ولا تفتني بينات الأصفر، فإني أخاف أن افتتن بهن. فقال: «قد أذنت لك». فأنزل الله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أُنذُنِي وَلَا تَفْتِنِي﴾ الآية.

فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لبني سلمة: «من سيّدكم؟» قالوا: جدّ بن قيس غير أنه بخيل جبان! فقال ﷺ: «وأي داء أدوي من البخل، بل سيّدكم الفتى الأبيض الجعد بشر بن البراء بن المعرور».

مركز تحقيقات الكمبيوتر علوم إسلامي

التفسير

المنالِقون المتذرّعون: يكشف شأن النزول المذكور أن الإنسان متى أراد أن يتنصل من تحمل المسؤولية يسعى للتذرّع بشتى الحيل. فإنّ القرآن يوجه الخطاب للنبي ﷺ ليردّ على مثل هذه الذرائع المفضوحة قائلاً: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أُنذُنِي وَلَا تَفْتِنِي﴾ بالنساء والفتيات الروميات الجميلات.

ولكن القرآن يقول مجيباً عليه وأمثاله: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾. أي إن أمثال أولئك الذين تذرّعوا بحجة الخوف من الذنب - هم الآن واقعون فيه فعلاً، وأن جهنم محيطَةٌ بهم، لأنهم تركوا ما أمرهم الله ورسوله به وراء ظهورهم وانصرفوا عن الجهاد بذريعة الشبهة الشرعية!

إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ
 أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا
 مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ
 هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنِيَيْنِ وَنَحْنُ نَرْتَبِصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ
 اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا فَنَرْتَبِصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

في الآيات - آفة الذكر - إشارة إلى إحدى صفات المنافقين وعلاماتهم وبهذا تتابع
 البحث الذي يتناول صفات المنافقين في ذيل الآيات المتقدمة والآيات اللاحقة.

تقول الآيات أولاً: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾.

وهذه المساءة دليل على العداوة الباطنية وفقدان الإيمان.

ولكنهم على خلاف هذه الحال عند الشدة والخطب: ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ
 أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾
 هؤلاء المنافقون عمي القلوب ينتهزون أية فرصة لصالحهم ومنافعهم، ويزعمون أن ما
 نالوه كان بتدبيرهم وعقلهم، إذ لم تساهم في المعركة الفلانية ولم تقع في أي مأزق! كما ابتلي به
 الآخرون الذين لم يكن لهم نصيب من التعقل والتدبر، وبهذه المزاعم يعودون إلى أوكارهم
 وهم يكادون أن يطيروا فرحاً.

ولكنك - يا رسول الله - عليك أن ترد عليهم بجواب منطقي متين وذلك:

أولاً: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾. أجل فلا يريد بنا إلا الخير
 والصلاح: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. فهم يعشقون الله فحسب، ومنه يطلبون المدد
 والعون، ويتوكلون عليه ويلتجئون إليه عند الخطوب.

ثانياً: ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنِيَيْنِ﴾. فإما أن تُبِير الأعداء في ساحة الحرب
 وتُبيد هم ونعود منتصرين، أو نُقتل فنهل ورد الشهادة العذب، فكلاهما محبب لنا ومصدر
 افتخارنا.

وهكذا يختلف حالنا عن حالكم، فنحن نتوقع لكم مساءتين: إما أن تصيبكم سهام
 البلايا والمصائب والعقوبات الإلهية سواء في الدنيا أو الآخرة، أو يكون هلاككم على أيدينا:

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرْتَفِئُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَيبُونَ﴾. تربصوا غبظتنا وسعادتنا ونحن نتربص شقاءكم وسوء عاقبتكم.

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يَنْقَبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾
 وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَ
 لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا
 تُعْجِبُكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ
 تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾

تشير هذه الآيات إلى قسم آخر من علامات المنافقين وعواقب أعمالهم ونتائجها، وتبين بوضوح كيف أن أعمالهم لا أثر لها ولا قيمة، ولا تعود عليهم بأي نفع.

ولما كان - من بين الأعمال الصالحة - الإنفاق في سبيل الله «الزكاة بمعناها الواسع» والصلاة «وهي العلاقة بين الخلق والخالق» - لهما موقع خاص، فقد اهتمت الآيات بهذين القسمين اهتماماً خاصاً. تخاطب الآيات النبي الكريم فتقول: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يَنْقَبَلَ مِنْكُمْ﴾.

مرآة حقايق كليات علوم ديني

ثم تشير الآية إلى سبب ذلك فتقول: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾. فنياتكم غير خالصة، وأعمالكم غير طاهرة، وقلوبكم مظلمة، وإنما يتقبل الله العمل الطاهر من الورع التقي. والمراد من «الفسق» هنا الكفر والنفاق، أو تلوث الإنفاق بالرياء والتظاهر.

وفي الآية التالية يوضح القرآن مرة أخرى السبب في عدم قبول نفقاتهم فيقول: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾.

والقرآن يعول كثيراً على أن قبول الأعمال الصالحة مشروط بالإيمان، حتى أنه لو قام الإنسان بعمل صالح وهو مؤمن، ثم كفر بعد ذلك فإن الكفر يحبط عمله ولا يكون له أي أثر. وبعد أن أشار القرآن إلى عدم قبول نفقاتهم، يشير إلى حالهم في العبادات فيقول: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ كما أنهم ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

وأن نفقاتهم لا تقبل لسببين:

الأول: هو أنهم ﴿كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾.

والثاني: أنهم إنما ينفقون عن كره وإجبار.

كما أن صلواتهم لا تقبل لسببين أيضاً:

الأول: لأنهم ﴿كَفَرُوا بِاللَّهِ...﴾.

والثاني: أنهم ﴿لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَى﴾.

وفي آخر آية من الآيات محل البحث يتوجه الخطاب نحو النبي قائلاً: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ

وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾.

فهي وإن كانت نعمة بحسب الظاهر، إلا أنه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

وفي الواقع فإنهم يعذبون عن طريقين بسبب هذه الأموال والأولاد، أي القوة

الاقتصادية والإنسانية:

فالأول: إن مثل هؤلاء الأبناء لا يكونون صالحين عادة، ومثل هذه الأموال لا بركة فيها،

فيكونان مدعاة قلقهم وآلحهم في الحياة الدنيا، إذ عليهم أن يسعوا ليل نهار من أجل

أبنائهم الذين هم مدعاة أذاهم وقلقهم، وأن يجهدوا أنفسهم لحفظ أموالهم التي اكتسبوها

عن طريق الإثم والحرام.

والثاني: لما كانوا متعلقين بهذه الأموال والأولاد، ولا يؤمنون بالحياة بعد الموت ولا

بالدار الآخرة الواسعة ولا بنعيمها الخالد، فليس من الهين أن يغمضوا عن هذه الأموال

والذرية، وبالتالي يخرجون من هذه الدنيا - بحال مزرية وفي حال الكفر.

فالمال والبنون قد يكونان موهبة وسعادة ومدعاة للرفاه والهدوء والاطمئنان والدعة

إذا كانا طاهرين طيبين وإلا فهما مدعاة العذاب والشقاء والألم.

وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لِمَنكُم مَّا هُمْ بِمَنكُم وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾

لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

علامة أخرى للمنافقين: ترسم الآيتان أعلاه حالة أخرى من أعمال المنافقين بجلاء، إذ

تقول الآية الأولى: ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لِمَنكُم مَّا هُمْ بِمَنكُم وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ ومن

شدة خوفهم وفرقهم يخفون كفرهم ويظهرون الإيمان.

والآية التالية تصوّر شدة عداوة المنافقين للمؤمنين ونفورهم منهم، في عبارة موجزة إلا

أنها في غاية المتانة والبلاغة، إذ تقول: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ

يَجْمَحُونَ﴾.

فهذه الآية واحدة من أبلغ الآيات والتعابير التي يسوقها القرآن في وصف المنافقين، وبيان هلعهم وخوفهم وبغضهم إخوانهم المؤمنين، بحيث لو كان لهم سبيل للفرار من المؤمنين، ولو على قمم الجبال أو تحت الأرض، لولوا إليه وهم يجمعون، ولكن ما عسى أن يفعلوا مع الروابط التي تربطهم معكم من القبيلة والأموال والثروة، كل ذلك يضطرهم إلى البقاء على رغم أنوفهم.

وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَاهُمْ
يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا
اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

سبب النزول

في تفسير الدر المنثور عن أبي سعيد الخدري قال: بينا النبي ﷺ يقسم قسماً - وقال ابن عباس: كانت غنائم هوازن يوم حنين - إذ جاءه ذو الخويصرة التيمي فقال: اعدل يا رسول الله. فقال: «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل». فقال عمر: يا رسول الله إنذن لي فأضرب عنقه! فقال النبي ﷺ: «دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فينظر في قذذه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر في نصله فلا يوجد فيه شيء...» فنزلت فيهم الآيتان.

التفسير

الأنبيون السفهاء: في الآية الأولى أعلاه إشارة إلى حالة أخرى من حالات المنافقين، وهي أنهم لا يرضون أبداً بنصيبهم. فتي ملكت جيوبهم رضوا (عن صاحبهم) ومتى ما أعطوا حقهم وروعي العدل في ايتاء الآخرين حقوقهم سخطوا عليه. لذا فإن الآية تقول: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾. لكنهم ينظرون إلى منافعهم الخاصة: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾.

فهؤلاء يرون أن النبي ﷺ غير منصف ولا عادل، ويتهمون في تقسيمه المال! ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾.

إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلِفَةَ فَلُوْبُهُمْ وَفِي
الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

موارد صرف الزكاة ودقائقها في تاريخ صدر الإسلام مرحلتان يمكن ملاحظتها بوضوح، إحداهما في مكة، حيث كان هدف النبي ﷺ والمسلمين فيها تعليم الأفراد وتربيتهم ونشر التعاليم الإسلامية. والثانية في المدينة، حيث أقدم النبي ﷺ على تشكيل حكومة إسلامية أُجريت من خلالها الأحكام والتعاليم الإسلامية.

ومما لا شك فيه أن أول وأهم مسألة واجهت تشكيل الحكومة هي إيجاد بيت المال، إذ عن طريقه تُؤمن حاجات الدولة الاقتصادية، وهي حاجات طبيعية توجد في كل دولة بدون استثناء، ومن هنا كان إيجاد بيت المال من أوائل أعمال النبي ﷺ في المدينة، وتشكل الزكاة أحد موارده، وعلى المشهور فإن هذا الحكم شرع في السنة الثانية للهجرة النبوية. إن الآية التي نبحتها قد بيّنت الموارد الحقيقية التي تصرف فيها الزكاة، وأنهت التوقعات غير المنطقية وحددت موارد صرف الزكاة في ثمانية أصناف:

مركزية تكوير علوم ربي

١- الفقراء.

٢- المساكين: وسيأتي البحث عن الفرق بين الفقير والمسكين.

٣- العاملين عليها: وهم الذين يسعون في جباية الزكاة، وإدارة بيت المال.

٤- المؤلفعة قلوبهم: وهم الذين لا يوجد لديهم الحافز والدافع المعنوي القوي من أجل النهوض بالأهداف الإسلامية وتحقيقها، ولكن يمكن استمالتهم بواسطة بذل المال لهم، والاستفادة منهم في الدفاع عن الإسلام وتحكيم دولته، وإعلاء كلمته.

وكما جاء في المباحث الفقهية، فإن هذه الآية، وكذلك للروايات الواردة في هذا الموضوع مفهوماً واسعاً، ولهذا فإنها تشمل كل من يمكن استمالته من أجل نفع وتحكيم الإسلام، ولا دليل على تخصيصها بالكفار.

٥- في الرقاب: وهذا يعني أن قسماً من الزكاة يُخصّص لمحاربة العبودية والرق وإنهاء هذه الحالة غير الإنسانية.

٦- الغارمون: وهم الذين عجزوا عن أداء ديونهم، ولم يكن هذا العجز نتيجة

لتقصيرهم.

٧- في سبيل الله: والمراد منه جميع السبل التي تؤدّي إلى تقوية ونشر الدين الإلهي، وهي أعم من مسألة الجهاد والتبليغ وأمثالها.

٨- ابن السبيل: وهم الذين تخلفوا في الطريق لعلّة ما، وليس معهم من الزاد والراحلة ما يوصلهم إلى بلدانهم أو إلى الجهة التي يقصدونها، حتى ولو لم يكونوا فقراء في واقعهم، لكنهم افتقروا الآن نتيجة سرقة أموالهم أو مرضهم أو لأسباب أخرى.

وفي خاتمة الآية نلاحظ التأكيد على صرفها في الجهات السابقة، ولذلك قال سبحانه: ﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ ولا شك أن هذه الفريضة قد حُسبت بصورة دقيقة جداً، وبصورة تحفظ مصالح الفرد والمجتمع، لأن ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

بحثان

١- الفرق بين الفقير والمسكين: إن «الفقير» هو الشخص الذي يعاني من حاجة مالية في حياته ومعاشه مع أنه يعمل ويكتسب، لكنه لا يسأل أحداً مطلقاً رغم حاجته لعفته وعزّة نفسه، أمّا «المسكين» فهو أشد حاجة من الفقير، وهو عاجز عن العمل، فهو مضطر لأن يستعطي الناس ويسألهم.

٢- دور الزكاة في الإسلام: إذا علمنا أن الإسلام ظهر إلى الوجود كدين وقانون كامل وشامل عولجت فيه كل الحاجات المادية والمعنوية في الحياة، وكذلك إذا علمنا أن تشكيل وتأسيس الدولة الإسلامية قد لازم ظهور الإسلام منذ عصر النبي الأكرم ﷺ وإذا علمنا أن الإسلام يهتم اهتماماً خاصاً بنصرة المحرومين ومكافحة الطبقة في المجتمع اتضح لنا أن دور بيت المال والزكاة التي تشكل أحد موارده، من أهم الأدوار.

لا شك أن في كل مجتمع أفراداً عاجزين عن العمل، مرضى، يتامى، معوقين، وأمثالهم، وهؤلاء يحتاجون حتماً إلى من يحميهم ويرعاهم ويقوم بشؤونهم، وكذلك يحتاج هذا المجتمع إلى جنود مضحين من أجل حفظ وجوده وكيانه، أمّا مصاريف هؤلاء الجنود ونفقاتهم فإن الدولة هي التي تلتزم بتأمينها ودفعها إليهم.

وعلى هذا الأساس أولى الإسلام الزكاة - التي تعتبر نوعاً من الضرائب على الإنتاج والأرباح وعلى الأموال الراكدة - اهتماماً خاصاً، حتى أنه اعتبرها من أهم العبادات، وقد ذكرت - جنباً إلى جنب - مع الصلاة في كثير من الموارد، بل إنه اعتبرها شرطاً لقبول الصلاة.

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ
بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ
اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

سبب النزول

هذا حسن لا قبيح، في تفسير مجمع البيان قيل: نزلت في جماعة من المنافقين منهم
الجلال بن سويد بن صامت، وشأس بن قيس وجحش بن حمير ورفاعة بن عبد المنذر
وغيرهم، قالوا ما لا ينبغي، فقال رجل منهم: لا تفعلوا فإننا نخاف أن يبلغ محمداً ما تقولون،
فيوقع بنا. فقال الجلاس: بل تقول ما شئنا، ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول، فإن محمداً أذن سامعة،
فأنزل الله الآية.

التفسير

تحدثت الآية - كما يفهم من مضمونها - عن فرد أو أفراد كانوا يؤذون النبي ﷺ
بكلامهم ويقولون أنه أذن ويصدق كل ما يقال له سريعاً: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ
وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ﴾.

هؤلاء المنافقون اعتبروا هذه الصفة - والتي هي سمة إيجابية للنبي ﷺ والتي يجب
توفرها في أي قائد كامل - نقطة ضعف في سيرته ومعاملته ﷺ.

من هنا نلاحظ أن القرآن قد ردّهم مباشرة، وأمر النبي ﷺ أن يقول لهم بأنه إذا كان
يصفني لكلامكم، ويقبل أذاركم، أو كما تظنون بأنه أذن، فإن ذلك في مصلحتكم ولمنفعتكم
﴿قُلْ أذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. فإنه بذلك يحفظ ماء وجوهكم وشخصيتكم، ولا يجرح شعورك
وعواطفكم، وبذلك - أيضاً - يسعى لحفظ وحدتكم واتحادكم ومودتكم، ولو أراد أن يرفع
الستار عن أفعالكم القبيحة، ويفضح الكاذبين على رؤوس الأشهاد، لضركم ذلك وشق
عليكم.

ومن أجل أن لا يستغل المتتبعون لعيوب الناس ذلك، ولا يجعلون هذه الصفة وسيلة
لتأكيد كلامهم، أضاف الله تعالى أن النبي ﷺ يؤمن بالله ويطيع أوامره، ويصفني إلى كلام
المؤمنين المخلصين ويقبله ويرتب عليه الأثر، ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. وهذا يعني أن
النبي ﷺ كان له طريقان وأسلوبان في عمله:

أحدهما: الحفاظ على الظاهر والحيلولة دون هتك الأستار وفضح أسرار الناس.
 والثاني: في مرحلة العمل، فقد كان ﷺ في البداية يسمع من كل أحد، ولا ينكر على أحد ظاهراً، أما في الواقع العملي فإنه لا يعتني ولا يقبل إلا أوامر الله واقتراحات وكلام المؤمنين المخلصين، والقائد الواقعي يجب أن يكون كذلك فإن تأمين مصالح المجتمع لا يتم إلا عن هذا الطريق، لذلك عبر عنه بأنه رحمة للمؤمنين: ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾.
 بقي هنا شيء واحد، وهو أن هؤلاء الذين يؤذون النبي ﷺ بكلامهم ويتتبعون أحواله لعلمهم يجدون عيباً يشتهرون به يجب أن لا يتصوروا أنهم سوف يبقون بدون جزاء وعقاب، ولهذا قال تعالى في نهاية الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: لما نزلت الآيات التي ذمت المتخلفين عن غزوة تبوك ووبختهم قالوا المنافقين: لئن كان ما يقول محمد حقاً فنحن شر من الحمير، وكان عندهم غلام من الأنصار يقال له عامر بن قيس، فقال: والله إن ما يقول محمد حق، وأنتم شر من الحمير، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فدعاهم فسألهم فحلفوا أن عامراً كذاب، فنزلت الآية.

التفسير

المنافقون والتكاهر بالعق: إن إحدى علامات المنافقين وأعمالهم القبيحة والتي أشار إليها القرآن مراراً هي إنكارهم الأعمال القبيحة والمخالفة للدين والعرف، وهم إنما ينكرونها من أجل التغطية على واقعهم السيء وإخفاء الصورة الحقيقية لهم، ولما كان المجتمع يعرفهم ويعرف كذبهم في هذا الإنكار فقد كانوا يلجؤون إلى الأيمان الكاذبة من أجل مخادعة الناس وإرضائهم.

وفي الآيات السابقة الذكر نرى أن القرآن المجيد يكشف الستار عن هذا العمل القبيح ليفضح هؤلاء من جهة، ويحذر المسلمين من تصديق الأيمان الكاذبة من جهة أخرى. في البداية يخاطب القرآن الكريم المسلمين وينبههم إلى أن هدف هؤلاء من القسم هو إرضاءكم ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾.

فلو كان هدفهم هو إرضاء المؤمنين الحقيقيين عنهم، فإن إرضاء الله ورسوله أهم من إرضاء المؤمنين، غير أنا نرى أنهم بأعمالهم هذه قد أسخطوا الله ورسوله، ولذا عقب الآية فقالت: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

وفي الآية الثانية نرى أن القرآن يهدد المنافقين تهديداً شديداً، فقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُخَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنْ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا﴾.

ومن أجل أن يؤكد ذلك أضاف تعالى: ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾.

«يحادد»: مأخوذ من «المحادّة» وأصلها «حدّ»، ومعناها نهاية الشيء وطرّفه، ولما كان الأعداء والمخالفون يقفون في الطرف الآخر المقابل، لذا فإنّ مادة «المحادّة» قد وردت بمعنى العداوة أيضاً.

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا
 بِإِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مِمَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا
 نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا
 قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نَعَدْتَ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ
 كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت في إثني عشر رجلاً وقفوا على العقبة، ليفتكوا برسول الله ﷺ عند رجوعه من تبوك، فأخبر جبرئيل رسول الله ﷺ بذلك وأمره أن يرسل إليهم ويضرب وجوه رواحلهم.

وعمار كان يقود دابة رسول الله ﷺ وحذيفة يسوقها، فقال لحذيفة: اضرب وجوه رواحلهم فضربها حتى نحاهم. فلما نزل قال لحذيفة: من عرفت القوم؟ قال: لم أعرف منهم أحداً. فقال رسول الله ﷺ: إنه فلان وفلان حتى عدّهم كلهم فقال حذيفة: ألا تبعث إليهم فتقتلهم؟ فقال: «أكره أن تقول العرب لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم».

التفسير

يستفاد من الآية الأولى أن الله سبحانه وتعالى يكشف الستار عن أسرار المنافقين

أحياناً، وذلك لدفع خطرهم عن النبي ﷺ وفضحهم أمام الناس ليعرفوا حقيقتهم، ويحذروهم وليعرف المنافقون موقع اقدامهم ويكفوا عن تأمرهم، ويشير القرآن إلى خوفهم من نزول سورة تفضحهم وتكشف خبيثة أسرارهم فقال: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

إلا أن العجيب في الأمر أن هؤلاء ولشدة حقدهم وعنادهم لم يكفوا عن استهزائهم وسخريتهم، لذلك تضيف الآية: بأنهم مهما سخروا من أعمال النبي ﷺ فإن الله لهم بالمرصاد وسوف يظهر خبيث أسرارهم ويكشف عن دنيء نياتهم، فقال: ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجُ مَا تَخْذُرُونَ﴾.

أما الآية الثانية فإنها أشارت إلى أسلوب آخر من أساليب المنافقين، وقالت: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾^١. أي إذا سألتهم عن الدافع لهم على هذه الأعمال المشينة قالوا: نحن نمزح وبذلك ضمنوا طريق العودة.

غير أن القرآن الكريم واجه هؤلاء بكل صرامة، وجابهم بجواب لا مفرّ معه من الإذعان للواقع، فأمر النبي ﷺ أن يخاطبهم: ﴿قُلْ أباللهِ وءآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾. أي إنه يسألم: هل يمكن المزاح والسخرية حتى بالله ورسوله وآيات القرآن؟

هل يمكن إخفاء قضية تنفير البعير وسقوط النبي ﷺ من تلك العقبة الخطيرة، والتي تعني الموت، تحت عنوان ونقاب المزاح؟

ثم يأمر القرآن النبي ﷺ أن يقول للمنافقين بصراحة: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ والسبب في ذلك أنكم ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾. فهذا التعبير يُشعر أن هذه الفئة لم تكن منذ البداية في صف المنافقين، بل كانوا مؤمنين لكنهم ضعيفو الايمان، بعد هذه الحوادث الآتفة الذكر سلكوا طريق الكفر.

واختتمت الآية بهذه العبارة: ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَلِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ فهي تبين أن طائفة قد استحققت العذاب نتيجة الذنوب والمعاصي، وهذا دليل على أن أفراد الطائفة الأخرى إنما شملهم العفو الإلهي لأنهم غسلوا ذنوبهم ومعاصيهم بماء التوبة من أعماق وجودهم.

١. «خوض»: على وزن «حوض» وهو بمعنى الدخول التدريجي في الماء، ثم أطلقت على الدخول في مختلف الأعمال من باب الكناية، إلا أنها جاءت في القرآن غالباً بمعنى الدخول أو الشروع بالأعمال أو الأقوال القبيحة البذيئة.

الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ
هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿١٨﴾
كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا
بِمَخْلِقَتِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِمَخْلِقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِمَخْلِقِهِمْ
وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَ
أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ
وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنَّهُمْ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٢٠﴾

البحث في هذه الآيات يدور كالسابق حول سلوك المنافقين وعلاماتهم وصفاتهم،
فالآية الأولى من هذه الآيات تشير إلى أمر كلي، وهو أن روح النفاق يمكن أن تتجلى
بأشكال مختلفة وتبدو في صور متفاوتة بحيث لا تلفت النظر في أول الأمر، خصوصاً أن
روح النفاق هذه يمكن أن تختلف بين الرجل والمرأة، لكن يجب أن لا يُخدع الناس بتغيير
صور النفاق بين المنافقين، لذلك يقول الله سبحانه: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ
بَعْضٍ﴾.

وبعد ذلك يشرع القرآن الكريم في ذكر خمس صفات لهؤلاء:

الأولى والثانية: إنهم يدعون الناس إلى فعل المنكرات ويرغبونهم فيها من جهة،
ويبعدونهم وينهونهم عن فعل الأعمال الصالحة من جهة أخرى ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾. أي إنهم يسلكون طريقاً ويتبعون منهاجاً هو عكس طريق المؤمنين تماماً،
فإن المؤمنين يسعون دائماً - عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - إلى أن يصلحوا
المجتمع وينقوه من الشوائب والفساد، بينما يسعى المنافقون إلى إفساد كل زاوية في المجتمع

واقْتِلاع جذور الخير والأعمال الصالحة من بين الناس من أجل الوصول إلى أهدافهم المشؤومة، ولا شك أنّ وجود مثل هذا المحيط الفاسد والبيئة الملوثة ستساعدهم كثيراً في تحقيق أهدافهم.

الثالثة: إنّ هؤلاء بخلاء لا يتمتعون بروح الخير للناس فلا ينفقون في سبيل الله، ولا يعينون محروماً، ولا يستفيد أقوامهم ومعارفهم من أموالهم، فعبر عنهم القرآن: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾.

الرابعة: إنّ كل أعماهم وأقوالهم وسلوكهم يوضح أنّ هؤلاء قد نسوا الله، والوضع الذي يعيشونه يبيّن أنّ الله قد نسىهم في المقابل، وبالتالي فإنهم قد حرّموا من توفيق الله وتسديده ومواهبه السنية، أي إنّ سبحانه قد عاملهم معاملة المنسيين، وآثار وعلامات هذا النسيان المتقابل واضحة في كل مراحل حياتهم، وإلى هذا تشير الآية: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾.

الخامسة: إنّ المنافقين فاسقون وخارجون من دائرة طاعة أوامر الله سبحانه وتعالى، وقالت الآية: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

في الآية التي تليها نلاحظ الوعيد الشديد والإنذار بالعذاب الأليم والجزاء الذي ينتظر هؤلاء حيث تقول: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ وأنهم سيخلدون في هذه النار المحرقة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ وأن هذه المجازاة التي تشمل كل أنواع العذاب والعقوبات تكفي هؤلاء إذ ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾. وبعبارة أخرى: إنّ هؤلاء لا يحتاجون إلى عقوبة أخرى غير النار، حيث يوجد في نار جهنم كل أنواع العذاب: الجسمية منها والروحية.

وتضيف الآية في خاتمها أنّ الله تعالى قد أبعدهم عن ساحة رحمته وجزاهاهم بالعذاب الأبدي ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌّ﴾، بل إنّ البعد عن الله تعالى يعتبر بحد ذاته أعظم وأشد عقوبة وآلمها.

تكرر التاريخ والاعتبار به: من أجل توعية هؤلاء المنافقين، وضعت الآية الآتية مرآة التاريخ أمامهم، ودعتهم إلى ملاحظة حياتهم وسلوكهم ومقارنتها بالمنافقين والعتاة المردة الذين تمردوا على أوامر الله سبحانه وتعالى، وأعطتهم أوضاع الدروس وأكثرها عبرة، فذكرهم بأنهم كالمنافقين الماضين ويتبعون نفس المسير وسيلقون نفس المصير: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾. علماً أنّ هؤلاء ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾.

وكما أنّ هؤلاء قد تمتعوا بنصيبهم في هذه الحياة الدنيا، وصرّفوا أعمارهم في طريق قضاء

الشهوات والمعصية والفساد والانحراف، فاتكم قد تمتعتم بنصيبيكم كهؤلاء: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ﴾.

«الخلاق»: في اللغة بمعنى النصيب والحصة.

ثم تقول بعد ذلك: إنكم كمن مضى من أمثالكم قد أوغلتم وسلكتم مسلك الإستهزاء والسخرية، تماماً كهؤلاء: ﴿وَخَضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾^١.

ثم تبين الآية عاقبة أعمال المنافقين الماضين لتحذّر المنافقين المعاصرين للنبي ﷺ وكل منافقي العالم في جملتين:

الأولى: إن كل أعمال المنافقين قد ذهبت أدراج الرياح، في الدنيا والآخرة، ولم يحصلوا على أي نتيجة حسنة، فقالت: ﴿حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

الثانية: إن هؤلاء هم الخاسرون الحقيقيون بما عملوه من الأعمال السيئة: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

إن هؤلاء المنافقين يمكن أن يستفيدوا ويحققوا بعض المكاسب والإمتيازات من أعمال النفاق، لكن ما يحصلون عليه مؤقت ومحدود، فإننا إذا أمعنا النظر فسرى أن هؤلاء لم يجنوا من سلوك هذا الطريق شيئاً، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وبعد هذه الآيات يتحول الحديث من المنافقين ويتوجه إلى النبي ﷺ ويتبع أسلوب الإستفهام الإنكاري، فنقول الآية: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾^٢.

إن هذه الحوادث المرعبة تهز وجدان وأحاسيس كل إنسان إذا امتلك أدنى إحساس وشعور عند مطالعتها وتحقيقتها.

ورغم طغيان هؤلاء وتمردهم فإن الله الرؤوف الرحيم لم يحرم هؤلاء من رحمته وعطفه لحظة، وقد أرسل إليهم الرسل بالآيات البيّنات هدايتهم وإنقاذهم من الضلالة إذ ﴿أَتَتْهُمْ

١. إن جملة ﴿كالذي خاضوا﴾ في الواقع بمعنى: كالذي خاضوا فيه. وبعبارة أخرى، فإنها تشبيه لفعل منافقي اليوم بفعل المنافقين السابقين، كما شبهت الجملة السابقة استفادة هؤلاء من النعم والمواهب الإلهية في طريق الشهوات كالسابقين منهم، وعلى هذا فإن هذا التشبيه ليس تشبيه شخص بشخص لنضطر إلى أن نجعل (الذي) بمعنى (الذين) أي المفرد بمعنى الجمع، بل هو تشبيه عمل بعمل.

٢. «المؤتفكات»: مأخوذة من مادة الإثفك، بمعنى انقلاب الأسفل إلى الأعلى وبالعكس، وهي إشارة إلى مدن قوم لوط التي قلب عاليها سافلها نتيجة الزلزلة.

رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴿ إِلَّا أَنْ هَؤُلَاءِ لَمْ يَصِفُوا إِلَىٰ آيَةٍ مَوْعِظَةً وَلَمْ يَقْبَلُوا نَصِيحَةً مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَأُولِيَّائِهِ، وَلَمْ يَقِيمُوا وَزناً لجهاد ومتاعب هؤلاء الأبرار وتحملهم كل المصاعب في سبيل هداية خلق الله، وإذا كان العقاب قد نالهم فلا يعني أن الله عز وجل قد ظلمهم، بل هم ظلموا أنفسهم بما أجزموا فاستحقوا العذاب: ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

مرّ في الآيات السابقة، ذكر خمس الصفات المشتركة بين المنافقين، الرجال منهم والنساء، وتذكر هذه الآيات صفات وعلامات المؤمنين والمؤمنات، وتتلخص في خمس صفات أيضاً، وتشرع الآية بذكر صفات المؤمنين والمؤمنات، وتبدأ ببيان أن بعضهم لبعض ولي وصدیق ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾.

وبعد بيان هذه القاعدة الكلية، تشرع ببيان الصفات الجزئية للمؤمنين:

- ١- في البداية تبين أن هؤلاء قوم يدعون الناس إلى الخيرات ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾.
- ٢- إنهم ينهون الناس عن الرذائل والمنكرات ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾.
- ٣- إنهم بعكس المنافقين الذين كانوا قد نسوا الله، فإنهم يقيمون الصلاة، ويذكرون الله فتحيا قلوبهم وتشرف عقولهم ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾.
- ٤- إنهم - على عكس المنافقين والذين كانوا يبخلون بأموالهم - ينفقون أموالهم في سبيل الله وفي مساعدة عباد الله وبناء المجتمع وإصلاح شؤونه، ويؤدون زكاة أموالهم ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾.

٥- إن المنافقين فساق وتمرّدون، وخارجون من دائرة الطاعة لأوامر الله، أما المؤمنون فهم على عكسهم تماماً، إذ ﴿ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾. أما ختام الآية فإنه يتحدث عن إمتيازات المؤمنين، والمكافأة والثواب الذي ينتظرهم،

وأول ما تعرضت لبيانه هو الرحمة الإلهية التي تنتظرهم ف ﴿أَوْلَتْكَ سَيِّرَ حَمُهُمُ اللَّهُ﴾ .
ولا شك أن وعد الله للمؤمنين قطعي و يقيني لأن الله قادر وحكيم، ولا يمكن للحكيم أن
يعد بدون سبب، وليس الله القادر بعاجز عن الوفاء بوعدده حين وعد ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ﴾ .

الآية الثانية شرحت جانباً من هذه الرحمة الإلهية الواسعة التي تعم المؤمنين في بُعديها
المادي والمعنوي. فهي أولاً تقول: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ﴾ ، ومن خصائص هذه النعمة الكبيرة أنها لا زوال لها ولا فناء، بل الخلود الأبدي،
لذا فإن المؤمنين والمؤمنات سيكونون ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ .

ومن المواهب الإلهية الأخرى التي سوف ينعمون بها هي المساكن الجميلة، والمنازل
المرفهة التي أعدها الله لهم وسط الجنان ﴿وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ .
ويتضح من الاحاديث أن جنات عدن حدائق خاصة في الجنة سيستقر فيها النبي ﷺ
وجماعة من خلص أصحابه وأتباعه.

بعد ذلك تشير الآية إلى الجزاء المعنوي المجد هو لاء، وهو رضى الله تعالى عنهم المختص
بالمؤمنين الحقيقيين، وهو أهم وأعظم جزاء، ويفوق كل النعم والعطايا الأخرى ﴿وَرِضْوَانٌ
مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ .

إن اللذة المعنوية والإحساس الروحي الذي يحس ويلتذ به الإنسان عند شعوره برضى
الله سبحانه وتعالى عنه لا يمكن أن يصفه أي بشر.

وفي النهاية أشارت الآية إلى جميع هذه النعم المادية والمعنوية، وعبرت عنها بأن ﴿ذَلِكَ
هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَ
بِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

جهاد الكفار والمنافقين، وأخيراً، صدر القرار الإلهي للنبي الأكرم ﷺ في وجوب جهاد
الكفار والمنافقين بكل قوة وحزم ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ ولا تأخذك
بهم رافة ورحمة، بل شدد ﴿وَأَغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ . وهذا العقاب هو العقاب الدنيوي، أما في
الآخرة فإن محلهم ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِمُعْجِزِينَ﴾ .

إن طريقة جهاد الكفار واضحة ومعلومة، فإن جهادهم يعني التوسل بكل الطرق والوسائل في سبيل القضاء عليهم، وبالذات الجهاد المسلح والعمل العسكري. والمقصود من جهاد المنافقين هو الأشكال والطرق الأخرى للجهاد غير الجهاد الحربي والعسكري، كالذم والتوبيخ والتهديد والفضيحة، وربما تشير جملة ﴿وَاعْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾ إلى هذا المعنى.

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَتُمُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَوُوا بَعْدِ ذَلِكَ إِلَهُكُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت في جلاس بن سويد بن الصامت، وذلك أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم بتبوك وذكر المنافقين فسمّاهم رجساً وعابهم، فقال الجلاس: والله لئن كان محمد صادقاً فيما يقول، فنحن شرّ من الحمير! فسمعه عامر بن قيس فقال: أجل والله إن محمداً لصادق وأنتم شر من الحمير! فلما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال الجلاس، فقال الجلاس: كذب يا رسول الله. فأمرها رسول الله أن يحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر فحلف بالله ما قال، ثم قام عامر فحلف بالله لقد قاله. ثم قال: اللهم أنزل عليّ نبيك الصادق منا الصدق. فقال رسول الله ﷺ والمؤمنون: آمين. فنزل جبرائيل ﷺ قبل أن يتفرقا بهذه الآية، حتى بلغ ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾ فقام الجلاس، فقال: يا رسول الله أسمع الله قد عرض على التوبة صدق عامر بن قيس فيما قال لك، لقد قلته وأنا أستغفر الله وأتوب إليه. فقبل رسول الله ﷺ ذلك منه.

التفسير

مؤامرة خطيرة: إن هذه الآية تزج الستار عن عمل آخر من أعمال المنافقين، وهو أن هؤلاء عندما رأوا أن أمرهم قد انكشف، انكروا ما نُسب إليهم بل أقسموا باليمين الكاذبة

على مدعاهم. في البداية تذكر الآية أن هؤلاء المنافقين لا يرددعون عن اليمين الكاذبة في تأييد إنكارهم، ولدفع التهمة فإنهم ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ في الوقت الذي يعلمون أنهم إرتكبوا ما نسب إليهم من الكفر ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ وعلى هذا فإنهم قد إختاروا طريق الكفر بعد إعلانهم الإسلام ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾. ومن البديهي أن هؤلاء لم يكونوا مسلمين منذ البداية، بل إنهم أظهروا الإسلام فقط، وعلى هذا فإنهم بإظهارهم الكفر قد هتكوا ومزقوا حتى هذا الحجاب المزيف الذي كانوا يتسترون به.

وفوق كل ذلك فقد صمّموا على أمر خطير لم يوفقوا لتحقيقه ﴿وَهُمُوا بِمَا نَمَّ يَتَأَلَوُا﴾ ويمكن أن يكون هذا إشارة إلى تلك المؤامرة لقتل النبي ﷺ في ليلة العقبة، والتي مرّ ذكرها آنفاً، أو أنه إشارة إلى كل أعمال المنافقين التي يسعون من خلالها إلى تحطيم المجتمع الإسلامي وبث بذور الفرقة والفساد والنفاق بين أوساطه، لكنهم لن يصلوا إلى أهدافهم مطلقاً.

الجملة الأخرى تبين واقع المنافقين التسيخ ونكرانهم للجميل فتقول الآية: إن هؤلاء لم يروا من النبي ﷺ أي خلاف أو أذى، ولم يتضرروا بأي شيء نتيجة للتشريع الإسلامي، بل على العكس، فإنهم قد تمتعوا في ظل حكم الإسلام بمختلف النعم المادية والمعنوية ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهذه قبة اللؤم.

غير أن القرآن - كعادته - رغم هذه الأعمال لم يغلق الأبواب بوجه هؤلاء، بل فتح باب التوبة والرجوع إلى الحق على مصراعيه إن أرادوا ذلك، فقال: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾. وهذه علامة واقعية للإسلام واهتمامه بمسألة التوبة، ومعارضته لاستخدام الشدة في غير محلّها وهكذا فتح باب التوبة حتى بوجه المنافقين الذين طالما كادوا للإسلام وتأمروا على نبيّه وحاكوا الدسائس والتهم ضده، بل إنه دعاهم إلى التوبة أيضاً.

وفي نفس الوقت ومن أجل أن لا يتصور هؤلاء أن هذا التسامح الإسلامي صادر من منطق الضعف، حدّثهم بأنهم إن استمروا في غيهم وتنكروا لتوبتهم، فإنّ العذاب الشديد سينالهم في الدارين ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَلِّمُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ وإذا كانوا يظنون أن أحداً يستطيع أن يمدّ لهم يد العون مقابل العذاب الإلهي فإنهم في خطأ كبير، فإنّ العذاب إذا نزل بهم فساء صباح المنذرين: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنِ آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت في ثعلبة بن حاطب، وكان من الأنصار، فقال للنبي ﷺ أن أدع الله أن يرزقني مالاً. فقال «يا ثعلبة! قليل تؤذي شكره، خير من كثير لا تطيقه، أما لك في رسول الله أسوة حسنة؟ والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة، لسارت». ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله أدع الله أن يرزقني مالاً، والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً، لأعطين كل ذي حق حقه! فقال ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً». قال: فاتخذ غنماً، فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة، فتنحى عنها، فنزل وادياً من أوديتها، ثم كثرت نمواً حتى تباعد عن المدينة، فاشتغل بذلك عن الجمعة والجماعة، وبعث رسول الله ﷺ إليه المصدق ليأخذ الصدقة، فأبى وبخل وقال: ما هذه إلا أخت الجزية! فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح ثعلبة! يا ويح ثعلبة!» وأنزل الله الآيات.

التفسير

المنافقون وقلة الاستيعاب: هذه الآيات تشير إلى صفة أخرى من صفات المنافقين السيئة، وهي أن هؤلاء إذا مسهم البؤس والفقر والمسكنة عزفوا على وتر الإسلام بشكل لا يصدق معه أحد أن هؤلاء يمكن أن يكونوا يوماً من جملة المنافقين، إلا أن هؤلاء أنفسهم، إذا تحسّن وضعهم المادي فإنهم سينسون كل عهودهم ومواثيقهم مع الله والناس، ويفرقون في حبّ الدنيا. فالآية الأولى تتحدث عن بعض المنافقين الذين عاهدوا الله على البذل والعطاء لخدمة عباده إذا ما أعطاهم الله المال الوفير: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنِ آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

إلا أنهم يؤكدون هذه الكلمات والوعود مادامت أيديهم خالية من الأموال ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ

مِنْ فَضْلِهِ يَخْلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٧﴾ غير أن عملهم هذا ومخالفتهم للعهود التي قطعوها على أنفسهم بذرت روح النفاق في قلوبهم وسيبقى إلى يوم القيامة متمكناً منهم ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ وإنما استحقوا هذه العاقبة السيئة غير المحمودة ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

وفي النهاية وبخت الآية هؤلاء النفر ولا متهم على النوايا السيئة التي يضررونها، وعلى انحرافهم عن الصراط المستقيم، واستفهمت بأنهم: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٨﴾ أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾

سبب النزول

وردت عدة روايات في سبب نزول هذه الآيات في كتب التفسير والحديث، يستفاد من مجموعها أن النبي ﷺ كان قد صمَّ على إعداد جيش المسلمين لمقابلة العدو - وربما كان ذلك في تبوك - وكان محتاجاً لمعونة الناس في هذا الأمر، فلما أخبرهم بذلك سارع الأغنياء إلى بذل الكثير من أموالهم، سواء كان هذا البذل من باب الزكاة أو الإنفاق، ووضعوا هذه الأموال تحت تصرف النبي ﷺ.

أما الفقراء، فقد عمدوا إلى مضاعفة عملهم، واستقاء الماء ليلاً، فحصلوا على صاعين من التمر، وشاركوا بهذا الشيء اليسير - الذي لا قيمة له ظاهراً - في هذا المشروع الإسلامي الكبير. غير أن المنافقين الذين لا همَّ لهم إلا تتبع ما يمكن التشهير به بدلاً من التفكير بالمساهمة الجدية فإنهم عابوا كلا الفريقين، أما الأغنياء فاتهموهم بأنهم إنما ينفقون رياءً وسمعة، وأما الفقراء الذين لا يستطيعون إلا جهدهم، والذين قدموا اليسير وهو عند الله كثير، فإنهم سخروا منهم بأن جيش الإسلام هل يحتاج إلى هذا المقدار اليسير؟ فنزلت هذه الآيات، وهددتهم تهديداً شديداً وحذرتهم من عذاب الله.

التفسير

خبث المنافقين: في هذه الآيات إشارة إلى صفة أخرى من الصفات العامة للمنافقين، وهي أنهم أشخاص لجوجون معاندون وهمهم التماس نقاط ضعف في أعمال الآخرين واحتقار كل عمل مفيد يخدم المجتمع ومحاولة إجهاضه بأساليب شيطانية خبيثة من أجل صرف الناس عن عمل الخير. لكن القرآن المجيد ذم هذه الطريقة غير الإنسانية التي يتبعها هؤلاء، وعرفها للمسلمين لكي لا يقعوا في حبال مكر المنافقين ومن ناحية أخرى أراد أن يفهم المنافقون أن سهمهم لا يصيب الهدف في المجتمع الإسلامي. ففي البداية يقول: **إِنَّ هَؤُلاءِ الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**.

والمراد من جملة: **﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾** أن الله سبحانه تعالى سيجازيهم على ما عملوا من الأعمال السيئة، أو أنه تعالى سيحقرهم كما حقروا عباده وسخروا منهم.

ونلاحظ في الآية التي تليها تأكيداً أشد على مجازاة هؤلاء المنافقين، وتذكر آخر تهديد بتوجيه الكلام وتحويله من الغيبة إلى الخطاب، والمخاطب هذه المرة هو النبي ﷺ فقالت: **﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾**.

وإنما لن يغفر الله لهم لأنهم قد أنكروا الله ورسالة رسوله، واختاروا طريق الكفر، وهذا الاختيار هو الذي أرداهم في هاوية النفاق وعواقبه المشؤومة **﴿فَلِكِ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾**. ومن الواضح أن هداية الله تشمل السائرون في طريق الحق وطلب الحقيقة، أما الفساق والمجرمون والمنافقون فإن الآية تقول: **﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾**.

إن نوع العمل هو المهم لا مقداره، وهذه الحقيقة في القرآن واضحة جلية، فالإسلام لم يستند في أي مورد إلى كثرة العمل ومقداره، بل هو يؤكد دائماً - وفي كل الموارد - على أن الأساس هو نوع العمل وكيفيته.

المهم أن كل فرد يجب أن يبذل ما يستطيع، ولا يلتفت إلى مقدار عطائه، فليس المعيار كثرة العطاء وقلته، بل الإحساس بالمسؤولية والإخلاص في العمل.

ومن هذه الواقعة تتضح حقيقة أخرى، وهي أن المسلمين في المجتمع الإسلامي الواقعي السالم يجب أن يحسوا جميعاً بالمسؤولية تجاه المشاكل التي تعترض المجتمع وتظهر فيه، ولا يجب أن ينتظروا الأغنياء والتمكنين يقوموا وحدهم بحل هذه المشاكل والمصاعب، بل

على الضعفاء أيضاً أن يساهموا بما يستطيعون، مهما صغر وقل ما يقدمونه، لأن الإسلام يتعلق بالجميع لا بفتنة منهم، وعلى هذا، فعلى الجميع أن يسعوا في حفظ الإسلام ولو ببذل النفوس والدماء ويعملوا بكل وجودهم من أجل حياته وصيانتها.

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾

يستمر الحديث في هذه الآيات حول تعريف المنافقين وأساليب عملهم وسلوكهم وأفكارهم ليعرفهم المسلمون جيداً، ولا يقعوا تحت تأثير وسائل إعلامهم وخططهم الخبيثة وسمومهم. في البداية تتحدث الآية عن هؤلاء الذين تخلفوا عن الجهاد في تبوك، وتعذروا بأعذار واهية كبيت العنكبوت، وفرحوا بالسلامة والجلوس في البيت بدل المخاطرة بأنفسهم والاشتراك في الحرب رغم أنها مخالفة لأوامر الله ورسوله: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾. وبدل أن يضعوا كل وجودهم وإمكاناتهم في سبيل الله لينالوا افتخار الجهاد وعنوان المجاهدين، فإنهم امتنعوا ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. إلا أن هؤلاء نفر لم يكتفوا بتخلفهم وتركهم لهذا الواجب المهم، بل إنهم سعوا في تخذيل الناس عن الجهاد بوساوسهم الشيطانية ومحاولة إخماد جذوة الحماسة الملتهبة في صدور المسلمين وتشبث المنافقون بكل عذر يمكن أن يحقق الهدف حتى ولو كان العذر الحسراً! ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾.

ثم تتغير وجهة الخطاب إلى النبي ﷺ فيأمره الله سبحانه وتعالى أن يجيبهم بلهجة شديدة وأسلوب قاطع: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾. لكنهم للأسف لضعف إيمانهم، وعدم الإدراك الكافي لا يعلمون أية نار تنتظرهم، فشرارة واحدة من تلك النار أشد حرارة من جميع نيران الدنيا وأشد حرقاً والماء.

وتشير الآية الثانية إلى أن هؤلاء ظنوا بأنهم قد حققوا نصراً بتخلفهم وتخذيلهم المسلمين وصرف أنظارهم عن مسألة الجهاد، وضحكوا لذلك وقهقهوا بملء أفواههم، وهذا

هو حال المنافقين في كل عصر وزمن، إلا أن القرآن حذّرهم من مغبة أعمالهم فقال:

﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ﴾.

نعم، ليكوا على مستقبلهم المظلم: ليكوا على العذاب الأليم الذي ينتظرهم: ليكوا على أنهم أغلقوا كل أبواب العودة بوجوههم، وأخيراً ليكوا على ما أنفقوا من قوتهم وقدراتهم وعمرهم الثمين، واشتروا به الحزى والفضيحة وسوء العاقبة وتعاسة الحظ.

وفي نهاية الآية يبين الله تعالى أن هذه العاقبة التي تنتظرهم هي ﴿ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾.

وفي آخر آية - من الآيات محل البحث - إشارة إلى طريقة أخرى دقيقة وخطرة من طرق المنافقين، وهي أنهم حيناً يرتكبون ما يخالف القانون الإسلامي، فإنهم يُظهرون أعمالاً يحاولون بها جبران ما صدر منهم، ومحاولة تبرئة ساحتهم مما يستحقون من العقوبة، وبهذه الأعمال المناقضة لأعمالهم المخالفة للقانون فإنهم يخفون وجوههم الحقيقية، أو يسعون إلى ذلك. إن الآية الكريمة تقول: ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوا لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَنَاءً ﴾. أي إن النبي ﷺ يجب أن يزرع اليأس في نفوس هؤلاء، ويُعلمهم أن هذا التلون سوف لا ينطلي على أحد، ولن يُخدع بهم أحد.

جملة ﴿ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ توحى أن هؤلاء المنافقين لم يكونوا بأجمعهم يمتلكون الشجاعة حتى يحضروا ويطلبوا من النبي ﷺ السماح لهم في الخروج إلى الجهاد.

ثم تبين الآية أن سبب عدم قبول اقتراح هؤلاء وطلبهم بـ ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾.

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

بعد أن أزاح المنافقون الستار عن عدم مشاركتهم في ميدان القتال، وعلم الناس تخلفهم الصريح، وفشا سرهم، أمر الله سبحانه وتعالى نبيه بأن يتبع أسلوباً أشد وأكثر صراحة ليقتلع وإلى الأبد - جذور النفاق والأفكار الشيطانية، وليعلم المنافقون بأنهم لا محل لهم في المجتمع الإسلامي، وكخطوة عملية في مجال تطبيق هذا الأسلوب الجديد، صدر الأمر الإلهي ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾.

إنّ هذا الأسلوب - في الواقع - هو نوع من الكفاح السلبي الفاعل في مواجهة المنافقين. إنّ هذا البرنامج والأسلوب الدقيق كان قد أعد لمقابلة منافقي ذلك العصر، ويجب أن يستفيد المسلمون من هذه الأساليب.

وفي آخر الآية يتّضح سبب هذا الأمر الإلهي بـ ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ورغم ذلك فإنّهم لم يفكروا بالتوبة ولم يندموا على أفعالهم ليغسلوها بالتوبة، بل إنّهم بقوا على أفعالهم ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاِسْثُونَ﴾.

وهنا يمكن أن يسأل أحدكم: إنّ المنافقين إذا كانوا - حقيقة - بهذا البعد عن رحمة الله، وعلى المسلمين أن لا يُظهروا أي ود أو محبة تجاههم، فلماذا فضّلهم الله تعالى ومنحهم كل هذه القوى الاقتصادية من الأموال والأولاد؟

في الآية الأخرى يوجه الله سبحانه وتعالى الخطاب إلى النبي: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾. فإنّها ليست منحة ومحبة من الله تعالى لهؤلاء المنافقين، بل على العكس تماماً، فإنّ هذه الأموال والأولاد ليست لسعادتهم، بل ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَلِّبَهُمْ بِهَا فِي الْدُنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

إنّ هذه الآية تشير إلى حقيقة وهي أنّ هذه الإمكانيات والقدرات الاقتصادية والقوى الإنسانية للأشخاص الفاسدين ليست غير نافعة لهم فحسب، بل هي - غالباً - سبب لايتلائمهم وتعاستهم، لأنّ أشخاصاً كهؤلاء لا هم يصرفون أموالهم في مواردنا الصحيحة. ليستفيدوا منها الفائدة البناءة، ولا يتمتعون بأبناء صالحين كي يكونوا قرة عين لهم ومعتمدتهم في حياتهم. بل إنّ أموالهم تصرف غالباً في طريق الشهوات والمعاصي ونشر الفساد وتحكيم أعمدة الظلم والطغيان، وهي السبب في غفلتهم عن الله سبحانه وتعالى، وكذلك أولادهم في خدمة الظلمة والفاسدين، ومبتلين بمختلف الانحرافات الأخلاقية، وبذلك سيكونون سبباً في تراكم البلايا والمصائب.

غاية الأمر إنّ الذين يظنون أنّ الأصل في سعادة الإنسان هو الثروة والقوة البشرية فقط، أمّا كيفية صرف هذه الثروة والقوة فليس بذلك الأمر المهم، تكون لوحة حياتهم مفرحة ومبهجة ظاهراً، إلا أنّنا لو اقتربنا منها واطلعنا على دقائقها، وعلمنا أنّ الأساس في سعادة الإنسان هو كيفية الاستفادة من هذه الإمكانيات والقدرات لعلمنا أنّ هؤلاء ليسوا سعداء مطلقاً.

وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

دلالة الحق: الكلام في هذه الآيات يدور كذلك حول المنافقين، فالآية الأولى تتحدث عن حال المنافقين إذا ما دعا الرسول ﷺ الناس إلى الثبات على الإيمان والجهاد في سبيل الله، فإنهم - أي المنافقون - رغم قدرتهم الجسمية والمالية سيطلبون العذر والسماح لهم بعدم المشاركة والبقاء مع ذوي الأعذار: ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾. وفي الآية التي تليها ويخ القرآن هؤلاء، وذمهم وبقبحهم بأنهم ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾.

والمقصود من «الخوالف» في هذه الآية كل الذين عذروا عن المشاركة في الجهاد بشكل أو آخر، أعم من أن يكونوا نساء أو مستين أو مرضى أو صبيان. ثم أضافت الآية: بأن هؤلاء نتيجة لكثرة الذنوب والنفاق وصلوا إلى مرحلة ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

ثم تحدثت الآية التي تليها في الجانب المقابل عن صفات وروحيات الفئة التي تقابل المنافقين، وهم المؤمنون المخلصون، وعن أعمالهم الحسنة، وبالتالي عاقبة أعمالهم المعاكسة تماماً لعاقبة أولئك، فهي تقول: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ فكانت عاقبتهم أن يتمتعوا بكل الخيرات والسعادة واللذائذ المادية والمعنوية في الدنيا والآخرة ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

«الخيرات»: تعبير جامع لكل توفيق وخير ونصر وموهبة، وهي تشمل المادية منها والمعنوية.

ويستفاد بوضوح من هذه الآية أن «الإيمان» و«الجهاد» إذا اتحدا في شخص، فسيصحبها كل خير وبركة، ولا سبيل إلى الفلاح والإخلاص، أو إلى شيء من الخيرات والبركات المادية والمعنوية إلا في ظل هذين العاملين.

وفي آخر آية من الآيات التي نبحثها إشارة إلى قسم من الجزء الأخرى المعد لهؤلاء المؤمنين، فهي تبشرهم بأنهم قد ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وتؤكد لهم بأن هذه المواهب والنعم سوف لا تفتى ولا تنفذ، بل سيقون ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، ثم تبين أن ﴿فَلَيْكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

في هذه الآية - ولمناسبة البحث هنا للأبحاث السابقة حول المنافقين الذين يتعذرون بكل عذر ويتمسكون بأتفه الحجج - إشارة إلى وضع وواقع مجموعتين من المتخلفين عن الجهاد. ففي البداية تقول الآية أن هؤلاء الأعراب رغم أنهم كانوا معذورين في عدم الاشتراك في الجهاد، فإنهم حضروا بين يدي النبي ﷺ وطلبوا منه أن يأذن لهم في الجهاد: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾. وفي مقابل ذلك فإن الفئة الأخرى التي كذبت على الله ورسوله قد تخلف أفرادها دون أي عذر، ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾. وفي النهاية هددت الآية المجموعة الثانية تهديداً شديداً وأذرتهم بأنه ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: إن الآية الأولى نزلت في عبد الله بن زائدة وهو ابن أم مكتوم، وكان ضريب البصر، جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله إني شيخ ضريب، خفيف الحال، نحيف الجسم، وليس لي قائد فهل لي رخصة في التخلف عن الجهاد؟ فسكت النبي ﷺ، فأنزل الله الآية.

والآية الثانية نزلت في البكائين وهم سبعة نفر من فقراء الأنصار جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله! احملنا فإنه ليس لنا ما نخرج عليه. فقال: «لا أجد ما أحملكم عليه».

التفسير

هذه الآيات قسمت المسلمين في مجال المشاركة في الجهاد لتوضيح حال سائر المجاميع من ناحية القدرة على الجهاد، أو العجز عنه، وأشارت إلى خمس مجموعات: أربع منها معذورة حقيقة وواقعاً، والخامسة هم المنافقون.

الآية الأولى تقول: **إِنَّ الضُّعْفَاءَ، وَالْعَاجِزِينَ لِكَبْرٍ أَوْ عَمَى أَوْ نَقْصٍ فِي الْأَعْضَاءِ، وَالَّذِينَ لَا وَسِيلَةَ لَهُمْ يَتَنَقَّلُونَ بِهَا وَيَسْتَفِيدُونَ مِنْهَا فِي الْمَشَارِكَةِ فِي الْجِهَادِ، لَا حَرَجَ عَلَيْهِمْ إِذَا تَخَلَّفُوا** عن هذا الواجب الإسلامي المهم: **﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾**.

هذه الأقسام الثلاث تعذر في كل قانون إذا لم تشارك، والعقل والمنطق يمضي هذا التسامح، ومن المسلم أن القوانين الإسلامية لا تنفصل عن المنطق والعقل في أي مورد.

«الحرج»: في الأصل تعني مركز اجتماع الشيء، ولما كان اجتماع الناس وكثرتهم في مكان ومركز ما ملازم لضيق ذلك المكان، فقد استعملت هذه الكلمة بمعنى الضيق والإزعاج والمسؤولية والتكليف، ويكون معناها في هذه الآية هو المعنى الأخير، أي المسؤولية والتكليف.

ثم بيّنت الآية شرطاً مهماً في السماح لهؤلاء بالإنصراف، وهو إخلاصهم وحبّهم لله ورسوله، ورجاؤهم وعملهم كل خير لهذا الدين الحنيف، لذا قالت: **﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾**. أي إن هؤلاء قادرون على استعمال سلاح الكلمة والسلوك الإسلامي الأمثل، وبهذا يستطيعون ترغيب المجاهدين.

ويجب أن لا يقصروا في هدم وتضعيف معنويات العدو، وتهيئة أرضية الهزيمة في نفوس أفرادهم قدر المستطاع.

ثم تذكر الآية الدليل على هذا الموضوع، فتذكر أن مثل هؤلاء الأفراد الذين لا يألون جهداً في عمل الخير، لا يمكن أن يعاتبوا أو يُؤجَّحوا أو يُعاقبوا، إذ ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾.

بعد ذلك اختتمت الآية بذكر صفتين عظيمتين من صفات الله عز وجل - وكل صفاته عظيمة - كدليل آخر على جواز تخلف هؤلاء المندرجين ضمن المجموعات الثلاث فقالت: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

«غفور»: مأخوذة من مادة الغفران، أي الستر والإخفاء، أي إن الله سبحانه وتعالى سيليقي الستار على أعمال هؤلاء المعذورين ويقبل أذارهم، وكون الله «رحيماً» يقتضي أن لا يكلف أحداً فوق طاقته، بل يعفيه من ذلك، وإذا أُجبر هؤلاء على الحضور في ميدان القتال، فإن ذلك لا يناسب غفران الله ورحمته، وهذا يعني أن الله الغفور الرحيم سيعفي هؤلاء عن الحضور حتماً، ويعفو عنهم.

ثم تشير الآية إلى الفئة الرابعة من المعفو عنهم وهؤلاء هم الذين حضروا - بشوق - عند النبي ﷺ وطلبوا منه أن يحملهم على الدواب للمشاركة في الجهاد، فاعتذر النبي ﷺ بأنه لا يملك ما يحملهم عليه، فخرجوا من عنده وعيونهم تفيض من الدمع حزناً وأسفاً على ما فاتهم، وعلى أنهم لا يملكون ما ينفقونه في سبيل الله: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِمْكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾.

«تفيض»: من مادة الفيضان، أي الإنسكاب والتساقط بعد الإمتلاء، فإن الإنسان إذا أهدم أمر أو دهمته مصيبة، فإذا لم تكن شديدة اغرورقت عيناه بالدموع وامتلت دون أن تجري، أما إذا وصلت إلى مرحلة يضعف الإنسان عن تحملها سالت دموعه.

أما آخر آية فتبين وضع الفئة الخامسة، وهم الذين لم يعذروا، ولن يُعذروا عند الله تعالى، فإنهم قد توفرت فيهم كل الشروط، ويملكون كل مستلزمات الجهاد، فوجب عليهم حتماً، لكنهم رغم ذلك يحاولون التملص من أداء هذا الواجب الإلهي الخطير، فجاؤوا إلى النبي ﷺ يطلبون الإذن في الإنصراف عن الحرب، فبينت الآية أنهم سيؤاخذون بتهمهم ويعاقبون عليه: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَلِينُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾.

وتضيف الآية بأن هؤلاء يكفيهم عاراً وخزياً أن يرضوا بالبقاء مع العاجزين والمرضى رغم سلامتهم وقدرتهم، ولم يهتموا بأنهم سيحرمون من فخر الإشتراك في الجهاد: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾.

وكفى به عقاباً أن يسلبهم الله القدرة على التفكير والإدراك نتيجة أعمالهم السيئة هذه، ولذلك أبغضهم الله ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

تتضح من هذه الآيات المعنويات القوية العالية لمجنود الإسلام، وكيف أن قلوبهم كانت تتطلع بشوق، وتتحرق عشقاً للجهاد والشهادة، وهذا الفخر والوسام مقدم على جميع الأوسمة والصفات الأخرى التي كانوا يمتلكونها، ومن هنا يتضح عامل هو من أهم عوامل التقدم السريع للإسلام وتطوره وانتشاره في ذلك اليوم، وتخلفنا في الوقت الحاضر لفقداننا هذا الوسام.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَنُعَرِّضَنَّ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا وَنَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَنُرَضَّوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرَضَّوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: نزلت الآيات في جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما من المنافقين وكانوا ثمانين رجلاً، ولما قدم النبي ﷺ المدينة راجعاً من تبوك قال: «لا تجالسوهم، ولا تكلموهم».

التفسير

تستمر هذه السلسلة من الآيات في الحديث عن الأعمال الشيطانية للمنافقين. الآية الأولى تبين للمسلمين أن هؤلاء إذا علموا بقدمكم فسيأتون: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾.

ثم يتوجه الخطاب إلى النبي ﷺ - باعتباره قائد المسلمين - بأن يواجه المنافقين: ﴿قُلْ لَا تَعْتَدُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لأننا على علم بأهدافكم الشيطانية وما تضررون وما تعلنون، إذ: ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَحْبَابِكُمْ﴾. إلا أنه في الوقت نفسه سيبقى باب التوبة والرجوع إلى الصواب مفتوحاً أمامكم ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾.

ثم قالت الآية: إن كل أعمالكم ونياتكم ستثبت اليوم في كتبكم ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وفي الآية التالية إشارة أخرى إلى أيمان المنافقين الكاذبين، وتنبية للمسلمين على أن هؤلاء سيتوسلون باليمين الكاذبة لتغفروا لهم خطيئاتهم وتصفحوا عنهم ﴿سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾.

إن هؤلاء يطرقون كل باب ليردوا منه، فتارةً يريدون إثبات براءتهم وعدم تقصيرهم بالإعتذار، وتارةً يعترفون بالتقصير ثم يطلبون العفو عن ذلك التقصير، إذ ربما استطاعوا عن إحدى هذه الطرق النفوذ إلى قلوبكم، لكن لا تتأثروا بأي أسلوب من هذه الأساليب، بل إذا جاؤوكم ليعتذروا إليكم ﴿فَاعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾.

ولتأكيد المطلب وتوضيحه وبيان دليبه عقبته الآية بأن السبب في الاعراض عن هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾، ولأنهم كذلك فإن مصيرهم ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِجَهَنَّمَ﴾. إن كل العواقب السيئة التي سيلقونها إنما يرونها ﴿جَزَاءَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

في الآية الأخيرة التي نبحتها هنا إشارة إلى يمين أخرى من أيمان هؤلاء، الهدف منها جلب رضى المسلمين: ﴿يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾.

الملفت للنظر هنا أن الله تعالى لم يقل: لا ترضوا عنهم، بل عبّر سبحانه بتعبير تُشم منه رائحة التهديد، إذ يقول عز وجل: ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

لا شك أن هؤلاء من الناحية الدينية والأخلاقية لا يعيرون اهتماماً لرضى المسلمين، بل إن الهدف من عملهم هذا هو رفع النظرة السلبية والغضب عليهم من أفكار وقلوب المسلمين، ليكونوا في المستقبل في مأمن من ردود الفعل ضدهم إذا بدرت منهم أعمال منافية.

الْأَعْرَابُ أَشَدَّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ
الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ ذَايِرَةٌ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ
الرَّسُولِ أَلَّا يَأْتِيَ قُرْبَةً لَهُمُ سَيِّدُ خَلْقِهِمْ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

في هذه الآيات الثلاث - استمراراً للبحث المتقدم حول منافقي المدينة - حديث وبحث
حول وضع منافقي الأعراب - وهم سكان البوادي - وعلاماتهم وأفكارهم، وكذلك قد
تحدثت حول المؤمنين الخالص منهم.

وربما كان السبب في تحذير المسلمين من هؤلاء، هو أن لا يتصور المسلمون أن المنافقين
هم - فقط - هؤلاء المتواجدون في المدينة، بل إن المنافقين من الأعراب أشد وأقسى، فالآية
الأولى تقول: إن الأعراب، بحكم بعدهم عن التعليم والتربية، وعدم سماعهم الآيات الربانية
وكلام النبي ﷺ، أشد كُفْرًا ونفاقاً من مشابهمهم في المدينة: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدَّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾
ولهذا البعد والجهل فمن الطبيعي، بل الأولى أن يجهلوا الحدود والأحكام الإلهية التي نزلت
على النبي ﷺ: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾.

كلمة «الأعراب» من الكلمات التي تعطي معنى الجمع، وهذه الكلمة تطلق على سكان
البادية فقط، ومختصة بهم، وإذا أرادوا اطلاقهم على شخص واحد فإتهم يستعملون نفس
هذه الكلمة ويلحقون بها ياء النسب، فيقولون: أعرابي.

«أجدر»: فهي مأخوذة من الجدار، ومن ثم أطلقت على كل شيء مرتفع ومناسب، ولهذا
فإن «أجدر» تستعمل - عادةً - بمعنى الأنسب والأليق.

وتقول الآية أخيراً: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. أي: إنه تعالى عندما يحكم على الأعراب
بمثل هذا الحكم، فلأنه يناسب الوضع الخاص لهم، لأن محيطهم يتصف بمثل هذه الصفات.

لكن ومن أجل أن لا يتوهم بأن كل الأعراب أو سكان البوادي يتصفون بهذه الصفات،
فقد أشارت الآية التالية إلى مجموعتين من الأعراب. ففي البداية تتحدث عن أن قسماً من
هؤلاء الأعراب - لنفاقهم أو ضعف إيمانهم - عندما ينفقون شيئاً في سبيل الله، فإنهم

يعتبرون ذلك ضرراً وخسارة لحقت بهم، لأنه توفيق ونصر وتجارة رابحة: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾^١.

ومن الصفات الأخرى هؤلاء أنهم دائماً ينتظرون أن تحيط بكم المصائب والنوائب والمشاكل، ويرميكم الدهر بسهمه: ﴿وَيَتَرَفُّصُ بِكُمْ الدَّوَائِرُ﴾.

«الدوائر»: جمع دائرة، ومعناها معروف، ولكن العرب يقولون للحادثة الصعبة والألمة التي تحمل بالإنسان: دائرة، وجمعها «دوائر».

في الواقع أن هؤلاء أفراد ضيقو النظر، وبخلاء وحسودون.

ثم تقول الآية - بعد ذلك - إن هؤلاء ينبغي أن لا يتربصوا بكم، وينتظروا حلول المصائب والدوائر بكم، لأنها في النهاية ستحل بهم فقط: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ﴾.

ثم تختتم الآية الحديث بقولها: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، فهو تعالى يسمع كلامهم، ويعلم بنياتهم ومكنون ضمائرهم.

أما الآية الأخيرة فقد أشارت إلى الفئة الثانية من الأعراب، وهم المؤمنون المخلصون، إذ تقول: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. ولهذا السبب فإنهم لا يعتبرون الإنفاق في سبيل الله خسارة أبداً، بل وسيلة للتقرب إلى الله ودعاء الرسول ﷺ لإيمانهم بالجزاء الحسن والعطاء الجزيل الذي ينتظر المنفقين في سبيل الله: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾.

هنا يؤيد الله تعالى ويصدق هذا النوع من التفكير، ويؤكد على أن هذا الإنفاق يقرب هؤلاء من الله قطعاً: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾. ولهذا ﴿سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾. وإذا ما صدرت من هؤلاء هفوات وعترات، فإن الله سيغفرها لهم لإيمانهم وأعمالهم الحسنة، فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

١. «مغرم»: مأخوذة من مادة (غرم) على وزن (جرم)، وهي في الأصل بمعنى ملازمة الشيء، ولهذا المناسبة قيل للدائن والمدين اللذين لا يدع كل منهما صاحبه: غريم، وأيضاً قيل: غرامة، لنفس هذه المناسبة لأنها تلازم الإنسان ولا تنقطع عنه إلا بأدائها.

هذه الآية تشير إلى مجموعات وفئات مختلفة من المسلمين المخلصين، وقسمتهم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: السابقون في الإسلام والهجرة: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾
 الثاني: السابقون في نصرة وحماية النبي ﷺ وأصحابه المهاجرين: ﴿وَالْأَنْصَارُ﴾
 الثالث: الذين جاؤوا بعد هذين القسمين واتبعوا خطواتهم ومناهجهم، وقبولهم الإسلام والهجرة، ونصرتهم للدين الإسلامي، فإنهم إرتبطوا بهؤلاء السابقين: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾.

والملفت للنظر هنا فقد قالوا بالإجماع، إن أول من أسلم من النساء خديجة زوجة النبي ﷺ الوفية المضحية، وأما من الرجال فكل علماء الشيعة ومفسريهم، وفريق كبير من أهل السنة قالوا: إن علياً ﷺ أول من أسلم ولبي دعوة النبي الأكرم ﷺ. وبعد ذكر هذه الأقسام الثلاثة قالت الآية: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾.

إن رضي الله سبحانه وتعالى عن هؤلاء هو نتيجة لإيمانهم وأعمالهم الصالحة التي عملوها، ورضاهم عن الله لما أعد لهم من الجزاء والعطايا المختلفة التي لا تدركها عقول البشر.

ومع أن الجملة السابقة قد تضمنت كل المواهب والنعم الإلهية، المادية منها والمعنوية، الجسمية والروحية، لكن الآية أضافت من باب التأكيد، وبيان التفصيل بعد الإجمال: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. ومن إمتيازات هذه النعمة أنها خالدة، وسيبقى هؤلاء ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾. وإذا نظرنا إلى مجموع هذه المواهب المادية والمعنوية أيقنا أن ﴿ذَلِكَ الْقَوْلُ الْعَظِيمُ﴾. أي فوز أعلى وأكبر من أن يدرك الإنسان أن خالقه ومعبوده ومولاه قد رضي عنه، وقد وقّع على قبول أعماله؟

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَىٰ النَّفَاقِ لَا يَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنَعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَردُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾

مرة أخرى يدير القرآن المجيد دفة البحث إلى أعمال المنافقين وفئاتهم، فيقول: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾. أي يجب أن تأخذوا بنظر الاعتبار المنافقين المتواجدين في أطراف المدينة، وتحذروهم، وتراقبوا أعمالهم ونشاطاتهم الخطرة.

ثم تضيف الآية بأن في المدينة نفسها قسماً من أهلها قد وصلوا في النفاق إلى أقصى درجاته، وثبتوا عليه، وأصبحوا ذوي خبرة في النفاق: ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾.

«مردوا»: مأخوذة من مادة «مرد» بمعنى الطغيان والعصيان والتمرد المطلق، وهي في الأصل بمعنى التعري والتجرد.

إن هؤلاء المنافقين قد انسلخوا من الحق والحقيقة، وتسلطوا على أعمال النفاق إلى درجة أنهم كانوا يستطيعون أن يظهروا في مصاف المؤمنين الحقيقيين، دون أن ينتبه أحد إلى حقيقتهم ومراوغتهم.

إن هذا التفاوت في التعبير عن المنافقين الداخليين والخارجيين في الآية يلاحظ جلياً، وربما كان ذلك إشارة إلى أن المنافقين الداخليين أكثر تسلطاً على النفاق، وبالتالي فهم أشد خطراً، فعلى المسلمين أن يراقبوا هؤلاء بدقة، لكن يجب أن لا يغفلوا عن المنافقين الخارجيين، بل يراقبونهم أيضاً. لذلك تقول الآية مباشرة بعد ذلك: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ ومن الطبيعي أن هذا إشارة إلى العلم الطبيعي للنبي ﷺ ولكن هذا لا ينافي أن يقف كاملاً على أسرارهم عن طريق الوحي والتعليم الإلهي.

وفي النهاية تبين الآية صورة العذاب الذي سيصيب هؤلاء: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مُّزْتَجِجِينَ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

إن العذاب العظيم إشارة إلى عذاب يوم القيامة، وفي نوعية العذابين الآخرين وماهيتها الذي يرجّحه النظر أن واحداً من هذين العذابين هو العقاب الاجتماعي هؤلاء، والمتمثل في فضيحتهم وهتك أسرارهم، والكشف عما في ضمائرهم من خبيث النوايا.

والعذاب الثاني هو ما أشارت إليه الآية (٥٠) من سورة الأنفال، حيث تقول هناك: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ﴾.

وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قال أبو حمزة الثمالي: بلغنا أنهم ثلاثة نفرًا من الأنصار: أبو لبابة بن

عبد المنذر، وثعلبة بن وداعة، وأوس بن حذام، تخلفوا عن رسول الله ﷺ عند مخرجه إلى تبوك، فلما بلغهم ما أنزل الله فيمن تخلف عن نبيّه، أيقنوا بالهلاك وأوثقوا أنفسهم بسواري المسجد، فلم يزلوا كذلك حتى قدم رسول الله ﷺ، فسأل عنهم، فذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلّون أنفسهم حتى يكون رسول الله ﷺ يحلّهم وقال رسول الله ﷺ: «وأنا أقسم لا أكون من حلّهم إلا أن أوامر فيهم بأمر». فلما نزل ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ عمد رسول الله ﷺ إليهم، فحلّهم فانطلقوا فجاءوا بأموالهم إلى رسول الله، فقالوا: هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فخذها، وتصدّق بها عنا. قال ﷺ: «ما امرت فيها». فنزل ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ الآيات.

التفسير

بعد أن أشارت الآية السابقة إلى وضع المنافقين في داخل المدينة وخارجها، أشارت هذه الآية هنا إلى وضع جمع من المسلمين العاصين الذين أقدموا على التوبة لجبران الأعمال السيئة التي صدرت منهم، ورجاء لمحوها: ﴿وَأَخْرَجُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ ويشملهم برحمته الواسعة ف﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسُرُدُّوْا إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالَمِ وَالشَّهَادَةُ فَيُنْتَشَرُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

الزكاة مطهرة للفرد والمجتمع: في الآية الأولى من هذه الآيات إشارة إلى أحد الأحكام الإسلامية المهمة، وهي مسألة الزكاة، حيث تأمر النبي ﷺ بشكل عام أن: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾.

إنّ حكم ﴿خُذْ﴾ دليل واضح على أنّ رئيس الحكومة الإسلامية يستطيع أن يأخذ الزكاة من الناس، لا أنّه ينتظر الناس فإن شاؤوا أدوا الزكاة، وإلا فلا. ثمّ تشير إلى قسمين من الفلسفة الأخلاقية والاجتماعية للزكاة، حيث تقول: ﴿تُطَهِّرُهُمْ

وَتُرْكِيهِمْ بِهَا. فهي تطهرهم من الرذائل الأخلاقية، ومن حبّ الدنيا وعبادتها، ومن البخل وغيره من مساوىء الأخلاق، وتزرع مكانها خلال الحب والسخاء ورعاية حقوق الآخرين في نفوسهم. وفوق كل ذلك فإنّ المفاصد الاجتماعية والانحطاط الخلقي والاجتماعي المتولد من الفقر والتفاوت الطبقي والذي يؤدي إلى وجود طبقة محرومة، كل هذه الأمور ستقتلع بتطبيق هذه الفريضة الإلهية وأدائها.

ثم تضيف الآية في خطابها للنبي ﷺ بأنك حينما تأخذ الزكاة منهم فادع لهم ﴿وَوَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾. إنّ هذا يدل على وجوب شكر الناس وتقديرهم، حتى إذا كان ما يؤدونه واجباً عليهم وحكماً شرعياً يقومون به، وترغيبهم بكل الطرق، وخاصة المعنوية والنفسية.

في الجمع روي عن النبي ﷺ أنّه كان إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِمْ». ثم تقول الآية: ﴿إِنْ صَلَوَتُكَ سَكَنَ لَهُمْ﴾ لأنّ من بركات هذا الدعاء أن تنزل الرحمة الإلهية عليهم، وتغمر قلوبهم ونفوسهم إلى درجة أنّهم كانوا يحسون بها.

وفي نهاية الآية نقراً: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وهذا الختام هو المناسب لما سبق من بحث في الآية، إذ إنّ الله سبحانه يسمع دعاء النبي ﷺ، ومطلع على نيات المؤدين للزكاة.

ولما كان بعض المذنبين - كالمتخلفين عن غزوة تبوك - يصرون على النبي ﷺ في قبول توبتهم، أشارت الآية الثانية من الآيات التي بين يدينا إلى أنّ قبول التوبة ليس مرتبطاً بالنبي ﷺ، بل بالله الغفور الرحيم، لذا قالت: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾. ولا ينحصر الأمر بتوقف قبول التوبة على قبول الله لها، بل إنّ تعالى هو الذي يأخذ الزكاة والصدقات الأخرى التي يعطيها العباد تقرباً إليه، أو تكفيراً لذنوبهم: ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾.

إنّ هذا التعبير من أطف التعبيرات التي تجسّد عظمة هذا الحكم الإسلامي - أي الزكاة - فبالرغم من ترغيب كل المسلمين ودعوتهم إلى القيام بهذه الوظيفة الإلهية الكبيرة، فإنّها تحذرهم بشدّة وتأمّرهم بأن يراعوا الآداب الإسلامية ويتقيّدوا باحترام من يؤدونها إليه، لأنّ من يأخذها هو الله عزّ وجل.

في الجمع عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الصَّدَقَةَ تَقَعُ فِي يَدِ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَى يَدِ السَّائِلِ». وفي تفسير العياشي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَكَلَّ بِهِ مَلِكٌ إِلَّا الصَّدَقَةَ فَإِنَّهَا تَقَعُ فِي يَدِ اللَّهِ».

ثم قالت الآية في النهاية من باب التأكيد: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ أَتَوْابُ الرَّحِيمِ﴾. وتؤكد الآية التي تليها البحوث التي مرّت بصورة جديدة، وتأمّر النبي ﷺ أن يبلغ الناس: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾. فهي تشير إلى أن لا يتصور أحد أنه إذا عمل عملاً، سواء في خلوته أو بين الناس فإنه سيخفى على علم الله سبحانه، بل إن الرسول ﷺ والمؤمنين يعلمون به إضافة إلى علم الله عز وجل.

إنّ هذا الإطلاع هو مقدمة للثواب أو العقاب الذي ينتظره في العالم الآخر، لذا فإنّ الآية الكريمة تعقب على ذلك مباشرة وتقول: ﴿وَسْتُرْدُونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

مسألة عرض الأعمال: إنّ بين أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام ونتيجة للأخبار الكثيرة الواردة عن الأئمة عليهم السلام عقيدة معروفة ومشهورة، وهي أنّ النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام يطلعون على أعمال كل الأمة، أي أنّ الله تعالى يعرض أعمالها بطرق خاصة عليهم.

إنّ مسألة عرض الأعمال لها أثر عظيم على المعتقدين بها، فإني إذا علمت أنّ الله الموجود في كل مكان معي، وبالإضافة إلى ذلك فإنّ نبيي وأمتي عليهم السلام يطلعون على كل أعمالي، الحسنه والسيئة في كل يوم، أو في كل أسبوع، فلا شك أنّي سأكون أكثر مراقبة ورعاية لما يبدر مني من أعمال، وأحاول تجنب السيئة منها ما أمكن عليهم السلام.

وَأَخْرُوجَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت الآية في (ثلاثة من المتخلفين عن تبوك وهم: هلال بن أمية الواقفي، ومرارة بن ربيع، وكعب بن مالك، وهم من الأوس والخزرج وكان كعب بن مالك رجل صدق غير مطعون عليه، وإنما تخلف توانياً عن الإستعداد، حتى فاته المسير وانصرف رسول الله ﷺ فقال: والله ما لي من عذر ولم يعتذر إليّ بالكذب فقال ﷺ: «صدقت، فمر حتى يقضي الله فيك». وجاء الأخران فقالا مثل ذلك وصدقا. فنهى رسول الله ﷺ عن مكالمتهم وأمر نساءهم باعتزالهم حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت فأقاموا على ذلك خمسين ليلة وبني كعب خيمة على سلع يكون فيها وحده. ثم نزلت التوبة عليهم بعد الخمسين في الليل وهو قوله تعالى ﴿وَعَلَىٰ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ الآية (١١٨) من هذه السورة.

التفسير

في هذه الآية إشارة إلى مجموعة من المذنبين الذين لم تتضح جيداً عاقبة أمرهم، فلا هم مستحقون حتماً للرحمة الإلهية، ولا من المغضوب عليهم حتماً، لذا فإن القرآن الكريم يقول في حقهم: ﴿وَعَاخِرُونَ مَرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾. وتضيف الآية - بعد ذلك - أن الله سبحانه سوف لا يحكم على هؤلاء بدون حساب، بل يقضي بعلمه وحكمته: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وَالَّذِينَ أَخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفَرِّقَابَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا الْمَسْجِدُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوْلَىٰ يَوْمٍ أُحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ مَعًا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

سبب النزول

تحدث الآيات أعلاه عن جماعة أخرى من المنافقين الذين أقدموا - من أجل تحقيق أهدافهم المشؤومة - على بناء مسجد في المدينة، عرف فيما بعد بـ (مسجد الضرار).

في تفسير مجمع البيان: قال المفسرون: إن بني عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قباء وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم فأتاهم وصلّى فيه فحسداهم عن جماعة من المنافقين من بني غنم بن عوف، فقالوا: بنى مسجداً فنصلي فيه ولا نحضر جماعة محمد. فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء فلما فرغوا منه، أتوا رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله! إننا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليله المطيرة والليله الشائيه وإننا نحب أن تأتينا فتصلي فيه لنا وتدعو بالبركة. فقال: «إني على جناح سفر، ولو قدمنا أتيناكم إن شاء الله

فصلينا لكم فيه». فلما انصرف رسول الله من تبوك، نزلت عليه الآية في شأن المسجد. وكشف الستار عن أعمال هؤلاء، فأمر النبي ﷺ بحرق المسجد المذكور، وبهدم بقاياها، وأن يجعل مكانه محلاً لرمي القاذورات والأوساخ.

التفسير

معبد وثني في صورة مسجد: أشارت الآيات السابقة إلى وضع مجاميع مختلفة من المخالفين، وتُعرف الآيات التي نبحثها مجموعة أخرى منهم، المجموعة التي دخلت حلبة الصراع بخطة دقيقة وذكية، إلا أن اللطف الإلهي أدرك المسلمين، وبدد أحلام المنافقين بإبطال مكرهم وإحباط خطتهم. فالآية الأولى تقول: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ وأخفوا أهدافهم الشريرة تحت هذا الإسم المقدس، ثم لخصت أهدافهم في أربعة أهداف:

١- إن هؤلاء كانوا يقصدون من هذا العمل إلحاق الضرر بالمسلمين، فكان مسجدهم

﴿ضِرَازًا﴾.

٢- تقوية أسس الكفر، ومحاولة إرجاع الناس إلى الحالة التي كانوا يعيشونها قبل الإسلام: ﴿وَكُفْرًا﴾.

٣- إيجاد الفرقة بين المسلمين، لأن اجتماع فئة من المسلمين في هذا المسجد سيقلل من عظمة التجمع في مسجد قبا الذي كان قريباً منه، أو مسجد النبي ﷺ الذي كان يبعد عنه ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ويظهر من هذه الجملة - وكذلك فهم بعض المفسرين - أن المسافة بين المساجد يجب أن لا تكون قليلة بحيث يؤثر الاجتماع في مسجد على جماعة المسجد الآخر.

٤- والهدف الأخير هؤلاء هو تأسيس مقر ومركز لا يواءم المخالفين للدين وأصحاب السوابق السيئة، والإنطلاق من هذا المقر في سبيل تنفيذ خططهم ومؤامراتهم: ﴿وَإِزْصَادًا لِّعَن حَارَبَ آلَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾.

إلا أن مما يثير العجب أن هؤلاء قد أخفوا كل هذه الأغراض الشريرة والأهداف المشؤومة في لباس جميل ومظهر خداع، وأنهم لا يريدون إلا الخير: ﴿وَلِيَخْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ﴾.

إلا أن القرآن الكريم يبين أن الله تعالى الذي يعلم السرائر وما في مكنون الضمائر، والذي

تساوى لديه الظاهر والباطن، والغيب والشهادة يشهد على كذب هؤلاء: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ
بِئْتَهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

يؤكد الله سبحانه وتعالى في الآية التالية تأكيداً شديداً على مسألة حياتية مهمة، ويأمر
نبيه بصراحة أن ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ بل ﴿لَمَسْجِدٍ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ
تَقُومَ فِيهِ﴾ لا المسجد الذي أسس من أول يوم على الكفر والنفاق وتقويض أركان الدين.
ثم يضيف القرآن الكريم أنه بالإضافة إلى أن هذا المسجد قد أسس على أساس التقوى،
فإن ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾.

إن للطهارة هنا معنى واسعاً يشمل كل أنواع التطهير، سواء التطهير الروحي من آثار
الشرك والذنوب، أو التطهير الجسدي من الأوساخ والنجاسات.

وفي الآية الثالثة من الآيات مقارنة بين فريقين وفئتين: المؤمنين الذين بنوا مساجد
كمسجد قبا على أساس التقوى، والمنافقين الذين بنوه على أساس الكفر والنفاق والتفرقة
والفساد. فهي تقول أولاً: ﴿أَقَمْنَا أُسُسَ بُنْيَانِهِ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ حَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسَسَ
بُنْيَانُهُ عَلَى شَقَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾.

إن التشبيه الوارد أعلاه يعطي صورة في منتهى الوضوح عن عدم ثبات أعمال المنافقين
وتزلزلها، وفي المقابل استحكام ودوام أعمال المؤمنين ونشاطاتهم وبرامجهم.
ومن هنا، فإن المنافقين يظلمون أنفسهم ويظلمون المجتمع أيضاً ولذلك فإن الآية
اختتمت بقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وفي آخر آية إشارة إلى إصرار المنافقين وعنادهم، فهي تعبر عن تعصبهم وإصرارهم في
أعمالهم، وعنادهم في نفاقهم، وحيرتهم في ظلمة كفرهم، فهم في شك من بنيانهم الذي بنوه،
أو في النتيجة المرجوة منه، وسيبقون في هذه الحال حتى موتهم: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ اللَّيْلِ يَبْنَوْنَ
رَيْبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾.

وتقول الآية أخيراً: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

فإنه تعالى إنما أمر نبيه ﷺ بهدم هذا البناء الذي يحمل صفة الحق ظاهراً، حتى تتبين
نيات السوء التي انطوى عليها هؤلاء، وتتكشف حقائقهم وبواطنهم وهذا الحكم الإلهي هو
عين الحكمة، وحسب صلاح المجتمع الإسلامي، وقد صدر على هذا الأساس.

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ
 يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ
 وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ
 الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ السَّيِّئَاتِ الْعَكِيدُونَ
 الْحَمِيدُونَ السَّخِيحُونَ الرَّكْعُونَ السَّجِدُونَ الْآمِرُونَ
 بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

لما كان الكلام في الآيات السابقة عن المتخلفين عن الجهاد، فإن هاتين الآيتين قد بينتا
 المقام الرفيع للمجاهدين المؤمنين مع ذكر مثال رائع. لقد عرّف الله سبحانه وتعالى نفسه في
 هذا المثال بأنه مشترٍ، والمؤمنين بأنهم بائعون، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ
 وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾.

ولما كانت كل معاملة تتكون في الحقيقة من خمسة أركان أساسية، فقد أشار الله سبحانه
 إلى كل هذه الأركان، فجعل نفسه مشترياً، والمؤمنين بائعين، وأموالهم وأنفسهم متاعاً
 وبضاعة، والجنة ثمناً لهذه المعاملة، غاية ما في الأمر أنه بين طريقة تسليم البضاعة بتعبير
 لطيف، فقال: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.

ثم يشير بعد ذلك إلى سند المعاملة الثابت، والذي يشكل الركن الخامس فيها، فقال:
 ﴿وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾.

ثم، ومن أجل التأكيد على هذه المعاملة، تضيف الآية: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾. أي
 إن ثمن هذه المعاملة وإن كان مؤجلاً، إلا أنه مضمون، ولا وجود لأخطار النسيئة، لأن الله
 تعالى لقدرته واستغناؤه عن الجميع أوفى من الكل بعهده.

والأروع من كل شيء أنه تعالى قد بارك للطرف المقابل صفقته، ويتمنى لهم أن تكون
 صفقة وفيرة الربح، تماماً كما هو المتعارف بين التجار، فيقول عز وجل: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ
 الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

كما هي طريقة القرآن المجيد، حيث إنه يُجَمِّلُ الكلام في آية، ثم يعمد إلى التفصيل في الآية التي تليها، فقد بيّن سبحانه في الآية الثانية حال البائعين للروح والمال لربهم عزّ وجل، فذكر تسع صفات مميزة لهم:

١- فهم يغسلون قلوبهم وأرواحهم من رين الذنوب بماء التوبة: ﴿التَّيُّبُونَ﴾.

٢- وهم يطهرون أنفسهم في نفحات الدعاء والمناجاة مع ربهم: ﴿الْقَائِدُونَ﴾.

٣- وهم يحمدون ويشكرون كل نعم الله المادية والمعنوية: ﴿الْحَمِيدُونَ﴾.

٤- وهم ينتقلون من مكان عبادة إلى آخر: ﴿السَّابِقُونَ﴾.

وبهذا الترتيب فإنّ برامج تربية النفس عند هؤلاء لا تنحصر في العبادة، أو في إطار محدود، بل إنّ كل مكان هو محل عبادة لله وجهاد للنفس وتربية لها بالنسبة لهؤلاء، وكل مكان يوجد فيه درس وعبرة لهؤلاء فإنهم سيقصدونه.

٥- وهم يركعون مقابل عظمة الله: ﴿الزَّاكِعُونَ﴾.

٦- ويضعون جباههم على التراب أمام خالقهم ويسجدون له: ﴿السَّاجِدُونَ﴾.

٧- وهم يدعون الناس لعمل الخير: ﴿الْمُرْسِلُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

٨- ولم يقتنعوا بهذه الدعوة للخير، بل حاربوا كل منكر وفساد: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

٩- وبعد أدائهم وظيفته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقومون بأداء آخر وأهم واجب اجتماعي، أي حفظ الحدود الإلهية وإجراء قوانين الله، وإقامة الحق والعدالة: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾.

وبعد ذكر هذه الصفات التسع فإنّ الله يرغّب - مرّة أخرى - أمثال هؤلاء المؤمنين المخلصين الذين هم ثمرة منهج الإيمان والعمل، ويقول للنبي ﷺ: ﴿وَيَسِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

مَا كَانُوا لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانُوا اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا أَيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: إن المسلمين قالوا للنبي ﷺ: ألا تستغفر لأبائنا الذين ماتوا في الجاهلية؟ فأنزل الله سبحانه هذه الآية وبين أنه لا ينبغي لنبي، ولا مؤمن، أن يدعو لكافر، ويستغفر له.

التفسير

نهت الآية الأولى النبي ﷺ والمؤمنين عن الاستغفار للمشركين بلهجة قاطعة وحادة، فهي تقول: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾. ولكي تؤكد ذلك قالت: ﴿وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ﴾.

ثم أن القرآن الكريم بين سبب ودليل هذا الحكم فقال: ﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

فإن هذا العمل - أي الاستغفار للمشركين - عمل لا معنى له وفي غير محله، لأن المشرک لا يمكن العفو عنه بأي وجه، ولا سبيل لنجاة من سار في طريق الشرك.

ولما كان المسلمون العارفون بالقرآن قد قرأوا من قبل أن إبراهيم استغفر لعمه آزر، ولذا فمن الممكن جداً أن يتبادر إلى أذهانهم هذا السؤال: ألم يكن آزر مشركاً؟ وإذا كان هذا العمل منهيّاً عنه فكيف يفعله هذا النبي الكبير؟

هذا نرى أن الآية الثانية تتطرق لهذا السؤال وتجيّب عليه مباشرة لتطمئن القلوب، فقالت: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِثْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾.

وفي آخر الآية توضيح بأن إبراهيم كان إنساناً خاضعاً بين يدي الله عز وجل، وخائفاً من غضبه، وحليماً واسع الصدر، فقالت: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

ضرورة قطع كل رابطة بالأعداء إن هذه الآية ليست الوحيدة التي تتحدث عن قطع كل رابطة بالمشركين، بل يستخلص من عدة آيات في القرآن الكريم أن كل إرتباط وتضامن وعلاقة، العائلية منها وغيرها، يجب أن تخضع لإطار العلاقات العقائدية، ويجب أن يحكم الانتماء إلى الله ومحاربة كل أشكال الشرك والوثنية، كل أشكاليات الترابط بين المسلمين، لأن هذا الإرتباط هو الأساس والحاكم على كل مقدراتهم الاجتماعية، ولا تستطيع

العلاقات والروابط السطحية والفوقية أن تنفيه.

إنّ هذا درس كبير للأمس واليوم، وكل الأعصار والقرون.

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ^{١١٥}
 إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^{١١٥} إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا
 لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ^{١١٦}

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قيل: مات قوم من المسلمين على الإسلام قبل أن تنزل الفرائض، فقال المسلمون: يا رسول الله! إخواننا الذين ماتوا قبل الفرائض، ما منزلتهم؟ فنزل ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ الآية.

التفسير

إنّ الآية الأولى تشير إلى قانون كلي وعام، يؤيده العقل أيضاً، وهو أنّ الله سبحانه وتعالى مادام لم يبيّن حكماً، ولم يصل شيء من الشرع حوله، فإنّه تعالى سوف لا يحاسب عليه أحداً، وبتعبير آخر: فإنّ التكليف والمسؤولية تقع دائماً بعد بيان الأحكام، وهذا هو الذي يعبر عنه في علم الاصول بقاعدة (قبح العقاب بلا بيان). ولذلك فأول ما تطالعنا به الآية قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾.

وأخيراً تقول الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. أي إنّ علم الله يحتم ويؤكد على أنّ الله سبحانه مادام لم يبين الحكم الشرعي لعباده، فإنّه سوف لا يؤاخذهم أو يسألهم عنه.

وتستند الآية التالية على هذه المسألة وتؤكد: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وأنّ نظام الحياة والموت أيضاً بيد قدرته، فإنّه هو الذي ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وعلى هذا: ﴿وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾. وهو إشارة إلى أنّه لما كانت كل القدرات والحكومات في عالم الوجود بيده، وخاضعة لأمره، فلا ينبغي لكم أن تتكلوا على غيره، وتلتجئوا إلى البعيدين عن الله وإلى أعدائه وتوادّوهم، وتوثقوا علاقتكم بهم عن طريق الاستغفار وغيره.

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي
سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ
عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا
ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ
مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ النَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت الآية الأولى في غزاة تبوك، وما لحق المسلمين فيها من العسرة، حتى همّ قوم بالرجوع، ثم تداركهم لطف الله سبحانه.
وأما الآية الثانية: فإنها نزلت في شأن كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية وذلك أنهم تخلفوا عن رسول الله ﷺ ولم يخرجوا معه، لا عن نفاق، ولكن عن توان، ثم ندموا. فلما قدم النبي ﷺ المدينة، جاؤوا إليه، واعتذروا، فلم يكلمهم النبي ﷺ وتقدم إلى المسلمين بأن لا يكلمهم أحد منهم، فهجروهم الناس حتى الصبيان. فضاقت عليهم المدينة، فخرجوا إلى رؤوس الجبال، وكان أهاليهم يجيئون لهم بالطعام، ولا يكلمونهم، فقال بعضهم لبعض: قد هجرنا الناس ولا يكلمنا أحد منهم، فهلانتهاجر نحن أيضاً فتفرقوا، ولم يتجمع منهم اثنان، وبقوا على ذلك خمسين يوماً، يتضرعون إلى الله تعالى، ويتوبون إليه فقبل الله تعالى توبتهم، وأنزل فيهم هذه الآية.

التفسير

تحدثت هذه الآيات أيضاً عن غزوة تبوك، فتشير الآية الأولى إلى رحمة الله اللامتناهية التي شملت النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار في اللحظات الحساسة، وتقول: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾.
ثم تبين أن شمول هذه الرحمة الإلهية لهم كان في وقت اشتدت فيه الحوادث والضغوط والاضطرابات إلى الحد الذي أوشكت أن تزل فيه أقدام بعض المسلمين عن جادة الصواب، (وصمّموا على الرجوع من تبوك) فتقول: ﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾.

ثم تؤكد مرة أخرى على أن الله سبحانه قد تاب عليهم، فتقول: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

ولم تشمل الرحمة الإلهية هذا القسم الكبير الذي شارك في الجهاد فقط، بل شملت حتى الثلاثة الذين تخلفوا عن القتال ومشاركة المجاهدين في ساحة الجهاد: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾.

إلا أن اللطف الإلهي لم يشمل هؤلاء المتخلفين بهذه السهولة، بل عندما عاش هؤلاء - وهم كعب بن مالك ومرارة بن ربيع وهلال بن أمية، الذين مرّ شرح حالهم في سبب النزول - مقاطعة اجتماعية شديدة، وقاطعهم كل الناس بالصورة التي تصورها الآية، فتقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾.

بل إن صدور هؤلاء امتلأت همًا وغمًا بحيث ظنوا أن لا مكان لهم في الوجود، فكانه ضاق عليهم ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ فابتعد أحدهم عن الآخر وقطعوا العلاقة فيما بينهم. عند ذلك رأوا كل الأبواب مغلقة بوجوههم فأيقنوا ﴿وَنظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ فأدركتهم رحمة الله مرة أخرى، وسهلت ويسّرت عليهم أمر التوبة الحقيقية، والرجوع إلى طريق الصواب ليتوبوا: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾

كونوا مع الصادقين: في الآيات السابقة كان الحديث حول جماعة من المتخلفين الذين نقضوا عهدهم مع الله ورسوله، أمّا هذه الآية فقد أشارت إلى النقطة المقابلة لهؤلاء، فهي تأمر بتحكيم الروابط مع الصادقين الذين حافظوا على عهدهم وثبتوا عليه. في البداية تقول الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾. ولأجل أن يستطيعوا سلوك طريق التقوى المليء بالمنعطفات والاضطراب بدون اشتباه وانحراف أضافت: ﴿وَكَُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

والصادقين هم الذين يؤدون تعهداتهم أمام الإيمان بالله على أحسن وجه دون أي تردد أو تماهل ولا يخافون سيل المصاعب والعقبات، بل يُثبتون صدق إيمانهم بأنواع الفداء والتضحية.

ولا شك أن لهذه الصفات درجات، فقد يكون البعض في قمتها، وهم الذين نسميهم بالمعصومين، والبعض في درجات أقل وأدنى منها.

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

كان البحث في الآيات السابقة حول توييخ وملازمة الممتنعين عن الاشتراك في غزوة تبوك، وتبحث هاتان الآيتان البحث النهائي لهذا الموضوع كقانون كلي. فالآية الأولى تقول: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾. لأنه قائد الأمة، ورسول الله، ورمز بقاء وحياة الأمة الإسلامية. من البديهي أن التأكيد على أهل المدينة وأطرافها إنما هو لأن المدينة كانت مقر الإسلام يومئذ ومركزه المشع، وإلا فإن هذا الحكم غير مختص بالمدينة وأطرافها، وغير مختص بالنبي ﷺ فإن واجب كل المسلمين، وفي جميع العصور أن يحترموا ويكرموا قادتهم كأنفسهم، بل أكثر، ويبدلون قصارى جهدهم في سبيل الحفاظ عليهم، ولا يتركوهم يواجهون الصعاب والأخطار وحدهم، لأن الخطر الذي يهدق بهؤلاء يهدق بالأمة جميعاً. ثم تشير الآية إلى مكافآت المجاهدين المعدة مقابل كل صعوبة يلاقونها في طريق الجهاد، وتذكر سبعة أقسام من هذه المشاكل والصعاب وثوابها، فتقول: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾. ومن المحتم أنهم سيقبضون جوائزهم من الله سبحانه، واحدة بواحدة، فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾. وكذلك فإنهم لا يبدلون شيئاً في أمر الجهاد: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ ولا يقطعون أرضاً في ذهابهم للوصول إلى ميدان القتال، أو عند رجوعهم منه إلا ثبت كل ذلك في كتبهم: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ وإنما يثبت ذلك ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: كان رسول الله ﷺ إذا خرج غازياً، لم يتخلف عنه إلا المنافقون والمعذرون. فلما أنزل الله تعالى عيوب المنافقين، وبين نفاقهم في غزاة تبوك، قال المؤمنون: والله لا نتخلف عن غزاة يغزوها رسول الله ﷺ ولا سرية أبداً فلما أمر رسول الله ﷺ بالسرايا إلى الغزو، نفر المسلمون جميعاً وتركوا رسول الله ﷺ وحده فأنزل الله سبحانه ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا﴾ الآية.

التفسير

معاربة الجهل وجهاد العدو: إن هذه الآية إرتباطاً بالآيات السابقة حول موضوع الجهاد، وتشير إلى حقيقة حياتية بالنسبة للمسلمين، وهي: أن الجهاد وإن كان عظيم الأهمية، والتخلف عنه ذنب وعار، إلا أنه في غير الحالات الضرورية لا لزوم لتوجه المؤمنين كافة إلى ساحات الجهاد، خاصة في الموارد التي يبقى فيها النبي ﷺ في المدينة، بل يبقى منهم جماعة لتعلم أحكام الدين ويتوجه الباقيون إلى الجهاد: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾.

فإذا رجع أصحابهم من الجهاد يقومون بتعليمهم هذه الأحكام والمعارف الإسلامية، ويحذرونهم من مخالفتها: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ والهدف من ذلك أن يحذر هؤلاء عن مخالفة أوامر الله سبحانه بانذارهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

المسألة المهمة التي يمكن استخلاصها من الآية، هي الأهمية الخاصة التي أولاها الإسلام لمسألة التعليم والتعلم، إلى الدرجة التي ألزم فيها المسلمين بأن لا يذهبوا جميعاً إلى ميدان الحرب، بل يجب أن يبقى قسم منهم لتعلم الأحكام والمعارف الإسلامية.

إن هذا يعني أن محاربة الجهل واجب كمحاربة الأعداء، ولا تقل أهمية أحد الجهادين عن الآخر. بل إن المسلمين مالم ينتصروا في محاربتهم للجهل واقتلاع جذوره من المجتمع فإنهم سوف لا ينتصرون على الأعداء (لأن الأمة الجاهلة محكومة بالهزيمة دائماً).

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٢﴾

قتال الأترب فالأترب: أشارت الآية في سياق أحكام الجهاد التي ذكرت لحد الآن في هذه السورة - إلى أمرين آخرين في هذا الموضوع الإسلامي المهم، فوجهت الخطاب أولاً إلى المؤمنين وقالت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾.

إن هذه الآية بالرغم من أنها تتحدث عن العمل المسلح والبعد المكاني، إلا أنه ليس من المستبعد أن روح الآية حاكمة في الأعمال المنطقية والفواصل المعنوية، أي إن المسلمين عندما يعزمون على المجابهة المنطقية والإعلامية والتبليغية يجب أن يبدووا بمن يكون أقرب إلى المجتمع الإسلامي وأشدّ خطراً عليه، فمثلاً في عصرنا الحاضر نرى أن خطر الإلحاد والمادية يهدد كل المجتمعات، فيجب تقديم التصدي لها على مواجهة المذاهب الباطلة الأخرى، وهذا لا يعني نسيان هؤلاء، بل يجب اعطاء الأهمية القصوى للهجوم نحو الفئة الأخطر، وهكذا في مواجهة الاستعمار الفكري والسياسي والاقتصادي التي تحوز الدرجة الأولى من الأهمية.

والأمر الثاني فيما يتعلق بالجهاد في الآية، هو أسلوب الحزم والشدة، فهي تقول: إن العدو يجب أن يلمس في المسلمين نوعاً من الخشونة والشدة: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ وهي تشير إلى أن الشجاعة والشهامة الداخلية والإستعداد النفسي لمقاومة العدو ومحاربتة ليست كافية بمفردها، بل يجب اظهار هذا الحزم والصلابة للعدو ليعلم أنكم على درجة عالية من المعنويات، وهذا بنفسه سيؤدي إلى هزيمتهم وانهايار معنوياتهم.

وبعبارة أخرى فإن امتلاك القدرة ليس كافياً، بل يجب استعراض هذه القوة أمام العدو. وفي النهاية تبشر الآية المسلمين بالنصر من خلال هذه العبارة: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾. ويمكن أن يشير هذا التعبير - إضافة لما قيل - إلى أن استعمال الشدة والخشونة يجب أن يقترن بالتقوى، ولا يتعدى الحدود الإنسانية في أي حال.

وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ ءِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ
ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾

تأثير آيات القرآن المتباين على القلوب: تشير هاتان الآيتان إلى واحدة من علامات المؤمنين والمنافقين البارزة، تكلمة لما مرّ من البحوث حولها. فتقول أولاً: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾. وهم يريدون بكلامهم هذا أن يبينوا عدم تأثير سور القرآن فيهم، وعدم اعتنائهم بها، ويقولون: إن هذه الآيات لا تحتوي على الشيء المهم والمحتوى الغني، بل هي كلمات عادية ومعروفة.

ولكن القرآن يجيبهم بلهجة قاطعة، ويقول ضمن تقسيم الناس إلى طائفتين: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

وهذا على خلاف المنافقين ومرضى القلوب من الجهل والحسد والعناد ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾.

وفي النهاية فإن هؤلاء بعنادهم يغادرون الدنيا على الكفر: ﴿وَمَا تَوْأَمَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

إن القرآن الكريم يؤكد من خلال هاتين الآيتين على حقيقة، وهي أن وجود البرامج والقوانين الحياتية لا تكفي بمفردها لسعادة فرد أو جماعة، بل يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار وجود الأرضية المهيئة والإستعداد للتلقّي كشرط أساسي.

أُولَئِكَ يَرْوُونَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١١٦﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

يستمر الكلام في هذه الآيات حول المنافقين، وهي توبخهم وتذمهم فتقول: ﴿أُولَئِكَ يَرْوُونَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾. والعجيب أنهم رغم هذه الامتحانات المتلاحقة لا يعتبرون ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾.

يظهر من تعبير الآية أن هذا الاختبار يختلف عن الاختبار العام الذي يواجهه كل الناس في حياتهم، بل إن هذا الاختبارات التي ينبغي أن تكون سبباً في توعية هذه المجموعة كإزاحة الستار عن أعمال هؤلاء السيئة وظهور باطنهم وحقيقتهم.

ثم تشير الآية إلى الموقف الإنكاري لهؤلاء في مقابل الآيات الإلهية، فتقول: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾.

إِنَّ خَوْفَهُمْ هَوَالًا وَقَلْبُهُمْ نَاشِيٌّ مِنْ أَنْ تَلِكَ السُّورَةُ تَتَضَمَّنُ فَضِيحَةً جَدِيدَةً لَهُمْ، أَوْ لِأَنَّهُمْ لَا يَفْهَمُونَ مِنْهَا شَيْئًا لَعَمْرِي قُلُوبُهُمْ، وَالْإِنْسَانُ عَدُوٌّ مَا يَجْهَلُ.

وعلى كل حال، فإنهم كانوا يخرجون من المسجد حتى لا يسمعوها هذه الأنغام الإلهية، إلا أنهم كانوا يخشون أن يراهم أحد حين خروجهم، ولذلك كان أحدهم يهمس في أذن صاحبه ويسأله: ﴿هَلْ يَرَىٰكُمْ مَنِ أَحَدٍ؟﴾ وإذا ما أطمأنوا إلى أن الناس منشغلون بسماع كلام النبي ﷺ وغير ملتفتين إليهم خرجوا: ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا﴾.

وتطرقت الآية في الختام إلى ذكر علة هذا الموضوع فقالت: إِنَّ هَوَالًا إِنَّمَا لَا يَرِيدُونَ سَمَاعَ كَلِمَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَلَا يَرْتَاخُونَ لِذَلِكَ لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ قَدْ حَاقَتْ بِهَا الظُّلُمَاتُ لِعِنَادِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ فَصَرَفَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنِ الْحَقِّ، وَأَصْبَحُوا أَعْدَاءً لِلْحَقِّ لِأَنَّهُمْ أَنَاسٌ جَاهِلُونَ لَا فِكْرَ لَهُمْ: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

آخر آيات القرآن المجيد: إن هذه الآيات برأي بعض المفسرين، هي آخر الآيات التي نزلت على النبي ﷺ وبها تنتهي سورة التوبة، فهي في الواقع إشارة إلى كل المسائل التي مرت في هذه السورة. ومن هنا فإن خطاب الآية الأولى موجه للناس، فهي تقول: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾. خاصة وأنه قد وردت لفظة ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ وهي تشير إلى شدة إرتباط النبي ﷺ بالناس، حتى كأن قطعة من روح الناس والمجتمع قد ظهرت بشكل النبي ﷺ.

فبعد ذكر هذه الصفة ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أشارت الآية إلى أربع صفات أخرى من صفات النبي ﷺ السامية، والتي لها الأثر العميق في إثارة عواطف الناس وجلب انتباههم وتحريك أحاسيسهم. ففي البداية تقول: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾. أي أن الأمر لا ينتهي في أنه لا يفرح لأذاكم ومصاعبكم، بل إنه لا يقف موقف المتفرج تجاه هذا الأذى، فهو يتألم لألمكم.

ثم تضيف أنه: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ ويتحمس لهدايتكم.

ثم تشير إلى الصفتين الثالثة والرابعة وتقول: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. وعلى هذا فإن

كل الأوامر الصعبة التي يصدرها، (حتى المسير عبر الصحاري المحرقة في فصل الصيف المقرون بالجوع والعطش لمواجهة عدو قوي في غزوة تبوك) فإن ذلك نوع من محبته ولطفه، لنجاتكم ولتخليصكم من قبضة الظلم والاستبداد والمعاصي والتعاسة.

وفي الآية التي تليها، وهي آخر آية في هذه السورة، وصف للنبي ﷺ بأنه شجاع وصلب في طريق الحق، ولا ييأس بسبب عصيان الناس وتمردهم، بل يستمر في دعوتهم إلى دين الحق: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. فهو حصنه الوحيد... أجل لا حصن لي إلا الله، فإنه استندت و﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

إن الذي بيده العرش والعالم العلوي وما وراء الطبيعة بكل عظمتها، وهي تحت حمايته ورعايته، كيف يتركني وحيداً ولا يعينني على الأعداء؟ فهل توجد قدرة لها قابلية مقاومة قدرته؟ أم يمكن تصور رحمة وعطف أشد من رحمته وعطفه؟

«نهاية تفسير سورة التوبة»



مركز تحقيقات الكمبيوتر علوم إسلامي



محتوى وظيفية السورة: هذه السورة - على قول بعض المفسرين - نزلت بعد سورة الإسراء وقبل سورة هود، وتؤكد على عدة مسائل أساسية، وأهمها مسألة المبدأ والمعاد. غاية ما في الأمر أنها تتحدث أولاً عن مسألة الوحي ومقام النبي ﷺ، ثم تتطرق إلى نماذج وعلامات الحلقة العظيمة التي تدل على عظمة الله عز وجل، وبعد ذلك تدعو الناس إلى الالتفات إلى عدم بقاء الحياة المادية في هذه الدنيا، وحتمية زوالها، ووجوب التوجه إلى الآخرة والتهيؤ لها عن طريق الإيمان والعمل الصالح.

وقد ذكرت السورة - كدلائل وشواهد على هذه المسائل - أقساماً مختلفة من حياة كبار الأنبياء، ومن جملتهم نوح وموسى ويونس ﷺ ولهذا سُميت بسورة يونس.

وأخيراً فإنها تستغل كل فرصة للبشارة والإنذار، البشارة بالنعم الإلهية التي لا حدود لها للصالحين، والإنذار والإرعاب للطاغين والعاصين، لتكلمة ما ورد فيها من بحوث.

في كتاب ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة يونس في كل شهرين أو ثلاثة، لم يخف عليه أن يكون من الجاهلين، وكان يوم القيامة من المقربين». وذلك لأن آيات التحذير والوعيد وآيات التوعية كثيرة في هذه السورة.

ربما لا نحتاج أن نذكر بأن فضائل السور لا يمكن تحصيله بمجرد تلاوة الآيات من دون

إدراك معناها، ومن دون العمل بمحتواها، لأن التلاوة مقدمة للفهم، والفهم مقدمة للعمل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّتِّلِكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ
مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ
الْكَافِرُونَ إِنَّا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

رسالة النهمي: في هذه السورة نواجه - مرّة أخرى - الحروف المقطعة في القرآن، والتي ذكرت بصورة ﴿الر﴾. بعد هذه الحروف تشير الآية أولاً إلى عظمة آيات القرآن وتقول: ﴿تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾. إن التعبير بـ«تلك» وهي إسم إشارة للبعيد، بدل (هذه) التي تشير للقريب، والذي جاء نظيره في بداية سورة البقرة، يعتبر من التعبيرات الجميلة واللطيفة في القرآن، وهو كناية عن عظمة ورفعة مفاهيم القرآن.

إن توصيف الكتاب السماوي - أي القرآن - بأنه «حكيم» هو إشارة إلى أن آيات القرآن محكمة ومنظمة ودقيقة، بحيث لا يمكن أن يأتيها أو يخالفها أي شكل من أشكال الباطل والخرافة، فهي لا تقول إلا الحق، ولا تدعو إلا إلى طريق الحق.

أما الآية الثانية فإنها تبين - ولمناسبة تلك الإشارة التي مرّت إلى القرآن والوحي الإلهي في الآية السابقة - واحداً من إشكالات المشركين على النبي ﷺ وهو نفس الإشكال الذي جاء في القرآن بصورة متكررة، وهذا التكرار يبيّن أن هذا الإشكال من إشكالات المشركين المتكررة، وهو: لماذا نزل الوحي الإلهي من الله على إنسان مثلهم؟ ولماذا لم تتعهد الملائكة بمسؤولية هذه الرسالة الكبيرة؟ فيجيب القرآن عن هذه الأسئلة فيقول: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾.

إن كلمة «منهم» تضمنت الجواب على سؤاها، أي إن القائد والمرشد إذا كان من جنس أتباعه، ويعلم أمراضهم، ومطلع على احتياجاتهم، فلا مجال للتعجب، بل العجب أن يكون القائد من غير جنسهم، بحيث يعجز عن قيادتهم نتيجة عدم اطلاعه على وضعهم.

ثم تشير إلى محتوى الوحي الإلهي وتلخصه في أمرين:

الأول: إن الوحي الذي أرسلناه، مهمته إنذار الناس وتحذيرهم من عواقب الكفر

والمعاصي: ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾.

والثاني: هو ﴿وَيُبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

إنَّ «قدم الصدق» هذا إشارة إلى أن الإيمان له «سابقة فطرية» أو إشارة إلى مسألة المعاد ونعيم الآخرة، أو أن القدم بمعنى القدوة والزعيم والقائد، أي إتنا أرسلنا للمؤمنين قائداً ومرشداً صادقاً.

وأن تكون البشارة بكل هذه الأمور هي المرادة من التعبير أعلاه.

وتنهي الآية حديثها بذكر إتهام طالما كرره المشركون واتهموا به النبي ﷺ فقالت: ﴿قَالَ

الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾.

إنَّ أمثال هذه التعبيرات التي كانت تصدر من ناحية الأعداء ضد النبي ﷺ دليل بنفسها على أن النبي ﷺ كان يقوم بأعمال خارقة للعادة، بحيث تجذب القلوب والأفكار نحوها، خاصة وأن التأكيد على السحر في شأن القرآن المجيد هو بنفسه دليل قاطع وقوي على الجاذبية الخارقة الموجودة في هذا الكتاب السماوي، ولأجل خداع الناس فإنهم كانوا يجعلونه في إطار السحر.

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

معرفة الله والمعاد بعد أن أشار القرآن الكريم إلى مسألة الوحي والنبوة في بداية هذه السورة، انتقل في حديثه إلى أصلين أساسيين في تعليقات وتشريعات جميع الأنبياء، ألا وهما المبدأ والمعاد، وبين هذين الأصلين ضمن عبارات قصيرة في هاتين الآيتين.

فيقول أولاً: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾. أي إن الله

سبحانه قد خلق السماء والأرض في ستة مراحل.

ثم تضيف الآية: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأُمْرَ﴾.

«العرش»: تأتي أحياناً بمعنى السقف، وأحياناً بمعنى الشيء الذي له سقف، وتارةً بمعنى الأسرة المرتفعة، هذا هو المعنى الأصلي لها، أما معناها المجازي فهو القدرة.

وبعد أن تبين أن الخالق والموجد هو الله سبحانه، اتضح أن الأصنام - هذه الموجودات الميتة والعاجزة - لا يمكن أن يكون لها أي تأثير في مصير البشر، ولهذا قالت الآية في الجملة التالية: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾.

وتتحدث الآية التالية - كما أشرنا - عن المعاد، وتبين في جمل قصار أصل مسألة المعاد، والدليل عليها، والهدف منها. فتقول أولاً: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾. وبعد الاستناد إلى هذه المسألة المهمة والتأكيد عليها تضيف: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾. ثم تشير إلى الدليل على ذلك بقولها: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

إن الآيات المرتبطة بالمعاد في القرآن توضح أن العلة الأساسية في تشكيك وتردد المشركين والمخالفين، هي أنهم كانوا يشكون في إمكان حدوث مثل هذا الشيء، وكانوا يسألون بتعجب بأن هذه العظام النخرة التي تحولت إلى تراب، كيف يمكن أن تعود لها الحياة وترجع إلى حالتها الأولى؟ ولهذا نرى أن القرآن يقول: فإن من أوجد العالم في البداية يستطيع أن يعيد ذلك اليجاد.

ثم تبين الهدف من المعاد بأنه لمكافأة المؤمنين على جميع أعمالهم الصالحة حيث لا تخفى على الله سبحانه مهما صغرت: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾. أما أولئك الذين اختاروا طريق الكفر والإنكار، ولم تكن لديهم أعمال صالحة - لأن الإعتقاد الصالح أساس العمل الصالح - فإن العذاب الأليم وأنواع العقوبات بانتظارهم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾
 إِنَّ فِي آخِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
 يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

جانب من آيات عظمة الله: لقد مرّت في الآيات السابقة إشارة عابرة إلى مسألة المبدأ

والمعاد، إلا أن هذه الآيات وما بعدها تبحث بصورة مفصلة هذين الأصلين الأساسيين اللذين يمثلان أهم دعامة لدعوة الأنبياء. لقد أشارت الآية الأولى التي نبحتها إلى جوانب من آيات عظمة الله سبحانه في عالم الخلقة فقالت: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾.

إن الشمس التي تعم العالم بنورها لا تعطي النور الحرارة للموجودات فحسب، بل هي العامل الأساس في نمو النباتات وتربية الحيوانات، وإذا ما انقطعت هذه الأشعة الحياتية عن كرتنا الأرضية يوماً فإن السكون والظلمة والموت سيخيّم على كل شيء في فاصلة زمنية قصيرة.

والقمر بنوره الجميل هو مصباح ليلنا المظلمة، ولا تقتصر مهمته على هداية المسافرين ليلاً وإرشادهم إلى مقاصدهم، بل هو بنوره المناسب يبعث الهدوء والنشاط لكل سكان الأرض.

ثم أشارت الآية إلى فائدة أخرى لوجود القمر فقالت: ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَّةَ النَّجْمِ وَالْجِسَابِ﴾. بل إنه تقويم طبيعي دقيق جداً يستطيع الجاهل والعالم قراءته، ويقرأ فيه تأريخ أعماله وأمور حياته.

ثم تضيف الآية: إن هذا الخلق والدوران ليس عملاً غير هادف، أو هو من باب اللعب، بل ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

وفي النهاية تؤكد الآية: ﴿يَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إلا أن هؤلاء الغافلين وفاقدي البصيرة بالرغم من أنهم يمرون كثيراً على هذه الآيات والدلائل، إلا أنهم لا يدركون أدنى شيء منها.

وتتطرق الآية الثانية إلى قسم آخر من العلامات والدلائل السماوية والأرضية الدالة على وجوده سبحانه، فتقول: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. أي إن الذين يدركون تلك الآيات هم الذين سمت أرواحهم وصفت نتيجة لتقواهم وبعدهم عن المعاصي.

لقد عدت الآيات أعلاه اختلاف الليل والنهار من آيات الله سبحانه، وذلك لأن نور الشمس إذا استمر في إشعاعه على الأرض، فإن من المسلم أن درجة الحرارة سترتفع إلى الحد الذي تستحيل معه الحياة على وجه الأرض.

وكذلك الليل إذا استمر فإن كل شيء سينجمد لشدة البرودة.

إلا أن الله سبحانه قد جعل هذين الكوكبين يتبع أحدهما الآخر لتهيئة أسباب الحياة والمعيشة على وجه الكرة الأرضية.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ نَارٍ وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ
 آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ
 الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ
 الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ
 وَآخِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

أهل الجنة والنار: هذه الآيات تفصيل حول المعاد ومصير الناس في العالم الآخر. ففي البداية يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾. فهم لا يعتقدون بالمعاد وتجاهلوا الآيات البينات فلم يتدبروا فيها كما تستيقظ قلوبهم ويتحرك فيهم روح الاحساس بالمسؤولية ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾. فكلتا هاتين الطائفتين مصيرهم إلى النار: ﴿أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

إن النتيجة الطبيعية والحتمية لعدم الإيمان بالمعاد هي الارتباط بهذه الحياة المحدودة والعلائق المادية، والاطمئنان بها والإعتماد عليها.

وكذلك فإن الغفلة عن الآيات الإلهية هي أساس البعد عن الله سبحانه، والابتعاد عن الله هو العلة لعدم الإحساس بالمسؤولية والتلوّث بالظلم والفساد والمعصية، وعاقبة ذلك لا تكون إلا النار.

إن هاتين الآيتين تؤكدان مرّة أخرى هذه الحقيقة، وهي أن إصلاح مجتمع ما وإنقاذه من نار الظلم والفساد، يتطلب تقوية رُكني الإيمان بالله والمعاد اللذين هما شرطان ضروريان وأساسيان، فإن عدم الإيمان بالله سبحانه سيقتلع الإحساس بالمسؤولية من وجود الإنسان، والغفلة عن المعاد يذهب بالخوف من العقاب، وعلى هذا فإن هذين الأساسين العقائديين هما أساس كل الإصلاحات الاجتماعية.

ثم يشير القرآن إلى وضع فئة أخرى في مقابل هذه الفئة، فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴿٧﴾. فإن نور الهداية الإلهية الذي ينبعث من نور إيمانهم يضيء كل آفاق حياتهم، وقد اتضحت لهم الحقائق باشراقات هذا النور بحيث لم تعد شرك المذاهب المادية وزبارجها، ولا الوسوس الشيطانية وبريق المطامع الدنيوية قادرة على التعتيم على افكارهم ودفعتهم في طريق الانحراف عن الصواب والحق.

إن وضع هؤلاء في الحياة الأخرى أنهم ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾. إن هؤلاء يرفلون في محيط مملوء بالصلح والصفاء وعشق الله وأنواع النعم، في كل وقت تنير وجودهم نفحة ورشحة من ذات الله وصفاته، فإن ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾. وكلما التقى بعضهم بالآخر فإنهم يتحدثون عن الصفاء والسلام ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾. وأخيراً فإنهم كلما إلتذوا بنعم الله المختلفة شكروا ذلك ﴿وَأَخْرَجُوا عَنْهَا نَارًا وَأَنْجَبُوا مِنْهَا نُورًا فَكَرَّمُوا بَرْدًا مِنْهَا لِلَّذِينَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَسَبُهُمْ وَلَا يَنْصُرُهُمْ أَوْلَاؤُهُمْ﴾. **الْعَالَمِينَ** ﴿٨﴾.

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعَجَلُوهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضْرَهُ مَرَّكَانَ لَقَدْ عَنَّا إِلَىٰ غَيْرِ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

الهمج الزعاع: الكلام في هذه الآيات يدور كذلك حول عقاب المسيئين، فتقول الآية الأولى بأن الله سبحانه إذا جازى المسيئين على أعمالهم بنفس العجلة التي يحب بها هؤلاء تحصيل النعم والخير، فستنتهي أعمار الجميع ولا يبقى لهم أثر: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعَجَلُوهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾. إلا أن لطف الله سبحانه لما كان شاملاً لجميع العباد، حتى المسيئين والكافرين والمشركين، فلا يمكن أن يعجل بعذابهم وجزائهم لعلمهم يعون ويتوبون، ويرجعون عن الضلال إلى الحق والهدى.

وفي الختام تقول الآية: يكفي عقاباً هؤلاء أن نتركهم وشأنهم ليبقوا في حيرتهم، فلا هم يميزون الحق من الباطل، ولا هم يجدون سبيل النجاة من متاهاتهم: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

عند ذلك تشير الآية إلى وجود نور التوحيد في فطرة الإنسان وأعماق روحه وتقول:

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾.

نعم... إنَّ خاصية المشاكل والشدائد الخطيرة، أنَّها تزيل الحجب عن فطرة الإنسان الطاهرة، ويسطع عندها - ولو لمدة قصيرة - نور التوحيد.

ثم تقول الآية: إنَّ هؤلاء الأفراد إلى درجة من الجهل وضيق الأفق بحيث إنَّهم يعرضون بمجرد كشف الضرِّ عنهم، حتى كأنَّهم لم يدعونا ولم نساعدهم: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَلِئِكَ رِيًّا لِلْمُتَسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

إنَّ الله سبحانه هو الذي يزين الأعمال، وذلك يجعل هذه الخاصية في الأعمال القبيحة والمحرمة، بحيث أن الإنسان كلما تلوَّث بها أكثر، فإنَّه سيتطبع عليها، وبمرور الزمن يزول قبحها تدريجياً، بل وتصل الحال إلى أن يراها حسنة وجميلة.

وأما لماذا سمَّت الآية أمثال هؤلاء «مُسْرِفِينَ» فلأنَّه لا إسراف أكثر من أن يهدر الإنسان أهم رأس مال في وجوده، ألا وهو العمر والسلامة والشباب والقوى، ويصرفه في طريق الفساد والمعصية أو في طريق تحصيل متاع الدنيا التافه الفاني ولا يربح من ذلك شيئاً.

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

الإعتبار بالقالمين السابقين: تشير هذه الآيات أيضاً إلى معاقبة الأفراد الظالمين والمجرمين في هذه الدنيا، وقد نبَّهت المسلمين - بعد أن أطلعتهم على تاريخ من قبلهم - إلى أنَّهم إذا سلكوا نفس طريق هؤلاء، فسينتظرهم نفس المصير. فالآية الأولى تقول: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾. ثم تضيف: ﴿كَلِئِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

ثم تبين الآية التالية هذا الأمر بصورة أكثر صراحة وتقول: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

يستفاد من جملة: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أنَّ الله سبحانه يهلك فقط أولئك الذين لا أمل في إيمانهم حتى في المستقبل، وعلى هذا فإنَّ الأقسام التي يمكن أن تؤمن في المستقبل لا يشملها مثل هذا العقاب.

وَإِذَا تَنَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت في خمسة نفر (من عبدة الأوثان)، قالوا للنبي ﷺ: أنت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ومناة وهبل، وليس فيه عيبها، أو بدله تكلم به من تلقاء نفسك.



كتعقيب للآيات السابقة التي كانت تتحدث عن المبدأ والمعاد، تبحث هذه الآيات نفس الموضوع والمسائل المتعلقة به. في البداية تشير إلى واحد من الإشتباهات الكبيرة لعبادة الأصنام، وتقول: ﴿وَإِذَا تَنَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ﴾.

إن هؤلاء الجهلة العاجزين لم يرضوا بالنبي ﷺ قائداً ومرشداً لهم، بل كانوا يدعون لاتباع خرافاتهم وأباطيلهم.

إن القرآن الكريم يلفت نظر هؤلاء إلى هذا الإشتباه الكبير، ويأمر النبي ﷺ أن يقول لهم: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي﴾. ثم يضيف للتأكيد: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾. ولست عاجزاً عن تغيير أو تبديل هذا الوحي الإلهي - فحسب - بل: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

ثم تنطرق الآية التالية إلى دليل هذا الموضوع وتقول: قل لهم بأنني لست مختاراً في هذا الكتاب السماوي: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ﴾. والدليل على ذلك:

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ﴾. لكنكم لم تسمعوا مني مثل هذا الكلام مطلقاً، ولو كانت هذه الآيات من عندي لتحدثت بها لكم خلال هذه الأربعين سنة، فهل لا تدركون أمراً بهذه الدرجة من الوضوح: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

وكذلك، ومن أجل التأكيد يضيف: بأني أعلم أن أقبح أنواع الظلم هو أن يفترى الإنسان على الله الكذب: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾. وعلى هذا فكيف يمكن أن ارتكب مثل هذا الذنب الكبير.

وكذلك فإن التكذيب بآيات الله سبحانه من أشد الكبائر وأعظمها: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾. فإذا كنتم جاهلين بعظمة ما ترتكبونه من الالتم في تكذيب وإنكار آيات الحق، فإنني لست بجاهل بها، وعلى كل حال فإن عملكم هذا جرم كبير، و﴿إِنَّهُ لَا يَخْلُقُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتْنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ، وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ

الآية بدون خاصية: واصلت الآية الحديث عن التوحيد أيضاً، وذلك عن طريق نفي ألوهية الأصنام، وذكرت عدم أهلية الأصنام للعبادة وإنتفاء قيمتها وأهميتها: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾.

ثم تنطرق إلى إدعاءات عبدة الأوثان الواهية، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتْنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾. أي إن هذه الأصنام والآلهة تستطيع بشفاعتها أن تكون سبباً للضر والنفع رغم عجزها عن أي عمل بصورة مستقلة.

لقد كان الإعتقاد بشفاعاة الأصنام أحد أسباب عبادتها.

إن القرآن يقول في دفع هذا الوهم: ﴿قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾. وهو كناية عن أن الله سبحانه لو كان له مثل هؤلاء الشفعاء. فإنه يعلم بوجودهم في أي نقطة كانوا من السماء والأرض، لأن سعة علم الله لا تدع أصغر ذرة في السماء والأرض إلا وتحيط بها علماً.

وفي آخر الآية تأكيد لهذا الموضوع حيث تقول: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

إن هذه الآية - تنتم للبحث الذي مر في الآية السابقة حول نفي الشرك وعبادة الأصنام - تشير إلى فطرة التوحيد لكل البشر، وتقول: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

إن فطرة التوحيد هذه، والتي كانت سالمة في البداية، إلا أنها قد اختلفت وتلوثت بمرور الزمن نتيجة الأفكار الضيقة، والميول الشيطانية والضعف، فانحرف جماعة عن جادة التوحيد وتوجهوا إلى الشرك، وقد انقسم المجتمع الإنساني إلى قسمين مختلفين: قسم موحد، وقسم مشرك: ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾. بناءً على هذا فإن الشرك في الواقع نوع من البدعة والانحراف عن الفطرة، الانحراف المترشح من الأوهام والخرافات التي لا أساس لها.

وقد يطرح هنا هذا السؤال، وهو: لماذا لا يرفع الله هذا الاختلاف بواسطة عقاب المشركين السريع، ليرجع المجتمع الإنساني جميعه موحدًا؟

ويجيب القرآن الكريم مباشرة عن هذا السؤال بأن الحكمة الإلهية تقتضي حرية البشر في مسير الهداية، فهي رمز التكامل والرقى، ولو لم يكن أمره كذلك فإن الله سبحانه كان سيقضي بينهم في اختلافاتهم: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

المعجزات المقترحة: مرة أخرى يتطرق القرآن الكريم إلى اختلاق المشركين للحجج عند امتناعهم عن الإيمان والإسلام: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾.

إن هؤلاء كانوا يظنون أن الإعجاز أمر بيد النبي ﷺ وهو يستطيع أن يقوم به في أي وقت وبأية كيفية يريد، ولهذا فإن القرآن الكريم يأمر النبي ﷺ مباشرة: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾. وبناء على هذا، فإن المعجزة ليست بيدي لآتيكم كل يوم بمعجزة جديدة إرضاءً لأهوائكم وحسب ميولكم ورغباتكم ثم لا تؤمنون بعد ذلك بأعدار واهية وحجج ضعيفة. وفي النهاية تقول الآية بلهجة التهديد: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾. فانتظروا

العقاب الإلهي، وأنا أنتظر النصر!

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذِ اللَّهُمَّ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ
 مَكْرًا إِنْ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا
 كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَ تَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ
 وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
 لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ
 فِي الْأَرْضِ بغيرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

يدور الكلام في هذه الآيات - أيضاً - حول عقائد وأعمال المشركين، ثم دعوتهم إلى التوحيد ونفي كل أنواع الشرك. فالآية الأولى تشير إلى بعض سلوكيات المشركين الحمقاء، وتقول: إننا عندما نبتلي الناس بالمساكن والنكبات من أجل إيقاظهم وتنبههم، ثم نرفع هذا البلاء عنهم ونذيقهم طعم الراحة والهدوء بعد تلك الضراء، فإنهم بدلاً من أن ينتبهوا لهذه الآيات ويرجعوا إلى الصواب، يسخرون بها، أو يفسرونها بتفسيرات غير صحيحة، فمثلاً يفسرون الإبتلاءات والمساكن بأنها نتيجة غضب الأصنام، والنعم والطمأنينة بأنها دليل على شفقتها، أو أنهم يعدون كل هذه الأمور صدفة محضة: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾.

إن كلمة «مكر» في الآية أعلاه، والتي تعني بشكل عام إعمال الفكر، تشير إلى التوجيهات الخاطئة وطرق التهريب التي يفكر بها المشركون عند مواجهة الآيات الإلهية، وظهور أنواع البلايا والنعم. إلا أن الله سبحانه حذر هؤلاء بواسطة نبيه، وأمره أن ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾.

و«المكر»: في الأصل هو كل نوع من التخطيط المقترن بالعمل الخفي، وعلى هذا فإنه يصدق على الله سبحانه كما يصدق على العباد. ومصداق المكر الإلهي في هذه الآية إشارة إلى نفس تلك العقوبات الإلهية التي يحل بعضها في نهاية الخفاء وبدون أية مقدمة وبأسرع ما يكون، بل إنه يعاقب ويعذب بعض المجرمين بأيديهم أحياناً. وبتعبير آخر فإن الله

سبحانه في أي وقت يريد إنزال العقاب بأحد العباد أو تنبيهه، فإنّ هذا العقاب سيتحقق مباشرة، في حين أنّ الآخرين ليسوا كذلك.

ثم يهدد هؤلاء بأن لا تظنوا أنّ هذه المؤامرات والمخططات ستُنسى، بل إنّ رسلنا - أي الملائكة - يكتبون كل هذه المخططات التي تهدف إلى إطفاء نور الحق: ﴿إِن رُّسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَفَكَّرُونَ﴾ ولذلك يجب أن تهيئوا أنفسكم للجواب والعقاب في الحياة الأخرى.

وتعوض الآية التالية في أعماق فطرة البشر، وتوضح هؤلاء حقيقة التوحيد الفطري، وكيف أنّ الإنسان عندما تلمّ به المشاكل الكبيرة وفي أوقات الخطر، ينسى كل شيء إلا الله تبارك وتعالى ويتعلق به. تقول الآية: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَينَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبِيبَةٍ وَقَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾. في هذا الحال بالضبط تذكروا الله ودعوه بكل إخلاص وبدون أية شائبة من الشرك، و﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾. فيرفعون أيديهم في هذا الوقت للدعاء: ﴿لَئِن أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾. فلا نظلم احداً ولا نشرك بعبادتك غيرك.

ورغم أنّ هذه اليقظة مؤقتة، وليس لها أثر تربوي في الأفراد الملوّثين جداً، أنّها تقيم الحجّة عليهم، وستكون دليلاً على محكوميتهم. أما الذين تلوّثوا بالمعاصي قليلاً، فإنّهم سيستبهبون في هذه الحوادث ويصلحون مسارهم.

ولكن ما أن أنجاهم الله وأوصلهم إلى شاطئ النجاة بدؤوا بالظلم والجور: ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْتَعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾. لكن يجب أن تعلموا - أيها الناس - إنّ نتيجة ظلمكم ستصيبكم أنتم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾. وآخر عمل تستطيعون عمله هو أن تتمتعوا قليلاً في هذه الدنيا: ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ملاحظتان

١- لقد ذكرت «الرحمة» في الآيات أعلاه مقابل «الضراء» ولم تذكر السراء، وهي إشارة إلى أنّ أي حسن ونعمة تصل إلى الإنسان فهي من الله سبحانه ورحمته اللامتناهية، في حين أنّ السوء والنقبات إذا لم تكن للعبرة، فإنّها من آثار أعمال الإنسان نفسه.

٢- إنّ جملة ﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾ تعني أنّ هؤلاء قد أحاطت بهم الأمواج المتلاطمة من كل

جانِب، إِلَّا أَنهَا هُنَا كِنَايَةٌ عَنِ الْهَلَاكِ وَالْفَنَاءِ الْحَتْمِيِّ لِهَؤُلَاءِ.

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرٌ نَالِيًّا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

لوحة الحياة الدنيا: مرّت الإشارة في الآيات السابقة إلى عدم استقرار ودوام الحياة الدنيا، ففي الآية الأولى من الآيات التي نبحثها تفصيل لهذه الحقيقة ضمن مثال لطيف وجميل لرفع حجب الغرور والغفلة من أمام نواظر الغافلين والظغاة ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾.

إن قطرات المطر هذه تسقط على الأراضي التي لها قابلية الحياة. وبهذه القطرات ستنمو مختلف النباتات التي يستفيد من بعضها الإنسان، ومن بعضها الآخر الحيوانات ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾.

إن هذه النباتات علاوة على أنها تحتوي على الخواص الغذائية المهمة للكائنات الحيّة الأخرى، فإنها تغطي سطح الأرض وتضفي عليها طابعاً من الجمال ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ﴾. في هذه الأثناء حيث تفتح الجنازب وتورق أعالي الأشجار وتعطي ذلك المنظر الزاهي وتبتسم الأزهار وتتلاأل الأعشاب تحت أشعة الشمس، وتتأيل الأغصان طرباً مع النسيم، وتُظهر حبات الغذاء والأثمار أنفسها شيئاً فشيئاً وتجسم جانباً دائب الحركة من الحياة بكل معنى الكلمة، وتملأ القلوب بالأمل، والعيون بالسرور والفرح، بحيث ﴿وَضَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾. في هذه الحال وبصورة غير مرتقبة يصدر أمرنا بتدميرها، سواء ببرد قارص، أو ثلوج كثيرة، أو إعصار مدمر، ونجعلها كأن لم تكن شيئاً مذكوراً ﴿أَتَاهَا أَمْرٌ نَالِيًّا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ﴾.

إن جملة ﴿لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ﴾ تعني أنها لم تكن بالأمس هنا، وهذا كناية عن فناء الشيء بالكلية بصورة كأنه لم يكن له وجود مطلقاً.

وللتأكيد تقول الآية في النهاية: ﴿كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.
 إن الآية التالية أشارت بجملة قصيرة إلى الحياة المقابلة لهذه الحياة، وقالت: ﴿وَأَلَلَّهُ
 يَنْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾.

فلا خبر هناك عن مطاحنات واعتداءات المتكالبين على الحياة المادية، ولا حرب ولا
 إراقة دماء ولا استعمار ولا استثمار.

ثم تضيف الآية: إن الله سبحانه يهدي من يشاء - إذا كان لائقاً لهذه الهداية - إلى صراطه
 المستقيم، ذلك الصراط التي ينتهي إلى دار السلام ومركز الأمن والأمان ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
 إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
 الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ
 ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ
 أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾

بيض الوجوه وسود الوجوه: مررت بالإشارة في الآيات السابقة إلى عالم الآخرة ويوم
 القيامة، وهذه المناسبة فإن هذه الآيات تبين مصير الصالحين وعاقبة المذنبين فتقول في
 البداية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾. والمقصود من الزيادة في هذه الجملة، هو الثواب
 المضاعف الكثير، الذي يتضاعف أحياناً عشر مرات، وأخرى آلاف المرات حسب نسبة
 الإخلاص والطهارة والتقوى وقيمة العمل.

ثم تضيف الآية: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾. «يرهق»: مأخوذة من مادة
 «رهق» وهي بمعنى التغطية القهرية والجبرية، و«القتر»: بمعنى «الغبار» والدخان.
 وفي النهاية تقول: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. التعبير بالأصحاب إشارة
 إلى التناسب الموجود بين روحية هذه المجموعة ومحيط الجنة.

ثم يأتي الحديث في الآية التالية عن أصحاب النار الذين يشكلون الطرف المقابل
 للمجموعة الأولى، فتقول: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾. وهنا لا يوجد
 كلام عن الزيادة، لأن الزيادة في الثواب فضل ورحمة، أما في العقاب فإن العدالة توجب أن

يكون بقدر الذنب ولا يزيد ذرة واحدة. إلا أن هؤلاء عكس الفريق الأول مسودة وجوههم ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذُلَّةٌ﴾.

وهذه هي خاصية وأثر العمل الذي ينعكس من داخل روح الإنسان إلى الخارج. فقد يظن المسيئون أنهم سوف يكون لهم طريق للهروب أو النجاة، أو أن الأصنام وأمثالها تستطيع أن تشفع لهم، إلا أن الجملة التالية تقول بصراحة: ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ غَاصِمٍ﴾. إن وجوه هؤلاء مظلمة ومسودة إلى الحد الذي ﴿كَانَمَا أَغْشِيَتْ وَجُوهَهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِتَانًا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلَأُونَ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

مشهد من قيامة عبدة الأوثان: تتابع هذه الآيات أيضاً البحوث السابقة حول المبدأ والمعاد ووضع المشركين، فتقول أولاً: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ﴾.

ثم تضيف: أننا سوف نعزل هاتين الفئتين - أي العابدون والمعبودون - عن بعضهم البعض، ونسأل كلاً منهما على انفراد، تماماً كما هو المتداول في كل المحاكم حيث يسأل كل واحد على انفراد، فنسأل العابدين: بأي دليل جعلتم هذه الأصنام شريكة لله وعبدتموها؟ ونسأل المعبودين: لماذا أصبحتم معبودين؟ أو لماذا رضيتم بهذا العمل؟ ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾. في هذه الأثناء ينطق الشركاء الذين صنعتم أوهام هؤلاء: ﴿وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِتَانًا تَعْبُدُونَ﴾ فأنتم كنتم تعبدون أهواءكم وميولكم وأوهامكم. ثم، ومن أجل التأكيد الأشد، يقولون: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَافِلِينَ﴾.

والمراد من الأصنام والشركاء في هذه الآية أنها تشمل كل المعبودات، غاية ما في الأمر أن المعبودات التي لها عقل وشعور تعيد الحقائق وتذكرها بلسانها، أما المعبودات التي لا

عقل لها ولا شعور فإن الكلام عن لسان حالها، وتتحدث عن طريق انعكاس آثار العمل. ففي ذلك اليوم وذلك المكان وذلك الحال - كما يتحدث القرآن في آخر آية من آيات البحث - فإن كل إنسان سيختبر كل أعماله التي عملها سابقاً ويرى نتيجتها، بل نفس أعماله، سواء العابدون والمعبودون المضلون الذين كانوا يدعون الناس إلى عبادتهم، وسواء المشركون والمؤمنون من أي قوم ومن أي قبيل: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾. وفي ذلك اليوم سيرجع الجميع إلى الله مولاهم الحقيقي، ومحكمة المحشر تبين أن الحكم لا يتم إلا بأمره ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾.

وأخيراً فإن جميع هذه الأصنام والمعبودات المختلفة التي جعلها هؤلاء شريكة لله كذباً ستفنى وتمحى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يُفْتَرُونَ﴾ فإن القيامة ساحة ظهور كل الأسرار الخفية للعباد، ولا تبقى أية حقيقة إلا وتُظهر نفسها.

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا لِنُقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

الحديث في هذه الآيات عن علامات ودلائل وجود الله سبحانه وأهليته للعبادة، وتعقب أبحاث الآيات السابقة حول هذا الموضوع. ففي البداية تقول: قل لهؤلاء المشركين وعبداء الأوثان الحائرين التائهين عن طريق الحق: من يرزقكم من السماء والأرض؟ ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

«الرزق»: يعني العطاء والبذل المستمر، ولما كان الواهب لكل المواهب هو الله سبحانه، فإن «الرازق» و«الرزاق» بمعناها الحقيقي لا يستعملان إلا فيه فقط، وإذا استعملت هذه الكلمة في حق غيره فلا شك أنها من باب الجواز.

والأرض وحدها هي التي تغذي جذور النباتات بواسطة موادها الغذائية، وربما كان هذا هو السبب في أن تتحدث الآية أولاً عن أرزاق السماء، ثم عن أرزاق الأرض حسب تفاوت درجة الأهمية.

ثم تشير الآية إلى حاستين من أهم حواس الإنسان، واللسان لا يمكن كسب العلم وتحصيله بدونها، فقالت: ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ الْمَتَّعَ وَالْأَبْصَارَ﴾.

فإن هذه الآية أشارت إلى النعم المادية أولاً، ثم إلى المواهب والأرزاق المعنوية التي تصبح النعم المادية بدونها فاقدة للهدف والمحتوى.

ثم تطرقت الآية إلى ظاهرتي الموت والحياة اللتين هما أعجب ظواهر عالم الخلق، فتقول: ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾.

وهذا هو نفس الموضوع الذي حيرَ عقول علماء الطبيعة وعلماء الأحياء، وهو كيف أتى الوجود الحي إلى الوجود من موجود ميت؟

هذه الآية تشمل الموت والحياة المعنويين إضافة إلى الموت والحياة الماديين، لأننا نرى أناساً عقلاء طاهرين ورعين مؤمنين يولدون أحياناً من أبوين ملوثين منحرفين لا إيمان لهما، ويلاحظ أيضاً عكس ذلك.

ثم تضيف الآية: ﴿وَمَنْ يُنَبِّئُ الْأَمْرَ﴾. والكلام في الواقع بدأ عن خلق المواهب، ثم عن حافظها وحارسها ومدبرها، وبعد أن بطرح القرآن الكريم هذه الأسئلة الثلاثة يقول مباشرة بأن هؤلاء سيجيئون بسرعة: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾.

يستفاد من هذه الجملة جيداً أنه حتى مشركي وعبدة الأصنام في الجاهلية كانوا يعلمون أن الخالق والرازق والحي ومدبر أمور عالم الوجود هو الله سبحانه.

وفي آخر الآية يأمر الله نبيه: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

وبعد أن عرضت الآية السابقة نماذج من آثار عظمة وتدبير الله في السماء والأرض، وأيقظت وجدان وعقل المخالفين ودعتهم للحكم في أمر الخالق، واعترف هؤلاء بذلك، خاطبتهم الآية التالية بلهجة قاطعة وقالت: ﴿فَلِلَّهِ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ﴾. لا الأصنام، ولا سائر الموجودات التي جعلتموها شريكة للباري عز وجل، والتي تسجدون أمامها وتعظمونها.

ثم تنتهي إلى ذكر النتيجة: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْتُمْ تُصِرُّونَ﴾. وأنى تولوا وجوهكم عن عبادة الله وأنتم تعلمون ألا خالق ولا معبود حقاً سواه؟

إن هذه الآية تطرح طريقاً منطقياً واضحاً لمعرفة الباطل وتركه، وهو أن يخطو الإنسان أولاً في سبيل معرفة الحق بآليات الوجدان والعقل، فإذا عرف الحق فإن كل ما خالفه باطل وضلال، ويجب أن يضرب عرض الحائط.

وتقول آخر آية في بيان العلة في عدم اتباع هؤلاء للحق رغم وضوح الأمر وظهور الحق: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. وفي الواقع فإن هذه خاصية الأعمال السيئة المستمرة هؤلاء بحيث تُظلم قلوبهم وتلوث أرواحهم إلى درجة لا يرون معها الحق رغم وضوحه وتجليه، ويسلكون نتيجة لذلك طريق الضلال.

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَسْبُدُّ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتَ تُوَفِّكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَهَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

واحدة من علامات الحق والباطل: تعقب هذه الآيات أيضاً الاستدلالات المرتبطة بالمبدأ والمعاد، وتأمّر الآية الأولى النبي ﷺ أن ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾. ثم تضيف: ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتَ تُوَفِّكُونَ﴾. ولماذا تصرفون وجوهكم عن الحق وتتجهون نحو الضلال؟

ثم تأمر الآية الأخرى النبي ﷺ مرة أخرى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾. لأنّ المعبود يجب أن يكون هادياً ومرشداً لعباده، خاصة وأنها هداية نحو الحق، في حين أنّ آلهة المشركين، أعم من الجهادات أو الأحياء، غير قادرة أن تهدي أحداً إلى الحق بدون الهداية الإلهية، لأنّ الهداية إلى الحق تحتاج إلى منزلة العصمة والصيانة من الخطأ والاشتباه، وهذا لا يمكن من دون هداية الله سبحانه وتسيده، ولذلك فإنّها تضيف مباشرة: ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾. وإذا كان الحال كذلك ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي﴾.

وتقول الآية في النهاية بلهجة التوبيخ والتفريع والملامة: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾. وفي آخر آية إشارة إلى المصدر الأساس والعامل الأصل لهذه الانحرافات وهو الأوهام والظنون ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾. وفي النهاية تخاطب الآية - بأسلوب التهديد - مثل هؤلاء الأفراد الذين لا يتبعون أي منطق سليم وتقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

إن الآيات أعلاه تبين أن من براجم الله الأصلية لعباده أن يهديهم إلى الحق، ويتم ذلك عن طريق منح العقل، وإعطاء الدروس المختلفة عن طريق الفطرة، وإرادة وإظهار آياته في عالم الخلق، وكذلك عن طريق إرسال الأنبياء والكتب السماوية.

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا بَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

عقمة دعوة القرآن وحقائمه: تتطرق هذه الآيات إلى الإجابة عن قسم آخر من كلمات المشركين السقيمة، فإن هؤلاء لم يجانبوا الصواب في معرفة المبدأ وحسب، بل كانوا يفترون على نبي الخاتم ﷺ بأنه هو الذي اختلق القرآن ونسبه إلى الله، فالآية الأولى تقول:

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾

ثم تتطرق الآية إلى ذكر الدليل على أصالة القرآن وكونه وحياً سماوياً: فتقول ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾. أي إن كل البشارات والدلالات الحقة التي جاءت في الكتب السماوية السابقة تنطبق على القرآن ومن جاء به تماماً، وهذا بنفسه يثبت أنه ليس افتراءً على الله بل هو حق.

ثم تذكر الآية دليلاً آخر على أصالة هذا الوحي السماوي وهو: إن في هذا القرآن شرح كتب الأنبياء السابقين الأصيلة، وبيان أحكامهم الأساسية وعقائدهم الأصولية، ولهذا فلا شك في كونه من الله تعالى، فتقول: ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وبتعبير آخر: لا يوجد فيه أي تضاد وتناقض مع براجم وأهداف الأنبياء السابقين، بل يلاحظ فيه تكامل تلك التعليقات والبرامج، وإذا كان هذا القرآن مختلفاً فلا بد أن يخالفها ويناقضها.

وذكر في الآية التالية دليل ثالث على أصالة القرآن، وخاطبت الذين يدعون أن النبي ﷺ قد افتري هذا القرآن على الله، بأنكم إن كنتم صادقين في دعواكم فأتوا بسورة من

مثله، واستعينوا في ذلك بمن شتم غير الله، ولكنكم لاتستطيعون فعل ذلك أبداً، وبهذا الدليل يثبت أن القرآن من وحي السماء ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعَلَّمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

إن هذه الآيات من جملة الآيات التي تبين إعجاز القرآن بصراحة، لا إعجاز كل القرآن فحسب، بل حتى إعجاز السورة الواحدة، وقد خاطبت كل العالمين - بدون استثناء - بأنكم إن كنتم معتقدين بأن هذه الآيات ليست من الله فأتوا بمثله، أو بسورة منه على الأقل.

وفي الآية التالية إشارة إلى واحدة من العلل الأساسية لمخالفة المشركين، فتقول: إن هؤلاء لم ينكروا القرآن بسبب الإشكالات والإيرادات، بل إن تكذيبهم وإنكارهم إنما كان بسبب عدم اطلاعهم وعلمهم به: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلْمِهِ﴾.

في الحقيقة لم يكن هؤلاء أي دليل على نفي المبدأ والمعاد، وكان الجهل والتخلف الناشء من الخرافات والتعود على مذهب الأجداد هو السد الوحيد في طريقهم.

أو الجهل بأسرار الأحكام.

أو الجهل بمفهوم بعض الآيات المتشابهة.

أو الجهل بمعنى الحروف المقطعة.

أو الجهل بالدروس والعبر التي هي الهدف النهائي من ذكر تاريخ الماضين.

إن مجموع هذه الجهالات والضلالات كانت تحملهم على الإنكار والتكذيب، في حين أن تأويل وتفسير وتحقيق المسائل المجهولة بالنسبة لهؤلاء لم يبين بعد ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾. «التأويل»: في أصل اللغة بمعنى إرجاع الشيء وعلى هذا فإن كل عمل أو قول يصل إلى هدفه النهائي نقول عنه: إن تأويله قد حان وقته.

ثم يضيف القرآن مبيناً أن هذا المنهج الزائف لا ينحصر بمشركي عصر الجاهلية، بل إن الأقسام السابقين كانوا مبتلين أيضاً بهذه المسألة، فإنهم كانوا يكذبون الحقائق وينكرونها دون السعي لمعرفة الواقع، أو إنتظار تحققه: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

في حين أن العقل والمنطق يحكان بأنه لا ينبغي للإنسان إنكار ما يجهله مطلقاً، بل يبدأ بالبحث والتحقيق.

وفي النهاية وجهت الآية الخطاب إلى النبي ﷺ وقالت: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾. أي إن هؤلاء سيقولون أيضاً نفس المصير.

وأشارت الآية الأخيرة من آيات البحث إلى فئتين عظيمتين من المشركين، فتقول: **إِنَّ هَؤُلَاءَ لَا يَبْقُونَ جَمِيعاً عَلَى هَذَا الْحَالِ**، بل إن جماعة منهم لم تحمد فيهم روح البحث عن الحق وطلبه وسيؤمنون بالقرآن في النهاية. في حين أن الفئة الأخرى ستبقى في عنادها وإصرارها وجهلها، وسوف لا تؤمن أبداً: **﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾**.
ومن الواضح أن أفراد الفئة الثانية فاسدون ومفسدون، ولذلك قالت الآية في النهاية: **﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾**. وهي إشارة إلى أن الذين لا يدعون للحق، هم أفراد يسعون لحل عرى المجتمع، ولهم دور مهم في إفساده.

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ أَنْتُمْ بَرِيحُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

تتابع هذه الآيات البحث الذي مرّ في الآيات السابقة حول إنكار وتكذيب المشركين، وإصرارهم على ذلك، فقد علّمت الآية الأولى النبي ﷺ طريقة جديدة في المواجهة، فقالت: **﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ أَنْتُمْ بَرِيحُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾**.

إن إعلان الترفع وعدم الاهتمام هذا، والمقترن بالاعتماد والإيمان القاطع بالمذهب، أثراً نفسياً خاصاً، وبالذات على المنكرين المعاندين، فهو يفهمهم بعدم وجود أي إجبار وإصرار على قبولهم الدعوة الإسلامية، بل إنهم بعدم تسليمهم أمام الحق سيحرمون أنفسهم، ولا يضررون إلا أنفسهم.

وتشير الآيتان التاليتان إلى سبب انحراف هؤلاء وعدم إدعائهم للحق، وتبين أن التعليمات الصحيحة، والآيات المعجزة التي تهز الوجدان والدلالات الأخرى الواضحة لا تكفي بمفردها لهداية الإنسان، بل إن إستعداد التقبل ولياقة قبول الحق لازمة أيضاً، كما أن البذر لو حده ليس كافياً لإنبات النبات والأوراد، بل إن الأرض بدورها يجب أن تكون مستعدة. ولهذا قالت الآية: **﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾**.

وهناك فئة ثانية يشخصون بأبصارهم إليك، وينظرون إلى أعمالك المتضمنة أحقيتك وصدق قولك، إلا أنهم عمي لا يبصرون: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾.

ولكن إعلم وليعلم هؤلاء أن قصور الفكر هذا، وعدم البصيرة والعمى عن رؤية وجه الحق، والصمم عن سماع كلام الله ليس شيئاً ذاتياً لهم نشؤوا عليه منذ ولادتهم، وإن الله تعالى قد ظلمهم، بل إنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بأعمالهم السيئة وعدائهم وعصيانهم للحق، وعطلوا بذلك عين بصيرتهم وأذن أفئدتهم عن سماع الحق وإتباعه، فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسُ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَّبِعَنَّكَ فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

مرآة حقيرة في علوم رسول

بعد بيان بعض صفات المشركين في الآيات السابقة، أشير هنا إلى وضعهم المؤلم في القيامة. تقول الآية: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾. الاحساس بقلّة مقدار الإقامة في دار الدنيا وقصره، إمّا لأنه بالنسبة للحياة الأخروية لا يبلغ سوى ساعة واحدة، أو لأنّ هذه الدنيا الفانية انقضت بسرعة بحيث كأنّها لم تكن أكثر من ساعة، أو لأنهم لما لم يستفيدوا من عمرهم الاستفادة الصحيحة، فيتصورون أنّها لا تساوي أكثر من قيمة ساعة.

يستفاد من الآيتان (٥٥ و ٥٦) من سورة الروم، أنّ مجموعة من المجرمين يُقسمون في القيامة أنّ فترة برزخهم لم تكن أكثر من ساعة، إلا أنّ المؤمنين يقولون لهم: إنّ المدّة كانت طويلة، والآن قد قامت القيامة وأنتم لاتعلمون، ونحن نعلم أنّ البرزخ ليس متساوياً بالنسبة للجميع، وسنذكر تفصيل ذلك في ذيل الآيات المناسبة.

ثم تضيف الآية أنّه سيثبت لكل هؤلاء في ذلك اليوم: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ

﴿اللَّهُ﴾. وأنفقوا كل ملكاتهم وطاقتهم الحيوية دون جدوى ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ بسبب هذا التكذيب والإنكار والإصرار على الذنب، ولأن قلوبهم وأرواحهم كانت مظلمة. وتقول الآية التالية تهديداً للكفار، وتسلية لحاطر النبي ﷺ: ﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْنُهُمْ أَوْ نَتَوْفِّئَكَ فَأَلَيْنَا مَزِجَهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾.

وتبين الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث قانوناً كلياً في شأن كل الأنبياء، ومن جملتهم نبي الخاتم ﷺ، وكل الأمم ومن جملتها الأمة التي كانت تحيا في عصر النبي ﷺ فتقول: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾. فإذا جاء رسوؤها وبلغ رسالته، وآمن قسم منهم وكفر آخرون، فإن الله سبحانه يقضي بينهم بعدله، ولا يظلم ربك أحداً، فيبقي المؤمنون والصالحون يتمتعون بالحياة، أما الكافرون فصيرهم الفناء أو الهزيمة: ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ فَجِئْنَاهُمْ بِالنَّارِ وَالسَّيْفِ وَأَمَّا كَافِرُونَ فَمَا كَانُوا يَنْتَظِرُونَ﴾.

وهذا ما حصل لنبي الخاتم ﷺ وأُمَّته المعاصرة له، وبناء على هذا فإن القضاء والحكم الذي ورد في هذه الآية هو القضاء التكويني في هذه الدنيا.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بُيِّنًا أَوْ نَهَارًا مَا ذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَمْ أَرَأَيْتُمْ إِذَا مَا وَقَعْنَا مِنْكُمْ بِهِ عَذَابٌ أَلْتَنُّ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْرُونَ إِلَّا يَمَّا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

العذاب الإلهي واختبارات الرسول: بعد التهديدات التي ذكرت في الآيات السابقة المتعلقة بعذاب وعقاب منكري الحق، فإن هذه الآيات تنقل أولاً استهزاء هؤلاء بالعذاب الإلهي وسخريتهم وانكارهم. فتقول: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

فإن هؤلاء أرادوا بهذه الكلمات أن يظهر عدم اهتمامهم بتهديدات النبي ﷺ.

وفي مقابل هذا السؤال، فإن الله سبحانه أمر نبيه ﷺ أن يجيبهم بعدة طرق:

فيقول أولاً: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾. فإني لست إلا رسوله

ونبيّه، وإنّ تعيين موعد نزول العذاب بيده فقط.

إنّ هذه الجملة إشارة إلى توحيد الأفعال حيث يرتبط كل شيء في هذا العالم بالله سبحانه، وكل الحركات والأفعال معلولة لإرادته ومشيئته، فهو الذي ينصر المؤمنين بحكمته، وهو الذي يجازي المنحرفين بعدالته.

من البديهي أنّ ذلك لا ينافي أنّ الله قد أعطانا قوى وطاقات نملك بواسطتها جلب النفع ودفع الضرر، ونستطيع أن نختار ما يتعلق بمصيرنا.

ثم يتطرق القرآن إلى جواب آخر ويقول: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَجِرُّونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

إنّ القرآن الكريم يحذر المشركين الذين كانوا يتعجلون العذاب الإلهي بأن لا يعجلوا، فعندما يحل موعدهم فإنّ هذا العذاب سوف لن يتأخر أو يتقدم لحظة.

وتطرح الآية الأخرى الجواب الثالث، فتقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا﴾. فهل تستطيعون أن تدفعوا عن أنفسكم هذا العذاب المفاجيء غير المرتقب؟ وإذا كان الحال كذلك فـ ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

وفي الآية التالية ورد جواب رابع هوّ لاء، فهي تقول: إذا كنتم تفكرون أن تؤمنوا حين نزول العذاب، وأنّ إيمانكم سيقبل منكم، فإنّ ظنكم هذا باطل لا صحة له: ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ عَامَنْتُمْ بِهِ﴾. لأنّ أبواب التوبة ستغلق بوجوهكم بعد نزول العذاب، وليس للإيمان حينئذ أدنى أثر، بل يقال لكم: ﴿عَالِمِينَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

هذا بالنسبة لعقاب هؤلاء الدنيوي، وفي الآخرة: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾. فإنّ أعمالكم هي التي أخذت بأطرافكم، وهي التي تتجسد أمامكم وتؤذيكم على الدوام.

وَيَسْتَدِثُّونَكَ أَحَقُّ هُوَ قَوْلِي وَرَبِّي إِنَّهُ لِحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ
لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَارَأُوا الْعَذَابَ
وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ إِلَّا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
الْإِنِّ وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

لا معنى للشك في العذاب الإلهي، كان البحث في الآيات السابقة عن جزاء وعقاب

المجرمين في هذه الدنيا والعالم الآخر، وتكمل هذه الآيات هذا البحث أيضاً. فالآية الأولى تقول: **إِنَّ هَؤُلَاءِ يَسْأَلُونَكَ بِتَعَجُّبٍ مَا فَهَمَ عَنْ حَقِيقَةِ هَذَا الْوَعِيدِ بِالْعَذَابِ الْإِلَهِيِّ فِي هَذَا الْعَالَمِ وَالْعَالَمِ الْآخِرِ: ﴿وَيَسْتَنْبِثُونَكَ أَحَقُّ هُوَ﴾.**

ويأمر الله سبحانه نبيه أن يجيبهم على هذا السؤال بما أوتي من التأكيد: **﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ﴾.** وإذا ظننتم أنكم تستطيعون أن تفلتوا من قبضة العقاب الإلهي فأنتم على خطأ كبير: **﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.**

وتؤكد الآية الأخرى على عظمة هذه العقوبة، وخاصة في القيامة، فتقول: **﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾.**

إن هؤلاء مستعدون لأن يدفعوا أكبر رشوة يمكن تصورها من أجل الخلاص من قبضة العذاب الإلهي، لكن لا أحد يقبل من هؤلاء شيئاً، ولا ينقص من عذابهم مقدار رأس أبرة، خاصة وأن لبعض هذه العقوبات صبغة معنوية، وهي أنهم: يرون العذاب والفضيحة في مقابل أتباعهم مما يوجب لهم اظهار الندم مزيداً من الحزني والعذاب النفسي فلذلك يحاولون عدم ابراز الندم: **﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ تَمَّارًا وَأَوَّا الْعَذَابَ﴾.**

ثم تؤكد الآية على أنه بالرغم من كل ذلك، فإن الحكم بين هؤلاء يجري بالعدل، ولا يظلم أحد منهم: **﴿وَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.**

ثم، ومن أجل أن لا يأخذ الناس هذه الوعود والتهديدات الإلهية مأخذ الهزل، ولكي لا يظنوا أن الله عاجز عن تنفيذ هذه الوعود، تضيف الآية: **﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.** لأن جهلهم قد حجب بصيرتهم وجعل عليها غشاوة فلم يعوا الحقيقة.

وتؤكد آخر آية على هذه المسألة الحياتية مرة أخرى، حيث تقول: **﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.** وبناء على ذلك فإن له القدرة على إمامة العباد، كما أن له القدرة على إحيائهم لمحكمة الآخرة، وفي النهاية: **﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ﴾.** وستلاقون جزاء كل أعمالكم هناك.

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ فَدَجَاءَ تَكُم مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا

القرآن رحمة إلهية كبرى، لقد جاءت في بعض الآيات السابقة بمحوت في شأن القرآن عكست جوانب من مخالقات المشركين. وفي هذه الآيات تجدد الكلام عن القرآن بهذه المناسبة أيضاً، في البداية تخاطب جميع البشرية خطاباً عالمياً وشمولياً وتقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. لقد بيّنت هذه الآية أربع صفات للقرآن وتشرح وتبين أربع مراحل من مراحل تربية وتكامل الإنسان في ظل القرآن:

المرحلة الأولى: مرحلة الموعظة والنصيحة.

المرحلة الثانية: مرحلة تطهير روح الإنسان من مختلف أنواع الرذائل الأخلاقية.

المرحلة الثالثة: مرحلة الهداية التي تجري بعد مرحلة التطهير.

المرحلة الرابعة: هي المرحلة التي يصل فيها الإنسان إلى أن يكون لا تقاً لأن تشمله رحمة الله ونعمته.

وتقول الآية الأخرى من أجل تكميل هذا البحث والتأكيد على هذه النعمة الإلهية الكبرى - أي القرآن المجيد -: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ ولا يفرحوا بمقدار الثروات، وعظم المراكز، وعزة القوم والقبيلة، لأن رأس المال الحقيقي والأساس للسعادة الحقيقية هو هذا القرآن، فهو أفضل من كل ما جمعه، ولا يمكن قياسه بذلك المجموع، إذا ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَأَلَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ تَفَرُّوتٌ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

هو الشاهد في كل مكان، كان الحديث في الآيات السابقة عن القرآن، والموعظة الإلهية والهداية والرحمة في هذا الكتاب السماوي، وتتحدث هذه الآيات عن قوانين المشركين

المبتدعة والخرافية وأحكامهم الكاذبة. الآية الأولى وجهت الخطاب إلى النبي ﷺ وقالت: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾. إذ أنهم طبقاً لسننهم الخرافية حرّموا قسماً من الدواب وكذلك حرّموا جزءاً من محاصيلهم الزراعية. ثم تقول: ﴿قُلْ أَلَلَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾.

الآن وقد أصبح من المسلم أن هؤلاء بهذه الأحكام الخرافية المبتدعة، إضافةً إلى أنهم حرّموا من النعم الإلهية، فإنهم قد افتروا على الساحة الإلهية المقدسة، ولذلك تضيف الآية: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَلْوَفِيُّ عَلَى النَّاسِ﴾ ولذلك فإنه لسعة رحمته لا يعاقب هؤلاء فوراً على أعمالهم القبيحة. إلا أن هؤلاء بدل أن يستغلوا هذه الفرصة الإلهية ويشكروا الله على ذلك وينيبوا إليه، فإن أكثرهم غافلون: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

وحتى لا يتصور أحد أن هذه المهلة الإلهية دليل على عدم إحاطة علم الله سبحانه بكل أعمال هؤلاء، فإن آخر آية من آيات البحث تبين هذه الحقيقة بأبلغ عبارة وتوضح أن الله مطلع على كل ذرات الموجودات في خفايا السماء والأرض، ومطلع على دقائق أعمال العباد، فتقول: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾.

ثم تعقب الآية على مسألة اطلاع الله على كل شيء بتأكيد أكبر، فتقول: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾. «يعزب»: مأخوذة من العزوب، وهو في الأصل بمعنى الابتعاد عن البيت والأهل في سبيل إيجاد وتهيئة المراتع للأغنام والحيوانات، ثم استعملت بمعنى الغيبة والإختفاء بصورة مطلقة.

و«الذرة»: بمعنى الجسم الصغير جداً، ولذلك يقال للنمل الصغير: ذرة، ولمزيد التوضيح راجع تفسير الآية (٤٠) من سورة النساء.

«الكتاب المبين» إشارة إلى علم الله الواسع، والذي يعبر عنه أحياناً باللوح المحفوظ، وقد تحدثنا عن هذا الموضوع في تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

لقد بيّنت آخر هذه الآيات درساً كبيراً لكل المسلمين... درس يستطيع أن يسلك بهم طريق الحق ويصرفهم عن الإنحرافات والطرق المتلوية... درس فيه صلاح المجتمع مع

التوجه إليه، وهو: إننا يجب أن نعي هذه الحقيقة، وهي أن كل خطوة نخطوها، وكل كلام نقوله، وكل فكرة تخطر في أذهاننا، ولأي جهة ننظر، وعلى أي حال نكون، فليس الله سبحانه وحده يراقبنا ونحن على هذه الأحوال والأفعال، بل إن ملائكته تراقبنا أيضاً، وينظرون إلينا بكل دقة وانتباه.

في الجمع عن الإمام الصادق عليه السلام: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا قرأ هذه الآية بكى بكاءً شديداً». فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله مع كل ذلك الإخلاص والعبودية، ومع كل تلك الخدمة للمخلوق والعبادة للمخلوق خائفاً من عمله في مقابل علم الله، فإن حالنا وحال الآخرين معلوم.

الآيَاتِ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا
وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ
لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ
لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾

طمأنينة الروح في قل الإيمان؛ لما شرحت الآيات السابقة بعضاً من حالات المشركين والأفراد غير المؤمنين، بيّنت هذه الآيات حال المؤمنين المخلصين المجاهدين المتقين الذين يقعون في الطرف المقابل لأولئك تماماً، تقول الآية أولاً: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. إن المقصود من الغموم هي الغموم المادية والأخايف الدنيوية، وإلا فإن وجود أولياء الله مملوء بالخوف والحشية... الخوف من عدم أداء الواجبات والمسؤولية. والأسف والحسرة على أن يكون قد فاتهم شيء من الموفقية، ولهذا الخوف والحسرة صفة معنوية، فهما أساس تكامل وجود الإنسان ورقته، بعكس الخوف والحزن الدنيويين فهما أساس الإنحطاط والتسافل.

إن أولياء الله هم الذين لا يوجد حاجب وحائل بينهم وبين الله، فقد زالت الحجب عن قلوبهم ويتقلبون في نور المعرفة والإيمان والعمل الخالص، ويرون الله بعيون قلوبهم بحيث لا يجد الشك أي طريق إلى تلك القلوب الواهية، وبالنظر لهذه المعرفة بالله الأزلي والقدرة اللامحدودة والكمال المطلق، فإن كل شيء سوى الله حقير في نظرهم ولا قيمة له، وفان لا أهمية له.

إِنَّ الْآيَةَ الثَّانِيَةَ وَضَحَّتِ الْمَقْصُودَ مِنْ «أَوْلِيَاءِ اللَّهِ» فَهِيَ تَقُولُ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

وتؤكد الآية الثالثة على مسألة عدم وجود الخوف والغم والوحشة في شخصية وقلوب أولياء الحق بهذه العبارة: ﴿لَهُمْ أَكْثَرُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾. ثم تضيف من أجل التأكيد أيضاً: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾. بل هي ثابتة حقة، وأن الله سبحانه سيبي بما وعد به أولياءه، و﴿ذَلِكَ هُوَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ﴾.

وحولت الآية الخطاب إلى النبي ﷺ الذي يمثل رأس سلسلة أولياء الله وأحبائه مخاطبة له بلحن المواساة وتسلية المخاطر: ﴿وَلَا يَخْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾. ولا يمكن أن يقوم العدو بعمل مقابل إرادة الحق، فإنه تعالى عالم بكل خطتهم ودسائسهم. ف﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

الآيَاتِ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ ﴿١٧﴾

جانب من آيات علمته: تعود الآيات أعلاه مرة أخرى إلى مسألة التوحيد والشرك والتي تعتبر واحدة من أهم مباحث الإسلام، وبحوث هذه السورة، وتجرب المشركين إلى المحاكمة وتثبت عجزهم. فتقول أولاً: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾. وإذا كان الأشخاص ملكه ومنه، فمن الأولى أن تكون الأشياء الموجودة في هذا العالم ملكه ومنه، وبناءً على هذه فإنه مالك كل عالم الوجود.

ثم تضيف الآية: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾. إذ لا دليل ولا برهان لهم على كلامهم ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

وأساساً، فإن إتياع الظن والحدس الذي لا يستند إلى أساس ثابت يجرب الإنسان في النهاية إلى وادي الكذب عادة.

ثم ومن أجل إكمال هذا البحث، وتبين طرق معرفة الله، والابتعاد عن الشرك وعبادة

الأوثان، أشارت الآية الثانية إلى جانب من المواهب الإلهية التي أودعت في نظام الخلق والدالة على عظمة وقدرة وحكمة الله عز وجل، فقالت: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾.

نعم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾. أولئك الذين يسمعون ويدركون، وبعد إدراك الحقيقة يتبعونها ويسيروا على نهجها.

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أَنْتَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ قُلْ إِن الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكٰذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٧﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

تستمر هذه الآيات - أيضاً - في بحثها مع المشركين، وتذكر واحدة من أكاذيب واتهامات هؤلاء لساحة الله المقدسة، فنقول أولاً: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾. إن هذا الكلام قاله المسيحيون في حق المسيح عليه السلام ثم عبدة الأوثان في عصر الجاهلية في حق الملائكة، حيث كانوا يظنون أنها بنات الله، وقاله اليهود في شأن عزيز. ويجيبهم القرآن بطريقتين:

الأول: إن الله سبحانه منزّه عن كل عيب ونقص، وهو مستغن عن كل شيء: ﴿سُبْحٰنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾. وهذا إشارة إلى أن الحاجة إلى الولد، إمّا للحاجة الجسمية إلى قوته ومساعدته، أو للحاجة الروحية والعاطفية، ولما كان الله سبحانه منزّه عن كل عيب ونقص وحاجة، فلا يمكن أن يتخذ لنفسه ولداً.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. ومع هذا الحال فأى معنى لأن يتخذ لنفسه ولداً ليطمئنه ويهدئه، أو يعينه ويساعده.

والجواب الثاني الذي يذكره القرآن هؤلاء هو: إن من يدعي شيئاً يجب عليه أن يقيم دليلاً على مدعاه: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أَنْتَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وتعيد الآية التالية عاقبة الإفتاء على الله المشؤومة، فتوجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله وتقول: ﴿قُلْ إِن الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكٰذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾.

وعلى فرض أن هؤلاء يستطيعون باقتراءاتهم وأكاذيبهم أن ينالوا المال والمقام لعدة أيام، فإن ذلك ﴿مَتَّعُ فِي الْفُلْنِيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

إن التعبير بـ«نذيقهم» يشير إلى أن هذا العذاب الذي سينال هؤلاء بدرجة من الشدة بحيث كأنهم يذوقونه بألسنتهم وأفواههم، وهذا التعبير أبلغ جداً من المشاهدة، بل وحتى من لمس العذاب.

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ إِنْ كَانَ كِبْرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِعَائِنَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ ﴿٧٣﴾

جانب من جهاد نوح: الآيات أعلاه بداية لبيان قسم من تاريخ الأنبياء، فيأمر الله نبيه أن يتابع حديثه السابق مع المشركين بشرح تاريخ الماضين ليكون عبرة لهم. في البداية تطرقت إلى قصة نوح، فقالت: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كِبْرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِعَائِنَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾. ولهذا فإني لا أخاف غيره.

ثم تضيف: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾. أي ادعوا أصنامكم أيضاً لتعينكم في المشورة، حتى لا يبقى شيء خافياً على أحد ولا يتعرض منكم إلى الهم والغم أحد ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾. بل اتخذوا قراركم في شأني بكل وضوح.

ثم يقول: ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾.

وإذا علمنا أن هذه الآيات نزلت في مكة في الوقت الذي كان يعيش فيه النبي ﷺ ظروفاً تشبه ظروف نوح، وكان المؤمنون قلة، سيتضح أن القرآن يريد أن يعطي للنبي - أيضاً - نفس هذا الدرس بأن لا يهتم بقدرة العدو، بل يسير ويتقدم بكل حزم وجرأة وشجاعة، لأن الله يسنده وينصره.

وهذا درس كبير لكل القادة الإسلاميين بأن لا يخافوا ولا ينهاروا أمام عظمة الأعداء وكثرتهم، بل إنهم باتكالمهم على الله كانوا يدعون هؤلاء إلى الميدان بكل حزم واقتدار ويستصغرون قوتهم، فكان هذا عاملاً مهماً في تقوية معنويات الأتباع والمؤيدين، وتدمير معنويات العدو وانهارها.

وذكرت الآية التالية بياناً آخر عن نوح من أجل إثبات أحقيته، هناك حيث تقول: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرْتُمْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾، فإني أعمل له، ولا أريد الأجر إلا منه ﴿وَأَمِزْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

إن مقولة نوح هذه درس آخر للقادة الإلهيين بأن لا يتوقعوا أي جزاء مادي ومعنوي من الناس لقاء دعوتهم وتبليغهم، لأن هذا التوقع يوجد نوعاً من التعلق النفسي الذي يؤدي إلى عرقلة أساليب الدعوة الصريحة والنشاطات الحرة.

وتبين الآية الأخيرة عاقبة ومصير أعداء نوح، وصدق توقعه وقوله السابق بهذه الصورة: ﴿فَكَلَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ﴾. ولم ننقذهم وحسب، بل ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَلَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

وفي النهاية توجه الخطاب إلى النبي ﷺ وتقول: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ﴾.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ وَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

الرسول بعد نوح: بعد انتهاء البحث الإجمالي حول قصة نوح، أشارت هذه الآية إلى الأنبياء الآخرين الذين جاؤوا بعد نوح وقبل موسى ﷺ لهداية الناس كإبراهيم وهود وصالح ولوط ويوسف ﷺ فقالت: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾. فقد كانوا مسلحين كنوح بسلاح المنطق والإعجاز والبرامج البناءة، إلا أن الذين سلكوا طريق العناد وكذبوا الأنبياء السابقين، كذبوا هؤلاء الأنبياء أيضاً ولم يؤمنوا بهم ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَلَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾. وكان ذلك نتيجة للعصيان والتمرد وعداء الحق الذي أوصد تلك القلوب ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا
 وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا السِّحْرُ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾
 قَالَ مُوسَى أَنْتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا
 أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ
 لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

جانب من جهاد موسى وهارون: لقد جرى ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة كمنهج
 حياة، وبدأ الحديث أولاً عن نوح عليه السلام ثم عن الأنبياء بعد نوح، ووصل الدور في هذه الآيات
 إلى موسى وهارون عليهما السلام ومواجهتهم المستمرة مع فرعون وأتباعه، فتقول الآية الأولى:
 ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا﴾.

إلا أن فرعون وأتباعه امتنعوا عن قبول دعوة موسى، وعن التسليم في مقابل الحق:
 ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾. ونظراً للتكبر والاستعلاء وعدم امتلاكهم لروح التواضع فإنهم لم يلتفتوا
 إلى الحقائق الواضحة في دعوة موسى، وأصرروا واستمروا في إجرامهم: ﴿وَكَانُوا قَوْمًا
 مُجْرِمِينَ﴾.

وتتحدث الآية التالية عن مراحل مواجهة الفراعنة لموسى وأخيه هارون، وأول تلك
 المراحل هي مرحلة الإنكار والتكذيب والإفتراف واتهامها بسوء النية، وإبطال سنن
 الأجداد، والإخلال بالنظام الاجتماعي، كما يقول القرآن: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا
 إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

إلا أن موسى عليه السلام نهض للدفاع عن نفسه، فأزاح الستار وأوضح كذب هؤلاء وأبطل
 تهمتهم، ففي البداية: ﴿قَالَ مُوسَى أَنْتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ أَسِحْرٌ هَذَا﴾.
 صحيح أن لكل من السحر والمعجزة نفوذاً وتأثيراً، وأن من الممكن أن يؤثر الحق
 والباطل على ادراكات الناس ونفسياتهم، إلا أن السحر الذي هو أمر باطل يتميز تماماً عن
 المعجزة التي هي حق، إذاً لا يمكن المقارنة بين نفوذ الأنبياء ونفوذ السحرة، فإن أعمال
 السحرة تفتقد إلى الهدفية ومحدودة ولا قيمة لها، ومعجزات الأنبياء لها أهداف إصلاحية
 وتغييرية وتربوية واضحة، وتعرض بشكل واسع وغير محدود.

إضافة إلى أنه: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُونَ﴾. وهذا التعبير دليل آخر على امتياز عمل الأنبياء عن السحر.

إنَّ السحرة لا يرون وجه الفلاح مطلقاً، ولا يعملون إلا من أجل المال والثروة والمنصب والمنافع الشخصية، في حين أنَّ هدف الأنبياء هداية خلق الله وإصلاح المجتمع الإنساني من جميع جوانبه المادية والمعنوية.

ثمَّ يستمر فرعون وملئه في رمي موسى ﷺ بسبيل الإتهامات الصريحة، حيث ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾.

الواقع، أنهم قدموا صنم «سنة الآباء» وعظمتهم الخيالية والأسطورية حتى يوجهوا الرأي العام ضد موسى وهارون، بأنَّهما يريدان أن يعبثا بمقدسات مجتمعتكم وبلادكم. ثمَّ استمروا في هذا التشويه، وقالوا بأنَّ دعوتكم إلى دين الله ما هي إلا كذب محض، وكل هذه مصائد وخطط خيانية بهدف التسلط على الناس: ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ أَلِكِبْرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ﴾.

إنَّ هؤلاء لما كانوا يسعون دائماً من أجل الحكم الظالم على الناس كانوا يظنون أنَّ الآخرين مثلهم، وهكذا كانوا يفسرون مساعي المصلحين والأنبياء. ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ لأننا على علم بنواياكم وخططكم الهدامة. وكانت هذه هي المرحلة الأولى من المواجهة السلبية مع موسى:

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا الْقُوا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

المرحلة الثانية: فعندما لاحظ فرعون قسماً من معجزات موسى، كاليد البيضاء والحية العظيمة، ورأى أنَّ ادعاء موسى ليس واهياً بدون دليل وبرهان، وأنَّ هذا الدليل سيؤثر في جميع أنصاره أو الآخرين قليلاً أو كثيراً، ففكر بجواب عملي كما يقول القرآن: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾. فإنَّ هؤلاء قد عبثوا كل ما يملكون من قدرة، والقوا كل ما أتوا به معهم في وسط الحلبة: ﴿فَلَمَّا الْقُوا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ

بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُنْظِلُهُ». فأنتم أفراد فاسدون ومفسدون لأنكم تخدمون حكومة جبارة وظالمة وتعملون على تقوية دعائم هذه الحكومة الغاشمة الدكتاتورية وهذا بنفسه أقوى دليل على كونكم مفسدين، و﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضْلِعُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

وفي الآية الأخيرة، إن موسى قال هؤلاء: إن النصر والغلب لنا في هذه المبارزة حتماً، لأن الله سبحانه قد وعد أن يظهر الحق بواسطة المنطق القاطع، ومعجزات أنبيائه القاهرة، ويفضح ويغزي المفسدين وأهل الباطل وإن كره المجرمون ذلك: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾.

فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَسْئُولِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنُ بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾

المرحلة الثالثة: عكست هذه الآيات مرحلة أخرى من المواجهة الثورية بين موسى

وفرعون، في البداية تبين وضع المؤمنين فنقول: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ﴾. إن هذه المجموعة الصغيرة الصغيرة القليلة، والتي كان الشباب والأشبال يشكّلون أكثريتها بمقتضى ظاهر كلمة ذرية، كانت تواجه ضغوطاً شديدة من فرعون وأتباعه إلى درجة أنهم خافوا أن يصل بهم الأمر إلى ترك دين موسى نتيجة هذه الضغوط الشديدة: ﴿عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾.

فقد حدث موسى هؤلاء بلسان المحبة والمودة من أجل تهدئة خواطرهم وتسكين قلوبهم: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَسْئُولِينَ﴾.

إن حقيقة التوكل هي إلقاء العمل والتصرف في الأمور على كاهل الوكيل، وليس معنى التوكل أن يترك الإنسان المجد والسعي، بل معناه أن يبذل قصارى جهده، فإذا لم يستطع أن يحل المشكلة فلا يدع للخوف طريقاً إلى نفسه، بل يصمد أمامها بالتوكل والاعتماد على لطف الله والاستعانة بذاته المقدسة وقدرته اللامتناهية، ويستمر في جهاده المتواصل.

إن هؤلاء المؤمنين المخلصين أجابوا دعوة موسى بالتوكل: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾. ثم

رجوا من الله سبحانه أن ينجيهم من شر الأعداء ووساوسهم وضغوطهم ويؤمنهم: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَ الْقَوْمَ كَمَا بِمِصْرَ بِيُوتًا وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمْ كَمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

المرحلة الرابعة: مرحلة البناء من أجل الثورة: شرحت هذه الآيات مرحلة أخرى من نهضة وثورة بني إسرائيل ضد الفراعنة. فتقول أولاً: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكَمَا بِمِصْرَ بِيُوتًا وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾. فالأمر الإلهي يقرر اختيار البيوت لبني إسرائيل بمصر وأن تكون هذه البيوت متقاربة ومتقابلة.

ثم تطرقت إلى مسألة تربية النفس معنوياً وروحياً، فقالت: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾. ومن أجل أن تطرد آثار الخوف والرعب من قلوب هؤلاء وتعيد وتزيد من قدرتهم المعنوية والثورية قالت: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

يستفاد من مجموع هذه الآية أن بني إسرائيل كانوا في تلك الفترة بصورة جماعة متشتتة مهزومة ومتطفلة وملوثة وخائفة، فلا مأوى لهم ولا اجتماع مركزي.

لذلك فإن موسى وأخاه هارون قد تلقوا مهمة وضع برنامج في عدة نقاط من أجل تطهير مجتمع بني إسرائيل، وخاصة في الجانب الروحي:

١- الإهتمام أولاً بمسألة بناء المساكن، وعزل مساكنهم عن الفراعنة.

٢- أن يبنوا بيوتهم متقاربة ويقابل بعضها الآخر.

٣- التوجه إلى العبادة، وخاصة الصلاة التي تحرر الإنسان من عبودية العباد.

الملفت للنظر أن بني إسرائيل من أولاد يعقوب، وجماعة منهم من أولاد يوسف طبعاً، وقد حكم هو واخوته مصر سنين طويلة، وسعوا في عمران هذا الوطن، إلا أنه نتيجة لتركهم طاعة الله والغفلة والخلافات الداخلية وصلوا إلى مثل هذا الوضع المأساوي.

ثم أشارت إلى إحدى علل طغيان فرعون وأزلامه، فتقول على لسان موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ عَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾. إن اللام في «ليضلوا» لام العاقبة، أي إن جماعة الأشراف الأثرياء المترفين سيسعون من أجل إضلال الناس شاؤوا أم أبوا، وسوف لا تكون عاقبة أمرهم شيئاً غير هذا، لأن دعوة الأنبياء والأطروحات الإلهية توقظ الناس وتوحدهم وبذلك لا يبقى مجال لتسلط الظالمين وكيد المعتدين وستضيّق الدنيا عليهم، فلا يجدوا بداً من معارضة الانبياء.

ثم يطلب موسى ﷺ من الله طلباً فيقول: ﴿رَبَّنَا أَطْمَسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾.

«الطمس»: في اللغة بمعنى المحو وسلب خواص الشيء، واللطف في الأمر أن ماورد في بعض الروايات من أن أموال الفراعنة قد أصبحت خزفاً وحجراً بعد هذه اللعنة، ربما كان كناية عن أن التدهور الاقتصادي قد بلغ بهم أن سقطت فيه قيمة ثرواتهم تماماً وأصبحت كالحزف لا قيمة لها!

ثم اضافت: ﴿وَأَشَدُّ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾. أي: أسلبهم قدرة التفكير والتدبر أيضاً لأنهم بفقدانهم هاتين الدعامتين (المال والفكر) سيكونون على حافة الزوال والفاء، وسينفتح أمامنا طريق الثورة، وتوجيه الضربة النهائية لهؤلاء.

اللهم إن كنت قد طلبت ذلك منك في حق الفراعنة فليس ذلك نابعاً من روح الانتقام والمقد بل لأن هؤلاء قد فقدوا أرضية الإيمان أبداً: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾. ثم خاطب الله سبحانه وتعالى موسى وأخاه بأنه: الآن وقد أصبحتا مستعدين لتربية وبناء قوم بني إسرائيل ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَجِبْمَا﴾ في سبيل الله ولا تخافا سيل المشاكل، وكونا حازمين في أعمالكما ولا تستسلا أمام اقتراحات الجاهلين، بل استمرا في برنامجكما الثوري ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وَجَنُوزًا بِنَبِيِّ إِسْرَاءِيلَ بِالْبَحْرِ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَاءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ ءَأَيَّةً وَإِن كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنَّا يَسْتَنْفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

الفصل الأخير من المجابهة مع الظالمين: هذه الآيات جسّدت آخر مرحلة من المواجهة بين بني إسرائيل والفراعنة وبيّنت مصير هؤلاء في عبارات قصيرة، فتقول أولاً: **إِنَّا جَاوَزْنَا بَيْنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ - وَهُوَ نَهْرُ النَّيْلِ الْعَظِيمِ أَطْلَقَ عَلَيْهِ اسْمَ الْبَحْرِ لِعَظَمَتِهِ - أَتْنَاءَ مُوَاجَهَتِهِمْ لِلْفِرَاعِنَةِ، وَعِنْدَمَا كَانُوا تَحْتَ ضَغْطِ وَمَطَارِدَةِ هَؤُلَاءِ: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾. إِلَّا أَنَّ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ طَارَدُوا هَؤُلَاءِ مِنْ أَجْلِ الْقَضَاءِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾. «البغي»: يعني الظلم، «والعدو»: بمعنى التعدي، أي إن هؤلاء إنما طاردوهم وتعقبوهم لغرض الظلم والتعدي عليهم، أي على بني إسرائيل.**

جملة «فاتبعهم» توحى بأن فرعون وجنوده قد تتبعوا بني إسرائيل طوعاً. فإن هذه الأحداث قد استمرت حتى أوشك فرعون على الفرق، وأصبح كالقشة تتقاذفه الأمواج وتلهو به، فعنداك زالت حجب الغرور والجهل من أمام عينه، وسطع نور التوحيد الفطري وصدع بالإيمان: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾. فلنست مؤمناً بقلبي فقط، بل إنني من المسلمين عملياً: ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

ولما تحققت تنبؤات موسى ﷺ الواحدة تلو الأخرى وأدرك فرعون صدق هذا النبي الكبير أكثر فأكثر وشاهد قدرته وقوته، اضطر إلى إظهار الإيمان على أمل أن ينقذه رب بني إسرائيل كما أنجاهم من هذه الأمواج المتلاطمة ولذلك يقول: **أمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل!**

إلا أن من البديهي أن مثل هذا الإيمان الذي يتجلّى عند نزول البلاء ونشوب أظفار الموت، إيمان اضطراري يتشبث به كل جان ومجرم ومذنب وليست له أية قيمة، أو يكون دليلاً على حسن نيته أو صدق قوله، ولهذا فإن الله سبحانه خاطبه فقال: ﴿ءَأَشْنُ وَقَدْ عصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

لكن ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً﴾. آية للحكام المستكبرين ولكل الظالمين والمفسدين، وآية للفئات المستضعفة.

والمراد من البدن هنا، جسد فرعون الذي فارقتة الروح، لأن عظمة فرعون في أفكار الناس في ذلك المحيط بلغت حدّاً بحيث إن الكثير لو لا ذلك لم يكن يصدق أن فرعون يمكن أن يغرق، وكان من الممكن أن تنسج الأساطير والخرافات الكاذبة حول نجاة وحياة فرعون بعد هذه الحادثة، لذلك ألقى الله سبحانه جسده خارج الماء.

ويقول في نهاية الآية: إنه وبالرغم من كل هذه الآيات والدلالات على قدرة الله، ومع كل الدروس والعبر التي ملأت تاريخ البشر فإن الكثير معرضون عنها ﴿وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا لَعَافُونَ﴾.

وتبين آخر آية من هذه الآيات النصر النهائي لبني إسرائيل، والرجوع إلى الأرض المقدسة بعد الخلاص من قبضة الفراعنة، فتقول: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صَدِيقًا﴾. إن التعبير بـ ﴿مُبَوَّأً صَدِيقًا﴾ يمكن أن يكون إشارة إلى أرض مصر، أم أراضي الشام وفلسطين.

ثم يضيف القرآن الكريم: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾. إلا أن هؤلاء لم يعرفوا قدر هذه النعمة ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾. وبعد مشاهدة كل تلك المعجزات التي جاء بها موسى، وأدلة صدق دعوته، إلا ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾. وإذا لم يتذوقوا طعم عقاب الاختلاف اليوم، فسيذوقونه غداً.

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ
لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ
كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

لا تدع للشك طريقاً إلى نفسك؛ لما كانت الآيات السابقة قد ذكرت جوانب من ماضي الأنبياء والأمم السابقة، وكان من الممكن أن يشكك بعض المشركين ومنكري دعوة النبي ﷺ في صحة ذلك، فقد طلب القرآن من هؤلاء أن يراجعوا أهل الكتاب للتأكد والعلم بصحة هذه الأقوال، وليسألوهم عن ذلك، لأن كثيراً من هذه المسائل قد ورد في كتب هؤلاء. إلا أنه بدل أن يوجه الخطاب هؤلاء، خاطب النبي ﷺ فقال: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾. ليثبت عن هذا الطريق بأنه: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

ثم تضيف الآية التالية: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ من بعد ما اتضحت لك آيات الله وصدق هذه الدعوة.

إن الآية السابقة تقول بأنك إن كنت في شك فاسأل أولئك المطلعين العالمين، وتقول هذه الآية بأنك يجب أن تسلم مقابل هذه الآيات بعد أن ارتفعت عوامل الشك، وإلا فإن مخالفة الحق لا عاقبة لها إلا الخسران.

ثم أنها تخبر النبي ﷺ بأن من بين مخالفيك جماعة متعصبين عنودين لا فائدة من انتظار إيمانهم، فإنهم قد مسخوا من الناحية الفكرية، وتوغلوا في طريق الباطل إلى الحد الذي فقدوا معه الضمير الإنساني الحي تماماً، وتحولوا إلى موجودات لا يمكن اختراقها، غاية ما في الأمر أن القرآن الكريم يبين هذا الموضوع بهذا التعبير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وحتى إذا جاءتهم كل الآيات والدلالات فإنهم لا يؤمنون: ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ جُتِيَ بَرِّوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ولا أثر لإيمانهم في ذلك الوقت.

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمُ يُونُسَ لَمَاءَ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾

الأفة التي آمنت في الوقت المناسب: تحدثت الآيات السابقة عن فرعون خاصة، والأقوام السابقة بصورة عامة، وهي أن هؤلاء امتنعوا من الإيمان بالله في وقت الاختيار والسلامة، إلا أنهم لما أشرفوا على الموت والعذاب الإلهي أظهروا الإيمان الذي لم يكن نافعا لهم آنذاك. وتطرح الآية التي نبحثها هذه المسألة كقانون عام، فتقول: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾. ثم استنتت قوم يونس فقالت: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَاءَ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾. أي إلى آخر عمرهم.

قصة إيمان قوم يونس: كانت قصة هؤلاء على ما جاء في التواريخ، أنه عندما يسس يونس من إيمان قومه القاطنين أرض نينوى في العراق، دعا على قومه باقتراح من عابد كان يعيش بينهم، في حين أن عالماً كان معهم أيضاً اقترح على يونس أن يدعو لهؤلاء لا عليهم، وأن يستمر في إرشاده أكثر من قبل ولا ييأس.

يونس ﷺ اعتزل قومه بعد الدعاء عليهم، فاغتنم هؤلاء الفرصة وعملوا بنصيحة العالم وخرجوا معه خارج المدينة للتضرع والدعاء، وأظهروا الإيمان والتوبة.

إن هذه التوبة والإيمان والرجوع إلى الله، الذي تم في الوقت المناسب وعن وعي مقترن

بالإخلاص قد أثر أثره، وارتفعت علامات العذاب وعادت المياه إلى مجاريها، ولما رجع يونس إلى قومه بعد أحداث ووقائع كثيرة وقعت له قبله بأرواحهم وقلوبهم.
ثم إنَّ القصة أعلاه تبين بصورة ضمنية مدى تأثير القائد الواعي الرشيد الحريص في القوم أو الأمة، في حين أن العابد الذي لا يمتلك الوعي الكافي يعتمد على الخشونة أكثر، وهكذا يفهم من هذه الرواية منطق الإسلام في المقارنة بين العبادة الجاهلة، والعلم الممتزج بالاحساس بالمسؤولية.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا
مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ
عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٠﴾

لا خير في الإيمان الإجباري؛ لقد طالعنا في الآيات السابقة أن الإيمان الاضطراري لا يجدي نفعاً أبداً، ولهذا فإن الآية الأولى من هذه الآيات تقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾. وبناء على هذا فلا يعتصر قلبك ألماً لعدم إيمان جماعة من هؤلاء، فإن من مستلزمات أصل حرية الإرادة والاختيار أن يؤمن جماعة ويكفر آخرون، وإذا كان الأمر كذلك ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.

إنَّ هذه الآية تنفي بصراحة مرّة أخرى التهمة الباطلة التي قالها ويقولها أعداء الإسلام بصورة مكررة، حيث يقولون: إنَّ الإسلام دين السيف، وقد فرض بالقوة والإجبار على شعوب العالم، فتجيب الآية - ككثير من آيات القرآن الأخرى - بأنَّ الإيمان الإجباري لا قيمة له، والدين والإيمان شيء ينبع عادة من أعماق الروح، لا من الخارج وبواسطة السيف، خاصة وأنها حذرت النبي ﷺ من إكراه وإجبار الناس على الإيمان والإسلام.

الآية التالية قد ذكرت هذه الحقيقة أيضاً، وهي أنَّ البشر وإن كانوا أحراراً في اختيارهم، إِلَّا أَنَّهُ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ولهذا فإنَّ هؤلاء قد ساروا في طريق الجهل وعدم التعقل، ولم يكونوا مستعدين للاستفادة من رأس مال فكرهم وعقلهم، وسوف لا يوفقون للإيمان وهم على هذا الحال، إذ ﴿وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ إِيَّايَ مِنْكُمْ مِنَ الْمُنْتَضِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

الموعظة والنصيحة: كان الكلام في الآيات السابقة عن أن الإيمان يجب أن يكون اختيارياً لا بالجبر والاكراه، ولهذا فإن الآية الأولى هنا ترشد الناس إلى الإيمان الاختياري، وتخاطب النبي ﷺ فتقول: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. إن هذه الجملة تنفي بوضوح مسألة الجبر وسلب حرية الإرادة، فهي تقول: إن الإيمان هو نتيجة التدبر في عالم الخلق، أي إن هذا الأمر في اختياركم.

ثم تضيف أنه رغم كل هذه الآيات والعلامات الدالة على الحق، فلا داعي للعجب من عدم إيمان البعض، لأن الآيات والدلالات والإنذارات تنفع الذين لهم الإستعداد لتقبل الحق، أما هؤلاء فإنه ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^١.

ثم تقول - بنبرة التهديد المتلبسة بلباس السؤال والإستفهام -: هل ينتظر هؤلاء المعاندون الكافرون إلا أن يروا مصيراً كمصير الأقوام الطغاة والمتمردين السابقين الذين عمهم العقاب الإلهي، مصير كمصير الفراعنة والتمردة وشداد وأعوانهم وأنصارهم؟! ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

وتحذرهم الآية أخيراً فتقول: يا أيها النبي ﴿قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ إِيَّايَ مِنْكُمْ مِنَ الْمُنْتَضِرِينَ﴾. فأنتم بانتظار هزيمة دعوة الحق، ونحن بانتظار المصير المشؤوم الذي ستلاقونه، مصير المتكبرين الماضين.

ومن أجل أن لا يتوهم متوهم أن الله سبحانه يصيب بعذابه الصالح والطالح، تضيف الآية: إننا إذا ما تحققت مقدمات نزول العذاب على الأمم السابقة، نقوم بانقاذ عبادنا الصالحين: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

١. «نذُر»: جمع نذير، أي المنذر، وهو كناية عن الأنبياء والقادة الإلهيين أو هي جمع إنذار، بمعنى تحذير وتهديد الغافلين والمجرمين الذي هو من برامج هؤلاء القادة الإلهيين.

ثم تقول في النهاية: إن هذا ليس مختصاً بالأُمم السالفة والرسُل والمؤمنين الماضين، بل ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكِّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِذَا يُرِيدُكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

العزم في التعامل مع المشركين، هذه الآيات والآيات التي تليها، هي آخر آيات هذه السورة، وتحدث جميعاً حول مسألة التوحيد ومحاربة الشرك والدعوة إلى الحق، وهي فهرست أو خلاصة لبحوث التوحيد وتأكيد على محاربة ومجاهدة عبادة الأصنام التي بيّنت مراراً في هذه السورة.

إن سياق الآية يوحى بأن المشركين كانوا يتوهمون أحياناً أن من الممكن أن يلين النبي ويتسامح في عقيدته في شأن الأصنام ويعترف ويقر لهم عبادة الأصنام ولو جزئياً إلى جانب الاعتقاد بالله بنحو من الانحاء. إلا أن القرآن ينسف هذا التوهم الواهي بصورة قاطعة وحاسمة ويقطع عليهم احلامهم هذه إلى الأبد، فلا معنى لأي نوع من المساومة واللين في مقابل الأصنام، ولا معبود إلا الله، لا تزيد كلمة ولا تنقص أخرى. ففي البداية يأمر النبي ﷺ أن يخاطب جميع الناس: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكِّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ولا تكتفي الآية بنبي آلهة أولئك، بل تثبت كل العبادة لله سبحانه زيادة في التأكيد فتقول: ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ﴾. ومن أجل تأكيد أكبر تضيف: أن هذه ليست إرادتي فقط، بل ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وبعد أن بيّنت الآية العقيدة الحقة في نبي الشرك وعبادة الأوثان بكل صراحة وقوة، تطرقت إلى بيان دليل ذلك، دليل من الفطرة، ودليل من العقل:

﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ وهنا أيضاً لم يكتف بجانب الإثبات، بل نفي الطرف

المقابل لتأكيد الأمر، فقالت الآية: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

«الحنيف»: تعني الشخص الذي يميل ويتحول عن طريق الانحراف إلى جادة الصواب والاستقامة.

وبعد الإشارة إلى بطلان الشريك بالدليل الفطري، تشير إلى دليل عقلي واضح، فتقول: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الْفَالِغِينَ﴾. إذ تكون قد ظلمت نفسك ومجتمعك الذي تعيش فيه.

وهنا أيضاً لم تكتف الآية بجانب النبي، بل إنها تؤكد إضافة إلى النبي على جانب الإثبات فتقول: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾، وكذلك ﴿وَإِنْ يُرِيدَكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ لأن عفوه ورحمته وسعت كل شيء ﴿وَهُوَ الْعَفْوُ الرَّحِيمُ﴾.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ
وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ
وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۗ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

الكلمة الأخيرة: هاتين الآيتين تضمنت إحداهما موعظة ونصيحة لعامة الناس، واختصت الثانية بالنبي ﷺ وقد كملتا الأوامر والتعليقات التي بينها الله سبحانه على مدى هذه السورة ومواضعها المختلفة. وبذلك تنتهي سورة يونس. فتقول أولاً، وكقانون عام: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. هذه التعليقات وهذا الكتاب السماوي، وهذا الدين وهذا النبي كلها حق، والأدلة على كونها حقاً واضحة، وبملاحظة هذه الحقيقة: ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾. أي إنني لست مأموراً بإجباركم على قبول الحق، لأن الإيجابار على قبول الإيمان لا معنى له، ولا أستطيع إذا لم تقبلوا الحق ولم تؤمنوا أن أدفع عنكم العذاب الإلهي، بل إن واجبي ومسؤوليتي هي الدعوة والإبلاغ والإرشاد والهداية والقيادة.

ثم تبين وظيفة وواجب النبي ﷺ في جملتين: الأولى ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾. فإن الله قد حدّد مسيرك من خلال الوحي، ولا يجوز لك أن تنحرف عنه قيد أنملة.

والثانية: إنه ستعترضك في هذا الطريق مشاكل مضنية ومصاعب حمة، فلا تدع للخوف

من سبل المشاكل إلى نفسك طريقاً، بل ﴿وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾. فإن أمره حق، وحكمه عدل، ووعدته متحقق لا محالة.

«نهاية تفسير سورة يونس»



مركز تحقيقات كتابية وعلوم اسلامی



محتوى السورة: إن هذه السورة بأكملها نزلت بمكة... وطبقاً لما ورد في «تاريخ القرآن» أنها السورة التاسعة والأربعون في ترتيب السور النازلة على المرسل ﷺ. ونزلت في السنوات الأخيرة التي قضاها النبي ﷺ بمكة، أي بعد وفاة عمه أبي طالب ﷺ وزوجته خديجة ﷺ... وبطبيعة الحال فإن هذه السورة جاءت في فترة من أشد الفترات صعوبة في حياة النبي ﷺ ولذلك يلاحظ في بداية السورة تعابير فيها جانب من التسلية للنبي ﷺ وللمؤمنين.

ويشكل القسم المهم والعمدة من آيات هذه السورة قصص الأنبياء الماضين وخاصة قصة نوح النبي ﷺ الذي انتصر بالفئة القليلة التي معه على الأعداء الكثيرين. إن سرد هذه القصص فيه تسلية لخاطر النبي ﷺ والمؤمنين معه وهم أمام الكم الهائل من الأعداء، كما أن فيه درساً فخالفهم من الأعداء.

إن آيات هذه السورة - كسائر السور المكية - تتناول أصول المعارف الإسلامية ولا سيما المواجهة مع الشرك وعبادة الأصنام، ومسألة المعاد والعالم بعد الموت، وصدق دعوة النبي. في هذه السورة - إضافة إلى قصة نوح النبي - إشارة إلى قصص الأنبياء هود وصالح وإبراهيم ولوط وموسى ﷺ ومواقفهم الشجاعة بوجه الشرك والكفر والانحراف والظلم.

شبهتني سورة هود: إن آيات هذه السورة تقرر أن على المسلمين أن لا يتركوا السوح والميادين - في الحرب والسلم - لكثرة الأعداء ومواجهاتهم الحادة، بل عليهم أن يواصلوا مسيرتهم ويستقيموا أكثر فأكثر ويوماً بعد يوم.

وعلى هذا فإننا نقرأ في الدر المنثور عن النبي ﷺ أنه قال: «شبيبتني هود وأخواتها».

إن هذه السورة فيها آيات مؤثرة أخرى تتعلق بيوم القيامة والمحاسبة في محكمة العدل الإلهي، وآيات تتعلق بما ناله الأقسام السابقون من جزاء، وما جاء مع بعضها من أوامر في الوقوف بوجه الفساد بحيث يحمل جميعها طابع المسؤولية... فلا عجب إذاً أن يشيب الإنسان عندما يفكر في مثل هذه المسؤوليات...

مسألة دقيقة أخرى ينبغي الالتفات إليها في هذا المجال، وهي أن كثيراً من هذه الآيات تؤكد ما ورد في السورة السابقة - أي سورة يونس.

التأثير المعنوي لهذه السورة: في تفسير البرهان عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ هذه

السورة أعطي من الأجر والثواب بعدد من صدق هوداً والأنبياء ﷺ ومن كذب بهم وكان يوم القيامة في درجة الشهداء وحوسب حساباً يسيراً».

ومن الواضح بمكان أن مجرد التلاوة لا يعطي هذا الأثر، وإنما يكون هذا الأثر إذا كانت تلاوة هذه السورة مقرونة بالتفكير والعمل بعدها. وهذا هو الذي يقرب الإنسان إلى المؤمنين السالفين ويبعده عن الذين أنكروا على الأنبياء وجحدوا دعواتهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكَنُ أَحْكَمَةٌ آيَةٌ ثُمَّ فَصِلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ① أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي
لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ② وَأَنْ أَسْتَغْفِرُ وَأَرْبُكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُعْنِعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ
مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ③
إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ④

الأصول الأربعة في دعوة الأنبياء: تبدأ هذه السورة ببيان أهمية الكتاب العزيز المنزل من السماء، ليلتفت الناس إلى محتوياته أكثر ويتفكروا فيه بنظرة أدق. وذكر الحروف المقطعة ﴿الر﴾ - نفسه - دليل على أهمية هذا الكتاب السماوي العزيز الذي يتشكل من حروف

بسيطة معروفة للجميع مثل الألف واللام والراء مع ما فيه من عظمة وإعجاز بالغين، ثم يبين بعد هذه الحروف المقطعة واحدة من خصائص القرآن الكريم في جملتين.

أولاً: إن جميع آياته متقنة ومحكمة ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾.

وثانياً: إن تفصيل حاجات الإنسان في حياته الفردية والاجتماعية - مادية كانت أو معنوية - مبين فيها أيضاً ﴿ثُمَّ فَصَّلَتْ﴾.

هذا الكتاب العظيم مع هذه الخصيصة، من أين أنزل، وكيف؟! أنزل من عند رب حكيم وخبير ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾. فبمقتضى حكمته أحكمت آيات القرآن، وبمقتضى أنه خبير مطلع بين آيات القرآن في مجالات مختلفة طبقاً لحاجات الإنسان.

إن كل واحدة من صفات القرآن التي جاءت في هذه الآية تسترشد من واحدة من صفات الله... فاستحكام القرآن من حكمته، وشرحه وتفصيله من خبرته.

إن القرآن مجموعة واحدة مترابطة كالبنيان المرصوص الثابت، كما تدل على أنه نازل من إله فرد، ولهذا فلا يوجد أي تضاد في آياته، ولا يرى بينها أي اختلاف.

وفي الآية التالية يبين أهم ما يحتويه القرآن وما هو أساسه وهو التوحيد والوقوف بوجه الشرك ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.

والثاني من محتويات الدعوة السماوية: ﴿إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾. نذير لكم من الظلم والفساد والشرك والكفر، وأحذركم من عنادكم وعقاب الله لكم! وثالث ما في منهج دعوتي إليكم هو أن تستغفروا من ذنوبكم وتطهروا أنفسكم من الأدران: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾.

ورابعها هو أن تعودوا إلى الله بالتوبة، وأن تتصفوا - بعد غسل الذنوب والتطهر في ظل الاستغفار - بصفات الله، فإن العودة إليه تعالى لا تعني إلا الإقتباس من صفاته ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾.

ثم تبين الآيات النتائج العملية لموافقة هذه الأصول الأربعة أو مخالفتها بالنحو التالي ﴿يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. فإذا عملنا بهذه الأصول فإن الله سبحانه يهبنا حياة سعيدة إلى نهاية العمر، وفوق كل ذلك فإن كلاً يُعطى بمقدار عمله ولا يهمل التفاوت والتفاضل بين الناس في كيفية العمل بهذه الأصول... ﴿وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾. وأما في صورة المخالفة والعناد فتقول الآية: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾. حين تمثلون للوقوف في محكمة العدل الإلهي.

واعلموا أنّ ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ كائنا من كنتم، وفي أي محل ومقام أنتم، وهذه الجملة تشير إلى الأصل الخامس من الأصول التفصيلية للقرآن وهي مسألة «المعاد والبعث» ولكن لا تتصوروا أنّه لا يستطيع أن يجمع عظامكم النخرة بعد الموت ويكسوها ثوباً جديداً من الحياة... ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الْإِنِّهَمْ يَلْتَنُونَ صُدُورَهُمْ لَيْسَتْ خَفُوا مِنْهُ الْأَحِينِ يَسْتَعْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ
وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾

هذه الآية تشير - على العموم - إلى أحد الأساليب الحمقاء التي كان يتبعها أعداء الإسلام والنبي ﷺ وذلك بالاستفادة من طريقة النفاق والابتعاد عن الحق، فكانوا يحاولون أن يخفوا حقيقتهم وماهيتهم عن الأنظار لئلا يسمعو قول الحق. لذلك فإن الآية تقول: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَلْتَنُونَ صُدُورَهُمْ لَيْسَتْ خَفُوا مِنْهُ﴾.

«يلتنون»: مشيرة إلى كل عمل خفي - ظاهري وباطني - قام به أعداء النبي ﷺ. لذلك فإن القرآن يعقب مباشرة: أن أحذروهم، فإنهم حين يستخفون تحت ثيابهم فإن الله يعلم ما يخفون وما يعلنون... ﴿أَلَا حِينِ يَسْتَعْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي
كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾

جميع الأحياء هيوف مادبته الآية السابقة أشارت إلى سعة علم الله وإحاطته بالسر وما يخفون وما يعلنون، والآية محل البحث تُعدّ دليلاً على تلك الآية المتقدمة، فإنها تتحدث عن الرزق لجميع الموجودات ولا يمكن يتم ذلك إلا بالإحاطة الكاملة بجميع العالم وما فيه. تقول الآية ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾. ويعلم تقلبها وتنقلها من مكان لآخر، وحيثما كانت فإن الرزق يصل إليها منه.

وهذه الحقائق مع جميع حدودها ثابتة في كتاب مبين ولوح محفوظ في علم الله ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

ملاحظات

- ١- بالرغم من أن كلمة «دابة» مشتقة من مادة «ديب» التي تعني السير ببطء وبخطى قصيرة، ولكنها من الناحية اللغوية تشمل كل حيوان يتحرك في سيره ببطء أو بسرعة.
- ٢- «الرزق»: هو العطاء المستمر، ومن هنا كان عطاء الله المستمر للموجودات رزقاً.
- ٣- «المستقر»: تعني المقر، لأن جذر هذه الكلمة في اللغة مأخوذ من «قر» على وزن «حر» وتعني كلمة القرّ البرد الشديد الذي يجعل الإنسان والموجودات الأخرى يركنون إلى بيوتهم، ومن هنا جاءت بمعنى التوقف والسكون أيضاً.
- و«المستودع» و«الوديعة»: من مادة واحدة، وهاتان الكلمتان في الأصل تعنيان «إطلاق الشيء وتركه».

٤- «الكتاب المبين»: معناه المكتوب الواضح البين، ويشير إلى علم الله الواسع، وقد يعبر عنه أحياناً باللوح المحفوظ أيضاً.

تقسيم الأرزاق والسعي من أجل الحياة: طريقة إيصال الرزق من الله تعالى إلى الموجودات المختلفة مذهلة ومعيرة حقاً. من الجنين الذي يعيش في بطن أمه ولا يعلم أحد من أسراره شيئاً، إلى الحشرات المختلفة التي تعيش في طيأت الأرض، وفي الأشجار وعلى قم الجبال أو في أعماق البحر، وفي الأصداف... جميع هذه الموجودات يتكفل الله برزقها ولا تخفى على علمه، وكما يقول القرآن: ﴿عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾.

الطريف في الآيات أنفة الذكر أنها تعبّر عن الموجودات التي تطلب الرزق بـ«الدابة» وفيها إشارة لطيفة إلى العلاقة بين موضوع «الطاقة» و«الحركة». ونعلم أنه حينما تكن حركة فلا بد لها من طاقة، أي ما يكون منشأ للحركة.

وفي جواب السؤال هل أن رزق كل أحد مقدر ومعين من أول عمره إلى آخره، وهل أنه يصل إليه شاء أم أبى؟

نقول: إن رزق كل أحد مقدر وثابت، إلا أنه مشروط بالسعي والجهد، وإذا لم يتوفر الشرط لم يحصل المشروط.

المسألة المهمة في هذا المجال أن الآيات والروايات المتعلقة بتقدير الرزق - في الواقع - بمثابة الكابح للأشخاص الحريصين وعبّاد الدنيا الذين يلجون كل باب، ويرتكبون أنواع الظلم والجنايات، ويتصورون أنهم إذا لم يفعلوا ذلك لم يؤمنوا حياتهم!

إن آيات القرآن والأحاديث الإسلامية تحذر هذا النمط من الناس ألا يمدّوا أيديهم وأرجلهم عبثاً، بل يكفي أن يسعوا لتحصيل الرزق عن طريق مشروع، والله سبحانه يضمن لهم الرزق.

وبالطبع أن بعض الأرزاق مثل نور الشمس والمطر والعقل والفكر والاستعداد تصل إلى الإنسان سعي لها أم لم يسع.

ولكن هذه المواهب إذا لم نحافظ عليها بالجد والسعي بطريقة صحيحة فستضيع من أيدينا، أو أنها ستبقى بلا أثر!

إن النقطة الأساسية هنا أن جميع التعاليم الإسلامية تأمرنا أن نسعى أكثر فأكثر لتأمين نواحي الحياة المادية والمعنوية، وأن الفرار من العمل - بزعم أن الرزق مقسوم وأنه آت لا محالة - غير صحيح...

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى
الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ
الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

الهدف من الخلق: في هذه الآية بُحِثت ثلاث نقاط أساسية:

المطلب الأول: يبحث عن خلق عالم الوجود - وخصوصاً بداية الخلق - الذي يدل على قدرة الله وعظمته سبحانه ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

إن المقصود من كلمة «اليوم» هو الزمان، سواء كان قصيراً أو مديداً جداً بحيث يبلغ مليارات السنوات مثلاً، وقد تبهنا على هذا المعنى في ذيل الآية (٥٤) من سورة الأعراف بشرح وافٍ في هذا المجال، فلا حاجة للتكرار والإعادة.

ثم يضيف سبحانه أن عرشه كان على الماء ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾.

«العرش»: في الأصل يعني السقف أو ما يكون له سقف، كما يطلق على الأسرة العالية كأسرة الملوك والسلاطين الماضين، ويطلق أيضاً على خشب بعض الأشجار، وغير ذلك. ولكن هذه الكلمة استعملت بمعنى القدرة أيضاً ويقال «استوى فلان على عرشه» كناية عن بلوغه القدرة كما يقال «تلى عرش فلان» كناية عن ذهاب قدرته. كما ينبغي الالتفات إلى هذه الدقيقة، وهي أن العرش يطلق أحياناً على عالم الوجود، لأن عرش قدرة الله يستوعب جميع هذا العالم.

إنه في بداية الخلق كان الكون بصورة مواد ذائبة «مع غازات مضغوطة للغاية، بحيث كانت على صورة مواد ذائبة أو مائعة».

وبعدئذ حدثت اهتزازات شديدة وانفجارات عظيمة في هذه المواد المتراكمة الذائبة، وأخذت تتقاذف أجزاء من سطحها إلى الخارج، وأخذ هذا الوجود المترابط بالانفصال، ثم تشكلت بعد ذلك الكواكب السيارة والمنظومات الشمسية والأجرام السماوية.

فعلى هذا نقول: إن عالم الوجود ومرتكزات قدرة الله كانت مستقرة بادىء الأمر على المواد المتراكمة الذائبة.

والمطلب الثاني: الذي تشير إليه الآية آفة الذكر هو الهدف من خلق الكون، والقسم الأساس من ذلك الهدف يعود للإنسان نفسه الذي يمثل ذروة الخلاق... هذا الإنسان الذي كتب عليه أن يسير في طريق التعليم والتربية ويشق طريق التكامل نحو الله تعالى. يقول الله سبحانه: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. أي ليختبركم ويمتحنكم أيكم الأفضل والأحسن عملاً بهذه الدار الدنيا.

«ليبلوكم»: كلمة مشتقة من مادة «البلاء» و«الابتلاء» ومعناها الاختبار والامتحان.

والمطلب الثالث: الذي تشير إليه الآية آفة الذكر - هو مسألة المعاد الذي لا ينفصل ولا يتجزأ عن مسألة خلق العالم، وفيها بيان الهدف من الخلق وهو تكامل الإنسان وتكامل الإنسان يعني التهيؤ إلى الحياة في عالم أوسع وأكمل، ولذلك يقول سبحانه: ﴿وَلَيُّنَّ قُلُوبَ الَّذِينَ يَنْفَكُونَ مِنْ بَعْدِ أَلَمَاتِهِمْ لِيَقُولُوا الَّذِي كَفَرْنَا مِنْ قَبْلُ هَٰذَا أَكْبَرُ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

وكلمة «هذا» التي وردت - في الآية آفة الذكر - على لسان الكفار، إشارة إلى كلام النبي ﷺ في شأن المعاد... أي إن ما تدعيه أيها النبي في شأن المعاد سحر مكشوف وواضح، فعلى هذا تكون كلمة السحر هنا بمعنى الكلام العاري عن الحقيقة، والقول الذي لا أساس له.

وَلَيْنَ أَخْرَجْنَاهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لِّيَقُولُوا مَا يَجْحِثُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَيْنَ أَذْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْفُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَيْنَ أَذْقَنَّهُ نَعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

استيعاب المؤمنين وعدم استيعاب لغيرهم؛ في هذه الآيات - وبمناسبة البحث السابق عن غير المؤمنين - بيان لزوايا الحالات النفسية ونقاط الضعف في أخلاق هؤلاء الأفراد والتي تجر الإنسان إلى هاوية الظلام والفساد.

وأول صفة تذكر هؤلاء هي السخرية من الحقائق وعدم الإكتراث بها وبالمسائل المصيرية، فهؤلاء بسبب جهلهم وعدم معرفتهم وغرورهم حين يسمعون تهديد الانبياء في مؤاخذه المسيئين ومعاقبتهم، ثم تمر عليهم عدة أيام يؤخر الله تعالى بلطفه فيها العذاب عنهم، نراهم يقولون باستهزاء مبطن: ما السبب في تأخر العذاب الإلهي، وأين عقاب الله: ﴿وَلَيْنَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مُّعْتَدَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَخْبِئُهُ﴾.

فهذه عادة الجاهلين والمغترين، فكلما وجدوا شيئاً لا ينسجم مع ميولهم وطباعهم عدّوه سخرية.

لكن القرآن يحذرهم وينذرهم بصراحة في ردّه على كلامهم، ويبين لهم أن لا دافع لعذاب الله إذا جاءهم ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسٌ مَّصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ وأن الذين يسخرون منه واقع بهم ومدّمّهم ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

ومن نقاط الضعف عند هؤلاء قلة الصبر بوجه المشاكل والصعاب وانحسار البركات الإلهية. حيث نجد في الآية التالية قوله تعالى عنهم: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْفٌ كَفُورٌ﴾.

والمراد من «الإنسان» في مثل هذه الآيات هو الأفراد الذين لم يتلقوا تربية سليمة والمنحرفون عن جادة الحق.

ونقطة الضعف الثالث عند هؤلاء أنهم حين يتمتعون بنعمة ويشعرون بالترف والرفاه يبلغ بهم الفرح والتكبر والغرور درجة ينسون معها كل شيء، ولذلك يشير القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة بقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَّسْتَهٍ لَّيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾.

ثم يستثني الله سبحانه المؤمنين الذين يواجهون الشدائد والمصاعب بصبر، ولا يتركون الأعمال الصالحة على كل حال، فهؤلاء بعيدون عن الغرور والتكبر وضيق الأفق، حيث يقول سبحانه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

هؤلاء لا يغترون عند وفور النعمة فينسون الله، ولا يياسون عند الشدائد والمصائب

فيكفرون بالله، بل إن أرواحهم الكبيرة وافكارهم السليمة جعلتهم يهضمون النعم والبلايا في أنفسهم دون الغفلة عن ذكر الله وأداء مسؤولياتهم ولذلك فإن هؤلاء ثواباً ومغفرة من الله ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

الأمة المعدودة وأصحاب المهدي في روايات عديدة وصلتنا عن أهل البيت عليهم السلام أن الأمة المعدودة تعني النفر القليل، وفيها إشارة إلى أصحاب المهدي عليه السلام وأنصاره. ولكن أن ظاهر الآية من الأمة المعدودة هو الزمان المحدود والمعين، وقد وردت رواية عن الإمام علي عليه السلام في تفسير الأمة المعدودة تشير إلى ما بيناه، وهو الزمان المعين، فيمكن أن تكون الروايات الآتفة تشير إلى المعنى الثاني من الآية، وهو ما اصطلح عليه بـ«بطن الآية».

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾
 أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَعْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَالَّذِينَ سَجِدُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

سبب النزول

وردت في شأن نزول الآيات المتقدمة روايتان، ويحتمل أن تكون كليهما صحيحتين جميعاً. الأولى: في تفسير مجمع البيان روي عن ابن عباس: إن رؤساء مكة من قريش، أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: يا محمد! إن كنت رسولاً فحوّل لنا جبال مكة ذهباً أو ائتنا بملائكة يشهدون لك بالنبوة. فأنزل الله تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ﴾ الآية. والثانية: روي العياشي عن الإمام الصادق عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام: «إني سألت ربي أن يوالي بيني وبينك ففعل، وسألت ربي أن يواخي بيني وبينك ففعل، وسألت ربي أن يجعلك وصيي ففعل». فقال رجلان من قريش: والله لصاع من تمر في شئ بال أحب إلينا مما سأل محمد ربه، فهلا سألته ملكاً يعضده على عدوه، أو كنزاً يستعين به على فاقته. فنزلت الآية.

التفسير

القرآن المعجزة الخالدة: يبدو من هذه الآيات أن النبي ﷺ كان يوكل بإيلاء الآيات - نظراً للحاجة الأعداء ومخالفتهم - لآخر فرصة، لذا فإن الله سبحانه ينهى نبيه في أول آية نبحثها عن ذلك بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾. لئلا يطلبوا منك معاجز مقترحة كنزول كنز من السماء، أو مجيء الملائكة لتصديقه ﴿أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾.

إن هؤلاء لا يطلبون هذه المعاجز ليصدقوا دعوى النبي ويتبعوا الحق، بل هدفهم اللجاجة والعناد والتحجج الواهي، فلذلك تأتي الآية معقبة: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾. سواءً قبلوا دعواك أم لم يقبلوا، وسخروا منك أم لم يسخروا، فالله هو الحافظ والناظر على كل شيء ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾. أي لا تكثر بكفرهم وإيمانهم فإن ذلك لا يعنيك، وإنما وظيفتك أن تبلغهم، والله سبحانه هو الذي يعرف كيف يحاسبهم، وكيف يعاملهم.

وبما أن الذين يتذرعون بالحجج ويشكلون على النبي كانوا أساساً منكرين لوحي الله، ويقولون: إن هذه الآية ليست نازلة من قبل الله، وإن هذا الكلام افتراه محمد - وحاشاه من ذلك - على الله كذباً، لذلك تأتي الآية التالية لتبين بصراحة تامة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾. فقل لهم يا رسول الله - إن كانوا صادقين في دعواهم أن ما تقوله ليس من الله وأنه من صنع الإنسان - فليأتوا بعشر سور مثل هذا الكلام مفتريات، وليدعوا - سوى الله - ما شاؤوا ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتِطَعْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

أما إذا لم يستجيبوا لدعوتك ولا للمسلمين، ولم يلبوا طلبك على الإتيان بعشر سور مفتريات كسور القرآن، فاعلموا أن ذلك الضعف وعدم القدرة دليل على أن هذه الآيات نزلت من خزانة علم الله، ولو كانت من صنع بشر، فهم بشر أيضاً... فلماذا لا يقدر على ذلك: ﴿قَالُوا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾. واعلموا أيضاً أنه لا معبود سوى الله، ونزول هذه الآيات دليل على هذه الحقيقة ﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. فهل يسلم المخالفون مع هذه الحالة ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ﴾. أي بعد ما دعوناكم للإتيان بمثل هذه السور، وظهر عجزكم وعدم قدرتكم على ذلك، فهل يبقى شك في أن هذه الآيات منزلة من قبل الله، ومع هذه المعجزة البينة ما زلتم منكرين، أم أنكم تسلمون وتقرّون حقاً؟

إن الآيات - المذكورة - تؤكد إعجاز القرآن مرة أخرى وتقول: ليس هذا كلاماً عادياً، بل هو وحي السماء الذي ينزل بعلم الله اللامحدود وقدرته الواسعة، وعلى هذا فإنه يتحدى جميع البشر أن يواجهوه بمثله.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

الآيات أعلاه أكملت الحجة مع «دلائل إعجاز القرآن» على المشركين والمنكرين، ولكن جماعة منهم امتنعوا عن القبول - لحفظ منافعهم الشخصية - بالرغم من وضوح الحق، فالآيات هذه تشير إلى مصير هؤلاء فتقول: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ من رزق مادي وشهرة وتلذذ بالنعم ﴿نُوفٍ إِلَيْهِمْ﴾ نتيجة ﴿أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ في هذه الدنيا ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾. أي لا ينقص من حقهم شيء في الدنيا.

«البخس»: في اللغة نقصان الحق، وجملة ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ إشارة إلى أنهم سينالون نتيجة أعمالهم بدون أقل نقصان من حقوقهم.

هذه الآية سنة إلهية دائمة، وهي أن الأعمال «الإيجابية» والمؤثرة لاتضيع نتائجها، مع فارق وهو أنه إذا كان الهدف الأصلي منها هو الوصول إلى الحياة المادية في هذه الدنيا فإن ثمراتها في الدنيا فحسب، وأما إذا كان الهدف هو «الله» وكسب رضاه فإن تأثيرها ونتائجها ستكون في الدنيا وفي الآخرة أيضاً حيث تكون النتائج كثيرة الثمار.

وهذا من قبيل ما نراه بوضوح على أرض الواقع المعاش، فالعالم الغربي فتح أسراراً كثيرة من العلم بسعيه المتواصل والمنسّق، وأصبح متسلطاً على قوى الطبيعة وحصل على مواهب كثيرة لتصديه الدائب لمشاكل الحياة الدنيوية بصبر واستقامة وجد، فلا كلام في نيل العالم الغربي جزاء أعماله وتحقيقه انتصارات مشرقة، ولكن لأن هدفه الحياة المادية فحسب، فإن أعماله لا تثمر غير توفر الإمكانيات المادية.

فلذلك يقول سبحانه عنهم في الآية التالية: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ ليزول كل أثر أخروي لما عملوا في هذه الدنيا ولا ينالون عليه أي ثواب ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ وكل ما كان لغير الله فسيزول أثره ﴿وَبِطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

في الدر المنثور - في تفسير هذه الآيات - عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة صارت أمتي ثلاث فرق: فرقة يعبدون الله خالصاً، وفرقة يعبدون الله رياءً، وفرقة يعبدون الله يصيبون به دنيا.

فيقول للذي كان يعبد الله للدنيا: بعزتي وجلالي، ما أردت بعبادتي؟ فيقول: الدنيا. فيقول: لا جرم لا ينفعك ما جمعت ولا ترجع إليه، انطلقوا به إلى النار.

ويقول للذي يعبد الله رياءً: بعزتي وجلالي، ما أردت بعبادتي؟ قال: الرياء. فيقول: إنما كانت عبادتك التي كنت تراني بها لا يصعد إليّ منها شيء ولا ينفعك اليوم، انطلقوا به إلى النار. ويقول للذي كان يعبد الله خالصاً: بعزتي وجلالي، ما أردت بعبادتي؟ فيقول: بعزتك وجلالك لأنت أعلم به مني، كنت أعبدك لوجهك ولدارك، قال: صدق عبدي، انطلقوا به إلى الجنة».

أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ، وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا
وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ، مِنَ الْأَحْزَابِ، فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ، فَلَا تَكُ
فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ، وَلَكِنَّ أَكْثَر النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

هناك أقوال كثيرة - في تفسير الآية أعلاه - ولكن تفسير منها أشد وضوحاً. في بداية الآية يقول الحق سبحانه: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾. أي من الله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾. أي التوراة التي تؤيد صدقه وعظمته، مثل هذا الشخص هل يستوي ومن لا يتمتع بهذه الخصال والدلائل البينة؟

هذا الشخص هو النبي ﷺ ودليله الواضح هو القرآن المجيد، والشاهد المصدق بنبوته كل مؤمن حق أمثال علي عليه السلام ومن قبله وردت صفاته وعلامته في التوراة، فعلى هذا ثبتت دعوته عن طرق ثلاثة حقة واضحة.

الأول: القرآن الكريم الذي هو بيّنة ودليل واضح في يده.

الثاني: الكتب السماوية التي سبقت نبوته وأشارت إلى صفاته بدقّة، وأتباع هذه الكتب السماوية في عصر النبي كانوا يعرفونه حقاً، ولهذا السبب كانوا ينتظرونه.

والثالث: أتباعه وأنصاره المؤمنون المضحون الذين كانوا يبيّنون دعوته ويتحدثون عنه. ومع وجود هذه الدلائل الحية، هل يمكن أن يقاس مع غيره من المدّعين، أم هل ينبغي

التردد في صدق دعوته؟!!

ثم يشير بعد هذا الكلام إلى طلاب الحقّ والباحثين عن الحقيقة، يدعوهم إلى الإيمان دعوة ضمنية فيقول: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾. أي النبي الذي لديه هذه الدلائل الواضحة. ثم يعقب بعد ذلك ببيان عاقبة المنكرين ومصيرهم بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأِنَّآ أَمُوعِدُهُ﴾.

وفي ختام الآية - كما هي الحال في كثير من آيات القرآن - يوجه الخطاب إلى النبي ﷺ ويبيّن درساً عاماً لجميع الناس، ويقول: بعد هذا كله من وجود الشاهد والبيّنة والمصدق بدعوتك، فلا تتردد في الطريق ذاته ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾. لأنّه من قبل الله سبحانه ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾. ولكن كثيراً من الناس ونتيجةً لجهلهم وأنانيتهم لا يؤمنون ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وعلى هذا فالآية تشير إلى امتيازات الإسلام والمسلمين الصادقين واستنادهم إلى الدلائل المحكمة في اختيار مذهبهم هذا... وفي قبال ذلك تذكر ما يصير إليه المنكرون والمستكبرون من مآل مشؤوم أيضاً...

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾
الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَأَجْرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

أخسر الناس أعمالاً: بعد الآية المتقدمة التي كانت تتحدث عن القرآن ورسالة النبي محمد ﷺ تأتي آيات أخر تشرح عاقبة المنكرين وعلاماتهم ومآل أعمالهم. ففي أول آية من هذه الآيات يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾. ويعني أن تكذيب دعوة النبي الصادق في الواقع هو تكذيب لكلام الله وافتراء عليه بالكذب.

ثم يبيّن ما ينتظرهم من مستقبل مشؤوم يوم القيامة حين يُعرضون على محكمة العدل الإلهي ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾. حينئذ يشهد «الأشهاد» على أعبالهم وأن هؤلاء هم الذين كذبوا على الله العظيم الرحيم وولي النعمة....

﴿وَيَقُولُ الْآشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَلَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ثم ينادون بصوت عال ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

والآية التي بعدها تبين صفات الظالمين في ثلاث جمل:

الأولى تقول: إنهم يمنعون الناس بمختلف الأساليب عن سبيل الله ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فرّة عن طريق إلقاء الشبهة، ومرّة بالتهديد، وأحياناً عن طريق الإغراء والطمع، وجميع هذه الأساليب ترجع إلى أمر واحد، وهو الصدّ عن سبيل الله.

الثانية تقول: إنهم يسعون في أن يُظهروا سبيل الله وطريقه المستقيم عوجاً ﴿وَيَتَّبِعُونَهَا عُوجًا﴾. أي بأنواع التحريف من قبيل الزيادة أو النقصان أو التفسير بالرأي وإخفاء الحقائق حتى لا تتجلى الصورة الحقيقية للضراط المستقيم. ولا يستطيع الناس وطلاب الحق السير في هذا الطريق.

والثالثة تقول: إنهم لا يؤمنون بيوم النشور والقيامة ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

وعدم إيمانهم بالمعاد هو أساس الانحرافات الكبرى

في الآية التالية يبيّن أن هؤلاء لا يستطيعون الهرب من عقاب الله في الأرض ولا أن يخرجوا من سلطانه ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُفْجِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ كما أنهم لا يجدون ولياً وحامياً لهم غير الله ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾.

وأخيراً يشير سبحانه إلى عقوبتهم الشديدة حيث تكون مضاعفة: ﴿يُضَاعَفْ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾.

لماذا؟! لأنهم كانوا ضالين ومخطئين ومنحرفين، وفي الوقت ذاته كانوا يجرون الآخرين إلى هذا السبيل، فلذلك سيحملون أوزارهم وأوزار الآخرين، دون التخفيف عن الآخرين من أوزارهم ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾^١.

وفي ختام الآية يبيّن الله سبحانه أساس شقاء هؤلاء بقوله: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾.

فهم بإهمالهم هاتين الوسيلتين المؤثرتين [وسيلتي السمع والبصر] لدرك الحقائق، ضلّوا السبيل وأضلّوا سواهم أيضاً...

وبديهى أنّ عدم استطاعة دركهم الحقائق كانت نتيجة لاجتهدهم الشديدة وعدائهم للحق والحقيقة، وهذا لا يسلب عنهم المسؤولية.

والآية التي بعدها تبين في جملة واحدة حصيلة سعيهم وجدّهم في طريق الباطل، فنقول: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾. وهذه أعظم خسارة يمكن أن تصيب الإنسان، إذ يخسر وجوده الإنساني...

ثم تضيف الآية: أنهم اتخذوا آلهة ومعبودين مصطنعين «مزيفين» ولكن تلاشت هذه الآلهة المصنوعة والمزيفة أخيراً... ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

وفي نهاية الآية بيان الحكم النهائي لمآلهم وعاقبتهم بهذا التعبير: ﴿لَا جَزَاءَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ﴾.

والسبب واضح؛ لأنهم حرّموا من نعمة السمع الحاد والبصر النافذ، وخسروا كل إنسانيتهم ووجودهم، ومع هذه الحال فقد حملوا أثقال مسؤوليتهم وأثقال الآخرين مع أثقالهم.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

تعقيباً على الآيات المتقدمة التي أوضحت حال منكري الوحي، تأتي الآيتان هنا لتوضحاً من في قباهم، وهم المؤمنون حقاً. فالآية الأولى تقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾. أي: استسلموا وانقادوا خاضعين لأمر الله ووعده الحق، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وفي الآية الأخرى بيان لحالة هذين الفريقين في مثال حيّ وواضح... حال الأعمى والأصم، وحال السميع والبصير، فنقول الآية: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾. ثم تعقب الآية: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

حال منكري الوحي، فبسبب لاجتهدهم وعدائهم للحق ووقوعهم أسرى بمخالب

التعصب والأنانية وعبادة الذات، فقدوا بصرهم وسمعهم للحقيقة البيّنة، فلا يستطيعون ادراك الحقائق المرتبطة بعالم الغيب، وتأثير الإيمان، والتلذذ بعبادة الله، وعظمة التسليم لأمره.

هؤلاء الأفراد يعيشون أبداً عمياناً صمّاً في ظلام مطبق وسكوت مميت... في حين أنّ المؤمنين الصادقين يرون كل حركة بأعين بصيرة، ويسمعون كل صوت بأذان سمیعة، وبالتوجه إلى طريقهم يكون مصيرهم «السعادة».

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَوْمِ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَفُرُوا وَإِنَّا كُنَّا لَمَكِيدِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْتِنَا مِنْ رَبِّي وَءِ السَّبِيحِ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنزَلْنَاكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ ﴿٢٨﴾

لقطة نوح المثيرة مع لومه: تقدم أنّ هذه السورة تحمل بين ثناياها قصص الأنبياء السابقين وتاريخهم، في البداية تذكر قصة نوح عليه السلام وهو أحد الأنبياء أولي العزم، وضمن (٢٦) آية تُرسم النقاط الأساسية لتاريخه المثير... والآيات المتقدمة تبين بداية هذه الدعوة العظيمة فتقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

وفي الآية الأخرى يُلخّص محتوى رسالته في جملة واحدة ويقول: رسالتي هي ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾. ثم يعقب دون فاصلة بالإنذار والتحذير مرّة أخرى: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَوْمِ﴾.

إنّ مسألة التوحيد والعبودية لله الواحد الأحد هي أساس دعوة الأنبياء جميعاً، فإذا كان جميع أفراد المجتمع موحدون ولا يعبدون إلا الله، ولا ينقادون للأوثان الوهمية الخارجية منها والداخلية من قبيل الأنانية والهوى والشهوات والمقام والجاه والنساء والبنين فلا يبقى أثر للسلبات والخبائث في المجتمع البشري.

فلننظر الآن أوّل ردّ فعل من قبل الطواغيت واتباع الهوى والمترفين وامثالهم إزاء إنذار

الأنبياء، كيف كان وماذا كان؟!!

فقد أجاب أولئك دعوة نوح بثلاثة إشكالات:

الأول: إن الأشراف والمترفين من قوم نوح ﷺ قالوا له أنت مثلنا ولا فرق بيننا وبينك: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾. زعماً منهم أن الرسالة الإلهية ينبغي أن تحملها الملائكة إلى البشر لا أن البشر يحملها إلى البشر! وظناً منهم أن مقام الإنسان أدنى من مقام الملائكة، أو أن الملائكة تعرف حاجات الإنسان أكثر منه. والإشكال الثاني: إنهم قالوا: يا نوح؛ لا نرى متبعيك ومن حولك إلا حفنة من الأراذل وغير الناضجين الذين لم يسبروا مسائل الحياة: ﴿وَمَا نَرِيكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآيَاتِنَا بُدْءًا﴾.

الإشكال الثالث: الذي أوردوه على نوح ﷺ أنهم قالوا: بالاضافة إلى أنك إنسان ولست ملكاً، وأن الذين آمنوا بك والتفوا حولك هم من الأراذل، فإتنا لا نرى لكم علينا فضلاً ﴿وَمَا نَرِي لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾.

والآيات التي تعقبها تبين رد نوح ﷺ وإجاباته المنطقية على هؤلاء حيث تقول: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَمَآ تَلْمِزُونِي مِنْ عِنْدِهِ فَعُوقِبْتَ عَلَيْهِمْ﴾. وفي ختام الآية يقول النبي نوح ﷺ لهم: هل أستطيع أن ألزمكم الاستجابة لدعوتي وأنتم غير مستعدين لها وكارهون لها: ﴿أَلَمْ نَكُ مَكْنُوحًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾.

وَيَقَوْمٍ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُؤَارِ رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمٍ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾

ما أنا بطارد الذين آمنوا: هذه الآيات تتابع ما رد به نوح ﷺ على قومه المنكرين. فالآية الأولى التي تحمل واحداً من دلائل نبوة نوح، ومن أجل أن تنير القلوب المظلمة من قومه تقول على لسان نوح: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ﴾. فأنا لا أطلب لقاء دعوتي ما لآ أو ثروة منكم، وإنما جزائي وثوابي على الله سبحانه الذي بعثني بالنبوة وأمرني بدعوة خلقه إليه: ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ﴾.

وهذا معيار وميزان لمعرفة القادة الصادقين من غيرهم الذين يستحيون الفرص ويهدفون إلى تأمين المنافع المادية في كل خطوة يخطونها سواء كان بشكل مباشر أو غير مباشر.

ويعتق نوح عليه السلام بعد ذلك في رده على مقولة طرد المؤمنين به من الفقراء والشباب فيقول بصورة قاطعة: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. لأنهم سيلاقون ربهم ويخاصمونني في الدار الآخرة ﴿إِنَّهُمْ مَلَأُوا رِيَّهُمْ﴾.

ثم تختتم الآية ببيان نوح لقومه بأنكم جاهلون ﴿وَلَكِنِّي أَرِيكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾. وأي جهل وعدم معرفة أعظم من أن تضيعوا مقياس الفضيلة وتبحثون عنها في الثروة والمال الكثير والجاه والمقام الظاهري.

ثم أنتم تتصورون - بجهلكم - أن يكون النبي من الملائكة، في حين ينبغي أن يكون قائد الناس من جنسهم ليحس بحاجاتهم ويعرف مشاكلهم وآلامهم.

وفي الآية التي بعدها يقول لهم موضعاً: إنني لو طردت من حولي فمن ينصرتني من عدل الله يوم القيامة وحتى في هذه الدنيا ﴿وَيَا قَوْمِ مَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾.

فطرد المؤمنين الصالحين ليس بالأمر الهين، إذ سيكونون خصومي يوم القيامة بطردي لهم، ولا أحد هناك يستطيع أن يدافع عني ويخلصني من عدل الله، ولربما أصابتنى عقوبة الله في هذه الدنيا، أم أنكم لا تفكرون في أن ما أقوله هو الحقيقة عينها ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

وآخر ما يجيب به نوح قومه ويرد على إشكالاتهم الواهية... إنكم إذا كنتم تتصورون أن لي امتيازاً آخر غير الإعجاز الذي لدي عن طريق الوحي فذلك خطأ، وأقول لكم بصراحة: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾. ولا أستطيع أن أحقق كل شيء أريده وكل عمل أطلبه، حيث تحكي الآية عن لسانه ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾. ولا أقول لكم إنني مطلع على الغيب ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾. ولا أدعي أنني غيركم كأن أكون من الملائكة مثلاً ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾. فهذه الادعاءات الفارغة والكاذبة يتذرع بها المدعون الكذبة، وهيئات أن يتذرع بها الأنبياء الصادقون.

وفي ذيل الآية يكرر التأكيد على المؤمنين المستضعفين بالقول: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ حَيْثَآءَ﴾، بل على العكس تماماً، فخير هذه الدنيا وخير الآخرة لهم وإن كانوا حُفَاةً لخلو أيديهم من المال والثروة فأنتم الذين تحسبون الخير منحصراً في المال والمقام والسن، تجهلون الحقيقة ومعناها تماماً.

وعلى فرض صحة مدّعاكم أراذل و«أوباش» ف﴿اللَّهُ أَغْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾.
أنا الذي لا أرى منهم شيئاً سوى الصدق والإيمان يجب عليّ قبولهم، لأنّي مأمور
بالمظاهر، والعارف بأسرار العباد هو الله سبحانه، فإن عملت غير عملي هذا كنت آثماً ﴿إِنِّي
إِذَا لَوْنُ الظَّالِمِينَ﴾.

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَابِنَا إِذَا تَعَدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ
الصّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٢٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ
نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
﴿٢٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا يُجْرِمُونَ ﴿٢٥﴾

كَلِمَاتُ الْكَلَامِ لِأَيْنَ مَا تَعَدْنَا بِهِ؟ الآية الأولى من الآيات اعلاه تتحدث عن قوم نوح ﷺ.
أنهم: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾. فأين ما تعدنا به من عذاب الله ﴿فَأَيْنَا بِمَا
تَعَدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰوِقِينَ﴾.

فاختيار هذه الطريقة إزاء كل ذلك اللطف وتلك المحبة من قبل أنبياء الله ونصائحهم التي
تجري كالماء الزلال على القلوب، إنما تحكي عن مدى اللجاجة والتعصب الأعمى لدى تلك
الأقوام.

لقد أجاب نوح ﷺ على هذه اللجاجة والحقاقة وعدم الإعتناء بقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ
بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾. فذلك خارج من يدي على كل حال وليس باختيارى، إنما أنا رسوله
ومطيع لأمره، فلا تطلبوا مني العذاب والعقاب ولكن حين يحل عذابه فاعلموا أنكم لا
تقدرون أن تفرّوا من يد قدرته أو تلجأوا إلى ما من آخر ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

ثم يضيف: وإذا كان الله يريد أن يضلّكم ويغويكم - لما أنتم عليه من الذنوب والتلوّث
الفكري والجسدي - فلا فائدة من نصحي لكم إذا ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ
لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ فهو وليكم وأنتم في قبضته ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

سؤال: هل يمكن أن يريد الله الغواية والضلال لعباده؟

الجواب: قد تصدر من الإنسان - أحياناً - سلسلة من الأعمال التي تكون نتيجتها

الغواية والانحراف الدائمى وعدم العودة إلى الحق.

وفي آخر الآية - محل البحث - ورد كلام بمثابة الجملة المعترضة ليؤكد المواضيع التي بحثت قصة نوح في الآيات السابقة واللاحقة، فتبين الآية أن الأعداء يقولون: إن هذا الموضوع صاغه «محمد» من قبل نفسه ونسبه إلى الله ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾.

ففي جواب ذلك قل يا رسول الله: إن كان ذلك من عندي ونسبته إلى الله فذنبه عليّ ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيْ إِجْرَامِي﴾ ولكني بريء من ذنوبكم ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾. «الإجرام»: مأخوذ من مادة «جرم» على وزن «جهل» وكما أشرنا إلى ذلك - سابقاً - فإن معناه قطف الثمرة غير الناضجة، ثم أطلقت على كل ما يحدث من عمل سيء، وتطلق على من يحث الآخر على الذنب أنه أجرم، وحيث إن الإنسان له إرتباط في ذاته وفطرته مع العفاف والنقاء، فإن الإقدام على الذنوب يفصل هذا الإرتباط الإلهي منه.

وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدَّ آمَنَ فَلَا نَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾

إن قصة نوح ﷺ الواردة في آيات هذه السورة، بينت بعدة عبارات وجمل، كل جملة مرتبطة بالأخرى، وكل منها يمثل سلسلة من مواجهة نوح ﷺ في قبال المستكبرين، ففي الآيات السابقة بيان لمرحلة دعوة نوح ﷺ المستمرة والتي كانت في غاية الجدية، وبالاستعانة بجميع الوسائل المتاحة، وفي الآيات محل البحث إشارة إلى المرحلة الثالثة من هذه المواجهة، وهي مرحلة انتهاء دورة التبليغ والتهيؤ للتصفية الإلهية. ففي الآية الأولى نقرأ ما معناه: يا نوح، إنك لن تجد من يستجيب لدعوتك ويؤمن بالله غير هؤلاء: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدَّ آمَنَ﴾.

وهي إشارة إلى أن الصفوف قد أمتازت بشكل تام، والدعوة للإيمان والإصلاح غير مجدية، فلا بد إذاً من الإستعداد للتصفية والتحول النهائي.

وفي نهاية الآية تسلية لقلب نوح ﷺ أن لا تحزن على قومك حين تجدهم يصنعون مثل

هذه الأعمال ﴿فَلَا تَبْتَهِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. ونستفيد من هذه الآية - ضمناً - أن الله يطلع نبيه نوحاً على قسم من أسرار الغيب بمقدار ما ينبغي.

وعلى كل حال لابد من إنزال العقاب بهؤلاء العصاة اللجوجين ليظهر العالم من التلوّث بوجودهم، وليكون المؤمنون في منأى عن محالهم.

وجاء الأمر لنوح أن ﴿وَأَضْحِ أَلْفُكَّ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا﴾.

وفي نهاية الآية ينذر الله نوحاً أن لا يشفع في قومه الظالمين، لأنهم محكوم عليهم بالعذاب وإن الغرق قد كتب عليهم حتماً ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَقُونَ﴾.

هذه الجملة تبين بوضوح أن الشفاعة لا تتيسر لكل شخص، بل للشفاعة شروطها فإذا لم تتوفر في أحد الأشخاص فلا يحق للنبي أن يشفع له ويطلب من الله العفو لأجله.

أما عن قوم نوح فكان عليهم أن يفكروا بجد - ولو لحظة واحدة - في دعوة النبي نوح ﷺ ويحتملوا على الأقل أن هذا الإصرار وهذه الدعوات المكررة كلها من «وحي الله» فتكون مسألة العذاب والظوفان حتمية! إلا أنهم واصلوا استهزاءهم وسخريتهم مرة أخرى وهي عادة الأفراد المستكبرين والمغرورين ﴿وَيَضْحِكُ أَلْفُكَّ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

ولكن نوحاً كان يواصل عمله بجدية فائقة وأناة واستقامة منقطعة النظير لأنها وليدة الإيمان، وكان لا يكثرث بكلمات هؤلاء الذين رضوا عن أنفسهم وعميت قلوبهم، وإنما يواصل عمله ليكمله بسرعة. ويوماً بعد يوم كان هيكل السفينة يتكامل ويتهيأ لذلك اليوم العظيم، وكان نوح ﷺ أحياناً يرفع رأسه ويقول لقومه الذين يسخرون منه هذه الجملة القصيرة ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

ذلك اليوم الذي يطغى فيه الطوفان فلا تعرفون ما تصنعون، ولا ملجأ لكم، وتصرخون معولين بين الأمواج تطلبون النجاة.. ذلك اليوم يسخر منكم المؤمنين ومن غفلتكم وجهلكم وعدم معرفتكم ويضحكون عليكم.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَجِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثِيمٌ﴾.

سفينة نوح، لا شك أن سفينة نوح لم تكن سفينة عادية ولم تنته بسهولة مع وسائل ذلك الزمان وآلاته، إذ كانت سفينة كبيرة تحمل بالإضافة إلى المؤمنين الصادقين زوجين اثنين من كل نوع من الحيوانات، وتحمل متاعاً وطعاماً كثيراً يكفي للمدة التي يعيشها المؤمنون

والحيوانات في السفينة حال الطوفان، ومثل هذه السفينة بهذا الحجم وقدرة الاستيعاب لم يسبق لها مثيل في ذلك الزمان، فهذه السفينة ستجري في بحر بسعة العالم، وينبغي أن تمر سائمة عبر أمواج كالجبال فلا تتحطم بها.

لذلك تقول بعض روايات المفسرين: إن طول السفينة كان ألفاً ومئتي ذراع، وعرضها كان ستائة ذراع (كل ذراع يعادل نصف متر تقريباً).

وتقرأ في بعض الروايات أن النساء ابتلين قبل الطوفان بأربعين عاماً بالعمق وعدم الإنجاب، وكان ذلك مقدمة لعذابهم وعقابهم.

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ
إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ أَرَبِئْتُ
فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ يَجْرِبُهَا وَرُسُسُهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ
كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوْحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ أَرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ
مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَتَأْوِي إِلَىٰ جِبَلٍ يَّغْصِبُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ
مِنَ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾

شروع الطوفان: رأينا في الآيات المتقدمة كيف صنع نوح ﷺ وجماعته المؤمنون سفينة النجاة بصدق. وواجهوا جميع المشاكل واستهزاء الأكثرية من غير المؤمنين، وهياوا أنفسهم للطوفان، ذلك الطوفان الذي طهر سطح الأرض من لوث المستكبرين الكفرة. والآيات - محل البحث - تتعرض لموضوع ثالث، وهو كيف كانت النهاية؟ وكيف تحقق نزول العذاب على القوم المستكبرين، فتبيته بهذا التعبير: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾.

ولعل قوم نوح الغافلين رأوا هذه الآية. وهي فوران التنور بالماء في بيوتهم ولكن غضوا أجفانهم وصموا آذانهم كعادتهم عند ظهور مثل العلائم الكبيرة حتى أنهم لم يسمحوا لأنفسهم بالتفكير في هذا الأمر وأن إنذارات نوح حقيقية.

في هذه الحالة بلغ الأمر الإلهي نوحاً ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾.

لكن كم هم الذين آمنوا معه؟ ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

هذه الآية تشير من جهة إلى امرأة نوح وابنه كنعان وقد قطعاً علاقتها بنوح على أثر انحرافها وتآمرها مع المجرمين، فلم يكن لها حق في ركوب السفينة ليكونا من الناجين، لأنّ الشرط الأوّل للركوب كان هو الإيمان.

وتشير الآية من جهة أخرى إلى أنّ ثمره جهاد نوح ﷺ بعد هذه السنين الطوال والسعي الحثيث المتواصل في التبليغ لدعوته، لم يكن سوى هذا النفر المؤمن القليل.

جمع نوح ﷺ ذويه وأصحابه المؤمنين بسرعة، وحين أزف الوعد واقترب الطوفان وأوشك أن يحل عذاب الله أمرهم أن يركبوا في السفينة ﴿وَقَالَ أَزْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُزْسَهَا﴾.

لماذا؟ لكي يعلمهم أنّه ينبغي أن تكونوا في جميع الحالات في ذكر الله تعالى وتستمدوا العون من اسمه وذكره ﴿إِنَّ رَبِّي لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

فبمقتضى رحمته جعل هذه السفينة تحت تصرفكم واختياركم لتنجيكم من الغرق وبمقتضى عفوه وغفرانه يتجاوز عن أخطائكم.

وأخيراً حانت اللحظة الحاسمة، إذ صدر الأمر الإلهي فتلبّدت السماء بالغيوم كأنها قطع الليل المظلم، وتراكم بعضها على بعض بشكل لم يسبق له مثيل، وتتابعت أصوات الرعد ومضات البرق في السماء كلها تخبر عن حادثة «مهولة ومرعبة جداً».

شرع المطر وتوالى مسرعاً منهمراً أكثر فأكثر.

وهكذا إتصلت مياه الأرض بمياه السماء، فلم يبق جبل ولا وادٍ ولا تلة ولا نجد إلا استوعبه الماء وصار بجرّاً محيطاً خضماً... أما الأمواج فكانت على أثر الرياح الشديدة تتلاطم وتغدو كالجبال. وسفينة نوح ومن معه تمضي في هذا البحر ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ أَزْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾. فإنّ مصيرك إلى الفناء إذا لم تركب معنا.

ولكن - للأسف - كان أثر المحيط السيء عليه أكبر من تأثير قلب أبيه المتحرق عليه. لذلك فإنّ هذا الولد اللجوج الأحمق، وظنّاً منه أن ينجو من غضب الله أجاب والده نوحاً و﴿قَالَ سَتَأْتِي إِلَى جِبَلٍ يَنْصَبُ مِنْ أَلْعَاقِ﴾. ولكن نوحاً لم ييأس مرّة أخرى فنصحه أن يترك غروره ويركب معه و﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾. ولا ينجو من هذا الغرق إلا من شمله لطف الله ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾.

وفي هذه الحالة التي كان ينادي نوح ابنه ولا يستجيب الابن له ارتفعت موجة عظيمة
والتهمت كنعان بن نوح وفصل الموج بين نوح وولده ﴿وَحَالٌ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ
الْمُفْرَقِينَ﴾.

بحوث

١- **دروس تربوية من طوفان نوح**: إن هدف القرآن الأصلي من ذكر قصص الماضين
بيان دروس وعبر ومسائل تربوية، وفي هذا القسم من قصة نوح مسائل مهمة جداً نشير
إلى قسم منها:

تطهير وجه الأرض: صحيح أن الله رحيم ودود، ولكن لا ينبغي أن ننسى أنه حكيم
أيضاً، فبمقتضى حكيمته أنه عندما لا تؤثر دعوة الناصحين والمرتبين الإلهيين في قوم
فاسدين، فلا حق لهم بعد ذلك في الحياة وسينتهون نتيجة للثورات الاجتماعية أو الطبيعية
وتحت وطأة التنظيم الحياتي.

وهذا الأمر غير منحصر في قوم نوح ولا بزمان معين، إنما هو سنة الله في خلقه وعباده في
جميع العصور والأزمان حتى في عصرنا الحاضر، وأي إشكال في أن تكون كل من الحرب
العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية صورة من صور «تطهير الأرض».

٢- **لِمَ كَانَ الْعِقَابُ أَوْ الطُّوفَانُ؟** صحيح أن قوماً أو أمة كانوا فاسدين وينبغي زوالهم
ومهما تكن وسائل إزالتهم فالنتيجة واحدة، ولكن بالتدقيق في الآيات المتقدمة نستفيد أن
هناك تناسباً بين الذنوب وعقاب الله دائماً وأبداً «فتدبر جيداً».

كان فرعون يرى قدرته وعظمته تتجلى في «نهر النيل» ومياهه كثير البركات، لكن
الطريف أن هلاك فرعون ونهايته كان في النيل.

وكان قوم نوح أهل زراعة و«أنعام» وكانوا يمدون كل خيراتهم في «حبات المطر» لكن
نهايتهم كانت بالمطر أيضاً...

ومن هنا يتضح جلياً أن حساب الله في غاية الدقة، ولو لاحظنا الطغاة العتاة في عصرنا
وفي الحرب العالمية الأولى والثانية كيف أيّدوا بأسلحتهم الحديثة والمتطورة لاتضح المعنى
أكثر.

فلا ينبغي أن نعجب أن هذه الصناعات المتقدمة التي اعتمدوا عليها في استعمار الشعوب
واستثمار خيراتهم واستضعافهم... أدت إلى زوالهم.

٣- **المرتكزات الجوفاء**: من الطبيعي أن كل أحد يعتمد في التغلب على الصعاب ومواجهة

المشاكل في حياته إلى أمر ما، فجماعة يعتمدون على الثروة والمال، وجماعة على المقام والمنصب، وجماعة يلجأون إلى القدرة الجسمية، وآخرون إلى أفكارهم.. ولكن - كما تخبرنا الآيات المتقدمة ويرينا التاريخ - لا أحد من هؤلاء يستطيع أن يقاوم أدنى مقاومة أمام أمر الله وقدرته، حيث يكون مثله كمثل خيط العنكبوت يتلاشى أمام هبوب الرياح الشديدة. فابن نوح لغروره وغفلته كان غارقاً في مثل هذا الوهم، وظن أن الجبل سيعصمه من طوفان غضب الله ويحميه ولكن موجة واحدة من ذلك الطوفان المتلاطم كشفت سراب ظنه وأنهت حياته.

٤- **سفينة النجاة:** وردت روايات كثيرة عن النبي ﷺ تعبر عن أهل بيته - وهم الأئمة الطاهرون وحملة الإسلام - بأنهم «سفينة النجاة». أي أنه حين يطغى الطوفان الفكري والعقائدي والاجتماعي في المجتمع الإسلامي، فإن طريق النجاة الوحيد هو الإلتجاء إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام.

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَبَسِّمَاءِ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾

نهاية العاصف: كان نوح عليه السلام قد أودع زمناً السفينة بيد الله سبحانه، وكانت الأمواج تتقاذف السفينة في كل صوب، وفي روايات استمرت هذه الحال ستة أشهر تماماً (من بداية شهر رجب حتى نهاية شهر ذي الحجة) وعلى رواية (من عاشر شهر رجب حتى عاشر محرم) وطافت السفينة تقاطعاً متعددة من الأرض، وطبقاً لما جاء في بعض الروايات أنها سارت على أرض مكة وحول الكعبة.

وأخيراً صدر الأمر الإلهي بانتهاء العقاب وأن ترجع الأرض إلى حالتها الطبيعية، والآية - محل البحث - تبيّن هذا الأمر وجزئياته ونتيجته في عبارات وجيزة جداً، وفي الوقت ذاته بليغة وأخاذة، وقد جاءت الآية في جمل ست:

١- ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ صدر الأمر للأرض أن تبلع الماء.

٢- ﴿وَيَا سَمَاءِ أَقْلِي﴾ وصدراً الأمر للسماء أن لا تمطري.

٣- ﴿وَغِيضَ الْمَاءِ﴾ ونزل الماء في جوف الأرض.

٤- ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ انتهى حكم الله.

- ٥- ﴿وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ واستقرت السفينة على طرف جبل الجودي.
 ٦- ﴿وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ عندئذ لعن المجرمون بالدعاء عليهم أن يبتعدوا من
 رحمة الله.

طائفة من علماء العرب: إن هذه الآية تعدّ أفصح آيات القرآن وأبلغها وإن كانت آياته
 جميعاً في غاية البلاغة والفصاحة.

الشاهد على هذا الكلام هو أننا نقرأ في تفسير مجمع البيان أن كفار قريش أرادوا أن
 يتعاطوا معارضة القرآن، فعكفوا على لباب البر، ولحوم الضأن، وسلاف الخمر أربعين يوماً
 لتصفو أذهانهم. فلما أخذوا فيما أرادوا سمعوا هذه الآية، فقال بعضهم لبعض: هذا كلام لا
 يشبهه شيء من الكلام، ولا يشبهه كلام المخلوقين. وتركوا ما أخذوا فيه، واقتروا.

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ
 ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ
 عِلْمٌ إِنَّي أَخَافُ أَنْ تُكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ
 مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾

حادثة ابن نوح المؤلمة: قرأنا في الآيات المتقدمة أن ابن نوح لم يسمع نصيحة والده
 وموعظته، ولم يترك لجاجته وحماقته حتى النفس الأخير، فكانت نهايته الفرق في أمواج
 الطوفان. وهذه الآيات - محل البحث - تتحدث عن قسم آخر من هذه القصة، وهو أنه حين
 رأى نوح إينه تتقاذفه الأمواج ثارت فيه عاطفة الأبوة وتذكر وعد الله في نجاة أهله فالتفت
 إلى ساحة الله منادياً ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾.
 وهذا الوعد هو ما أشارت إليه الآية (٤٥) من هذه السورة، ولكنه سمع الجواب
 مباشرة... جواب يهزّ هزاً كما أنه يكشف عن حقيقة كبيرة... حقيقة أن الرباط الديني أسمى
 من رباط النسب والقرابة ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾.
 فهو فرد غير لائق، حيث لا أثر لرباط القرابة بعد أن قطع رباط الدين. ﴿فَلَا تَسْتَلِنَ مَا
 لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي أَخَافُ أَنْ تُكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

فأحسّ نوح أن طلبه هذا من ساحة رحمة الله لم يكن صحيحاً، ولا ينبغي أن يتصور نجاة

ولده مما وعد الله به في نجاة أهله، لذلك توجه إلى الله معتذراً مستغفراً ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

في العيون عن الرضا عليه السلام: «كيف يقرأون هذه الآية؟» قيل: من الناس من يقرأ: أنه عمل غير صالح ومنهم من يقرأ: أنه عمل غير صالح فمن قرأ أنه عمل غير صالح نفاه عن أبيه، فقال عليه السلام: «كلًا لقد كان ابنه، ولكن لما عصى الله نفاه عن أبيه، كذا من كان منا لم يطع الله فليس منا».

قِيلَ يٰ نُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَنِقَةَ لِلْمُنْفِقِينَ ﴿٤٩﴾

هبوط نوح بسلام: هاتان الآيتان هما نهاية الآيات التي تتحدث عما جاء في نوح وقصته المليئة بالدروس والعبر في سورة هود، وفيها إشارة إلى هبوط نوح عليه السلام من سفينته وعودة الحياة والعيش الطبيعي على الأرض. يقول القرآن في الآية الأولى من هاتين الآيتين: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَّمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾.

لا شك أن الطوفان كان قد دمر كل آثار الحياة... فالأراضي العامرة والمراتع الخضراء والغابات النظرة كلها أبيدت، فالحالة كانت تنذر بأزمة خانقة لنوح وأصحابه بالنسبة للمعاش والغذاء، لكن الله سبحانه طمأن هذه الجماعة المؤمنة إزاء البركات الإلهية والسلامة وأن كل ذلك سيكون مهيناً وموقراً لهم فلا ينبغي الحزن على شيء...

ثم يضيف القرآن مخاطباً نوحاً أنه ستعقب الأمم التي معك أمم من نسلها، ولكن هذه الأمم ستغتر وتغفل عن نعم الله فتتال جزاءها من الله ﴿وَأُمَّمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وفي آخر آية تختتم بها قصة نوح - في هذه السورة - إشارة كلية عامة إلى ما حدث في عهد نوح فتقول: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾.

فالخطاب هنا للنبي محمد عليه السلام يؤكد عليه أن يصبر ويستقيم كما صبر واستقام نوح عليه السلام.

عندما واجه المشاكل، وهكذا تكون عاقبة الصبر النصر ﴿فَاضْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .
يستفاد من هذه الآية أن الأنبياء كانوا يعلمون الغيب عن طريق تعليم الله وبالمقدار
الذي كان يريد الله لهم، لا أنهم يعلمون الغيب من أنفسهم.
والآن نودع قصة نوح بكل ما تحمل من عبر وأعاجيب، ونتوجه إلى نبي عظيم آخر
وهو هود الذي سُميت هذه السورة باسمه.

وَالِى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنَّا أَنْتُمْ
إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنَّا نَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ
عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

في الآيات السابقة كان الكلام حول نوح عليه السلام وأما الآن فالمحدث عن هود عليه السلام. يقول
سبحانه في الآية الأولى من هذه القصة: ﴿وَالِى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾. ونلاحظ في الآية أنها
وصفت هوداً بكونه «أخاهم».

وهذا التعبير جار في لغة العرب حيث يطلقون كلمة أخ على جميع أفراد القبيلة
لانتسابهم إلى أصل واحد...

أو أن هذا التعبير يشير إلى أن معاملة هود لهم كانت أخوية بالرغم من كونه نبياً، وهذه
الحالة هي صفة الأنبياء جميعاً، فهم لا يعاملون الناس من منطق الزعامة والقيادة أو معاملة
أب لأبنائه، بل من منطق أنهم إخوة لهم....

معاملة خالية من أية شائبة وأي امتياز أو استعلاء.

كان أول دعوة هود - كما هو الحال في دعوة الأنبياء جميعاً - توحيد الله ونفي الشرك عنه
﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ .

فهذه الأصنام ليست شركاءه، ولا منشأ الخير أو الشر، ولا يصدر منها أي عمل، وأي
افتراء أعظم وأكبر من نسبتكم كل هذا المقام والتقدير لهذه الموجودات «الأصنام» التي لا
قيمة لها إطلاقاً.

ثم يضيف هود قائلاً لقومه: لا تتصوروا أن دعوتي لكم من أجل المادة، فأنا لا أريد
منكم أي أجر ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾. فأجري وحده على من فطرنى ووهبني

الروح وأنا مدين له بكل شيء، فهو الخالق والرازق ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ أَلْيِي فَطَرْتَنِي﴾. وأساساً فإنني في كل خطوة أخطوها لسعادتكم، إنما أفعل ذلك طاعةً لأمره، ولذلك ينبغي طلب الأجر منه وحده لا منكم، وإضافة إلى ذلك فهل لديكم شيء من عندكم، فكل ما هو لديكم منه سبحانه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

ثم شرع هود ببيان الأجر المادي للإيمان لغرض التشويق والاستفادة من جميع الوسائل الممكنة لا يقاظ روح الحق في قومه الظالمين، فبيّن أن هذا الأجر المادي مشروط بالآيمان فيقول: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾. فإذا فعلتم ذلك فإنه ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾^١. لئلا تصاب مزارعكم بقله الماء أو القحط، بل تظل خضراء مثمرة دائماً، وزيادة على ذلك فإن الله بسبب تقواكم وابتعادكم عن الذنوب والتوجه إليه يرفعكم ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾.

فلا تتصوروا أن الإيمان والتقوى يضعفان من قوتكم أبداً، فعلى هذا إيتاكم والابتعاد عن طريق الحق ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾.

التوحيد أساس دعوة الأنبياء: يبين تاريخ الأنبياء أنهم بدأوا دعوتهم جميعاً من التوحيد ونفي الشرك ونفي عبادة الأصنام أيّاً كانت، والواقع فإن أيّ إصلاح في المجتمعات الإنسانية لا يتيسر بغير هذه الدعوة، لأن وحدة المجتمع والتعاون والإيثار كلها أمور تسترشد من منبع واحد وهو توحيد المعبود *توحيدكم وتوحيدي* وأما الشرك فهو أساس كل فرقة وتعارض وتضاد وأنانية... وما إلى ذلك... وإرتباط هذه المفاهيم بالشرك وعبادة الأصنام بالمفهوم الواسع غير خاف على أحداً

قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَبْنَا بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوِّهِ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٣﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ﴿٥٤﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْخَفُفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُمْ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾

١. «المدرار»: مشتق من «در» وهو انصباب حليب الأثداء، ثم استعمل في انصباب المطر.

قوة المنطق، والآن لننظر ماذا كان رد فعل القوم المعاندين والمغرورين - قوم عاد - مقابل نصائح أخيهم هود وتوجيهاته إليهم: ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾. أي لم تأتنا بدليل مقنع لنا ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ الذي تدعوننا به إلى عبادة الله وترك الأوثان ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وأضافوا إلى هذه الجمل الثلاث غير المنطقية، أنك يا هود مجنون و﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾. ولا شك أن هوداً - كأبي نبي من الأنبياء - أدى دوره ووظيفته وأظهر المعجزات أو المعجزات لقومه للتدليل على حقايقته، ولكنهم لغرورهم - مثل سائر الأقوام - أنكروا معاجزه وعدوها سحراً.

إن على هود أن يرد على هؤلاء الضالين اللجوجين رداً مقروناً بالمنطق، من منطلق القوة أيضاً... يقول القرآن في جواب هود لهم: ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ آلِهَةً وَأَشْهَدُوا إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

يشير بذلك إلى أن الأصنام إذا كانت لها القدرة فاطلبوا منها هلاكي وموتي لمحاربتي لها علناً فعلام تسكت هذه الأصنام؟ وماذا تنتظر بي؟ ثم يضيف أنه ليست الأصنام وحدها لا تقدر على شيء، فأنتم مع هذا العدد الهائل لا تقدرون على شيء، فإذا كنتم قادرين ﴿مِنْ دُونِهِ فَكَيْفَ يُؤْنِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ﴾. فأننا لا تردعني كثرتكم ولا أعدها شيئاً، ولا أكثرث بقوتكم وقدرتكم أبداً، وأنتم المتعطشون لدمي ولديكم مختلف القدرات، إلا أنني واثق بقدرة فوق كل القدرات، ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾.

فلو فكرتم جيداً لكان هذا وحده معجزاً حيث ينهض إنسان مفرد وحيد بوجه الخرافات والعقائد الفاسدة في مجتمع قوي ومتعصب، لكنّه في الوقت ذاته لا يشعر في نفسه بالخوف منهم، ولا يستطيع الأعداء أن يقفوا بوجهه! ثم يضيف: لستم وحدكم في قبضة الله، فإنه ﴿مَنْ مِّنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾، فما لم يأذن به الله، لا يستطيع أحد أن يفعل شيئاً. ولكن إعلموا أيضاً أن ربي القدير ليس كالأشخاص المقتدرين الذين يستخدمون قدرتهم للهوي واللعب والأنانية وفي غير طريق الحق، بل هو الله الذي لا يفعل إلا الحكمة والعدل ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ثم إن هوداً قال لقومه في آخر كلامه معهم كما تحكيه الآية: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾.

إشارة إلى أن لا يتصوروا أن هوداً سيتراجع إن لم يستجيبوا لدعوته، فإنه أدى واجبه ووظيفته، وأداء الواجب انتصار بحد ذاته حتى لو لم تقبل دعوته.

وكما هدّد القوم هوداً، فإنه هددهم بأشدّ من تهديدهم، وقال: إن لم تستجيبوا لدعوتي فإن الله سيبيدكم في القريب العاجل ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾.

هذه سنّة الله في خلقه وقانونه العام، إنه متى كان قوم غير لائقين لاستجابة الدعوة والمداية والنعم الأخرى التي أنعمها عليهم فإنه سيهددهم ويستخلف قوماً لائقين بمكانهم ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾. فلا تفوته الفرصة، ولا يهمل أنبياءه ومحبيه، ولا يعزب عنه مثقال ذرة من حساب الآخرين بل هو عالم بكل شيء وقادر على كل شيء.

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ءَعَادُ جَحْدُ وَأَبَايَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوُا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنِ ءَعَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ الْعَادِ

قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾



اللعن الأبدى على القوم العالمين: في آخر الآيات التي تتحدث عن قصة قوم عاد ولبئهم هود إشارة إلى العقاب الأليم للمعاندين، فتقول الآيات: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾. وتؤكد أيضاً نجاة المؤمنين ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿نَجَّيْنَا﴾ وتكرار هذه الكلمة في الآية مرّتين أقوال مختلفة للمفسرين، فـ«نَجَّيْنَا» الأولى تعني خلاصهم من عذاب الدنيا و«نَجَّيْنَا» الثانية تعني نجاتهم في المرحلة المقبلة من عذاب الآخرة، وينسجم هذا التعبير مع وصف العذاب بالغلظة أيضاً.

ويشير بعض المفسرين إلى مسألة لطيفة هنا، وهي أن الكلام لما كان على رحمة الله فمن غير المناسب أن تتكرر كلمة العذاب مباشرة، فأين الرحمة من العذاب؟ لذلك تكررت كلمة «نَجَّيْنَا» لتفصل بين الرحمة والعذاب دون أن ينقص شيء من التأكيد على العذاب.

كما ينبغي الالتفات إلى هذه المسألة الدقيقة أيضاً، وهي أن آيات القرآن وصفت العذاب

بالغليظ في أربعة موارد^١.

وملاحظة تلك الآية بدقّة نستنتج أنّ العذاب الغليظ مرتبط بالدار الآخرة، وخصوصاً الآيات التي جاءت في سورة ابراهيم وذكر فيها العذاب الغليظ، فإنّها تصف بصراحة حال أهل جهنم وأهوالها، وهكذا يكون، وذلك لأنّ عذاب الدنيا مهما كان شديداً فإنّه أخفّ من عذاب الآخرة!

وهناك تناسب ينبغي ملاحظته أيضاً، وهو أنّ قوم عاد - كما سيأتي بيان حالهم إن شاء الله - ورد ذكرهم في سورة القمر، والحاقة، وكانوا قوماً ذوي أبدان طوال خشنين، فشبهت أجسامهم بالنخل، ولهذا السبب كانت لديهم عبارات عالية عظيمة، بحيث نقرأ في تاريخ ما قبل الإسلام أن العرب كانوا يتسبون البناءات الضخمة والعالية إلى عاد ويقولون مثلاً: «هذا البناء عادي» لذلك كان عذابهم مناسباً لهم لا في العالم الآخر بل في هذه الدنيا كان عذابهم خشناً وعقابهم صارماً، كما مرّ في تفسير السور الآتفة الذكر.

ثمّ تلخّص الآيات ذنوب قوم عاد في ثلاثة مواضع:

الأول: بإنكارهم لآيات الله وعنادهم أيضاً لم يتركوا دليلاً واضحاً وسنداً بيّناً على صدق نبوة نبيهم إلاّ جحدوه ﴿وَبَلَّغْنَا عَادَ جَحْدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾.

والثاني: إنهم من الناحية العملية لم يتبعوا أنبياء الله ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾.

والثالث من الذنوب: إنهم تركوا طاعة الله ومالوا لكل جبار عنيد ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾. فأى ذنب أعظم من هذه الذنوب: ترك الإيمان، ومخالفة الأنبياء، والخضوع لطاعة كل جبار عنيد.

و«الجبار»: يطلق على من يُجبر سواه على إتباعه ويريد أن يغطي نقصه بادعاء العظمة والتكبر الظاهري.

و«العنيد»: هو من يخالف الحق والحقيقة أكثر مما ينبغي، ولا يرضخ للحق أبداً.

هاتان الصفتان تتجليان في الطواغيت والمستكبرين في كل عصر وزمان، الذين لا يستمعون لكلام الحق أبداً ويعمدون إلى من يخالفهم بانزال أشد أنواع العقاب به بلا رحمة.

١. وهي في السور التالية: ١- ابراهيم / ٧؛ ٢- لقمان / ٣٤؛ ٣- فصلت / ٥٠؛ ٤- هود / ٥٨.

وفي الآية الأخيرة التي تنتهي بها قصة «هود» وقومه «عاد» بيان لنتيجة أعمالهم السيئة والباطلة حيث تقول الآية: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ وبعد الموت لا يبقى إلا خزيهم والصيت السيء ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يقال لهم: ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾. وكان يكفي تعريف هذه الجماعة بلفظ «عاد» ولكن بعد ذكر عاد جاء لفظ «قوم هود» أيضاً لتؤكد عليهم أولاً، ولتشير إلى أنهم القوم الذين آذوا نبيهم الناصح لهم ثانياً، ولذلك فقد أبعدهم الله عن رحمته.

وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾

قصة ثمود: انتهت قصة عاد، قوم هود، بجميع دروسها بشكل مضغوط، وجاء الدور الآن لثمود «قوم صالح» وهم الذين عاشوا في وادي القرى بين المدينة والشام، حسب ما تنقله التواريخ عنهم.

ونرى هنا أيضاً أن القرآن حين يتحدث عن نبيهم «صالح» يذكره على أنه أخوهم، وأيّ تعبير أروع وأجمل منه حيث يتناقصاً من محتواه في الآيات المتقدمة، أخ محترق القلب ودود مشفق ليس له هدف إلا الخير لجماعته ﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾.

ونجد أيضاً أن منهج الأنبياء جميعاً يبدأ بمنهج التوحيد ونفي أي نوع من أنواع الشرك وعبادة الأوثان التي هي أساس جميع المتاعب ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾. ولكي يحرك إحساسهم بمعرفة الحق أشار إلى عدد من نعم الله المهمة التي استوعبت جميع وجودهم فقال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ﴾.

ثمّ يذكّر هؤلاء المعاندين بعد أن أشار إلى نعمة الخلقة بنعم أخرى موجودة في الأرض حيث قال: ﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾.

الطريف هنا أن القرآن لم يقل: إن الله عمر الأرض وجعلها تحت تصرفكم، وإنما قال: وفوض إليكم إعمار الأرض ﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ وهي إشارة إلى أن الوسائل معدة فيها لكل شيء وعليكم إعمارها بالعمل والسعي المتواصل والسيطرة على مصادر الخيرات فيها. وبدون ذلك لا حظ لكم في الحياة الكريمة.

فإذا كان الأمر كذلك: ﴿فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ لدعواتكم.

قَالُوا يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ آرَاءَ يَسْتُمُّونَ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَيْنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَتَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدُوٌّ كَذُوبٌ ﴿٦٥﴾

والآن لنلاحظ ما الذي كان جواب المخالفين لنبي الله «صالح عليه السلام» إزاء منطقته الحسي الداعي إلى الحق.

لقد استفادوا من عامل نفسي للتأثير على النبي «صالح» أو على الأقل للمحاولة في عدم تأثير كلامه على المستمعين له من جمهور الناس، وبالتعبير العامي الدارج: أرادوا أن يضعوا البطيخ تحت إبطه، فقالوا: ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾. وكنا نتوجه إليك لحل مشاكلنا ونستشيرك في أمورنا ونعتقد بعقلك وذكائك ودرائتك، ولم نشك في إشفائك واهتمامك بنا، لكن رجاءنا فيك ذهب ادراج الرياح، حيث خالفت ما كان يعبد آباؤنا من الأوثان وهو منهج أسلافنا ومفخرة قومنا، فأبدت عدم احترامك للأوثان وللكبار وسخرت من عقولنا ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾. والحقيقة أننا نشك في دعوتك للواحد الأحد ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾.

لكن هذا النبي الكبير لم ييأس من هدايتهم ولم تؤثر كلماتهم المخادعة في روحه الكبيرة فأجابهم قائلاً: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَيْنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾. أفأسكت عن دعوتي ولا أبلغ رسالة الله ولا أواجه المنحرفين ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾. ولكن اعلّموا أن كلامكم هذا واحتجاجكم بمنهج السلف والآباء لا يزيدني إلا إيماناً بضلالتكم وخسرانكم: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾.

وبعد هذا كله ومن أجل البرهان على صدق دعوته، وبيان المعاجز الإلهية التي دونها

قدرة الإنسان جاءهم بالناقة التي هي آية من آيات الله وقال: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾.

«الناقة»: في اللغة هي أنثى الجمل، وقد أضيفت إلى لفظ الجلالة «الله» وهذه الإضافة تدل على أن هذه الناقة لها خصائص معينة، ومع الإلتفات إلى ما عبر عنها في الآية المتقدمة بأنها «آية» وعلامة إلهية ودليل على الحقايق، يتضح أنها لم تكن ناقة عادية، بل كانت خارقة للعادة من جهة أو جهات متعددة.

إن القرآن ذكر قصة ناقة صالح بشكل مجمل غير أننا نقرأ في روايات كثيرة، أن هذه الناقة خرجت من قلب الجبل، ولها خصائص أخرى ليس هنا مجال سردها.

وعلى كل حال، فعلى جميع ما أكدته نبئهم العظيم «صالح» في شأن الناقة، فقد صمّموا أخيراً على القضاء عليها، لأن وجودها مع ما فيها من خوارق مدعاة لتيقظ الناس والتفافهم حول النبي صالح ﷺ، لذلك فإن جماعة من المعاندين لصالح من قومه الذين كانوا يجحدون في دعوة صالح خطراً على مصالحهم، ولا يرغبون أن يستفيق الناس من غفلتهم فتتعرض دعائم استعمارهم للتقويض والانهيار، فتأمروا للقضاء على الناقة وهياؤها جماعة لهذا الغرض، وأخيراً أقدم أحدهم على مهاجمتها وضربها بالسكين فهوت إلى الأرض ﴿فَعَقَرُوهَا﴾.

«عقروها»: مشتقة من مادة «العقر» على وزن «الظلم» ومعناه: أصل الشيء وأساسه وجذره، لأن نحر البعير يستلزم زوال وجوده من الأصل.

العلاقة الدينيّة: إن الإسلام يعدّ الرضا الباطني في أمر ما والإرتباط معه إرتباطاً عاطفياً بمنزلة الاشتراك فيه. يقول الإمام علي ﷺ في الخطبة (٢٠١) في نهج البلاغة: «وإنما عقرونا ناقة ثمود رجل واحد فعتمهم الله بالعذاب لما عتموه بالرضا».

وهناك روايات متعددة في المضمون ذاته نقلت عن نبي الخاتم وأهل بيته الكرام، وهي تكشف غاية الإهتمام من قبل هؤلاء السادة العظام بالعلاقة العاطفية والمناهج الفكرية المشتركة بجلاء.

وفي نهاية الآية نقرأ أن النبي «صالحاً» بعد أن رأى تمرد قومه وعقرهم الناقة أنذرهم ﴿فَقَالَ تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْتُوبٍ﴾. فهو وعد الله الذي لا يتغير وما أنا من الكاذبين.

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ
يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا
فِي دِيَارِهِمْ جَثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَانُوا لَمْ يَغْتَوْنَهَا إِلَّا إِنْ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ
لِئَمُودٍ ﴿٦٨﴾

نهاية تمود، قوم صالح: في هذه الآيات يتبين كيف نزل العذاب على قوم صالح المعاندين بعد أن أمهلهم وقال لهم: ﴿تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ فتقول الآيات: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ لا من العذاب الجسماني والمادي فحسب، بل ﴿وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾^١ لأن الله قوي وقادر على كل شيء، وله السلطة على كل أمر، ولا يصعب عليه أي شيء ولا قدرة فوق قدرته ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾.

وعلى هذا فإن نجاة جماعة من المؤمنين من بين جماعة كثيرة تبطل بعذاب الله ليس بالأمر المشكل بالنسبة لقدرة الله تعالى. إن رحمة الله تستوجب ألا يحترق الأبرياء بنار الأشقياء المذنبين، وألا يؤاخذ المؤمنون بجريرة غير المؤمنين ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثِمِينَ﴾. وهكذا هلكوا وصاروا «شذر مذر» ومضت آثارهم مع الريح ﴿كَأَن لَّمْ يَغْتَوْنَهَا إِلَّا إِنْ تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ لِيئَمُودٍ﴾ عن لطف الله ورحمته.

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَّمَ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَهُ
بِعِجْلٍ حَنِيفٍ ﴿٦٩﴾ فَمَارَأَ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً
قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا
بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَتْلُو تِلْكَ ءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي
شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ
عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾

١. «الخزي»: في اللغة الإنكسار الذي يصيب الإنسان سواء من نفسه أو من سواه ويشمل كل أنواع الذل أيضاً.

جانب من حياة محطّم الأصنام: والآن جاء الدور للحديث عن جانب من حياة «إبراهيم عليه السلام» هذا البطل العظيم الذي حطّم الأصنام، وما جرى له مع قومه، وهنا تذكر الآيات قسماً من حياته المرتبطة بقصة «قوم لوط» وعقاب هؤلاء الجماعة الملوّثين بالآثام والعصيان، فتقول في البداية: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾.

وهؤلاء الرسل هم الملائكة الذين أمروا بتدمير مدن قوم لوط، ولكنهم قبل ذلك جاؤوا إلى إبراهيم ليسلموه بلاغاً يتضمّن بشرى سارة.

أمّا عن ماهية هذه البشّرى فهناك احتمالان، ولا مانع من الجمع بينهما.

الإحتمال الأول: البشّرى بتولّد إسماعيل وإسحاق ويعدّ بشارة عظيمة.

والإحتمال الثاني: إنّ إبراهيم كان مستاءً بما وجده في قوم لوط من الفساد والعصيان،

فحين أخبروه بأنهم أمروا بهلاكهم سرّاً، وكان هذا الخبر بشّرى له.

فحين جاءوا إبراهيم ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ فأجابهم أيضاً ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ ورحّب بهم ﴿فَقَا

لَبَتْ أَنْ جَاءَ بِعِجْلِ حَنِيزٍ﴾. «العجل»: في اللغة ولد البقر؛ و«الحنيذ»: معناه المشوي.

ويستفاد من هذه الجملة أنّ من آداب الضيافة أن يعجّل للضيف بالطعام، خاصة إذا كان

الضيف مسافراً، فإنّه غالباً ما يكون متعباً وجائعاً وبحاجة إلى طعام، فينبغي أن يقدم له

الطعام عاجلاً ليخلد إلى الراحة.

ولكن حدث لإبراهيم حادث عجيب مع أضيافه عند تقديم العجل الحنيذ لهم، فقد

رآهم لا يمدّون أيديهم إلى الطعام، وهذا العمل كان مريباً له وجديداً عليه، فأحسّ

بالإستيحاش واستغرب ذلك منهم ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ

خِيفَةً﴾.

ومن السنن والعادات القديمة التي لا تزال قائمة بين كثير من الناس الذين لهم التزام

بالتقاليد الطيبة للأسلاف، هي أنّ الضيف إذا تناول من طعام صاحبه (وبما اصطلح عليه:

تناول من ملحه وخبزه) فهو لا يكره له قصد سوء، وعلى هذا فإنّ من له قصد سوء مع أحد

- واقعاً - يحاول ألا يأكل من طعامه «وخبزه وملحه» ومن هذا المنطلق شك إبراهيم في

نيّاتهم، وأساء الظن بهم، واحتمل أنّهم يريدون به سوءاً.

أمّا الرسل فإنّهم لما اطلعوا على ما في نفس إبراهيم، بادروا بالرفع ما وقع في نفسه و﴿قَالُوا

لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾.

وفي هذه الحال كانت امرأته «سارة» واقفة هناك فضحكت كما تقول الآية: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾.

هذا الضحك من سارة يحتمل أن يكون لأنها كانت مستاءة من قوم لوط وفجائعتهم، وإطلاعها على قرب نزول العذاب عليهم كان سبباً لسرورها وضحكها.

ثم تضيف الآية أن إسحاق سيعقبه ولد من صلبه اسمه يعقوب: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾.

الواقع أن الملائكة بشروها بالولد وبالحفيد، فالأول إسحاق والثاني يعقوب، وكلاهما من أنبياء الله.

ومع التفات «سارة» امرأة إبراهيم إلى كبر سنّها وسنّ زوجها فإنّها كانت آيسة من الولد بشدة، فاستنكرت بصوت عال متعجبة من هذا الأمر و﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

إنّ رسل الله ازالوا التعجب عنها فوراً وذكروها بنعم الله «المخارقة للعادة» عليها وعلى أسرتها ونجاتهم من الحوادث الجمّة، فالتفتوا إليها و﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾. ذلك الربّ الذي نجى إبراهيم من مخالب نمرود الظالم، ولم يصبه سوء وهم في قلب النار.

وهذه الرحمة الإلهية لم تكن خاصة بذلك اليوم فحسب، بل هي مستمرة في أهل هذا البيت، وأي بركة أعظم من وجود رسول الله محمد ﷺ والأئمة الطاهرين عليهم السلام في هذه الأسرة وفي هذا البيت بالذات.

وقالت ملائكة الله لمزيد التأكيد على بشارتهم وكلامهم في شأن الله: ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رِيكٌ وَإِنَّهُمْ لَمِنَ أَعْدَابِ عَذَابِ غَيْرِمْ دُورٍ ﴿٧٦﴾

رأينا في الآيات السابقة أن إبراهيم عرف فوراً أن أضيافه الجدد لم يكونوا أفراداً خطرين أو يخشى منهم، ولما ذهب الهلع والخوف عن إبراهيم من أولئك الأضياف، ومن ناحية أخرى فقد بشره بالوليد السعيد، شرع فوراً بالتفكير في قوم لوط الذين أرسل إليهم

هؤلاء الرُّسل «الملائكة» فأخذ يجادلهم ويتحدث معهم في أمرهم ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَمَاتَهُ ابْنُ شَرْيَ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾^١.

وهنا يمكن أن ينقدح هذا السؤال، وهو: لمَ تباحث إبراهيم ﷺ مع رسل الله وجادلهم في قوم آثمين ظالمين - كقوم لوط - وقد أمروا بتدميرهم، في حين أن هذا العمل لا يتناسب مع نبي، خاصة إذا كان إبراهيم ﷺ في عظمته وشأنه؟

لهذا فإن القرآن يعقب مباشرة في الآية عن شفقة إبراهيم وتوكله على الله فيقول: ﴿إِن إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾^٢.

هذه الاصاف الثلاث المجملة جواب على السؤال المشار إليه آنفاً. وتوضيح ذلك: إن هذه الصفات المذكورة لإبراهيم تشير إلى أن مجادلته كانت ممدوحة، وذلك لأن إبراهيم لم يتضح له أن أمر العذاب صادر من قبل الله بصورة قطعية، ويحتمل أنهم سيرتدون عن غيرهم ويتعظون، ومن هنا فما زال هناك مجال للشفاعة لهم....

وتقول الآية التالية: إن الرسل قالوا لإبراهيم - مباشرة - أن أعرض عن اقتراحك لأن أمر ربك قد تحقق والعذاب نازل لا محالة. ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾.

والتعبير بـ«ربك» لا يدل على أن هذا العذاب خال من الطابع الانتقامي فحسب، بل يدل أيضاً على أنه علامة لتربية العباد وإصلاح المجتمع الإنساني.

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾

وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقَوْمِرْهُنَّ هَؤُلَاءِ

بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ

﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَن لِي بِكُمْ

قُوَّةٌ أَوْ إِيَّايَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾

١. «رُوع»: على وزن «نوع» معناها «الخوف والوحشة» وكلمة «رُوع» على وزن «نوح» معناها «الروح» أو

قسم منها الذي هو محل الخوف ومركزه، لمزيد الإيضاح تراجع المعاجم اللغوية.

٢. «الحليم»: مشتق من «الحلم» وهو: الأناة والصبر في سبيل الوصول إلى هدف مقدس، والأواء في الأصل:

كثير التحسر والآه سواء من الخوف من المسؤولية التي يحملها أو من المصائب، والمنيب من الإنابة أي

الرجوع.

قوم لوط وحياة الغزي: مرّت في آيات من سورة الأعراف إشارة إلى شيء من مصير قوم لوط، وفسرنا ذلك في محله، وهنا يتناول القرآن الكريم - وبمناسبة ما ذكره من قصص الأنبياء وأقوامهم وبما ورد في الآيات المتقدمة عن قصة لوط وقومه - قسماً آخر من حياة هؤلاء القوم المنحرفين الضالين ليتابع بيان الهدف الأصلي ألا وهو سعادة المجتمع الإنساني ونجاته بأسره. يبيّن القرآن الكريم في هذا الصدد أولاً... أنه لما جاءت رسلنا لوطاً طار هلعاً وضاق بهم ذرعاً وأحاط به الهمّ من كل جانب ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾.

وقد ورد في الروايات الإسلامية أن لوطاً كان في مزرعته حيث فوجيء بعدد من الشباب الوسيمين الصباح الوجوه قادمون نحوه وراغبون في النزول عنده ولرغبته باستضافتهم من جهة، ولعلمه بالواقع المرير الذي سيشهده في مدينته الملوثة بالانحراف الجنسي من جهة أخرى، كل ذلك أوجب له الهم...

ومرّت هذه المسائل على شكل أفكار وصور مرهقة في فكره، وتحدث مع نفسه ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾، لاحتمال الفضيحة والتورط في مشاكل عويصة.

«سيء»: مشتقة من ساء، ومعناها عدم الإرتياح وسوء الحال؛ و«الذرع»: تعني «القلب» على قول؛ وكلمة «عصيب»: مشتقة من «العصب» ومعناه ربط الشيء بالآخر وشده شداً محكماً، وبما أنّ الحوادث الصعبة تشدّ الإنسان وكأنّها تسلبه راحته فيظل مبلبل الأفكار سُميت «عصيبة» وتطلق العرب على الأيام شديدة الحر أنّها عصيبة أيضاً.

وورد في بعض الروايات أن لوطاً أخر ضيوفه كثيراً حتى حلول الليل، فلعله يستطيع أن يحفظ ماء وجهه من شرور قومه، ويقوم بواجب الضيافة دون أن يُساء إلى أضيافه، ولكن ما عسى أن يفعل الإنسان إذا كان عدوه داخل بيته، وكانت امرأة لوط امرأة كافرة وتساعد قومه الظالمين، وقد اطلعت على ورود هؤلاء الأضياف إلى بيتها، فصعدت إلى أعلى السطح وشفقت بيديها أولاً، ثم بإشعال النار وتصاعد الدخان أعلمت جماعة من هؤلاء القوم بأنّ طعمة دسمة قد وقعت في «الشباك».

يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾^١. وكانت حياة هؤلاء

١. «هراعون»: مشتقة من الإهراع ومعناها السياقة الشديدة، فكانت تسوق غريزة هؤلاء إيتاهم بشدة إلى أضيافه.

القوم مسودة وملطخة بالعار ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ الشَّيْئَاتِ﴾ فكان من حق لوط أن يضيق ذرعاً ويصرخ مما يرى من شدة استيائه و﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطَهَرُ لَكُمْ﴾ فأنا مستعد أن أزوجهن إياكم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْعِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ يصدكم عن هذه الأعمال الخزية وينصحكم بالإقلاع عنها.

تعبير لوط ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ في آخر كلامه مع قومه المنحرفين يكشف عن هذه الحقيقة، وهي أن وجود رجل - ولو رجل واحد رشيد - بين قوم ما وقبيلة ما يكفي لردعهم من أعمالهم الخزية، أي لو كان فيكم رجل عاقل ذولب ورشد لما قصدتم بيتي ابتغاء الإعتداء على ضيبي!

ولكن هؤلاء القوم المفسدين أجابوا لوطاً بكل وقاحة وعدم حياء و﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾.

وهنا وجد لوط - هذا النبي العظيم - نفسه محاصراً في هذه الحادثة المريرة فنادى و﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ أو سند من العشيرة والأتباع والمعاهدين الأقوياء حتى اتغلب عليكم ﴿أَوْ مَأْوِي إِلَيَّ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.

قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِبْ بِهِمْ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْمُوكَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَّكَ إِتْمَانًا مَّصِيبًا مَا أَصَابَهُمْ إِنْ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَاهِي مِّنَ الظَّالِمِينَ

بِعَبِيدٍ ﴿٨٣﴾

عاقبة الجماعة العالمة، وأخيراً حين شاهد الملائكة (رسل الله) الأضياف، ما عليه لوط من عذاب النفس كشفوا «ستاراً» عن أسرار عملهم و﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾.

تقرأ في الآية (٣٧) من سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ زَاوَدُوهُ عَن ضَيْعِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾. ونقرأ في بعض الروايات - أيضاً - أن أحد الملائكة غشى وجوههم بحفنة من التراب فعموا جميعاً. إن اطلاع لوط ﷺ على حال أضيافه ومأموريتهم، دنا زمن السرور والنجاة من مخالب هؤلاء القوم المنحرفين المتوحشين.

ثم أمر الأضياف لوطاً - مباشرة - أن يرحل هو وأهله من هذه البلدة وقالوا: ﴿قَاسِرٍ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾.

ولكن كونوا على حذر ﴿وَلَا يُلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ إلى الوراثة ﴿إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ لتخلفها عن أمر الله وعصيانها مع العصاة الظلمة.

وخلاصة الأمر فإن آخر ما قاله رسل الله - أي الملائكة - للوط ﷺ: إِنَّ الْعَذَابَ سَيَنْزِلُ قَوْمَهُ صَبَاحاً. ومع أول شعاع للشمس سيحين غروب حياة هؤلاء: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾. وتقرأ في بعض الروايات أن الملائكة حين وعدوا لوطاً بنزول العذاب صباحاً، سأل لوط الملائكة لشدة ما لقيه من قومه مما ساءه، وجرح قلبه وملاه همّاً وغمّاً أن يعجلوا عليهم بالعذاب في الحال فإن الأفضل الإسراع، ولكن الملائكة طمأنوه بقولهم: ﴿الْيُسُوسُ أَلْسُنُهُ بِقَرِيبٍ﴾.

وأخيراً دنت لحظة العذاب وتصرّمت ساعات انتظار لوط النبي ﷺ وكما يقول القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾. وكلمة «سجّيل»: فارسية الأصل، وهي مركبة من «سنگ» ومعناها الحجارة و«گِل» ومعناها الطين، فعلى هذا هي شيء لا صلباً كالحجارة ولا رخواً كالزهرة، وإنما هي برزخ «وسط» بينها. و«المنضود»: من مادة «نضد» ومعناه كيون الشيء مصفوحاً وموضوعاً بشكل متتابع ومتراكم، أي إن هذا المطر كان متتابعاً سريعاً إلى درجة حتى كأن هذه الأحجار تتراكب بعضها فوق بعض فتكون «منضودة».

ولكن هذه الأحجار ليست أحجاراً عادية، بل هي أحجار فيها علامات عند الله ﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾.

ولا تتصوروا أن هذه الأحجار مخصوصة بقوم لوط، بل ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبْئِيلٍ﴾. هؤلاء القوم المنحرفون ظلموا أنفسهم وظلموا مجتمعهم، لعبوا بصير أمتهم كما استهزؤوا بالإيمان والأخلاق الإنسانية، وكلّموا نصحهم نبيهم باخلاص وحرقة قلب لم يسمعوا له وسخروا منه.

تعريم الانحراف الجنسي يُعدّ الميل الجنسي إلى المائل «سواء وقع ذلك بين الرجال أو بين النساء» من الذنوب الكبيرة في الإسلام، وقد جعل الإسلام لكل من الحالتين حداً شرعياً.

والروايات التي تدم الميل الجنسي إلى المائل والمنقولة عن قادة الإسلام كثيرة ومذهلة

والمطالع لهذه الروايات يحسّ أن قبح هذا الذنب ليس له مثيل بين الذنوب.
تقرأ مثلاً من هذه الروايات رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من جامع غلاماً جاء يوم القيامة جنباً لا ينقيه ماء الدنيا، وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له جهنم وساءت مصيراً. ثم قال: إن الذكر يركب الذكر فيهتزّ العرش لذلك»^١.

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورِمَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ
وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَنْقُورِمُ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَ
لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ
اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾

مدينة بلدة شعيب، مع انتهاء قصة قوم لوط تصل التوبة إلى قوم شعيب وأهل مدين، أولئك الذين حادوا عن طريق التوحيد وهاموا على وجوههم في شركهم وعبادة الأصنام، ولم يعبدوا الأصنام فحسب، بل الدرهم والدينار والثروة والمال، ومن أجل ذلك فإنهم لو ثوا تجارتهم الراجحة وكسبهم الوفير بالغش والبخس والفساد في بداية القصة تقول الآية: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾. وكلمة «أخاهم» تستعمل في مثل هذا التعبير لبيان منتهى المحبة من قبل الأنبياء لقومهم.

و«مدين»: اسم لمدينة شعيب وقبيلته، وتقع المدينة شرق خليج العقبة، وأهلها من أبناء إسماعيل، وكانوا يتاجرون مع أهل مصر ولبنان وفلسطين.

هذا النبي وهذا الأخ الودود المشفق على قومه - كأبي نبي في أسلوبه وطريقته في بداية الدعوة - دعاهم أولاً إلى ما هو الأساس والعماد والمعتقد وهو «التوحيد» وقال: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

ثم أشار إلى أحد المفاصل الاقتصادية التي هي من افرازات عبادة الأصنام والشرك، وكانت رائجة عند أهل مدين يومئذ جداً، وقال: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾. أي حال البيع والشراء.

ويشير هذا النبي العظيم بعد هذا الأمر إلى علتين:

العلة الأولى: هي قوله ﴿إِنِّي أَرْيَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾.

يقول أولاً: إنَّ قبول نصحي يكون سبباً لتفتح أبواب الخير عليكم وتقديم التجارة

وهبوط سطح القيمة واستقرار المجتمع.

ويحتمل أيضاً في تفسير هذه الجملة ﴿إِنِّي أَرْيَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أن شعيباً يقول لهم: إنِّي أراكم

منعمين وفي خير كثير، فعلى هذا لا مدعاة لعبادة الأصنام وإضاعة حقوق الناس والكفر

بدلاً من الشكر على نعم الله سبحانه.

وثانياً: ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ بسبب إصراركم على الشرك

والتطفيف في الوزن وكفران النعمة... الخ.

وكلمة «محيط»: جاءت صفة ليوم، أي يوم شامل ذو إحاطة، وشمول اليوم يعني شمول

العذاب والعقاب في ذلك اليوم، وهذا التعبير فيه إشارة إلى عذاب الآخرة كما يشير إلى

عقاب الدنيا الشامل.

والآية الأخرى تؤكد على نظامهم الاقتصادي، فإذا كان شعيب قد نهى قومه عن قلة البيع

والبخس في المكيال، فهنا يدعوهم إلى إيفاء الحقوق والعدل والقسط حيث يقول: ﴿وَيَا قَوْمِ

أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾.

ويجب أن يحكم هذا الأصل «وهو إقامة القسط والعدل، وإعطاء كل ذي حق حقه» على

مجتمعكم بأسره.

ثم يخطو خطوة أوسع ويقول: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾.

و«البخس»: معناه في اللغة التقليل، وجاء هنا بمعنى الظلم أيضاً.

ونجد في نهاية الآية أن شعيباً يخطو خطوةً أخرى أوسع ويقول لقومه: ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي

الْأَرْضِ مُّفْسِدِينَ﴾.

فالفساد يقع عن طريق البيع ويقع عن طريق غصب حقوق الناس والإعتداء على

حقوق الآخرين، والفساد أيضاً يقع في الإخلال بالموازين والمقاييس الاجتماعية، ويقع

أيضاً ببخس الناس أشياءهم وأموالهم، وأخيراً يقع الفساد على الحيشيات بالإعتداء على

حرماتها وعلى النواميس وأرواح الناس.

إن الآيتين المتقدمتين تعكسان هذه الواقعية بجلاء، وهي أنه بعد الإعتقاد بالتوحيد

والنظر الفكري الصحيح، يُنظر إلى الاقتصاد السليم بأهمية خاصة، كما تدلّان على أن

الإخلال بالنظام الاقتصادي سيكون أساساً للفساد الواسع في المجتمع.
ثم يخبرهم أن زيادة الثروة - التي تصل إلى أيديكم عن طريق الظلم واستثمار الآخرين - ليست هي السبب في غناكم، بل ما يغنيكم هو ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ حَيْزُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.
التعبير بـ«بقيت الله» إما لأن الربح الحلال القليل المترشح عن أمر الله فهو «بقيت الله» وإما لأن الحصول على الرزق الحلال باعث على دوام نعم الله وبقاء البركات... وإما لأنه يشير إلى الجزاء والثواب المعنوي الذي يبقى إلى الأبد.

وقد قلنا مراراً إن آيات القرآن بالرغم من نزولها في موارد خاصة، إلا أنها تحمل مفاهيم جامعة وكلية، بحيث يمكن أن يكون لها مصداق في العصور والقرون التالية وتنطبق على مجال أوسع أيضاً.

صحيح أن المخاطبين في الآية المتقدمة هم قوم شعيب، والمراد من (بقيت الله) هو الربح ورأس المال الحلال أو الثواب الإلهي، إلا أن كل موجود نافع باق من قبل الله للبشرية، ويكون أساس سعادتها وخيرها يعدّ (بقيت الله) أيضاً.

ومن هنا فإن «المهدي الموعود عليه السلام» آخر إمام وأعظم قائد ثوري بعد النبي ﷺ من أجلى مصاديق (بقيت الله) وهو أجدر من غيره بهذا اللقب، خاصة أنه الوحيد الذي بقي بعد الأنبياء والأئمة عليهم السلام.

مرآة تحتية كجوهير علوم رسولي

وفي نهاية الآية - محل البحث - نقرأ على لسان شعيب: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾. إذ وظيفته هي البلاغ وليس مسؤولاً على «إجبار» أحد أبداً.

قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلَوْتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ نَفْعَلَ
فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَنْقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ
كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا
أَنْهَيْكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَنْقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ
قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْ طِرَ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَأَسْتَغْفِرُوا
رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾

العنلق الواهي: والآن قلنا ما كان ردّ القوم للجوّجين إزاء نداء هذا المصلح السماوي «شعيب». فما إنهم كانوا يتصورون أنّ عبادة الأصنام من آثار سلفهم الصالح، ودلالة على أصالة ثقافتهم، وكانوا لا يرفعون اليد عن الغش في المعاملة وتحقيق الربح الوفير عن هذا الطريق قالوا: ﴿يَا شُعَيْبُ أَصَلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾. ونترك حريتنا في التصرف بأموالنا فلا نستطيع الاستفادة منها ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾. إنّ هذا بعيد منك ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْخَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾.

لقد كان قوم شعيب واقعين في مثل هذا الخطأ حيث كانوا يتصورون أنّه من الخطأ القول بتحديد التصرف بالأموال من قبل مالكيها، في حين يجب أن تكون الأمور المالية تحت ضوابط صحيحة ومحسوبة كما عرضها الأنبياء على الناس، وإلا فستجرّ الحرية المطلقة المجتمع نحو الانحراف والفساد.

وعلى كل حال هؤلاء الأغنياء فلعلهم كانوا يتصورون متساءلين: إنّ هذه الأذكار والأدعية ما عسى أن تؤثر في هذه الأمور؟ على حين لو كان أولئك يفكرون جيداً لأدركوا هذا الأمر الواقعي وهو أنّ الصلاة توقظ في الإنسان الإحساس بالمسؤولية والتقوى ومخافة الله ومعرفة الحقوق، وتذكره بالله وبمحكمة عدل الله، ولذلك فهي تخلصه من الشرك وعبادة الأصنام والتقليد الأعمى للسلف الجاهل وبخس الناس أشياءهم، وعن أنواع الغش والخداع... الخ.

ولكن شعيباً ردّ على من اتهمه بالسفه وقلة العقل بكلام متين و﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾. ثمّ يضيف هذا النبي العظيم قائلاً: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنهَكُمْ عَنْهُ﴾. فلا تتصوروا أنني أقول لكم لا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تنقصوا المكيال، وأنا أبخس الناس أو أتقص المكيال، أو أقول لكم لا تعبدوا الأوثان وأنا أفعل ذلك كله، كلا فإنني لا أفعل شيئاً من ذلك أبداً.

ويستفاد من هذه الجملة أنّهم كانوا يتهمون شعيباً بأنّه كان يريد الربح لنفسه، ولهذا فهو ينفي هذا الموضوع صراحةً ويقول تعقياً على ما سبق ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾. وهذا هو هدف الأنبياء جميعاً، حيث كانوا يسعون إلى إصلاح العقيدة، وإصلاح الأخلاق، وإصلاح العمل، وإصلاح العلائق والروابط الاجتماعية وأنظمتها ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا

بِاللَّهِ ﴿ لِلْوَصُولِ إِلَى هَذَا الْمَهْدَفِ .

وعلى هذا فإنني، ولأجل أداء رسالتي والوصول إلى هذا المهدف الكبير ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

وأسعى للإستعانة به على حل المشاكل، وأتوكل عليه في تحمّل الشدائد في هذا الطريق، وأعوذ إليه أيضاً .

ثم ينبههم إلى مسألة أخلاقية، وهي أنه كثيراً ما يحدث للإنسان أنه لا يعرف مصالحه وينسى مصيره، وذلك بسبب بغضه وعدائه بالنسبة لشخص آخر أو التعصب الأعمى واللجاجة في شيء ما، فيقول لهم ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ﴾ فتبتلوا بما ابتلى به غيركم ﴿ وَأَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ﴾ وما حدث لقوم لوط من البلاء العظيم حيث أمطرهم الله بحجارة من سجيل منضود وقلب مدنهم فجعل عاليها سافلها ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ .

و«مدین»: التي كانت موطن شعيب لم تكن بعيدة عن موطن قوم لوط، لأنّ المواطنين كلاهما كانا من مناطق «الشامات» وأما من الناحية العملية فالفرق كبير بين الانحراف الجنسي الذي كان عليه قوم لوط والانحراف الاقتصادي الذي كان عليه قوم شعيب، لكن كليهما يتشابهان في توليد الفساد في المجتمع والإخلال بالنظام الاجتماعي وإماتة الفضائل الخلقية وإشاعة الانحراف .

ثم يأمر شعيب قومه الضالين بشيئين هما ما كان يؤكد عليه جميع الأنبياء المتقدمين .
الأول: قوله: ﴿ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ . أي لتطهروا من الذنوب وتجتنبوا الشرك وعبادة الأوثان والخيانة في المعاملات . والثاني: قوله: ﴿ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ﴾ أي ارجعوا إليه .
والواقع أن الاستغفار توقف في مسير الذنب وغسل النفس، والتوبة عودة إلى الله الكمال المطلق .

واعلموا أنه مهما يكن الذنب عظيماً والوزر ثقيلاً فإنّ طريق العودة إليه تعالى مفتوح وذلك لأنّ ﴿ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ .

«الودود»: صيغة مبالغة مشتقة من الود ومعناه المحبة، وذكر هذه الكلمة بعد كلمة «رحيم» إشارة إلى أن الله يلتفت بحكم رحمته إلى المذنبين التائبين، بل هو إضافة إلى ذلك يحبهم كثيراً لأنّ رحمته ومحبته هما الدافع لقبول الاستغفار وتوبة العباد .

قَالُوا يَشْعِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿١١﴾ قَالَ يَنْقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخِذْ سُمُوهُ وَرَاءَ كُمُ ظَهْرِي يَا إِت رِبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢﴾ وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿١٣﴾

التجديدات المتبادلة بين شعيب وقومه: إن شعيباً هذا النبي العظيم - الذي لُقّب بخطيب الأنبياء^١ لخطبه المعروفة والواضحة، والتي كانت أفضل شاهد أمين للحياة المادية والمعنوية لهذه الجماعة - واصل محاجته لقومه بالصبر والأناة والقلب المحترق، ولكن تعالوا لنرى كيف ردّ عليه هؤلاء القوم الضالون؟!

لقد أجابوه بأربع جمل كلها تحكي عن جهلهم ولجاجتهم:

فأولها: أنهم قالوا: ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾.

والثانية: قوهم ﴿وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾.

والثالثة: هي أنه لا تظنّ أننا نتردد في القضاء عليك بأبشع صورة خوفاً منك ومن

بأسك، ولكن احترامنا لعشيرتك هو الذي يمنعنا من ذلك ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾.

«الرهط»: تطلق في لغة العرب على الجماعة التي مجموع أنصارها ثلاثة إلى سبعة، أو

عشرة، أو على قول - وهو الحد الأكثر - تطلق على أربعين نفرًا.

وهم يشيرون بذلك إلى أنّ قبيلتك تتمتع بالقوة الكافية مقابل قوتنا، ولكن تمنعنا أمور

أخرى.

وقوهم الأخير: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ فهذا كانت منزلتك في عشيرتك، ومهما كنت

كبيراً في قبيلتك إلا أنه لا منزلة لك عندنا لسلوكك المخالف والمرفوض.

ولكن شعيباً دون أن يتأثر بكلماتهم الرخيصة واتهاماتهم الواهية أجابهم بمنطقه العذب

وبيانه الشائق متعجباً وقال: ﴿يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أفندروني من أجل

رهطي وقبيلتي التي لا تتجاوز عدة أنفار ولا تصفون لكلامي في الله؟ وهل يمكن أن تقارن عدة أفراد بعظمة الله سبحانه... وأنتم لم تهابوه وتوقروه ﴿وَأَتَّخَذْتُمُوهُ وِرَاءَ كُمْ ظَهْرِيًّا﴾. وفي الختام يقول لهم: لا تظنوا أن الله غافل عنكم أو أنه لا يرى أعمالكم ولا يسمع كلامكم، بل ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

فحيث أن المشركين من قوم شعيب هددوه في آخر كلامهم بالرجم، وأبرزوا قوتهم أمامه، كان موقف شعيب من تهديداتهم على النحو التالي: ﴿وَيَا قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَآرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾^١.

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الْآبَعْدَ الْمَدِينِ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

عاقبة المفسدين في مدين: قرأنا في قصص الأقسام السابقين مراراً، أن الأنبياء كانوا في المرحلة الأولى يدعونهم إلى الله، وفي المرحلة التي بعدها حيث لم ينفع النصح للجماعة ينذرهم نبيها ويخوفها من عذاب الله، وفي المرحلة الثالثة، تبدأ مرحلة التصفية وينزل العقاب. وفي شأن قوم شعيب - أي أهل مدين - وحصل الأمر إلى المرحلة النهائية أيضاً، إذ يقول القرآن الكريم فيهم: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾. «الصيحة»: معناها في اللغة كل صوت عظيم، والقرآن الكريم يحكي عن هلاك أقوام متعددين بالصيحة السماوية، هذه الصيحة يحتمل أن تكون صاعقة من السماء أو ما شابهها.

ثم يعقب القرآن فيقول: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثِيمِينَ﴾. أي: أجساداً هامدة بلا روح، لتبقى أجسادهم هناك عبرة لمن اعتبر...

وهكذا طوي سجل وطومار حياتهم ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾. وانظراً بريق كل شيء، فلا ثروة ولا قصور ولا ظلم ولا زينة كل ذلك تلاشى وانعدم.

وكما كانت نهاية عاد وثمود - وقد حكى عنها القرآن - فهو يقول عن نهاية مدين أيضاً

١. «الرقيب»: معناه الحافظ والمراقب وهو مشتق في الأصل من الرقبة وإنما سُمي بذلك لأنه يكون حافظاً على رقبة شخص ما «كناية عن أنه مراقب على روحه» أو يحرك الرقبة ليؤدي دور الرقابة والحفظ.

﴿أَلَا بُعِدًا لِعَدِينٍ كَمَا بَعِثْتَ نَمُودًا﴾. والمقصود من كلمة «مدين» أهل مدين الذين كانوا بعيدين عن رحمة الله وكانوا من الهالكين.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتَّبَعُوا
أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ
النَّارَ وَيَتَسَاءَلُونَ الْمُرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَسَاءَلُونَ
الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

البطل المبارز لفرعون: بعد انتهاء قصة شعيب وأهل مدين، يُشير القرآن الكريم إلى زاوية من قصة موسى ومواجهته لفرعون وهذه القصة هي القصة السابعة من قصص الأنبياء في هذه السورة. تحدث القرآن الكريم عن قصة موسى ﷺ وفرعون وبني إسرائيل أكثر من مائة مرة. وخصوصية قصة موسى ﷺ بالنسبة لقصص الأنبياء - كشعيب وصالح وهود ولوط ﷺ التي قرأناها في ما سبق - هي أن أولئك الأنبياء ﷺ واجهوا الأقسام الضالين، لكن موسى ﷺ واجه إضافة إلى ذلك حكومة «ديكتاتور» طاغ مستبد هو فرعون الجبار. ولكن ينبغي الالتفات إلى أننا نقرأ في هذا القسم من قصة موسى زاوية صغيرة فحسب ولكنها في الوقت ذاته تحمل رسالة كبيرة للناس جميعاً. يقول القرآن الكريم أولاً:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

«السلطان»: بمعنى التسلط، يستعمل تارة في السلطة الظاهرية، وأحياناً في السلطة المنطقية، السلطة التي تحاصر المخالف في طريق مسدود بحيث لا يجد طريقاً للفرار. ويبدو في الآية المتقدمة أن «السلطان» استعمل في المعنى الثاني، والمراد بـ«الآيات» هي معاجز موسى الجليلة.

إن موسى أرسل بتلك المعجزات القاصمة وذلك المنطق القوي ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾. «الملائ»: تُطلق على الذين يملأ مظهرهم العيون بالرغم من خلو المحتوى الداخلي، وفي منطق القرآن تطلق هذه الكلمة غالباً على الوجوه والأشراف والأعيان الذين يحيطون بالمستكبرين وبالقوى الظالمة... إلا أن جماعة فرعون الذين وجدوا منافعهم مهددة بالخطر بسبب دعوة موسى، فإنهم لم يكونوا مستعدين للاستجابة... لمنطقه الحق ومعجزاته

﴿فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾. ولكن فرعون ليس من شأنه هداية الناس إلى الحياة السعيدة أوضمان نجاتهم وتكاملهم: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾.

ويوم المحشر حين يأتي الناس عرصات القيامة فإن زعماءهم وقادتهم في الدنيا هم الذين سيقودوهم هناك حين يرى فرعون هناك: ﴿يَقْتُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْحَقِّمَةِ﴾ وبدلاً من أن ينقذهم ويخلصهم من حرارة المحشر وعطشه يوصلهم إلى جهنم ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَشْسُ الْوِزْدَ الْمَوْزُودَ﴾. فبدلاً من أن يسكن عطش أتباعه هناك يحرق وجودهم وبدلاً من الإرواء يزيدهم ظمأ إلى ظمأ.

ثم يقول القرآن: ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ نَعْتَهُ يَوْمَ الْحَقِّمَةِ﴾. فأسأؤهم الذليلة تثبت على صفحات التاريخ أبداً على أنهم قوم ضالون وجبابرة، فقد خسروا الدنيا والآخرة وساءت النار لهم عطاء وجزاء ﴿بِئْسَ الْوَرْدُ الْمَرْفُودُ﴾.

«الرفد»: في الأصل معناه الإعانة على القيام بعمل معين، ثم أطلقت هذه الكلمة على العطاء لأنه إعانة من قبل المعطي إلى المطعني له.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾

في آيات هذه السورة تبيان لقصص سبعة أقوام من الأقسام السابقين ولحات من تاريخ أنبيائهم، وهنا إشارة إلى جميع تلك القصص، فيتحدث القرآن عن صورة مستجمعة لما مر من الحوادث والأنباء حيث يقول: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾.

«قائم»: تشير إلى المدن والعمارات التي لا تزال باقية من الأقسام السابقين.

«حصيد»: معناها اللغوي قطع النباتات بالمنجل، وفي هذه الكلمة إشارة إلى بعض

الأراضي البائرة، كأرض قوم نوح وأرض قوم لوط، حيث إن واحدة منها دمرها الغرق والثانية أمطرت بالحجارة.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ حيث ركنوا ولجأوا إلى الأصنام والآلهة «المزعومة» ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بل زادوهم ضرراً وخسراناً ﴿وَمَا زَادَهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾^١.
 ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ فلا يدعها على حالها و﴿إِنْ أَخَذَهُ إِلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

هذا قانون إلهي عام ومنهج دائم، فما من قوم أو أمة من الناس يتجاوزون حدود الله ويمدون أيديهم للظلم ولا يكثرثون لنصائح أنبيائهم ومواعظهم، إلا أخذهم الله أخذاً شديداً واعتصرتهم قبضة العذاب.

وبالطبع فإن الظلم بمعناه الواسع يشمل جميع الذنوب، ووصفت القرية أو المدينة بأنها «ظالمة» مع أن الوصف ينبغي أن يكون لساكنيها، فكأنما هناك مسألة دقيقة وهي أن أهل هذه المدينة انغمسوا في الظلم إلى درجة حتى كأن المدينة أصبحت مغموسة في الظلم أيضاً. وبما إن هذا قانون كلي فإن القرآن يقول مباشرة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾. لأن الدنيا لا تعدّ شيئاً إزاء الآخرة، وجميع ما في الدنيا حقير حتى ثوابها وعقابها، والعالم الآخر أوسع - من جميع النواحي - من هذه الدنيا، فالمؤمنون بيوم القيامة ينظرون بعين العبرة لدى مشاهدة هذه المثل والنماذج في الدنيا، ويواصلون طريقهم.

وفي ختام الآية إشارة إلى وصفين من أوصاف يوم القيامة حيث يقول القرآن: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾.

هي إشارة إلى أن القوانين والسنن الإلهية كما هي عامّة في هذا العالم، فإن اجتماع الناس في تلك المحكمة الإلهية أيضاً عام.

وبما أن البعض قد يتوهم أن الحديث عن ذلك اليوم لم يحن أجله فهو نسيئة وغير معلوم وقت حلوله، لهذا فإن القرآن يقول مباشرة: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعْتَدٍ﴾.

وذلك أيضاً لمصلحة واضحة جليّة ليرى الناس ميادين الاختبار والتعلم، وليستجلى آخر منهج للأنبياء.

١. «التبّيب»: مشتق من مادة «تبّ» ومعناه الاستمرار في الضرر، وقد يأتي بمعنى الهلاك أيضاً.

والتعبير بكلمة «معدود» إشارة إلى قرب يوم القيامة، لأن كل شيء يقع تحت العدّ والحساب فهو محدود وقريب.

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ
شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَ
الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي
الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوزٍ ﴿١٠٨﴾

السعادة والشقاوة: أشير في الآيات المتقدمة إلى مسألة القيامة واجتماع الناس كلهم في تلك المحكمة العظيمة... وهذه الآيات - محل البحث - بيّنت زاوية من عواقب الناس ومصيرهم في ذلك اليوم، إذ تقول الآيات أولاً: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

إنّ الناس يقطعون في ذلك اليوم مراحل مختلفة... وكل مرحلة لها خصوصياتها، ففي قسم من المراحل لا يُسألون أبداً حتى أنّ أفواههم يُختم عليها فلا يتكلمون، وإنما تنطق أعضاء أجسادهم التي حفظت آثار أعمالها بلغة من دون لسان، وفي المراحل الأخرى يرفع الختم أو القفل عن أفواههم ويتكلمون بإذن الله فيعترفون بأخطائهم وذنوبهم ويلوم المخطئون بعضهم بعضاً، بل يحاولون أن يلقوا تبعات أوزارهم على غيرهم.

ويشار في نهاية الآية إلى تقسيم الناس جميعاً إلى طائفتين: طائفة محظوظة، وأخرى بائسة تعيسة ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾. وليس هذا الشقاء وتلك السعادة سوى نتيجة الأعمال والأقوال والنيات التي سلفت من الإنسان في الدنيا.

ثم تشرح الآيات حالات السعداء والأشقياء حيث تقول: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾. وتضيف حاكية عن حالهم أيضاً: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوزٍ﴾.

الطريف أنّ لفظ «شقوا» في الآيات المتقدمة ورد بصيغة المبني للمعلوم، ولفظ «سعدوا» ورد بصيغة المبني للمجهول، ولعل في هذا الاختلاف في التعبير إشارة لطيفة إلى هذه المسألة الدقيقة، وهي أنّ الإنسان يطوي طريق الشقاء بخطاه، ولكن لا بد لطبيّ طريق السعادة من

الإمداد والعون الإلهي، وإلا فإنه لا يوفق في مسيره، ولا شك أن هذا الإمداد والعون يشمل أولئك الذين يخطون خطواتهم الأولى بإرادتهم واختيارهم فحسب وكانت فيهم اللياقة والمداورة لهذا الإمداد. (فلاحظوا بدقة).

بحثنان

١- **مسألة الخلود في القرآن**؛ معنى «الخلود» لغة البقاء الطويل، كما جاء بمعنى الأبد أيضاً، فكلمة «الخلود» لا تعني الأبد وحده لأنه تشمل كل بقاء طويل. ولكن ذكرت في كثير من آيات القرآن مع قيود يفهم منها معنى الأبد، فمثلاً في الآية (١٠٠) من سورة التوبة، والآية (١١) من سورة الطلاق، والآية (٩) من سورة التغابن، حين تذكر هذه الآيات أهل الجنة تأتي بالتعبير عنهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ومفهومها أبدية الجنة لهؤلاء، ونقرأ في آيات القرآن الأخرى وصف أهل النار كآية (١٦٩) من سورة النساء، والآية (٢٣) من سورة الجن هذا التعبير أيضاً ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وهو دليل على عذابهم الأبدي.

وتعبيرات أخرى مثل الآية (٣) من سورة الكهف ﴿مَّا كَثِيرٌ فِيهِ أَبَدًا﴾ والآية (١٠٨) من سورة الكهف أيضاً: ﴿لَا يَتَّبِعُونَ عَنْهَا جَوْلًا﴾ وأمثالها تدل بصورة قطعية على أن طائفة من أهل الجنة وطائفة من أهل النار سيبقون في العذاب أو النعمة. فالآيات - محل البحث - أيضاً تبين الدوام.

٢- **أسباب السعادة والشقاء**؛ السعادة ضالة كل الناس، وهي توفر أسباب تكامل الفرد في المجتمع، والنقطة المقابلة لها هي الشقاء وهو عبارة عن عدم مساعدة الظروف للنجاح والتقدم والتكامل. ولكن ينبغي الالتفات إلى أن أساس السعادة أو الشقاء هو إرادة الإنسان نفسه، فهو يستطيع أن يوفر الوسائل لترشيد نفسه وحتى مجتمعه، وهو الذي يستطيع أن يواجه عوامل الشقاء ويهزمها أو يستسلم لها.

وليس الشقاء أو السعادة في منطق الوحي ومدرسة الأنبياء شيئاً من ذات الإنسان وحتى النواقص في المحيط والعائلة والوراثة كل ذلك قابل للتغيير بتصميم الإنسان وإرادته إلا أن ننكر أصل الإرادة في الإنسان وحريته، ونعده محكوماً بالظروف الجبرية، وكل من سعاده أو شقائه ذاتي أو هو نتيجة جبرية لمحيطه، وما إلى ذلك.

وهذا الرأي مرفوض في نظر الأنبياء وفي نظر المذهب العقلي أيضاً. الطريف أننا نجد في الروايات المنقولة عن النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام إشارات إلى مسائل

مختلفة على أنها أسباب السعادة، أو أسباب الشقاء... بحيث يتعرف الإنسان خلال مطالعتها على طريقة التفكير الإسلامي في هذه المسألة المهمة، وسيقف على الواقعيات العينية وأسباب السعادة الحقيقية.

في كتاب الخصال عن الإمام الصادق عليه السلام عن جده أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «حقيقة السعادة أن يختم للرجل عمله بالسعادة، وحقيقة الشقاوة أن يختم للمرء عمله بالشقاوة». ويقول نبي الخاتم عليه السلام أيضاً: «أربع من السعادة وأربع من الشقاوة، فالأربع التي من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب البهي. والأربع التي من الشقاوة: الجار السوء، والمرأة السوء، والمسكن الضيق، والمركب السوء».

وإذا لاحظنا أسباب السعادة والشقاوة في الأحاديث المتقدمة وحقيقتها وأثرها البالغ في حياة البشر، وقارناهما مع الأسباب والمسائل الخرافية التي يعتقد بها جمع كثير - حتى في عصرنا - لوصلنا إلى هذا الواقع الذي يؤكد أن التعاليم الإسلامية منطقية ومدروسة إلى أقصى حد.

فَلَا تَكُ فِي مَرِيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤَهُمْ مِنْ قَبْلُ
وَلِإِنَّا لَمُوفُونَهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْتَلَفَ
فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ وَإِيَّاهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيِبٌ ﴿١١٠﴾
وَإِن كُلًّا لَّمَّا لِيُوفِيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا
أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْفَرُ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

الاستقامة والشباب: هذه الآيات بمثابة تسلية لخاطر النبي عليه السلام كما أنها نازلة لبيان وظيفته ومسؤوليته، وفي الواقع إن من أهم النتائج التي يتوصل إليها من القصص السابقة للأمم الماضية هي أن لا يكثرث النبي ومن معه من أتباعه المؤمنون حقاً من كثرة الأعداء، ولا يخافوا منهم، ولا يشكوا أو يترددوا في هزيمة عبدة الأصنام والظالمين الذي يقفون بوجوههم، وأن يواصلوا طريقهم ويعتمدوا على الله واثقين به. لذلك يقول القرآن الكريم في

هذا الصدد: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَذَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤَهُمْ مِّن قَبْلُ﴾^١.
ويقول بعدها مباشرة: ﴿وَإِنَّا لَمُولُوهُمْ نَهْيِهِمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾.

إنّ هذه الآية تجسّم هذه الحقيقة، وهي أنّ ما قرأناه من قصص الأمم السابقة لم يكن أسطورة، كما أنّها لا تختص بالماضين، فهي سنّة أبدية وخالدة وهي لجميع الناس ماضياً وحاضراً ومستقبلاً.

ويسلّي القرآن قلب النبي ﷺ مرّة أخرى، فيحدّثه عن موسى وقومه قائلاً: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاحْتَلَفَ فِيهِ﴾. ويقول إذا ما رأيت أنّ الله لا يعجل العذاب على قومك، فلأنّ مصلحة الهداية والتعليم والتربية لقومك توجب ذلك وإلا فإنّ القرار الإلهي المسبق يقتضي التعجيل بعملية التحكيم والقضاء وبالتالي إنزال العقاب ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكِّ مِرْيَةٍ﴾.

«مريب»: مشتقة من «الريب» ومعناه الشك المقترن بسوء الظن والنظرة السيئة والقرائن المخالفة، وعلى هذا فيكون مفهوم هذه الكلمة أنّ عبدة الأصنام ما كانوا يترددون في مسألة حقيقة القرآن أو نزول العذاب على المفسدين فحسب، بل كانوا يدّعون بأنّ لديهم قرائن تخالف ذلك أيضاً.

ويضيف القرآن لمزيد التأكيد: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَنُؤَفِّقُهُمْ رَبِّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾. وهذا الأمر ليس فيه صعوبة على الله ولا حرج إذ: ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

الطريف أنّ القرآن يقول: ﴿لَيُؤَفِّقُهُمْ رَبِّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ ليشير مرّة أخرى إلى مسألة تجسّم الأعمال وأنّ الجزاء والثواب هما في الحقيقة أعمال الإنسان نفسه التي تتخذ شكلاً آخر وتصل إليه ثانية.

وبعد ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة ورمز نجاحهم ونصرهم، وبعد تسليّة قلب النبي ﷺ وتقوية إرادته، يبيّن القرآن - عن هذا الطريق - أهمّ دستور أمر به النبي ﷺ وهو ﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ﴾.

«استقم» في طريق الإرشاد والتبليغ وأداء الوظائف الإلهية ونشر التعليقات القرآنية. ولكن هذه الاستقامة ليست لينال فلان أو فلان مستقبلاً زاهراً، بل هي لجرد طاعة الله

١. «المرية»: معناها التردد في التصميم على أمر ما....

وَاتَّبَاعِ أَمْرِهِ. كَمَا أَنَّ هَذِهِ الْإِسْتِقَامَةَ لَيْسَتْ عَلَيْكَ وَحْدَكَ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَسْتَقِيمَ أَنْتَ ﴿وَمَنْ قَابَ مَعَكَ﴾ استقامة خالية من كل زيادة وتقصان وإفراط أو تفريط ﴿وَلَا تَطْفُوا﴾ إذ ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ولا تخفى عليه حركة ولا قول ولا أي خطة أخرى... الخ.

المسؤولية الكبيرة: في تفسير الدر المنثور عن ابن عباس أن الصحابة قالوا يا رسول الله لقد أسرع إليك الشيب؟ قال: «أجل، شيبتني هود وأخواتها».

وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ لما نزلت هذه الآية قال: «شتموا شتموا فما رُئي ضاحكاً». والدليل واضح، لأن أربعة أوامر مهمة موجودة في هذه الآية يلقي كل واحد منها عبثاً ثقيلاً على الكتف.

واليوم مسؤوليتنا المهمة - نحن المسلمين أيضاً، وبالخصوص قادة الإسلام - تتلخص في هذه الكلمات الأربعة. وهي: الاستقامة، والإخلاص، وقيادة المؤمنين، وعدم الطغيان والتجاوز. ودون ربط هذه الأمور بعضها إلى بعض فإن النصر على الأعداء الذين أحاطونا من كل جانب من الداخل والخارج، واستفادوا من جميع الأساليب الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية... هذا النصر لا يكون سوى أوهم في مخيلة المسلمين.

وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ
ثُمَّ لَا تَنْصُرُونَ ﴿١١٣﴾

الركون إلى الظالمين: إن هذه الآية تبين واحداً من أقوى وأهم الاسس والبرامج الاجتماعية والسياسية والعسكرية والعقائدية، فتخاطب عامة المسلمين ليؤدوا وظيفتهم القطعية فتقول: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾^١. والسبب واضح ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ﴾ ومعلوم عندئذ حالكم ﴿ثُمَّ لَا تَنْصُرُونَ﴾.

في أي الأمور لا ينبغي الركون إلى الظالمين؟ بديهي أنه في الدرجة الأولى لا يصح الإشتراك معهم في الظلم أو طلب الإعانة منهم، وبالدرجة الثانية الاعتماد عليهم فيما يكون فيه ضعف المجتمع الإسلامي وسلب استقلاله واعتماده على نفسه وتبديله إلى مجتمع تابع

١. «الركون»: مشتق من مادة «رُكِنَ» ومعناه العمود الضخم من الحجر أو الجدار الذي يربط البناء أو الأشياء الأخرى بعضها إلى بعض، ثم اطلق هذا اللفظ على الإعتماد أو الاستناد إلى الشيء.

وضيف لا يستحق الحياة، لأن هذا الركون ليس فيه نتيجة سوى الهزيمة والتبعية للمجتمع الإسلامي. وأما ما نلاحظه أحياناً من مسائل التبادل التجاري والروابط العلمية بين المسلمين والمجتمعات غير الإسلامية على أساس حفظ منافع المسلمين واستقلال المجتمعات الإسلامية وثباتها، فهذا ليس داخلياً في مفهوم الركون إلى الظالمين ولم يكن شيئاً ممنوعاً من وجهة نظر الإسلام، وفي عصر النبي نفسه ﷺ والأعصار التي تلتها كانت هذه الأمور موجودة وطبيعية أيضاً.

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَاً مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

الصلاة والصبر: هذه الآيات تشير إلى أمرين من أهم الأوامر الإسلامية، وهما في الواقع روح الإيمان وقاعدة الإسلام، فيأتي الأمر أولاً بالصلاة: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَاً مِنْ اللَّيْلِ﴾.

وظاهر التعبير من ﴿طَرَفِي النَّهَارِ﴾ هو بيان صلاة الصبح وصلاة المغرب اللتين يقعان طرفي النهار؛ و«الزلف» جمع «زلفة» التي تعني القرب، ويشار بها إلى أول الليل القريب من النهار فتتطبق على صلاة العشاء، تحت توجيه رسول الله ﷺ ولأهمية الصلوات اليومية - خاصة - وجميع العبادات والطاعات والحسنات - عموماً - فإن القرآن يشير بهذا التعبير: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ والآية آنفة الذكر كسائر آيات القرآن تبين تأثير الأعمال الصالحة في محو أثر الأعمال السيئة.

العمل الصالح الصادر من الهدف الإلهي يهب روح الإنسان لطافةً بإمكانها أن تغسل آثار الذنوب وأن تبدل ظلمات نفسه إلى أنوار.

الأهمية القصوى للصلاة: تلاحظ في الروايات المتعددة المنقولة عن النبي ﷺ والأئمة الطاهرين عليهم السلام تعبيرات تكشف عن الأهمية الكبرى للصلاة في نظر الإسلام. في تفسير مجمع البيان عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في المسجد، ننتظر الصلاة فقام رجل فقال: يا رسول الله إني أصبت ذنباً. فأعرض عنه، فلما قضى النبي ﷺ الصلاة قام الرجل فأعاد القول، فقال النبي ﷺ: أليس قد صليت معنا هذه الصلاة، وأحسنت لها الطهور؟ قال بلى. قال: فإنها كفارة ذنبك.»

متى ما أدّيت الصلاة بشرائطها فإنها تنقل الإنسان إلى عالم من المعنوية والروحانية بحيث توثق علاقته الإيمانية بالله، وتغسل عن قلبه وروحه الأدران وآثار الذنوب.

الصلاة تجير الإنسان من الذنب، وتجلبو صدأ القلوب.

الصلاة تجذّر الملكات السامية للإنسان في أعماق الروح البشرية، والصلاة تقوي الإرادة وتطهر القلب والروح، وبهذا الترتيب فإن الصلاة الواعية الفاعلة هي مذهب تربوي عظيم. وتعقيباً على تأثير الصلاة في بناء شخصية الإنسان وبيان تأثير الحسنات على محو السيئات، يأتي الأمر بالصبر في الآية الأخرى بعدها: ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾. ومعنى ذلك أن العمل الصالح لا يتيسر دون صبر ومقاومة.

إن «الصبر» في هذه الآية يشمل كل أنواع الصبر أمام المشاكل والمخالفات والأذى والظغيان والمصائب المختلفة، فالصمود أمام جميع هذه الحوادث يندرج تحت مفهوم الصبر. «الصبر» أصل كلي وأساس إسلامي، يأتي أحياناً في القرآن مقروناً بالصلاة، ولعل ذلك آت من أن الصلاة تبعث في الإنسان الحركة، والأمر بالصبر يوجد المقاومة، وهذان الأمران، أي «الحركة والمقاومة» حين يكونان جنباً إلى جنب يشيران كل اشكال النجاح والموقفية.

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

عامل الانحراف والفساد في المجتمعات: من أجل إكمال البحوث السابقة ذكر في هاتين الآيتين أصل أساسي اجتماعي يضمن نجاة المجتمعات من الفساد، وهو أنه مادام هناك في كل مجتمع طائفة من العلماء المسؤولين والملتزمين الذين يحاربون كل اشكال الفساد والانحراف، ويأخذون على عاتقهم قيادة المجتمع فكرياً وثقافياً ودينياً، فإن هذا المجتمع سيكون مصنوعاً من الزيف والانحراف.

لكن متى ما سكت عن الحق أهله وحماته، وبقي المجتمع دون مدافع أمام عوامل الفساد، فإن انتشار الفساد ومن ورائه الهلاك أمر حتمي.

الآية الأولى أشارت إلى القرون والأمم المتقدمة الذين ابتلوا بأشد أنواع البلاء قائلة: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾.

إِنَّ أثر ﴿أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ في بقاء المجتمع حساس للغاية، حتى يمكن القول: إِنَّ المجتمع من دون «أولي بقية» يُسلب حق الحياة، ومن هنا فقد وردت الإشارة إليهم في الآية المتقدمة. ثم تستثني جماعة فتقول: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾.

هذه الجماعة القليلة وإن كانت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ولكنها كحال لوط عليه السلام وأسرته الصغيرة، ونوح والمعدودين ممن آمن به، وصالح وجماعة من أتباعه، فإنهم كانوا قلة لم توفق للإصلاح العام والكلبي في المجتمع.

إِنَّ الظالمين الذين كانوا يشكلون القسم الأكبر من المجتمع اتبعوا لذاتهم وتنعمهم، وكما تقول الآية: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾. يعني متى كان المجتمع ظالماً ولكنه مقبل على اصلاح نفسه، فهذا المجتمع يبق، ولكن إذا كان المجتمع ظالماً ولم يقبل على نفسه فيصلحها أو يطهرها فإن مصيره إلى الفناء والهلاك.

فهذا التمتع والتلذذ غير المقيد وغير المشروط أساس الانحرافات في المجتمعات المرفهة، لأن سكرها من شهواتها يصدها عن إعطاء القيم الإنسانية الأصيلة حقها ودرك الواقعيات الاجتماعية، ويغرقها في العصيان والآثام.

وللتأكيد على هذه الحقيقة، تأتي الآية الثانية لتقول: إِنَّ هذا الذي ترون من إهلاك الله للأمم، إنما كان لعدم وجود المصلحين فيهم ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ
وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَانِ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

في الآية الأولى محل البحث إشارة إلى واحدة من سنن الخلق والوجود والتي تمثل اللبنة التحتية لسائر المسائل المرتبطة بالإنسان... وهي مسألة الاختلاف والتفاوت في بناء الإنسان روحاً وفكراً وجسماً وذوقاً وعشاقاً، ومسألة حرية الإرادة والاختيار. تقول الآية: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾. لتلا يتصور أحد من الناس أن تأكيد الله وإصراره على طاعة أمره دليل على عدم قدرته على أن يجعلهم في سير واحد ومنهج واحد.

لكن مثل هذا الإيمان لا تكون فيه فائدة ولا في مثل هذا الاتحاد... فالإيمان القسري

الذي ينبع من هدف غير إرادي لا يكون علامة على شخصية الفرد ولا وسيلة للتكامل، ولا يوجب الثواب.

إلا أن قيمة الإنسان وامتيازته وأهم ما يتفاوت فيه عن سائر الموجودات هي هذه الموهبة، وهي حرية الإرادة والاختيار، وكذلك امتلاك الأذواق والأطباع والأفكار المتفاوتة التي يصنع كل واحد منها قسماً من المجتمع ويؤمنُ بعداً من أبعاده. ومن طرف آخر فإن الاختلاف في انتخاب العقيدة والمذهب أمر طبيعي.

ولهذا يقول القرآن الكريم في الآية الأخرى: ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ﴾. ولكن هذه الرحمة الإلهية ليست خاصة بجماعة معينة، فالجميع يستطيعون «شريطة رغبتهم» أن يستفيدوا منها ﴿وَلِلَّذِينَ خَلَقْتُمْ﴾.

الأشخاص الذين يريدون أن يستظلوا برحمة الله فإن الطريق مفتوح لهم... الرحمة التي أفاضها الله لجميع عباده عن طريق تشخيص العقل وهداية الأنبياء.

ومتى ما استفادوا من هذه الرحمة والموهبة، فإن أبواب الجنة والسعادة الدائمة تفتح بوجوههم، وإلا فلا: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. إن هذا الأمر المحتوم فيه شرط واحد وهو الخروج من دائرة رحمة الله، والتقهقر عن هداية الرسل والادلاء من قبله، وبهذا الترتيب.

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢٠﴾ وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٢١﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

أربع مصطلحات لتقصص الماضين: بانتهاء هذه الآيات تنتهي سورة هود، وفي هذه الآيات استنتاج كلي لمجموع بحوث هذه السورة، وبما أن القسم الأهم من هذه السورة يتناول القصص التي تحمل العبر من سيرة الأنبياء والأمم السابقة، فإن هذه القصص تعطي نتائج قيمة ملخصة في أربعة مواضع. تقول هذه الآيات أولاً: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾. وكلمة «كُلًّا» إشارة إلى تنوع هذه القصص.

ثم تشير الآية إلى النتيجة الكبرى الثانية فتقول الآيات: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾. أما ثالث الآثار ورابعها اللذان يستلقتان النظر هما: ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. إن هذه الآية تؤكد مرة أخرى أنه لا ينبغي أن نعدّ قصص القرآن ملهامة أو يستفاد منها لإشغال السامعين، بل هي مجموعة من أحسن الدروس الحياتية في جميع المجالات، وطريق رحب لجميع الناس في الحاضر والمستقبل.

ثم تخاطب الآيات النبي ﷺ وهو يواجه أعداءه الذين يؤذونه ويظهرون اللجاجة والعناد إن واصل الطريق: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَأَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾.

فستعلمون من الذي سينتصر، انتظروا هزيمتنا كما تزعمون انتظاراً غير مُجد، ونحن ننتظر العذاب من الله عليكم، وهو ما ستذوقونه من قبلنا أو من قبل الله مباشرة. وآخر آية من هذه السورة تتحدث عن التوحيد كما تحدثت الآيات الأولى من هذه السورة عن التوحيد أيضاً.

هذه الآية تشير إلى ثلاث شعب من التوحيد: توحيد علم الله أولاً، فغيب السماوات والأرض خاص بالله وهو المطلع عليها جميعاً ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. أما سواه فعلمه محدود، وفي الوقت ذاته فإن هذا العلم ناشيء من التعليم الإلهي، فعلى هذا فإن العلم غير المحدود، والعلم الذاتي بالنسبة لجميع ما في السماوات والأرض مخصوص بذات الله المقدسة.

ومن جهة ثانية فإن أزمة جميع الأفعال مرهونة بقدرته ﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾. وهذه مرحلة توحيد الأفعال.

ثم تستنتج الآية أنه إذا علمت أن الإحاطة والعلم غير المحدود والقدرة التي لا تنتهي... جميعها مخصوص بذات الله المقدسة ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾. وهذه مرحلة توحيد العبادة. فينبغي اجتناب العصيان والعناد والطغيان ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

بحثان

١- علم الغيب خاص بالله: إن الإطلاع على الأسرار الخفية أو الأسرار الماضية والآتية كله خاص بالله... والآيات المختلفة من القرآن تؤكد هذه الحقيقة وتؤيدها أيضاً. وإذا وجدنا في قسم من آيات القرآن بيان أن الأنبياء قد يعلمون بعض الأمور الغيبية،

أو قرأنا في بعض الآيات أو الروايات الكثيرة أن النبي ﷺ والإمام علياً والأئمة المعصومين عليهم السلام قد يخبرون عما يجري في المستقبل من حوادث ويبشرون أسراراً خفية منها، فينبغي أن نعرف أن كل ذلك بتعليم الله سبحانه. فهو سبحانه حيث يجد المصلحة يطلع عباده وأوليائه على قسم من أسرار الغيب، ولكن هذا العلم لا هو علم ذاتي ولا غير محدود، بل هو من تعليم الله وهو محدود بمقدار ما يريد الله.

وليس الإطلاع على علم الغيب من قبل الله خاصاً بالأنبياء أو الأئمة فقد يطلع الله غير النبي والأئمة على غيبه أيضاً... فنحن نقرأ في قصة أم موسى في الآية (٧) من سورة القصص أن الله قال لها: ﴿وَلَا تَحْزَنِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا زَادُوهُ إِلَيْكَ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وقد يطلع الله لضرورة الحياة - أحياناً - الطيور والحيوانات على الأسرار الخفية وحتى على المستقبل البعيد نسبياً مما يصعب علينا تصوره وبهذا الترتيب قد تكون بعض المسائل التي نحسبها غيباً، هذه المسائل نفسها بالنسبة للطيور أو الحيوانات لا تعد من الغيب.

٢- **العبادة لله وحده**: في الآية المتقدمة دليل لطيف على أن العبادة لله وحده، وهو أنه لو كانت العبادة من أجل العظمة وصفات الجمال، والجلال فهذه الصفات قبل كل شيء موجودة في الله، وأما الآخرون فلا شيء بالنسبة إليه، وأكبر دليل على عظمة الله علمه الواسع غير المحدود وقدرته اللامتناهية، وقد أشارت الآية الآتفة إلى أنها مختصان بالله.

وإذا كانت العبادة لأجل الإلتجاء - في حل المشاكل - إلى المعبود... فإن مثل هذا العمل جدير بمن هو عليم بجميع حاجات العباد وأسرارهم الخفية. وما يغيب عليهم، وهو قادر على إجابة دعوتهم، وبالنتيجة فإن توحيد الصفات يكون سبباً لتوحيد العبادة (لاحظوا بدقة).

«نهاية تفسير سورة هود»



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



بداية سورة يوسف: قبل الدخول في تفسير آيات هذه السورة ينبغي ذكر عدّة أمور:
 ١- جميع آيات هذه السورة سوى الآيات القليلة التي تقع في نهاية السورة تبين قصة نبي الله يوسف عليه السلام. القصة الطريفة والجميلة والتي تحمل بين طياتها العبر، ولذلك سميت هذه السورة باسم «يوسف» وبهذه المناسبة - أيضاً - ورد ذكر يوسف - من مجموع (٢٧) مرة في القرآن - (٢٥) مرّة في هذه السورة ومرة واحدة في سورة غافر الآية (٣٤) ومرة أخرى في سورة الأنعام الآية (٨٤).

ومحتوى هذه السورة - على خلاف سور القرآن الأخرى - مرتبط ببعضه ببعض وبيّن جوانب مختلفة من قصة واحدة وردت في أكثر من عشرة فصول، مع بيان أخذ موجز، عميق، وطريف ومثير.

وبالرغم من أنّ القصاصين غير الهادفين، أو من لهم اغراض رخيصة سعوا إلى أن يحولوا هذه القصة الملهمة إلى قصة عشق يحرك أهل الهوى والشهوة! وأن يمسخوا الوجه الواقعي ليوسف عليه السلام بحيث بلغت الحال أن يصوروا «فيلمًا سينمائيًا» وينشروه بصورة مبتذلة... إلّا أنّ القرآن - وكل ما فيه أسوة وعبرة - عكس في ثنايا هذه القصة أسمى دروس العفة وضبط النفس والتقوى والإيمان، حتى لو أنّ إنساناً قرأها عدة مرات فإنه يتأثر - بدون اختيار - بأسلوبها الجذاب في كل مرة.

ولذا فقد عبّر القرآن عنها بـ ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ وجعل فيها العبر للمعتبرين ﴿أولى الأبواب﴾.

٢- التدقيق في آيات هذه السورة يكشف هذه الحقيقة للإنسان، وهي أن القرآن معجز في جميع أبعاده، لأنّ الأبطال الذين يقدمهم في قصصه أبطال حقيقيون لا خياليون، وكل واحد في نفسه منهم منعدم النظير:

فإبراهيم عليه السلام: البطل الذي حطّم الأصنام بروحه العالية التي لا تقبل المساومة مع الطغاة.
وموسى عليه السلام: البطل المرئي لقومه اللجوجين، والذي وقف بوجه فرعون المتكبر الطاغية.
ويوسف عليه السلام: بطل الورع والتقوى والطهارة... أمام امرأة محتالة جميلة عاشقة.

بعد هذا كله تتجلى القدرة البيانية للوحي القرآني بصورة تحيّر الإنسان، لأنّ هذه القصّة - كما نعرف - تنتهي في بعض مواردها إلى مسائل العشق ودون أن يمسحها القرآن أو يتجاوزها يتعرض إلى الأحداث في مسرحها بدقة بحيث لا يحس السامع شيء غير مطلوب فيها، ويذكر القضايا بأجمعها في المتن، ولكن تحفها أشعة قوية من التقوى والطهارة.

٣- قصة يوسف قبل الإسلام وهذه لا شك أن قصة يوسف كانت مشهورة ومعروفة بين الناس قبل الإسلام، لأنها مذكورة في (١٤) فصلاً من (سفر التكوين) في التوراة بين (الفصل ٣٧ - ٥٠) ذكراً مفصلاً.

وبطبيعة الحال فإنّ المطالعة الدقيقة في هذه الفصول الأربعة عشر تكشف مدى الاختلاف بين ما جاء في التوراة وما جاء في القرآن.

وبالمقارنة بين نصّ التوراة ونصّ القرآن نجد أن نصّ القصة في القرآن في غاية الصدق وتخلو من أي خرافة.

وما يقوله القرآن للنبي ﷺ: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ يشير إلى قصة يوسف التي عبّر عنها بأحسن القصص، حيث لم يكن النبي مطلعاً على حقيقتها الخالصة. وعلى كل حال فإنّ هذه القصة - بعد الإسلام - تناقلتها أقلام مؤرخي الشرق والغرب... وأحياناً مع أغصان وأوراق إضافية.

٤- لم تذكر قصة يوسف في مكان واحد بخلاف قصص سائر الأنبياء، إنّ من خصائص قصة يوسف البارزة أنّ هذه القصة ذكرت في مكان واحد من القرآن، على خلاف قصص الأنبياء التي ذكرت على شكل فصول مستقلة في سور متعددة من القرآن.

والحكمة في ذلك تعود إلى أن تفكيك فصول هذه القصة مع ملاحظة وضعها الخاص يفقدها ترابطها وانسجامها، فهذا ينبغي أن تذكر كاملة في مكان واحد للحصول على النتيجة المتوخاة.

والخصيصة الأخرى من خصائص هذه السورة هي أن قصص الأنبياء التي وردت في السور الأخرى من القرآن تبين عادة مواجهة الأنبياء لقومهم المعاندين والطفاة. أما في قصة يوسف فلا كلام عن هذا الموضوع، بل أكثر ما فيها بيان حياة يوسف نفسه ونجاته من المزالق الخطيرة التي تنتهي أخيراً إلى استلامه سدة الحكم، وهي في حد ذاتها «أمودج» خاص.

٥- **طريقة تلاوة سورة يوسف** في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من قرأ سورة يوسف في كل يوم أو في كل ليلة، بعثه الله يوم القيامة وجماله مثل جمال يوسف، ولا يصيبه فزع يوم القيامة، وكان من خيار عباد الله الصالحين». إن الروايات التي وردت في فضائل سور القرآن - كما قلنا مراراً - ليس معناها القراءة السطحية دون تفكير وعمل، بل تلاوة تكون مقدمة للتفكير...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّيْلِكَ ءَايْتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِيْنَ ﴿٣﴾

أحسن القصص بين يديك تبدأ هذه السورة بالحروف المقطعة ﴿آلر﴾ وهي دلالة على عظمة القرآن، وإن تركيب هذه الآيات ذات المحتوى العميق متكوّن من أبسط الأجزاء، وهي حروف الهجاء «ألف - باء... الخ».

وربما كان لهذا السبب أن تأتي الإشارة - بعد هذه الحروف المقطعة مباشرة - إلى بيان عظمة القرآن في هذه السورة، فتقول: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.

ثم يأتي البيان عن الهدف من نزول الآيات فيقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. فالهدف إذن ليس القراءة أو التلاوة أو التيمّن أو التبرك بتلاوة هذه الآيات فحسب، بل الهدف الأساسي هو الإدراك... الإدراك القوي الذي يدعو الإنسان إلى العمل بجميع وجوده.

فالتعبير بكون القرآن عربياً - الذي تكرر في عشرة موارد من القرآن - جواب لأولئك الذين يتهمون النبي ﷺ بأنه تعلم القرآن من أعجمي، وأنّ محتوى القرآن مستورد وليس وحياً إلهياً.

وهذه التعبيرات المتتابة تحتم ضمناً وظيفة مفروضة على جميع المسلمين، وهي أن يسعوا جميعاً إلى معرفة اللغة العربية وأن تكون اللغة الثانية إلى جانب لغتهم، لأنّها لغة الوحي ومفتاح فهم حقائق الإسلام.

ثم يقول سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ اتِّعَابِلِينَ﴾.

يعتقد بعض المفسرين أنّ ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ إشارة إلى مجموع القرآن.

إنّ الله سبحانه عبّر بـ ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ عن مجموع هذا القرآن الذي جاء في أجمل البيان والشرح، وأفصح الألفاظ وأبلغها، مقرونةً بأسمى المعاني وأدقّها، بحيث يبدو ظاهره عذبا جميلاً، ومن حيث الباطن فحتواها عظيم.

ولكن إرتباط الآيات المقبلة التي تبين قصة يوسف ﷺ مع هذه الآية - محل البحث - بشكل يشدّ ذهن الإنسان إلى هذا المعنى، وهو أنّ الله عبّر عن قصة يوسف بـ ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ وقلنا مراراً أنّه لا مانع من أن تكون مثل هذه الآيات للمعنيين جميعاً... فالقرآن هو أحسن القصص بصورة عامة، وقصة يوسف هي أحسن القصص بصورة خاصة.

أثر القصة في حياة الناس: مع ملاحظة أنّ القسم المهم من القرآن قد جاء على صورة تأريخ للأمم السابقة وقصص الماضين، فقد يتساءل البعض: لم يحمل هذا الكتاب التربوي كل هذا «التاريخ» والقصص؟!

وتتضح العلة الحقيقية للموضوع بملاحظة عدّة نقاط:

١- إنّ التاريخ مختبر لنشاطات البشرية المختلفة، وما رسمه الإنسان في ذهنه من الأفكار والتصورات يجده بصورة عينية على صفحات التاريخ.

٢- ثم بعد هذا فإنّ للتاريخ والقصة جاذبية خاصة، والإنسان واقع تحت هذا التأثير الحارق للعادة في جميع أدوار حياته من سنّ الطفولة حتى الشيخوخة.

والعلة في ذلك قد تكون أنّ الإنسان حسي بالطبع قبل أن يكون عقلياً ويتخبط في المسائل المادية قبل أن يتعمق في المسائل الفكرية.

وكلما ابتعد الانسان عن ميدان الحسّ، باتجاه المسائل العقلية كانت هذه المسائل أثقل على الذهن وأبطأ هضماً.

ومن هنا نلاحظ أنّه لأجل بيان الاستدلال العقلي يستمدّ المفكرون في المسائل الاجتماعية والحياتية المختلفة من الأمثلة الحسية، وأحياناً يكون للمثال المناسب والمؤثر في الاستدلال قيمة مضاعفة، ولذلك فإنّ العلماء الناجحين هم أولئك الذين لهم هيمنة على انتخاب أحسن الأمثلة.

٣- القصة والتاريخ مفهومان عند كل أحد، وعلى هذا فإنّ الكتاب الشامل الذي يريد أن يستفيد منه البدوي الأمي والمتوحش... إلى الفيلسوف والمفكر الكبير، يجب أن يكون معتمداً على التاريخ والقصص والأمثلة.

ومجموعة هذه الجهات تبين أنّ القرآن خطأ أحسن الخطوات في بيان التواريخ والقصص في سبيل التعليم والتربية.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَبْنَىٰ لَكَ بَنِي لَا تَقْصُصْ رُءُوكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

بارقة الأمل وبداية المشائل: بدأ القرآن بذكر قصة يوسف من رؤياه العجيبة ذات المعنى الكبير، لأنّ هذه الرؤيا في الواقع تعدّ أول فصل من فصول حياة يوسف المتلاطمة.

جاء يوسف في أحد الأيام صباحاً إلى أبيه وهو في غاية الشوق ليحدثه عن رؤياه، وليكشف ستاراً عن حادثة جديدة لم تكن ذات أهمية في الظاهر، ولكنها كانت إرهاباً لبداية فصل جديد من حياته: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

يقول ابن عباس: إنّ يوسف رأى رؤياه ليلة الجمعة التي صادفت ليلة القدر (ليلة تعيين الأقدار والآجال).

والمقصود من السجود هنا هو الخضوع والتواضع، وإلا فإن السجود المعروف عند الناس لا مفهوم له بالنسبة للكواكب والشمس والقمر.

إن هذه الرؤيا المثيرة ذات المغزى تركت يعقوب النبي غارقاً في التفكير... فالقمر والشمس والكواكب، وأي الكواكب! إنها أحد عشر يسجدون جميعاً لولدي يوسف، كم هي رؤيا ذات مغزى! لا شك أن الشمس والقمر «أنا وأمه أو خالته» والكواكب الأحد عشر إخوته، هكذا يرتفع قدر ولدي حتى تسجد له الشمس والقمر وكواكب السماء.

إن ولدي «يوسف» عزيز عند الله إذا رأى هذه الرؤيا المثيرة! لذلك توجه إلى يوسف بلهجة يشوبها الإضطراب والخوف المقرون «بالفرحة» و﴿قَالَ يَا بَنِيَّ إِنِّي أَخَفْتُكُمْ إِخْوَتَكُمْ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ وأنا أعرف ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ وهو منتظر الفرصة ليوسوس لهم ويثير نار الفتنة والحسد وليجعل الإخوة يقتتلون فيما بينهم.

ولكن هذه الرؤيا لم تكن دليلاً على عظمة يوسف في المستقبل من الوجهة الظاهرية والمادية فحسب، بل تدل على مقام النبوة التي سيصل إليها يوسف في المستقبل. ولذلك فقد أضاف يعقوب - لولده يوسف - قائلاً: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾^١.

أجل فإن الله على كل شيء قدير و﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

الرؤيا والعلم: إن الرؤيا والأحلام على أقسام:

١- الرؤيا المرتبطة بماضي الحياة حيث تشكل الرغبات والأمنيات قسماً مهماً من هذه الأحلام.

٢- الرؤيا غير المفهومة والمضطربة وأضغاث الأحلام التي تنشأ من التوهم والخيال وإن كان من المحتمل أن يكون لها دافع نفسي.

٣- الرؤيا المرتبطة بالمستقبل والتي تخبر عنه.

١. «التأويل»: في الأصل إرجاع الشيء، وكل عمل أو كل حديث يصل إلى الهدف النهائي يطلق عليه «تأويل» وتحقق الرؤيا في الخارج مصداقاً للتأويل... و«الأحاديث»: جمع الحديث، وهو نقل ما يجري، والحديث هنا كناية عن الرؤيا لأن الإنسان ينقلها للمعبرين.

وتقرأ في الحديث عن النبي الأكرم ﷺ عن الرؤيا قوله: «الرؤيا ثلاثة: بُشْرَى من الله، وتحزين من الشيطان، والذي يحدث به الإنسان نفسه فيراه في منامه»^١.

وواضح أن أحلام الشيطان ليست شيئاً حتى يكون لها تعبير، ولكن ما يكون من الله في الرؤيا فهي تحمل بشارة حتماً... ويجب أن تكون رؤيا تكشف الستار عن المستقبل المشرق.

من الدروس التي نستلهمها من هذا القسم من الآيات أن نحفظ الأسرار، وينبغي أن يُطبق هذا الدرس أحياناً حتى أمام الإخوة، فدائماً تقع في حياة الإنسان أسرار لو أذيعت وفشت بات مستقبله أو مستقبل مجتمعه معرضاً للخطر، والمواظبة على حفظ هذه الأسرار دليل على سعة الروح وتملك الإرادة.

وورد حديث عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «سرك من دمك فلا يجري من غير أوداجك»^٢.

لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمُتَسَاءِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالَ الْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ آيِنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ آبَاءَنَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيُّكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْمُ فِي غِيبَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾

المؤامرة: من هنا تبدأ قصة مواجهة إخوة يوسف واشتباكهم معه: في الآية الأولى - من الآيات محل البحث - إشارة إلى الدروس التربوية الكثيرة التي توحىها القصة، إذ تقول الآية: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمُتَسَاءِلِينَ﴾.

وأي درس أعظم من أن يجتمع عدة أفراد لإهلاك فرد ضعيف ووحيد - في الظاهر - ويخطط أعداؤها الحسد، ويبدلون أقصى جهودهم لهذا الأمر، ولكن نفس هذا العمل - ودون شعور وإرادة منهم - بات سبباً في تربعه على سرير الملك وصورته أمراً على البلد الكبير «مصر» ثم يأتي إخوته في النهاية ليطأطئوا برؤوسهم إعظماً له، وهذا يدل على أن الله إذا

١. بحار الأنوار ١٩١/٥٨.

٢. بحار الأنوار ٧١/٧٢.

أراد أمراً فهو قادر على أن يجريه حتى على أيدي من يخالفون ذلك الأمر، ليتجلى أن الإنسان المؤمن الطاهر ليس وحيداً في هذا العالم، فلو سعى جميع أفراد هذا العالم إلى إزهاق روحه والله لا يريد ذلك، فإنهم لا يستطيعون أن يسلبوا منه شعرة واحدة.

كان ليعقوب اثنا عشر ولداً، واثنان منهم: يوسف وبنيامين وهما من أم واحدة اسمها راحيل، وكان يعقوب يولي هذين الولدين محبة خاصة، لا سيما يوسف. لأنها أولاً: أصغر أولاده، وبالطبع فهما يحتاجان إلى العناية والرعاية والمحبة.

وثانياً: لأن أمهما ارتحلت من الدنيا - طبقاً لبعض الروايات - وبعد هذا كله كانت بوادر النبوغ والذكاء الحاد ترسم على يوسف، وهذه الأمور أدت إلى أن يولي يعقوب ابنه هذا عناية أكثر.

إلا أن الإخوة الحساد - دون أن يلتفتوا إلى هذه الجهات - تألموا من حبّ أبيهم ليوسف وأخيه، وخاصة بعد اختلافهم في الأم والمنافسة الطبيعية المترتبة على هذا الأمر. لهذا اجتمعوا فيما بينهم وتدارسوا الأمر وصمموا على المؤامرة ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَمَا مِينَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾.

وحكموا على أبيهم من جانب واحد بقولهم: ﴿إِنْ أَبَانَا لَيْسَ ضَلِيلٌ مُّبِينٌ﴾. وبالطبع فإن اتهامهم لأبيهم بالضلالة، لم يكن المقصود منها الضلالة الدينية، لأن الآيات الآتية تكشف عن اعتقادهم بنبوّة أبيهم، وإنما استنكروا طريقة معاشرته فحسب.

ثم أدّى بهم الحسد إلى أن يخططوا لهذا الأمر، فاجتمعوا وقدموا مقترحين وقالوا: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا - أَرْسَلُوهُ إِلَىٰ مَنْطِقَةٍ بَعِيدَةٍ - يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾.

ومن الحق أن تشعروا بالذنب والحجل في وجدانكم لأنكم تقدمون على هذه الجناية في حق أخيكم الصغير، ولكن يمكن أن تتوبوا وتغسلوا الذنب ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾.

إنّ هذه الجملة تدلّ على إحساسهم بالذنب من هذا العمل، وكانوا يخافون الله في أعماق قلوبهم، ولذلك قالوا: نتوب ونكون من بعده قوماً صالحين.

ولكن المسألة المهمة هنا هي أنّ الحديث عن التوبة قبل الجريمة - في الواقع - هو لأجل خداع «الوجدان» وإغرائه وفتح الباب للدخول إلى الذنب، فلا يعدّ دليلاً على الندم أبداً. ولكن كان من بين الأخوة من هو أكثر ذكاءً وأرق عاطفة ووجداناً، لأنه لم يرض بقتل

يوسف أو إرساله إلى البقاع البعيدة التي يُخشى عليه من الهلاك فيها... فاقترح عليهم اقتراحاً ثالثاً، وهو أن يلقى في البئر (بشكل لا يصيبه مكروه) لتمرّ قافلة فتأخذه معها، ويغيب عن وجه أبيه ووجوههم، حيث تقول الآية في هذا الصدد: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَعْتَلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾. «الجُبُّ»: معناه «البئر» التي لم تتصدّ بالطابوق والصخور، ولعلّ أغلب آبار الصحراء على هذه الشاكلة.

يستفاد من جملة ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أنّ القائل لم يكن يرغب - أساساً - حتى بهذا الاقتراح ولعله كان لا يوافقهم على إيذاء يوسف أصلاً.

أثر الحسد المدمّر في حياة الناس: الدرس الآخر الذي نتعلّمه من هذه القصة، وهو أنّ الحسد يمكن أن يدفع الإنسان حتى إلى قتل أخيه، أو إيجاد المشاكل له، فنار الحسد إذا لم يمكن إخمادها فإنّها ستحرق صاحبها بالإضافة إلى إحراق الآخرين بها. ولهذا نجد في الأحاديث الإسلامية تعابير مؤثرة تدعو إلى مكافحة هذه الرذيلة، وعلى سبيل المثال نورد منها ما يلي:

١- في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله قال الله عزّ وجلّ لموسى بن عمران عليه السلام: يا بن عمران لا تحسدنّ الناس على ما آتيتهم من فضلي ولا تمدنّ عينيك إلى ذلك ولا تتبعه نفسك فإنّ العاسد ساخط لتعني صنادق لقسامي الذي قسمت بين عبادي، ومن يك كذلك فلست منه وليس منّي».

٢- وفي الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «آفة الدين الحسد والعجب والفخر». كما نقرأ له حديثاً يقول: «إنّ المؤمن يغبط ولا يحسد، والمنافق يحسد ولا يغبط».

كما نستنتج درساً آخر من هذا المقطع في القصة، وهو أنّ الوالدين ينبغي أن يلاحظا أبناءها الآخرين عند إبراز عنايتهم ومحبتهم لواحد منهم، لأنّ إبراز العلاقة لبعض الأبناء دون بعض توجد عقدة في نفوس الآخرين، إلى درجة أنّها تجرّهم إلى كل عمل مخرب، حيث يجدون شخصياتهم منهزمة ولا بدّ من تحطيم شخصية أخيهم للتعويض عن هذه الهزيمة، فيكون الإقدام على هذا العمل دون لحاظ الرحمة ووشائج القرى.

وإذا لم يستطع الإنسان أن يقوم بعمل معاكس، فإنّه يظلّ يلوم نفسه ويحرضها حتى يبتلى بالمرض النفسي.

وفي هذا الصدد نقرأ في الروايات الإسلامية أنّ الإمام الباقر عليه السلام قال يوماً: «والله إنّي

لأصانع بعض ولدي، وأجلسته على فخذي، وأفكر له في الملح، وأكثر له الشكر، وإن الحق لغيره من ولدي، ولكن مخافة عليه منه ومن غيره، لثلا يصنعوا به ما فعلوا بيوسف إخوته، وما أنزل الله سورة يوسف إلا أمثالاً لكيلا يحسد بعضنا بعضاً كما حسد يوسف إخوته، وبغوا عليه، فجعلها حجة ورحمة على من تولانا، ودان بعبئنا وحجة على أعدائنا ومن نصب لنا الحرب»^١.

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِيحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَا غَدَا
يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ
أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ
عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَيْرُونَ ﴿١٤﴾

المؤامرة المشؤومة: بعد أن صوّب إخوة يوسف إقتراح أخيه في عدم قتل يوسف، وإلقائه في الحب، أخذوا يفكرون في كيفية فصل يوسف عن أبيه، لذلك أقدموا على تخطيط آخر، فجاؤوا إلى أبيهم بلسان لين يدعو إلى الترحم، وفي شكل يتظاهرون به أنهم مخلصون له وحدثوا أباهم و﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِيحُونَ﴾.

تعال يا أبانا وارفع اليد عن اتهامنا، فإنه أخونا وما يزال صبيّاً وبحاجة إلى اللهو واللعب، وليس من الصحيح حبسه عندك في البيت، فخلّ سبيله ﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ﴾^٢. وإذا كنت تخشى عليه من سوء فنحن نواظب على حمايته ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

ولكن يعقوب - دون أن يتهم إخوة يوسف بسوء القصد - أظهر تردده في إرسال يوسف لأمرين: الأول: أنه سيبتعد عنه فيحزن عليه، والثاني: ربّما يوجد خارج المدينة بعض الذئاب المفترسة فتأكله، فاعتذر إليهم و﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾.

وبديهي أن الإخوة لم يكن لهم جواب بالنسبة للأمر الأول الذي أشار إليه أبوهم يعقوب، لأنّ الحزن والإغتمام على فراق يوسف لم يكن شيئاً عادياً حتى يعوّض عنه، وربّما كان هذا التعبير مثيراً لنار الحسد في إخوة يوسف أكثر.

١. وسائل الشريعة ١٣/٣٤٤/٢٤٥١٦.

٢. «يرتع»: من مادة «رتع» على وزن «قطع» ومعناه في الأصل رعي الأغنام والأنعام بصورة عامة للنباتات وشبهاً منها، ولكن قد يطلق هذا اللفظ (رتع، يرتع) ويراد به تنزه الإنسان وكثرة الأكل والشرب أيضاً.

ومن جهة أخرى فإنّ هذا الموضوع الذي أشار إليه يعقوب، وهو حزنه على ابتعاد يوسف عنه يمكن رده، وهو لا يحتاج إلى بيان، لأنّ الولد لا بدّ له من الابتعاد عن أبيه من أجل أن ينمو ويرشد.

لذلك فإنهم لم يجيبوه عن الشقّ الأوّل من كلامه، بل أجابوه عن الشقّ الثاني لأنّه كان مهماً وأساسياً بالنسبة لهم إذ ﴿قَالُوا لَئِن أَكَلْنَا الذَّيْبَ وَنَعْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾. أي: أترانا موتى فلا ندافع عن أختينا، بل نتفرج على الذئب كيف يأكله.

وعلى كل حال فقد استطاع إخوة يوسف بما أوتوا من الحيل، وبتحريك أحاسيس يوسف النقية وترغيبه إلى التنزه خارج المدينة، استطاعوا أن يأخذوا يوسف معهم وأن يستسلم الأب لهذا الأمر فيوافق على طلبهم.

ومن الطريف أنّه كما أنّ إخوة يوسف استغلّوا علاقة الإنسان - ولا سيما الشاب - بالتنزه واللعب من أجل الوصول إلى هدفهم الغادر... في حياتنا المعاصرة - أيضاً - نجد أعداء الحق والعدالة يستغلّون مسألة الرياضة واللعب في سبيل تلوّث أفكار الشباب، فينبغي أن نحذر المستكبرين «الذئاب» الذين يخططون لاضلال الشباب وحرفهم عن رسالتهم تحت اسم الرياضة والمسابقات المحليّة والعالميّة.

مركزية تكوير علوم

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِرُءُوسِهِمْ فَنَسُوا مَا كُنُوا فِيهَا فاجتمعوا أن يجعلوه في غيبّ الجبّ وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴿١٥﴾ وجاء وأباهم عشاءً يبكون ﴿١٦﴾ قالوا يا بانا إننا ذاهبون نسيتك وتركنا يوسف عند متعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صدّيقين ﴿١٧﴾ وجاء وعلى قميصه يدمر كذب قال بل سؤلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴿١٨﴾

الكذب المفضوح: وأخيراً إنتصر إخوة يوسف وأقنعوا أباهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف، فباتوا ليلتهم مطمئني البال بانتظار الصبح لتنفيذ خطتهم وإزاحة أخاهم الذي يقف عائقاً في طريقهم... وكان قلقهم الوحيد أن يندم أبوهم ويسحب كلامه ووعده بإرسال يوسف معهم. فجاؤوا صباحاً إلى أبيهم فأمرهم بالمحافظة على يوسف، وكرر توصياته في شأنه، فأظهر الأبناء طاعتهم لأبيهم وأبدوا احترامهم الفائق ومحبتهم العميقة، وتحركوا إلى

خارج المدينة.

يقال: إن أباهم ودعهم إلى بوابة المدينة ثم أخذ منهم يوسف وضمه إلى صدره ودمعت عيناه، ثم أودع يوسف عندهم وفارقهم، ولكن يعقوب كان يودعهم بنظراته، وكان إخوة يوسف لا يقصرون عن مداراة أخيه يوسف وإظهار عنايتهم به ومحبتهم له طالما كانت تلاحظهم عينا أبيهم، ولكن ما أن غاب عنهم أبوهم واطمأنوا إلى أنه لا يراهم، حتى انفجرت عقدتهم وصبوا «جام غضبهم» وحقدهم وحسدتهم المتراكم لعدة سنوات على رأس يوسف، فالتفتوا حوله يضربونه بأيديهم ويلتجىء من واحد لآخر ويستجير بهم فلا يجيره أحد منهم.

نقرأ في رواية أن يوسف كان يبكي تحت وابل اللكمات والضربات القاسية، ولكن حين أرادوا أن يلقوه في الجبّ شرع بالضحك فجأة... فتعجب إخوته كثيراً وحسبوا أن أخاهم يظنّ الأمر لا يعدو كونه مزاحاً... ولكنه رفع الستار عن ضحكه وعلمهم درساً كبيراً إذ قال: لا أنسى أنني نظرت - أيها الإخوة - إلى عضلات أيديكم القوية وقواكم الجسدية المخارقة، فسرت وقلت في نفسي: ما عسى أن يخشى ويخاف من الحوادث والملمات من كان عنده مثل هؤلاء الإخوة، فاعتمدت عليكم وربطت قلبي بقواكم، والآن وقد أصبحت أسيراً بين أيديكم وأستجير بكم من واحد للآخر فلا أجار، وقد سلطكم الله عليّ لأتعلم هذا الدرس، وهو ألا أتعتمد وأتوكل على أحد سواه... حتى ولو كانوا إخواني.

وعلى كل حال فالقرآن الكريم يقول في هذا الصدد: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ﴾.

ثم تبين الآية أن الله أوحى إلى يوسف وهداً روعه وأهمه ألا يحزن فالعاقبة له، إذ تقول: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وهذا الوحي الإلهي لم يكن وحي النبوة، بقريئة الآية (٢٢) من السورة ذاتها، بل كان إلهاماً لقلب يوسف ليعلم أنه ليس وحيداً، بل له حافظ ورقيب، وهذا الوحي بثّ في قلب يوسف نور الأمل وأزال عن روحه ظلمات اليأس والحيرة.

لقد نفذ إخوة يوسف خطتهم كما أردوا، ولكن ينبغي أن يفكروا عند العودة كيف كي يصدّق أبوهم أن يوسف إنتهى بصورة طبيعية.

وكانت الفكرة التي أوصلتهم إلى هذا الهدف هي ما تخوّف أبوهم منه، فأقنعوه - ظاهراً -

عن هذا الطريق مدعين بأن الذئب قد أكل يوسف وجاؤوا إليه بدلائل مزيفة!
يقول القرآن الكريم: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ بكاءً كاذباً، وهذا يدل على أن
البكاء الكاذب ممكن... ولا يمكن أن يُخدع العاقل ببكاء العين وحدها.

أما الأب الذي كان ينتظر مجيء ولده (يوسف) بفارغ الصبر، فقد اهتزّ وارتجف حين
رأى الجمع وليس بينهم يوسف، وسأل عنه مستفسراً... فأجابوه ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا
نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا﴾ لصغر سنه ولأنه لا يعرف التسابق، وانشغلنا عنه
﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾.

ومن أجل أن يبرهنوا على صحة كلامهم فقد ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾. إذ لطفوا
الثوب بدم الغزال أو الخروف أو التيس...

ولكن حيث إن الكاذب لا يمتلك حافظة قوية، فقد غفل إخوة يوسف عن هذه المسألة
الدقيقة... وهي - على الأقل - أن يخرقوا قميص يوسف الملطخ بالدم ليبدل على هجوم
الذئب... فقد قدموا القميص سالماً غير مخرق فأحس الأب بمؤامرتهم، فما إن وقعت عيناه
على القميص حتى فهم كل شيء و﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾.

في تفسير القرطبي عن ابن عباس: إنهم أخذوا ظيباً فذبحوه فطلخوا بدمه القميص ولما
جاؤوا به جعل يقلبه فيقول: «ما أرى أثر ناب ولا ظفر إن هذا السبع رحيم». وفي رواية أنه
أخذ القميص وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص، وقال: «تالله ما
رأيت كالיום ذئباً أحلم من هذا، أكل إبني ولم يمزق عليه قميصه». وجاء أنه بكى وصاح وخرّ
مغشياً عليه فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك ونادوه فلم يجب ووضع يهودا يده على مخارج
نفسه فلم يحس بنفس ولا تحرك له عرق، فقال: ويل لنا من ديان يوم الدين، ضيعنا أخانا
وقتلنا أبانا فلم يبق إلا ببرد السحر.

وبالرغم من احتراق قلبه وهيب روحه لم يجبر على لسانه ما يدل على عدم الشكر أو
اليأس أو الفزع أو الجزع، بل قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾. ثم قال: ﴿وَأَلَلَّهُ أَلَمُسْتَعَانُ عَلَى مَا
تَصِفُونَ﴾ وأسأله أن يبذل مرارة الصبر في في إلى «حلاوة» ويرزقني القوة والقدرة على
التحمل أكثر أمام هذا الطوفان العظيم، لئلا أفقد زمامي ويجري على لساني كلام غير لائق.

ملاحظتان

١- حول الترك الأولى: في تفسير البرهان عن الثمالي قال: صليت مع علي بن

الحسين عليه السلام الفجر بالمدينة يوم الجمعة فلما فرغ من صلاته وسُبحته نهض إلى منزله وأنا معه، فدعا مولاة له تسمى سكينه فقال لها: «لا يعثر على بابي سائل إلا أطمعتموه فإن اليوم يوم الجمعة».

قلت له: ليس كل من يسأل مستحقاً؟ فقال: «يا ثابت، أخاف أن يكون بعض من يسألنا محقاً فلا نطعمه ونردّه فينزل بنا - أهل البيت - ما نزل بيعقوب وآله. أطمعهم أطمعهم. إن يعقوب كان يذبح كل يوم كبشاً فيتصدق منه ويأكل هو وعياله منه، وإن سائلاً مؤمناً صواماً محقاً له عند الله منزلة، وكان مجتازاً غربياً اعتر على باب يعقوب عشية جمعة عند أوان إفطاره يهتف على بابه: أطمعوا السائل المجتاز الغريب الجائع من فضل طعامكم. يهتف بذلك على بابه مراراً وهم يسمعون، قد جهلوا حقّه ولم يصدقوا قوله، فلما أيس أن يطعموه وغشيه الليل استرجع واستعبر وشكا جوعه إلى الله عزّ وجلّ وبات طاوياً، وأصبح صائماً جائعاً صابراً حامداً لله تعالى، وبات يعقوب وآل يعقوب شباعاً بطاناً وأصبحوا وعندهم فضل من طعامهم».

قال: «فأوحى الله عزّ وجلّ إلى يعقوب في صبيحة تلك الليلة: لقد أذلت - يا يعقوب - عبدي ذلة استجرت بها غضبي، واستوجبت بها أذي، ونزول عقوبتي وبلواي عليك وعلى ولدك. يا يعقوب، إن أحبّ أنبيائي إليّ وأكرمهم عليّ من رحم مساكين عبادي وقربهم اليه وأطعمهم، وكان لهم مأوى وملجأ. يا يعقوب، أما رحمت ذميال عبدي المجتهد في عبادته، القانع باليسير من ظاهر الدنيا عشاء أمس، لما اعتر ببابك عند أوان إفطاره وهتف بكم: أطمعوا السائل الغريب المجتاز القانع. فلم تطعموه شيئاً، فاسترجع واستعبر وشكا ما به إليّ وبات طاوياً حامداً لي وأصبح لي صائماً، وأنت - يا يعقوب - وولدك شباع، وأصبحت وعندكم فضل من طعامكم.

أوما علمت - يا يعقوب - أن العقوبة والبلوى إلى أوليائي أسرع منها إلى أعدائي؟»

فقلت لعليّ بن الحسين عليه السلام: جعلت فداك، متى رأى يوسف الرؤيا؟ فقال: «في تلك الليلة التي بات فيها يعقوب وآل يعقوب شباعاً...».

يستفاد من هذا الحديث أن زلة بسيطة أو بعبارة أدق: «ترك الأولى» وهو لا يعدّ خطيئة أو إثماً، لأنّ يعقوب لم يتضح له حال السائل... هذا الترك من قبل الأنبياء والأولياء يكون سبباً لأن يتلهم الله بلاءً شديداً... وما ذلك إلا لمقامهم الكبير الذي يوجب عليهم أن يراقبوا كل حركاتهم وسكناتهم، لأنّ «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

٢- دعاء يوسف عليه السلام الصادق عليه السلام قال: لما طرح إخوة يوسف في الحبّ أتاه جبرئيل عليه السلام فدخل عليه فقال: يا غلام ما تصنع هنا؟ فقال: إن إخوتي

القوني في الحب. قال: فتحب أن تخرج منه؟ قال: ذاك إلى الله عز وجل، إن شاء أخرجني. قال: فقال له: إن الله ادعني بهذا الدعاء حتى أخرجك من الحب فقال له: وما الدعاء؟ فقال: قل: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المَنَّان، بديع السماوات والأرض، ذو الجلال والإكرام، أن تصلي على محمد وآل محمد وأن تجعل لي ممّا أنا فيه فرجاً ومخرجاً».

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ، قَالَ يَبْشُرِي هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَ
كَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾

نعو أرض مصر، قضى يوسف في ظلمة الحب الموحشة والوحدة القاتلة ساعات مرّة، ولكنه بإيمانه بالله وسكينته المنبثقة عن الإيمان شع في قلبه نور الأمل، وألهمه الله تعالى القوة والقدرة على تحمل الوحدة الموحشة، وأن ينجح في هذا الإمتحان.

ولكن... الله أعلم كم يوماً قضى يوسف في هذه الحالة؟

قال بعض المفسرين: قضى ثلاثة أيام، وقال آخرون: يومين.

وعلى كل حال تبلج النور ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾.

وانتخبت منزلها على مقربة من الحب، وطبيعي أن أول ما تفكر القافلة فيه - في منزلها الجديد - هو تأمين الماء وسد حاجتها منه ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾.

فانتبه يوسف إلى صوت وحركة من أعلى البئر، ثم رأى الحبل والدلو يسرعان إلى النزول، فانتهاز الفرصة وانتفع من هذا العطاء الإلهي وتعلق بالحبل بوثوق.

فأحسّ المأمور بالإتيان بالماء أن الدلو قد ثقل أكثر مما ينبغي، فلما سحبه بقوة إلى الأعلى فوجيء نظره بغلام كأنه فلقة قمر، فصرخ وقال: ﴿يَا بَشْرِي هَذَا غُلْمٌ﴾.

وشيئاً فشيئاً سرى خبر يوسف بين جماعة من أهل القافلة، ولكن من أجل أن لا يذاع هذا الخبر وينتشر، ولكي يمكن بيع هذا الغلام الجميل في مصر، أخفوه ﴿وَأَسْرُوهُ بَضَاعَةً﴾^١. وقالوا: هذا متاع لأصحاب هذا الحب أودعوه عندنا لنبيعه في مصر.

وتقول الآية في نهايتها: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾. والذين شروا يوسف بثمن بخس،

١. «البضاعة»: في الأصل من مادة «بضع» على وزن «نذر» ومعناها: القطعة من اللحم، ثم توسعوا في المعنى وأطلقوا هذا اللفظ على القطعة المهمة من المال. (راجع المفردات للراغب).

هو من كان في القافلة.

وباعوا يوسف بثمن قليل، أو كما عبر عنه القرآن: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾.

ولكن هذا أمر مألوف فإن السراق أو أولئك الذين تأتيتهم بضاعة مهمة دون أي تعب ونصب يبيعونها سريعاً لنلا يطلع الآخرون.

ومن الطبيعي أنهم لا يستطيعون بهذه الفورية أن يبيعوه بسعر غال.

«البخس»: في الأصل معناه تقليل قيمة الشيء ظلماً.

وتقول الآية في نهايتها: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾.

وهذا البيع البخس إما لأن أهل القافلة اشتروا يوسف بثمن بخس، أو إنهم كانوا يخافون أن يفتضح سرهم ويجدون من يدعيه.

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ
وَلَدًا ۖ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ
وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ۖ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ
ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۖ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

في قصر عزيز مصر: انتهت حكاية يوسف مع إخوته الذين ألقوه في غيابة الحب وبينهاها تفصيلاً، بدأ فصل جديد من حياة هذا الغلام الحدث في مصر... فقد جيء بيوسف إلى مصر وعرض للبيع، ولما كان تحفة نفيسة فقد صار من نصيب «عزيز مصر» الذي كان وزيراً لفرعون أو رئيساً لوزرائه. يقول القرآن الكريم في شأن يوسف: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾^١. فلا ينبغي أن ننظري إليه كما ينظر إلى العبيد.

يستفاد من سياق الآية أن عزيز مصر لم يرزق ولداً وكان في غاية الشوق للولد، وحين وقعت عيناه على هذا الصبي الجميل والسعيد تعلق قلبه به ليكون مكان ولده.

ثم يضيف القرآن الكريم: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾.

١. «المثوى»: من مادة (ثوى) ومعناه المقام، ولكن معناه هنا الموقعية والمنزلة والمقام كذلك.

هذا «التمكين» في الأرض إما أن يكون لمجيب يوسف إلى مصر، وخاصة أن خطواته في محيط مصر مقدمة لما سيكون عليه من الإقتدار والمكانة القصوى، وإما أنه لا قياس، بين هذه الحياة في مصر «العزیز».

ويضيف القرآن أيضاً: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

والمراد من «تأويل الأحاديث» - كما أشرنا سابقاً - هو علم تفسير الأحلام وتعبير الرؤيا حيث كان يوسف قادراً على أن يطلع على بعض أسرار المستقبل من خلاله. ثم يختتم القرآن هذه الآية بالقول: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

لقد واجه يوسف في هذا المحيط الجديد، الذي يعدّ واحداً من المراكز السياسية المهمة في مصر مسائل مستحدثة... فمن جهة كان يرى قصور الطغاة المدهشة وثرواتهم ومن جهة أخرى كانت تتجسد في ذهنه صورة أسواق النخاسين وبيع الممالك والعبيد ومن خلال الموازنة بين هاتين الصورتين كان يفكر في كيفية القضاء على هموم المستضعفين من الناس لو أصبح مقتدرًا على ذلك.

فاشتغل بتهديب نفسه وبنائها، يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ مَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

«أشد»: من مادة «شد» وهي هنا إشارة إلى الإبتحكام الجسماني والروحاني.

والمراد من «الحكم» و«العلم» الواردين في الآية المتقدمة التي تقول: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ مَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ إما أن يكون مقام النبوة، وإما أن يكون المراد من الحكم العقل والفهم والقدرة على القضاء الصحيح الخالي من اتباع الهوى والإشتباه، والمراد من العلم الإطلاع الذي لا يقترن معه الجهل، ومهما كان فإن الحكم والعلم موهبتان نادرتان وهبها الله ليوسف لتقواه وصبره وتوكله عليه.

فإنه ليس مستبعداً أن يهب الله سبحانه لعباده المخلصين المنتصرين في ميادين «جهاد النفس للهوى والشهوات» مواهب من المعارف والعلوم التي لا تقاس بأي معيار مادي.

وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ، وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ

بِهِ، وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ

إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾

العشق الملتهم: لم يأسر جمال يوسف الملكوتي عزيز مصر فحسب، بل أسر قلب امرأة العزيز كذلك وأصبح متيماً بجمالها. وامتدّت مخالب العشق إلى أعماق قلبها، وبمرور الزمن كان هذا العشق يتجذّر يوماً بعد يوم ويزداد إشتعاًلاً... لكنّ يوسف هذا الشاب الظاهر التقى، لم يفكر بغير الله، ولم يتعلق قلبه بغير عشق الله سبحانه.

وهناك أمور أخرى زادت من عشق امرأة العزيز ليوسف... فمن جهة لم تُرزق الولد، ومن جهة أخرى إنغمارها في حياة مترفة مفعمة بالبذخ... ومن جهة ثالثة عدم إبتلائها بأي نوع من البلاء كما هي حال المتنعمين، وعدم الرقابة الشديدة على هذا القصر من قبل العزيز من جهة رابعة... كل ذلك ترك امرأة العزيز - الفارغة من الإيمان والتقوى - تهوي في وساوسها الشيطانية إلى المحضيض، بحيث أفضت ليوسف أخيراً عمياً في قلبها وراودته عن نفسه.

واتبعت جميع الأساليب والطرق للوصول إلى هدفها، وسعت لكي تلقي في قلبه أثراً من هواها وترغيبها وطلبها، كما يقول عن ذلك القرآن الكريم: ﴿وَرَاودَتْهُ أَلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾. وجملة «راودته»: مأخوذة من مادة «المراودة» وأصلها البحث عن المرتع والمرعى، ثم توسّعا في هذا اللفظ فأطلق على كل ما يُطلب بالمداواة والملاءمة.

وهذا التعبير يشير إلى أنّ امرأة العزيز طلبت من يوسف أن ينال منها بطريق المسالمة والمساومة وبدون أي تهديد، وأبدت محبتها القسوى له بمنتهى اللين.

وأخيراً فكّرت في أن تخلو به وتوفّر له جميع ما يثير غريزته، من ثياب فضفاضة، وعبور عبقة شذية، وتجميلات مرغوبة، حتى تستولي على يوسف وتأسره.

يقول القرآن الكريم: ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾.

«علقت»: تدل على المبالغة وأنها أحكمت غلق الأبواب.

وفي هذه الحال، حين رأى يوسف أنّ هذه الأمور تجري نحو الإثم، ولم ير طريقاً لخلاصه منها، توجه يوسف إلى زليخا و﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾. وبهذا الكلام رفض يوسف طلب امرأة العزيز غير المشروع. وبهذه الجملة اعترف يوسف بوحدانية الله تعالى من الناحية النظرية، وكذلك من الناحية العملية أيضاً، ثم أضاف: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾... أليس التسجّور ظلماً وخيانة واضحة ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

وهنا يبلغ أمر يوسف وامرأة العزيز إلى أدقّ مرحلة وأخطرها، حيث يعبر القرآن عنه

تعبيراً ذا مغزى كبير ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا بُرْهَنَ رَبَّهُ﴾.

إنّ امرأة العزيز كانت تريد أن تقضي وطراً مع يوسف، وبذلت وسعها في ذلك، وكاد يوسف يستجيب لرغبتها بطبيعة كونه بشراً شاباً لم يتزوج ويرى نفسه إزاء المشيرات الجنسية وجهاً لوجه... لولا أن رأى برهان الله... أي روح الإيمان والتقوى وتربية النفس، أضف إلى كل ذلك مقام العصمة الذي كان حائلاً دون هذا العمل.

الطريف أنّ هذا التفسير نقل عن الإمام الرضا عليه السلام في عيون الأخبار للصدوق عليه السلام باسناده إلى علي بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام فقال له المأمون: يا بن رسول الله أليس من قولك: أنّ الأنبياء معصومون؟ قال: «بلى». قال المأمون: فما معنى قول الله عزّ وجلّ إلى أن قال: فأخبرني عن قول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾. فقال الرضا عليه السلام: «لقد همت به، ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها كما همت به، لكنّه كان معصوماً والمعصوم لا يهّم بذنب ولا يأتيه». فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن.

والآن لتوجّه إلى تفسير بقية الآية إذ يقول القرآن المجيد: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾. وهي إشارة إلى أنّ هذا الإمداد الغيبي والإعانة المعنوية لإنقاذ يوسف من السوء والفحشاء من قبل الله لم يكن إعتباطاً، فقد كان عبداً عارفاً مؤمناً ورعاً ذا عمل صالح طهر قلبه من الشرك وظلماته.

وبيان هذا الأمر يدل على أنّ مثل هذه الإمدادات الغيبيّة، في لحظات الشدة والأزمة التي تدرك الأنبياء - كيوسف مثلاً - غير مخصوصة بهم، فإنّ كل من كان في زمرة عباد الله الصالحين المخلصين فهو جدير بهذه المواهب أيضاً.

العفة والتمتانة في البيان: من عجائب القرآن وواحدة من أدلّة الإعجاز، أنّه لا يوجد في تعبيره ركة وإبتذال وعدم العفة وما إلى ذلك، كما أنّه لا يتناسب مع أسلوب الفرد العادي الأمّي الذي تربّى في محيط الجاهليّة، مع أنّ حديث كل أحد يتناسب مع محيطه وأفكاره. وبين جميع قصص القرآن وأحداثه التي ينقلها توجد قصة غرام وعشق واقعية، وهي قصة (يوسف وامرأة عزيز مصر).

قصة تتحدّث عن عشق امرأة جميلة والهة ذات أهواء جامحة لشاب جميل طاهر القلب. ولكن القرآن يمزج في رسم هذه الميادين الحسّاسة من هذه القصة - بأسلوب معجب - الدقة في البيان مع التمتانة والعفة، دون أن يغض الطرف عن ذكر الوقائع، أو أن يظهر العجز، وقد استعمل جميع الأصول الأخلاقية والأمر الخاصة بالعفة.

وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَتْ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَتْ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾

فضيحة امرأة العزيز: المقاومة الشديدة التي أبدتها يوسف جعلت امرأة العزيز آيسة منه تقريباً... ولكن يوسف الذي إنتصر في هذا الدور على تلك المرأة المعاندة أحس أن بقاءه في بيتها - في هذا المزلق الخطر - غير صالح، وينبغي أن يتعد عنه، ولذلك أسرع نحو باب القصر ليفتحه ويخرج، ولم تقف امرأة العزيز مكتوفة الأيدي، بل أسرعت خلفه لتمنعه من الخروج، وسحبت قميصه من خلفه فقدته ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾. «الإستباق»: في

اللغة هو المسابقة بين شخصين أو أكثر. *مختصر الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل*

و«قد»: بمعنى مَرَّقَ طولاً، كما أن «قط» بمعنى مَرَّقَ عرضاً.

فقد أوصل يوسف نفسه نحو الباب وفتحها فرأيا «يوسف وامرأة العزيز» عزيز مصر خلف الباب فجأة. يقول القرآن الكريم: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾. والتعبير عن الزوج بـ«السيد» كان طبقاً للعرف السائد في مصر، حيث كانت تخاطب المرأة زوجها بالسيد.

في هذه اللحظة التي رأت امرأة العزيز نفسها على أبواب الفضيحة من جهة، وشعلة الإنتقام تتأجج في داخلها من جهة أخرى، كان أول شيء توجهت إليه أن تخاطب زوجها متظاهرة بمظهر الحق متهمة يوسف إذ ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ولكن يوسف أدرك أن السكوت هنا غير جائز... فأماط اللثام عن عشق امرأة العزيز

﴿قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾.

وطبيعي أن مثل هذا الحادث من العسير تصديقه في البداية، أي إن شاباً يافعاً غير متزوج لا يُعدّ آثماً، ولكن امرأة متزوجة ذات مكانة اجتماعية - ظاهراً - آثمة! فلذلك كانت أصابع الاتهام تشير إلى يوسف أكثر من امرأة العزيز.

ولكن حيث إن الله حامي الصالحين والمخلصين فلا يرضى أن يحترق هذا الشاب المجاهد بشعلة الاتهام، لذلك يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ قِبَلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ فَكَلَبْتُمْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. أما عزيز مصر فقد قبل هذا الحكم الدقيق، وتحوّل في قميص يوسف ذاهلاً: ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِّنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

في هذه الحال، ولخوف عزيز مصر من إنتشار خبر هذا الحادث المؤسف على الملأ، فتسقط منزلته وكرامته في مصر رأى أن من الصلاح كتمان القضية، فالتفت إلى يوسف وقال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَن هَذَا﴾. أي: أكتم هذا الأمر ولا تخبر به أحداً... ثم التفت إلى امرأته وقال: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾. الشاهد الذي ختم «ملفّ يوسف وامرأة العزيز» بسرعة، هو أحد أقارب امرأة العزيز، وكلمة «من أهلها» دليل على ذلك، وعلى القاعدة فهو رجل حكيم وعارف ذكي ويقال: إن هذا الرجل كان من مشاوري عزيز مصر وكان معه.

حماية الله في الأزمات: الدرس الكبير الآخر الذي نتعلّمه من قصة يوسف، هو حماية الله ورعايته للإنسان الأكيدة في أشدّ الحالات، وبمقتضى قوله: ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾. فن جهة كان يوسف لا يُصدّق أبداً أن نافذة من الأمل ستفتح له، ويكون قدّ القميص سنداً للطهارة والبراءة، ذلك القميص الذي يصنع الحوادث، فيوماً يفضح إخوة يوسف لأنهم جاؤوا أباهم وهو غير ممزّق، ويوماً يفضح امرأة العزيز لأنه قدّ من دُبُرٍ، ويوماً آخر يهب البصر والنور ليعقوب، وريحه المعروف يسافر مع نسيم الصباح من مصر إلى أرض كنعان ويبشّر العجوز «الكنعاني» بقدوم موكب البشير.

إنّ الله لطافاً خفية لا يسبر غورها أحد، وحين يهبّ نسيم هذه الألفاظ تتغير الأسباب والمسببات بشكل لا يمكن حتى لأذكي الأفراد أن يتنبأ عنها.

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ۗ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا
 إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ
 مُتَّكِفًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّارَأَيْتَهُنَّ أَكْبَرْتَهُنَّ وَقَطَّعْنَ
 أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي
 لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنِ نَفْسِهِ ۗ فَأَسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَاءٌ أَمْرَةٌ لَّيُسْجَنَنَّ وَ
 لَيَكُونَأَمِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ
 عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ
 إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

مؤامرة أخرى: بالرغم من أن عشق امرأة العزيز - المذكور آنفاً - كان مسألة خصوصية بحيث أكد حتى العزيز على كتمانها، ولكن حيث إن هذه الأسرار لا تبقى خافية، ولا سيما في قصور الملوك وأصحاب المال والقوة - التي في حيطانها آذان صاغية - فسوف تتسرّب إلى خارج القصر كما يقول القرآن في هذا الشأن: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ . ثم لُمّتها وعتفها بهذه الجملة: ﴿ إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ . وواضح أن المتحدث بمثل هذا الكلام كنّ نساء أشرف مصر.

لم يكن فساد هؤلاء النسوة بأقلّ من امرأة العزيز ولكن أيديهن لم تصل إلى يوسف، فكنّ يرين امرأة العزيز بسبب هذا العشق في ضلال مبين.

«الشغف»: من مادة «الشغاف» ومعناه أعلى القلب أو الغشاء الرقيق المحيط بالقلب، وشغفها حباً معناه أنها تعلّقت به إلى درجة بحيث نفذ حبه إلى قلبها واستقر في أعماقه.

أما امرأة العزيز فقد وصلها ما دار بين النسوة من إفتضاحها ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِفًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ .

هذا العمل دليل على أن امرأة العزيز لم تكن تكترث بزوجها، ولم تأخذ الدرس من فضيحتها، ثم أمرت يوسف أن يتخطى في المجلس ﴿ وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ .

نساء مصر - وطبقاً لبعض الروايات التي تقول: كنّ عشرًا... أو أكثر - فوجئن بظهور

يوسف كأنه البدر أو الشمس الطالعة، فتحيرن من جماله ﴿فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أُكْبِرْتُهُ﴾ وفقدن أنفسهن ﴿وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ مكان الفاكهة، وحين وجدن الحياء والعفة تشرقان من عينيه وقد احمر وجهه خجلاً صحن جميعاً و﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾. وفي هذه الحال التي كانت الدماء تسيل من أيدي النسوة وقد لاحظن ملاح يوسف كلها وصرن أمامه «كالخشب المسندة» كشفن عن أنهن لسن بأقل من امرأة العزيز عشقاً ليوسف، فاستغلت امرأة العزيز هذه الفرصة ف﴿قَالَتْ فَلْيَكُنْ أَلِيًّا لَفَتْنِي فِيهِ﴾.

وهكذا أحسّت امرأة العزيز بالغرور لأنها وفقت في ما ألقته من فكرة وأعطت لنفسها العذر، وإعترفت بكل صراحة بكل ما فعلت وقالت: ﴿وَلَقَدْ زَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾. وبدلاً من أن تظهر الندم على كلامها أو تتحفظ على الأقل أمام ضيوفها، أردفت القول بكل جدّ يحكي عن إرادتها القطعية: ﴿وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُوا لَيُسْجَنَنَّ﴾... ولا أكتفي بسجنه، بل ﴿وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاعِقِينَ﴾.

ينقل البعض روايات عجيبة مؤداها أن بعضاً من نسوة مصر أعطين الحق لامرأة العزيز ودرن حول يوسف ليرغبه بأن يستسلم لحبها وكل واحدة تكلمت بكلام. فقالت واحدة: أيها الشاب ما هذا الصبر والدلال، ولم لا ترحم هذه العاشقة الواهبة قلبها لك، ألا ترى هذا الجمال الأسر؟ أليس عندك قلب؟ أألسنت شاباً؟ ألا تستلذ بالعشق. وقالت الثانية: إذا كنت لا ترغب في جماها المثير ولا تحتاج إلى مقامها وماها، ولكن ألا تعرف أنها ستنتقم لنفسها بما أوتيت من وسائل الانتقام الخطرة.

تهديد امرأة العزيز من جانبها بالسجن من جهة، ووساوس النسوة من جهة أخرى، أوقعا يوسف في أزمة شديدة، وأحاط به طوفان المشاكل، ولكن حيث إن يوسف كان قد صنع نفسه، فقد صمّم بعزم وشجاعة والتفت نحو السماء ليناجي ربه وهو في هذه الشدة ﴿قَالَ رَبِّ النَّجِّنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾.

وحيث كان يدري أن لا مهرب له إلا إلى الله في جميع الأحوال ولا سيما في الساعات المخرجة، فقد أودع نفسه عند الله بهذا الكلام ﴿وَأِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

وحيث إن وعد الله حقّ، وأنه يُعين المجاهد (لنفسه أو لعدوّه) فإنه لم يترك يوسف سُدًى وتلقفته رحمته ولطفه كما يقول القرآن الكريم: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ

السَّجِينُ الْعَلِيمُ. فهو يسمع نجوى عبده، وهو مطلع على أسرارهم، ويعرف طريق الحل لهم.

ثُمَّ بَدَأَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ، حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنِ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرِنِي أَخَصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرِنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ كَمَا مَعَا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

السجن بسبب البراءة: انتهى المجلس العجيب لتسوية مصر مع يوسف في قصر العزيز في تلك الغوغاء والهباج، فإن الخوف من فضيحة جنسية في أسرة العزيز كان يزداد يوماً بعد يوم. فكان الرأي بعد تبادل المشورة بين العزيز ومستشاريه هو إبعاد يوسف عن الأنظار لينسى الناس اسمه وشخصه، وأحسن السبل لذلك إيداعه قعر السجن المظلم أولاً، وليشيع بين الناس أن المذنب الأصلي هو يوسف ثانياً، لذلك يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿ثُمَّ بَدَأَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

أجل... في المحيط المنحرف تكون الحرية من نصيب المنحرفين وليست الحرية وحدها من نصيبهم فحسب... بل إن الأفراد النجباء كيوسف ينبغي أن يقبوا في زاوية النسيان... ولكن إلى متى؟ هل تستمر هذه الحالة؟... قطعاً لا....

ومن جملة السجناء الداخلين مع يوسف فتيان ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنِ فَتَيَانٍ﴾.

وحيث إن الظروف لم تكن تسمح للإنسان أن يحصل فيها على الأخبار بطريق عادي، فإنه يأنس لأحاسيس الآخرين لبحث عن مسير الحوادث ويتوقع ما سيكون، حتى أن الرؤيا وتعبيرها عنده. يكون مطلباً مهماً.

من هذا المنطلق جاء ليوسف يوماً هذان الفتيان اللذان يقال: إن أحدهما كان ساقياً في بيت الملك، والآخر كان مأموراً للطعام والمطبخ، وبسبب وشاية الأعداء وسعايتهم بهما دخلا السجن بتهمة التصميم لسَمِّ الملك، وتحدث كل منهما عن رؤيا رآها الليلة الفائتة وكانت بالنسبة له أمراً عجيباً.

﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَيْتُ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ﴾. ثم أضافا: ﴿ تَبَيَّنَّا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

فقد إغتنم يوسف مراجعة السجينين له لتعبير الرؤيا - وكان لا يدع فرصة لإرشاد السجناء ونصحهم - وبجدة التعبير كان يبين حقائق مهمة تفتح لهم السبل ولجميع الناس أيضاً.

في البداية، ومن أجل أن يستلفت إهتمامها وإعتادها على معرفته بتأويل الأحلام الذي كان مثار إهتمامها وتوجهها ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأٌ كُفْمًا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾.

ثم إن يوسف أضاف إلى كلامه مقروناً بالآيمان بالله والتوحيد الجاري بجميع أبعاده في أعماق وجوده، ليبين بوضوح أن لا شيء يتحقق إلا بإرادة الله قائلاً: ﴿ فَلَئِمَّا مِمَّا عَلَّمْنَا رَبِّي ﴾ ولئلا يتصور أن الله يمنح مثل هذه الأمور دون حساب، قال: ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾.

والمقصود بهذه الملة أو الجماعة هم عبدة الأصنام بمصر أو عبدة الأصنام من كنعان. وينبغي لي أن أترك مثل هذه العقائد لأنها على خلاف الفطرة الإنسانية النقية، ثم إنني تربيته في أسرة الوحي والنبوة ﴿ وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾. ثم يضيف على نحو التأكيد: ﴿ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾. لأن أسرتنا أسرة التوحيد... أسرة إبراهيم محطم الأصنام ﴿ فَلَئِمَّا مِمَّا عَلَّمْنَا رَبِّي ﴾. وهي الموهبة العامة التي تشمل جميع عباد الله المودعة في أرواحهم المسماة بالفطرة حيث يتكاملون بقيادة الأنبياء ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾.

يَصْحَبِي السِّجْنَءَ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ
 مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ
 إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
 لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَصْحَبِي السِّجْنَءَ أَمَا أَحَدُكُمْ مَا فَسَّقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَا الْآخِرُ
 فَيُضَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ
 لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا أَذْكَرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَآنَسَ شَيْطَانُ
 ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

السجن أو مركز التربية: حين هبأ يوسف في البحث السابق قلوب السجينين لقبول حقيقة التوحيد، توجه إليهما وقال: ﴿ يَا صَاحِبِي السِّجْنَءَ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾.

فكان يوسف يريد أن يفهم السجينين أنه لم تريان الحرية في النوم ولا تريانها في اليقظة؟ فلم لا تجتمعون تحت راية التوحيد، وتعتصموا بجبل الواحد القهار، لتطردوا من مجتمعكم هؤلاء الظالمين والجبابرة الذين يسوقونكم إلى السجن أبرياء دون ذنب؟!

ثم يضيف قائلاً: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ بل هي صنع عقولكم العاجزة وأفكاركم المنحرفة... ﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ فلا ينبغي أن تطأطأوا رؤوسكم لسواه من الطغاة والفراعة، ثم أضاف زيادة في التأكيد قائلاً: ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾.

أي إن التوحيد في جميع أبعاده - في العبادة، في الحكومة، في المجتمع، في المسائل الثقافية، وفي كل شيء - هو الدين الإلهي المستقيم والثابت. ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ولذلك خضعوا للحكومة غير (الله) فذاقوا الشقاء والسجون في هذا السبيل.

ثم التفت إليهما وقال: ﴿ يَا صَاحِبِي السِّجْنَءَ أَمَا أَحَدُكُمْ مَا فَسَّقَى رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَا الْآخِرُ فَيُضَلَّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ﴾.

ثم أضاف مؤكداً: ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾. وهو إشارة إلى أن هذا التعبير ليس

تعبيراً ساذجاً، بل هو من أنباء الغيب التي تعلمها من الله، فلا مجال للترديد والكلام بعد هذا.

وحين أحس يوسف أن السجينين سينفصلان عنه عاجلاً، ومن أجل أن يجد يوماً يُطلق فيه ويُبرأ من هذه التهمة، أوصى أحد السجينين الذي كان يعلم أنه سيطلق أن يذكره عند الملك ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ لكن هذا الغلام «الناسي» مثله مثل الأفراد قليلي الإستهباب، ما إن يبلغوا نعمة ما حتى ينسوا صاحبها، وهكذا نسي يوسف تماماً، ولكن القرآن عبّر عن ذلك بقوله: ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ وهكذا أصبح يوسف منسياً ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾.

أما عدد السنوات التي قضاها يوسف في السجن، فهناك أقوال بين المفسرين، والمشهور أنها سبع سنوات، إلا أن بعضهم قال: إن يوسف بقي في السجن إثنتي عشرة سنة، خمس قبل رؤيا صاحبي سجنه، وسبع بعدها، وكانت سنوات مملأى بالتعب والنصب إلا أنها من جهة الإرشاد كانت سنوات مفعمة بالبركة والخير.

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُئِلَتْ خُضْرٍ وَأُخْرَىٰ يُاسِئَاتٍ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونًا فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضِغْثُ أَحْلَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُئِلَتْ خُضْرٍ وَأُخْرَىٰ يُاسِئَاتٍ لِّعَلَىٰ أَرْجَعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا نَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا حَصَصْتُمْ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ ﴿٤٩﴾

رؤيا ملك مصر وما جرى له: بقي يوسف سنين في السجن المظلم كأي إنسان منسي، ولم يكن لديه من عمل إلا بناء شخصيته، وإرشاد السجناء وعبادة مرضاهم وتسوية الموجهين

منهم، حتى غيّرت (حظّه وطالعه) حادثة صغيرة بحسب الظاهر... ولم تغير هذه «الظاهرة» حظّه فحسب، بل حظّ أمة مصر وما حولها.

لقد رأى ملك مصر الذي يقال أنّ اسمه هو «الوليد بن الريان» وكان «عزیز مصر وزيره» رأى هذا الملك رؤيا مهولة، فأحضر عند الصباح المعبرين للرؤيا ومن حوله فقصّ عليهم رؤياه ﴿وَقَالَ أَلْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعُ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾. ثمّ التفت إليهم طالباً منهم تعبير رؤياه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا أَلْمَلِكُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنَّ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾. ولكن حاشية السلطان وجما إزاء هذه الرؤيا و﴿قَالُوا أَضْعَفَتْ أَعْيُنُنَا وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾.

«الأضغاث»: جمع «ضغث» ومعناه المجموعة من الحطب أو العشب اليابس أو الأخضر أو شيء آخر؛ و«الأحلام»: جمع «حلم» معناه الطيف والرؤيا، فيكون معنى ﴿أَضْعَفَتْ أَعْيُنُنَا﴾ هو الأطياف المختلطة، فكأنها متشكلة من مجموعة مختلفة ومتفاوتة من الأشياء.

وهنا تذكر ساقى الملك ما حدث له ولصاحبه في السجن مع يوسف، ونجا من السجن كما بشره يوسف ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونْ﴾. وهكذا حرّك كلام الساقى المجلس وشخصت الأبصار نحوه، وطلبوا منه الإسراع بالذهاب إليه والإتيان بالخبر.

مضى الساقى إلى السجن ليرى صديقه القديم... ذلك الصديق الذي لم يف بوعده له، لكنّه ربّما كان يعرف أنّ شخصية يوسف الكريمة تمنعه من فتح «باب العتاب» فالتفت إليه وقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

إنّ يوسف دون أن يطلب شرطاً أو قيداً أو أجراً لتعبيره، عبّر الرؤيا فوراً تعبيراً دقيقاً لا غموض فيه ولا حجاب مقروناً بما ينبغي عمله في المستقبل و﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًا فَمَا حَصَلْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾.

ثمّ أنّه يحلّ بكم القحط لسبع سنين متوالية فلا أمطار ولا زراعة كافية، فعليكم بالاستفادة مما جمعتم في سني الرخاء ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعُ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَلَّعْتُمْ لَهُنَّ﴾. ولكن عليكم أن تحذروا من إستهلاك الطعام ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾ وإذا واظبتم على هذه الخطة فحينئذ لا خطر يهددكم لأنّه ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾.

﴿يُعَاثُ النَّاسُ﴾ أي يدركهم الغيث فتكثر خيراتهم، وليس هذا فحسب، بل ﴿وَفِيهِ يَغْمِرُونَ﴾ المحاصيل لإستخراج الدهن والفاكهة لشراب عصيرها... الخ.

كم كان تعبير يوسف لهذه الرؤيا دقيقاً ومحسوباً. في الحقيقة لم يكن يوسف مفسراً بسيطاً للأحلام، بل كان قائداً يخطط من زاوية السجن لمستقبل البلاد، وقد قدم مقترحاً من عدة مواد لخمسة عشر عاماً على الأقل، وكما سنرى فإن هذا التعبير المقرون بالمقترح للمستقبل حرّك الملك وحاشيته وكان سبباً لإنقاذ أهل مصر من القحط القاتل من جهة، وأن ينجو يوسف من سجنه وتخرج الحكومة من أيدي الطغاة من جهة أخرى.

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَوَدْتَنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ لَنْ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنْ أَلْفَسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾

تبرة يوسف من كل اتهام: لقد كان تعبير يوسف لرؤيا الملك دقيقاً ومدروساً ومنطقياً، لقد فهم الملك إجمالاً أن يوسف لم يكن رجلاً يستحق السجن، بل هو شخص أسمى مقاماً من الإنسان العادي، دخل السجن نتيجة حادث خفي، لذلك تشوّق لرؤيته، ولكن لا ينبغي للملك أن ينسى غروره ويسرع إلى زيارته، بل أمر أن يُؤتى به إليه كما يقول القرآن: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ لم يوافق يوسف على الخروج من السجن دون أن يثبت براءته، فالتفت إلى رسول الملك ﴿وَقَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾. إذن... فيوسف لم يرغب أن يكون كأي مجرم، أو على الأقل كأي متهم يعيش مشمولاً بـ«عفو الملك»... لقد كان يرغب أولاً أن تثبت براءته وطهارة ذيله، ويخرج من السجن مرفوع الرأس، كما يُثبت ضمناً تلوث النظام الحكومي وما يجري في قصر وزيره.

ثم يضيف يوسف: إذا لم يعلم سبب سجنى شعب مصر ولا جهازه الحكومي وبأي سبب وصلت السجن، فالله مطلع على ذلك ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

عاد المبعوث من قبل الملك إلى يوسف مرة ثانية إلى الملك، وأخبره بما طلبه يوسف مع ما كان من إياته وعلو همته، لذا عظم يوسف في نفس الملك وبادر مسرعاً إلى إحضار النسوة اللاتي شاركن في الحادثة، والتفت إليهن و﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾. يجب أن تقلن الحق... هل إرتكبت يوسف خطيئة أو ذنباً؟ فتتقظ فجأة الوجدان النائم في نفوسهن، وأجبنه جميعاً بكلام واحد، متفق على طهارته و﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾.

أما امرأة العزيز التي كانت حاضرة أيضاً، أحسّت بأن الوقت قد حان لأن تنزه يوسف وأن تعوض عن تبكيت وجدانها وحياتها وذنبها بشهادتها القاطعة في حقه، وخاصة أنها رأت كرم يوسف المنقطع النظير من خلال رسالته إلى الملك، إذ لم يعرض فيها بالطعن في شخصيتها وكان كلامه عاماً ومغلقاً تحت عنوان «نسوة مصر».

فكأنما حدث إنفجار في داخلها فجأة وصرخت و﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ أَنَّنِي حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

ثم واصلت امرأة العزيز كلامها ﴿فَلَمَّا كَلَمَتْهَا رَبَّتْ لَمَّا أَصَابَتْ بِرَأْسِهَا إِلَى الْأَرْضِ مَدِينَةً﴾. لأنني عرفت بعد هذه المدة الطويلة وما عندي من التجارب ﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾.

وتواصل امرأة العزيز القول: ﴿وَمَا أَتَى نَفْسِي إِلَّا النَّفْسُ لَأَمَارَةَ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي﴾ وبحفظه وإعانتته نبي مصونين، وأنا أرجو أن يغفر لي ربي هذا الذنب ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. فامرأة العزيز التي تدعى «زليخا» أو «راعىل» وإن ابتليت في عملها بأشدّ الهزائم، لكن هذه الهزيمة في مسير الذنب كانت سبباً لأن تنتبه ويتيقظ وجدانها النائم، وأن تندم على ما فات من عملها... والتفتت إلى ساحة الله.

السعداء هم أولئك الذين يصنعون من الهزائم إنتصاراً، ومن سوء الحظّ حظاً حسناً، ومن أخطائهم طريقاً صحيحاً للحياة.

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جُرْأَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

يوسف أميماً على خزائن مصر: رأينا أن يوسف - هذا النبي العظيم - ثبتت براءته أخيراً للجميع، وحتى الأعداء شهدوا بطهارته ونزاهته، وظهر لهم أن الذنب الوحيد الذي أودع من أجله السجن لم يكن غير التقوى والأمانة التي كان يتحلّى بهما. إضافة إلى هذا فقد ثبت لهم أن هذا السجين منهل العلم والمعرفة والنباهة وطاقة فذة وعالية في الإدارة.

ثم يستمر القرآن بذكر القصة فيقول: ﴿وَقَالَ أَلْعَلَّكَ أَتُّونِي بِهِ أَشْتَحِلُّصَهُ لِنَفْسِي﴾ وهكذا أمر الملك باحضاره لكي يجعله مستشاره الخاص ونائبه في المهمات فيستفيد من علمه ومعرفته وخبرته لحلّ المشاكل المستعصية. ثم أرسل الملك مندوباً لزيارته في السجن، فدخل عليه وأبلغه تحيات الملك وعواطفه القلبية تجاهه ثم قال له: إنه قد لبيّ طلبك في البحث والتحقيق عن نساء مصر وإتهامهن إياك، قم لنذهب إلى الملك.

فدخل يوسف على الملك وتكلّم معه فعندما سمع من يوسف الأجوبة التي تحكي عن علمه وفراسته وذكائه الحادّ، إزداد حبّاً له وقال: إن لك اليوم عندنا منزلة رفيعة وسلطات واسعة وإنك في موضع ثقتنا وإعتمادنا ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أُمِينٌ﴾ فلا بد أن تتصدّى للمناصب الهامة في هذا البلد، وتهمم بإصلاح الأمور الفاسدة.

فاختار يوسف منصب الأمانة على خزائن مصر، وقال إجعلني مشرفاً على خزائن هذا البلد فإني حفيظ عليم وعلى معرفة تامة بأسرار المهنة وخصائصها ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

كان يوسف يعلم أن جانباً كبيراً من الاضطراب الحاصل في ذلك المجتمع الكبير المليء بالظلم والجور يكمن في القضايا الاقتصادية، والآن وبعد أن عجزت أجهزة الحكم من حلّ تلك المشاكل واضطّرّوا لطلب المساعدة منه، فمن الأفضل له أن يسيطر على اقتصاد مصر حتى يتمكن من مساعدة المستضعفين وأن يخفّف عنهم - قدر ما يستطيع - الآلام والمصاعب ويسترّد حقوقهم من الظالمين.

وهنا نقطة أخرى يجب التنبيه عليها وهي إننا نلاحظ أن يوسف ﷺ يخاطب الملك ويقول له: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ وهذه إشارة إلى أهمية عنصر الإدارة إلى جانب عنصر الأمانة وأنّ توفرّ عنصر الأمانة والتقوى فقط في شخص لا يؤهّله لأن يتصدّى لأحد

المناصب الاجتماعية الحساسة، بل لا بد من إجتماع ذلك العامل مع العلم والتخصص والقدرة على الإدارة.

ثم يقول الله سبحانه وتعالى مُنهيًا بذلك قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾.

نعم إن الله سبحانه وتعالى ينزل رحمته وبركاته ونعمه المادية والمعنوية على من يشاء من عباده الذين يراهم أهلاً لذلك ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾.

وأنه سبحانه وتعالى لا ينسى أن يجازي المحسنين، وإنه مهما طالَّت المدة فإنه يجازيهم بجزائه الأوفى ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ولكن لا يقتصر سبحانه وتعالى على مجازاة المحسنين في الدنيا، بل يجازي المتقين والمحسنين بأحسن من ذلك في الآخرة وهو الجزاء الأوفى ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَتُرُونَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سُرُودٌ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

إقتراح جديد من يوسف لأخوته، وكما كان متوقعاً، فقد تحسنت الزراعة في مصر خلال سبع سنوات متتالية وذلك على أثر توالي الأمطار ووفرة ماء النيل وكثرته، ويوسف قد أجبر أبناء الشعب على أن يبيعوا للدولة الفائض عن حاجتهم من الإنتاج الزراعي، وهكذا امتلأت المخازن بالمنتجات الزراعية والإستهلاكية ومرّت سبع سنوات من الرخاء والوفرة، وبدأ القحط والجفاف يُظهر وجهه الكريه، ومنعت السماء قطرها، فلم تينع ثمرة، ولم تحمل نخلة.

وهكذا أصاب عامّة الشعب الضيق وقلّت منتوجاتهم الزراعية، لكنهم كانوا على علم بخزائن الدولة وإمتلائها بالمواد الغذائية، وساعدهم يوسف حيث استطاع - بخطّة محكمة

ومنظمة مع الأخذ بعين الاعتبار الحاجات المتزايدة، في السنين القادمة - أن يرفع الضيق عن الشعب بأن يباع لهم المنتوجات الزراعية مراعيًا في ذلك العدالة بينهم.

وهذا القحط والجفاف لم يكن مقتصرًا على مصر وحدها، بل شمل البلدان المحيطة بها أيضاً، ومنهم شعب فلسطين وأرض كنعان المتاخمة لمصر والواقعة على حدودها في الشمال الشرقي، وكانت عائلة يوسف تسكن هناك وقد تأثرت بالجفاف، واشتد بهم الضيق، بحيث اضطرَّ يعقوب أن يرسل جميع أولاده - ما عدا بنيامين الذي أبقاه عنده بعد غياب يوسف - إلى مصر، حيث سافروا مع قافلة كانت تسير إلى مصر ووصلوا إليها - كما قيل - بعد ١٨ يوماً.

وتذكر المصادر التاريخية أن الأجانب عند دخولهم إلى الأراضي المصرية كانوا ملزمين بتسجيل أسمائهم في قوائم معينة لكي تعرض على يوسف، ومن هنا فحينما عرض الموظفون تقريراً على يوسف عن القافلة الفلسطينية وطلبهم للحصول على المون والحبوب رأى يوسف أسماء أخوته بينهم وعرفهم وأمر بإحضارهم إليه، دون أن يتعرف أحد على حقيقتهم وأتهم أخوته....

يقول القرآن الكريم: ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾. وكان طبيعياً أن لا يتعرف إخوة يوسف عليه لأنه في جانب كان قد مضى على فراقهم إياه منذ أن أودعوه الحبّ وخرج منه ودخل إلى مصر ما يقرب من أربعين سنة، ومن جهة أخرى كان لا يخطر ببالهم أن أخوهم صار عزيزاً لمصر، وحتى لو رأوا الشبه بين العزيز وبين أخيهم لحملوه على الصدفة.

كما أن احتمال بقاء يوسف على قيد الحياة بعد هذه المدة كان ضعيفاً عندهم، وعلى أية حال فإن إخوة يوسف قد اشتروا ما طلبوه من الحبوب.

أمّا يوسف فإنه قد رحّب بإخوته ولاطفهم وفتح باب الحديث معهم، قالوا: نحن عشرة إخوة من أولاد يعقوب، ويعقوب هو ابن إبراهيم الخليل نبي الله العظيم، وأبونا أيضاً من أنبياء الله العظام، وقد كبر سنّه وألمّ به حزن عميق ملك عليه وجوده.

فسألهم يوسف: لماذا هذا الغم والحزن؟

قالوا: كان له ولد أصغر من جميع إخوته وكان يحبّه كثيراً، فخرج معنا يوماً للنزهة والتفرج والصيد وغفلنا عنه فأكله الذئب، ومنذ ذلك اليوم وأبونا يبكي لفراقه.

نقل بعض المفسرين أنه كان من عادة يوسف أن لا يعطي ولا يبيع لكل شخص إلا حمل بعير واحد، وبما أن إخوته كانوا عشرة فقد باع لهم ١٠ أحمال من الحبوب، فقالوا: إن لنا أباً شيخاً كبيراً عاجزاً عن السفر وأخاً صغيراً يرعى شؤون الأب الكبير، فطلبوا من العزيز أن يدفع إليهم حصّتها، فأمر يوسف أن يضاف إلى حصصهم حملان آخران، ثم توجه إليهم مخاطباً إياهم وقال: فأتوا بأخيكم الصغير في سفركم القادم لتثبتوا صدقكم، وتدفعوا التهمة عن أنفسكم.

وهنا يقول القرآن الكريم: إنه حينما جهّزهم يوسف بجهازهم وأرادوا الرحيل عن مصر ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾. لكنّه ختم كلامه بتهديد مبطن لهم، وهو إنني سوف أمنع عنكم المؤن والحبوب إذا لم تأتوني بأخيكم: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِي﴾، وكان يوسف يحاول بشقّ الطرق، تارة بالتهديد، وأخرى بالتعجب، أن يلتقي بأخيه بنيامين ويبقيه عنده، وظهر من سياق الآيات، أمران: أن الحبوب كانت تباع وتشترى في مصر بالكيل لا بالوزن، واثّض أيضاً أن يوسف كان يستقبل الضيوف - ومنهم اخوته - الذين كانوا يفدون إلى مصر بحفاوة بالغة ويستضيفهم بأحسن وجه.

وأجاب إخوة يوسف على طلب أخيه: ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾. ويستفاد من قوله ﴿إِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ وإجابتهم الصريحة لعزير مصر، أنهم كانوا مطمئنين إلى قدرتهم على التأثير على أبيهم وأخذ الموافقة منه، وكيف لا يكونون مطمئنين بقدرتهم على ذلك وهم الذين استطاعوا بإصرارهم وإلحاحهم أن يفرّقوا بين يوسف وأبيه؟! وأخيراً أمر يوسف رجاله بأن يضعوا الأموال التي اشتروا بها الحبوب في رحالهم - جلباً لعواطفهم - ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا أُنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

لماذا لم يظهر يوسف حقيقته لإخوته؟ بالنسبة للآيات السابقة فإن أول ما يتبادر إلى الذهن هو إنه لماذا لم يعرف يوسف نفسه لإخوته، حتى يقفوا على حقيقة حاله ويرجعوا إلى أبيهم ويخبرونه عن مصير يوسف، وبذلك تنتهي آلامه لأجل فراق يوسف؟

حاول جمع من المفسرين - كالعلامة الطبرسي في مجمع البيان والعلامة الطباطبائي في تفسير الميزان والقرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن - الإجابة على هذا السؤال، وذكروا له عدّة أجوبة، ولعل أحسنها وأقربها هو أن يوسف لم يكن مجازاً من قبل الله

سبحانه وتعالى في إخبار أبيه، لأن قصة يوسف مع غض النظر عن خصائصه الذاتية كانت ساحة لاختبار يعقوب وحقلاً لإمتحانه، فلا بد من أن يؤدي يعقوب إمتحانه ويمتاز فترة الاختبار قبل أن يسمح ليوسف بإخباره، وإضافة إلى هذا فإن إسرار يوسف في إخبار إخوته قد يؤدي إلى عواقب غير محمودة، مثلاً قد يستولي عليهم الخوف والهلع من إنتقام يوسف منهم لما إرتكبوه سابقاً في حقه فلا يرجعوا إليه.

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكَتْلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَئِعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبُغِي هَذِهِ بِضَاعَ عُنَانِرُودَتِ الْيَتَانِ وَنَمِيرُ أَهْلِنَا وَنَحْفَظُ آخَانَا وَنَزِدُكَ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَبَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾

مواقفة يعقوب: رجع أخوة يوسف إلى كنعان فرحين حاملين معهم المتاع الثمين، لكنهم كانوا يفكرون بمصيرهم في المستقبل وأنه لو رفض الأب ولم يوافق على سفر أخيه الصغير (بنيامين) فإن عزيز مصر سوف لن يستقبلهم، كما إنه لا يعطيهم حصتهم من الحبوب والمون. ومن هنا يقول القرآن: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ ولا سبيل لنا للحصول عليه إلا أن ترسل معنا أخانا ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكَتْلُ﴾ وكن على يقين من أننا سوف نحافظ عليه ونمنعه من الآخرين ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

ثم أضاف: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

ثم إن الأخوة حينما عادوا من مصر ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ فشاهدوا أن هذا الأمر هو برهان قاطع على صحة طلبهم، فجاؤوا إلى أبيهم و﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبُغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾.

فيا أبانا ليس هناك مجال للتأخير - ابعث معنا أخانا لكي نساغر ونشتري الطعام ﴿وَنَمِيرُ أَهْلِنَا﴾ وسوف نكون جادين في حفظ أخينا ﴿وَنَحْفَظُ آخَانَا﴾، وهكذا تتمكن من أن تشتري كيل بعير من الحبوب ﴿وَنَزِدُكَ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ وإننا على يقين في أن سباحة

العزیز وكرمه سوف يسهلان حصوله ﴿فَلَيْكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾.

وفي كل الأحوال رفض يعقوب إرسال ابنه بنيامين معهم، ولكنه كان يواجه إصرار أولاده بمنطقهم القوي بحيث اضطر إلى التنازل على مطلبهم ولم ير بدأ من القبول، ولكنه وافق بشرط: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾. والمقصود من قوله ﴿مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ هو العهد واليمين المتضمن لإسم الله سبحانه وتعالى.

فقد وافق أخوة يوسف بدورهم على شرط أبيهم، وحينما أعطوه العهد والمواثيق المغلظة قال يعقوب: ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾

وأخيراً توجه إخوة يوسف صوب مصر للمرة الثانية بعد إذن أبيهم وموافقته على اصطحاب أخيهما الصغير معهم، وحينما أرادوا الخروج ودعهم أبوهم موصياً إليهم بقوله: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾. ثم أضاف: إنه ليس في مقدوري أن أمنع ما قد قدر لكم في علم الله سبحانه وتعالى ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

ثم قال أخيراً: ﴿إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

لا شك في أن عاصمة مصر كانت تمتلك أبواباً متعددة، ذهب جمع من المفسرين إلى أن سبب هذه النصيحة هو أن إخوة يوسف كانوا يتمتعون بقسط وافر من الجمال وبأجسام قوية رشيقة، وكان الأب الحنون في قلق شديد من الفات نظر الناس إلى هذه المجموعة المكونة فيصيبهم الحسد من تلك العيون الفاحصة.

وهناك سبب آخر وهو أن دخول هذه المجموعة إلى مصر بوجوههم المشرقة وأجسامهم الرشيقة القوية قد يثير الحسد والبغضاء في بعض النفوس الضعيفة فيسعون ضدهم عند السلطان.

واصل الأخوة سيرهم نحو مصر، وبعد أن قطعوا مسافة طويلة وشاسعة بين كنعان ومصر دخلوا الأراضي المصرية، وعند ذلك ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾. فهم برغم تفرقهم إلى جماعات صغيرة - طبقاً لما وصّاهم به أبوهم - فإنّ الفائدة والثمرّة الوحيدة التي ترتبت على تلك النصيحة ليس ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾. وهذه إشارة إلى أنّ أثرها لم يكن سوى الهدوء والطمأنينة التي إستولت على قلب الأب الحنون الذي بعد عنه أولاده، وبقي ذهنه وفكره مشغولاً بهم وبسلامتهم وخائفاً عليهم من كيد الحاسدين وشرور الطامعين، فما كان يتسلّى به في تلك الأيام لم يكن سوى يقينه القلبي بأنّ أولاده سوف يعملون بنصيحته.

ثمّ يستمرّ القرآن في مدح يعقوب ووصفه بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَكُلُّوا عِلْمٌ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وهذه إشارة إلى أنّ كثيراً من الناس يتهيون في الأسباب وينسون قدرة الله سبحانه وتعالى، إلاّ أنّ يعقوب كان عالماً بأنّه بدون إرادة الله سبحانه وتعالى لا يحدث شيء، فكان يتوكّل في الدرجة الأولى على الله سبحانه وتعالى ويعتمد عليه، ثمّ يبحث عن عالم الأسباب.

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَأْوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُمَا نَفْسِدَا فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

يوسف يخطد للاحتفاء بأخيه: وأخيراً دخل الأخوة على يوسف وأعلموه بأنهم قد نفذوا طلبته واصطحبوا معهم أخاهم الصغير برغم إمتناع الأب في البداية، ولكنهم أصرّوا عليه وإنزعوا منه الموافقة لكي يثبتوا لك إنهم قد وفوا بالعهد، أمّا يوسف فإنه قد إستقبلهم بحفاوة وكرم بالغين ودعاهم لتناول الطعام على مائدته، فأمر أن يجلس كل إثنين منهم على طبق من الطعام، ففعلوا وجلس كل واحد منهم بجانب أخيه على الطعام، وبقي بنيامين وحيداً فتألّم من وحدته وبكى وقال: لو كان أخي يوسف حياً لعطف عليّ ولأجلسني إلى جنبه على المائدة لأننا إخوة من أب واحد وأمّ واحدة، قال يوسف مخاطباً إياهم: إنّ أخاكم بقي وحيداً وإنّي سأجلسه بجنبي على المائدة ونأكل سوياً من الطعام، ثم بعد ذلك أمر يوسف بأن تهيّأ لهم الغرف ليستريحوا فيها ويناموا، ومرة أخرى بقي بنيامين وحيداً، فاستدعاه يوسف إلى غرفته وبسط له الفراش إلى جنبه، لكنّه لاحظ في تقاسيم وجهه الحزن والألم وسمعه يذكر أخاه المفقود (يوسف) متأوّهاً، عند ذلك نفذ صبر يوسف وكشف عن حقيقة نفسه، والقرآن الكريم يصف هذه الوقائع بقوله: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

«تبتئس»: مأخوذ من مادة «البؤس» وهو أصل بمعنى الضرر والشدة، لكن في الآية الشريفة استعملت بمعنى: لا تسلط الغمّ على نفسك ولا تكن حزيناً من معاملتهم لك، والمراد بقوله «يعملون» هو معاملة الأخوة السيئة لأخيه بنيامين حيث خطّطوا لإبعاده وطرده من بينهم كما فعلوا بيوسف.

وتقول بعض الروايات: إنّه عند ذلك إقترح يوسف على أخيه بنيامين وقال له: هل تودّ أن تبقى عندي ولا تعود معهم؟

قال بنيامين: نعم، ولكن إخوتي لا يوافقون على ذلك.

قال يوسف: لا تهتمّ بهذا الأمر فإنّي سوف أضع خطة محكمة بحيث يضطّرون لترك عندي والرجوع دونك.

وبدأ يوسف بتنفيذ الخطة، وأمر بأن يعطى لكل واحد منهم حصّة من الطعام والحبوب ثم عند ذلك ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾.

لا شك في أنّ يوسف قام بهذا العمل بسرية تامة، ولعله لم يطلع على هذه الخطة سوى موظف واحد وعند ذلك إفتقد العاملون على تزويد الناس بالمؤونة الكيل الملكي الخاص،

وبحث عنه الموظفون والعمال كثيراً لكن دون جدوى وحينئذ ﴿أَذَّنُ مُؤَذِّنٌ أَيُّهَا الْعَبْرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾.

وحيثما سمع إخوة يوسف هذا النداء إرتعدت فرائصهم وإستولى عليهم الخوف، حيث لم يحظر بياهم أن يتهموا بالسرقة بعد الحفاوة التي قبلوا بها من جانب يوسف، فتوجهوا إلى الموظفين والعمال وقالوا لهم: ماذا فقدتم؟ ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَهُونَ﴾. قالوا: قد فقدنا صواع الملك ونظن إنه عندكم ﴿قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ﴾ وبما أن الصواع ثمين ومورد علاقة الملك فإن لمن يعثر عليه جائزة، وهي حمل بعير من الطعام ﴿وَلَقَدْ جَاءَ بِهِ جِفْلٌ بِعِيرٍ﴾. ثم أضاف المؤذن والمسؤول عن البحث عن الصواع المفقود: إنني شخصياً أضمن هذه الجائزة ﴿وَأَنَا بِهِ رَعِيمٌ﴾.

فاشتد إضطراب الأخوة لسماهم هذه الأمور وزادت مخاوفهم، وتوجهوا إلى الموظف مخاطبين إياه ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾. إلا أن الموظفين توجهوا إليهم و﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾.

أجاب الأخوة: إن عقاب من وجد الصواع في رحله هو أن يؤخذ الشخص نفسه بدل الصواع ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾. وإن هذا العقاب هو جزاء السارق ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾. وحينئذ أمر يوسف الموظفين والعمال بأن تنزل رحالهم من على ظهور الجمال ويفتح متاعهم وأن يبحثوا فيها واحداً بعد واحد ودون استثناء، وتجنباً عن إنكشاف الخطة أمر يوسف بأن يبدأوا البحث والتفتيش في أمتعة الأخوة أولاً قبل أمتعة أخيه بنيامين، لكنهم وجدوه أخيراً في أمتعة بنيامين ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾.

بعد أن عثر على الصاع في متاع بنيامين، إستولى الإرتباك والدهشة على الأخوة، وصعقتهم هذه الواقعة ورأوا أنفسهم في حيرة غريبة، فمن جهة قام أخوهم بعمل قبيح وسرق صواع الملك، وهذا يعود عليهم بالخزي والعار، ومن جهة أخرى إن هذا العمل سوف يفقدهم اعتبارهم ونفوذهم عند الملك خصوصاً مع حاجتهم الشديدة إلى الطعام، وإضافة إلى كل هذا، كيف يجيبون على استفسارات أبيهم؟ وكيف يقنعونه بذنب ابنه وعدم تقصيرهم في ذلك؟

ثم يستمر القرآن الكريم ويبين كيف استطاع يوسف أن يأخذ أخاه بالخطة التي رسمها

الله له دون أن يثير في أخوته أي نوع من المقاومة والرفض ﴿كَلِمَكَ كَيْفَ لِيُؤَسِّفَ﴾. والأمر المهم في هذه القضية هو أنه لو أراد يوسف أن يعاقب أخاه بنيامين، - وطبقاً للقانون المصري - لكان عليه أن يضرب أخاه ويودعه السجن لكن مثل هذه المعاملة كانت تخالف رغبات وأهداف يوسف للاحتفاظ بأخيه، ومن هنا وقبل القبض على بنيامين، سأل إخوته عن عقوبة السارق عندهم، فاعترفوا عنده بأن السنة المتبعة عندهم في معاقبة السارق أن يعمل السارق عند المعتدي عليه كالعبد.

لا ريب إنَّ للعقوبة والجزاء طرقاً عديدة منها أن يعاقب المعتدي على طبق ما يعاقب به في قومه، وهكذا عامل يوسف أخاه بنيامين، وتوضيحاً لهذه الحالة وأنَّ يوسف لم يكن بإمكانه أخذ أخيه طبقاً للدستور المصري يقول القرآن الكريم: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾. لكن الله سبحانه وتعالى يستثني بقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾. وهو إشارة إلى أن ما فعله يوسف بأخيه لم يكن إلاَّ بأمر منه سبحانه وتعالى وطبقاً لإرادته في الاحتفاظ ببنيامين، واستمراراً لامتحان يعقوب وأولاده.

وأخيراً يضيف القرآن الكريم ويقول: إنَّ الله سبحانه يرفع درجات من استطاع أن يفوز في الامتحان ويخرج مرفوع الرأس كما حدث ليوسف ﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ ولكن في كل الأحوال فإنَّ الله تعالى عليم يهدي الإنسان إلى سواء السبيل وهو الذي أوقع هذه الخطة في قلب يوسف وألهمه إياها ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ
وَلَمْ يَبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا
يَأْتِيهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَىكَ مِنَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا
إِذَا الظَّالِمُونَ ﴿٧٩﴾

موقف إخوة يوسف: وأخيراً إقتنع أخوة يوسف بأنَّ أخاهم (بنيامين) قد ارتكب فعلاً شنيعاً وقبيحاً وإنه قد شوّه سمعتهم وخذلهم عند عزيز مصر، فأرادوا أن يبرأوا أنفسهم ويعيدوا ماء وجههم ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾. أي إنه لو قام بالسرقة فهذا ليس بأمر عجيب منه فإنَّ أخاه يوسف وهو أخوه لأبويه قد ارتكب مثل هذا العمل القبيح،

ونحن نختلف عنها في النسب.

وحينما سمع يوسف كلامهم تأثر بشدة لكنه كتم ما في نفسه: ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ
وَلَمْ يُبَيِّنْهَا لَهُمْ﴾ لأنه كان عالماً بأنهم قد افتروا عليه واتهموه كذباً، إلا أنه لم يرد عليهم وقال
لهم باختصار وإقتضاب: ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾. أي: إنكم أحقر وأشر مكاناً ممن تتهمونه
وتنسبون إليه السرقة، أو أنتم أحقر الناس عندي.

ثم أضاف يوسف: إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِمَا تَنْسُبُونَ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.
وعندما لاحظ الإخوة أنفسهم محاصرين بين أمرين، فمن جهة - وطبقاً للسنة والدستور
المتعين عندهم - لا بد وأن يبقى أخوهم الصغير بنيامين عند عزيز مصر ويقوم بخدمته كسائر
عبيده، ومن جهة أخرى فإنهم قد أعطوا لأبيهم الموثيق والأيمان المغلظة على أن يحافظوا
على أخيه بنيامين ويعودوا به سالماً إليه، حينما وقعوا في هذه الحالة توجهوا إلى يوسف
الذي كان مجهول الهوية عندهم، مخاطبين إياه ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ
أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ لكي نرجعه إلى أبيه ونكون قد وفينا بالوعد الذي قطعناه له، فإنه شيخ كبير
ولا طاقة له بفراق ولده العزيز، فرجو منك أن ترحم علينا وعلى أبيه فـ ﴿إِنَّا نَرَىكَ مِنْ
الْمُحْسِنِينَ﴾.

أما يوسف فإنه قد واجه هذا الطلب بالإنكار الشديد و﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ
وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ فإن العدل والإنصاف يقتضي أن يكون المعاقب هو السارق، وليس
بريئاً رضي بأن يتحمل أوزار عمل غيره، ولو فعلنا لأمسينا من الظالمين ﴿إِنَّا إِذَا قُلْنَا مُونَ﴾.
والطريف أن يوسف لم ينسب لأخيه السرقة وإنما عبر عنه بـ ﴿مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾
وهذا برهان على السلوك الحسن والسيرة المستقيمة التي كان ينتهجها يوسف في حياته.

فَلَمَّا أَسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ
قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ
الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَى
أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا
لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسئِلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا
وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾

رجوع الأخوة إلى أبيهم خائبين: حاول الأخوة أن يستنقذوا أخاهم بنيامين بشتى الطرق، إلا أنهم فشلوا في ذلك، ورأوا أن جميع سبل النجاة قد سدّت في وجوههم، إستولى عليهم اليأس وصمّوا على الرجوع والعودة إلى كنعان لكي يخبروا أباهم، يقول القرآن واصفاً إياهم ﴿فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾. أي: إنهم بعد أن يشوا من عزيز مصر أو من إتقاذ أخيه، إبتعدوا عن الآخرين واجتمعوا في جانب وبدأوا بالتشاور والنجوى فيما بينهم.

قوله تعالى «خلصوا»: بمعنى الخلوص، وهو كناية عن الإبتعاد عن الآخرين والاجتماع في جلسة خاصة، أمّا قوله تعالى «نجياً»: فهو من مادة «المناجاة» وأصله من «نجوة» بمعنى الربوة والأرض المرتفعة، فباعتبار أن الربوات منغزلة عن أراضيها المجاورة، سمّيت الجلسات الخاصة البعيدة عن عيون الغرباء والحديث في السر قياساً عليها بـ«النجوى».

وفي ذلك الاجتماع الخاص خاطبهم الأخ الكبير قائلاً: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاءَكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ بأن تردّوا إليه بنيامين سالماً، فالآن بماذا تجيبونه؟ وقد سوّدنا صفحتنا في المرّة السابقة بما عاملنا به أخانا يوسف ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ فالآن والحالة هكذا، فإنني لا أغادر أرض مصر وسوف أعتصم فيها ﴿فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْتِيَ لِي أَمْرٌ أَوْ يَخُكِّمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾. والظاهر أن قصده بحكم الله، إمّا الموت الذي هو حكم إلهي، أي لا أبرح من هذه الأرض حتى أموت فيها، وإمّا أن يفتح الله سبحانه وتعالى له سبيلاً للنجاة، أو عذراً مقبولاً عند أبيه.

ثم أمرهم الأخ الأكبر أن يرجعوا إلى أبيهم ويخبروه بما جرى عليهم ﴿أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ أَبْنَاكَ سَرَقَ﴾. وهذه شهادة نشهدها بمقدار علمنا عن الواقعة حيث سمعنا بفقد صواع الملك، ثم عثر عليه عند أخينا، وظهر للجميع إنّه قد سرقها ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ ولكن نحن لا نعلم إلا ما شهدناه بأعيننا وهذا غاية معرفتنا ﴿وَمَا كُنَّا لِنُغَيِّبَ حَافِظِينَ﴾.

ثم أرادوا أن يزيلوا الشك والريبة عن قلب أبيهم فقالوا يمكنك أن تتحقق وتسال من المدينة التي كنا فيها ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾^١. ومن القافلة التي سافرنا معها إلى مصر

١. «القرية»: يشمل جميع الأرياف والمدن والقرى الصغيرة منها والكبيرة. والمقصود منها في الآية هي مصر.

ورجعنا معها، حيث إنَّ فيها أناساً يعرفونك وتعرفهم، وبمقدورك أن تسألهم عن حقيقة الحال وواقعها ﴿وَأَلْمِيزَ أَلْسِنًا أَلْبَلْنَا فِيهَا﴾^١. وفي كل الأحوال كن على ثقة بأننا صادقون ولم نقص عليك سوى الحقيقة والواقع ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.

يستفاد من مجموع هذه الكلمات والحوار الذي دار بين الأولاد والأب أن قضية سرقة بنيامين كانت قد شاعت في مصر، وأنَّ جميع الناس علموا بأنَّ أحد أفراد العير والقافلة القادمة من كنعان حاول سرقة صواع الملك، لكن موظفي الملك تمكّنوا بيقظتهم من العثور عليها والقبض على سارقها.

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَفِي عَلَى يُوسُفَ وَ أَيْضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلِمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

يعقوب والأطفال الإلهية: وأخيراً غادروا مصر متجهين إلى كنعان في حين تخلف أخوهم الكبير والصغير، ووصلوا إلى بيتهم منهوكي القوى وذهبوا لمقابلة أبيهم، وحينما رأى الأب الحزن والألم مستولياً على وجوههم (خلافاً للسفرة السابقة والتي كانوا فيها في غاية الفرح) علم أنهم يحملون إليه أخباراً محزنة وخاصة حينما إفتقد بينهم بنيامين وأخاه الأكبر، وحينما أخبروه عن الواقعة بالتفصيل، إستولى عليه الغضب وقال مخاطباً إياهم بنفس العبارة التي خاطبهم بها حينما أرادوا أن يشرحوا له خديعتهم مع يوسف ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾. أي: إنَّ أهواءكم الشيطانية هي التي إستولت عليكم وزيتت لكم الأمر بهذه الصورة التي أنتم تصفونه.

لكن بعد هذا العتاب المليء بالحزن والأسى رجع يعقوب إلى قرارة نفسه وقال: ﴿فَصَبِرْ جَمِيلًا﴾. أي: أنني سوف أمسك بزمام نفسي، ولا أسمح لها بأن تطغى عليّ بل أصبر صبراً

١. «عير»: تعني الجماعة التي تصحب معها الإبل والدواب المحمّلة بالغذاء، أي يطلق على المجموع «عير» فعلى هذا يكون السؤال منهم ممكناً لأنَّ الكلمة تشمل الأشخاص أيضاً ولا حاجة للتقدير.

جَمِيلاً عَلَى أَمَلٍ بَأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى سَوْفَ يَعِيدُ لِي أَوْلَادِي (يوسف وبنيامين وأخوهم الأكبر) ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّ بِهِمْ جَمِيعًا﴾. فَإِنَّهُ هُوَ الْعَالَمُ بِوَأَقْعِ الْأُمُورِ وَالْخَبِيرُ بِمَحْوَاطِ الْعَالَمِ مَا مَضَى مِنْهَا وَمَا سَوْفَ يَأْتِي، وَلَا يَفْعَلُ إِلَّا عَنِ حِكْمَةٍ وَتَدْبِيرٍ ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْعَكِيمُ﴾.

ثم بعد هذه المحاورات بين يعقوب وأولاده، إستولى عليه الحزن والألم، وحينما رأى مكان بنيامين خالياً عادت ذكريات ولده العزيز يوسف إلى ذهنه، وتذكر تلك الأيام الجميلة التي كان يحتضن فيها ولده الجميل ذا الأخلاق الفاضلة والصفات المحسنة والذكاء العالي فيشتم رائحته الطيبة ويستعيد نشاطه، أما اليوم فلم يبق منه أثر ولا عن حياته خبر، كما أن خليفته (بنيامين) أيضاً قد ابتلي مثل يوسف بحادث مؤلم وذهب إلى مصير مجهول لا تعرف عاقبته.

حينما تذكر يعقوب هذه الأمور يتعد عن أولاده واستعبر ليوسف ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ﴾. واشتد حزن يعقوب وبكاؤه على المصائب المتكررة وفقد أعز أولاده ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾. لكن يعقوب كان مسيطراً على حزنه ويخفف من آلامه ويكظم غيظه ولا يتفوه بما لا يرضى به الله سبحانه وتعالى ﴿فَهُوَ كَفِيمٌ﴾.

أما الإخوة فكانوا متألّمين من جميع ما جرى لهم، فمن جهة كان عذاب الوجدان لا يتركهم مما أحدثوه ليوسف، وفي قضية بنيامين شاهدوا أنفسهم في وضع صعب وامتحن جديد، ومن جهة ثالثة كان يصعب عليهم أن يشاهدوا أباهم يتجرّع غصص المرارة والألم ويواصل بكاءه الليل بالنهار، فلذلك توجهوا إلى أبيهم وخاطبوه معاتبين: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُنَا تَذَكُّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾. أي: إنك تردّد ذكر يوسف وتتأسّف عليه حتى وتقع على فراش المرض وتشرف على الهلاك وتموت.

لكن شيخ كنعان هذا النبي العظيم صاحب الضمير اليقظ ردّ عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾^٢. لا إليكم، أنتم الذين تخونون الوعد وتنكثون العهد لأنني ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ

١. «حرض»: بمعنى الشيء الفاسد والمؤلم، والمقصود منه هنا هو المريض الذي ضعف جسمه وصار مشرفاً على الموت.

٢. «بث»: بمعنى التفرقة والشيء الذي لا يمكن إخفاؤه، والمقصود منه هنا هو الألم والحزن الظاهر الذي لا يخفى على أحد.

اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٧﴾ فهو اللطيف الكريم الذي لا أطلب سواه.

يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ
مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا
وَأَهْلُنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُرْجَحَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ
يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ
جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَءِ نَكَ لَأَنْتَ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفَ وَهَذَا أَخِي
قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ
﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾
قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾
أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

مرکز تحقیقات کتب و تفسیر علوم اسلامی

اليأس علامة الكفر: كان القحط والغلاء وشحة الطعام يشتد يوماً بعد آخر في مصر وما حولها ومنها كنعان، ومرة أخرى أمر يعقوب أولاده بأن يتجهوا صوب مصر للحصول على الطعام، لكنه هذه المرة طلب منهم بالدرجة الأولى أن يبحثوا عن يوسف وأخيه بنيامين، حيث قال لهم: ﴿يَا بَنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

لكن بما أن أولاد يعقوب كانوا مطمئنين إلى هلاك يوسف وعدم بقاءه، تعجبوا من توصية أبيهم وتأكيده على ذلك، لكن يعقوب نهاهم عن اليأس والقنوط ووصاهم بالإعتماد على الله سبحانه والإتكال عليه بقوله: ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾. فإنه القادر على حل الصعاب و﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾.

«تحسس»: أصله من «حس» بمعنى البحث عن الشيء المفقود بأحد الحواس، والفرق بينه وبين «تجسس» أن التحسس هو البحث عن الخير، والتجسس هو البحث عن الشر. قوله تعالى «روح» بمعنى الرحمة والراحة والفرج والخلاص من الشدة.

وأخيراً جمع الأخوة متاعهم وتوجهوا صوب مصر، وهذه هي المرة الثالثة التي يدخلون فيها أرض مصر، هذه الأرض التي سببت لهم المشاكل وجرّت عليهم الويلات. لكن في هذه السفارة - خلافاً للسفرتين السابقتين - كانوا يشعرون بشيء من الخجل يعذب ضمائرهم فإن سمعتهم عند أهل مصر أو العزيز ملوثة للوصمة التي لصقت بهم في المرة السابقة، ولعلهم كانوا يرونهم بمثابة (مجموعة من لصوص كنعان) الذين جاؤوا للسرقة. إلا أن الذي كان يبعث في نفوسهم الأمل ويعطيهم القدرة على تحمل الصعاب هو وصية أبيهم ﴿لَا تَأْتِسُوا مِنَ رُفْحِ اللَّهِ﴾.

وأخيراً استطاعوا أن يقابلوا يوسف، فخاطبوه - وهم في غاية الشدة والألم - بقولهم: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الْفُرُءُ﴾. أي: إن القحط والغلاء والشدة قد ألمت بنا وبعائلتنا ولم نحمل معنا من كنعان إلا متاعاً رخيصاً ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾^١. لا قيمة لها ولكن - في كل الأحوال - نعتمد على ما تبذل لنا من كرمك ونأمل في معروفك ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ بمنك الكريم وصدقاتك الوافرة ﴿وَتَصَلِّقْ عَلَيْنَا﴾ ولا تطلب منا الأجر، بل أطلبه من الله سبحانه وتعالى حيث: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَلِّقِينَ﴾.

والطريف أن إخوة يوسف لم ينفذوا وصية أبيهم في البحث عن إخوتهم أولاً، بل حاولوا الحصول على الطعام، ولأجل ذلك قابلوا العزيز وطلبوا منه المؤن والحبوب، ولعل السبب في ذلك ضعف أملهم في العثور على يوسف، أو لعلهم أرادوا أن يظهروا أنفسهم أمام العزيز والمصريين وكأنهم أناس جاؤوا لشراء الطعام والحبوب فقط، ثم يطرحون مشكلتهم أمام العزيز ويطلبون منه المساعدة، فعند ذلك يكون وقع الطلب أقوى واحتمال تنفيذه أكثر.

ونقرأ في روايات وردت في هذا المقام، أن الإخوة كانوا يحملون معهم رسالة من أبيهم إلى عزيز مصر، حيث مدح يعقوب في تلك الرسالة عزيز مصر وأكبر عدالته وصلاحه وشكره على ما بذله له ولعائلته من الطعام والحبوب، ثم عرّف نفسه والأنبياء من أهل بيته وأخبره برزاياه وما تحمله من المصائب والمصاعب من فقدته أعزّ أولاده وأحبهم إلى نفسه يوسف وأخيه بنيامين، وما أصابهم من القحط والغلاء، وفي ختام الرسالة طلب من العزيز أن يمنّ عليه ويطلق سراح ولده بنيامين، وذكره أن بنيامين سليل بيت النبوة والرسالة وأنه

١. «البضاعة»: أصلها «البضع» على وزن جزء، وهي بمعنى القطة من اللحم المقطوعة من الجسم، كما يطلق على جزء من المال الذي يقطع منه ثمناً لشيء. «مزجاة»: من «الإزجاء» بمعنى الدفع، وبما أن الشيء التافه والقليل الثمن يدفعه الآخذ عن نفسه، أطلق عليه (مزجاة).

لا يتلوّث بالسرقة وغيرها من الدنئات والمعاصي.

وحينما قدّم الأولاد رسالة أبيهم إلى العزيز شاهدوا أنّه فضّ الرسالة بإحترام وقبلها ووضعها على عينيه وبدأ يبكي بحيث أنّ الدموع بليت ثيابه.

وفي تلك اللحظة، وبعد أن مضت أيام الامتحان الصعب وكان قد إشتدت محنة الفراق على يوسف وظهرت عليه آثار الكآبة والهّم، أراد أن يعرف نفسه لإخوته فابتدرهم بقوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾.

ويستفاد من بعض الروايات أنّ يوسف حينما استفسر عمّا فعلوه معه ومع أخيه ختم إستفساره بإبتسامة عريضة ليدفع عن أذهانهم احتمال أنّه سوف ينتقم منهم فظهرت لإخوته أسنانه الجميلة ولاحظوا وتذكروا الشبه بينه وبين أسنان أخيهم يوسف.

أمّا هم، فإنّهم حينما لاحظوا هذه الأمور مجتمعة، وشاهدوا أنّ العزيز يتحدّث معهم ويستفسرهم عمّا فعلوه بيوسف، تلك الأعمال التي لم يكن يعلمها أحد غيرهم إلا يوسف. ومن جهة أخرى أدهشهم يوسف وما أصابه من الوجد والهياج حينما إستلم كتاب يعقوب، وأحسّوا بعلاقة وثيقة بينه وبين صاحب الرسالة.

وثالثاً: كلّما أمعنوا النظر في وجه العزيز ودقّقوا في ملامحه، لاحظوا الشبه الكبير بينه وبين أخيهم يوسف... لكنهم في نفس الوقت لم يدركوا بجلدهم ولم يتصوروا أنّه يمكن أن يكون أخوهم يوسف قد إرتقى منصب الوزارة وصار عزيزاً لمصر، أين يوسف وأين الوزارة والعزّة؟! لكنهم تجرّأوا أخيراً وسألوه مستفسرين منه ﴿قَالُوا أَجِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾.

كانت اللحظات تمرّ بسرعة لكن يوسف لم يدع أخوته يطول بهم الإنتظار ورفع الحجاب بينه وبينهم وأظهر لهم حقيقة نفسه و﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي﴾. لكن لكي يشكر الله سبحانه وتعالى على ما أنعمه من جميع هذه المواهب والنعم، ولكي يعلم إخوته درساً آخر من دروس المعرفة قال: إنه ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

هذه اللحظات الحساسة كانوا لا يطيقون النظر إلى وجه أخيهم يوسف لعلمهم بالذنب والجريمة التي اقترفوها في حقه، فترقّبوا إجابة يوسف وأنّه هل يغفر لهم إساءتهم إليه ويعفو

عن جريرتهم أم لا؟ فابتدأوا مستفسرين بقولهم: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَازَرَكُ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾^١. أي: إن الله سبحانه وتعالى قد فضلك علينا بالعلم والحلم والحكومة ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِبِينَ﴾.

أما يوسف الذي كانت نفسه تأبى أن يرى إخوته في حال الخجل والندامة - خاصة في هذه اللحظات الحساسة وبعد إنتصاره عليهم، فخطبهم بقوله: ﴿قَالَ لَا تَغْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾^٢. أي: إن العتاب والعقاب مرفوع عنكم اليوم، اطمئنوا وكونوا مرتاحي الضمير ولا تجعلوا للآلام والمصائب السابقة منفذاً إلى نفوسكم، ثم لكي يبين لهم أنه ليس وحده الذي أسقط حقه وعفا عنهم، بل إن الله سبحانه وتعالى أيضاً عفا عنهم حينما أظهروا الندامة والخجل قال لهم: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. أي: إن الله سبحانه وتعالى قد قبل توبتكم وعفا عنكم لأنه أرحم الراحمين.

وهذا دليل على علو قدر يوسف وغاية فضله حيث إنه لم يعف عن سيئات إخوته فحسب، بل طمأنهم على أن الله سبحانه وتعالى رحيم غفور وأنه تعالى سوف يعفو عن سيئاتهم، وإستدل لهم على ذلك بأن الله سبحانه وتعالى هو أرحم الراحمين.

وهنا تذكر الإخوة مصيبة أخرى قد ألمت بعائلتهم والشاهد الحي على ما إقترفوه في حق أخيه، ألا وهو أبوهم حيث فقد الشيخ الكبير بصره حزناً وفراقاً على يوسف، أما يوسف فإنه قد وجد لهذه المشكلة حلاً حيث خطبهم بقوله: ﴿أَذْهَبُوا بِقِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾. ثم طلب منهم أن يجمعوا العائلة ويأتوا بهم جميعاً ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

ورد في بعض الروايات أن يوسف قال: إن الذي يحمل قيصي المشافي إلى أبي لابد وأن يكون هو نفسه الذي حمل قيصي الملطخ بالدماء إليه، فأعطى لـ (يهودا) قيصه بعد أن اعترف له أنه هو الذي حمل قيصه الملطخ بالدماء إلى أبيه وأخبره بأن الذئب قد أكل يوسف.

إن الآيات السابقة تعلمنا درساً من دروس الأخلاق الإسلامية، وهو أنه بعد الإنتصار

١. «أترك»: أصله من «الإيثارة» وفي الأصل بمعنى البحث عن أثر الشيء، وبما أنه يقال للفضل والخير: أثر، فقد استعملت هذه الكلمة للدلالة على الفضيلة والعلو.

٢. «تغريب»: أصله من مادة «ترب» وهو شحمة رقيقة تغطي المعدة والأمعاء، والتغريب بمعنى رفع هذا الغطاء، ثم بمعنى العتاب والملامة فكان المعاقب قد رفع بعتابه غطاء الذنب عن وجه المذنب.

على العدو وكسر شوكته لا بد أن لا ننسى العفو والرحمة، وأن لا نعامله بقساوة.
كما أننا نرى رسول الله ﷺ حينما فتح مكة وأذلّ المشركين وهزمهم وكسر أصنامهم
وداس شوكتهم وكبرياءهم، جاء رسول الله ﷺ إلى جوار الكعبة وأخذ بحلقه بابها وكان
المشركون قد إلتجؤوا إليها، قال: «وأنا أقول كما قال أخي يوسف لا تثريب عليكم اليوم».
أي: إن اليوم ليس يوم ملامة وإنتقام وإظهار الحقد والضعينة «أذهبوا فأنتم الطلقاء».

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ
﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى
وَجْهِهِ، فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾
قَالُوا يَا بَنَا آسَتَ غَيْرِنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ
رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

وأخيراً شملتهم رعاية الله ولفه، أما أولاد يعقوب فإتهم بعد أن واجهوا يوسف وجرى
لهم ما جرى حملوا معهم قيص يوسف فرحين ومستبشرين وتوجهوا مع القوافل القادمة
من مصر، لكن - مقارناً مع حركة القافلة من مصر - حدث في بيت يعقوب حادث غريب
بحيث أذهل الجميع وصار مثاراً للعجب والحيرة، حيث نشط يعقوب وتحرك من مكانه
وتحدّث كالمطمئن والواثق بكلامه قال: لو لم تتحدّثوا عني بسوء ولم تنسبوا كلامي إلى
السفاهة والجهل والكذب لقلت لكم: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾. فإني أحسّ بأن أيام المحنة
والآلام سوف تنصرم في القريب العاجل، وأنه قد حان وقت النصر واللقاء مع الحبيب،
وأرى أن آل يعقوب قد نزعوا ثوب العزاء والمصيبة ولبسوا لباس الفرح والسرور لكن لا
تصدّقون كلامي ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾.

أما الذين كانوا مع يعقوب - وهم عادة أحفاده وأزواج أولاده وغيرهم من الأهل
والعشيرة - فقد إستولى عليهم العجب وخاطبوه بوقاحة مستكبرين: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي
ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾. أليس هذا برهاناً واضحاً على ضلالك حيث مضت سنين طويلة على
موت يوسف لكنك لا زلت تزعم أنه حي، وأخيراً تقول: إنك تشم رائحته من مصر؟! أين
مصر وأين الشام وكنعان؟! وهذا دليل على بعدك عن عالم الواقع وإنغماسك في الأوهام

والخيالات لكنك قد ضللت منذ مدة طويلة، ألم تقل لأولادك قبل فترة اذهبوا إلى مصر وتحسسوا عن أحوال يوسف!

يظهر من هذه الآية الشريفة أن المقصود بـ(الضلال) ليس الانحراف في العقيدة، بل الانحراف في تشخيص حقيقة حال يوسف والقضايا المتعلقة به.

وبعد عدة أيام من الإنتظار - والتي لا يعلم إلا الله كيف قضاها يعقوب - إرتفع صوت المنادي معلناً عن وصول قافلة كنعان من مصر، لكن في هذه المرة - وخلافاً للمرات السابقة - دخل أولاد يعقوب إلى المدينة فرحين مستبشرين، وتوجهوا مسرعين إلى بيت أبيهم، وقد سبقهم الـ(بشير) الذي بشر يعقوب بحياة يوسف وألقى قميص يوسف على وجهه.

أما يعقوب الذي أضعفت المصائب بصره ولم يكن قادراً على رؤية القميص فبمجرد أن أحسّ بالرائحة المنبعثة من القميص، وأحسّ يعقوب بتغير حالته، وفجأة رأى النور في عينيه وأحسّ بأنها قد فتحتا ومرة أخرى رأى جمال العالم، والقرآن الكريم يصف لنا هذه الحالة بقوله: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ آتَىٰ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَازْتَدَّ بِصِيرًا﴾.

هذه الحالة التي حصلت ليعقوب أسالت دموع الفرح من عيون الإخوة والأهل، وعند ذاك خاطبهم بقوله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي آتِيكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

هذه المعجزة الغريبة، جعلت الأولاد يعودون إلى أنفسهم ويتساءلون عنها ويفكرون في ماضيهم الأسود المليء بالأخطاء والذنوب، وما اعتورهم من الحسد وغيره من الصفات الرذيلة البعيدة عن الإنسانية، لكن ما أجمل التوبة والعودة إلى طريق الصواب حينما ينكشف للإنسان خطأ المسيرة التي سار فيها... وما أحلى تلك اللحظات التي يحاول المذنب أن يطلب العفو ممن جنى عليه، ليظهر به نفسه ويبعدها عن جادة الخطأ والانحراف، وهذا ما قام به الإخوة حيث وقعوا نادمين على يد أبيهم يقبلونها ويطلبون منه العفو والاستغفار ﴿قَالُوا يَا أَبَتَانَا آسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾.

أما يعقوب هذا الرجل العظيم الذي كانت روحه أوسع من المحيطات، فقد أجابهم دون أن يلومهم على تلك الأفعال التي اقترفوها في حقّه وحقّ أخيه... أجابهم بقوله: ﴿سَوْفَ آسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ وأملى معقود بأن يفر الله سبحانه وتعالى ذنوبكم ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

بحوث

١- **الوعد بالاستغفار:** تقرأ في الآيات - محل البحث - أن يوسف عليه السلام قال لإخوته عندما أظهروا له ندامتهم: ﴿يَتُوبُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ إلا أن يعقوب عليه السلام قال لهم عندما اعترفوا عنده بالذنب وأظهروا الندامة: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾ وكان هدفه - كما تقول الروايات - أن يؤخر إستجابة طلبهم الاستغفار إلى السحر (من ليلة الجمعة) الذي هو خير وقت لإستجابة الدعاء وقبول التوبة.

٢- **التوسل جائز:** يستفاد من الآيات - آفة الذكر - أن طلب الاستغفار من الآخرين غير مناف للتوحيد، بل هو سبيل إلى الوصول إلى لطف الله سبحانه، وإلا فكيف كان يمكن ليعقوب أن يستجيب لطلب أبنائه في أن يستغفر لهم وأن يجيبهم بالإيجاب على توسلهم به.

٣- **نهاية الليلة السوداء:** إنّ الدرس الكبير الذي نستلهمه من الآيات المتقدمة هو أنّه مهما كانت المشاكل والحوادث صعبة وعسيرة، ومهما كانت الأسباب والعلل الظاهرية غير تامة ومحدودة، ومهما كان النصر أو الفرج بطيئاً (أو غير متحقق فعلاً) فإنّ أيّاً من أولئك لا يمنع من الرجاء والأمل بلطف الله، فالله الذي أعاد البصر برائحة القميص ونقل رائحة ذلك القميص من مسافة بعيدة، وردّ العزيز المفقود بعد ستين طويلة، قادر على أن يضمّد القلوب المجرّحة من الفراق، وأن يشفي آلام النفوس.

أجل إنّنا نجد الدرس التوحيدي الكبير ينطوي في هذا القصص والتاريخ، وهو أنّه لا شيء على الله بعزير ولا عسير، بل يهون كل شيء بأمره وإرادته: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿١١١﴾ وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَى الْمَعْرَشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْتُ رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١١٠﴾ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١١١﴾

عاقبة أمر يوسف وأبيه وإخوته: مع وصول القافلة التي تحمل أعظم بشارة من مصر إلى كنعان ينبغي على أهل هذا البيت - وفقاً لوصية يوسف - أن يتحرّكوا ويتجهوا نحو مصر، وتهيات مقدمات السفر من جميع النواحي، وركب يعقوب راحلته وشفته رطبتان بذكر الله وتمجيده.

وهذا السفر كان خالياً من أية شائبة من شوائب الهمّ والغم. وحتى لو كان السفر بنفسه متعباً، فهذا التعب لم يكن شيئاً ذا بال قبال ما يهدفون إليه في مسيرهم هذا. كانوا يطوون الليالي والأيام ببطء، إلا أن القرآن الكريم - كعادته دائماً - حذف هذه المقدمات التي يمكن أن تدرك بأدنى تفكير وتأمل، فقال في هذا الشأن: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوِيهِ﴾.

«آوى»: تعني في الأصل إنضمام شيء إلى شيء آخر، وضمّ يوسف أبويه إليه كناية عن احتضانها ومعانقتها.

وأخيراً تحققت أحلى سويغات الحياة ليعقوب، وفي هذا اللقاء والوصال الذي تم بين يعقوب ويوسف بعد سنين من الفراق، مرّت على يعقوب ويوسف لحظات لا يعلم إلا الله عواطفها في تلك اللحظات الحلوة، وأية دموع إنسكبت من عينيها من الفرح. وعندها التفت يوسف إلى إخوته وأبويه ﴿وَقَالَ أَذْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ لأنّ مصر أصبحت تحت حكم يوسف في أمن وأمان واطمئنان.

ويُستشفّ من هذه الجملة أنّ يوسف كان قد خرج إلى خارج بؤابة المدينة لإستقبال والديه وإخوته، ولعل التعبير بـ ﴿دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ يحتمل أن يكون يوسف قد أمر أن تنصب الخيام هناك «خارج المدينة» وأن تُهَيَأ مقدمات الإستقبال لأبويه وإخوته. فلما دخلوا القصر أكرمهم يوسف ﴿وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾.

وكانت هذه العظمة من النعمة الإلهية واللفظ والموهبة التي من الله بها على يوسف قد أدهشت إخوة يوسف وأبويه فذهلوا جميعاً ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾.

وعندها إلتفت يوسف ﷺ إلى أبيه ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾. ألم يقل أنّي رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين؟! فانظر يا أبت كما كنت تتوقّع من عاقبة أمري ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن.

الطريف هنا أن يوسف تكلم هنا عن سجنه في مصر من بين جميع مشاكله ولم يتكلم على الحبّ مراعاةً لإخوته.

ثم أضاف يوسف قائلاً: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَلَاءِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نُزِعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾.

وأخيراً يقول يوسف: إن جميع هذه المواهب هي من قِبَلِ الله، ولم لا تكون كذلك فـ ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾.

فيتولّى أمور عباده بالتيسير والتدبير... وهو يعلم من هو المحتاج ومن هو الجدير بالاستجابة ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

ثم يلتفت يوسف نحو مالك الملك الحقيقي وولي النعمة الدائمة فيقول شاكراً راجياً: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

وهذا العلم البسيط بحسب الظاهر «تأويل الأحاديث» كم كان له من أثر عظيم في تغيير حياتي وحياة جماعة آخرين من عبادك، وما أعظم بركة العلم!

فأنت يارب: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. ولذلك فقد خضعت وإستسلمت قبال قدرتك جميع الأشياء.

ربّاه: ﴿أَنْتَ وَلِيِّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ تَوَلَّيْتَنِي مِنَ الْبَلَاءِ بِمَا أَنْصُرُكَ وَأَنْصُرُكَ بِمَا أَنْصُرُكَ﴾.

أي: إنني لا أطلب دوام الملك وبقاء الحكم والحياة المادية منك يا ربّ، لأنّ هذه الأمور جميعها فانية وليس فيها سوى البريق المذاب. بل أطلب منك يا ربّ أن تكون عاقبة أمري على خير، وأن أقضي حياتي وأموت مؤمناً في سبيلك مسلماً لإرادتك، وأن أكون في صفوف الصالحين، فهذه الأمور هي المهمة لدي فحسب.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ

﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ

مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ

مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَتَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَ

هُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾

الأدعية مشركون غالباً: بعد ما انتهت قصة يوسف عليه السلام بكل دروسها التربوية وتناجها الغزيرة والقيمة والخالية من جزاف القول والخرافات التاريخية... إنتقل الكلام إلى النبي صلى الله عليه وآله حيث يقول القرآن الكريم: ﴿فَلِكُ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾. فالوحي الإلهي فقط هو الذي جاءك بهذه الأخبار.

وكان لزاماً على الناس أن يؤمنوا بعد مشاهدتهم لعلام الوحي وسماهم هذه النصائح الإلهية، وأن يتراجعوا عن طريق الغي، ولكن يا أيها النبي: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

إن الوصف بـ(الحرص) هنا دليل على شوق ولهفة النبي صلى الله عليه وآله لأن يؤمن الناس. وهذه الآية بالإضافة إلى ما ذكرنا هي تسليّة لقلب النبي صلى الله عليه وآله حتى لا ييأس أبداً من إصرارهم على الكفر والذنوب، كما نقرأ في الآية (٦) من سورة الكهف: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْخَبِيرِ أَتَقَا﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾. فهؤلاء في الواقع ليس لهم أي عذر أو مبرر لعدم قبول الدعوة بالإضافة إلى ما اتضح من علامات الحق أنك لم تسألم أجراً حتى يكون مبرراً لمخالفتك: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.

وهذه الدعوة عامة للجميع، ومائدة واسعة للعام والخاص وكل البشرية. ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾. فهذه الدلائل يرونها بأعينهم كل يوم.

إن أسرار هذا النظام العجيب وهذا الشروق والغروب وحياة النباتات والحشرات والإنسان، وهدير المياه، وحركة النسيم، وكل هذا الفن العجيب للوجود هو من الوضوح بحيث إن لم يتدبر أحد فيه وفي خالقه سيكون كالخشب المسندة.

ولهذا فلا تعجب لعدم إيمانهم بالآيات المنزلة عليك، لأنهم لم يؤمنوا بالآيات المحيطة بهم من كل مكان ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾.

قد يتصور هؤلاء أنهم من المؤمنين المخلصين ولكن غالباً ما توجد جذور الشرك في أفكارهم وأقوالهم وضمائرهم.

فالؤمن المخلص هو الذي لا يعتقد بأي معبود سوى الله، فتكون أقواله وأعماله وكل أفعاله خاضعة له. ولا يعترف بغير قانون الله.

وفي آخر آية يحذر القرآن الكريم أولئك الذين لم يؤمنوا بعد ويمرّوا على الآيات الواضحة

مَرَّ الْكِرَامَ وَيَشْرَكُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

«الساعة»: القيامة، وقد وردت بهذا المعنى في كثير من الآيات.

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْشَسَ الرَّسُولُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَأٍ وَلَا يَرُدُّ بِأَسْنَانٍ الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

أصدق الدروس والعبر: في الآية الأولى من هذه المجموعة يتلقى النبي ﷺ الأوامر لتحديد الطريق والمنهج الذي يتبعه، فيقول القرآن الكريم: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾.

ثم يضيف: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾.

وهذه الجملة توضح أن كل فرد مسلم مقتدٍ بالرسول ﷺ له نفس الدور في الدعوة إلى الحق، ولا بد من دعوة الآخرين إلى الله، من خلال الأقوال والأفعال وكذلك تؤكد هذه الجملة على أن القائد يجب أن تكون له بصيرة ومعرفة كافية، وإلا فإن دعوته ليست إلى الحق، وللتأكيد على ذلك يضيف القرآن الكريم: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

إن وقوع هذه الآية بعد الآيات المتعلقة بيوسف تشير إلى أن طريقة ومنهج النبي لا يختلفان عن طريقة ومنهج يوسف النبي، فهو كان يدعو إلى «الله الواحد القهار» حتى في زوايا السجن، أما غيره فكان يدعو إلى أسماء انتقلت إليه بسبب التقليد من جاهل إلى جاهل آخر، أما سيرة الأنبياء والرسل كلها واحدة.

وبما أن الأقسام الضالة والجاهلة كانت دائماً تتير هذا الاعتراض على الأنبياء وهو أنكم بشر؟! ولماذا لا تكلف الملائكة لهذا الأمر؟ وبما أن الناس في الجاهلية كانوا يشيرون نفس الاعتراض بالنسبة إلى الرسول ﷺ ودعوته العامة، فإن القرآن الكريم يجيب مرة ثانية على هذا الاعتراض فيقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾. هؤلاء الرسل هم كباقي الناس يعيشون في المدن والقرى، ويتجولون بين الناس ويشعرون بآلامهم وإحتياجاتهم ومشاكلهم.

فالوصف هنا بـ ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ تشير إلى أن أنبياء الله لم ينهضوا من بين سكنة الصحراء لأن سكان البادية يتصفون بالجهل وعدم المعرفة وقلوبهم قاسية ويمتازون بقلّة معلوماتهم عن الحياة ومتطلباتها.

ولكن الرسول من أهل مكة التي تعتبر مدينة كبيرة نسبياً.

ثم يبيّن القرآن الكريم: إذا ما أراد هؤلاء أن يعلموا عاقبة مخالفتهم لدعوتك التي هي الدعوة إلى الله فإنّ عليهم أن يسيروا ليروا آثار السابقين: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

إنّ السير والتجوال في الأرض لمشاهدة آثار الماضين وخراب دورهم ومدنهم بسبب العذاب الإلهي، أفضل درس لهم، درس حي وملموس للجميع، ﴿وَلَنَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. لماذا؟ لأنّ الدنيا دار مليئة بالمصائب والآلام وغير باقية، أمّا الآخرة فدار خالدة وخالية من الآلام والعذاب.

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُفِّرُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ فَأَنبَتْنَا مِنْ ثَمَرِهِمْ عَذَابًا﴾.

تشير هذه الآية إلى أدقّ وأصعب لحظة في حياة الأنبياء فتقول: إنّ الأنبياء يواجهون دائماً مقاومة عنيفة من قبل أقوامهم وطواغيت زمانهم حتى يصل الحال بالأنبياء إلى اليأس إلى حدّ يظنون أن أتباعهم المؤمنين القليلين قد كذبوا عليهم وتركوهم وحدهم في مسيرتهم في الدعوة إلى الحق، وفي هذه الأثناء حيث إنقطع أملهم في كل شيء أتاهم نصرنا، وفي نهايتها تشير إلى عاقبة المجرمين ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

فهذه سنة الله في الذين أصروا على أعمالهم وأغلقوا باب الهداية على أنفسهم، فهم وبعد إتمام الحجة عليهم ينالهم العذاب الإلهي فلا تستطيع أي قوة أن تردّه.

وآخر آية من هذه السورة ذات محتوى شامل وجامع لكل الأبحاث التي ذكرناها في هذه

السورة، وهي: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

فهي مرآة يستطيعون من خلالها أن يروا عوامل النصر والهزيمة، الهناء والحerman، السعادة والشقاء، العزّ والذلة، والخلاصة كل ما له قيمة في حياة الإنسان وما ليس له قيمة. وهي مرآة لكل تجارب المجتمعات السابقة والرجال العظام، ومرآة نشاهد فيها ذلك العمر القصير للإنسان كيف يطول بمقدار عمر كل البشر. ولكن أولي الألباب وذوي البصائر فقط باستطاعتهم أن يشاهدوا العبر في صفحة المرأة العجيبة هذه: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

فهذه الآيات التي أنزلناها عليك والتي أزاحت الستار عن التاريخ الصحيح للأمم السابقة ليست من العلم البشري الذي يمكن معرفته عن العلماء، بل إنّ الكتب السماوية السابقة تشهد على ذلك وتصدّقه وتؤيّد به وبالإضافة إلى ذلك ففي هذه الآيات كل ما يحتاجه الإنسان في تأمين سعادته وتكامله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

ولهذا السبب فهي ﴿هُنَالَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

«نهاية تفسير سورة يوسف»



مركز بحوث الكمبيوتر علوم إلكترونية



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



محتوى السورة: كما قلنا سابقاً، بما أن السور المكية كان نزولها في بداية دعوة النبي ﷺ وأثناء محاربه للمشركين، فإنها غالباً ما كانت تتحدث عن المسائل العقائدية وخصوصاً الدعوة إلى التوحيد والمعاد ومحاربة الشرك، في الوقت الذي نرى فيه أن السور المدنية نزلت بعد إنتشار الإسلام وقيام الحكومة الإسلامية، فقد تناولت الأحكام والمسائل المتعلقة بالنظام الاجتماعي واحتياجات المجتمع.

فهذه السورة (سورة الرعد) التي هي من السور المكية لها نفس الخصائص السابقة، فبعد ما تشير إلى أحقية القرآن وعظمته، تتطرق إلى آيات التوحيد وأسرار الكون التي هي من دلائل ذات الله المقدسة.

ثم تتطرق إلى المعاد وبعث الإنسان من جديد ومحكمة العدل الإلهي، وهذه المجموعة من أصول المبدأ والمعاد تبين مسؤولية ووظائف الناس.

ثم لمعرفة الحق من الباطل، الأمثال الحية والقابلة للإدراك.

ومن هنا فالحصول النهائية للإيمان بالتوحيد والمعاد هي تلك التطبيقات العملية والحية لها، فالقرآن في هذه السورة يدعو الناس إلى الوفاء بالعهد وصلة الأرحام والصبر والاستقامة والإنفاق في السر والعلانية والنهي عن الإنتقام، ويوضح لهم أن الدنيا فانية،

والطمأنينة والراحة لا تحصلان إلا في ظل الإيمان بالله.

وفي النهاية يأخذ بأيدي الناس ويغور بهم في أعماق التاريخ، ويريمهم العواقب السيئة للذين طغوا وعصوا وأبعدوا الناس عن الحق، ويختم السورة بتهديد الكفار. إذن فالسورة تبتدىء بالعقائد والإيمان وتنتهي بالبرامج التربوية للإنسان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ
 ① اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ②
 وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجِينَ
 آثِنِينَ يُغْشَى الْيَلَّ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ③ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ
 مِّنْ مَّجَازٍ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ
 وَنُفِضَ لِّبَعْضِهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ④

آيات الله في السماء والأرض وعالم النبات: مرّة أخرى نواجه الحروف المقطعة في بداية هذه السورة، تنفرد عن غيرها من السور بـ ﴿القر﴾. فمن المحتمل أن هذا التركيب في بداية سورة الرعد يشير إلى جمعها لمحتوى مجموعتين من السور التي تبتدىء بـ ﴿آلم﴾ و ﴿آلر﴾.

فالآية الأولى من هذه السورة تتحدّث عن عظمة القرآن ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾. ولا يوجد أي شك أو ترديد في هذه الآيات، لأنها تبين عين الحقيقة للكون ونظامه المرتبط بالإنسان، فهو حق لا يشوبه باطل، ولهذا السبب فإنّ علامة الحق واضحة فيه لا تحتاج إلى براهين ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ثم تنطرق السورة إلى شرح القسم المهم من أدلة التوحيد وآيات الله في الكون، وتتجول بالإنسان في عرض السماوات وترية الكواكب العظيمة وأسرار هذا النظام وحركته، حتى يؤمن بالقدرة المطلقة والحكمة اللامتناهية ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.

إنّ هذه الآية تكشف عن حقيقة علمية لم تكن معروفة عند نزول الآيات الكريمة، لأنّه في ذلك الوقت كانت نظرية «بطليموس» في الهيئة تتحكّم في المحافل العلمية في العالم وعلى أفكار الناس وطبقاً لهذه النظرية فإنّ السماوات عبارة عن أجرام متداخلة تشبه قشور البصل وإنّها لم تكن معلقة وبدون عمد بل كل واحدة منها تستند إلى الأخرى.

ولكن بعد نزول هذه الآيات بألف سنة تقريباً توصل علم الإنسان إلى أنّ هذه الفكرة غير صحيحة، فالحقيقة أنّ الأجرام السماوية لها مقرّ ومدار ثابت، ولا تستند إلى شيء، فالشيء الوحيد الذي يجعلها مستقرة وثابتة في مكانها هو تعادل قوة التجاذب والتنافر، فالأولى تربط الأجرام فيما بينها، والأخرى لها علاقة بحركتها.

هذا التعادل للقوتين الذي يشكّل أعمدة غير مرئية يحفظ الأجرام السماوية ويجعلها مستقرة في مكانها.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾. في خصوص معنى العرش والإستواء عليه هناك شرح وافٍ عنه في ذيل الآية (٥٤) من سورة الأعراف.

وبعد أن بيّن خلق السماوات وهيمنة الخالق عليها، تحدّث عن تسخير الشمس والقمر ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾.

ولكن هذا النظام المادي ليس أبدياً، بل ﴿كُلُّ نَجْوَىٰ لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. ثم يضيف بعد ذلك: إنّ هذه الحركات والتغيرات في الأحوال ليست بدون حساب وكتاب، وبدون فائدة ونتيجة، بل ﴿يُنَبِّئُ الْأُمَمَ بِقَعْلِ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾. وتعقيباً للآيات السابقة التي نقلت الإنسان إلى السماء تنقله الآية الثانية من آيات التوحيد إلى كتاب الكون أي الأرض والجبال والأنهار وأنواع الثمار وشروق الشمس وغروبها. قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ وبسطها بالشكل الذي تنهياً فيه لحياة الإنسان ونمو النباتات والحيوانات.

ثم يشير القرآن الكريم إلى ظهور الجبال ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾. فهي تلك الجبال التي عبّرت عنها في آيات أخرى بـ(الأوتاد) ولعلّ ذلك إشارة إلى أنّها متشابكة فيما بينها من الأسفل مثلها مثل الدرع الواقي وتغطّي سطح الأرض، فهي تبطل الضغوط الداخلية في الأسفل والضغط الخارجي المتمثّل بجاذبية القمر والمدّ والجزر، وكذلك تقضي على الاضطرابات والزلازل، وتجعل الأرض مستقرّة وساكنة وصالحة لحياة الإنسان.

ثم تضيف الآية بعد ذلك الأنهار: ﴿وَأَنْهَارًا﴾.

رائع جداً نظام سقي الأرض بواسطة الجبال، وعلاقة الأنهار بالجبال، لأن كثيراً من الجبال تخزن المياه بشكل ثلوج على قممها وفي شقوق الوديان، ثم تذوب تدريجياً، وطبقاً لقانون الجاذبية تأخذ طريقها من المناطق المرتفعة إلى المناطق المنخفضة بدون أن تحتاج إلى قوة أخرى لمساعدتها.

ثم يذكر القرآن بعد ذلك النباتات والأشجار التي تتكوّن من الأرض والمياه وأشعة الشمس، والتي هي أفضل وسيلة لإمرار الإنسان بالغذاء: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلْنَا فِيهَا رُؤُوسًا لِّأَنْتَنِينَ﴾.

والآية تشير هنا إلى أن الفاكهة كائنات حيّة فيها الذكر والأنثى، وبواسطة التلقيح تتكوّن الثمار.

فإذا كان العالم السويدي «لينه» المختص بعلم النبات هو الذي توصل إلى هذه الحقيقة في حوالي منتصف القرن الثامن عشر الميلادي وهي أن التزويج في عالم النباتات يعتبر قانوناً عاماً فالقرآن الكريم قبل ألف واربعمائة عام من ذلك كشف لنا عن هذه الحقيقة وهذه واحدة من معجزات القرآن العلمية التي تبين عظمة هذا الكتاب السماوي الكبير.

وبما أن حياة الإنسان وكل الكائنات - وخصوصاً النباتات - لا يمكن لها الإستمرار إلا بوجود نظام دقيق لليل والنهار، فإن القرآن يشير إلى ذلك في القسم الآخر من الآية ﴿يُغْشَى اللَّيْلَ أَنتَهَارًا﴾. ولولا ظلمة الليل وهدوؤه، لأحرقت الشمس بنورها المستمر كل النباتات، ولم تبق فاكهة ولا أي كائن حي على وجه الأرض.

وتبين الآية في النهاية: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وفي الآية الأخيرة من هذه المجموعة يشير القرآن الكريم إلى عدّة نقاط حول علم الأرض وعلم النبات، والتي تعبر عن النظام الدقيق للخلقة، يقول أولاً: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَرِزْقٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ﴾^١.

«صنوان»: جمع «صنو» تعني الأغصان المختلفة الخارجة من أصل الشجرة.

وهذه قد تشير إلى قابلية الأشجار للتركيب. ففي بعض الأحيان يتم تركيب عدة أغصان مختلفة على ساق واحدة، وبعد نمو هذه التراكيب تعطي كل واحدة منها نوعاً خاصاً

١. «أعناب»: جمع عنب؛ و«النخيل»: جمع نخلة، ويحتمل أنهما ذكرتا بصيغة الجمع للدلالة على الأنواع المختلفة للعنب والتمر والتي قد تصل إلى مئات الأنواع في العالم.

من الثمر، فالتربة واحدة والساق والجذر واحد ولكن الثمر مختلف.
والأعجب من ذلك أنها تسقى بماء واحد ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُقِضَلُ بِغَضِّهَا عَلَيَّ بَغِضٍ فِي الْأَكْلِ﴾.

أليست هذه الأسرار تدلّ على وجود من يقود هذا النظام بالعلم والحكمة؟! وهنا في آخر الآية يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَمْ نَأْتِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾

تعجب الكفار من المعاد: بعد ما انتهينا من البحث السابق عن عظمة الله ودلائله، تنطرق الآية الأولى من هذه المجموعة إلى مسألة المعاد التي لها علاقة خاصة بمسألة المبدأ، ويؤكد القرآن الكريم هذا المعنى حيث يقول: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَمْ نَأْتِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾. أي: إذا أردت أن تتعجب من قولهم هذا فتعجب لقولهم في المعاد.

ثم يبيّن حالهم الحاضر ومصيرهم في ثلاث جمل:

يقول أولاً: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾؛ لأنهم لو كانوا يعتقدون بربوبية الله لما كانوا يترددون في قدرة الله على بعث الإنسان من جديد، وعلى هذا فسوء ظنهم بالمعاد هو نتيجة لسوء ظنهم بالتوحيد وربوبية الله.

والأمر الآخر أنه بكفرهم وعدم إيمانهم وخروجهم من ساحة التوحيد قيّدوا أنفسهم بالأغلال، أغلال عبادة الأصنام والأهواء والمادة والجهل والخرافة، وجعلوها في أعناقهم ﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾.

ومثل هؤلاء الأشخاص ليس لهم عاقبة سوى دخول النار ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وفي الآية الثانية يشير إلى دعوى أخرى للمشركين حيث يقول: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ بدلاً من طلب الرحمة ببركة وجودك بينهم.

وهل يعتقدون بكذب العقوبات الإلهية؟ ﴿وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ﴾^١
ثم تضيف الآية: ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ۗ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾
طريقة أخرى: بعد ما أشرنا في الآيات السابقة إلى مسألة «التوحيد» و«المعاد» تتطرق هذه الآية إلى واحدة من إعتراضات المشركين المعاندين حول مسألة النبوة: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾.
ومن الواضح أن إحدى وظائف النبي ﷺ إظهار معاجزه لكي يدل على صدقه وصلته بالوحي الإلهي.

إن أعداء الأنبياء لم يكن لديهم حُسن نية أو أتباع للحق عند طلبهم المعجزة، بل لعنادهم وعدم تسليمهم للأمر الواقع ولذلك كانوا يقترحون بين فترة وأخرى معاجز عجيبة وغريبة. وهذه ما يسمى بـ«المعجزات الأخلاقية».
ولكن الأنبياء كانوا يقولون لهم الحقيقة وهي أن المعاجز بيد الله، ورسالتنا هداية الناس. ولذلك نقرأ في تكملة الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.
فمعى الآية: إن الكفار نسوا أن هدف الأنبياء الإنذار والدعوة إلى الله، واعتقدوا أن وظيفتهم القيام بالمعاجز.

وجه التفاوت بين «الإنذار» و«الهداية» هو إن الإنذار للذين أضلوا الطريق ودعوتهم تكون إلى الصراط المستقيم، ولكن الهداية والإستقامة للذين آمنوا.
هناك روايات عديدة تؤكد ما قلناه سابقاً، ففي تفسير جامع البيان عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ وضع ﷺ يده على صدره فقال: «أنا المنذر ولكل قوم هاد». وأوماً بيده إلى منكب عليّ فقال: «أنت الهادي يا عليّ بك يهتدي المهتدون بعدي».

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدَادُ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَن أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾

١. «المثلات»: جمع «مثلة» بفتح الميم وضمّ التاء ومعناها العقوبات النازلة على الأمم الماضية.

علم الله المطلق؛ نقرأ في هذه الآيات قسماً من صفات الخالق، والتي تسكل بحث التوحيد والمعاد، فالحديث عن علمه الواسع ومعرفته بكل شيء. تقول الآية أولاً: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ﴾ في رحمها، سواء من أنثى الإنسان أو الحيوان، بل بكل خصائصه والطاقة الكامنة فيه؛ ﴿وَمَا تُغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾. أي: تنقص قبل موعدها المقرر ﴿وَمَا تَزِدُ﴾^١. أي: يعلم بما تزيد عن موعدها المقرر.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾. ولكي لا يتصور أحد أن هذه الزيادة والنقصان بدون دليل، كما أن للجنين ودم الرحم مقدار أيضاً، فالآية التي بعدها تؤكد ما قلناه في الآية السابقة حيث تقول: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ فعلمه بالغيب والشهادة لهذا السبب ﴿الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ﴾ فهو يحيط بكل شيء، ولا يخفى عنه شيء.

ولتكميل هذا البحث وتأكيد علمه المطلق يضيف القرآن الكريم: ﴿سَوَاءٌ مِّنْ أَسْرَارِ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾.

لَهُ مَعْقِبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِمَّنْ أَمَرَ اللَّهُ ابْنَ اللَّهِ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن

مرآة تحتية كالمعبر عن طريق

وَالِ ١١

المعقبات الغيبية؛ علمنا في الآيات السابقة أن الله بما أنه عالم الغيب والشهادة فإنه يعلم أسرار الناس وخفاياهم، وتضيف هذه الآية أنه مع حفظ وحراسة الله لعباده فإن ﴿لَهُ مَعْقِبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِمَّنْ أَمَرَ اللَّهُ﴾.

في تفسير البرهان عن الإمام الباقر^(ع) في تفسير هذه الآية يقول: «بأمر الله من أن يقع في ركي، أو يقع عليه حائط أو يصيبه شيء، حتى إذا جاء القدر خلوا بينه وبينه يدفعونه إلى المقادير، وهما ملكان يحفظانه بالليل وملكان بالنهار يتعاقبان».

ولكي لا يتصور أحد أن هذا الحفظ بدون شروط وينغمس في المزلات، أو يرتكب الذنوب الموجبة للعقاب، ومع كل ذلك ينتظر من الله أو الملائكة أن يحفظوه، يعلل القرآن ذلك بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

وكي لا يتبادر إلى الأذهان أنه مع وجود الملائكة الحافظة فأي معنى للعذاب أو الجزاء؟

١. «تغيض»: أصلها التغيض بمعنى ابتلاع السائل وهبوط مستوى الماء. وتأتي بمعنى النقصان والنساق.

هنا تضيف الآية: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾. ولهذا السبب فإنه حين صدور العذاب الإلهي على قوم أو أمة، فسوف ينتهي دور المعقبات ويتركون الإنسان عرضةً للحوادث.

«المعقبات»: جمع «معقبة» وهي بدورها جمع «معقّب» ومعناه المجموعة التي تعمل بشكل متناوب ومستمر.

التغيير يبدأ من النفس (قانون عام): تبين الجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ والتي

جاءت في موردين متفاوتين في القرآن الكريم، أنها قانون عام، وقانون حاسم ومنذر. إن هذا الأصل القرآني الذي يبين واحداً من أهم المسائل الاجتماعية في الإسلام، يؤكد لنا أن أي تغيير خارجي للأمم مرتبط بالتغيير الداخلي لها، وأي نجاح أو فشل يصيب الأمة ناشئ من هذا الأمر، والذين يبحثون عن العوامل الخارجية لتبرير أفعالهم وتصرفاتهم ويعتبرون القوى المستعمرة والمتسلطة هي السبب في شقائهم يقعون في خطأ كبير، لأن هذه القوى الجهنمية لا تستطيع أن تفعل شيئاً إذا لم تكن لديها قدرة ومركز في داخل المجتمع. يقول هذا الأصل القرآني: إننا يجب أن نفور من الداخل كي نتهي حالة الشقاء والحرمان، ثورة فكرية وثقافية، ثورة إيمانية وأخلاقية، وأثناء وقوعنا في محالب الشقاء يجب أن نبحت فوراً عن نقاط الضعف فينا، ونظهر أنفسنا منها بالتوبة والرجوع إلى الله، ونبدأ حياة جديدة مفعمة بالنور والحركة، كي نستطيع في ظلها أن نبدل الهزيمة إلى نصر.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾
 وَيُسَيِّحُ الرَّعْدَ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكَةَ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ
 بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ
 يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كَبْسٌ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ
 وَمَا دَعَا الْكُفْرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا
 وَظُلْمًا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾

قسم آخر من دلائل عظمة الله: يتطرق القرآن الكريم مرّة ثانية إلى آيات التوحيد وعلامات العظمة وأسرار الخلق، فتشير أولاً إلى البرق: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا

وَطَمَعًا ﴿١٢﴾. فالبرق بشعاعه يبهر العيون من جانب، ومن جانب آخر فإنه يسبب هطول الأمطار ويروي ظمأ الصحراء ويسقي المزروعات فيطمع فيه الناس، وبين هذا الخوف والرجاء تمرّ عليهم لحظات حساسة

ثم تضيف الآية: ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ القادرة على إرواء ظمأ الأراضي الزراعية. الآية الأخرى تشير إلى صوت الرعد الذي يتزامن مع البرق ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾. نعم، فهذا الصوت المدوّي في عالم الطبيعة يُضرب به المثل، فهو مع البرق في خدمة هدف واحد، ويقومان بعملية التسبيح، وبعبارة أخرى فالرعد لسان حال البرق يحكي عن عظمة الخالق وعن نظام التكوين.

وليس الرعد وسائر أجزاء العالم تسبّح بحمده تعالى، بل حتى الملائكة ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾. فهم يخافون من تقصيرهم في تنفيذ الأوامر الملقاة على عاتقهم، وبالتالي فهم يخشون العقاب الإلهي، ونحن نعلم أنّ الخوف يُصيب أولئك الذين يحسّون بمسؤولياتهم ووظائفهم... خوف بناءً على الشخص على السعي والحركة.

وللتوضيح أكثر في مجال البرق والرعد تشير الآية إلى الصاعقة: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾. ومع كل ذلك - وبمشاهدة آيات العظمة الإلهية في عالم التكوين من السماء والأرض والنباتات والأشجار والبرق والرعد وأمثالها، وفي قدرة الإنسان الحقيرة تجاه هذه الحوادث، حتى في مقابل واحدة منها مثل شرارة البرق - نرى أنّ هناك جماعة جاهلة تجادل في الله ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَجَالِ﴾.

«الحال»: في الأصل «الحيلة» بمعنى التدبير السري وغير الظاهر، فالذي له القدرة على هذا التدبير يمتلك العلم والحكمة العالية، ولهذا السبب يستطيع أن ينتصر على أعدائه ولا يمكن الفرار من حكومته.

الآية الأخيرة تشير إلى مطلبين:

الأول: قوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾. فهو يستجيب لدعواتنا، وهو عالم بدعاء العباد وقادر على قضاء حوائجهم، ولهذا السبب يكون دعاؤنا إيّاه وطلبنا منه حقاً، وليس باطلاً. ولكن دعاء الأصنام باطل ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾.

ولتصوير هذا الموضوع يضرب لنا القرآن الكريم مثلاً حياً ورائعاً يقول: ﴿إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾. فهل يستطيع أحد أن يجلس على بئر ويطلب الماء بإشارة يدٍ ليلبغ الماء فاه؟ هذا العمل لا يصدر إلا من إنسان مجنون.

وللتأكيد على هذا الحديث يأتي في نهاية الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾. وأي ضلال أكبر من أن يسعى الإنسان ويجتهد في السبيل الضال... ولكنه لا يصل إلى مقاصده.

الآية الأخيرة من هذه المجموعة، ولكي تُبرهن كيف أن المشركين ضلوا الطريق تقول: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا بِالْغُلُوبِ وَالْأَصَالِ﴾.

السجدة في هذه الموارد تعني الخضوع والتسليم، وهناك نوعان من السجود، سجود تكويني وهو أن الكل خاضعون ومسلمون للقوانين الطبيعية مثل الحياة والموت والمرض و...، والبعض منهم له سجود تشريعي بالإضافة إلى السجود التكويني، فهم بميلهم وإرادتهم يسجدون لله.

عبارة ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ يمكن أن تكون إشارة إلى أن المؤمنين خاضعون لله بميلهم وإرادتهم، وأما غير المؤمنين فهم خاضعون كذلك للقوانين الطبيعية التي تسير بأمر الله إن شاؤوا وإن أبوا.

«الظلال»: جمع «ظل» واستعمال هذه الكلمة في الآية يشير إلى أن المقصود في السجود ليس فقط السجود التشريعي، فظلال الكائنات ليست خاضعة لإرادتهم واختيارهم، بل هو تسليم لقانون الضوء، وعلى هذا يكون سجودهم تكويني، يعني التسليم للقوانين الطبيعية.

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾

لماذا عبادة الأصنام؟ كان البيان في الآيات السابقة عن معرفة الله وإثبات وجوده، وهذه الآية تبحث عن ضلال المشركين والوثنيين وتتناوله من عدة جهات، حيث تخاطب - أولاً - النبي ﷺ حيث تقول: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. ثم تأمر النبي أن يجيب على السؤال قبل أن ينتظر جوابهم: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾. ثم إنه يلومهم ويوبخهم بهذه الجملة: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾.

ثم يذكر مثالين واضحين وصریحين يحدّد فيها وضع الأفراد الموحدين والمشركين،

فيقول أولاً: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾. فكما لا يستوي الأعمى والبصير لا يستوي المؤمن والكافر، ولا يصح قياس الأصنام على الخالق جلّ وعلا.

ويقول ثانياً: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾. كيف يمكن أن نجعل الأصنام التي هي الظلمات المحضة إلى جنب الله الذي هو النور المطلق؟

ثم يُدلل على بطلان عقيدة المشركين عن طريق آخر فيقول: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾. والحال ليس كذلك، فإن المشركين أنفسهم لا يعتقدون بها، فهم يعلمون أن الله خالق كل شيء، وعالم الوجود مرتبط به، ولذلك تقول الآية: ﴿قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

يستفاد من الآية أعلاه أن الخلقة أمر مستمر ودائم، وإنه تعالى يفيض بالوجود عليهم باستمرار وكل شيء يأخذ وجوده من ذاته المقدسة، وعلى هذا فنظام الخلقة وتدير العالم كلها بيد الله.

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

وصف دقيق لمنقر الحق والباطل: يستند القرآن الكريم - الذي يعتبر كتاب هداية وتربية - في طريقته إلى الوقائع العينية لتقريب المفاهيم الصعبة إلى أذهان الناس من خلال ضرب الأمثال الحسية الرائعة من حياة الناس، وهنا - أيضاً - لأجل أن يُجسّم حقائق الآيات السابقة التي كانت تدور حول التوحيد والشرك، الإيمان والكفر، الحق والباطل، يضرب مثلاً واضحاً جداً لذلك ..

يقول أولاً: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾. الماء عماد الحياة وأصل النمو والحركة، ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ تتقارب السواقي الصغيرة فيما بينها، وتتكوّن الأنهار وتتصل مع بعضها البعض، فتسيل المياه من سفوح الجبال العظيمة والوديان وتجرف كل ما يقف أمامها، وفي هذه الأثناء يظهر الزبد وهو ما يرى على وجه الماء كرجوة الصابون من بين أمواج الماء حيث يقول القرآن الكريم: ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾.

وليس ظهور الزبد منحصرأ بهطول الأمطار، بل ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءً

حَلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ ﴿١٨﴾. أي: الفلزات المذابة بالنار لصناعة أدوات الزينة منها أو صناعة الوسائل اللازمة في الحياة.

بعد بيان هذا المثال بشكله الواسع لظهور الزبد ليس فقط في الماء بل حتى للفلزات وللمتاع، يستنتج القرآن الكريم: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾. ثم يتطرق إلى شرحه فيقول: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾.

وفي آخر الآية - للمزيد من التأكيد في مطالعة هذه الأمثال - يقول تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾.

المثال يعتم المفاهيم: كثير من البحوث العلمية بشكلها الأصلي يفهمها الخواص فقط، ولا يستفيد منها عامة الناس، ولكن عندما يصحبها المثال تكون قابلة للفهم، ويستفيد منها الناس على اختلاف مستوياتهم العلمية، ولهذا فالمثال وسيلة لتعميم الفكر والثقافة.

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ تِلْكَ الْأَرْضُ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ مَآبٍ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾

الذين استجابوا لدعوة الحق: بعد ما كشفت الآيات السابقة عن وجهي الحق والباطل من خلال مثال واضح وبلغ، أشارت هذه الآية إلى مصير الذين استجابوا لربهم والذين لم يستجيبوا لهذه الدعوة وانجسوا صوب الباطل. تقول أولاً: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ﴾.

«الحسنى»: في معناها الواسع تشمل كل خير وسعادة.

ثم تضيف الآية: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ تُوَّأْنًا لَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾.

لا توجد صيغة أوضح من هذه الآية في بيان شدة عذابهم وعقابهم، يمتلك الإنسان كل ما في الأرض وضعفه أيضاً ويفتدي به للنجاة ولا يحصل النجاة. تشير هذه الجملة في الواقع إلى آخر أمنية والتي لا يمكن أن يتصور أكثر منها، وهي أن يمتلك الإنسان كل ما في الأرض، ولكن شدة العذاب للظالمين ومخالفتي الحق تصل بهم إلى درجة أن يفتدوا بكل هذه الأمنية

أو بأكثر منها لنجاتهم.

وعلى أثر هذا الشقاء (عدم قبول ما في الأرض مقابل نجاتهم) يشير القرآن الكريم إلى شقاء آخر ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾. يعني أن هؤلاء الأفراد يحاسبون حساباً دقيقاً، وأثناء حسابهم يُوبخون ويُلامون ومن ثم يستقصى منهم.

وفي نهاية الآية إشارة إلى الجزاء الثالث أو النتيجة النهائية لجزائهم ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِمَنزُومِينَ﴾.

«المهاد»: جمع «مهد»، بمعنى التهيؤ، ويستفاد منها معنى السرير الذي يستخدم لراحة الإنسان، هذا السرير يهياً للاستراحة، وقد ذكر القرآن الكريم هذه الكلمة للإشارة إلى أن هؤلاء الطغاة بدلاً من أن يستريحوا في مهادهم يجب أن يحرقوا بلهيب النار.

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾

الأبواب الثمانية للجنة وصفات أولي الأبواب: تتحدث هذه الآيات عن سيرة أولي الأبواب وصفاتهم الحسنة، وفيها تكميل للبحث السابق. في الآية الأولى من هذه المجموعة إستفهام إنكاري: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾. وهذه إشارة لطيفة إلى أنه من المحال أن لا يعلم أحد بهذه الحقيقة إلا أن يكون أعمى القلب، ولذلك يجيء في نهاية الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

«الأبواب»: جمع «لب» بمعنى جوهر الشيء، ويقابل أولي الأبواب أولوا الجهل والعمى. إن هذه الآية تحث الناس على طلب العلم ومحاربة الجهل، لأنها تعد الفرد الفاقد للعلم كمن هو أعمى، ثم يبين سيرة أولي الأبواب من خلال ذكر صفاتهم الحميدة، وأول ما أشار القرآن إليه وفاؤهم بالعهد وعدم نقضهم له ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ﴾.

إنَّ «عهد الله» له معنى واسع، ويشمل العهود القطرية التي عاهدوا بها ربهم كالفطرة على التوحيد وحب الحق والعدالة، والمواثيق العقلية التي يدركها الإنسان من خلال التفكير والتعقل لعالم الوجود، والمبدأ والمعاد، وتشمل كذلك العهود الشرعية، وهي ما عاهدوا الرسول ﷺ عليه من الطاعة للأوامر الإلهية وترك المعاصي والذنوب.

الصفة الثانية من صفات أولي الألباب هي: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾.

فالإنسان له صلوات وروابط كثيرة، صلته مع ربه، ومع الأنبياء والقادة، وروابطه مع الأصدقاء والجيران والأقرباء ومع كل الناس، والآية تأمر أن تُحترم هذه الصلوات والإنسان ليس منزوياً أو منفكاً من عالم الوجود، بل تحكم كل وجوده الصلوات والروابط.

الصفة الثالثة والرابعة من سيرة أولي الألباب هي قوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾.

الصفة الخامسة من صفات أولي الألباب الإستمقامة في مقابل جميع المشاكل التي يواجهها الإنسان في مسيرة الطاعة وترك المعصية، وجهاد الأعداء ومحاربة الظلم والفساد، والصبر في مرضاة الخالق، ولذلك يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾^١. فإن هذه الجملة تبين أن كل صبر وعمل خير تكون له قيمة عندما يصبح لوجه الله، وأي عمل آخر يقع تحت تأثير الرياء والغرور لا قيمة له مطلقاً.

الصفة السادسة من صفاتهم هي: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.

إنَّ الإنسان يجدد عهده وصلته بالله سبحانه وتعالى صباحاً ومساءً، ويتفكر بعظمة الخالق ويدعوه، ويُطهر نفسه من الذنوب، ويرتبط بالحق المطلق.

ثم يبيِّن الصفة السابعة لدعاة الحق حيث يقول تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

فالصلاة تُحکم الصلة بين العبد وربّه والزكاة بين العباد.

والجملة ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ تشمل كل العطايا من الأموال والعلوم والقوة والجاء، والإنفاق كذلك يشمل جميع هذه الأبعاد.

١. ليس الصبر على الطاعة والمعصية والمعصية فقط بل الصبر على النعم كذلك حتى لا يصيب الإنسان الغرور.

والعبارة ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ إشارة أخرى إلى هذه الحقيقة وهي أن إنفاقهم يتم بشكل مدروس، فتارةً يكون سرّاً ويترتب عليه أثر كبير، وذلك في الحالات التي تصون الطرف المنفق من الرياء، ومرةً يكون الإنفاق العلني أكثر تأثيراً وذلك في الحالات التي تدعو الآخرين لكي يتأسوا بهذا العمل الخير ويقتدوا به، فيكون سبباً لكثير من أعمال الخير.

الصفة الثامنة والأخيرة هي قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ الْسَّيِّئَةَ﴾.

ومعنى هذه العبارة أنهم لم يكتفوا بالتوبة والاستغفار فقط عند ارتكابهم الذنوب، بل يدفعونها كذلك بالحسنات على مقدار تلك الذنوب، حتى يطهروا أنفسهم والمجتمع بماء الحسنات. ويحتمل في تفسير الآية أنهم لا يقابلون السيء بالسيء، بل يسعون من خلال إحسانهم للمسيئين أن يجعلوهم يعيدون النظر في مواقفهم.

وبعد ما ذكر القرآن الكريم الصفات الثمانية لأولي الألباب، أشار في نهاية الآية إلى عاقبة أمرهم حيث يقول تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

الآية الأخرى توضح هذه العاقبة ﴿جَنَاتٌ عَذْبٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾.

والشيء الذي يكمل هذه النعم الكبيرة واللامتناهية ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾. فهذه السلامة جاءت بعد ما صبرتم على الشدائد وتحملتكم المسؤوليات الجسام والمصائب، ولكم هنا كامل الطمأنينة والأمان، فلا حرب ولا نزاع، وكل شيء يبتسم لكم، والراحة الخالية من المتاعب - هنا - معدة لكم.

يستفاد من آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة أن للجنة عدّة أبواب، ولكن هذا التعدد للأبواب بسبب الأعمال المختلفة للأفراد.

ومن الظريف أن القرآن الكريم - في الآية (٤٤) من سورة الحجر - يذكر لجهنم سبعة أبواب ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾. وهذه إشارة إلى أن طرق الوصول إلى السعادة وجنة الخلد أكثر من طرق الوصول إلى الشقاء والجحيم، ورحمة الله سبقت غضبه.

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٤٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ﴿٤٦﴾

المفسدون في الأرض: بعد ما ذكرت الآيات السابقة صفات أولي الأبواب ودعاة الحق، أشارت هذه الآيات إلى قسم من الصفات الأصلية للمفسدين الذين فقدوا حظهم من العلم والمعرفة حيث يقول جلّ وعلا: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾^١.

في الحقيقة يتلخص فساد عقيدتهم في الجمل الثلاث الآتية:

- ١- نقض العهود الإلهية: وتشمل المواثيق الفطرية والعقلية والتشريعية.
 - ٢- قطع الصلات: وتشمل الصلة مع الله والرسول والناس ومع أنفسهم.
 - ٣- الإفساد في الأرض: وهو نتيجة حتمية لنقض العهود وقطع الصلات.
- قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾. وهذه إشارة لأولئك الذين يسعون للحصول على دخل أكثر فهم يفسدون في الأرض وينقضون عهد الله ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل لكي يزيدوا من دخلهم المادي، وهم غافلون عن هذه الحقيقة وهي أن الرزق - في زيادته ونقصه - بيد الله سبحانه وتعالى.
- ثم تضيف الآية: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَشْرَفُ ﴿٢٩﴾

ألا بذكر الله تطمئن القلوب: في سورة الرعد بحوث كثيرة حول التوحيد والمعاد والنبوة، فالآية الأولى من هذه المجموعة تبحث مرة أخرى في دعوة الرسول ﷺ وتبين واحداً من أعذار المشركين المعاندين حيث يقول تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾.

إن هؤلاء يتوقعون من النبي أن يجلس في زاوية الدار ويظهر لكل واحد منهم المعجزة التي يقترحها، فإن لم تعجبهم لم يؤمنوا بها.

ويجيبهم القرآن الكريم حيث يقول: ﴿قُلْ إِنْ أَلَّ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾. وهذه إشارة إلى أن العيب ليس من ناحية الإعجاز، لأن الأنبياء قد أظهروا كثيراً من

١. «اللعن»: بمعنى الطرد مع الغضب، واللعن في الآخرة تشير إلى العقوبة وفي الدنيا الإبتعاد من رحمة الله.

المعاجز، ولكن النقص من داخل أنفسهم. وهو العناد والتعصب والجهل والذنوب التي تصدّ عن الإيمان.

تُشير الآية الثانية بشكل رائع إلى تفسير ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ حيث يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾. ثم يذكر القاعدة العامة والأصل الثابت حيث يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

وتبحث الآية الأخيرة مصير الذين آمنوا حيث تقول: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَتَابٍ﴾.

ما هو ذكر الله، وكيف يتم؟ إن الذكر نوعين «ذكر القلب» و«ذكر اللسان» وكل واحد منها على نوعين: بعد النسيان أو بدونه.

وعلى أية حال ليس المقصود من الذكر - في الآية أعلاه - هو ذكره باللسان فقط فنقوم بتسبيحه وتهليله وتكبيره، بل المقصود هو التوجه القلبي له وإدراك علمه وبأنه الحاضر والناظر، وهذا التوجه هو مبدأ الحركة والعمل والجهاد والسعي نحو الخير، وهو سدّ منيع عن الذنوب، فهذا هو الذكر الذي له كل هذه الآثار والبركات كما أشارت إليه عدة من الروايات.

فمن وصايا النبي ﷺ للإمام علي عليه السلام يقول له: «يا علي، ثلاث لا تطيقها هذه الأمة: المواساة للأخ في ماله، وإنصاف الناس من نفسه، وذكر الله على كل حال، وليس هو سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولكن إذا ورد على ما يحرم عليه خاف الله عزّ وجلّ عنده وتركه»^١.

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِسَلُّوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ ﴿٣٠﴾
وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَ سِيرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِيسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرْبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾

سبب النزول

جاء في تفسير مجمع البيان: نزلت الآية الأولى في كفار قريش حين قال لهم النبي ﷺ: «اسجدوا للرحمن». قالوا: وما الرحمن؟

وفي سبب نزول الآية الثانية: إنها نزلت في نفر من مشركي مكة، منهم أبو جهل بن هشام، وعبد الله بن أمية المخزومي جلسوا خلف الكعبة ثم أرسلوا إلى النبي ﷺ فأتاهم، فقال له عبد الله بن أمية: إن سرك أن نتبعك فسير لنا جبال مكة بالقرآن، فأذهبها عنا، حتى تنفسخ فإنها أرض ضيقة، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً حتى نغرس ونزرع فلست كما زعمت أهون على ربك من داود حيث سخر له الجبال تسبح معه أو سخر لنا الريح فتركها إلى الشام فنقضي عليها مسيرتنا وحوائجنا ثم نرجع من يومنا فقد كان سليمان سخرت له الريح فكما زعمت لنا فلست أهون على ربك من سليمان. وأحي لنا جدك قصياً، أو من شئت من موتانا لنسأله: أحق ما تقول أم باطل؟ فإن عيسى ﷺ كان يحيي الموتى ولست بأهون على الله منه فأنزل الله سبحانه ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا﴾ الآية.

التفسير

لا أمل في إيمان أهل العناد تبحث هذه الآيات مرة ثانية مسألة النبوة، والآيات أعلاه تكشف عن قسم آخر من جدال المشركين في النبوة وجواب القرآن عليهم فتقول الآية: كما أننا أرسلنا رسلاً إلى الأقسام السالفة هدايتهم: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾. والهدف من ذلك ﴿تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آلِئِنِّي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾. في الوقت الذي ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾. يكفرون بالله الذي عمّت رحمته كل مكان، وشمل فيضه المؤمن والكافر.

ثم قل لهم: إن الرحمن الذي عمّ فضله هو ربي ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾.

ثم يجيب أولئك الذين يتشبهون دائماً بالحجج الواهية فيقول: لو أن الجبال تحركت من مكانها بواسطة القرآن: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ أَلْمُوتَى﴾. فح ذلك لا يؤمنون به.

ولكن كل هذه الأفعال بيد الله ويفعل ما يريد متى يشاء ﴿بَلْ لِيهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾. ولكنكم لا تطلبون الحق، وإذا كنتم تطلبونه فهذا المقدار من المعجزة التي صدرت من

الرسول ﷺ كاف لايمانكم.

ثم يضيف القرآن الكريم: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِسَّ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْتَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾. ولكنه لا يفعل ذلك أبداً، لأن هذا الإيمان الإجباري لا قيمة له وهو فاقد للمعنى والتكامل الذي يحتاجه الإنسان في حياته.

ثم تضيف الآية: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾. وهذه مصائب تنزل عليهم بشكل إبتلاءات مختلفة أو على شكل هجوم المسلمين عليهم. وهذه المصائب إن لم تنزل في دارهم فهي ﴿أَوْ تَحُلُ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ لكي يعتبروا بها ويرجعوا إلى الله جلّ وعلا.

وهذا الإنذار مستمر ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾.

وهذا الوعد الأخير قد يشير إلى الموت، أو إلى يوم القيامة، أو على قول البعض إلى فتح مكة التي سحقت آخر معقل للعدو.

وعلى أية حال فالوعد الإلهي أكيد: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾.

الآية الأخيرة من هذه المجموعة تخاطب النبي ﷺ فتقول له: لست الوحيد من بين الأنبياء تعرّض لطلب المعاجز الإقتراحية والإستهزاء من الكفار، بل ﴿وَلَقَدْ آسْتَهْزِئَ بِرُسُلِي مِّن قَبْلِكَ﴾. ولكن لم نعاقب هؤلاء الكفار فوراً، بل ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لكي يستيقظوا ويعودوا إلى طريق الحق، أو نلقي عليهم الحجّة الكافية على الأقل، لأن هؤلاء إذا كانوا مذنبين فإنّ لطف الله وكرمه وحكمته لا تتأثر بأفعال هؤلاء.

وعلى أية حال فهذا التأخير ليس بمعنى نسيان العقاب، بل ﴿ثُمَّ أَخَذْنَاهُم فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ وهذا المصير ينتظر قومك المعاندين أيضاً.

أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بظَهْرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زِينٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابٌ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ ﴿٣٤﴾

كيف تجعلون الأصنام شركاء مع الله !! نعود مرّة أخرى في هذه الآيات إلى البحث حول

التوحيد والشرك، وهي تخاطب الناس من خلال دليل واضح حيث يقول تعالى: ﴿أَفَعَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

ولإتمام البحث السابق، ومقدمة للبحث الآتي. يقول تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾.

ثم يجيبهم بلا فاصلة وبعده طرق:

يقول أولاً: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾. فكيف تجعلون هذه الموجودات التي لا تستحق حتى الأسماء والتي لا قيمة ولا أثر لها، في عداد الخالق القادر المتعال؟

ويقول ثانياً: ﴿أَمْ تُبَيِّنُونَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾.

ثالثاً: حتى أنتم لا تؤمنون بذلك في قرارة أنفسكم، بل ﴿أَمْ يَبْطِئُ مِنَ الْقَوْلِ﴾. ولهذا

السبب نرى المشركين عندما تضيق بهم المشاكل الحياتية يلوذون بالله، لأنهم يعلمون في قلوبهم أن الأصنام لا يمكن أن تعمل لهم شيئاً.

رابعاً: إن المشركين ليس لهم إدراك صحيح، وبما أنهم تابعين لأهوائهم وتقليدهم

الأعمى، فإنهم غير قادرين على أن يقضوا بالحق وبشكل صحيح، ولهذا السبب ضلوا الطريق، يقول تعالى: ﴿بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَضَلُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يَضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

الإضلال الإلهي إنعكاس لما يقوم به الإنسان من الأعمال السيئة التي تجره إلى الضياع، وبما أن هذه الخاصية قد جعلها الله سبحانه وتعالى لمثل هذه الأعمال فلذلك نسب هذا العمل إليه.

ويشير القرآن الكريم في الآية الأخيرة من هذه المجموعة إلى العقاب الأليم الذي يشملهم

في الدنيا والآخرة، الشقاء والهزيمة والحرمان وغيرها، حيث تقول: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابٌ آخِرَ أَشَقُّ﴾. لأنها دائمة ومستمرة، جسدية وروحية، وفيها أنواع الآلام.

وإذا اعتقدوا بأن لهم طريقاً للفرار أو سبيلاً للدفاع في مقابل ذلك، فإنهم في إشتباؤ كبير،

لأن ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾.

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ

عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾

بالنظر إلى تناوب آيات هذه السورة في بيان التوحيد والمعاد وسائر المعارف الإسلامية

الأخرى، تحدّثت هذه الآية مرّةً أخرى حول المعاد وخصوصاً نِعَم الجنة وعذاب الجحيم. يقول تعالى: ﴿مِثْلَ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

قد يكون التعبير بـ«مثل» إشارة إلى هذه النكته، وهي أنّ الجنة وسائر النعم الأخروية غير قابلة للوصف بالنسبة إلى الساكنين في هذا العالم المحدود الذي هو في مقابل عالم بعد الموت يعتبر صغيراً جداً، ولذلك نستطيع أن نضرب لهم مثلاً أو صورة عن ذلك.

الوصف الثاني للجنة هو ﴿أَكُلُوهَا ذَائِمًا﴾ فهي ليست كفاكهة الدنيا فصلية وتظهر في وقت معين من السنة، بل في بعض الأحيان وبسبب الآفات الزراعية تنقطع تماماً.

وكذلك ﴿وَوِظَلُّهَا﴾ كبقية النعم الأخرى خالدة ودائمة، ومن هذا يتّضح أن ليس في الجنة فصل لتساقط الأوراق، ونعلم من ذلك - أيضاً - أنّ شعاع الشمس موجود في الجنة، وإلا كان التعبير بالظل هناك بدون شعاع الشمس ليس له أي مفهوم.

وبعد بيان هذه الصفات الثلاث قال تعالى في آخر الآية: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾.

لقد بيّن وفصّل في هذه العبارة نعم الجنة، ولكن بالنسبة إلى أصحاب النار ذكر جملة قصيرة وبعنف حيث ذكر أنّ عاقبة أمرهم إلى النار.

وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٣٦﴾

المؤمنون والأحزاب: أشارت هذه الآية إلى ردّ الفعل المتفاوت للناس في مقابل نزول الآيات القرآنية، فالأفراد الذين يبحثون عن الحقيقة يفرحون بما أنزل على الرسول، بينما المعاندون يخالفون ذلك. يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾. أي: أنّ الطالبون للحق من اليهود والنصارى وأمثالهم يفرحون عند نزول الآيات على الرسول ﷺ لأنهم كانوا من جهة يرونها مطابقة لما في أيديهم من العلامات، ومن جهة أخرى كان سبباً لحريتهم ونجاتهم من شرّ الخرافات ومن علماء اليهود والمسيحية الذين كانوا يستعبدونهم، وكانوا محرومين من حرية الفكر والتكامل الإنساني.

ثم تضيف الآية: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾. المقصود من هذه المجموعة هي نفس جماعة اليهود والنصارى الذين غلبهم التعصّب الطائفي وأمثاله، ولذلك لم يعبر القرآن الكريم

عنهم بأهل الكتاب، لأنهم لم يتبعوا كتبهم السماوية، بل كانوا أحزاباً وكتلاً تابعين لخطهم الحزبي. أو أن كلمة «الأحزاب» إشارة إلى المشركين، لأن سورة الأحزاب ذكرتهم بهذا التعبير، وهؤلاء ليس لهم دين ولا مذهب بل كانوا على شكل أحزاب وكتل متفرقة اتحدوا في مخالفتهم للقرآن والإسلام.

ونقل العلامة الطبرسي عن ابن عباس، أن هذه الآية إشارة إلى المشركين الذين كانوا يخالفون وصف الله بالرحمن، وأهل الكتاب - خصوصاً اليهود - يفرحون بهذا الوصف «الرحمان» في الآيات القرآنية، ومشركي مكة كانوا يسخرون منه بسبب عدم معرفتهم به. وفي آخر الآية يأمر الله النبي ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أُعْبِدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكُ بِهِ إِلَهًا أَدْعُوا إِلَهَهُمْ مَثَابًا﴾. وتلك دعوة للموحدين الصادقين والمؤمنين الرساليين أن يسلموا أمام الأوامر الإلهية.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلِيُنَبِّئَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِشَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ مَا نُرِيدَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾

العوادث الثابتة والمنغيرة: تتابع هذه الآيات المسائل المتعلقة بالنبوة، ففي الآية الأولى يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾.

«العربي»: كما يقول الراغب في مفرداته «الفصيح البين من الكلام» وعلى هذا فوصف القرآن بالعربي لأن أحكامه واضحة وبيّنة.

ثم يخاطب القرآن النبي ﷺ بلحن التهديد وبشكل قاطع حيث يقول: ﴿وَلَتُنَبِّئَنَّهُمْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾. وبما أن احتمال الانحراف غير موجود إطلاقاً في شخصية الرسول ﷺ لما يتميز به من مقام العصمة والمعرفة، فهذا التعبير - أولاً - يوضح أن الله سبحانه وتعالى ليس له إرتباط خاص مع أي أحد حتى لو كان نبياً، فمقام الأنبياء الشايع إنما هو بسبب عبوديتهم وتسليمهم وإستقامتهم.

وثانياً: تأكيد وإنذار للآخرين، لأن النبي ﷺ إذا لم يكن مصوناً من العقوبات الإلهية في حالة انحرافه عن مسيرة الحق وإتجاهه صوب الباطل، فما بال الآخرين؟
 الآية الأخرى جواب لما كان يستشكله أعداء الرسول ﷺ. ومن جملة هذه الإشكالات:
 أولاً: كان البعض يقول: هل من الممكن أن يكون الرسول من جنس البشر، يتزوج وتكون له ذرية؟ فالآية تجيبهم وتقول ليس هذا بالأمر الغريب: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمُ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾.

ثانياً: كان ينتظر هؤلاء من الرسول أن يجيبهم على كل معجزة يقترحونها عليه بما تقتضيه أهواؤهم، سواء آمنوا أو لم يؤمنوا، ولكن يجب أن يعلم هؤلاء أن ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

ثالثاً: لماذا جاء نبي الخاتم ﷺ وغير أحكام التوراة والإنجيل؟ وتجب الجملة الأخيرة من الآية فتقول: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ كما تبلغ البشرية المرحلة النهائية من الرشد والتكامل فليس من العجيب أن ينزل يوماً التوراة، ويوماً آخر الإنجيل، ثم القرآن، لأن البشرية في تحوُّلها وتكاملها بحاجة إلى البرامج المتغيرة والمتفاوتة.

الآية الأخرى بمنزلة التأكيد والاستدلال لما ورد في ذيل الآية السابقة، وهو أن لكل حدث وحكم زمن معين كما يقال: إن الأمور مرهونة بأوقاتها، وإذا رأيت أن بعض الكتب السماوية تأخذ مكان البعض الآخر فذلك بسبب ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فيحذف بعض الأمور بمقتضى حكمته وإرادته ويثبت أموراً أخرى، ولكن الكتاب الأصل عنده.

وفي النهاية وللتأكيد أكثر بالنسبة للعقوبات التي كان يوعدهم النبي ﷺ بها وكانوا ينتظرونها حتى أنهم يقولون: لماذا لا تصبح هذه الوعود عملية؟ يقول تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ (من إنتصارك عليهم وهزيمتهم وتحرير أتباعك وأسر أتباعهم في حياتك) أَوْ نَتَّوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَّغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾.

إن جملة ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ تبين قانوناً عاماً وشاملاً وقد أشير إليه في مختلف المصادر الإسلامية، وهو أن تحقق وضرورة الحوادث المختلفة للعالم لها مرحلتين: الأولى المرحلة القطعية أو الثابتة، ولا سبيل للتغيير فيها (والتي أشارت إليها الآية أعلاه بأمر الكتاب) والأخرى المرحلة المتغيرة أو بعبارة أخرى «المشروطة» والتي يجد التغيير سبيلاً

إليها، وقد عبّر عنها بالمحو والإثبات، وأحياناً يقال عن المرحلتين: «اللوح المحفوظ» و«لوح المحو والإثبات» كأن ما كتب في اللوح الأول محفوظ لا يتغير، أما الثاني فن الممكن محو ما كتب فيه وتغييره.

في تفسير العياشي عن الفضيل بن يسار قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «من الأمور أمور محتومة كائنة لا محالة، ومن الأمور أمور موقوفة عند الله يقدم فيها ما يشاء ويمحو ما يشاء ويثبت منها ما يشاء، لم يطلع على ذلك أحداً يعني الموقوفة فأما ما جاءت به الرسل فهي كائنة لا يكذب نفسه ولا نبيّه ولا ملائكته».

أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَعِلْمُ الْكُفْرِ لِمَنْ عَقَبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

البشرية فانية ووجه الله باقٍ؛ بما أن الآيات السابقة كانت تتحدث مع منكري رسالة النبي صلى الله عليه وآله فقد تابعت هذه الآيات كذلك نفس البحث. يقول تعالى أولاً: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾. من الواضح أن المقصود من «الأرض» هنا هم أهل الأرض، يعني أن هؤلاء لا ينظرون إلى هذا الواقع من أن الأقوام والحضارات والحكومات في حال الزوال والإيادة، وإنذار لكل الناس، الصالح منهم والطالح، حتى العلماء الذين يشكّلون أركان المجتمع البشري يكون موت أحدهم أحياناً نقصاناً للدنيا.

ثم يضيف: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. ولذلك فإن قانون الفناء مكتوب على جبين كل الأفراد والأمم من جهة، ومن جهة أخرى لا يستطيع أحد أن يغيّر هذا الحكم ولا الأحكام الأخرى، ومن جهة ثالثة أن حساب العباد سريع جداً، وبهذا الترتيب يكون جزاؤه قاطعاً.

ثم يستمر البحث في الآية الثانية ويقول: ليست هذه الفئة فقط نهضت بمكرها ومحاربتها لك، بل ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾. لكن خططهم كشفت، وأجهضت مؤامرتهم بأمر من الله، لأنه أعلم الموجودات بهذه المسائل ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ ذاك هو العالم بكل شيء

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾. ثم يحذرهم بصيغة التهديد من عاقبة عملهم ويقول:
﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَفَّارُ لِمَنْ عُقِيَ النَّارُ﴾.

الآية الأخيرة من هذا البحث (كما بدأت هذه السورة بكتاب الله والقرآن) تُنهي سورة الرعد في التأكيد أكثر على معجزة القرآن. يقول تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾. فهم يصطنعون كل يوم عذراً، ويطلبون في كل وقت المعاجز، ثم آخر الأمر يقولون: لست نبي! قل في جوابهم: ﴿قُلْ كَفَرْنَا بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾. فالله سبحانه وتعالى يعلم بأنِّي رسوله، وكذلك هؤلاء لهم المعرفة الكافية بأن القرآن هو كتاب سماوي، وهذا تأكيد جديد على إعجاز القرآن بمختلف جوانبه.

«نهاية تفسير سورة الرعد»



مركز تحقيقات علوم آسمانی



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



هذه السورة مكية بإستثناء الآيات (٢٨) و(٢٩) طبقاً لما قاله كثير من المفسرين أنّها نزلت بالمدينة في قتلى المشركين في بدر.

محتوى السورة: المعلوم من اسم السورة أن قسماً منها نازل بشأن بطل التوحيد ومحطّم الأصنام سيّدنا إبراهيم عليه السلام (قسم من أدعيته).

والقسم الآخر من هذه السورة يشير إلى تاريخ الأنبياء السابقين أمثال نوح وموسى، وقوم عاد وثمود، وما تحتوي من دروس وعبر فيها.

وتكمل هذه المجموعة من البحوث في السورة آيات الموعظة والنصيحة والبشارة والإنذار.

إنّ قسماً كبيراً منها أيضاً يبحث مواضيع «المبدأ» و«المعاد».

وخلاصة هذه السورة أنّها تبين عقائد ونصائح ومواعظ سيرة الأقسام الماضية، والهدف من رسالة الأنبياء ونزول الكتب السماوية.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قرأ سورة إبراهيم

والحجر أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من عبد الأصنام وبعده من لم يعبدها».

وكما أسلفنا مراراً فإن ما ورد من الثواب حول قراءة السور القرآنية يلازمه التفكير ومن ثم العمل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

الخروج من الظلمات إلى النور: شرعت هذه السورة - كبعض السور القرآنية الأخرى -

بالحروف المقطعة، والنقطة التي يجب ملاحظتها هنا أن من بين ٢٩ مورد ألسور القرآن التي ابتدأت بالحروف المقطعة هناك ٢٤ مورد ذكر بعدها مباشرة القرآن الكريم، والتي تُبين أن هناك علاقة بين الاثنين، أي بين الحروف المقطعة والقرآن، ولعل هذه العلاقة هي نفسها التي ذكرناها في بداية سورة البقرة، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يوضح من خلال هذا البيان أن هذا الكتاب السماوي العظيم المتعهد لقيادة الإنسانية يتكوّن من مواد بسيطة تسمى بحروف الألفباء، وهذه تشير إلى أهمية هذا الإعجاز، حيث يوجد أصدق بيان من أبسط بيان.

وعلى أية حال فبعد ذكر الحروف ﴿الر﴾ يقول تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

إن جميع الأهداف التربوية والإنسانية، المعنوية والمادية من نزول القرآن قد جمعت في هذه الجملة (الخروج من الظلمات إلى النور) أي الخروج من ظلام الجهل إلى نور المعرفة، ومن ظلام الكفر إلى نور الإيمان، من ظلم الظالمين إلى نور العدالة، ومن الفساد إلى الصلاح، ومن الذنوب إلى الطهارة والتقوى، ومن التفرقة والنفاق إلى نور الوحدة.

ومن الطريف أن «الظلمات» هنا جاءت بصيغة الجمع و«النور» بصيغة المفرد، وهذه إشارة إلى أن كل الحسنات والطيبات والإيمان والتقوى لها حالة واحدة في ظل التوحيد

ونوره فهي مترابطة ومتحدة فيما بينها فتصنع مجتمعاً واحداً متحداً وطاهراً من كل جهة. بينما الظلمات تعني التشتت وتفرقة الصفوف.

ومن هنا لما كان مصدر كل الخير هي الذات الإلهية المقدسة، والشرط الأساس لدرك التوحيد هو الالتفات إلى هذه الحقيقة، فإنه يضيف بلا فاصلة: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾. ولكي يبين أكثر ما هو النور يقول تعالى: ﴿إِنِّي صِرَاطٌ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾. فعزته دالة على قدرته، لأنه لا يستطيع أحد أن يغلبه، والحميد دالة على نعمه ومواهبه غير المتناهية، لأن الحمد والثناء دائماً تكون في مقابل النعم والمواهب.

الآية الثانية ولكي تعرف الله بصفاته، تبين درساً من دروس التوحيد حيث تقول: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. فله كل شيء، لأنه خالق جميع الموجودات ولهذا السبب هو القادر والعزيز وواهب النعم والحميد.

ثم يتطرق في نهاية الآية إلى مسألة المعاد (بعد أن ذكر المبدأ) فتقول الآية: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

ثم يعرف القرآن الكريم الكفار في الآية الأخرى، ويذكر لهم ثلاث صفات كما نستطيع أن نعرفهم من أول وهلة، يقول تعالى أولاً: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾. فهم يضحون بالإيمان والحق والعدالة والشرف التي هي من خصائص محبي الآخرة، من أجل منافعهم الشخصية وشهواتهم.

ثم يبين تعالى أن هؤلاء غير قانعين بهذا المقدار من الضلال، بل يسعون في أن يضلوا الآخرين ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾. فهم - في الواقع - يزيئون الهوى، ويدعون الناس إلى الذنوب، ويخوفونهم من الصدق والإخلاص.

ولا يقتصر عملهم على ذلك فحسب، بل ﴿وَيَتَّبِعُونَهَا غَوَجًا﴾. ثم يحاولون أن يصبغوا الآخرين بصبغتهم، ويسعون في أن يحرفوا السبيل للوصول إلى هدفهم من خلال نشر الخرافات وإبتداع السنن الخبيثة ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

وهذا الضلال قد أوجد بُعد المسافة بينهم وبين الحق فكان من العسير جداً عودتهم إلى طريق الحق، ولكن ذلك كان نتيجة لأعمالهم.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعِيحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبُّكُمْ لِيَنْ شَكَّرْتُمْ لَا زَيْدَنَّاكُمْ وَلِيَنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

كان الحديث في الآيات السابقة عن القرآن الكريم وآثاره الروحية، وتتابع الآية الأولى من هذه المجموعة نفس الموضوع، لكن في بُعد خاص وهو أن دعوة الأنبياء وكتبهم السماوية نزلت بلسان أقوامهم الذين يُعَبِّئُوا إِلَيْهِمْ، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾. لأن الأنبياء يرتبطون في الدرجة الأولى مع قومهم، وأول نور الوحي يشع من بينهم، وأول الصحابة والأنصار يُنتخبون منهم، لذلك فإن الرسول يجب أن يحدثهم بلغتهم وبلسانهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾.

إن دعوة الأنبياء كانت توضح لهم من خلال التبيين والتعليم والتربية وبلسانهم الرائج لا من خلال أثر مرموز وغير معروف في قلوب.

ثم يضيف القرآن الكريم بعد أن بين لهم الدعوة الإلهية: ﴿فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. فليست الهداية والضلال من عمل الأنبياء، بل عملهم الإيلاج والتبيين، الله سبحانه وتعالى هو الموجه والهادي الحقيقي لعباده.

ولكي لا يتصور أحد أن هذا القول بمعنى الجبر وسلب الحرريات، فيضيف القرآن مباشرة: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. وبمقتضى عزته وقدرته فإنه قادر على كل شيء، ولكن بمقتضى حكمته لا يهدي ولا يضل أحداً بدون سبب ودليل، بل الخطوة الأولى تبدأ من قبل العباد وبكامل الحرية في السير إلى الله، ثم يشع نور الهداية وفيض الحق في قلوبهم، كما في

الآية (٦٩) من سورة العنكبوت: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

وعلى هذا النحو فإن محور الهداية والضلال في أيدي الناس أنفسهم.

تشير الآية الأخرى إلى واحدة من نماذج إرسال الأنبياء في مقابل طواغيت عصرهم، ليخرجوهم من الظلمات إلى النور: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^١.

وكما قرأنا في الآية الأولى من هذه السورة فإن خلاصة دعوة رسول الخاتم ﷺ هي إخراج الناس من الظلمات إلى النور، فهذه دعوة كل الأنبياء، بل جميع القادة الروحيين للبشر.

ثم يشير القرآن الكريم إلى واحدة من أكبر مسؤوليات موسى ﷺ حيث يقول تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾. وهي جميع الأيام العظيمة في تاريخ الإنسانية. فكل يوم يُفتح فيه فصل جديد من حياة الناس فيه درس وعبرة، أو ظهور نبي فيه، أو سقوط جبار وفرعون - أو كل طاغ - ومحوه من الوجود. خلاصة القول: كل يوم يُعمل فيه بالحق والعدالة ويتلاشى فيه الظلم وتنطفي فيه بدعة، هو من أيام الله.

الروايات الواردة من أهل البيت عليهم السلام تشير أنهم فسروا «أيام الله» بأيام مختلفة، ففي تفسير نور الثقلين عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «أيام الله، يوم يقوم القائم ويوم الكزة^٢ ويوم القيامة».

وفي آخر الآية يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

«صَبَّارٍ» و«شَكُورٍ»: صيغة مبالغة فأحدهما تشير إلى شدة الصبر، والأخرى إلى زيادة

الشكر، وتعني أن المؤمنين كما لا يستسلمون للحوادث والمشاكل التي تصيبهم في حياتهم، كذلك لا يغترون ولا يغفلون في أيام النصر والنعم.

تشير الآية الأخرى إلى أحد هذه الأيام التي كانت ساطعة ومشرقة في تاريخ بني إسرائيل،

وذكرها تذكرة للمسلمين حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾. هؤلاء الفراعنة الذين كانوا ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَتَّبِعُونَ

١. المعجزات التي ظهرت من موسى بن عمران أشارت إليها الآية أعلاه بلفظ الآيات، وهي ٩ معجزات مهمة طبقاً للآية (١٠١) من سورة الإسراء، والتي سوف تأتي إن شاء الله في تفسير تلك الآية.

٢. يوم الكزة = أي يوم الرجعة.

أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَخِيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رِّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾

وكان على طول التاريخ طريقة كل المستعمرين حيث كانوا يبيدون قسماً من القوى الفاعلة والمقاومة، ويضعفون قسماً آخر منها ويستخدمونها في منافعهم الخاصة. أي يوم أكثر بركة من ذلك اليوم حيث أزال الله عنكم فيه شر المتكبرين والمستعمرين، الذين كانوا يرتكبون أفظع الجرائم بحقكم، وأي جريمة أعظم من ذبح أنبائكم كالحیوانات (إنتبه إلى أن القرآن عبّر بالذبح لا بالقتل) وأهم من ذلك فإن نواصبيكم كانت خدماً في أيدي الطامعين.

وليس هذا المورد خاص ببني إسرائيل، بل في جميع الأمم والأقوام. فإن يوم الوصول إلى الاستقلال والحرية وقطع أيدي الطواغيت يوم من أيام الله الذي يجب أن نتذكره دوماً حتى لا نعود إلى ما كنا عليه في الأيام الماضية.

ثم يضيف القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾. يمكن أن تكون هذه الآية من كلام موسى لبني إسرائيل، ويمكن أن تكون جملة مستقلة وخطاباً للمسلمين، ولكن على أية حال فالنتيجة واحدة، لأن وروده في القرآن الكريم من أجل أن يكون درساً بناؤه لنا.

الشكر سبب لزيادة النعم والكفر سبب للفتنة، مما لا شك فيه أن الله سبحانه وتعالى ليس بحاجة إلى شكرنا في مقابل نعمه علينا، وإذا أمرنا بالشكر فذاك لنستوجب نعمة أخرى وهي واحدة من المبادئ السامية في التربية.

إن حقيقة الشكر ليس فقط ما يقوله الإنسان (الحمد لله) أو الشكر اللفظي، بل هناك ثلاث مراحل للشكر:

الأولى: يجب أن نعلم من هو الواهب للنعم؟ هذا العلم والإيمان الركن الأول للشكر.

والثانية: الشكر باللسان.

والثالثة: وهي الأهم الشكر العملي، أي أن نعلم الهدف من منحنا للنعمة، وفي أي مورد

نصرفها، وإلا كفرنا بها.

وهنا يتضح هذه العلاقة بين الشكر وزيادة النعمة، لأن الناس لو صرفوا النعم الإلهية في

هدفها الحقيقي، فسوف يثبتون عملياً إستحقاقهم لها وتكون سبباً في زيادة الفيوضات

الإلهية عليهم.

وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ الرَّبِّيَاتِكُمْ
 نَبِؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ
 لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ
 وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ، وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ مِرْيَبٌ ﴿٩﴾ قَالَتْ
 رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ
 ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ
 أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتُونَا سُلْطٰنَ مَّبِينٍ ﴿١٠﴾

الآية الأولى من هذه المجموعة تؤيد وتكمل البحث السابق في الشكر والكفران، وذلك
 ضمن الكلام الذي نقل عن لسان موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
 جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

إن الشكر والإيمان بالله سبب في زيادة النعم والتكامل الإنساني، وإلا فالله عز وجل
 ليس بحاجة إلى أي شيء، ولو كفرت جميع الكائنات ولم تحمده لا تمس كبرياءه بأدنى
 ضرر، لأنه حميد في ذاته.

ثم يشرح مصير الفئات من الأقوام السابقة ضمن عدة آيات، الفئات التي كفرت بأنعم
 الله وخالفت الدعوة الإلهية، وهي تأكيد للآية السابقة. يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبِؤُا الَّذِينَ
 مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

يمكن أن تكون هذه الجملة تعقيباً على كلام موسى، أو بيان مستقل يخاطب به المسلمين،
 لكن النتيجة غير متفاوتة كثيراً.

ثم يضيف تعالى: ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ فهو لاء لم يطلع على
 أخبارهم إلا الله ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾.

ولكي يوضح القرآن الكريم مصيرهم يقول: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي
 أَفْوَاهِهِمْ﴾. أي: وضعوا أيديهم على أفواههم من التعجب والإنكار ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا

أُرْسِلْتُمْ بِهِ. لماذا؟ بسبب: ﴿وَإِنَّا لَنَرِي شَكَّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾.

وبما أن الآية السابقة بيّنت قول المشركين والكفار في عدم إيمانهم بسبب شكهم وترديدهم، فالآية بعدها تنفي هذا الشك من خلال دليل واضح وعبارة قصيرة حيث يقول تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

«فاطر»: من «فَطَرَ» وهي في الأصل بمعنى «شق» وهنا كناية عن «الخلق» فالخالق هو الموجد للأشياء على أساس نظام دقيق ثم يحفظها ويحميها، كأن ظلمة العدم شقت بنور الوجود.

ولعل «فاطر» تشير إلى تشقق المادة الأولية للعالم، كما نقرأ في العلوم الحديثة إن مجموع مادة العالم كانت واحدة مترابطة ثم إنشقت إلى كُرة مختلفة.

فالقرآن الكريم هنا - كما في أغلب الموارد الأخرى - يستند لإثبات وجود الخالق وصفاته إلى نظام الوجود وخلق السماوات والأرض.

ثم يجيب القرآن الكريم على ثاني إعتراض للمخالفين، وهو إعتراضهم على مسألة الرسالة (لأن شكهم كان في الله وفي دعوة الرسول) ويقول إن من المسلم أن الله القادر والحكيم لا يترك عباده بدون قائد، بل إنه بإرسال الرسل: ﴿يَنْدَعُوكُمْ لِيَتَّقِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾.

وزيادة على ذلك فإنه: ﴿وَيُوجِرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. كما تسلكوا سبيل التكامل وتستفيدوا من موهبة الحياة بأقصى ما يمكنكم.

إن غاية دعوة الأنبياء أمران: أحدهما غفران الذنوب، والثاني إستمرار الحياة إلى الوقت المعلوم، والإثنان علة ومعلول، فالمجتمع الذي يستمر في وجوده هو المجتمع النقي من الظلم والذنوب.

ومع كل ذلك لم يقبل الكفار المعاندون دعوة الحق المصحوبة بوضوح منطق التوحيد، ومن خلال بيانهم المشوب بالعناد وعدم التسليم كانوا يجيبون الأنبياء بهذا القول: ﴿قَالُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾. علاوة على ذلك: ﴿ثُرِيُونَ أَن تَصُوتُنَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾. وأكثر من ذلك: ﴿فَاتُونَا بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ﴾.

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَمَا كُنَّا لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَاءٍ أَذِيْتُمْونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

التوكل على الله وحده، نقرأ في هاتين الآيتين جواب الرسل على حجج المخالفين المعاندين، وإعتراضهم على بشرية الرسل، فكان جوابهم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

يعني لو إفترضنا أن الله تعالى أرسل لكم ملائكة بدل البشر، فهي لا تمتلك شيئاً لذاتها، فكل المواهب ومن جملتها موهبة الرسالة والقيادة هي من عند الله، فالذي يستطيع أن يهب الملائكة هذا المقام قادر أن يعطيها للإنسان.

ثم يجيب على السؤال الثالث دون أن يجيب على الثاني، وكأن الإعتراض الثاني الذي هو الإستئذان بسنة الأجداد ليس له أي أهمية وفارغ من المحتوى بحيث إن أي إنسان عاقل - بأقل تأمل - يفهم جوابه، بالإضافة إلى أن القرآن الكريم قد أجاب عنه في آيات أخر. وجواب السؤال الثالث هو أن عملنا ليس الإتيان بالمعجز، فنحن لا نجلس في مكان ونلبي لكم المعجز الإقتراحية وكل ما سؤلت لكم أنفسكم، بل ﴿وَمَا كُنَّا لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

ومع ذلك فإن كل نبي كان يظهر لقومه المعجز بمقدار كاف بدون أن يطلبها الناس منه، وذلك لكي يثبت الأنبياء أحقيتهم ولتكون المعجز سنداً لصدقهم.

ولكي يرد الرسل على تهديداتهم المختلفة يقولون: ﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. وبعد ذلك إستدل الأنبياء على مسألة التوكل حيث قالوا: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنَا﴾.

ثم أضافوا: إن ملاذنا هو الله، ملاذ لا يقهر وهو فوق كل شيء: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا ءَاذِيْتُمْونَا﴾. وأخيراً أنهم كلامهم بهذه الجملة: ﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

المقصود من التوكل أن لا يحس الإنسان بالضعف في مقابل المشكلات العظيمة، بل

بتوكله على قدرة الله المطلقة يرى نفسه فاتحاً ومنتصراً، وبهذا الترتيب فالتوكل عامل من عوامل القوة واستمداد الطاقة وسبب في زيادة المقاومة والثبات.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي
 مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ
 مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ
 جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَكِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ
 وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن
 وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

خطب الجبارين المعاندين ومصيرهم: عندما يعلم الظالمون بضعف منطقتهم وعقيدتهم، يتركون الاستدلال، ويلجأون إلى القوة والعنف، ونقرأ هنا أن الأقوام الكافرة العنيدة عندما سمعوا منطق الأنبياء المتين والواضح قالوا لرسولهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾.

وكان هؤلاء القوم يعتبرون جميع ما في الأرض ملكهم، حتى أنهم لم يمنحوا لرسولهم حقوق المواطنة، ولذلك يقولون «أرضنا»، وفي الحقيقة فإن الله سبحانه وتعالى خلق الأرض وكل مواهبها للصالحين، وهؤلاء الجبابرة في الواقع ليس لهم أي حق فيها.

ثم يضيف القرآن الكريم لتسليّة قلوب الأنبياء: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾. فلا تخافوا من وعيدهم، ولا تُظهروا الضعف في إرادتكم.

وبما أن الظالمين كانوا يهددون الأنبياء بالتباعد عن أرضهم، فإن الله في مقابل ذلك كان يعد الأنبياء ﴿وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ﴾. ولكن هذا النصر والتوفيق لا يناله إلا ﴿ذَلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

وحين إنقطعت الأسباب بالأنبياء من كل جانب، وأدوا جميع وظائفهم في قومهم، فآمن منهم من آمن، وبقي على الكفر من بقي، وبلغ ظلم الظالمين مداها، في هذه الأثناء طلبوا النصر من الله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا...﴾. وقد استجاب الله عز وجل دعاء المجاهدين المخلصين ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾.

«خاب»: من الخيبة بمعنى فقدان المطلوب.

و«جبار»: بمعنى المتكبر هنا، وتطلق هذه الكلمة أحياناً على الله جلّ وعلا فتعطي معنى آخر، وهو (جبر وإصلاح من هو بحاجة إلى الإصلاح) أو بمعنى (المتسلط على كل شيء). و«العنيد»: في الأصل من «العند» على وزن «رند» بمعنى الاتجاه، وجاءت هنا بمعنى الانحراف عن طريق الحق.

ومن الطريف أن «جبار» تشير إلى صفة نفسانية بمعنى روح العصيان، و«عنيد» تشير إلى آثار تلك الصفة في أفعال الإنسان حيث تصرفه عن طريق الحق.

ثم يُبين نتيجة عمل الجبارين في الآخرة ضمن آيتين في خمسة مواضع:

١- إن مثل هذا الشخص: ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾. مع أن كلمة «وراء» بمعنى «الخلف» في

مقابل أمام، إلا أنها في هذه الموارد تعني نتيجة وعاقبة العمل.

٢- أما في جهنم فإنه: ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾. «الصدید»: القيح المتجمع بين اللحم

والجلد، وهو بيان للماء المتعفن الكريه الذي يسقونه.

٣- فهذا المجرم المذنب عندما يرى نفسه في مقابل هذا الشراب ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ

يُسِيغُهُ﴾. «يسيفه»: من إساعة، وهي وضع الشراب في الحلق.

٤- ووسائل التعذيب كثيرة بحيث ﴿وَيَأْتِيهِ الْقَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَعِيَّتٍ﴾. حتى

يذوق وبال عمله وسيئاته.

٥- وقد يتصور أن ليس هناك عقاباً أكثر من ذلك، ولكن ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾.

وبهذا الترتيب فإن كل ما يخطر في ذهن الإنسان وما لا يخطر من شدة العقاب هو في

انتظار هؤلاء الظالمين والجبارين والمذنبين لأنه النتيجة الطبيعية لعمل الإنسان، بل تجسيم

أفعالهم في الآخرة، فكل عمل يجسّم بشكل مناسب.

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ

لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

رملاً اشتدت به الريح، ضربت هذه الآية مثلاً واضحاً وبلغياً لأعمال الكفار، وبذلك

تكمل بحث الآيات السابقة في مجال عاقبة أمرهم. يقول تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ

أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾. فيتناثر الرماد في الريح العاصف بحيث لا

يستطيع أحد جمعه، كذلك منكره والحق ليست باستطاعتهم أن يجمعوا ما كسبوا ﴿لَا يَقْدِرُونَ مَعًا كَسْبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ فَلَئِنَّ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾.

الَّتِ تَرَأَىٰ اللَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبِكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾

الخلق على أساس الحق: بعد ما بحثنا عن الباطل وأنه كالرماد المتناثر إذا اشتدت به الريح، نبحت في هذه الآية عن الحق وإستقراره، يقول الله تعالى مخاطباً النبي ﷺ باعتباره الأسوة لكل دعاة الحق: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ﴾.

«الحق»: كما يقول الراغب في مفرداته «المطابقة والتنسيق» وله استعمالات أخرى: فتارة يستعمل الحق في العمل الصادر وفقاً للحكمة والنظام كما في الآية (٥) من سورة يونس: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

وتارة يطلق على الشخص الذي قام بهذا العمل المحكم، كما - في الآية (٣٢) من سورة يونس - نطلقها على الله عز وجل: ﴿فَلِلَّهِ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ﴾.

وتارة أخرى يطلق على الإعتقاد الذي يطابق الواقع كما في الآية (٢١٣) من سورة البقرة: ﴿فَهَيَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ﴾.

ومرة يقال للقول والعمل الذي يتحقق في الوقت المناسب كما في الآية (١٣) من سورة السجدة: ﴿حَقُّ الْقَوْلِ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾.

فقابل «الحق» الباطل والضلال واللعب وأمثالها؛ لكن الآية التي نحن بصددتها تشير إلى المعنى الأول، وهو إنشاء عالم الخلق. حيث توضح أن الغرض من خلق السماء والأرض هو الحكمة والنظام والحساب، فالله تعالى ليس محتاجاً في خلقها ولا ناقصاً لكي يسدّ نقصه بها، بل هو الغني عن كل شيء، وهذا العالم الواسع دار لنمو المخلوقات وتكاملها.

ثم يضيف: إن الدليل في عدم الحاجة إليكم ولا إلى إيمانكم هو: ﴿إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبِكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

وهذا العمل ليس صعباً عند الله ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾. والشاهد على هذا القول في الآيات (١٣١ - ١٣٣) من سورة النساء: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا... إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ قَدِيرًا». وهذا التفسير بخصوص الآية أعلاه منقول عن ابن عباس.

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرٌ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنَ مَحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَ أَقْبَضِي الْأَمْرَ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾

المعادلة العريضة بين الشيطان وأتباعه: أشارت الآيات السابقة إلى العقاب الشديد للمخالفين والمعاندين والكافرين، وهذه الآيات تكمل ذلك البحث. يقول تعالى أولاً:

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

وفي هذه الأثناء يقول الضعفاء الذين تاهوا في وادي الضلالة للمستكبرين الذين كانوا سبب ضلالتهم ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فيجيبونهم بدون توقف ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾.

ولكن للأسف فالمسألة منتهية ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرٌ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾. ولكن يجب أن يعلم المستكبرون أنهم يتحملون مسؤولية ذنوب أتباعهم شاؤوا أم أبوا، طبقاً لصریح القرآن والروايات، لأنهم المؤسسون للانحراف والضللال دون أن ينقص أي شيء من عذاب أتباعهم.

«المحيص»: من «المحص» بمعنى التخلص من العيوب أو الأثم.

ثم يشير القرآن الكريم إلى موقف آخر من مواقف القيامة والعقاب النفسي للجبارين والمذنبين وأتباعهم الشياطين، حيث يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾. وبهذا الترتيب فالشيطان وجميع المستكبرين الذين هم قادة طرق الضلال، أصبحوا يلومون ويوبخون تابعيهم البؤساء.

ثم يضيف: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾. ويستمر في القول ﴿فَلَا تُلْمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ﴾. أنتم فعلتم فاللعنة عليكم!

وعلى كل حال فلا أنا أستطيع إنقاذكم من العذاب ولا أنتم تستطيعون إنقاذي: ﴿مَا أَنَا بِمُضْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُضْرِخِي﴾. والآن أعلمكم بأني أتبرأ من شرككم وإطاعتكم لي ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ فقد فهمت الآن أن الشرك في الطاعة أدى إلى شقائي وشقائكم، وهذه التعاسة ليس لها طريق للنجاة، واعلموا ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ونستفيد بشكل أكيد من هذه الآية أن وساوس الشيطان لا تسلب الإنسان اختياره وحرية إرادته، بل هي مجرد دعوة ليس أكثر، فالناس هم الذين يلبون دعوته بإرادتهم.

وبعد بيان حال الجبارين والظالمين ومضيرهم المؤلم، تتطرق الآية الأخيرة من هذا البحث إلى حال المؤمنين وعاقبتهم، حيث يقول تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية.

«التحية»: في الأصل «الحياة» وتستعمل لسلامة وحياة الأفراد، وتطلق لكل تحية وسلام ودعاء في بداية اللقاء.

ف«سلام» يشمل كل سلامة من أي نوع من أنواع العذاب الروحي والجسمي.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُشِبُّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾

الشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة، هنا مشهد آخر في تجسيم الحق والباطل، الكفر

والإيمان، الطيب والخبيث ضمن مثال واحد جميل وعميق المعنى... يُكمل البحوث السابقة في هذا الباب. يقول تعالى أولاً: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾. ثم يشير إلى خصائص هذه الشجرة الطيبة في جميع أبعادها ضمن عبارات قصيرة.

«الكلمة»: في معناها الواسع تشمل جميع الموجودات.

«الطيب»: كل طاهر ونظيف، فالنتيجة من هذا المثال أنه يشمل كل سنة ودستور وبرنامج وطريقة، وكل عمل، وكل إنسان... والخلاصة: كل موجود طاهر ونظيف وذو بركة، وجميعها كشجرة طيبة فيها الخصائص التالية:

- ١- كائن يمتلك الحركة والنمو، وليس جامداً ولا خاملاً.
- ٢- هذه الشجرة طيبة، من كل جهة... ثمارها، أزهارها، ونسيمها جميعها طيب و طاهر.
- ٣- لهذه الشجرة نظام دقيق، لها جذور وأغصان، وكل واحد له وظيفته الخاصة.
- ٤- أصلها ثابت محكم بشكل لا يمكن أن يقلعها الطوفان ولا العواصف، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾.
- ٥- إن أغصان هذه الشجرة الطيبة ليست في محيط ضيق ولا رديء، بل مقرها في عنان السماء، وهذه الأغصان والفروع تشقّ الهواء وتصعد فيه عالياً ﴿وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾. ومن الواضح أن الأغصان كلها كانت عالية وسامقة تكون بعيدة عن التلوّث والغبار وتصبح ثمارها نظيفة.

٦- هذه الشجرة كثيرة الثمر لا كالأشجار الذابلة العديمة الثمر، ولذلك فهي كثيرة العطاء ﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا﴾.

٧- وثمارها ليست فصلية، بل في كل فصل وزمان، فإذا أردنا أن نغذّي دنا إلى أغصانها في أي وقت لم نرجع خائبين ﴿كُلُّ جِينٍ﴾.

٨- إن إنتاجها من الثمار يكون وفق قوانين الخلق والسنن الإلهية وليس بدون حساب ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾.

والآن يجب أن نفتش، أين نجد هذه الخصائص والبركات؟

نجدها بالتأكيد في كلمة التوحيد ومحتواها، وفي الإنسان الموحد ذي المعرفة.

الرجال العظام من المؤمنين هم كلمة الله الطيبة، وحياتهم أصل البركة، دعوتهم توجب الحركة، آثارهم وكتباتهم وأقوالهم وكتبهم وتلاميذهم وتاريخهم... وحتى قبورهم جميعها ملهمة وحيّة ومربية.

نعم ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وبما أن أحد أفضل الطرق لتوضيح المسائل هو الاستفادة من طريق المقابلة والمقايسة، فقد جعلت النقطة المقابلة للشجرة الطيبة، الشجرة الخبيثة ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾.

والكلمة «الخبيثة» هي كلمة الكفر والشرك، وهي القول السيء والردىء، وهي البرنامج الضال والمنحرف، والناس الخبيثاء، والخلاصة: هي كل خبيث ونجس.

ومن الطريف أن القرآن الكريم فصل الحديث في وصف الشجرة الطيبة بينما إكتفى في وصف الشجرة الخبيثة بجملة قصيرة واحدة ﴿اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾. وهذا نوع من لطافة البيان أن يتابع الإنسان جميع خصوصيات ذكر «المحبوب» بينما يمر بسرعة في جملة واحدة بذكر «المبغوض».

وبما أن الآيات السابقة جسدت حال الإيمان والكفر، الطيب والخبيث من خلال مثالين صريحين، فإن الآية الأخيرة تبحث نتيجة عملهم ومصيرهم النهائي، يقول تعالى: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾. لأن إيمانهم لم يكن إيماناً سطحياً وشخصيتهم لم تكن كاذبة وملتونة.

فهنا يثبتون بالإيمان ويبرؤون من الذنوب، وهناك يخلدون في النعيم المقيم.

ثم يشير إلى النقطة المقابلة لهم: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الْقَاطِلِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾.

قلنا مراراً: إن الهداية والضلال التي تنسب إلى الله عز وجل لا تتحققان إلا بأن يرفع الإنسان القدم الأول لها، فالله عز وجل عندما يسلب المواهب والنعيم من العبد أو يمنحها له يكون ذلك بسبب إستحقاقه أو عدم إستحقاقه.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَبَسَّ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾

نعاية كفران النعم: الخطاب في هذه الآيات موجّه للرسول ﷺ وهو في الحقيقة عرض لواحد من موارد «الشجرة الخبيثة». يقول تعالى أولاً: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ

كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾. هؤلاء هم جذور الشجرة الخبيثة وقادة الكفر والانحراف. مع أن بعض المفسرين الكبار عند متابعتهم للروايات الإسلامية فسروا - أحياناً - هذه النعمة بوجود النبي ﷺ وأحياناً أخرى بالأئمة عليهم السلام وفسروا الكافرين بهذه النعمة بـ «بني أمية» و«بني المغيرة» مرةً، ومرةً أخرى جميع الكفار الذين عاصروا عهد النبي ﷺ، ولكن من المسلم به أن للآية مفهوماً أوسع من هذا، وليس مختصاً بمجموعة معينة، بل تشمل جميع الأفراد الذين يكفرون بالنعمة الإلهية.

ثم إن القرآن الكريم يُفسّر دار البوار بقوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنْسُونَ أَقْرَارًا﴾^١. ثم يشير في الآية الأخرى إلى واحدة من أسوأ أنواع كفران النعم ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا يُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾. لكي يستفيدوا عدّة أيام من حياتهم المادية ومن رئاستهم وحكومتهم في ظل الشرك والكفر لإضلال الناس عن طريق الحق.

أيها النبي: ﴿قُلْ تَمَتُّوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾. فحياتكم هذه شقاء ورئاستكم فاسدة. «أنداد»: جمع «ندّ» بمعنى «المثل» ولكن الراغب في مفرداته والزيدي في تاج العروس قالوا: إنَّ «الندّ» يقال للشيء الذي يشابه الشيء الآخر جوهرياً، و«المثل»: يطلق على كل شيء شبيه لشيء، ولذلك فالندّ له معنى أعمق وأدق من المثل.

وطبقاً لهذا المعنى نستفيد من الآية أعلاه أن أئمة الكفر كانوا يسعون لأن يجعلوا الله شركاء ويشبهوهم في جوهر ذاتهم بالله عزّ وجلّ، لكي يضلوا الناس عن عبادة الله ويحصلوا على مقاصدهم الشريرة.

قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ
 أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٢٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ
 مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الشَّرَابِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ
 لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٠﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
 دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣١﴾ وَءَاتَاكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ
 وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٢﴾

١. «يصلون»: من «الصلي» بمعنى الإشتعال والإحترق بالنار.

عقمة الإنسان من وجهة نظر القرآن، تعقيباً للآيات السابقة في الحديث عن برنامج المشركين والذين كفروا بأنعم الله وكون مصيرهم إلى دار البوار، تتحدث هذه الآيات عن برنامج عباد الله المخلصين والنعم النازلة عليهم. يقول تعالى: ﴿قُلْ لِيَبْدَأِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يَتَّقُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾. قبل أن يأتي ذلك اليوم الذي لا يستطيع فيه الإنسان من التخلص من العذاب بشراء السعادة والنعم الخالد، ولا تنفع الصداقة حينئذ ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَنْجِي فِيهِ وَلَا خَلِيلٌ﴾.

ثم تتطرق الآية إلى معرفة الله عن طريق نعمه، معرفة تؤدي إلى إحياء ذكره في القلوب، وتحت الإنسان على تعظيمه في مقابل لطفه وقدرته، لأن من الأمور الفطرية أن يشعر الإنسان في قلبه بالحب والود لمن أعانه وأحسن إليه.

ويبين هذا الموضوع من خلال عدة آيات ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾.

ثم أنه ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ أَنْفُكُمْ﴾ سواء من جهة موادها الأولية المتوفرة في الطبيعة، أو من جهة القوة المحركة لها وهي الرياح التي تهب على البحار والمحيطات بصورة منتظمة لتسيير هذه السفن فتنتقل الإنسان وما يحتاج إليه من منطقة إلى أخرى بيسر وسهولة: ﴿لِيَتَجَرَّوْا فِيهَا وَيَسْبَحُوا بِأَمْرِ اللَّهِ﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ﴾ كي تسقوا من مائها زروعكم، وتشربوا أنتم وأنعامكم، وفي كثير من الأحيان تكون طريقاً للسفن والقوارب، وتستفيدون منها في صيد الأسماك. وليست موجودات الأرض - فقط - مسخرة لكم، بل ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ﴾.

وليست مخلوقات العالم بذاتها فقط، بل حتى الحالات العرضية لها هي في خدمتكم: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَعَاتَكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ من احتياجاتكم البدنية والاجتماعية وجميع وسائل السعادة والرفاه ﴿وَإِنْ تَعْلَمُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْضُوهَا﴾ لأن النعم المادية والمعنوية للخالق شملت جميع وجودكم وهي غير قابلة للإحصاء، وعلاوة على ذلك فإن ما تعلمونه من النعم بالنسبة لما تجهلون كقطرة في مقابل البحر.

وعلى الرغم من كل هذه الألفاظ والنعم فـ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَلْبُومٌ كَفَّارٌ﴾. فلو كان الإنسان يستفيد من هذه النعم بشكلها الصحيح لاستطاع أن يجعل الدنيا

حديقة غناء ولنقذ مشروع المدينة الفاضلة.

إنّ الإنسان من وجهة نظر القرآن له من العظمة بحيث سخر الله له جميع ما في الوجود، إمّا أن يكون زمام أمورها بيده أو تتحرك ضمن منافعه، وعلى أية حال فهذه العظمة جعلته من أشرف الموجودات.

إنّ القرآن الكريم يناديه: أيها الإنسان، كل شيء بالقدر الكافي تحت تصرفك، بشرط أن لا تكون ظلوماً كفاراً، عليك أن تقنع بحقك ولا تتجاوز على حقوق الآخرين.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ
 رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّونَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ
 غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ
 الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ
 مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نَعْلَمُ وَمَا يَخْفَى
 عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى
 الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ
 وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
 يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾

دعاء إبراهيم عليه السلام، لما كان الحديث في الآيات السابقة عن المؤمنين الصادقين والشاكرين لأنعم الله، عقبّت هذه الآيات في بحث بعض أدعية وطلبات العبد المجاهد والشاكر لله إبراهيم عليه السلام ليكون هذا البحث تكملة للبحث السابق ونموذجاً حياً للذين يريدون أن يستفيدوا من النعم الإلهية أفضل استفادة. يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.

لأنه عليه السلام كان يعلم حجم البلاء الكبير الكامن في عبادة الأصنام، ويعلم كثرة الذين ذهبوا ضحية في هذا الطريق: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّونَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾. فأبى ضلال أكبر من هذا الضلال الذي يفقد الإنسان فيه حتى عقله وحكمته.

إلهي إنني أدعوك إلى توحيدك، وأدعو الجميع إلى عبادتك ﴿فَعَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ كَافِرٌ بِي﴾.

إن إبراهيم عليه السلام أراد بهذه العبارة أن يقول لله تعالى: إنه حتى لو انحرف أبنائي عن مسيرة التوحيد واتجهوا إلى عبادة الأصنام فإنهم ليسوا مني، ولو كان غيرهم في مسيرة التوحيد فهم أبنائي وإخواني.

ثم يستمر بدعائه ومناجاته: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

وكان ذلك عندما رزقه الله إسماعيل من جاريته «هاجر» فأثار ذلك حسد زوجته الأولى «سارة» ولم تستطع تحمل وجود هاجر وإينها، فطلبت من إبراهيم أن يذهب بها إلى مكان آخر، فاستجاب لها إبراهيم طبقاً للأوامر الإلهية، وجاء بإسماعيل وأمه إلى صحراء مكة القاحلة، ثم ودّعهم وذهب.

ثم يتابع إبراهيم عليه السلام دعاءه: إلهي، إن أهلي قد سكنوا في هذه الصحراء المحرقة إحتراماً لبیتك المحرم: ﴿فَاجْعَلْ أَفْتَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾. ومن هنا لما كان الإنسان الموحد والعارف يعلم بمحدودية علمه في مقابل علم الله، وأنه لا يعلم مصلحته إلا الله تعالى، فما أكثر ما يطلب شيئاً من الله وليس فيه صلاحه، أو لا يطلبه وفيه صلاحه، وأحياناً لا يستطيع أن يقوله بلسانه فيضمره في أعماق قلبه، ولذلك يعقب على ما مضى من دعائه ويقول: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾.

فإن كنت مغتماً لفراق ابني وزوجتي فأنت تعلم بذلك... وترى دموع عيني المنهملة. وعندما فارقت زوجتي وقالت لي: «إلى من تكلمي» فأنت أدري بها وبمستقبلها ومستقبل هذه الأرض.

ثم يشير القرآن إلى شكر إبراهيم عليه السلام لنعمة تعالى والتي هي من أهم ما إمتاز به عليه السلام شكره على منحه ولدين بارين إسماعيل وإسحاق وذلك في سن الشيخوخة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾. نعم ﴿إِنْ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

ثم يستمر بدعائه ومناجاته أيضاً فيقول: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾.

ثم يختم دعاءه هنا فيقول: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾. وبهذا الترتيب فإن دعواته تبدأ بالأمن وتنتهي بالعفو والغفران، ومن الطريف أنه لم يطلبها لنفسه فقط، بل للآخرين كذلك، لأن عباد الرحمن ليسوا أنانيين.

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدَتْهُمْ أَسْوَابُهُمْ يَوْمَ أُنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَا نَبِيَّهُمُ الْعَذَابُ فِيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّحِبِّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعُ الرَّسُولَ أُولَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٣﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٤٤﴾

اليوم الذي تشخص فيه الأبصار: كان الحديث في الآيات السابقة عن يوم الحساب، وبهذه المناسبة تجسم هذه الآيات حال الظالمين والمتجبرين في ذلك اليوم، ثم تبين المسائل المتعلقة بالمعاد وتكمل الحديث السابق حول التوحيد وتبدأ في تهديد الظالمين: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾.

وهذا في الواقع جواب لأولئك الذين يقولون: إذا كان لهذا العالم إله عادل فلماذا يترك الظالمين وحاهم؟ هل هو غافل عنهم أم لا يستطيع أن يمنعهم وهو يعلم بظلمهم؟ فيجيب القرآن الكريم على ذلك بأن الله ليس غافلاً عنهم أبداً، لأن عدم عقابهم مباشرة هو أن هذا العالم محل الامتحان والاختبار وتربية الناس، وهذا لا يتم إلا في ظل الحرية، وسوف يأتي يوم حسابهم ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدَتْهُمْ أَسْوَابُهُمْ﴾.

«تشخص»: من مادة «الشخص» بمعنى توقف العين عن الحركة والنظر إلى نقطة بدهشة؛ و«مهطعين»: من مادة «إهطاع» بمعنى رفع الرقبة؛ و«مقنعي»: من مادة «الإقناع» بمعنى رفع الرأس عالياً.

إن بيان هذه الصفات الخمس: تشخص الأبصار، مهطعين، مقنعي رؤوسهم، لا يرتدُّ إليهم طرفهم، أفندتهم هواء، صورة بليغة لهول وشدة ذلك اليوم على الظالمين الذين كانوا يستهزئون بكل شيء، وأصبحوا في هذا اليوم لا يستطيعون حتى تحريك أجفان أعينهم.

فهؤلاء كانوا يعتقدون بكمال عقولهم ويعدّون الآخرين من الحمقى، فأصبحوا اليوم مدهوشين لدرجة أنّ نظرهم نظر المجانين، بل الأموات... نظر جاف عديم الروح ومليء بالرعب والفرع....

نعم، عندما يريد القرآن الكريم أن يصوّر منظراً أو يجسّم موقفاً يستخدم أقصر العبارات في أكمل بيان كما في الآية أعلاه.

ولكي لا يعتقد أحد أنّ هذه المجازات تتعلق بمجموعة معينة، يقول تعالى لنبيه الكريم: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ تَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِزْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ حتى نستفيد من هذه الفرصة ثم ﴿نُحِبُّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾ ولكن هيهات إنّ ذلك محال ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِمَّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ﴾ * وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال. فكلّ هذه الدروس لم تؤثر بكم وأدمتم ظالمكم وجوركم، والآن وبعد أن وقعتم في يد العدالة تطلبون تمديد المدّة؟ لقد إنتهى كل شيء.

وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِنَزُولِ
مِنَهُ الْجِبَالِ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعِدَّتُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ
﴿٤٧﴾ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾
وَتَرَى الْمَجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِّن قَطِرَانٍ
وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ
الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ ۗ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ
لِيَذْكُرُوا أَهْلَ الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

لا فائدة من مكرهم: أشارت الآيات السابقة إلى نوع من عقاب الظالمين، وفي هذه الآيات أيضاً أشارت - أولاً - إلى جزء من أفعالهم، ومن ثم إلى قسم آخر من جزائهم الشديد وعقابهم الأليم. تقول الآية الأولى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾.

لقد عملوا كل ما بوسعهم من أجل طمس حقائق الإسلام، بدءاً من الترغيب والتهديد وحتى الأذى ومحاولات القتل والإغتيال وبتّ الشائعات، ومع كل ذلك فإنّ الله مطلع على

جميع مؤامراتهم وقد أحصى أعمالهم: ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾. فلا تقلق فإنهم لا يستطيعون بمكرهم هذا أن يصيبوك بسوء حتى ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾.

«المكر»: بمعنى الإحتيال، فمرةً يلزمه الفساد ومرةً أخرى لا يلزمه، والمراد بكون مكرهم عند الله إحاطته تعالى به بعلمه وقدرته.

ثم يتوعد الله الظالمين والمسيئين مرةً أخرى من خلال مخاطبة النبي ﷺ: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلِّفًا وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ لأن الإخلاف يصدر من الذي ليست له قدرة واستطاعة، ولكن: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

وهذه الآية مكتملة للآية التي قبلها ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾. وتعني أن المهلة التي أعطيت للظالمين ليست بسبب أن الله غافل عنهم وعن أعمالهم ولا مخلف لوعده، بل سينتقم منهم في اليوم المعلوم.

ثم يضيف تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾. وسوف يتجدد كل شيء بعد الدمار، ويبعث الإنسان في خلق جديد وعالم جديد يختلف في كل شيء عن هذا العالم، في سعته، في نعيمه وعقابه وسيظهر الإنسان بكل وجوده لله تعالى: ﴿وَتَزُولُ لِلَّهِ أُلُوَابُ السَّمَوَاتِ﴾.

معنى بروز الناس لله تعالى، إنكشاف بواطن وظواهر جميع الناس في يوم المحشر، فالظهور بالقياس إلى علمنا وليس إلى علم الله المطلق.

ووصفه بالقهار دليل على تسلطه على كل الأشياء وسيطرته على ظاهرها وباطنها. وتصور الآية التالية كيفية بروزهم إلى الله فتقول: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾.

«الأصفاذ»: جمع «صفا» بمعنى الغل؛ و«مقرنين»: من مادة «القرن والإقتران» بمعنى الأشخاص المتقاربين مع بعضهم البعض.

إن هذا الغل هو عبارة عن تجسيد للروابط العملية والفكرية بين المجرمين في هذه الدنيا، حيث كان يساعد بعضهم البعض على الظلم والفساد، وتتجسد هذه العلاقة في الآخرة بصورة سلاسل تربطهم فيما بينهم.

ثم يتطرق القرآن الكريم إلى لباسهم والذي هو أحد أفراد المجازاة الشديدة: ﴿سَوَابِلُهُمْ مِنْ قِطْرَانٍ وَتَغَشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾.

«سراييل»: جمع «سربال» على وزن «مثنقال» بمعنى القميص من أي قماش كان.
و«قطران»: بفتح القاف وسكون الطاء أو بكسر القاف وسكون الطاء، وهي مادة تؤخذ
من شجرة الأبهل ثم تُغلى فتتخّن وتُطلى بها الإبل عند إصابتها بمرض الجرب، فهي مادة
سوداء ننتة وقابلة للإشتغال.

وعلى هذا أنهم يلبسون ثياباً من مادة سوداء ومنتنة وقابلة للإشتغال، حيث تمثل أسوأ
الألبسة لما كانوا يعملونه في هذه الدنيا من إرتكاب الذنوب والفواحش. وسوادها يشير إلى
أن الذنوب تؤدّي إلى أن يكون الإنسان مسودّ الوجه أمام ربه، وتعقّبها يشير إلى تلوث
المجتمع بهم ومساعدتهم على إشعال نار الفساد، وكان القطران تجسيداً لأعمالهم في الدنيا.

كل ذلك لأجل ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾. ومن الطريف أنه لم يقل أن الجزاء بما
كسبت أنفسهم، بل يقول: «ما كسبت» ليكون تجسيداً حياً لأعمالهم، وهذه الآية بهذا
التعبير الخاص دليل آخر على تجسّم الأعمال
وفي الختام يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. وهذا واضح تماماً لأن كل إنسان
حسابه معه.

وورد في الخبر: «إن الله تعالى يعاسب الخلائق كلهم في مقدار لمح البصر». ولا ريب أن الله
تعالى لا يحتاج إلى وقت لحاسبة الأفراد، وما جاء في الرواية أعلاه إشارة إلى أقصر
الفرات.

وبما أن آيات هذه السورة - وكذلك جميع الآيات - لها جانب الدعوة إلى التوحيد وإبلاغ
الأحكام الإلهية إلى الناس وإنذارهم، يقول تعالى في آخر آية من هذه السورة: ﴿هَذَا بَلَاغٌ
لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.

بداية وختام سورة إبراهيم؛ وكما رأينا فإن سورة إبراهيم ابتدأت في بيان دور القرآن
الكريم في إخراج الناس من الظلمات إلى نور العلم والتوحيد، وانتهت في بيان دور القرآن في
إنذار الناس وتعليمهم التوحيد.

إن هذه البداية والنهاية تبين هذه الحقيقة، وهو أن كل ما نحتاجه موجود في هذا القرآن،
حيث يقول الإمام علي عليه السلام: «هو ربيع القلوب وينابيع العلم»... «فاستشفوه من أدوائكم»

وهذا البيان دليل على خلاف ما يراه بعض المسلمين من أنّ القرآن الكريم كتاب مقدس يقتصر وجوده في ترتب الثواب لقارئه. بل هو كتاب شامل لجميع مراحل الحياة الإنسانية. كتاب رشد وهداية ودستور للعمل، فهو يذكر العالم ويستلهم منه عموم الناس. إنّ هجران القرآن الكريم وإتخاذ المبادئ المنحرفة الشرقية منها والغربية، أحد العوامل المهمة في تأخر المسلمين.

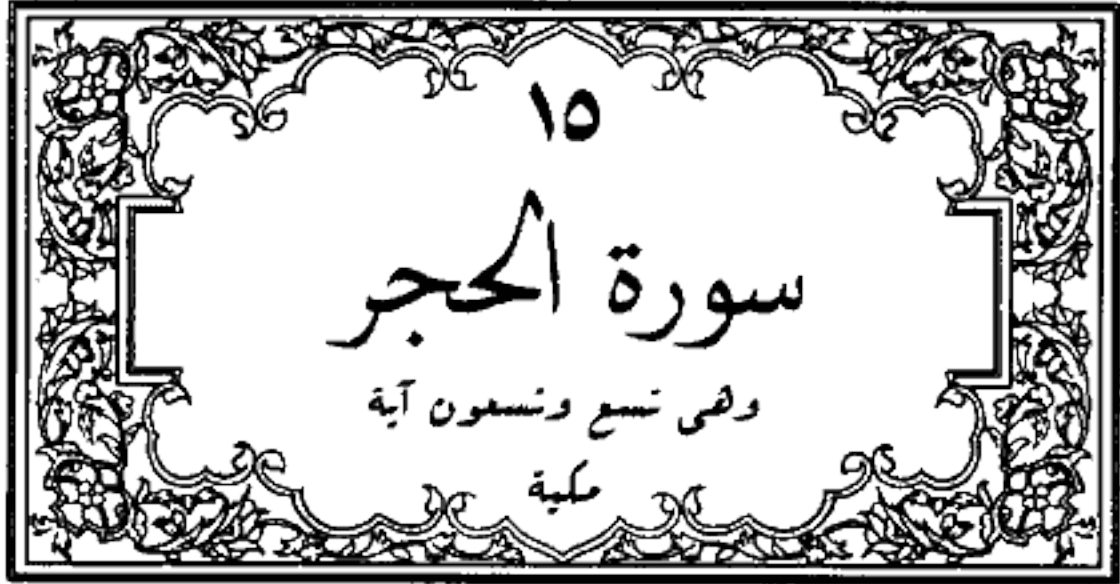
«نهاية تفسير سورة إبراهيم»



مركز تحقيقات كميوتير علوم إسلامي



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



- محتوى السورة:** المشهور عند جلّ المفسرين أنّ سورة الحجر مكية، وهي السورة الثانية والخمسون من السور التي نزلت على النبي الأكرم ﷺ في مكة المكرمة. ويمكننا تلخيص ما حوته السورة في سبع نقاط:
- ١- الآيات المتعلقة بمبدأ عالم الوجود، والإيمان به من خلال التدبّر في أسرار الإيجاد.
 - ٢- الآيات المتعلقة بالمعاد وعقاب الفجرة الفسقة.
 - ٣- أهمية القرآن باعتباره كتاباً سماوياً.
 - ٤- محاولة إيقاظ وتنبيه البشر من خلال طرح قصة خلق آدم، وتمرد إبليس، وتبيان عاقبة التمرد.
 - ٥- زيادة في محاولة الإيقاظ والتنبيه من خلال عرض القصص القرآني لما جرى لأقوام لوط وصالح وشعيب عليهم السلام.
 - ٦- إنذار وبشارة، مواعظ لطيفة وتهديدات عنيفة، إضافة إلى المرغبات المشوّقة.
 - ٧- مخاطبة النبي ﷺ لتقوية صبره وثباته قبال ما يحاك من دسائس.
- وقد اختير اسم السورة من الآية الثمانين التي ذكرت قوم صالح بأصحاب الحجر، وهي السورة الوحيدة في القرآن التي ذكرتهم بهذه التسمية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّتِّكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رَبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا
 مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾
 وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا
 وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٥﴾

سورة أخرى تفتتح بالحروف المقطعة ﴿الر﴾ لتبين من جديد أن مفردات كتاب نور
 السماء إلى ظلام أهل الأرض، ما هي إلا عين تلك الأبجدية التي تلوك ألفاظها ألسن كل
 البشر، صغيرهم وكبيرهم، بين مختلف اللغات، ومع ذلك فلا يستطيع أي مخلوق الوصول
 لبناء وتركيب كلام القرآن، وهو ذروة التحدي الرباني المعجز، وعليه فقد جاءت ﴿رَّتِّكَ
 ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ مباشرة، لأنه يظهر الحقائق ويبين الحق من الباطل.

ثم يحذر الذين يصرون على الفساد ومخالفة آيات الله الجليلة، ويخبر بأنهم سوف يندمون
 حين ينكشف الغطاء يوم القيامة بما كسبت أيديهم من كفر وتعصب أعمى وعناد. ويقول:
 ﴿رَبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾.

فالمراد بكلمة «يوء» التمني وذكر كلمة «لو» للدلالة على تمنيه الإسلام في وقت لا
 يمكنهم فيه العودة إلى ما كانوا ينكرون، وهذه إشارة إلى أن تمنيهم سيكون في العالم الآخر
 وبعد معاينة نتائج الاعمال.

يمكن حمل الآية على ندم بعض من الكافرين في كلا العالمين (الدنيا والآخرة)، واعتبار
 عدم استطاعتهم العودة إلى الإسلام في حياتهم الدنيا وفي الآخرة لجهات مختلفة.
 ثم يأتي نداء السماء بلهجة لاذعة، يا محمد: ﴿ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ
 يَعْلَمُونَ﴾. فهم كالأنعام التي لا تعرف سوى الحقل والعلف، ولا تفهم سوى اللذات المادية،
 وكل ما تريده لا يتعدى إطار ما تعرف وتفهم.

إنهم لا يدركون فقه الحقائق، لأن حجب الغرور والغفلة والأمانى الزائفة ختمت على
 قلوبهم.

ولكن، عندما يصفع الأجل وجوههم وترتفع تلك الحجب عن أعينهم، وحينما يجدون

أنفسهم أمام الموت أو في عرصة يوم القيامة، هنالك سيدركون عظمة حجم غفلتهم ومدى خسرانهم، وكيف أنهم قد ضيعوا أغلى ما كانوا يملكون.

الآية التالية توضّح محدودية اللذائذ الدنيوية لكي لا يظن أحد إنها خالدة فتقول: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾.

ثم يقول تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَجِزُونَ﴾.

فقد سرت سنة الباري جلّ شأنه بأن يعطي المدة الكافية لرجوع المضللين إلى بارئهم، من خلال ابتلائهم بالشدائد الصعبة تارة، وبفيوضات الرخاء تارة أخرى، فمن لا تنفعه البشارة يأتيه الإنذار وهكذا، كل ذلك إتماماً للحجة عليهم.

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ
إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنظِرِينَ ﴿٨﴾

طلب نزول الملائكة: تبتدىء الآيات بشيآن موقف العداء الأعمى والتعصب الأصم للقرآن الحكيم والنبي الأكرم ﷺ من قبل الكفار، فتقول: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾.

ومن خلال كلامهم يظهر بجلاء مدى وقاحتهم وسوء الأدب الذي امتازوا به حين مخاطبتهم للنبي ﷺ.

الملفت في التهم الموجهة إلى أنبياء الله تعالى أنها تحمل بين طياتها تضاداً واضحاً يلتمس بأدنى تدبّر، ففي الوقت الذي يرمون النبي بالمجنون يعودون ويقولون عنه: إنه لساحر، فع أن الساحر لا بد له من الذكاء والنباهة، فهل يعقل أن يكون الساحر، مجنوناً؟! إنهم لم يكتفوا بنسبة المجنون إلى النبي ﷺ بل تحججوا قائلين: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾.

فيجيبهم الباري جلّ شأنه: ﴿مَا نُنزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنظِرِينَ﴾. وبعبارة أخرى: فالإعجاز ليس أمراً ترفيهاً يناغي تصورات الآخرين بقدر ما هو حجة إلهية لإثبات الحق وإمطة الباطل.

وقد أشبعت هذه الحقيقة بصورة وافية لمن يرى النور نوراً والظلام ظلاماً من خلال ما أوصله نبي الخاتم ﷺ عن طريق القرآن والمعاجز الأخرى.

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٠﴾

حفظ القرآن من التحريف: بعد أن استعرضت الآيات السابقة تحجج الكفار واستهزاءهم بالنبي ﷺ والقرآن، تأتي هذه الآية المباركة لتواسي قلب النبي ﷺ من جهة ولتطمئن قلوب المؤمنين المخلصين من جهة أخرى، من خلال طرح مسألة حيوية ذات أهمية بالغة لحياة الرسالة، ألا وهي حفظ القرآن من التلاعب والتحريف: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. فبناء هذا القرآن مستحکم وشمس وجوده لا يغطيها غبار الضلال، ومصباح هديه أبدي الإنارة، ولو اتحد أعتى جبابرة التاريخ وطغاته وحكامه الظلمة، محفوفين بعلماء سوء، ومزودين بأقوى الجيوش عدّة وعتاداً، على أن يخذلوا نور القرآن، فلن يستطيعوا، لأن الحكيم الجبار سبحانه تعهد بحفظه وصيانيته.

وقد اختلف المفسرون في دلالة (حفظ القرآن) في هذه الآية المباركة، والصحيح، وفقاً لظاهر الآية المذكورة، أن الله تعالى وعد بحفظ القرآن من جميع النواحي: من التحريف، من التلف والضياع، ومن سفسات الأعداء المزاجية ووساوسهم الشيطانية. المشهور بين أوساط جلّ علماء المسلمين، أن القرآن لم يتعرض لأي نوع من التحريف، وأن الذي بين أيدينا هو عين القرآن الذي نزل على صدر الحبيب محمد النبي ﷺ. فلا زيادة أو نقصان، حتى بكلمة واحدة، أو بحرف واحد.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

العناد والتعصب: تواسي الآيات قلب النبي ﷺ وقلوب المؤمنين لما كانوا يواجهونه من صعاب في طريق دعوتهم، من خلال الإشارة إلى صراع الأنبياء السابقين مع أقوامهم الضالة والمتعصبة. فنقول أولاً: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾. ولكنهم من العناد والتعصب لدرجة: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. ذلك الاستهزاء وتلك السخرية لاعتبارات عدّة:

- مرة، يريدون بالسخرية إسقاط شخصية النبي كي لا يؤثر في أوساط الفئة الواعية.
- وأخرى، يحاولون بالإستهزاء تغطية ضعفهم وعجزهم أمام المنطق القوي والحسج الدامغة لرسول الله عز وجل.

- وأخرى، محاولة تخدير وجدانهم السارح في المتاهات كي لا يصحوا على حين غرة فيعتق الحق وينهض بأعباء مسؤوليته.

- وأخيراً، لقبولهم لدعوة الأنبياء ﷺ - حسب تصورهم - يستلزم تقويضاً لكل شهواتهم الدنيوية، وتحميلهم وظائف جديدة لا يطيقونها، فليجؤون للإستهزاء لتبرير إعراضهم وانكارهم وإراحة ضمائرهم.

ثم يقول جلّ وعلا: ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾. أي: نوصل الآيات القرآنية إلى أعماق وجدانهم وعقولهم.

ومع وضوح البلاغ والتأكيد وبيان المنطق الرباني وإظهار المعجزات، ترى المتعصبين المستهزئين ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ وهو ليس بجديد ﴿ وَقَدْ خَلَّتْ سُنَّةُ الْأُولَى ﴾.

ويصل أمر الغارقين في شهواتهم والمصرين في عنادهم على الباطل إلى أنهم لا يؤمنون حتى ﴿ وَتَوَفَّتْخَنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾. ومع ذلك ﴿ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾.

عجبا، أن يصل الإنسان لهذا الدرك من العناد والتعصب.

إنّ الذنوب والجهل ومعاداة الحق تؤثر على الروح الطاهرة والقطرة السليمة، فتحجبها عن رؤية وجه الحقيقة الناصع، وتمنعها من إدراك الحقائق، وإذا لم يتمكن الإنسان من رفع تلك الحجب وإزالة الموانع، فإنّ صورة الحق ستلوث في نظره فينكر كل ما هو معقول ومحسوس معاً، ومن الممكن تطهير الفطرة في المراحل الأولى، ولكن إذا رسخت في قلبه هذه الحالة وتجذرت وأمسّت «ملكة» وصفة أخلاقية، فلا يمكن ازالتها بسهولة، وعندها سوف لا تترك أقوى الأدلة العقلية ولا أوضح الأدلة الحسية أيّ تأثير في قلبه.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ

شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ، شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾

تشير الآيات إلى جانب من عالم المخلوقات لتعميق معرفة وتوحيد الله، وبسياقها

جاءت تكملةً لبحني القرآن والنبوة المذكورين في الآيات السابقة. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾.

«البروج»: جمع «برج» ويعني «الظهور» ولهذا يطلق على البيت الذي يبني في سور المدينة أو على سور الحصن الذي يعتصم به المقاتلون، وذلك لما له من بروز وارتفاع خاص. ويقال كذلك (تبرجت) للمرأة التي تظهر زينتها.

والبروج السماوية: هي منازل الشمس والقمر. وبعبارة أقرب إلى الذهن: لو نظرنا إلى الشمس والقمر بإمعان فسراها في كل فصل من فصول السنة ولفترة زمنية معينة يقابلان أحد الصور الفلكية (الصور الفلكية: مجموعة نجوم على هيئة خاصة) فنقول: إن الشمس في برج الحمل^١ - مثلاً - أو الثور أو الميزان أو العقرب أو القوس.

ويعتبر وجود الأبراج السماوية، وكذلك النظام الدقيق في حركة منازل الشمس والقمر ضمن هذه البروج (وهو التقويم المجسم لعالم وجودنا)، من الأدلة الواضحة على علم وقدرة الخالق جلّ وعلا.

ثم يضيف: ﴿وَرَبَّانَاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾

ويضيف في الآية التالية: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مَنْ أَسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ﴾.

مرآة تحتية كريمة بعلوم ربانية

إن المقصود من السماء هو سماء الحق والحقيقة، وأن الشياطين ذوي الوسوس يحاولون أن يجدوا سبيلاً لاختراق السماء واستراق السمع، ليتمكنوا من إغواء الناس بذلك، ولكن النجوم والشهب (وهم القادة الربانيون من الأنبياء والأئمة والعلماء) يبعدونهم ويتردونهم بالعلم والتقوى.

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِيهَا مَعْيِشًا وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُمْ رِزْقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾

وإتماماً لما سبق يتناول القرآن بعض آيات الخلق، ومظاهر عظمة الباري على وجه البسيطة، ويبدأ بنفس الأرض ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾.

١. «الحمل»: مجموع منظومات شمسية تظهر في السماء على هيئة الحمل تقريباً. وكذلك الثور والميزان وغيرها.

«المد»: في الأصل بمعنى التوسعة والبسط، ومن المحتمل أن يراد به إخراج القسم اليابس من الأرض من تحت الماء.

ثم يتطرق إلى خلق الجبال بما تحمله من منافع جمّة كآية من آيات التوحيد: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾.

عبر سبحانه عن خلق الجبال بالإلقاء، ولعلّ المراد به «إلقاء» هنا بمعنى (إيجاد). ومن بديع خلق الجبال إضافةً إلى كونها أوتاداً لتثبيت الأرض وحفظها من التزلزل نتيجة الضغط الداخلي، فإنّها تقف كالدرع الحصين في مواجهة قوّة العواصف، بل وتعمل على تنظيم حركة الهواء وتعيين اتجاهه، ومع ذلك فهي المحل الأنسب لتخزين المياه على صورة ثلوج وغيون.

ثم ينتقل إلى العامل الحيوي الفعال في وجود الحياة البشرية والحيوانية، ألا وهو النبات: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾.

يتنوع على وجه البسيطة مئات الآلاف من النباتات، وكل تحمل خواصاً معينة ولها من الآثار ما يميّزها عن غيرها، وهي باب لمعرفة الباريء المصوّر جلّ شأنه، وكل ورقة منها كتاب ينطق بمعرفة الخالق.

وبما أنّ وسائل وعوامل حياة الإنسان غير منحصرة بالنبات والمعادن فقط، ففي الآية التالية يشير القرآن الكريم إلى جميع المواهب بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾.

ليس لكم فقط، بل لجميع الكائنات الحيّة حتى الخارجة عن مسؤوليتكم ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾.

نعم، لقد كفيينا الجميع احتياجاتهم.

«معايش»: جمع «معيشة» وهي الوسائل والمستلزمات التي تتطلبها حياة الإنسان، والتي يحصل عليها بالسعي تارة، وتأتيه بنفسها تارة أخرى.

أما آخر آية من الآيات المبحوثة، فتحتوي جواباً لسؤال طالما تردد على أذهان كثير من الناس، وهو: لماذا لم تهباً النعم والأرزاق بما لا يحتاج إلى سعي وكدح؟ افتنطق الحكمة الإلهية جواباً: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾. فليست قدرتنا محدودة حتى نخاف نفاد ما نملك، وإنما منبع ومخزن وأصل كل شيء تحت أيدينا، وليس من الصعب علينا خلق أي شيء وبأي وقت يكون، ولكن الحكمة إقتضت أن يكون كل شيء في هذا

الوجود خاضعاً لحساب دقيق، حتى الأرزاق إنما تنزل إليكم بقدر.

ونقرأ في الآية (٢٧) من سورة الشورى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾.

إنّ السعي والكدح في صراع الحياة يضفي على حركة الإنسان، الحيوية والنشاط، وهو بقدر ما يعتبر وسيلة سليمة ومشروعة لتشغيل العقول وتحريك الأبدان، فإنه يطرد الكسل ويمنع العجز ويحيي القلب للتحرك والتفاعل مع الآخرين. وإذا ما جعلت الأرزاق تحت اختيار الإنسان بما يرغب هو لا حسب التقدير الرباني، فهل يستطيع أحد أن يتكهن بما سيؤول إليه مصير البشرية؟

والفقر والغنى من البلاء الذي يدخل ضمن مخطط التمحيص والإمتحان، فكما أنّ الفقر والعوز قد يجرّان الإنسان نحو هاوية السقوط في مهالك الانحراف، فكذلك الغنى في كثير من حالاته يكون منشأً للفساد والطغيان.

وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِحَشْرِهِمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

دور الرياح والأمطار: بعد أن عرض القرآن الكريم في الآيات السابقة قسماً من أسرار الخليقة والنعمة الإلهية كخلق الأرض والجبال والنباتات وما تحتاجه الحياة من مستلزمات، يشير في أولى الآيات المبحوثة إلى حركة الرياح وما لها من آثار في عملية نزول المطر، فيقول: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾. «لواقح»: جمع «لاقح».. وهي تشير هنا إلى دور الرياح في تجميع قطع السحاب مع بعضها لتهيئة عملية سقوط الأمطار.

ويمكن حمل ﴿مَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ على أنها إشارة لحزن ماء المطر في السحب قبل نزوله، أي: إنكم لا تستطيعون استملاك السحب التي هي المصدر الأصلي للأمطار. ويمكن حملها على أنها إشارة إلى جمع وخزن الأمطار بعد نزولها، أي إنكم لا تقدر

على جمع مياه الأمطار بمقادير كبيرة حتى بعد نزوله، وأن الله عزّ وجلّ هو الذي يحفظها ويخزنها على قمم الجبال بهيئة ثلوج، أو ينزلها في أعماق الأرض لتكون بعد ذلك عيوناً وآباراً.

ثم ينتقل من مظاهر توحيد الله إلى المعاد ومقدماته: ﴿وَأِنَّا لَنَنخُنُّ نُخْرٍ وَنُصِيتُ وَنَخُنُّ الْقَوَارِثُونَ﴾. فيذكر مسألة الحياة والموت التي تعتبر من أهم المقدمات لبحث موضوع المعاد، إضافة لكون هذه المسألة من مكملات موضوع التوحيد، بالإضافة إلى أنّ وجود الحياة والموت بحد ذاته دليل على أنّ موجودات هذا العالم لا تملك زمام أنفسها ناهيك عما هو بأيديها، وأنّ الوارث الحقيقي لكل شيء هو الله تعالى.

ثم يضيف: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقِيمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾. أي: نحن على علم بهم وبما يعملون، وإنّ أمر محاسبتهم وجزائهم في المعاد علينا سهل يسير. ولهذا نرى الآية التي تليها: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَخْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾. مرتبطة تماماً مع ما قبلها ومتعمّة من خلال طرحها مسألة ما سيكون بعد الموت... فحكمة الباري أوجبت أن لا يكون الموت نهاية لكل شيء.

فلو أنّ الحياة انحصرت بهذه الفترة الزمنية المحدودة وينتهي كل شيء بالموت لكانت عملية الخلق عبثاً، وهذا غير معقول، لأنّه تعالى منزّه عن العبث.

فالحكمة الإلهية اقتضت من «حياة الدنيا أن تكون مرحلة إستعداد لمسيرة دائمة نحو المطلق». وأمّا كونه سبحانه عليماً فهو عليم بصحائف أعمال الجميع المثبتة في قلب هذا العالم الطبيعي من جهة، وكذلك في أعماق وجود الانسان من جهة أخرى، ولا تخفى عليه خافية يوم يقوم الحساب.

وكونه سبحانه الحكيم العليم في هذا المورد دليل قوي وعميق الغور على مسألة الحشر والمعاد.

إنّ كلمة «المستقدمين» و«المستأخرين» لهما معنيان واسعان يشملان المتقدمين والمتأخرين من حيث الزمان، وكذلك من حيث أعمال الخير والجهاد وحتى الحضور في الصفوف المتقدمة لصلاة الجماعة وما شابهها.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ
السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِيقُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ
﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ
كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَتَّبِعْ بَلِيسَ
مَالِكٍ أَلا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَنْ أَكُونَ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ، مِنْ صَلْصَلٍ
مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى
يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾
إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ
لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ
مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾
وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

خلق الإنسان: بعد ذكر خلق نماذج من مخلوقات الله في الآيات السابقة، تأتي هذه
الآيات لتبين أن الهدف الأساسي من إيجاد كل الخليقة إنما هو خلق الإنسان، وتتطرق
الآيات إلى جزئيات عديدة في شأن الخلق، زاخرة بالمعاني. يقول تعالى في البداية: ﴿وَلَقَدْ
خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾. «الصلصال»: هو التراب اليابس الذي لو
اصطدم به شيء أحدث صوتاً... و«الحما المسنون»: هو طين متعفن.

﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾. «السَّمُوم» لغة: الهواء الحارق، وسمي
بالسَّمُوم لأنه يخترق جميع مسامات بدن الإنسان.

ثم يعود القرآن الكريم إلى خلق الإنسان مرة أخرى فيعرض إلى كلام الله تعالى مع
الملائكة قبل خلق الإنسان: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِيقُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ
مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾. وهي روح شريفة طاهرة جليلة: ﴿فَقَعُوا لَهُ
سَاجِدِينَ﴾.

وبعد أن تمّ خلق الإنسان من الجسم والروح المناسبين ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾.

ولم يعص هذا الأمر إلا إبليس: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾.

وهنا سأل الله إبليس: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾.

فأجاب إبليس بعد أن كان غارقاً في بحر الغرور المظلم، وتائهاً في حبّ النفس المقتم، وبعد أن غطّي حجاب الخسران عقله... أجاب بوقاحة: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾.

ونتيجة للغرور وحبّ النفس، فقد جهل أسرار الخليقة، وكنتيجة طبيعية لهذا السلوك المنحرف فقد هوى من ذلك المقام المرموق بعد أن أصبح غير لائق لأن يكون في درجة الملائكة وبين صفوفهم، فجاء الأمر الإلهي مفرعاً: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾. أي: أخرج من الجنة، أو من السماوات أو أخرج من بين صفوف الملائكة.

واعلم يا إبليس بأنّ غرورك أصبح سبباً لكفرك، وكفرك قد أوجب طردك الأبدي ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾. أي: إلى يوم القيامة.

وهنا... حينما وجد إبليس نفسه مطروداً من الساحة الإلهية، ساوره إحساس بأنّ خلق الإنسان هو سبب شقائه فاشتعلت نار الحقد والضغينة في قلبه لينتقم لنفسه من أولاد آدم ﷺ.

فبالرغم من أنّ السبب الحقيقي يرجع إلى إبليس نفسه وليس لآدم دخل في ذلك، إلا أنّ غروره وحبّه لنفسه وعناده المستحکم لم يعطياه الفرصة لدرك حقيقة شقائه، ولهذا ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، ليركز عناده وعداءه! وقبل الله تعالى طلبه: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾.

ولكن ليس إلى يوم يبعثون كما أراد، بل ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾. وهو: نهاية هذا العالم وانتهاء التكليف، لأنّ بعد ذلك (كما يفهم من ظاهر الآيات القرآنية) تحلّ نهاية حياة جميع الكائنات، ولا يبقى حيّاً إلا الذات الإلهية المقدسة، ومن هذا نفهم حصول الموافقة على بعض طلب إبليس.

وهنا أظهر إبليس نيته الباطنية: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾. وكان هذا الإنسان سبباً لشقائي ﴿لَأَزِيقَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ نعمها المادية ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بإلهائهم بتلك النعم.

إلا أنه يعلم جيداً بأن وساوسه سوف لن تؤثر في قلوب عباد الله المخلصين، وأنهم متحصنون من الوقوع في شباكه، لأن قوة الإيمان ودرجة الإخلاص عندهم بمكان يكفي لدفع الخطر عنهم بتحطيم قيود الشيطان عن أنفسهم... ولهذا نراه قد استثنى في طلبه ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ﴾.

«المخلصين»: جمع مخلص (بفتح اللام) المؤمن الذي وصل إلى مرحلة عالية من الإيمان والعمل بعد تعلم وتربية ومجاهدة مع النفس، فيكون ممتنعاً من نفوذ وساوس الشيطان وأي وساوس آخر.

ثم قال تعالى تحقيراً للشيطان وتقوية لقلوب العباد المؤمنين السالكين درب التوحيد الخالص: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ إِلَّا مَنْ آتَبَكَ مِنَ الْفَاقِينَ﴾. يعني: يا إبليس ليس لك القدرة على إضلال الناس، لكن الذين يتبعونك إن هم إلا المنحرفين عن الصراط المستقيم والمستجيبين لدواعي رغباتهم وميوهم.

ثم يهدد الله بشدة أتباع الشيطان: ﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وأن ليس هناك وسيلة للفرار، والكل سيحاسب في مكان واحد. ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾. هي أبواب للذنوب التي يدخلون جهنم بسببها، وكل يحاسب بذنبه... كما هو الحال في أبواب الجنة التي هي عبارة عن طاعات وأعمال صالحة ومجاهدة للنفس يدخل بها المؤمنون الجنة.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ أَمِينٍ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَ مَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِيٌّ عَبْدِي أَيُّهَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

بعم الجنة الثمان: رأينا في الآيات السابقة كيف وصف الله تعالى عاقبة أمر الشيطان وأنصاره وأتباعه، وأن جهنم بأبوابها السبعة مفتحة لهم. وجرياً على أسلوب القرآن في التربية والتعليم جاءت هذه الآيات المباركات (ومن باب المقارنة) لترفع الستار عن حال الجنة وأهلها وما ترفل به من نعم مادية ومعنوية، جسدية وروحية.

وقد عرضت الآيات ثمانية نعم كبيرة (مادية ومعنوية) بما يساوي عدد أبواب الجنة.
١- أشارت في البدء إلى نعمة جسمانية مهمة: ﴿إِنَّ الْأَمْتُقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾. ويلاحظ
أن هذه الآية قد اتخذت من صفة (التقوى) أساساً لها، وهي الخوف من الله والورع
والالتزام، فهي إذن... جامعة لكافة صفات الكمال الإنساني.

إن ذكر الجنات والعيون بصيغة الجمع إشارة إلى تنوع رياض الجنة وكثرة عيونها، والتي
لكل منها لذة مميزة وطعم خاص.

٢ و٣- ثم تشير الآيات إلى نعمتين معنويتين مهمتين أخريتين (السلامة) و(الأمن)..
السلامة من أي أذى وألم، والأمن من كل خطر، فتقول - على لسان الملائكة مرحبة بهم -:
﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينِينَ﴾.

وفي الآية التالية بيان لثلاث نعم معنوية أخرى:

٤- ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُلُوبِهِمْ مِّنْ غَلٍ﴾. أي: الحسد والحقد والعداوة والخيانة.

٥- ﴿إِخْوَانًا﴾ تربطهم أقوى صلوات المحبة.

٦- ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾.

إن جلساتهم الاجتماعية خالية من القيود المتعبة التي يُعاني منها عالمنا الدنيوي، فلا
طبقية ولا ترجيح بدون مرجح والكل إخوان، يجلسون متقابلين في صف واحد ومستوى
واحد.

٧- ثم تأتي الإشارة إلى النعمة المادية والمعنوية السابعة: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ إنه
ليس كيوم استراحة بهذه الدنيا يقع بين تعب ونصب قبله وبعده، ولا يدع الإنسان يجد
طعم الراحة والاستقرار.

٨- ولا يشغلهم همّ فناء أو انتهاء نعم ﴿وَمَا هُمْ بِمُخْرَجِينَ﴾.

بعد أن عرض القرآن الكريم النعم الجليلة التي ينالها المتقون في الجنة بذلك الرونق المؤثر
الذي يوقع المذنبين والعاصين في بحار لجية من الغمّ والحسرة ويجعلهم يقولون: يا ليتنا
نصيب بعض هذه المواهب، فهناك، يفتح الله الرحمن الرحيم أبواب الجنة لهم ولكن بشرط،
فيقول لهم بلهجة ملؤها المحبة والعطف والرحمة وعلى لسان نبيه الكريم ﷺ: ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي
أَنَا أَنْفَقُورُ الرَّحِيمِ﴾.

وكما هو معهود من الأسلوب القرآني، تأتي العبارات العنيفة حين تتحدث عن الغضب
والعذاب الإلهي لتمنع من سوء الاستفادة من الرحمة الإلهية، ولتوجد التعادل بين مسألتي

الخوف والرجاء، الذي يعتبر رمز التكامل والتربية فيقول وبدون فاصلة: ﴿وَأَنْ عَدَّابِي هُوَ الْعَدَابُ الْأَلِيمُ﴾.

وَنَبِّئْتَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئُونَ
 ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ
 فِيمَا تَبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا ابْشِرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ
 يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ
 ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ
 ﴿٥٩﴾ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾

الضيوف الغرباء: تتحدث هذه الآيات المباركات وما بعدها عن الجنبه التربويه في تاريخ حياة الأنبياء ﷺ وما جرى لهم مع العصاة من أقوامهم، وتطرح الآيات نماذج حيية للاعتبار، لكلا الطرفين (عباد الله المخلصين من طرف وأتباع الشيطان من طرف آخر). ومن لطيف البيان القرآني شروع الآيات بذكر قصة ضيف إبراهيم. فتقول أولاً: ﴿وَنَبِّئْتَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾.

وهؤلاء الضيوف هم الملائكة الذين دخلوا على إبراهيم ﷺ بوجوه خالية من الإيتسامه، فابتدأوه بالسلام ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾.

فقام إبراهيم ﷺ بوظيفته (إكرام الضيف)، فهياً لهم طعاماً ووضعهم أمامهم، إلا أنهم لم يدنوا إليه، فاستغرب من موقف الضيوف الغرباء، فعبر عما جال في خاطره ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئُونَ﴾. وكان مصدر خوف إبراهيم ﷺ مما كان عليه متعارفاً في مسألة رد الطعام أو عدم التقرب منه، فهو عندهم إشارة إلى وجود نية سوء أو علامة عداء.

ولكن الملائكة لم يتركوا إبراهيم في هذا الحال حتى: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾. والغلام العليم: هو (إسحاق)، حيث نقرأ في سورة هود الآية (٧١) أَنَّ امْرَأَةَ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ وَاقِفَةً بِقَرْبِهِ عِنْدَمَا بَشَّرْتَهُ الْمَلَائِكَةُ.

كان إبراهيم يعلم جيداً أنه من المستبعد أن يحصل له ولد ضمن الموازين الطبيعية، (ومع أن كل شيء مقدور لله عز وجل)، ولهذا أجاهم بصيغة التعجب: ﴿قَالَ أَبَشُرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ ثُبُورُونَ﴾. هل البشارة منكم أم من الله عز وجل وبأمره، أجيبيوني كي أزداد اطمئناناً؟

وعلى أية حال... لم يدع الملائكة مجالاً لشك وتعجب إبراهيم حيث ﴿قَالُوا بَشُرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾. فهي بشارة من الله وبأمره، فهي حق مسلم به. وتأكيذاً للأمر ودفعاً لأي احتمال من غلبة اليأس على إبراهيم، قالت الملائكة: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾.

لكن إبراهيم ﷺ طمأنهم بعدم دخول اليأس إلى قلبه، لأنه مطمئن من أن أمر القدرة الإلهية نافذ في جميع أرجاء الكون حتى مع خرق النواميس الطبيعية وبدون الخلل في الموازنة، ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾.

إن الضالين هم الذين لا يعرفون الله وقدرته المطلقة، الله الذي خلق الإنسان ببناءه العجيب المحير من ذرة تراب ومن نطفة حقيرة ليخرجه ولداً سوياً، الله الذي حول نخلة يابسة إلى حامله للثمر بإذنه، الله الذي جعل النار برداً وسلاماً.. هل من شك بأنه سبحانه قادر على كل شيء، بل وهل يصح ممن آمن به وعرفه حق معرفته أن ييأس من رحمته؟! وراود إبراهيم ﷺ - بعد سماعه البشارة - أن الملائكة قد تنزلت لأمر ما غير البشارة، وما البشارة إلا مهمة عرضية ضمن مهمتهم الرئيسية، ولهذا ﴿قَالَ فَمَا حَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾.

ومع علم الملائكة بإحساس إبراهيم ﷺ المرهف وأنه دقيق في كل شيء ولا يقنع بالعموميات، فبيتوا له أمر نزول العذاب على قوم لوط المجرمين باستثناء أهله ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

إن ظاهر تعبير «آل لوط» وما ورد من تأكيد بكلمة «أجمعين» سيشمل امرأة لوط الضالة التي وقفت في صف المشركين، ولعل إبراهيم كان مطلعاً على ذلك، ولذا أضافوا قائلين: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا نُوْنِ الْقَابِرِينَ﴾.

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قومٌ مُنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ
بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِبْ بِأَهْلِكَ
بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَأَتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْبِثْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾
وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَهُمْ هَوْلَاءٌ مَّقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلُ
الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَأَنْقَرُوا اللَّهَ وَ
لَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكْ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ
فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾
فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِّالْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنهَا لِبَسْبِيلٍ مُّقْبِرٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

عاقبة ملهبي قوم لوط طالعتنا الآيات السابقة بقصة اللقاء بين ملائكة العذاب هؤلاء
وبين إبراهيم عليه السلام وهذه الآيات تكمل لنا سير أحداث القصة فتبتدأ من خروجهم من عند
إبراهيم حتى لقائهم بلوط عليه السلام. فنقرأ أولاً: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾.
فالتفت إليهم لوط ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قومٌ مُنكَرُونَ﴾.

يقول المفسرون: قال لهم ذلك لما كانوا عليه من جمال الصورة ريعان الشباب، وهو يعلم
ما كان متفشياً بين قومه من الانحراف الجنسي... فمن جهة، هم ضيوفه ومقدمهم مبارك ولا بد
من إكرامهم واحترامهم، ولكن المحيط الذي يعيشه لوط عليه السلام مريض وملوث.
ولكن الملائكة لم يتركوه وهذه الهواجس طويلاً حتى سارعوا إلى القول: ﴿قَالُوا بَلْ
جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾. أي: إننا جئنا بالعذاب الذي واعدتهم به كثيراً، وذلك لأنهم
لم يعتنوا ولم يصدقوا بما ذكرته لهم.
ثم أكدوا له قائلين: ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾. أي: العذاب الحتمي والجزاء الحاسم لقومك
الضالين.

ثم أضافوا الزيادة التأكيد: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.

فهؤلاء القوم قد قطعوا كل جسور العودة ولم يبق في شأنهم محلاً للشفاعة والمناقشة، كي

لا يفكر لوط في التشفع لهم وليعلم أنهم لا يستحقونها أبداً.
ثم قالت الملائكة للوط: أخرج وأهلك من المدينة ليلاً حين ينام القوم أو ينشغلوا بشرايبهم وشهواتهم، لأجل نجاة الثلثة المؤمنة من قومه (وهم أهله ما عدا زوجته).
﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ وكن خلفهم كي لا يتخلف أحد منهم ولتكون محافظاً ورفيقاً لهم ﴿وَاتَّبِعْ أَذْيَارَهُمْ﴾ وعلى أن يكون نظركم إلى الأمام ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَآمِنُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾. أي: إلى أرض الشام، أو أي مكان آخر يكون فيه الناس مطهرين من هذه الآثام.

ثم ينتقل مجرى الحديث حين يقول تعالى: ﴿وَقَصَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّضْبِحِينَ﴾. أي: سوف لا يبقى منهم أحد عند الصباح.
ومن الملفت للنظر، أن القرآن قد ترك القصة عند هذا الحد وعاد إلى بدايتها ليعرض ما ترك القول فيه - لسبب سنشير إليه فيما بعد - فيقول: ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾. أي: إنهم قد ظنوا بحصول لقمة جديدة سائغة عن طريق ضيوف لوط.
وحيثما سمع لوط أصواتهم وضجيجهم أغمم غمماً شديداً لأجل ضيوفه، لأنه ما كان يدري أنهم ملائكة العذاب إلى ذلك الوقت ولهذا: ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾. أي: إن كنتم لا تؤمنون بالله ولا تصدقون بالنبي ولا تعتقدون بشواب وعقاب، فراعوا حق الضيافة التي هي من السنن المتعارف عليها عند كل المجتمعات سواء كانت مؤمنة أم كافرة، أي بشر أنتم؟ لا تفهمون أبسط المسائل الإنسانية، فإن لم يكن لكم دين فكونوا أحراراً في دنياكم!

ثم أضاف قائلاً: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ أمام ضيفي.
ولكنهم من الوقاحة والإصرار على الانحراف بحيث صاروا لا يشعرون بالحنجل من أنفسهم، بل راحوا يحاججون لوطاً ويحاسبونه، وكأنه إرتكب جرماً في استضافته لهؤلاء القوم ﴿قَالُوا أَوْلَمْ نُنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، باستضافتهم! فلماذا خالفت أمرنا؟!
وكان قوم لوط من البخل بحيث إنهم لا يحبون الضيافة، وكانت مدينتهم على طريق القوافل، ويبررون فعلهم القبيح ببعض الواردين لدفع الضيوف ولأجل أن لا ينزل عندهم أحد من القوافل المارة، وتعارفوا على ذلك حتى أصبح عندهم عادة.
وكما يبدو أن لوطاً كان حينما يسمع بأحد الغرباء يدخل المدينة يسرع لاستضافته خوفاً

عليه من عمل قومه الخبيث، ولما علم أهل المدينة بذلك جاؤوا إليه غاضبين ونهوه عن أن يستضيف أحداً مستقبلاً.

وعليه، فكلمة «العالمين» في الآية أعلاه - كما يبدو - إشارة إلى عابري السبيل، ومن هم ليسوا من أهل تلك المدينة.

وعندما رأهم لوط على تلك الحال من الوقاحة والجسارة، أتاهم من طريق آخر لعلهم يستفيقون من غفلتهم وسكر انحرافهم، فقال لهم: إن كنتم تريدون إشباع غرائزكم فلماذا تسلكون سبيل الانحراف ولا تسلكون الطريق الصحيح (الزواج): ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾.

بما لا شك فيه أن بنات لوط لا يكفين لذلك العدد الهائل من المتحجرين حول داره، ولكن لوطاً الذي كان يهدف إلى إلقاء الحجمة عليهم أراد أن يقول لهم: إنني مستعد إلى هذه الدرجة للتضحية من أجل الضيف، وكذلك لأجل إنقاذكم من الفساد ونجاتهم من الانحراف.

لكن الويل، كل الويل من سكرات الشهوة، الانحراف والغرور والعناد.. التي مسحت عنهم كل قيم الأخلاق الإنسانية وأفرغتهم من العواطف البشرية، والتي بها يحسّون بالحنج والحياء أمام منطلق لوط عليه السلام أو أن يتركوا بيت لوط وينسحبوا عن موقفهم، ولكن أنى لهم ذلك، والأكثرية بسبب عدم تأثرهم بحديث لوط استمروا في غيهم وأرادوا أن يمدّوا أيديهم إلى الضيوف.

وهنا يخاطب الله تعالى نبيه قائلاً: ﴿لَعَنَّاكَ إِنَّهُمْ لَغَيٌّ يَغْمَهُونَ﴾.

وبعد ذلك يبلغ كلام الله تعالى عن هؤلاء القوم الذروة حينما يبين عاقبتهم السيئة في آيتين قصيرتين وبشكل قاطع مليء بالدروس والعبر بقوله: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ﴾. أي صوت شديد عند شروق الشمس.

ويمكن حمل «الصيحة» على أنها صاعقة عظيمة أو صوت زلزلة رهيب.

ولم يكتف بذلك بل شمل العذاب المدينة أيضاً ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾.

وزيد في التنكيل بهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾.

ثم إن نزول هذا العذاب ذو المراحل الثلاث (الصيحة الرهيب، قلب المدينة، المطر الحجري) - رغم أن كل واحدة منهم كانت تكفي لقطع دابر القوم - كان لمضاعفة عذابهم

لشدة فسادهم وجسارتهم وإصرارهم على إدامة التلوّث بتلك القبائح الشنيعة، وكى يكون عبرة لمن يعتبر.

وهنا يخلص القرآن الكريم إلى النتائج الأخلاقية والتربوية فيقول: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾. العقلاء الذين يفهمون الأحداث بفراسطهم وذكايتهم ونظرهم الثاقب ويحملون من كل إشارة حقيقة ومن كل تنبيه درساً.

ولا تتصوروا أن آثارهم ذهبت تماماً، بل هي باقية على طريق القوافل والمارة ﴿وَأَنَّهَا لِبِسْبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾.

ثم تدعو الآية المؤمنين إلى التفكير ملياً في هذه القصة واستخلاص العبر منها: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾
 وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ ﴿٨٠﴾ وَعَآئِنْتُهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ
 ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يُنَجِّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتُهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾
 فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

خاتمة أصحاب الأيكة وأصحاب العنكبوت يشير القرآن الكريم في هذه الآيات إلى قصتين من قصص الأمم السالفة، وهما (أصحاب الأيكة) و(أصحاب الحجر) ليكمل البحث الذي عرضه في الآيات السابقة حول قوم لوط. يقول أولاً: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ﴾. ﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ وعاقبتهم على ظلمهم واستبدادهم..

وجعلنا أرضهم وأرض قوم لوط - المتقدمة قصتهم - على طريقكم ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾. فانظروا إليها وإلى عاقبة أمرهم، واعتبروا يا أولي الألباب.

«الأيكة»: هي الأشجار المتشابكة مع بعضها، و«أصحاب الأيكة»: هم قوم «شعيب» الذين عاشوا في بلدة مليئة بالماء والأشجار بين الحجاز والشام وكانت حياتهم مرفهة ثرية فأصيبوا بالغرور والغفلة، فأدّى ذلك إلى الإحتكار والفساد في الأرض.

وقد دعاهم شعيب عليه السلام إلى التوحيد ونهج طريق الحق، مع تحذيره المكرر لهم من عاقبة أعمالهم السيئة فيما لو استمروا على الحال التي هم عليها.

ومن خلال ما بيّنته الآيات في سورة هود، فإنهم لم ينصاعوا للحق ولم ينصتوا لداعيه حتى جاءهم عذاب الله المهلك.

وورد ذكرهم مفصلاً في الآيات (١٧٦) حتى (١٩٠) من سورة الشعراء.

أما «أصحاب الحجر» فهم قوم عَصَاة عاشوا مرفهين في بلدة تدعى «الحجر» وقد بعث الله إليهم نبيّه صالح عليه السلام لهدايتهم.

ويقول القرآن عنهم: ﴿وَلَقَدْ كَلَّمْنَا أَصْحَابَ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾.

هذه البلدة كانت على طريق القوافل بين المدينة والشام في منزل يسمّى (وادي القرى) في جنوب (تيماء) ولا أثر لها اليوم تقريباً.

ومن الجدير ذكره أنّ القرآن الكريم ذكر مسألة تكذيب الأنبياء في خبر أصحاب الحجر (وكذلك قوم نوح وقوم شعيب وقوم لوط في الآيات ١٠٥ و ١٢٣ و ١٦٠ من سورة الشعراء) بالإضافة إلى أقوام أخر كذّبت الأنبياء عليهم السلام والواضح من خلال ظاهر القصص أنّ لكل قوم كان نبي واحد لا أكثر.

ولعل مجيء هذا التعبير (المرسلين) في هذه الآية، باعتبار أنّ الأنبياء لهم برنامج واحد وهدف واحد، وبينهم درجة من الصلة بحيث إنّ تكذيب أيّ منهم هو تكذيب للجميع.

ويستمر القرآن بالحديث عن «أصحاب الحجر»: ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾. وموقف الإعراض المشار إليه - كما يبدو - هو عدم إستعدادهم لسماع الآيات والتفكر بها.

وتشير الآية إلى أنّهم كانوا من الجدد والدقة في أمور معاشهم وحياتهم الدنيوية حتى أنّهم ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾.

وهو ما يبيّن لنا أنّ منطقتهم كانت جبلية، بالإضافة إلى ما توصّلوا إليه من مدنية متقدمة، حيث أصبحوا يبنون بيوتهم داخل الجبال ليأمنوا من السيول والعواصف والزلازل.

والعجيب من أمر الإنسان، أنّه يحزم أمره لتجهيز وتحصين مستلزمات حياته الفانية، ولا يعير أيّ اهتمام لحياته الباقية، حتى يصل به المآل لأن لا يكلف نفسه بسماع آيات الله والتفكر بها.

وأيّ عاقبة ينتظرون بعد عنادهم وكفرهم غير أن يطبق عليهم القانون الإلهي

الموعددين به (البقاء للإصلاح) وعدم إعطاء حق إدامة الحياة لأقوام فاسدين ومفسدين..
فليس هؤلاء سوى البلاء المهلك، ولهذا يقول القرآن: ﴿فَأَخَلَّتْهُمْ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾.

وكانت «الصيحة» عبارة عن صوت صاعق مدمر نزل على دورهم.

فالعذاب الإلهي لا تقف أمامه الجبال الشاهقة، ولا البيوت المحصنة، ولا الأبدان القوية أو
الأموال الوفيرة، ولهذا يأتي في نهاية قصتهم ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ فَاصْفَحِ
الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي
وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ
عَلَيْهِمْ وَآخِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا
أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ أَنْعِيْنًا ﴿٩١﴾

يعود القرآن بعد طرح قصص الأقوام السالفة - كقوم لوط وقوم شعيب وصالح - إلى
مسألة التوحيد والمعاد، لأن سبب ضلال الإنسان يعود إلى عدم اعتناقه عقيدة صحيحة،
ولعدم إرتباطه بمسألة المبدأ والمعاد، فيشير إليها معا في آية واحدة: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾. فنظامها محسوب ومحكم وهو حق، وكذا هدف خلقها حق.
فيكون هذا النظام البديع والخلق الدقيق المنظم دليلاً واضحاً على الخالق العالم القادر
جلّ وعلا، وهو حق أيضاً، بل هو حقيقة الحق، وكل حق بما هو متصل بوجوده المطلق فهو
حق، وكل شيء لا يرتبط به سبحانه فهو باطل... هذا ما يخصّ التوحيد أمّا المعاد فيقول:
﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ﴾. وإن تأخرت فإنها آتية بالنتيجة.

إنّ هذا العالم إنّما يكون حقاً عندما يكون لهذه الأيام الدنيوية المليئة بالآلام والمتاعب
هدف عال يبرر خلق هذا الوجود الكبير - فليس الغرض من هذه الدنيا أن يعيش فيها
الانسان هذه الحياة وتنتهي - ولهذا فمسألة خلق السماوات والأرض وما بينها إنّما هو من
موقع الحق ويدل على وجود يوم القيامة والحساب، وإلا لكان الخلق عبثاً وليس حقاً،
فتأمل.

وبعد ذلك يأمر الله تعالى نبيّه الكريم ﷺ أن يقابل عناد قومه وجهلهم وتعصّبهم

وعداؤهم بالمحبة والعمو وغيض النظر عن الذنوب، والصفح عنهم بالصفح الجميل، أي غير مصحوب بلامة ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾. لأنك تملك الدليل الواضح على ما أمرت بالدعوة إليه، فلا تحتاج وإياهم إلى الخشونة.

بالإضافة إلى أن الخشونة مع الجهلة غالباً ما تؤدي بهم إلى الردّ بالمثل، بل وبأشد من ذلك.

«الصفح»: هو وجه كل شيء، كوجه الصورة، ولهذا فقد جاءت كلمة «فاصفح» بمعنى أدر وجهك وغيض النظر عنهم.

وبما أن إدارة الوجه وصرفه عن الشيء قد تعطي معنى عدم الإهتمام والنفرة وما شابه ذلك وكذلك معنى العفو والصفح، فقد ذكرت الآية المتقدمة كلمة «الجميل» بعد «الصفح» لكي تحدد المعنى الثاني.

الآية التالية بمنزلة الدليل على وجوب العفو والصفح الجميل، حيث تقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلِّقُ الْعَظِيمُ﴾.

ثم يواسي الله تعالى نبيه الكريم ﷺ أن لا تقلق من وحشية الأعداء وكثرتهم وما يملكون من إمكانات مادية واسعة، لأن الله أعطاك ما لا يقف أمامه شيء: ﴿وَلَقَدْ عَاقَبْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمِ﴾.

اعتبر أكثر المفسرين أن «سبعاً من المثاني» كناية عن سورة الحمد، والروايات كذلك تشير لهذا المعنى. والداعي لذلك كونها تتألف من سبع آيات، لأهميتها وعظمة محتواها فقد نزلت مرتين على النبي محمد ﷺ.

إن الله تعالى قد صرح لنبيه الكريم ﷺ بأنك قد ملكت سنداً عظيماً (القرآن)، ولا تستطيع أي قوة في عالم الوجود أن تصرعه.

وبالذات سورة الفاتحة منه التي لها من المحتوى والأثر بحيث لو إرتبط العبد بربه ولو للحظة واحدة لحلقت روحه لساحة قدس الرب، وهي تعيش حال التعظيم والتسليم والمناجاة والدعاء.

وبعد هذه الهبة العظيمة يأمر الله تعالى نبيه الكريم ﷺ بأربعة أوامر فيقول له أولاً: ﴿لَا تَمُنَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾. فتاع الحياة الدنيا ليست دائمة ولا خالية من التبعات، والحفاظ عليها أمر صعب في أحسن الحالات.

ثم يقول في الأمر الثاني: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لما عندهم من أموال ونعم مادية. في تفسير القمي عن الإمام الصادق عليه السلام: «لما نزلت هذه الآية لا تمدن عينيك؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله من لم يتعز بعزاء الله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، ومن رمى بنظره إلى ما في يد غيره كثر همته ولم يشف غيظه ومن لم يعلم أن الله عليه نعمة إلا في مطعم أو ملبس فقد قصر عمله ودنا عذابه ومن أصبح على الدنيا حزينا أصبح على الله ساخطاً ومن شكوا مصيبة نزلت به فإتسا يشكور به ومن دخل النار من هذه الأمة ممن قرأ القرآن فهو ممن يتخذ آيات الله هزواً ومن أتى ذا ميسرة فيخشع له طلب ما في يديه ذهب ثلثا دينه».

فالأمر الأول يتعلق بعدم الإهتمام والتوجه نحو النعم المادية، والأمر الثاني يتعلق بعدم التأثر لفقدانها.

والأمر الثالث: جاء بخصوص ضرورة اللين والتواضع مع المؤمنين حيث يقول: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

إن هذا التعبير، كناية جميلة عن التواضع والحيمة والملاطفة، فالطيور حينما تريد إظهار حنانها لفراخها تجعلها تحت أجنحتها بعد خفضها، فتجسم بذلك أعلى صور العاطفة والحنان وتحفظهم من الحوادث والأعداء، وتحميمهم من التشتت.

ونصل إلى الأمر الرابع: ﴿وَقُلْ﴾ هؤلاء الكفرة المنعمين بكل حزم ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْغَيْبِيُّ﴾. قل: أنذركم من أمر الله بنزول عذابه عليكم ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾. أي: الذين قسموا الآيات القرآنية أصنافاً، فما كان ينفعهم أخذوه، وما لا ينسجم ومشتياتهم تركوه.

والمؤمن الخالص لا يجرؤ على تجزئة أو تقسيم أو تبويض الأحكام الإلهية.

فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلِنَّهْمَ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

إصدع بما تؤمر: يبين القرآن في أواخر سورة الحجر مصير المقتسمين الذين ذكروا في

الآيات السابقة فيقول: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلَنَّهٗمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

إنَّ عالم السر والعلن ومن لا يخفى عليه ذرة ما في السماوات والأرضين لا يسأل لكشف أمر خفي عليه (سبحانه وتعالى عن ذلك) وإنما السؤال لتفهيم المسؤل قبح فعله، فالسؤال قسم من العقاب الروحي.

ثم يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بقوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾. أي: لا تخف من ضوضاء المشركين والمجرمين، ولا تضعف أو تتردد أو تسكت، بل أدعهم إلى رسالتك جهاراً.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تعتن بهم.

«فاصدع»: من مادة «صدع» وهي لغة بمعنى «الشق» بشكل مطلق، أو شق الأجسام المحكمة بما يكشف عما في داخلها، ويقال أيضاً لألم الرأس الشديد (صداع) وكأنه من شدته يريد أن يشق الرأس. وهي هنا... بمعنى: الإظهار والإعلان والإفشاء.

فالإعراض عن المشركين هنا بمعنى الإهمال، أو ترك مجاهدتهم وحرهم، لأنَّ المسلمين في ذلك الوقت لم تصل قدرتهم - بعد - لمستوى المواجهة مع الأعداء وحرهم.

ثم يطمئن الله تعالى نبيه ﷺ تقوية لقلبه: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾.

ثم يصف المستهزين: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

كأنَّ القرآن يريد أن يقول: إنَّ أفكار وأعمال هؤلاء بنفسها عبث، سخف، حيث يعبدون ما ينحتونه بأيديهم من حجر وخشب، ودفعهم جهلهم لأنَّ يجعلوا مع الله - ما صنعوه بأيديهم - آلهة! ومع ذلك... يستهزؤون بك.

ولمزيد من التأكيد على اطمئنان قلب النبي ﷺ يضيف تعالى قائلاً: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾. فروحك اللطيفة وقلبك الطيب الرقيق لا يتحملان تلك الأقوال السيئة وأحاديث الكفر والشرك، ولذلك يضيق صدرك.

ولكن لا تحزن من قبح أقوالهم ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾. لأنَّ تسبيح الله يذهب أثر أقوالهم القبيحة من قلوب أحبباء الله.

ولهذا نقرأ في رواية نقلها عن ابن عباس أنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أحزنه أمر فزع إلى الصلاة.

ثم يعطي الله نبيه ﷺ آخر أمر في هذا الشأن: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

إنَّ العبادة مدرسة عالية للتربية، لأنها توظف عقل الإنسان، وتوجه فكره نحو المطلق،

وتغسل غبار الذنوب والغفلة من قلبه وروحه، وتنمي فيه الصفات الإنسانية الرفيعة، وتقوي إيمانه وتجعله أكثر وعياً واكبر مسؤولية.

فلا يمكن للإنسان الواقعي أن يستغني عن هذه المدرسة الراقية، أمّا الذين يعتقدون بأنّ الإنسان قد يصل إلى درجة معينة لا يحتاج عندها إلى العبادة، فأولئك إمّا أنهم يعتبرون عملية تكامل الإنسان محدودة وتنتهي بجد معين، أو أنهم لم يدركوا معنى العبادة حقاً.

«نهاية تفسير سورة الحجر»



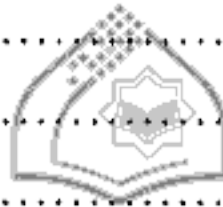
مركز تحقيقات كمبيوتر علوم إرسودي



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم سندھ

الفهرس

٥ سورة الانعام	٦
٩٩ سورة الاعراف	٧
٢٠٣ سورة الانفال	٨
٢٤٣ سورة التوبة	٩
٣٢٥ سورة يونس	١٠
٣٧١ سورة هود	١١
٤٣٥ سورة يوسف	١٢
٤٩٣ سورة الرعد	١٣
٥١٩ سورة ابراهيم	١٤
٥٤٥ سورة الحجر	١٥



مركز تحقيقات الكمبيوتر علوم إسلامي